يوميات خليل السكاكيني

يوميات · رسائل · تأملات

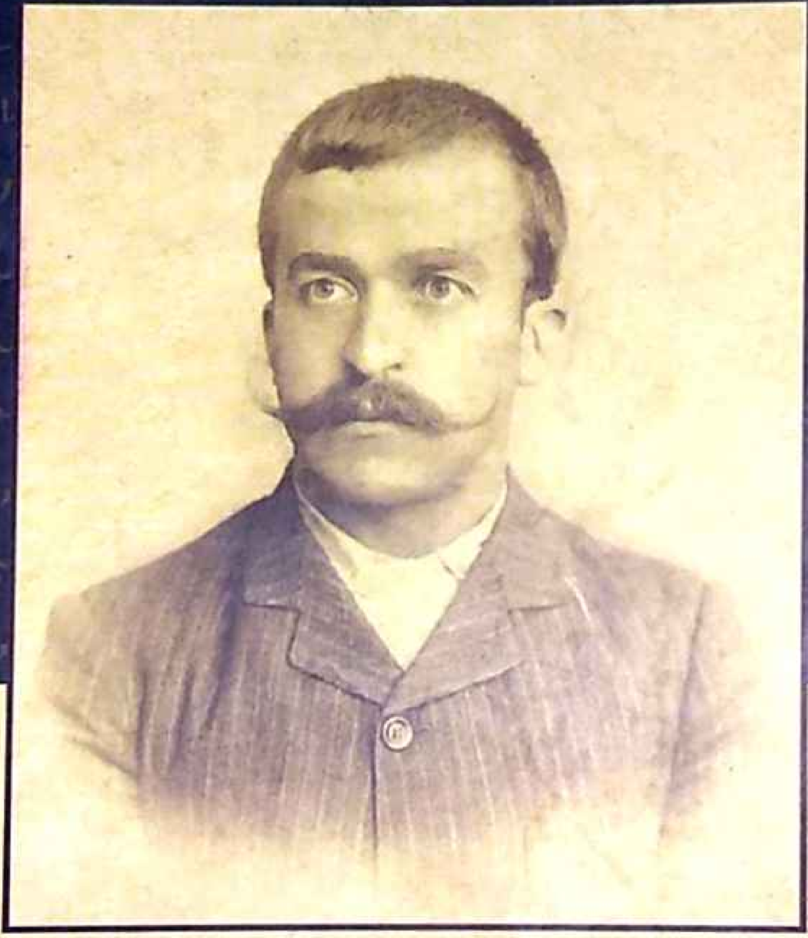

الكتاب الأول

نيويورك · سلطانة · القدس

١٩٠٧ - ١٩١٢

تحرير أكرم مسلّم

مركز خليل السكاكيني الثقافي

مؤسسة الدراسات المقدسية

تم نشر هذا الكتاب بتبرع سخي من

This book was published through a generous contribution from

مؤسسة الأمير كلاوس

The Prince Claus Fund for Culture and Development

The Netherlands

C

Fonds

مؤسسة عبد المحسن القطان

The A. M. Qattan Foundation

مؤسسة فورد

The Ford Foundation

و

وزارة الثقافة الفلسطينية

يوميّات
خليل السكاكيني

يوميّات، رسائل وتأمُّلات

الكتاب الأول

نيويورك .سلطانة .القدس

١٩٠٧ – ١٩١٢

تحرير: أكرم مسلّم

رام الله ٢٠٠٣

يوميات خليل السكاكيني

الكتاب الأول : نيويورك . سلطانة . القدس ١٩٠٧ - ١٩١٢

تحرير : أكرم مسلم

تدقيق لغوي: منذر عامر

تقديم وتعقيب: فيصل درّاج، سليم تماري، وأنطون شماس

الناشر :

مركز خليل السكاكيني الثقافي

مؤسسة الدراسات المقدسية

رام الله - ٢٠٠٣

© جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو استنساخه بأي شكل دون إذن رسمي من الناشر

هيئة التحرير للمجلدات الكاملة :

عادل مناع، عادلة العايدي، عصام نصار، سليم تماري

تصميم الغلاف : لينا صبح، باليترا

طباعة وتنضيد : مؤسسة الأيام - رام الله

The Diaries of Khalil Sakakini
Volume One: New York. Sultana. Jerusalem 1907-1912
Akram Musallam, Editor
© Published by Khalil Sakakini Cultural Centre, Ramallah, and
The Institute of Jerusalem Studies, Jerusalem 2003
ISBN 0-88728-294-6

المحتويات

بمثابة تقديم:

خليل السكاكيني: القضية الوطنية وأحلام المثقف الراقي — فيصل دراج — ٩

الهجرة الأولى:

الحب والجوع في نيويورك — سليم تماري — ٢٧

مقدمة المحرر:

كأنه يحرس أرض الحكاية — أكرم مسلّم — ٤٧

الفصل الاول:

بين أميركا والقدس: قصة غربة واغتراب — ٥٣

الفصل الثاني:

عودة إلى القدس — ٢٨٥

نبذة عن حياة السكاكيني — ٣٥٨

لائحة الصور

سلطانة ١٩٠٧ القدس	٥٥
سلطانة بالزي القروي ١٩٠٦ القدس	٥٩
خليل ١٩٠٦ القدس	٨٧
سلطانة ١٩٠٧ القدس	٩٩
ميليا وخليل ١٩٠٦ القدس	١٥٥
الحي السوري في نيويورك ١٨٩٥	١٧٧
قسطندي السكاكيني والد خليل في منجرته ١٨٨٢	١٩٥
الحي السوري في مانهاتن	٢١٧
مطعم عربي في نيويورك ١٩٠٨	٢٣١
آخر صورة لخليل في مصنع الورق في أمريكا	٢٦١
نقولا عبده والد سلطانة ١٩٠٦	٣١١
سلطانة ١٩١٠ القدس	٣٤٩
نماذج من يوميات السكاكيني بخط يده	٣٥٣–٣٥٧

بمثابة تقديم

خليل السكاكيني : القضية الوطنية وأحلام «المثقف الراقي»

فيصل درّاج

تحتل المذكرات الشخصية أهمية خاصة في التاريخ الفلسطيني ، ذلك أنها ، ذاكرة جماعية مشخصة ، مبرّأة من التخمين ومتحررّة ، نسبياً ، من التشيع الإيديولوجي المباشر . فما كتبه روحي الخالدي ، في نهاية العقد الأول من القرن الماضي ، تحت عنوان : «السيونيزم أو المسألة الصهيونية» ، له شكل ملاحظات يومية ، سجلها الرجل وهو يراقب مستوطنات يهودية ، مستمرة في اتساعها ومنظمة في بنيتها . وهذا حال رسائل نجيب نصار، رائد الصحافة الفلسطينية ومؤسس صحيفة الكرمل ، الذي قام بـ«مسيرة ميدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن» ، في بداية العقد الثاني من القرن الفائت ، وكتب ما رأى في رسائل لها شكل المذكرات . ولا يختلف الأمر لدى محمد عزة دروزة ، الذي ترك وراءه مذكرات شخصية تقع في آلاف الصفحات ، اتكأ عليها حين وضع كتابه : «القضية الفلسطينية» . . . تنطوي هذه المذكرات جميعاً على معارف دقيقة ، تساعد المؤرخ في عمله وتصوّب ما يكتبه في آن .

تنتمي مذكرات خليل السكاكيني إلى المذكرات السابقة ، وتحتل بينها مكاناً متميزاً لأكثر من سبب: فقد غطّت ، ولو بشكل متقطع ، مساحة عقود أربعة تقريباً ، مازجة الذاتي بالموضوعي والشخصي بالوطني . ولم تقتصر ، إضافة إلى ذلك ، على الحيّز السياسي المباشر ، بل قدمت ملاحظات ، موحدة ومشتّتة ، تمس المجتمع الفلسطيني في مرافقه كلها . والى جانب هذا ، فإن في مذكرات السكاكيني ما يبيّن أحوال المثقف الحديث في مجتمع تقليدي ، ذلك أن السكاكيني كان يقول بأفكار متطورة تتجاوز مجتمعه . لهذه الأسباب ، تمثّل مذكراته وثيقة تاريخية ثمينة ، تضيء وجوهاً كثيرة من فلسطين الماضية .

*****

تعلن مذكرات السكاكيني ، في مستوياتها المتعددة ، عن شخصية لامعة تمتاز عن غيرها ، أقامت حياتها على مزيج غريب من التمرد المثمر والمآل الحزين معاً . فهذا الإنسان الفقير ، الذي ألجأه فقره إلى هجرة قصيرة العمر إلى الولايات المتحدة في بدايات القرن الماضي ، مارس حياته وطوّر شخصيته ملتزماً بمبادئ ثلاثة

أساسية تمسك بها طيلة حياته : وأول هذه المبادئ التشبّث بمنظومة أخلاقية صارمة ، قوامها الصدق والنزاهة وشجاعة الرأي وازدراء التكسّب والمجاراة ، الأمر الذي وضع في أفعاله وأقواله أبعاداً طهرانية واضحة. ويتجلى المبدأ الثاني في تقديس العمل الدؤوب المنظم ، وتأكيده تعبيراً عن الإنسان السوي وخالقاً له في آن . ويصدر المبدأ الثالث عن نزوع إلى التمرد الصحيح ، يملي عليه أن يرفض ما يجانب العقل والمنطق، حتى لو أقبل عليه الآخرون وقبلوا به . أنتجت هذه المبادئ الثلاثة شخصية تختلف عن غيرها ، لها دور ثقافي فلسطيني وعربي ، ولها موقع تربوي ريادي في فلسطين وما يحيط بها ، وذات حضور وطني فاعل ، يتوزع على الكتابة والمظاهرة والخطابة ، وعلى مبادرات وطنية نوعية ، اصطدمت في معظم الأحيان بعوائق كثيرة .

آمن خليل السكاكيني (١٨٧٨ - ١٩٥٣) بفكرة :«الإنسان الأعلى» ، التي تأمر الإنسان بالأحلام الكبيرة، وتأمر إرادة الإنسان بتحقيق الحلم الذي راوده . ولعل أفكار الحلم والعُلُوّ والإرادة والسمو هي التي دفعته إلى الإعجاب بنيتشه والمتنبي والسيد المسيح ، والى إكبار الثلاثة جميعاً ، دون اضطراب أو ارتباك . فما أعجبه لدى الفيلسوف الألماني هو «فلسفة القوة» ، كما فهمها ، التي تفصل بين القوي والضعيف ، ولا تلتفت إلى معايير أخلاقية مجردة ، مثل الحق والباطل وما شابههما . وما جذبه إلى السيد المسيح ماثل في المحبة والتسامح والارتقاء بالروح عن مفاسد الأرض ومغرياتها . أما فتنة المتنبي فقائمة في روح طموحة مشتعلة ، تتطلع إلى مثال بالغ البعد لا يراه أحد . عثر السكاكيني عند الأسماء الثلاثة على صفات رفيعة كان يهجس بها ، كما لو كانت الأسماء هذه مرايا لإنسان غريب ، يضيف إلى حياته العملية أحلاماً لا تقبل التحقق. ولعل الانشداد المستمر إلى الحلم ، كما الشعور بالعجز عن تحقيقه ، هو ما جعله يكتب في رسالة إلى ولده «سري» ، الذي كان يدرس في الولايات المتحدة ، الكلمات التالية :

«إني من دعاة ال Superman ، وإني أعرف أن هذه الأمنية التي أطلبها ، وأدعو إليها وأبشر بها ، بعيدة ، وقد تكون بعيدة جداً ، لأني أعرف انحطاط البشر ، ... ، وأعرف أن العقل الحديث لا يزال في أوله ، وأن نفس الإنسان تتركب من ملايين من جراثيم الشر والفساد ، أعرف كل هذا ، ومع ذلك أدعو إلى الرقي في الجسم والعقل والنفس ، وإني متفائل خيرا ..٢٢/١٢/١٩٣١» .

تكشف هذه الرسالة ، الصادرة عن إنسان جاوز الخمسين ، عن طموح قلق وقلق طموح ، دون أن تحجب صفات السكاكيني وغاياته الفاضلة . فهو متمرد على الانحطاط وغثاثة البشر ، وشاعر باختلافه عنهم وبالتفوق عليهم ومؤمن ، باللحظة عينها ، بقوة التقدم ، حتى لو كان بطيئاً ، ومؤمناً أكثر بوظيفته في إرشاد البشر والارتقاء بهم . وعن فكرة التقدم ، التي لازمت جيل السكاكيني المستنير ، صدر التفاؤل الصريح وإيمان بمستقبل إيجابي يجتث مساوئ الحاضر ، بقدر ما صدر إيمان رومانسي ذاتي ، أقنع «أبو سري» بقدرة الإنسان على تجاوز ذاته ، وبإعادة خلق ذاته ، كما يريد ويرغب . وتظهر فكرة «الخلق

الذاتي» في رسالة أخرى إلى ولده ، جاء فيها :

«إذا قرأت «صراع الدعاة» في مجلة الهلال ، عرفت أني أقرب الناس إلى تولستوي ، فقد امتنعت عن الصيد وكنتُ مغرما به ، وامتنعت عن اللحم ، وكنت استلذه ، كما امتنع ، ... ، وعنواني في الحياة عنوانه وهو قوله أن نجاهد ، يجب ألا نضعف ، كلانا من مزاج واحد ، ولعلك تذكر رأيي في التجدد ، فهل هو غير ما دعا إليه تولستوي؟ » .

أُعجب السكاكيني بالأديب الروسي ، مثلما أُعجب بنيتشه والمتنبي ، وسيعجب لاحقاً بغاندي وبوذا وبرتراندرسل ... كاثر المربي الفلسطيني ، الذي انتخب في الشهر الأول من عام النكبة عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة ، مراجعه الفكرية محتفظاً بفكرة المثال الأخلاقي الأعلى ، الذي ينقل «الإنسان النوعي» من طبيعة معطاة أولى إلى أخرى راقية متحررة من الشوائب الاجتماعية . وواقع الأمر أن السكاكيني ، الذي رأى في المدرسة الحديثة «مصنعاً للرجال» ، فصل دائماً بين حالة إنسانية مريضة ، قوامها الشذوذ والاعوجاج، وحالة أخرى قادمة تُستولد من الثقافة والإرادة والأخلاق . وهذا الفصل الباتر بين الخطأ والصواب عبرّ عنه في إحدى رسائله اليومية إلى ولده ، جاء فيها :

«أكره سوء الاستعمال أياً كان مصدره . أكره الحاكم الذي يراعي الخواطر ويحابي الوجوه ، الذي لا يكون عادلاً إلا إذا كان العدل لا يغضب أحداً ولا يرضي أحداً ، الذي لا يكون حازماً إلا مع المستضعفين المنذلين . أكره الحاكم الذي ينظر بغير عينيه ويسمع بغير أذنيه ويسير بغير رأيه ويعتمد على غير عقله ويستسلم إلى غير وجدانه ، بل يكون آلة صماء في أيدي ذوي الأغراض والمطامح يصرفونه كما يشاؤون . أكره الرجل مهما كانت هالته ومنزلته الذي يرى سياسة بلاده متدرجة من رديء إلى أردأ منه لا يحرك ساكناً ، ويسمع عن ظلم الحكام فيضحك ولا يبالي ، ويشاهد سوء الأداة وتعويج القضاء ولا يبذل جهده في إصلاح الحال ... ١٠/٣٠ إلى ١٩٤٣/١١/٦» .

يعاين السكاكيني الممارسات كلها ، داخل السياسة وخارجها ، بمعيار وحيد هو : المسؤولية الأخلاقية ، التي تلتفت إلى العدل والحق وأحوال المجتمع والوطن ، بعيداً عن نماذج منحطة ومتكسّبة ، يحررّها انحطاطها من أنواع المسؤولية جميعها . ولعل معنى المسؤولية ، الذي جاء تحت عنوان :«ما أحب وما أكره» ، هو الذي أملى عليه أن يهاجم بشدة كل مَن انحرف عن الصواب ، غنياً كان يقتات بجوع المضطهدين ، أم رجل دين «لا يخاف الله ولا يستحي من الناس» . بل أن هذه النزاهة الأخلاقية العالية ، هي التي تجعله يرفع صوته عالياً ضد كل منحرف «حتى لو قبّلت أذياله الملوك ، وعظمّه الناس أجمعون ...» . يحررّ المربي الفلسطيني ، الذي قال مرة : «إن سادات هذه الأمة شحاذون وفوق ذلك وقحون» ، الظواهر المتوارثة من هالاتها الشكلانية ، ذاهباً إلى الحق والجميل والحقيقة ، ومؤمناً بأن دور الحاكم الحقيقي إحلال العدل ، مثلما أن على رجل الدين الحقيقي مناصرة الخير ومحاربة الخطأ .

«الله محبة» ، هذا ما كان يردده السكاكيني ، الذي بعد أن تأثر بأفكار فرح انطون ، حين قابله في أمريكا ، تأثر لاحقاً بأفكار عديدة أخرى . فإذا كان الجوهر الإلهي يقوم على المحبة ، فإن الدعوة إلى الكره والمباغضة بعيدة عن الله وعاصية لتعاليمه . والبدء من محبة البشر ، التي هي ظل للمحبة الإلهية ، هو ما دعاه عام ١٩٠٨ إلى التمرد على الطائفة العربية الأرثوذكسية ، التي كان يهيمن عليها أكليروس يوناني يكره العرب ، وهو ما دفعه لاحقاً ، وفي عام ١٩٣٣ ، إلى المساهمة في تأسيس «جمعية الإخاء الأرثوذكسي» . ولعل العودة إلى نشيد هذه الجمعية ، الذي راقبه السكاكيني وأسهم فيه ، يعلن عن جمعية أخلاقية ـ وطنية ، بعيدة عن التعصب الديني وكارهة له ، لأنها ترى إلى الإنسان والوطن ، قبل أن تلتفت إلى أمور أخرى . وواقع الأمر أن المربي الفلسطيني ، وكما تفصح مذكراته بوضوح وبلا مواربة ، كان كارهاً لكل ألوان التعصب والانغلاق ، وخصماً عنيداً لكل أشكال الأكليروس ، مسيحياً كان أم غير مسيحي . وبسبب ذلك ، يسجّل في مذكراته ، بحزن ومرارة ، آثار التعصب الديني ، ذلك أنه ينقض فكرة «الله محبة» ، ويبدّد الجهد الوطني ويترك العدو الصهيوني مرتاحاً . بل أن طغيان التعصب الديني ، في فترات متعددة ، وضع فيه شعوراً بالاغتراب الروحي وبالغربة عن الوطن ، إذ رأى نفسه غريباً عن المسيحيين المتعصّبين وأكثر غربة عن المسلمين المتزمّتين ، بل رأى البعض يقلل من أهمية مواقفه وإنجازاته ، كما لو كانت فلسطين لا تكون فلسطينية حقّه إلا إذا بقي فيها بشر متعصبون ، لا يقبلون بالحوار ولا بفضائل الاختلاف . والتعصب ، كما أمراض اجتماعية أخرى ، هو الذي أملى على السكاكيني ، في مذكراته ، جملاً غاضبة نزقة ، كأن يهجر البلاد ويتركها «تنعي من بناها» ، وهو القائل «لو ترك الناس جميعاً القدس لبقيت فيها وحدي» ، وهو الذي كان يشتعل حماساً وتفاؤلاً ، حين يرى الجموع الفلسطينية تواجه الاحتلال الإنجليزي عزلاء ، إلا من حس وطني عفوي يرفض الاحتلال و«الهجرة اليهودية» .

كتب السكاكيني إلى ولده في السابع من آذار عام ١٩٤٣ السطور التالية :

«لو كُلِّفتُ بوضع قانون إيماني للمسيحيين ، لقلت أؤمن بمبادئ المسيح التي تدعو إلى محبة الناس ، إلى التسامح ، إلى العفو ، إلى الترفع ، إلى العفاف ، إلى الكرم ، إلى النبل . إذا كان اللاهوت أن تعرف شخصية الله وشخصية المسيح وشخصية الروح القدس فلا كان اللاهوت . لقد تركتم أيها اللاهوتيون الجوهر وتمسكتم بالعرض ، لقد تركتم اللباب وتمسكتم بالقشور . . .» .

أراد السكاكيني أن يعيش «مثقفاً راقياً» ، كما كان يقول ، فآمن بالمسيح لأنه آمن أولاً بالقيم الإنسانية الرفيعة ، وآمن بالقيم لأنه كان يؤمن بمحبة الناس ومجابهة ما يمتهن الحق ويبدد حقوق البشر . وكان في ما يفعل ينكر الموجود ويحلم بالوجود كما يجب أن يكون ، ويستنكر «سوء الاستعمال» مشيراً إلى «عمل آخر» ، يفصح عن مفرد كريم يدافع عن ألوان الكرامة كلها . ليس غريباً ، والحالة هذه ، أن يصوغ السكاكيني نشيد الثورة العربية عام ١٩١٨ ، وأن يقول في ساعة نشوة «أستطيع أن أمسك النجوم بيدي وأنا واقف» ،

ثم يستدرك ، في رسالة لاحقة إلى ابنه ، قائلاً :

«لا ، بل أستطيع أنا أمسك بالنجوم وأنا قاعد أيضاً» .

*****

تمرد السكاكيني على الأحكام المتزمتة الضيقة ، وعلى الشروط الاجتماعية التي تنتج عقلاً ضيقاً ، وكرهه الشديد لما يقيّد حرية الإنسان ويصادر رأيه ، دعاه إلى تقديس «المهنة الحرة» وكره «الوظيفة الحكومية» واستنكار ما يسلب الإنسان رأيه الحر . لهذا سارع إلى الاستقالة من إدارة دار المعلمين في القدس ، احتجاجاً على مجيء «هربرت صموئيل حاكماً للبلاد» عام ١٩٢٠ ، ذلك «المندوب السامي» الصهيوني والمتشددّ في صهيونيّته . ومع أن السكاكيني رحل إلى القاهرة كي يكسب رزقه ، فإنه لم يستأنف عمله في دار المعلمين إلا عام ١٩٢٦ ، بعد رحيل المندوب الإنجليزي . وحين دعاه ، لاحقاً ، المندوب السامي الجديد إلى العشاء ، اعتذر عن الدعوة وكتب إلى ولده :

«شعاري في هذه الدنيا : قيمة الإنسان ما يحسنه ، دعاه المندوبون الساميون أم لم يدعوه» .

وبعد هذه الحادثة بسنوات قليلة ، وفي عام ١٩٣٦ ، استقال من عمله في الإذاعة محتجاً على مذيع يهودي يقول : «هنا أرض إسرائيل» ، صارخاً بغضب :

«إذا كانت فلسطين أرض إسرائيل فنحن العرب دخلاء ليس لنا إلا الرحيل» .

وبسبب استقامة لا تتزعزع كان السكاكيني يضطرب اضطراباً شديداً وهو يرى إلى آخرين يحتفون بمصالحهم الصغيرة ويستخفون بالمبادئ جميعها ، كأن يكتب إلى ولده :

«الدنيا يا سري لا تعجبني ، ... ، كيف تعجبني هذه الدنيا وهي دنيا المجرمين المشعوذين المنافقين الأدنياء الطغام فوق الجميع ، جاءت دولة الإنجليز فإذا بهم أنفسهم فوق الجميع ، كيف تعجبني هذه الدنيا ولا قيمة فيها لكفايات ولا فضائل ... » .

إن الطغام عند السكاكيني هم «المتزعّمون» ، بلغة نجيب نصار ، الذين يبرهنون أن الطلاق قائم أبداً بين الوطنية والفساد ، لأن الوطنية فعل أخلاقي ، وأن مَنْ لا أخلاق له ولا قيم يبيع الوطن ومصالحه ، سعياً وراء مصالحه الذاتية .

اعتنق السكاكيني إيماناً مزدوجاً : الإيمان بوجود «الإنسان الأعلى» وبحصاره في آن ، والإيمان بوجود أغلبية بشرية لم يتطور عقلها «بعد» تطوراً كافياً . وإذا كان في هذا الإيمان المتناقض ما يبعث على التشاؤم ، فإن فيه أيضاً ما يمنع الإنسان العاقل عن التعصب والانغلاق . وعبرّ المربي الفلسطيني عن هذا بقوله : «الحرب ليست بين الأفراد بل بين الأمم» ، محيلاً على عزلة العقل وهيمنة الغريزة . وعاد إلى التصريح عنه بوضوح أكبر حين قال :

«أنا لست مسيحياً ولا بوذياً ولا مسلماً ولا يهودياً ، كما إنني لست عربياً ولا إنجليزياً ولا فرنسياً ولا ألمانياً ولا تركياً ، بل أنا فرد من أفراد هذه الإنسانية» .

ليس في القول ما يدلل على عدمية قومية ، فقد كان السكاكيني فخوراً بعروبته ، وليس فيه ما يحيل على وعي قومي خفيف ، فقد كان المربي مثقفاً واسع البصيرة ، إنما هو إعلان عن نزعة إنسانية رحبة ، تعظّم «جوهر الإنسان» وتثق بالتقدم الإنساني . بيد أن المربي ، الذي لازمه القلق بلا انقطاع ، طوى حلمه الإنساني حين جاء وعد بلفور الذي يدعو إلى «إبادة العرب بطريقة هادئة ولكن مستمرة» .

بنى السكاكيني فلسفته النظرية والعملية ، إن صح القول ، على مفهوم واسع للثقافة ، يحتضن المعارف المختلفة والأخلاق اليومية ونصرة الحق في مراجعه الدنيوية والدينية ، منتهياً إلى مبدأ واضح يعيّن الثقافة سلوكاً عملياً راقياً لا أكثر . وقد يعمد التصور الثقافي المدرسي إلى التماس ثقافة السكاكيني في أسماء قرأ أعمالها مثل البحتري والمتنبي وتوفيق الحكيم والشهرستاني ، كما في أسماء فرويد وأدلر وراسل ، إضافة إلى مجلات الهلال والجامعة والرسالة وغيرها . . بيد أن هذا التصور لا يعني شيئاً كثيراً لدى إنسان كان يرى الثقافة ، وليس بعيداً عن طه حسين ، مدخلاً إلى مجتمع جديد ، ينصرف إلى الكيف والمثُل والفضائل ، ولا يكترث بغيرها . فالثقافة عنده هي العقل المتحقق ، والأداة التي تصيرّ العقل عقلاً ، يميزّ بين الشاذ والسويّ والقبيح والجميل والوطني الصادق من المتكسّب الدنيء . يقول في رسالة إلى ولده تاريخها ٣/٢/١٩٤٣ :

«فإذا ملكت قوة التمييز هذه ، انقدتَ بثقافتك الراقية إلى الحق دون الباطل ، والى الحسن دون القبيح ، والى الغث دون السمين . . . فأنت ترى أن العقل يميز ، وأن الثقافة تحفزّ ، لا فائدة من العقل دون ثقافة ، ولا فائدة في الثقافة من غير عقل . بل أن العقل من غير ثقافة قد يكون شراً ، وأن الثقافة من غير عقل قد تكون سخافة والخير كل الخير أن يُجمع بينهما ، العلم للعقل والثقافة للعاطفة ، ولا يكون الرقي رقياً إلا بالعقل والعاطفة» .

سواء صاغ السكاكيني أفكاره باتساق كامل ، أو باتساق منقوص ، فإن الثقافة عنده تحتشد بدلالات كثيرة : فهي المعرفة المفضية إلى الفضيلة ، والفضيلة المحصّنة بالعقل ، وهي العقل الذي يحاكم العالم بوسائل عقلانية ، وآية الارتقاء والتطور والأداة التي «تؤنسن» الإنسان . لا يشكو هذا التصور من «العمومية» ، بقدر ما يشكو من رومانسية طاغية ، تستولد «الإنسان المبتغى» من الأفكار ، وتهمّش الوسائل والشروط العملية .

يرى السكاكيني في الثقافة أداة سامية الأغراض ، قوامها جلاء الروح وتهذيب العاطفة وصقل العقل ، بعيداً عن تصور نفعي يرى الثقافة في مردودها الاجتماعي المباشر ، وفي ما تؤمّنه لـ«المثقف» من مصالح وامتيازات . وهذا ما حمل المربي على التمييز بين «المثقف» و«المتعلّم» وبين «المثقف الراقي» و«حامل الشهادة الجامعية» ، ذلك أن أحدهما مشغول بـ«المثُل» وثانيهما منصرف إلى «المصالح» ؛ كتب في رسالة

إلى ولده :
«سيكون عندنا في المستقبل القريب جيش من خريجي الجامعات العالية ، يفعلون ذلك لا حباً في الثقافة أو اكتساب العلم ، وإنما يفعلون ذلك طمعاً في الوظائف . والوظائف في نظر الكثيرين هي المطلب الأعلى، وهي عندهم عنوان الوجاهة ، فمن نال وظيفة فكأنه انتقل من الطبقة السفلى إلى الطبقة العليا ، ومن خلا من وظيفة سقطت قيمته ونظر الناس إليه نظرة احتقار ، . . . ، ولابدّ أن يجيء دور على الناس يطلبون فيه العلم لأجل العلم ، ويزهدون فيه بالوظائف يؤثرون عليها الأعمال الحرة» .

ينقض السكاكيني الوظيفة بالمهنة الحرة ، وتصور المعرفة النفعي بآخر مغاير يسعى إلى الكيف الإنساني الجديد . وهو ، في الحالين ، يربط بين الثقافة والحرية ، وبين المهنة الحرة والتخلص من قيود السلطة ، مستنكراً تصوراً فلاحياً للثقافة ، يرى الثقافة في الاقتراب من السلطة ، ويرى إلى الوظيفة السلطوية امتيازاً اجتماعياً . وما انبهار الوعي الفلاحي بالشهادات الجامعية ، كما يذهب السكاكيني ، إلا انبهاره بالعمل السلطوي الذي تحققّه الشهادة الجامعية .

ينطوي كره الوظيفة على كره للسلطات السياسية ، بقدر ما يفصح الاحتفال بالمهنة الحرة عن ميل إلى الحرية والاستقلال الذاتي . كأن السكاكيني يضع المهنة في مواجهة الوظيفة والذات النزيهة الحرة مقابل السلطة الضالة المستبدة ، إلى أن يضع الحق في طرف والسلطة الحاكمة في طرف آخر نقيض ، كأن يكتب في ١٩٣٩/٨/٢٦ :

« ما رأينا ملكاً أو أميراً بين الفلاسفة ، ما رأينا ملكاً أو أميراً يبحث في حقوق البشر ، وفي حرية البشر، وفي إصلاح البشر وإسعادهم . بلى رأينا بوذا ، فقد تخلى عن الملك وانضم إلى الصعاليك بعد أن عانى من الشقاء مالا يطاق . وقد يشبهه النعمان الأكبر رب الخورنق والسدير ، فقد اعتزل الملك وترك قصره وهام على وجهه ولم يُرَ بعد ذلك ، ولعله انتحر لأنه رأى في الحياة عبث . هذان في نظري هما الفيلسوفان الحريّان باسم الفلسفة ، وأما فلسفة غيرهم فهي بنت الصدف ، بل تحدثني نفسي أن أقول أنها فلسفة الصعاليك» .

في كلام السكاكيني ما يفصل بين فيلسوف الصدفة وفيلسوف الحقيقة ، إن صح القول ، إذ الأول يتعلم الفلسفة من الكتب والأحلام وإذ الثاني يخلقها ويمارسها . يظل المربي في دائرة الأخلاق الفاضلة ، لأنه يشتق الفلسفة من الصدق ويقوّم الفيلسوف بمعاناته . ولهذا ، لن يختلف دور السياسي الصادق عنده عن دور الفيلسوف، وإن كان يرى في صلاح السياسي فرضية شبه مستحيلة ، لأن الحكام ينشغلون بمصالحهم وبتمكين الوسائل التي تؤبّد هذه المصالح وتلغي حقوق البشر . وواقع الأمر أن «المثقف الراقي» ، الذي كان يركض في شوارع القدس صباحاً ، يستولد السياسة من «المحبة» ويشتق فضائلها المحتملة من الزهد والقناعة، وهو ما أشار إليه في رسالة إلى ولده، يعرب فيها عن إعجابه بالزعيم الهندي غاندي :

«ذلك الزعيم الهزيل الضئيل العاري الجائع ، الذي يهمّه قبل كل شيء تطهير أمته من عيوبها ، كل العلم

والفلسفة والغنى والرفاهية والغدق ليس شيئاً في نظري ما دام الإنسان منحطاً . وفروا النوع أولاً ثم افعلوا ما تشاؤون ، هذا هو الغرض الذي يجب أن ترمي إليه الثقافة ... ١٩٤٣/٣/٣» .

يربط السكاكيني ، الذي تداعى حزناً على فقدان ولده الوحيد ، بين الثقافة والسياسة ، ويحوّلهما معاً إلى فعل أخلاقي يحرر الناس من عيوبهم . فلا سياسة ولا ثقافة في شرط منحط ، ولا سياسة ولا ثقافة تصدران عن إنسان منحط . يتعين دور المثقف ، في هذا التصور ، بمحاربة الانحطاط الذي يمنع السياسة وبمواجهة الساسة الزائفين ، الذين ينتجون انحطاطا يعيد إنتاج الجهل والعبودية . كأن المثقف الراقي ، الذي ينقد الانحطاط ، هو السياسي الحقيقي المفترض ، وإن كانت أخلاقيته السامية تجعله غريباً عن الآخرين وتجعل الآخرين غرباء عنه أيضاً . ولعل هذه المفارقة ، التي تعيّن المثقف سياسياً مستحيلا ، هي التي تضع في كتابات السكاكيني الكثير من الحزن والغضب .

*****

ينطلق السكاكيني في مقولاته كلها من مبدأ «الإنسان كما يجب أن يكون» ، الذي حرر عقله وإرادته وسيطر على مقدراته . وهو في هذا المبدأ تنويري وينتمي إلى جيل الاستنارة العربية ، الذي نظر إلى المستقبل بثقة عالية . ولهذا يكون عادياً أن يمر قلم السكاكيني على أسماء فرح انطون وسلامة موسى وطه حسين وغيرهم ، وأن يقاسمهم منظورهم عن السياسة وتنظيم المجتمع والوطنية ، وذلك الاحتفاء الكبير بدور المدرسة في إنتاج مجتمع حديث . واتكاء على هذا التصور التنويري ، صاغ المربي الفلسطيني ، الذي دفن في القاهرة ، مفهوما جديداً للوطنية ، يقول بضرورة إنتاج مجتمع حديث ، يكون قادراً على الدفاع عن نفسه . ففي مواجهة غزو صهيوني متصاعد ، يمتلك أدوات المدنية الغربية ، لا يستطيع المجتمع التقليدي ، الموروث عن السلطنة العثمانية ، أن يدافع عن نفسه إلا إذا تحرر من تقليديته وأعاد بناء علاقاته بشكل متحرر .

حين بحث السكاكيني في عام ١٩١٤ في «وسائط تنبيه الشعور الوطني في الأمة العربية» ، وقع على خمس وسائط ضرورية هي : المدارس ، الجمعيات ، الجرائد ، التمثيل ، المعابد . تشير هذه الوسائط ، التي تحيل على التعليم والسياسة والصحافة والمسرح والشعب المتعلم ، إلى مجتمع حديث ، بلغة معينة ، أو إلى مجتمع مدني ، بلغة أخرى . ففي مقابل تعابير تقليدية ، تنوس بين «الأصالة» و«أرض الأجداد» ، وتنتهي إلى «نخبة قائدة» و«عامة مُقادة» ، اقترح المربي الفلسطيني وسائط تتوجه إلى الشعب ، وتتطلع إلى إرادة وطنية جماعية مهذبة ، تكسر احتكار القرار السياسي وتحوّل الشأن الوطني إلى شأن عام . فالوسائط المقترحة وسائط وطنية تهدف إلى تخليق وعي وطني جماعي . وهذه ما تشير إليه كلمة «الجمعية» ، بصيغة الجمع ، التي تعني فعلياً الأحزاب السياسية . ينطبق هذا أيضاً على المعابد التي

«ستتحول مع الزمان إلى جمعيات أو مدارس وطنية ، وبدلاً من الوعظ في الأمور الدينية سيكون الوعظ في الأمور الوطنية ، وكل آت قريب» . ومع أن في القول ، ظاهرياً ، ما لا يرضي الحس الضيق المتزمت ، فإن جوهره لا خطأ فيه على الإطلاق ، لأن السكاكيني اقترح «دين الوطنية» ، أو «الدين الوطني» ، منطلقاً من أمرين : الرد الفاعل على المشروع الصهيوني من ناحية ، وتوحيد الجهود المتعددة والمتفرقة من ناحية أخرى . إضافة إلى ذلك ، فإن الدين الوحيد الجدير بالتقديس ، في أزمنة السيطرة الأجنبية والتهديد الصهيوني ، هو دين المدافعين عن الوطن بأدوات وطنية . وما قاله السكاكيني عام ١٩١٤ ، سيقول به غسان كنفاني عام ١٩٦٣ ، في روايته «رجال في الشمس» ، حين يقول أستاذ المدرسة ، الذي قضى شهيداً ، بأنه لا يعرف أن يؤّم بالمصلين في المسجد ، لكنه يستطيع تعليمهم إطلاق الرصاص .

يتضمن القول بـ«الوطن» ، في مشتقاته المختلفة ، قولاً بـ«مجتمع وطني» ، يدرك معنى المواطن والمواطنة ، بعيداً عن المعايير الطائفية والعشائرية والجهوية . وواقع الأمر أن محنة خليل السكاكيني ، وهي وجه آخر لمحنة نجيب نصار ، صادرة عن نفوره الشديد من النزعات الطائفية ، التي كانت منتشرة في فلسطين العثمانية ، التي بقيت عثمانية ، بعد خروج العثمانيين ومجيء الاستعمار الإنجليزي . كتب المربي الفلسطيني النجيب إلى ولده ، بحزن صريح ، في ١٩٣٣/١/٢٥ الكلمات التالية :

«كيف نطمئن على مصير هذه البلاد إذا كان أمراؤها وزعماؤها وشيوخها يبيعوها بيع السماح ، أما الأمر الثاني فهو ما أراه كل يوم من انحطاط الأخلاق وخراب الذمم واستفحال روح التعصب والنعرات الدينية . لقد عشت إلى اليوم عربياً ، بل كان المسيحيون يعتقدون أني أقرب إلى الإسلام مني إلى النصرانية ، علمت الناس الوطنية ، بثثت فيهم روح الإباء والعزة القومية ، أحببت اللغة العربية ، خدمتها بكل ما وسعني من جهد ، كتبت ، خطبت ، وقد كنت أحسب بعد ذلك كله أني صرت ذا مناعة ، فلا يستطيع أحد أن يتهمني بالمروق من الوطنية أو بالتعصب الديني ، ولكن ما كان أشد استغرابي بل أسفي حين رأيت هذه الأمة التي بالغت في خدمتها ونصحها والإخلاص لها قد أخذت تهاجمني وتتقوّل عليّ الأقاويل ، .... ، كأنهم يعنون أنك لا تستطيع أن تكون وطنياً إلا إذا كنت مسلماً ... » .

إن شعور السكاكيني بالوعي الاجتماعي المتخلّف ، الذي يبددّ معنى الوطنية ، كما وعيه الصائب بالأسباب الاجتماعية التي تنتجه ، هو ما يفسر دعوته الحارة المستمرة إلى مدرسة جديدة وعمله المستمر في شؤون التربية والتعليم . وبداهة ، فإن مثقفاً كارهاً للاكليروس والمتزعّمين ودعاة النعرات الطائفية ، لن يهجس إلا بمدرسة تناهض هذا كله ، متوسلة تلميذاً حراً في عقله وقراره وخياره . يقول السكاكيني :

« يهمني أن أسعى في إنهاض هذه الأمة التعسة وإقالتها من عثرتها»

فإن أراد تحديد الوجوه التعيسة قال :

« تفشي الأمية واستحكام التعصب وصولاً إلى بشر يرون في الحاكم إلهاً»

يتراءى الاستبداد مبتدأ للأمراض الاجتماعية كلها ، فالأمية هي استبداد الجهل ، والتعصب هو استبداد المعايير الدينيّة السافلة ، وتأليه الحاكم هو استبداد العجز والجهل والانحطاط . كل هذا يجعل من التلميذ الحر غاية المدرسة الجديدة الأولى ، لا بمعنى أن تعلمه القراءة والكتابة ، بل بمعنى آخر أكثر عمقاً وأهمية : «أن تعلمه اكتشاف ذاته الإنسانية واحترامها» ، بعيداً عن قاعدة تقليدية تقول :«من علمني حرفاً كنت له عبداً» ، كما لو كانت العبودية شرطاً للعلم وتحصيل المعرفة . والقاعدة التقليدية واضحة المبادئ والغايات ، تعيّن المعلم سيداً والتلميذ عبداً ، كما لو كان على التلميذ أن يلغي ذاته كي يصبح عارفاً ، وذلك في معادلة بائسة ، طرفها الأول معلم يلقّن تلميذه وتلميذ يستظهر صاغراً ما قال به المعلم .

يفرّق السكاكيني بين التعليم ومحو الأمية ، ذلك أن الأول يحررّ التلميذ وهو يعلمه ، في حين أن محو الأمية يستعبد التلميذ ويعلمه في آن ، ولهذا يقول : «هناك مبدأ طالما دعوت إليه وبشرت به ، وإني لأفخر إني أول من دعا إليه وبشر به في هذه البلاد اجتهاداً مني لا نقلاً عن أحد ، وهو تحرير التلميذ وإحسان معاملته» ، أو أن يخاطب التلاميذ : «كأنكم كنتم الأساتذة ، وكأني كنت أنا التلميذ» . يتبادل المعلم والتلميذ المواقع في مدرسة «أقرب أن تكون تربّ وتعلم لا مكان تربية وتعليم» ، فالمدرسة الرشيدة لا تربي تلميذها بل تجعله يربيّ ذاته ، ذلك أنها «تُهيّء طَلابها لأن يكونوا أحراراً في المستقبل ، ولكنها تريد أن يكونوا أحراراً منذ اليوم ، وإذا لم يكونوا أحراراً منذ اليوم ، فلن يكونوا أحراراً إلى الأبد» . ومدرسة كهذه لها شروط تختلف عن غيرها ، فهي «لا تكلف الطالب أن يقدم شهادة من المدرسة التي كان فيها ، ولكنها مستعدة أن تقبله على علاته ، فالطلاب المطرودون من مدارسهم يجدون عندنا مكاناً» ، بل أن هذه المدرسة لا ترى إلى عيوب الطلاب المطرودين بل إلى عيوب المدرسة التي كانوا فيها . يبقى السكاكيني ، في ما يقوله عن المدرسة ، متسقاً مع ذاته بمعنى مزدوج : فهو يرى إلى «جوهر الإنسان» قبل أن يعاين العوامل الخارجية التي أساءت إليه، مؤمناً بأن في الإنسان جوهراً خبيئاً قابلاً للإصلاح ، وهو أيضاً مقتنع أن أخلاق الإنسان لا تساوي «الشهادة العلمية» التي يحملها ، فقد يكون نزيهاً بلا شهادة ، وقد يكون منحطاً رغم شهاداته الكثيرة . يكتب إلى ابنه في ١٩٤٣/١/٣٠ :

« لا أزور مدرسة إلا بثثت فيها الحياة ونورت البصائر ، وأرشدت إلى أحدث الأساليب في التربية والتعليم، . . . ، وأهم ما أدعو إليه هو أن تكون الحياة في المدرسة حياة مرح وسرور ونشاط ، وأن يكون التعليم صحيحاً يرهف العقل ويوسع الإدراك . . .»

ثم يعود ، في رسالة لاحقة ، إلى تبيان هدفه وشرح رسالته :

«الشرق مريض فهو في حاجة إلى من يعتني به ويعالجه ويبث فيه الحياة ، . . . ، البلاد تحتاج إلى دم جديد ، وقد عاهدت نفسي أن أبث فيها هذا الدم الجديد لأطهرها من أولئك الزعماء الذين هم بقايا العهد الماضي . . . من الأفضل أن يذهب القديم في سرعة من أن يجيء الجديد في تأخر ، فإن الخطر كل الخطر

أن يتعوّد الشباب انتظار الفرصة طويلاً ، والصبر على القديم حتى يصير الشباب نفسه قديماً ...» .

ليس غريباً لدى مثقف وطني ، يتخذ من المدرسة مجازاً للحداثة الاجتماعية ، أن يبحث عن المراجع التعليمية المستجدة ، وأن يتحوّل إلى باحث متجدد في أشكال التعليم ووسائله . وربما لا تخلو رسالة من رسائله إلى ولده ، دون إشارة إلى كتاب جديد في التعليم وفي القضايا التي تمسه ، محيلاً على برتراندرسل وفرويد وأدلر ويونغ وأسماء أخرى . ولا يختلف الأمر عند حديثه عن كتبه التعليمية ، مثل «الجديد» و«الدليل» ، التي دُرّست في فلسطين والعراق وسوريا ، والتي يتحدث عن انتشارها بغبطة كبرى : «بعد أن فتحت العراق ها أنا أفتح سوريا ... » .

يشكل التعليم في حياة السكاكيني ، رغم وجوهها النبيلة المتعددة ، الوجه الأكثر وضوحاً وإشراقاً ، إن لم تكن حياته كلها هي جهده التعليمي الجليل من أجل فلسطين جديدة . فقد أسس «المدرسة الدستورية» في القدس عام ١٩٠٩ ، وأصبح عضواً في دائرة المعارف بلواء القدس من أجل إصلاح جهاز التعليم عام ١٩١٤ ، وعُيّن مديراً لدار المعلمين في القدس عام ١٩١٩ ، والتحق بوظيفته ، بعد أن استقال منها ، كمفتش عام للغة العربية في عام ١٩٢٦ ، وهو العام الذي انتخب فيه عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق . كما أسس بعد تقاعده «كلية النهضة» ، أو «مصنع الرجال» ، كما قال عام ١٩٣٨ ، ذلك أنه اعتقد دائماً «أن من واجب المدارس الجديدة أن تعلم الناس الثورة ، لست أعني «ثورة السلاح» ، فإن ثورة السلاح أهون الثورات . وإنما أعني الثورة على كل قديم بال ، على الأخلاق الفاسدة ، على النظم المعوّجة ... » . على نقيض مدرسة تقليدية مستمرة حتى اليوم، تفصل بين التعليم وحاجات الإنسان الفعلية ، دعا السكاكيني إلى مدرسة توحد بين المعارف وحاجات الإنسان ، الاجتماعية منها والوطنية ، وتعلّم التلميذ أن له حاجات كثيرة، إن أشبعها أصبح إنساناً حقيقياً ووطنياً لا يُباع ولا يشترى .

*****

تذكر الكتابات القليلة الميسورة أن السكاكيني بقي أبداً في قلب القضية الوطنية ، محرّضاً وخطيباً جماهيرياً ومربياً ومحاوراً ومبادراً إلى توحيد الجهود المخلصة ، ويذكر هو ، في لحظة صفاء ، أنه كان زعيماً بين الناس ، «حتى لو اعتكف في بيته» . وتعلن يومياته أنه كان مشغولاً ، بلا انقطاع ، بأمور ثلاثة: تأمل الهجرة اليهودية ووعي أخطارها ، التنديد بالسيطرة الاستعمارية الانجليزية وفضح وظيفتها ، النقد اللاذع للمظاهر السلبية في المجتمع الفلسطيني والمطالبة بالتخلص منها .

على خلاف متزعمين تقليديين هوّنوا من خطر الهجرة اليهودية ، أو قالوا بها واتّخذوا من الإنجليز حاكماً عادلاً أو حليفاً ، أعطى السكاكيني منظوراً واضحاً يدرك حجم الخطر والوسائل اللازمة لمواجهته ، كان يكتب في يوم السبت ١٧ أيار سنة ١٩١٩ :

«أما منا خطران الأول الحركة الصهيونية والثاني تقسيم البلاد ، فلنقترح على إنكلترا وأميركا وفرنسا أن التي تدفع هذين الخطرين آثرناها على غيرها . نقول ذلك ونحن نعتقد أن لا أمة تقدر على دفع هذين الخطرين أكثر من الأمة الإنجليزية . والحكومة الإنجليزية وعدت اليهود أن تكون فلسطين وطناً قومياً لهم فإذا قبلنا الإنجليز فكأننا صدقنا على وعدهم هذا . . . » .

يعود السكاكيني ، في يومياته هذه ، إلى تأكيد الأخطار المحدقة بالوطن بطريقة أخرى :

«١. الصهيونية : إذا لم نتحد في مقاومة الصهيونية ذهبت فلسطين من أيدينا وعرضنا غيرها للخطر . وإذا خسرت أمة بلادها فقد خسرت كل شيء . إذا أردنا أن يكون لنا مستقبل مجيد فيجب أن نحتفظ ببلادنا بكل قطعة منها وما دام لنا بلاد فمستقبلنا مضمون .

٢. التجزئة : مهما بلغنا من الانحطاط ومهما اختلفنا في الأخلاق والأذواق والعوائد فإن تلافي ذلك ميسور إذا اتحدنا ، ولكن إذا تجزأت البلاد وأصبحت كل قطعة من بلادنا في يد دولة فإننا لا نلبث أن نصبح أمماً مختلفة لا تزيدنا الأيام إلا اختلافاً . . » .

يتعامل المربي مع القضية الوطنية ببصيرة ثاقبة ، مدركاً أن البقاء في البلاد يهمش الأخطار المتبقية كلها ، وأن شرط البقاء تجاوز الاختلاف وتحقيق الوحدة الوطنية . وهذا الوعي المبكّر ، الذي تبلوّر بعد وعد بلفور مباشرة ، لازم صاحبه لاحقاً ، مؤكداً أن اليهود لا يأتون إلى فلسطين كي يموتوا أو يعيشوا ، بل يأتون إليها بغية امتلاكها . ولهذا «لا تحل القضية إلا بإحدى طريقين : إما أن تبقى بلادنا لنا ، وإما أن تنتزع منا برغم أنوفنا ١٩٤٢/٧/٣١» . وحين سأله القنصل الأمريكي «بنكرتون» ، في ١٩٤٢/١/١٤ ، عن إمكانية التوفيق بين اليهود والعرب ، جاء جوابه قاطعاً : «إن اليهود لا يمكن أن يتفق معهم أحد» . لم يشتق السكاكيني جوابه القاطع من «جوهر يهودي» خبيث ، كما يفعل الفكر التقليدي حتى اليوم ، مساوياً بين «الجوهر اليهودي» واللعنة ، بل جاء به من قراءة عقلانية متحررة من الميتافيزيقا ، تدرك معنى الصهيونية ، على مستوى الفكر والطموح ، وتدرك أكثر الوسائل العملية التي تنقل المشروع الصهيوني من حيّز الفكرة إلى حيّز التطبيق . ولعل هذا الوضوح هو الذي أملى على السكاكيني ، في عام ١٩٤١ ، مقارنة سريعة حاذقة بين طبائع الألمان ، الذين يضطهدون اليهود ، وطبائع اليهود الذين يضطهدون غيرهم ، كي ينتهي ، وعلى طريقته ، إلى النتيجة التالية : «اليهود يكرهون الناس أجمعين ، والألمان يكرهون الناس أجمعين ، ولا عجب أن يصطدم الشعبان ، وأن ينازع الواحد الآخر البقاء والسيادة . .» .

نظر السكاكيني إلى معنى الصهيونية ووسائلها ولم يستبشر خيراً ، لا بسبب «كره اليهود للناس أجمعين» ، بل بسبب الوسائل والأدوات المادية التي يتعاملون بها مع مشروعهم ، المغايرة كلياً لوسائل العربي الفلسطيني ، التي ظلت رغبة غائمة حتى اللحظة الأخيرة . كتب المربي في الشهر الأول ، وفي الثامن منه ، من عام «النكبة» :

«لست أدري والله كيف نستطيع أن نثبت أمام عدوان اليهود وهم مدربون منظمون متحدون مجهزون بأحدث الأسلحة ونحن لسنا من كل ذلك على شيء . أما آن لنا أن نفهم أن الاتحاد يغلب التفكك ، وأن النظام يغلب الفوضى ، وأن الاستعداد يغلب الإهمال» .

جاءت هذه الكلمات الحزينة اليائسة ، والمتفائلة رغم يأسها ، قبل أشهر قليلة من سقوط فلسطين . بل أن السكاكيني تمسك بيأسه المتفائل ، رغم تناقض العبارة ، حتى الرمق الأخير ، حين كتب للمرة الأخيرة عن أمراض الشعب الفلسطيني ، التي تتحالف موضوعياً مع الخطر الصهيوني ، شاءت ذلك أم جاء على غير مشيئة منها ، كأن يكتب ، في نهاية الشهر الثالث من عام الهزيمة ، عن عقليات متخلفة مهزومة بذاتها مشغولة بالتمييز بين «الفلاح والمدني» ، وبين «المسلم والمسيحي» ، وبين «الحزبي والحزبي المعارض له» ، وبين القائلين بـ«حرب الجهاد وحرب الغنائم» . وواقع الأمر أن هذا المثقف النبيل ، الذي ولد وعاش متفائلاً ، كان يسعى إلى استيلاد التفاؤل وهو محاصر الحصار كله بكل ما ينصر التشاؤم ويوطد مواقعه . ومن الطرافة المؤسية ، أو اليأس الطريف ، أن يحلل السكاكيني ، وفي الشهر الأول من عام ١٩٤٨ تطور الوسائل الكفاحية الفلسطينية ، التي اعتمدت في طور أول على الحجارة ، حتى تغنى بها الشعراء ، وعلى العصي في طور لاحق ، فعلى المدي والخناجر ، وصولاً إلى المسدسات والبنادق والألغام والقذائف اليدوية ، في «انتظار المدافع الكبيرة ولا نامت أعين الجبناء» .

يمثّل السكاكيني ، ربما ، حالة فريدة في ثنائية النقد الساخط والتفاؤل ، فقد أخضع الظواهر كلها إلى نقد شديد متواتر ، لا مساومة فيه ولا ارتباك ، واحتفظ داخله بأقساط من التفاؤل القلق ، لا يتلاشى حتى في أكثر الأزمنة ضيقاً . ويعود هذا ، بداهة ، إلى «فلسفته الذاتية» ، التي تقول «إن على الإنسان أن يستمر في الحياة طالما شعر أنه مستمر في خدمة أهله وخدمة الآخرين» بيد أن التفاؤل لا يمنعه أن يكتب في يومياته عام ١٩٣٣ عن وجوه السلب المختلفة في المجتمع الفلسطيني :

«وأنا أرى كثيرين طلبوا العلم في هذه البلاد ، ومع ذلك لا يزالون خاضعين للوراثة ، يفكرون كما فكرّ آباؤهم وأجدادهم وينزعون إلى ما نزعوا إليه ، فكأنهم لم يتعلموا شيئاً ..» ، «لا يسعني إلا أن أقول أن على «الإنسان» أن يربأ بنفسه أن ينزل إلى ميدان الصحافة . فالصحافة في فلسطين مثلها في الشرق عامة ليست صحافة مبادئ ولكنها صحافة مصالح» ، «ماذا أعمل والنعرات الدينية مستحكمة من النفوس ، فمهما عملت فإذا لم أكن محسوباً على الأسرة الفلانية أو الأسرة الفلانية ، وإذا لم انتحل عقليتهم فأفكر كما يفكرون فلا يقام لي وزن ولا تسمع لي كلمة» .

في مقابلة وضع فلسطيني قائم وموروث تتوازعه النقائص ، قدم السكاكيني ملاحظات ثاقبة متعددة ، نتوقف أمام اثنتين منها ، تمس الأولى معنى القيادة السياسية ، وتحيل الثانية على معنى الكفاح والمواجهة . تقول الملاحظة الأولى :

«ما أدرانا أن يكون من حسن حظ هذه الأمة أن لا يكون لها قيادة ، فإن مستقبلها متوقف على ما في صدورها من حياة لا ما عندها من خطط مدبرة . إذا خلت الأمة من الحياة فلا ينفعها أن يكون لها قيادة . وإذا فتشت وجدت أن الخطر كله يأتي من القادة ، إذا كان للامة قائد فإنها تلتف حوله أولاً ثم تعجب به ثم تقدسه ، ثم لا يلبث أن يصبح ديكتاتوراً . خذ الأمة الفلسطينية ، من علمها أن تضرب ستة أشهر مما لم يسبق له مثيل في العالم ، من علمها أن تثور وتمضي في الثورات سنوات ... ١٩٤٢/١/١٤ » .

تنطوي الملاحظة على وجوه ثلاثة : عدم الاعتراف الفعلي بالقيادة ، أو القيادات ، القائمة ، لأنها قيادات شكلانية ، ضعيفة الحسبان والبصيرة ، تعرف مصالحها كثيراً وتعرف من الأخلاقية السياسية قليل القليل . والوجه الثاني هو الاعتراف الساخر بها ، كما لو كان الاعتراف بالقيادة هو الاعتراف بسخفها وتهافتها ، وهو ما يجعل الشعب الفلسطيني «محظوظاً» ، لكونه لا يمتلك فعلياً قيادة سياسية . أما الوجه الثالث فيتوزع على عنصرين ، يحتفي الأول منهما بالعفوية الشعبية المبدعة ، التي تستنبط وسائل كفاحية ملائمة ، متحدية الحصار والصعوبات المختلفة ، ويتطلع ثانيهما إلى قيادة جماعية مبدعة ، تتوّج الكفاح الشعبي ، وتمد الشعب بقيادة تعرف لغته وطموحاته وتحترم تضحياته . فالقيادة السياسية الفلسطينية ، ولأمد طويل ، تتحدث باسم شعب لا تتعرّف عليه ، بقدر ما ينتمي الشعب إلى قيادة لا يعرف عنها شيئاً كثيراً .

تحاور الملاحظة الثاقبة الثانية ، والمكتوبة بتاريخ ١٩٣٣/١/٧ ، معنى الحق والقوة اتكاء على منظور متحررّ من القدرية الساذجة والبلاغة الموروثة والأوهام اللاهوتية المخدرة . لم يكن السكاكيني ، في ملاحظته ، يشرح «فلسفته الذاتية» بقدر ما كان يواجه الوعي المتخلف بوعي منفتح على الواقع والعالم وطبيعة العدو الصهيوني :

«القوة القوة هذه هو التعليم الجديد الذي يجب أن نشربه ، من الناس من يقول أن للحق قوة ، ومنهم من يقول إن للقوة حق ، وإذا تأملنا قليلاً ، رأينا أن الحق يجب أن يكون للقوة ، بمعنى أن القوي في جسمه وعقله ونفسه أحق من الضعيف في جسمه وعقله ونفسه بالوجود ، الأقوياء هم الذين يرثون الأرض ، حق القوي حق مريح ثابت يستند على عقل صحيح وجسد صحيح ومبدأ صحيح ، وأما حق الضعيف فهو حق مزعوم باطل يستند على عقل ضعيف ومبادئ منحطة وشعور مختل وجسد مستقيم ...» .

وإذا كان السكاكيني قادراً على النفاذ إلى الجوهر الصهيوني ، لأنه لا يعرف «الشعور المختل» ، وقادراً على تحليل حسابات الضعفاء ، لأنه يملك عقلاً صحيحاً ، فقد كان واعياً بدور السيطرة الاستعمارية الإنجليزية ، التي كانت تقمع التمرد الفلسطيني بعنف وبلا هوادة ، وتواجه العدوان الصهيوني بلين وتباطؤ وتساهل ، كما جاء في كثير من يومياته ، كأن يقول :

«وإذا كنا ننعي على الترك ظلمهم وانحطاطهم واستبدادهم فقد رأينا من الإنجليز ، من هذه الأمة الراقية ، التي أنجبت كبار الفضلاء والعلماء والأدباء والشعراء ، مالا يذكر بجانبه ظلم الأتراك وانحطاطهم واستبدادهم ،

فكان شأننا شأن المستجير من الرمضاء بالنار . . . ما أشبه الإنجليز في فلسطين اليوم بالرومانيين في عهد المسيح فيها ، سلموا المسيح لليهود فأخذ هؤلاء يصبون عليه نقمتهم . . .» .

نقد السكاكيني في السياسة الإنجليزية إجرامها ، المتمثّل في وعد بلفور ، وتواطؤها ، المجسد بقوانين ظالمة تطبق على العرب ولا تمس اليهود ، ومكرها ، الذي يعبث بـ«القادة المحليين» بوعود كاذبة متتالية . بيد أنه لم يكن يندد بالدولة التي وعدت اليهود بـ«الوطن القومي» إلا ليندد بـ«قادة وطنيين» اعتقدوا ، كما قال محمد عزة دروزة ، أن التقرّب من الإنجليز شرط لمواجهة الصهاينة ، وأن العبث كل العبث مجابهة الطرفين معاً . على خلاف «القادة المعتدلين» ، الذين يزورّن السماء كي يحتفظ بمواقعهم ، فإن المربي ، الذي نكبه الدهر بولده الوحيد ، أبصر الأمور بلا إبهام :

«يقولون أن وعد بلفور له شقان : شق يتعهد بإنشاء الوطن القومي اليهودي ، وشق يتعهد بالمحافظة على مصالح وحقوق الفريق الثاني ، ولكن الحكومة الإنجليزية النزيهة حولت الوعد إلى شق واحد هو الشق الأول وأهملت الشق الآخر كل الإهمال ، وكل احتجاجات الأمة العربية التي كتبتها بدمائها ذهبت سدى . إن الحالة إذا دامت قليلاً فليس إلا إحدى نتيجتين : إما أن يكبت الناس غيظهم فيكثر الجنون ، وإما أن يثوروا ، فتصبح فلسطين الهادئة الجميلة الأنيقة بلد الثورات ، وعلى الحالين فالعيش في هذه البلاد نكد مستمر والعياذ بالله . تشرين الثاني ، ١٩٣٣» .

ولعل هذه السياسة الإنجليزية المبرّأة من النزاهة ومبادئ الأخلاق ، هي التي حملت المربي المتفائل ، الذي أراد أن يكون ابناً للإنسانية كلها ، أن يقول بانحطاط الإنسانية ، وأن يكفر بالحضارة الغربية التي تؤمّن حقوق الإنسان المكفولة حقوقه ، وتختلس من الإنسان المضطهد بقية حقوقه المنهوبة :«أليس من العجب أن دول أوربا كلها وحكومات أمريكا الجنوبية والشمالية كلها وافقت على وعد بلفور ، ولم تشذ منها دولة أو حكومة ، أليس هذا دليلاً على انحطاط الإنسانية في هذا العصر إلى درجة لم يعد للشرف أو للمروءة أو للكرم أو للأخلاق العالية أقل قيمة» . وما قال به السكاكيني لا يزال قائماً حتى اليوم ، دون انحراف أو تعديل ، مبرهناً أن الحق للقوة ، وأن قوة الحق كلمة تسرّي بها عن نفسها الأرواح الفقيرة العاجزة .

*****

تفاؤل صريح اخترق يوميات السكاكيني ، مرآته الأسلوب المقاتل الساخر واحتفال دؤوب بوحدة صحيحة سعيدة بين العقل والجسد والروح . غير أن الوجه الآخر للتفاؤل الصريح تشاؤم أكثر صراحة ، يستقدم عناصره من اتجاهات متعددة : سطوة الدهر ، قلق المثقف الراقي ، تخلف المجتمع الفلسطيني ، بؤس القيادة ، الغزو الصهيوني المنظم والمدرب ، التواطؤ الاستعماري و«انحطاط الإنسانية» . . . وهذا ما يفسر مواقفه ، التي تنوس بين الغيظ واليأس والاطمئنان والرضا .

وواقع الأمر أن أسباباً ذاتية وموضوعية أنتجت حالة السكاكيني ، المتألقة الجميلة والمنكسرة الحزينة في آن . فقد أراد أن يكون مثقفاً حديثاً رسولياً في مجتمع فلاحي ، يعترف بـ«الموظف» وبـ«الكاتب- الموظف» وبـ«الشيخ التقليدي» . والمقولات الثلاث الأخيرة تحيل على السلطة السياسية ، وعلى سلطات تقليدية مجزوءة ، مثل سلطة العائلة والقبيلة والطائفية ، وعلى مالا يأتلف مع طموح السكاكيني ولا يتفق مع تصوراته . فالمثقف الحديث ، الذي يكره القيود ويدعو إلى الحرية ، لا يحقق ذاته ، إن حقق ذاته ، إلا في مجتمع ديمقراطي مفتوح ، مراجعه المواطنة والأحزاب السياسية والجمعيات الشعبية والنقابات والصحف والجامعات والمؤسسات الفنية ، أي كل العلاقات الاجتماعية التي لم يعرفها المجتمع الفلسطيني الفلاحي خلال السيطرتين العثمانية والإنجليزية . . . لذا كان منطقياً أن يشير المربي الفلسطيني إليها ، بغضب كبير وبرغبة أكبر ، دون أن يقتنع بأن المقولات الحديثة تحتاج إلى تحولات اجتماعية عميقة ، لم تعرفها فلسطين ، ولم يكن بإمكانها أن تعرفها أيضاً .

يضاف إلى هذا التصور ، الذي يرى الحداثة الاجتماعية ولا يرى أسبابها ، تصور رومانسي للثقافة ، مؤمن بالفرد الطليق الذي يحرر المجموع المكبّل ، ومؤمن أكثر أن «الثقافة في ذاتها» ارتقاء ، كما لو كانت الثقافة لا علاقة لها بالمصالح والأهواء والطبقات الاجتماعية . وهذا ما جعله ينظر بغضب ومقت واحتقار إلى «حملة الشهادات العليا» ، الذين يحلمون بوظيفة تقرّبهم من السلطة وتمدهم بامتياز اجتماعي ، علماً أن «المعرفة» ، في المجتمعات الفلاحية جميعها ، كانت ولا تزال أداة موائمة تجسّر المسافة بين «المتعلّم» و«المتسلط» وتحوّل ، لزوماً ، «المتعلم» إلى «متسلّط» جديد .

يصدر نبل خليل السكاكيني ومأساته عن إيمانه العميق بـ«المثقف الراقي» ، وذلك في مجتمع عضوي ، مأخوذ بالعائلة والطائفة ، لا يلتفت إلى المثقف ولا يقبل به ولا يعترف بدوره ، لأنه يرى في المثقف مساساً بالتقليد المتوارث القديم وتعريضاً به . وهذا ما يفرض على «المثقف الراقي» ، في حال وجوده ، إما الانسحاب من المجتمع والاكتفاء بالعزلة ، أو الاندراج في تصورات المجتمع ومعاييره ، التي تصيّر المثقف الحديث «كاتباً سلطوياً قديماً» .

يبقى السكاكيني في الحالات كلها ، وكما ترسمه يومياته ، حالة إنسانية مشرقة ، قوامها الشعر والعقل والأخلاق ، وحالة ثقافية فلسطينية شبه فريدة ، عشقت فلسطين عشقاً خالصاً ، وتألقت وهي تدافع عنها ، وأصابها الوهن والذبول بعد قيام دولة إسرائيل . «من زار القدس ولم يرَ خليل السكاكيني لم يزر القدس» ، هكذا كان يُقال عن ذلك المعلم النبيه الذي كتب مرة :

«لا أزال متفائلاً جداً ، ولا أزال اعتقد أن اليهود يحاولون أن يبنوا وطنهم القومي على شفا جرف هار ، لأسباب كثيرة قد لا يتسع لها هذا المكان من رسالتي» .

الهجرة الأولى

الحب والجوع في نيويورك
هجرة السكاكيني الأولى ١٩٠٧–١٩٠٨

سليم تماري

هاجر خليل السكاكيني وطنه ثلاث مرات. الأولى كانت سفرته إلى أمريكا بحثا عن العمل وهو في عشريناته ؛ الثانية عندما نفته السلطات العثمانية إلى دمشق العام ١٩١٨، والثالثة إثر حرب ١٩٤٨ عندما نزح هو وعائلته إلى القاهرة. [١]

تنشر مذكرات السكاكيني بعد حوالي قرن من بداية تدوينها وبعد مضي خمسين عاما على وفاته. وهي –حسب علمي– أول مرة في تاريخ الأدب العربي الحديث يتوفر للقارئ أن يطلع على يوميات كاتب دونها في لحظة معايشته للحدث وليست كما جرت العادة عند صاحب المذكرات التي يكتبها في كهولته يسترجع فيها ما حدث قبل عقود من الزمن. ففيها نجد ذاتية صادقة بمعنيين: ملازمتها لإحساسات الكاتب لحظة تدوينها، ومعاصرتها للحدث حين وقوعه. وتوفر لنا المذكرات حالة فريدة للإطلاع على رسائل حب متبادلة بين عاشقين في زمن الحب العذري، لا نجد مثيلا لها في الأدب العربي ربما باستثناء رسائل جبران إلى مي زيادة، ورسائل الكنفاني المبتورة إلى غادة السمان.

ومعظم مادة المجلد الأول تتناول الفترة التي قضاها في نيويورك (١٩٠٧ – ١٩٠٨) وعودته إلى القدس عشية إعلان الدستور العثماني. وتشكل المداخل المتعلقة بإقامته في أميركا جانبا صغيرا، لكنه مهم، من اليوميات الكاملة – إذ إنها تقع في فترة التكوين لتطوره الفكري عندما كان في أواسط العشرينات من العمر. وهي تغطي فترة اختلاطه «بالمثقفين السوريين» (المقصود من بلاد الشام) في المهجر بنيويورك، وعمله في الجريدة الأدبية «الجامعة»، إضافة إلى فترة عمله القصيرة في مصنع للورق في ولاية مين الشمالية. كما تضم فترة غرامه العاصف مع زوجة المستقبل سلطانة، وتتحدث عن غصص الفراق التي عانى منها إذ خلفها في القدس ومضى إلى مهجره.

شهرة السكاكيني تقوم على أنه كاتب ومفكر مقدسي، وتربوي تقدمي، ومفكر حرّ يقف والمؤسسة الدينية على طرفي نقيض. وتعد يومياته، في تقدير ناقد أدبي متميز، إيذانا بدخول الأدب الفلسطيني مرحلة الحداثة[٢]. لقد كان منهجه في التدريس، الذي طبقه في المدرسة الدستورية التي أنشأها قبل الحرب

العالمية الأولى، ثوريا بالنسبة لكل معاصريه تقريبا . ألغى العقوبة البدنية للطلبة بوصفها «بربرية وتعود إلى القرون الوسطى» ، واستبدل بالامتحانات تقييما ذاتيا يقوم به الطلبة والمعلمون . وطلب من المعلمين ألا يسجلوا أسماء الطلبة الذين يتغيبون . كان للطلبة الحرية في مغادرة المدرسة إن هم شعروا بالملل ؛ وقد أحسّ أن هذا الإجراء يرغم المدرس على أن يكون مجددا وممتعا حتى يحافظ على اهتمام الطلبة[٣] . كل هذا أنجزه السكاكيني في أوائل العشرينات . ورغم نقده الصارم لنظام التعليم السائد في ذلك الزمن كان ناجحا جدا كمصلح تعليمي وإداري إذ عينه العثمانيون فالإنجليز مفتشا على المدارس في فلسطين . وقد استطاع عن طريق منهجه المبتكر في تعليم اللغة العربية ، الذي نشره من خلال سلسلة «الجديد» التي نالت ذيوعا كبيرا ، وعن طريق مقالاته الصحفية أن يخرج بلغة جديدة للكتابة تتميز برشاقتها ودقتها وحداثتها ، وتلائم الجيل الجديد من الفلسطينيين . وقد لقي هذا الجهد التقدير عندما اختير السكاكيني عام ١٩٤٨ لعضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة .

لم نكن نعرف عن حياة السكاكيني الخاصة قبل نشر مذكراته إلا القليل : أنه كان أديبا غريب الأطوار ، وأنه يحب أن يتمتع بكل ما هو فائق من طيبات الحياة . لم تحتوِ «كذا أنا يا دنيا» (١٩٥٤) التي نشرت بعيد وفاته إلا على مختارات محدودة من مذكراته انتقتها ابنته هالة السكاكيني (توفيت العام ٢٠٠٢) . الكتاب (الذي لا يشكل أكثر من ١٥٪ من اليوميات التي سننشرها كاملة) يركز على حياته ككاتب مقالة ميال إلى فلسفة نيتشة ، ولكنه يخفي عمدا توجهاته المعادية لرجال الدين . لقد حالت شكوكه ونزعته الإنسانية الشاملة دون التحاقه بأي حزب سياسي طيلة حياته ، اللهم إلا مشاركته في تأسيس «حزب الصعاليك» حيث كان مجموعة من الأصدقاء يلتقون في مقهى بهذا الاسم يقع على مقربة من باب الخليل في بلدة القدس القديمة[٤] . كانت توجهاته المعادية لرجال الدين ، وتوجهاته المخالفة للدين في وقت لاحق ، تستفز مجتمعه المحافظ الضيق ، وهي مستفزة حتى بمعايير زمننا الحاضر . وقد أخفت ابنته التي حررت المجموعة السابقة من المختارات ، في كتاب «كذا أنا يا دنيا» ، هذه النزعات التي تبدو واضحة جدا في اليوميات الكاملة . فمثلا من المعروف على نطاق واسع أنه خاض معركة طويلة ضد الكنيسة الأرثوذكسية ، ولكن السبب يعزى عادة إلى نضاله في سبيل تعريب الكنيسة ومحاربة السيطرة اليونانية عليها . ولكن ما هو غير معروف – هو موقفه الإلحادي الواضح إذ دعا إلى استبدال صلاة الرب بأبيات وثنية للشاعر الجاهلي امرئ القيس[٥] . كان يجد الصلوات مملة ومضيعة للوقت . وربما كان المفكر العربي الوحيد الذي كان عدوا للتناسل بشكل معلن ، فعلى بطاقته يقرأ المرء سطرين فقط : «خليل سكاكيني ، تعالوا لننقرض»[٦] . في عام ١٩٣٢ اقترح أن يهجر أبناء وطنه الدين الرسمي وأن يعتنقوا النرجسية الطقسية كنوع من العبادة ،» . . .فهذا نوع من العبادة يمكن لنا جميعا القيام به دون أن نهدد أديانا أخرى . . فالمسيح قد قال : «إن لم تستطع أن تحب جارك أو أخاك الذي تراه ، فكيف تحب الله الذي لا تراه .» ولكنني أنا (خليل السكاكيني) أقول لك : «إذا لم تستطع أن تحب

نفسك، فلن تستطيع أن تحب الله أو أي أحد آخر . .»[٧] .

ومن الممكن اعتبار المجلد الأول من مذكرات السكاكيني شاهدا هاما على بداية الحب الرومانسي في العالم العربي . وقع خليل في غرام سلطانة عبده قبل أقل من سنة على رحيله إلى أميركا . ولدت سلطانة عام ١٨٨٨ في البلدة القديمة ، وكانت تمتّ إليه بقرابة بعيدة [٨] . وقد نشأ كلاهما في حارة النصارى وهما ينتميان إلى أسرتين عربيتين أرثوذكسيتين . كان والد خليل نجارا ماهرا كما كان من وجوه الطائفة الأرثوذكسية في القدس . وكان والد سلطانة نقولا سليم عبده (أبو أديب) أيضا من الشخصيات المعروفة في البلدة القديمة ، وقد عينته البطريركية مشرفا على الحجاج خلال موسمي الفصح والميلاد يرعى شؤون سكنهم ورفادتهم واحتياجاتهم الأخرى . وحسبما تقول حفيدته هالة السكاكيني فإن والد سلطانة كان متحرر الذهن بالقياس إلى عصره ، إذ أرسل ابنتيه إلى التعليم الداخلي في مدرسة الفرندز برام الله ، وكانت تقع على مسيرة ثلاث ساعات على البغال إلى الشمال من القدس[٩] . نستطيع التعرف إلى حقيقة علاقة هذا الرجل بابنته من خلال رسالة مؤرخة في عام ١٩٠٦ كتبها إلى أخت سلطانة ، أماليا ، عقب زواجها من طبيب نابلسي .

«ابنتي العزيزة ،

منذ أول يوم أنعم الله علي بك بدأت أفكر في الابتهاج بيوم عرسك شأن سائر الآباء ، فلما جاء ذلك اليوم وزففناك إلى العزيز عريسك تألمت وتأثرت وبكيت كثيرا لأنك خرجت من منزلي ، لأنك صرت لآخر ، لأنك فجأة وفي دقيقة واحدة وبمطلق رضاك واختيارك حملت اسما غير اسمي وأشركت رجلا آخر في حبي . فعقلي أيتها العزيزة يعلم ما يجب أن يكون لزوجك الآن من الحقوق ومن التقدم عليّ وعلى كل إنسان آخر . سأكون في الدرجة الثانية بعد زوجك . لا بأس ، ولكن قلبي يستحق شيئا من المراعاة . يجب أن تمهليني قليلا من الزمن حتى يألف الوالد فراق ابنته وحتى أتعوّد هذا الفراغ الذي أحدثه زواجك في فؤادي ، فإن ٢٠ سنة لا تمحى في عشرين يوما .»[١٠]

ولا بد أن نقولا عبده كان منفتحا جدا بمقاييس عصره حتى لقد سمح لابنتيه بأن يصحبا الشبان الطامحين في الزواج منهما في العلن ودون رفقة أو رقابة[١١] .

بعد التخرج من المدرسة الثانوية مباشرة ، في عام ١٩٠٣ ، بدأت سلطانة تعمل مدرّسة في مدرسة عربية أرثوذكسية في البلدة القديمة ، ثم في مدرسة القديسة مريم للبنات في عام ١٩٠٥ وهي مدرسة أنجليكانية . وهناك عرفها خليل عندما عهد إليه بتدريبها على تدريس اللغة العربية والأدب . كان خليل نفسه مدير مدرسة تلقى علومه على يد المعلم المشهور في تعليم الأدب العربي نخلة زريق (١٨٦١ - ١٩٢١) .

عندما بدأ خليل يتودد إلى سلطانة في عام ١٩٠٧ كان في التاسعة والعشرين ، وكانت هي في التاسعة عشرة . في تلك الفترة كان لكل من عائلتي عبده والسكاكيني بيتان صيفيان خارج أسوار القدس ، أسوة

بكثير من العائلات الميسورة التي كانت تتوق إلى الفرار من الجو الخانق للأحياء المزدحمة. كان بيت السكاكيني يقع في المصرارة، أما بيت عبده الصيفي فيقع قرب محطة السكة الحديد وكان يعرف باسم الحريرية، أي مصنع الحرير، إذ كان يوجد فيه مصنع حرير قبل أن يسكنوه. (وبعد قرن تقريبا غدا «الحريرية» مسرح «الخان» الحالي في القدس الغربية)[١٢].

ولما كان خليل وسلطانة منغمسين في نشاطات الطائفة الأرثوذكسية فقد كان ثمة فرص كثيرة للقاء. في تلك الفترة تصادقت سلطانة مع ميليا، الأخت الكبرى لخليل، وأصبحت لذلك كثيرة التردد على منزلها. وكان خليل يرافقها في المساء وهي عائدة إلى بيتها، في البداية بصحبة ميليا أيضا، ثم بعد ذلك وحده. وفي فترة لاحقة كانا يتنزهان مسافات أطول أو يركبان الحمير إلى الريف، غالبا إلى عين كارم أو جبل الزيتون. وفي إحدى تلك النزهات عبّر خليل عن حبه لسلطانة. ومن حسن حظنا أن هذه اللحظة قد سجّلت لتطلع عليها الأجيال اللاحقة. يعبر خليل عن حبه هنا بعبارات رومانسية جديدة لم تكن معروفة تقريبا في تلك الفترة – في الأدب الفلسطيني أو حتى العربي. كتب بعد الحدث بأيام مسرّا لداود في رسالة:

«يوم الخميس الثالث من تشرين الأول (١٩٠٧) ذهبت مع سلطانة وأختي (ميليا) إلى «قالونة» هناك تحت شجرات الليمون جلسنا، وكم كنت أتمنى لو كنت معنا، لا شك أنك كنت تشاطرني سروري وطربي. بل كنت ترى من علائم الوجوه ولمعان العيون وسائر حركاتنا وسكناتنا ما يفصح عما في القلوب ويغني عن التصريح.

ولما آذنت الشمس بالمغيب ركبنا حميرنا ورجعنا، ولعل الجو هناك يعبق إلى اليوم بأنفاس حبنا، مشيت إلى جانبها، فجعل حمارها يتعثر فخشيت أن يقع فأخذت بلجامه وقدته كل الطريق. أخذتهما إلى أكمة على طريق رام الله، وجلسنا على صخر هناك وفي وجهها وعينيها ما أشعرني بالرضى والقبول، وهكذا في اليوم الثاني والثالث نخرج عند الأصيل للتنزه، وفي المساء نسهر إما عندنا وإما عندهم. وأمس جاءتني رسالة منها تهديني فيها محبتها وتعدني بالكتابة في القريب العاجل».

بعد هذا اللقاء مباشرة هيمن على خليل تأنيب الضمير الذي طالما أعرب عنه في رسائله اللاحقة؛ فهو لا يستحقها، وهو أناني إذ يريدها لنفسه، فلا بد أن يكون هناك آخرون يستحقون حبها أكثر منه:

«ولكن، مع كل ذلك لا أزال أشعر أني آثرت نفسي على يعقوب وأني خنته في وداده، فبربك يا داود أسعفني برأيك وأفتني بما عندك، ثم إن أفتيم]مشبك[لا يزال متعلقا بها ومثله عيسى]العيسى[ومتري ابن خالتي، ولعل هناك غيرهم، فماذا أعمل لكي لا أخرج عن إخلاصي لهم ولا أوصم عندهم بمحبة الذات؟»[١٣]

لم تكن شكوك خليل في ذاته ناتجة عن احتقاره للذات كما قد يبدو لأول وهلة، رغم أن هذا العنصر كان موجودا في شخصيته بقدر لا بأس به، لكن نتيجة لتوتر أحسّ به جرّاء بعض التردد الذي بدا من سلطانة. كان ميالا إلى تبيّن مشاعرها من خلال أبسط الإيماءات، وكان رد فعله مبالغا فيه إزاء صمتها الذي كان يرى

فيه علامة على البرود تجاهه. ولما لم يكن لدينا سوى قرائن مباشرة قليلة بشأن ما كان يدور في خلدها إزاء خطواته هو، فليس في وسعنا إلا أن نحدس بشأن ما كانت تفكر فيه، وذلك من خلال أقواله هو أو إشارته إلى أقوال يذكر أنها صدرت عنها. ولكن سلطانة لم تكن صامتة كليا. فقد وصلنا القليل من الرسائل التي كتبتها لخليل عندما كان يعيش في بروكلين بنيويورك وهي ذات مغزى مهم، ولدينا أيضا ذكريات هالة عنها. تظهر سلطانة من خلال هذه الرسائل كشخصية ذكية مفكرة - مع روح دعابة، قد لا تشمل القدرة الفلسفية التي امتاز بها خليل، ولكنها بالتأكيد أكثر مرحا وأشد لذعا.

ويبدو أن ترددها في مبادلة خليل عواطفه هو في الأساس نتيجة للغموض الذي طبع العلاقة بطابعه. كان يكبرها بعشر سنوات، ولم يكن مستقبله المادي واضح المعالم[١٤]، وكان يوشك على القيام برحلة لم يكن أي منهما يعرف مدتها، وربما حتى هدفها. وكلما اشتد في طلب تعهد منها ازداد غموض ردّ فعلها. كان هذا فيما أعتقد سببا رئيسيا لاستمرار التوتر الذي طبع علاقتهما في فترة البعد، وسيطر على مراسلاتهما على مدى سنة كاملة.

في بلاد الوجبات السريعة

كان السكاكيني نفسه شديد البعد عن التقليدية بالنسبة لعصره. ورغم أنه كان يتزيا بالزي التقليدي إلى حد كبير فقد كان لاهيا، يغني ويرقص ويدخن بشراهة (الغليون والنارجيلة)، وكان لا ينقطع عن العزف على الكمان. كان يعدّ نفسه شهوانيا، كما وصف نفسه في اليوميات. أحب الموسيقى والشعر، وكان يكتب الشعر كثيرا، لكن دون أن يحلق في سماء الإجادة[١٥]. كان يستمتع، في المقام الأول، بالصحبة الحسنة ومجالس الشراب الطويلة، وكثيرا ما كان يتبارى في المصارعة مع أقرانه ومعارفه. وكانت رياضته المفضلة أن يقنع عدة رجال بمهاجمته معا ثم يطيح بهم أرضا[١٦]. كان عظيم الإعجاب بجسمه وينفق الوقت الطويل في الاغتسال. على أنه يبدو في مذكراته ذا توجهات جنسية غامضة ومكبوتة. وتزخر فقرات يومياته بتجريح الذات وبنوبات الغم واليأس. ولعل تعلقه المفرط بالاستحمام بالماء البارد (صيفا وشتاء)، وابتعاده عن المناسبات الاجتماعية يصلان إلى درجة جلد الذات. كانت تستغرقه، وحتى نهاية عمره، ثلاث علاقات حب عظمى. وقد انتهت العلاقات الثلاث بموت مبكر شهده في حياته: صديقه ورفيق صباه داود الصيداوي، وخطيبته التي أصبحت زوجته سلطانة عبده، وولده الوحيد سري الذي توفي ولما يتخطَّ الثانية والأربعين.

أقلع خليل السكاكيني إلى نيويورك في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٧ من يافا، وعاد إلى القدس في ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٠٨، لقد استمرت فترة مهجره أقل من سنة، ورغم أنه كان كثير الأسفار بعد ذلك فلم يعد إلى أميركا أبدا. كان عليه أن يستدين من داود ومن سلطانة، وغيرهما للقيام بنفقات الرحلة. ولذا كان عليه

أن يسافر في الدرجة الثالثة، بل - وفي جزء من الرحلة - على ظهر المركب[١٧]. كان السفر في تلك الأيام طويلا ومضنيا (من عشرة أيام إلى أسبوعين من مرسيليا إلى نيويورك).

وعندما وصل بعث بهذه الأبيات إلى أخته ميليا[١٨]:

«وصلت بعد التعب ... إلى بلاد الذهب
تقلني باخرة ... كقلبي المضطرب
تلعب بالركاب ... لكن يا له من لعب
ولم أجد بين ... الجميع أحدا من مشربي
وهكذا الطعام فيها ... لم يكن من مذهبي
فكم تقززت وكم ... شعرت أن قد دير بي
كأنه لم يكفني ... مرارة التغرب»

سادت أميركا سنة وصوله إليها (١٩٠٨) أزمة اقتصادية خانقة. وكما كتب لصديقه داود في إحدى أوائل رسائله[١٩]: «لا يمتلك أحد الشجاعة ليسأل أحدا عملا، وأمس فقط قال لي صديقي فرح أنطون: «لو أنك كنت استشرتني قبل إذ أتيت لكنت نصحت لك بعدم القدوم إلى هذه البلاد»... في كل يوم تسمع عن شركة تعلن إفلاسها. السادة ملوك أبناء عم السيد رفلة [رفيق خليل في السكن في بروكلين] خسروا في الأسبوع الماضي وحده أكثر من ١٣ ألف ريال [دولار]».

عندما وصل إلى نيويورك، كان تعويله على أخيه يوسف، وهو بائع متجول في فيلادلفيا. ولكن ظروف التدهور الاقتصادي في الولايات المتحدة في ذلك العام شاءت له أن يجد يوسف في وضع صعب، ومحتاجا هو نفسه إلى المساعدة. وقد سكن في أتلانتيك أفنيو في بروكلين («الحي السوري») بمساعدة معارف من القدس. وقد آذته الوحدة وضيق ذات اليد منذ أن حطّ رحاله. وتصف رسالة بعثها إلى داود في خضم احتفالات السنة الجديدة، سنة ١٩٠٨، أجواء هذه الأشهر الأولى في نيويورك:

«اقرأ واضحك.. كنت قبلا أبكي من الحالة التي وصلت إليها، واليوم أضحك. ذكرت لكم قبلا أني وجدت، بعد اللتيّا والتي، ثلاثة تلاميذ يدخلني منهم أربعة ريالات في الأسبوع، هذا إذا حضروا كلهم، وذلك نادر لأنه في كل درس لا بد أن يغيب واحد منهم فأخسر بغيابه ريالا. بهذه الريالات الأربعة آكل وأغسل ثيابي وأدفع أجرة غرفتي وأقاسم فيها بعض أبنائنا من القدس. يا ليتنا بقينا على ذلك، فقد توقف التلاميذ الآن عن الدرس بسبب عطلة عيد الميلاد وقد مر عليّ أسبوعان لم يدخلني شيء. كل ذلك سهل، ولكن أمس، آخر أيام السنة، لم يكن في جيبي إلا عشرة سنتات، فذهبت مع نقولا البرغوث إلى السوق واشتريت خبزا بتسعة سنتات ورجعنا إلى البيت فأكلناه مع الشاي، وفي المساء بينما كانت أميركا تقيم الاحتفالات الشائقة لوداع السنة الماضية واستقبال السنة الجديدة جلسنا حول مائدة نلعب بالورق ونحن لا نعي، ثم قمنا

إلى فراشنا ونمنا على وجوهنا.[٢٠]

(رسائل إلى داود الصيداوي، نيويورك ١ كانون الثاني/يناير ١٩٠٨، هذه الرسالة موجودة أيضا في «كذا أنا يا دنيا» ص ١٥ - ١٦).

وهذه الجملة الأخيرة بشأن المال، إضافة إلى إشارته إلى أنه نشأ منعما مرفها، لا بد أن تكونا أثارتا دهشة داود إذ إن غرض الرحلة أصلا كان جمع المال لسداد الديون وفتح بيت تمهيدا لاقترانه بسلطانة.

هيمنت على إقامة السكاكيني في بروكلين علاقته بفرح أنطون، محرر الجريدة السورية المهجرية «الجامعة»، وشغله في الترجمة الذي أداه للبحاثة المستشرق في جامعة كولومبيا البروفسور ريتشارد غوتهيل[٢١]. وكان يكسب بعض المال أيضا بتعليم العربية للطلبة الأميركيين (ومعظمهم من جامعة كولومبيا) ولزوجات وبنات أصحاب الحوانيت والتجار العرب اللائي كن أميات في لغتهن الأم. وكان يكتب المقالات ويقوم بالتحرير ومراجعة البروفات المطبعية لفرح أنطون. ومع اكتسابه المزيد من الثقة انخرط في الدفاع عن فرح أنطون ضد خصومه.

ينتمي السكاكيني إلى الموجة الأولى من المهاجرين العرب إلى أميركا، وقد بدأت في عقد ١٨٧٠ وتوقفت بسبب موجة العداء الموجهة ضد الفوضوية في عقد ١٩٢٠، وأسوة بمعظم أبناء وطنه من الشرق العربي كان يحمل الجنسية العثمانية ويقدم نفسه كسوري، وأحيانا كفلسطيني. قبل الحرب العالمية الأولى استقرت الجالية السورية (أي اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين) في المنطقة التي صارت تعرف بـ«سوريا الصغيرة» في مانهاتن، في أدنى الجانب الغربي. (والمفارقة هي أن المنطقة أصبحت عام ١٩٧٠ موقعا «لمركز التجارة العالمي»). كانت معظم تلك العائلات تعيش حول شارع واشنطن وتعمل في صناعة النسيج. وبينما أحوالها تحسن وأموالها تزداد، أصبح عدد من أفراد هذه الجالية يعمل في البنوك وفي صناعة النشر واستيراد الكتّان والأربطة والملابس الداخلية[٢٢]. وقد بدّلوا سكنهم من مانهاتن إلى جادة أتلانتيك في بروكلين. وهناك أسسوا حي ساوث فيري الذي ضم أجزاء من بروكلين هايتس وكوبل هيل.

كان كثيرون من هؤلاء المهاجرين، مثل السكاكيني، يذهبون كل يوم إلى أعمالهم من مانهاتن بركوب العبّارة من وايتهول ستريت إلى جادة أتلانتك[٢٣]. إن التمثيل الجغرافي لتحركات خليل في أميركا كما نستشفه من يومياته ورسائلة غامض ويشبه الألغاز، كما أنها تتسم بالسذاجة. لقد سكن في حي، لم يعرفه، في بروكلين مليء بالمقاهي والمطاعم «السورية» واليونانية. (وتبين لاحقا أن هذا إنما كان أتلانتك أفنيو). وكان يركب يوميا القطار أو المركب إلى نيويورك - يقصد مانهاتن - حيث يقضي معظم النهار إما في أدنى الجانب الغربي بالقرب من جامعة كولومبيا أو في وسط البلد في مكاتب جريدة «الجامعة». كثيرا ما كان يعبر الجسر (جسر بروكلين؟) مشيا باتجاه واشنطن ستريت أو «قرية غرينيتش». أحيانا في أوائل عام ١٩٠٨ بدأ السكاكيني يستخدم مواصلات الأنفاق بعد أن تم حفر نفق يربط بروكلين بمانهاتن.

عندما انتقل السكاكيني إلى ولاية «مين» فإنه أعطى عائلته الانطباع بأن المصنع كان يقع بشكل ما خارج مدينة نيويورك. وإيماءاته إلى معارف في ميشيغان وشيكاغو البعيدتين كانت تتم باستخدام تعبير «داخل البلاد». وكان يسكن رمفولد فولز بحسب تعبيره «الفرنسيون» و«الفرنسيات» في الغالب - وكثيرون منهم لا يحسنون الإنجليزية. ولم يشر السكاكيني إلى من يكون أولئك الفرنسيون، ويبدو أنه كان يظن أنهم مهاجرون أوروبيون لا مواطنين من كيبيك وأكاديا.

في كل تنقلاته في نيويورك ونيو إنجلند كان خليل يتحرك في نطاق دوائر المهاجرين العرب. وكان هؤلاء في مطلع القرن العشرين من أصحاب الحوانيت والباعة وتجار الشنطة. وقد وجد صحبتهم فظة وعشرتهم مملة، واستمر يكتب عن توقه إلى حلقته المتنورة المثقفة في القدس.

«الشعب السوري هنا على الإجمال منحط جدا في أخلاقه ومبادئه، ولا أحضر مجلسا من مجالسهم إلا كان لي صدر المحل، لا يستطيع شاب أن يجري ذكر النساء أمامي. كم أحب لو كانت لهم جمعية أدبية أرفع فيها صوتي وأدعو إلى مبادئي التي لا يحلمون بها.» [٢٤]

ظلت الثقافة الأميركية غريبة عن السكاكيني. وأسوة بكثير من مواطنيه في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى كان له إزاء المجتمع الأميركي موقف «هم ونحن». لم يكن لديه في ذلك الحين مفهوم أميركا البوتقة التي تنصهر فيها الثقافات [٢٥]. ظل كثيرون من العرب يتزيون بأزيائهم ويتبعون عاداتهم، بما في ذلك تدخين النارجيلة في المقاهي كما تظهر صور عديدة التقطت في ذلك الزمن في بروكلين، وفي «سوريا الصغيرة»[٢٦]. كان خليل يتناول طعامه أثناء إقامته في نيويورك في المطاعم السورية، ويشتري حاجياته من الحوانيت العربية أو اليونانية ويقرأ الصحف العربية. كانت أحياء بروكلين باردة فظة. ويسجل خليل خمس حالات على الأقل هوجم فيها أصدقاؤه - وفي إحداها أخوه يوسف - من قبل من أسماها «عصابات الشوارع الأميركية». ولم يتم رفع شكوى للشرطة إلا في حالة واحدة، ووجدها غير متفهمة، لا بل هددت باعتقالهم جميعا[٢٧].

وفي آخر فترة إقامته فقط أظهر خليل اهتماما ضئيلا بالثقافة الأميركية والمشهد الأدبي. في نهاية إقامته بدأ يقرأ الإيفننج ستاندارد، ويزور متحف المتروبوليتان. وفي مناسبتين اثنتين تمكن فرح أنطون من حمل خليل على مرافقته إلى المسرح في برودواي، ولكن خليل وجد المسرحية الموسيقية صاخبة ورأى فيها مضيعة للوقت.

في دراسة لأوائل المثقفين العرب الذين يقيمون في أميركا يضع ميخائيل سليمان المؤلف السكاكيني - وهو أكثر المربين في تلك الحقبة تحررا - في خانة التقليديين، ولاسيما عندما يقارنه بالمفكرين الاشتراكيين مثل فرح أنطون والطبيعيين التولستويين مثل ميخائيل نعيمة - وكانا معاصرين لخليل في نيويورك[٢٨]. هذا الحكم هو جزئيا انعكاس لعدم قدرة السكاكيني على الانخراط بأي شكل إيجابي في المشهد الأميركي، ولكنه أيضا

يعكس ردّ فعله السلبي لاقتحام النساء المجال العام في الحياة. في زيارة قام بها عام ١٩٠٨ للشاطئ في جزيرة كوني مع صديقه الياس حيدر أصيب السكاكيني حقا بالصدمة والاشمئزاز لمنظر الرجال والنساء يمرحون ويلهون على الشاطئ بملابس البحر[٢٩].

رغم كرهه للعادات الأميركية كان لخليل نظرات ثاقبة وساخرة بخصوص الحياة اليومية. «فالأميركي يأكل في سرعة ويمشي في سرعة»، كما كتب لمجلة السفور (القاهرة)، «... إنهم سريعون إلى درجة أن لديهم مطاعم أسموها «الوجبة السريعة»، حيث لا ترى كراسي، إذ يأكل الزبائن واقفين. وقد يحدث أن يغادر المرء المطعم وفي فمه لقمة!» [٣٠] ولأنه كان يعيش وسط الباعة السوريين والأرمن فقد غدا شديد الافتتان بطريقة سلوكهم، ولاسيما بنظرتهم إلى أخلاقيات العمل التي تعكس ثقافتي عالمين مختلفين:

«من زار أميركا من الشرقيين بعد أن يكون قد زار أوروبا رأى بينهما فروقا كثيرة منها ما نشير إليه هنا تفكهة وتبصرة:

إن السرعة في أميركا تكاد تكون خمسة أضعافها في أوربا. فما قولك في الفرق بينها وبين الشرق؟!

الأميركي يمشي في سرعة، ويعمل في سرعة، ويتكلم في سرعة، ويأكل في سرعة...

إذا أردت أن تعرف كيف يتحرك الأميركي في سرعة البرق الخاطف فقف على ظهر السفينة التي تقلّك عند أول ميناء تصله وانظر تلك الحركة الهائلة التي تخطف الأبصار، يفرغون جبالا من الشحن في أقل من ارتداد الطرف.

بل قف في أول محطة للقطارات أو الترامات وانظر الألوف من الناس كيف ينزلون أو يركبون.

أو ادخل أحد المعامل وانظر كيف يعملون.

أو ادخل الجامعات أو الكليات أو المدارس في أوقات اللعب وانظر كيف يلعبون.

أو ادخل إلى أحد المصارف مع مئات الداخلين، وانظر كيف يكتبون ويحسبون ويقبضون ويصرفون وينهون أشغال الناس بأسرع ما يمكن أن يتخيله الإنسان.»[٣١]

قلب سلطانة القاسي

كان السكاكيني يقضي في نيويورك ليالي لا يطعم فيها النوم وهو يتذكر روحاته وغدواته مع سلطانة في عين كارم وارطاس وبيت جالا غالبا، وفي مناسبتين اثنتين في رام الله. وقد باتت في بيتهم عدة مرات بموافقة أهلها[٣٢]. وبينما كان أحد أهم الدوافع لسفره إلى أميركا كسب ما يكفي من المال للإقتران بسلطانة، غدا واضحا من توسلاته لها أنها ليست ملتزمة كل الالتزام بفكرة الزواج.

كتب خليل ما مجموعه ٤١ رسالة إلى سلطانة، ٢١ منها بعثها من نيويورك. وقد وصل إلينا من هذه كلها ٣٥ رسالة تتيح لنا أن نطل على علاقتهما وأن نتعرف إلى طريقة التودد قبل الزواج في فلسطين في فترة ما

قبل الحرب العالمية الأولى. لقد غادر السكاكيني فلسطين ولم يخطب سلطانة رسميا، ولهذا بقيت العلاقة بينهما سرية محجوبة عن عائلتيهما. ولم يكن يعرف بأمر تعهداتهما للآخر سوى داود. ورغم توسلاته، ورغم بضعة تهديدات بأن يقطع العلاقة إن لم تستجب، فإن سلطانة لم تكتب لخليل وهو في أميركا سوى مرة أو مرتين. كان ثمة ثلاثة أفكار رئيسية تتكرر في كل رسائله: إعادة وصف كل لحظة قضاها معها في القدس وخلال نزهاتهما في محيط المدينة، وقلقه من العودة وليس معه ما يكفي من المال لجعله في عينها جديرا بها، وشعوره الجارف بأنه عديم الأهمية وشعوره بأنه يحرم رجالا آخرين أكثر ملاءمة منه للزواج منها.

وخلافا لفقرات يومياته التي تتضمن وصفا مستفيضا لحياته في بروكلين وعمله في مانهاتن فإن رسائل الحب التي كتبها السكاكيني تتمحور حول الحنين إلى الماضي - أو حول تأنيب الذات لأنه سمح لنفسه بمفارقتها. كتب في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٧: «اشرحي لي يا سلطانة لماذا سمحت لي بالافتراق عنك؟ إن كل ما في أميركا من ثروات وعجائب لا تزن في عيني الخسارة والألم اللذين أعانيهما في غيابك عني. وماذا لو أخفقت في نهاية المطاف. تقولين: ما هما إلا سنتان. ولكن سنتين في البعد عنك هما كألف سنة»(٣٣).

بعد احتفالات رأس السنة الجديدة في نيويورك توجه مع أحد معارفه من القدس وهو الدكتور نجيب جمل للتفرج على المدينة من على ناطحة سحاب في مانهاتن. أخبر جمل «خليل» أنه يرغب منه في أن يتوسط له لطلب يد سلطانة: «لقد بدأ [الدكتور جمل] يطنب في وصف حسنك ومزاياك. وقبله سمعت ثناء كهذا من عيسى العيسى [لاحقا محرر جريدة «فلسطين» في يافا] ومن أفتيم مشبك.. آمل أن أكون مستحقا ثقتك ومحبتك». والغريب أن خليل لم يجد الجرأة الكافية في نفسه بأن يخبر الجمل عن علاقته بسلطانة.

بعد أشهر من التوسل والاستجداء ردّت عليه سلطانة بخطاب واحد. يعكس أسلوبها موقفا واقعيا مباشرا إزاء حديثه عن بؤسه، ولكنه يظهر أيضا بلاغة أدبية في استعمال اللغة. وأسلوب سلطانة، كخليل، محدث وخال من العبارات المنمقة التي كانت شائعة بين الكتاب العرب آنذاك. كانت كتابتها النقيض لعاطفته الزائدة، ولرثائه للنفس وفورات تحقير الذات التي كانت تنتابه.

«عزيزي خليل

وصلتني جميع رسائلك عن يد يعقوب [فراج] ابن خالتك، فأشكرك عليها، وعلى حبك الخالص.

كنت أرجو أن تكون إنجيلا لي، ولكن بكل أسف أقول: إني لا أقدر أن أقرأها أكثر من مرة أو مرتين، لأني أتألم كلما قرأت أنك تقضي أوقاتك بالنوح والبكاء كلما ذكرتني.

إني لم أمت بعد لتجعل دموعك سواقي، وكلامك مراثي.

لماذا لا تبتسم كلما ذكرتني. لا تجعل البشاشة تمحى عن وجهك يا خليل.
ألا يوجد في أميركا خبر سار، أو شيء عجيب، تحدثنا به. ما هذا يا خليل؟! لا تجعل البكاء شغلك الشاغل.»

يظهر من الرسالة إلى أن سلطانة ملتزمة بالعلاقة، ولكنها لا تريد أن يعتبرها خليل بحكم المخطوبة. وفي مناسبتين أخريين على الأقل أومأت إليه بأن لا شيء مضمونا. في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٧ مثلا كتبت إليه - عندما كان يتهيأ لبدء رحلته إلى أميركا - «سوف أتعهد لك بحبي ما دمت قادرة على التحكم في مصيري»، ثم أضافت عبارة غامضة: «ما أشد سعادتك وابتهاجك، ولكن لا راحة لمن تتركهم خلفك»[٣٤]. واضطرب خليل. وردّ من فوره: «ماذا تقصدين؟ هل تقولين إنك لو صادفت شخصا آخر، أو لو أن أهلك اقترحوا بديلا، أو أجبروك على بديل فإنك ستخضعين؟ آمل ألا يكون هدفك أن تعذبيني بهذا الكلام». ثم استخدم تورية باسميهما: «وما يمنع أن أكون خليلك وأن تكوني سلطانتي؟ فلتأخذك يا سلطانتي الرأفة بخليلك»[٣٥].

بعد عدة أشهر في أميركا بدأت آمال خليل في الحصول على دخل ثابت تتبدد. وتوقف طلبته القلائل الدائمون، ومعظمهم من طلبة جامعة كولومبيا، عن التردد عليه بانتظام لقلة مواردهم. وكان الباحثون الذين يكلفونه بتصحيح أعمالهم يتأخرون في الدفع، وكانت جريدة فرح أنطون «الجامعة» تخسر باستمرار. وقد حزم أمتعته ورحل يائسا إلى ولاية «مين» للعمل في مصنع ورق لقاء أجر موعود هو اثنا عشر دولارا في الأسبوع. ولما كانت نفقات السكن والطعام تبلغ ستة أو سبعة دولارات فقد قدّر السكاكيني أنه يستطيع توفير خمسة دولارات صافية أسبوعيا.

ولكن لم يمض طويل وقت إلا وقد أجهده العمل في مصنع الورق. في القدس كان معلما محترما، وإن لم يكن يتقاضى ما يستحق من مال، وكان مواطنا ذا مكانة في مجتمعه، وكان محاطا بأصدقاء يحبونه ويحبهم. كان له في داود وسلطانة ما يمنحه الأمل والعزاء. ولسوء طالعه مات داود، وسلطانة لا تستجيب لرسائله. وبحلول الربيع كان قد بلغ منه اليأس كل مبلغ. في يوم الجمعة ١٧ تموز/يوليو ١٩٠٧ كتب إليها من رمفولد فولز:

«حبيبتي سلطانة:
ربما هذه آخر مرة أناديك حبيبتي لأن هذا النداء يعني أني لك وأنك لي كما كانت أحلامنا، نعم، على هذا تعاهدنا، ولكن هل يحق لمن كان مثلي تعسا شقيا محروما بل عاجزا عن إدراك أمانيه، قاصرا عن البلوغ إلى ذروات المجد وشرفات العز، أن يمني نفسه بالحصول عليك، ويقرن حياة سعيدة إلى حياة شقية. نعم يا سلطانة حياتي شقية. أنا ابن الشقاء، حولي نظرك عني لئلا يعلق بك شقائي. انبذيني نبذ النواة، انكثي

حبل ودي، اقطعي علائقي، اهجريني إلى الأبد، مزقي رسائلي، احرقي كل آثاري، انسيني، لا تذكري اسمي، فإنه أحقر من أن يخرج من شفتيك الطاهرتين.» (٣٦)

كتب خليل ثلاث رسائل على هذا النحو. كتب في رسالة، لم يقم بإرسالها: «أتمنى لو لم أكن عرفتك يا سلطانة ... كل الناس يحبونك. اختاري محبا يستطيع أن يسعدك». ثم أضاف ملاحظة لم يسبق أن ورد مثيل لها في رسائله السابقة: «أكتب إليك بلغة ما كنت أجرؤ أن أكلم بها أمي أو أختي .. لأنك استبدلت بقلبك الرقيق قلبا أصلب من الفولاذ وأغلظ من الغرانيت أكلمك على هذا النحو»(٣٧).

ولكن، في غضون عشرة أيام عاد إلى سابق عهده. كانت لهجته ما زالت متحفظة ولكنه استعاد ثقته. وعادت مرة أخرى «حبيبته». كتب في ٢٧ تموز/يوليو: «أتهيأ لرحلة العودة للوطن، أتمنى أن أطير إليك طيرانا. وآمل أن يكون لقاؤنا بداية حياة جديدة وسعيدة. سأعود وحبي يثقله الحزن والألم، ولكن مرارتي ستتبخر في اللحظة التي أراك فيها تبتسمين. أنت عزائي، وبهجتي»(٣٨).

حب مراوغ

لئن كانت صورة سلطانة وما تبثه من أمل قد أعانت «خليل» على الفرار من هموم الحياة اليومية في نيويورك فإن داود الصيداوي كان الإيقونة التي تشدّه إلى جذوره في القدس. وذكرياته عن داود تشبه الأحلام، كما أن داود كان يظهر دائما في أحلام خليل التي كان يحرص على تدوينها كل يوم. قبل أن يغادر القدس كان داود «شقيق روحه»، وموضع نجواه. كان الوحيد الذي يسرّ إليه بأمر علاقته بسلطانة وبتطوراتها ومشاكلها.

كان موت داود (الذي أبلغته به في رسالة «مس سنكير« التي لا نعرف عنها شيئا، وذلك بعد أربعة أشهر من وصوله إلى بروكلين)(٣٩)، كان أكبر نكسة تلقاها خليل أثناء إقامته في أميركا.

«يا داود يا يوناثاني، يا حبيبي، يا شقيق روحي، يا شطر حياتي، يا كل آمالي، يا كل سروري، يا كل سعادتي، كيف تركتني وحدي؟ ليت أيامي انقضت وأنفاسي تصرمت قبل أن تنقضي أيامك وتنصرم أنفاسك، ليتني أدرجت في كفني قبل أن أدرجت في كفنك، ليتني أنزلت في حفرتي قبل أن أنزلت في حفرتك.» (٤٠)

ورسائله مفعمة بالإيماءات من الكتاب المقدس («يا يوناثاني»، «فلتدع يدي اليمنى»، إلخ) ممزوجة بالعبارات المنمقة المقتبسة عن المنفلوطي، في مطلع القرن. (وقد اختفى هذان العنصران من أسلوبه بعد عودته إلى فلسطين). في يوميات خليل الأميركية ظل داود شخصية مهيمنة في الحياة والموت. وهو يظهر بأكثر الصور حيوية في تدوين خليل لأحلامه بالتفاصيل الخلابة. بعد شهر من وصول نبأ وفاة داود يتذكر السكاكيني لقاء في يافا

«في مثل هذا اليوم من شهر ت١غ/١٩٠٧، أي قبل أربعة أشهر تعانقنا على شاطئ البحر المتوسط، ألقيت رأسي على صدرك وبكيت البكاء المر كأني أحسست أن فراقنا سيكون إلى الأبد. ركبت أنا البحر وأنت وقفت على الشاطئ عاقدا يديك على صدرك تشيعني بنظراتك المملوءة عطفا ومحبة، ولست أعلم ماذا كانت أفكارك في تلك الساعة. هل خشيت أن تعترضني الخيبة ويلازمني الشقاء، أم خشيت أن تموت فلا أعود أراك؟ لقد وقع ما كنت تحاذره. إذا وقفت غدا على ذلك الشاطئ ولم تكن هناك فماذا يعزيني؟ سأقبل ترابا وطئته قدماك، سأقف هناك أنظر إليك وأنت على الشاطئ الآخر، شاطئ الحياة الأبدية ولكن بعين دامية..» (٤١)

بعد هذا المدخل في اليوميات نرى ظاهرة جديدة باعثة على الدهشة: في تدوينه لأحلامه يبدأ شخصا داود وسلطانة بالتداخل والإنصهار. ليس واضحا ما الذي كان يدور في عقل خليل، ولكنه يبدو أن هذا الربط هو نتيجة الشعور بالخسارة المزدوجة: خسارة داود المادية بالموت، وازدياد الجفاء من جانب سلطانة.

في شباط ١٩٠٨، نقرأ هذا المدخل الغامض في اليوميات:

«قضيت الليل كله معك. نمت نوما متقطعا. قمت صباحا خائر القوى فلزمت فراشي النهار كله، فتذكرت أمي وأيام سعادتي فلم أتمالك دمعي.» (٤٢)

ومرة أخرى في ٧ آذار يكتب ما يلي:

«حلمت أني كنت في القدس وأني كنت راجعا معك في المساء إلى دارنا في البلد، فلما قربنا من الباب رأيت باب جيراننا مفتوحا، ولما دخلنا قبلتك.»(٤٣)

ولكن سلطانة كذلك لم تكن تستجيب لعواطفه. كان شخص داود الطاغي، رغم أنه لم يعد موجودا بلحمه ودمه، يمتزج بشوقه للحصول على حب سلطانة الذي كان يفرّ منه باستمرار. كان موضوعا هيامه – داوود وسلطانة – يتحدان في تخيلاته.

المدينة الزائلة العابرة

كان كل مدخل في اليوميات تقريبا مما كتب في بروكلين أو رمفولد فولز يبدأ وأحيانا ينتهي بسرد للأحلام. معظم هذه الأحلام تحدث في مكان معين بالقدس – نزهات مع سلطانة، أحاديث مع داود، نزهات عائلية، وأحداث غريبة يشترك فيها أشخاص شتى من المعارف. وكثيرا ما كانت هناك مشاهد للموت والدفن والصعود. وكانت تلك الإسراءات إلى المدينة المقدسة عبارة عن هروب من نيويورك، أو أن «خليل» كان يجد نفسه محمولا في الفضاء من نيويورك إلى القدس. وبهذه الصفة أضحت نيويورك في هذه الأحلام مكانا لإقامة عابرة.

في كل حلم مفصل هناك فكرة وجود تضادّ بين شخصية خليل الأميركية وبين كونه «ابن القدس».

ومعظمها يقارن بشاعة نيويورك الصناعية بوداعة فلسطين الطبيعية. العودة إلى القدس، بالنسبة له فرار من الآلة المتوحشة للمدنية الكبرى الأميركية.

وقد تجسد هذا أخيرا في الظروف الصعبة التي مر بها السكاكيني وهو يعاني أشد المعاناة في مصنع الورق في رمفولد فولز، ولاسيما عندما تقارن بالحقول الواسعة في الريف عند عين كارم وارطاس. في هذه الأحلام لا يبقى من القدس سوى ريفها (في «كذا أنا يا دنيا» كتب: «ليس من فرق هنا بين الناس والآلات. العامل يتحرك بلا فكر ولا إرادة، وبدون أي أثر لإعمال الذهن في ما يؤديه من عمل. على المرء ألّا يستغرب إن رأى روح العامل ومشاعره تموت. إنهم يعملون عشر ساعات يوميا بدون أية راحة أو بقليل منها فقط، ويتقاضون ما لا يزيد عن دولار ونصف دولار لقاء هذا العمل. إن ظلم رأس المال لا حدود له. ما أقبح وأقسى هذه الحضارة»[٤٤]. ولكن، على المرء ألا يغالي في مشاعر السكاكيني ضد الرأسمالية، فنقده موجّه إلى الطبيعة الخالية من الروح لرأس المال وليس إلى طبيعته الاستغلالية. في أحلامه نرى «خليل» لا يقاتل، بل يهرب.

ومن الأفكار المتكررة في هذه الأحلام المقارنة بين المعاصرة الباردة في نيويورك والدفء الموروث في الحياة الاجتماعية في القدس. هذه المقارنات والتضادات يتم التعبير عنها بالتغيير المستمر في الزي، والانتقال باستمرار فيما بين الزي الأوروبي والعربي[٤٥]. فيما يلي مثال نموذجي من اليوميات:

«حلمت أني رجعت إلى القدس، وكنت لابسا البرنيطة على القنباز، فاستحييت بها فنزعتها ومشيت بدونها، وكان النهار حارا. مررت من وسط العمارة الروسية من أمام القنصلاتو =[القنصلية]، ونزلت من الطريق الجديدة بين دار الحلبي ودار فيضي أفندي العلمي، وما وصلت آخر هذه الطريق حتى رأيت نفسي حافيا بدون قمباز وعليّ عباءة بيضاء، فاعترضتني جارية سوداء وقالت: ماذا تريد؟ فقلت: أريد أن أذهب إلى دارنا، فأشارت إلى سياج وقالت: ثب من فوقه فوثبت فعلقت عباءتي بالشوك فتعبت في تخليصها..» [٤٦]

إن الذهاب إلى القدس تعترضه دائما العقبات وهناك طرق فرعية للهروب (من نيويورك؟). وثمة دائما قفز فوق الأسوار، وارتداء ملابس وخلع ملابس على نحو ما كان خليل ليدونه إلا مترددا لو كان على علم بما كان فرويد قد كتبه قبل سنوات. قبل وفاة داود مباشرة كتب خليل المدخل التالي عن صديقه. (في هذه الحادثة بالذات، مثلما في حادثات أخرى عديدة، يدهش المرء للإشارة الإيمائية للمسيح في العشاء الأخير):

«كنت في القدس مع داود وقد امتلأ قوة وحياة وأشرق وجهه بابتسامات حلوة، فمررت معه على مخزن الأميركان[٤٧] ولكن لم ندخل، ثم مررنا على مخزن الطرزي فكانوا يبتسمون لنا. كنت أقول لداود الحمد لله قد خلصت من الموت، فيجب أن تعتني بصحتك أشد الاعتناء لئلا تقع في ما وقعت فيه مرة ثانية، ثم رأيت نفسي أثب على سطوح المنازل إلى أن جئت إلى سطح منزلنا فنزلت ولكن عاريا.»[٤٨]

وعندما عاد خليل أخيرا إلى القدس توقفت الأحلام، أو أنه توقف عن تسجيلها[٤٩].

عند قراءة المذكرات كاملة يتضح للقارئ أن «مهمة» السكاكيني الفاشلة في نيويورك كانت مجرد حدث عابر. وقلما تطرق إليها في كتاباته اللاحقة. لقد انخرط سريعا في معركة مختلفة: السعي إلى إصلاح تعليم اللغة العربية، التحرك نحو الإصلاح الدستوري العثماني، النضال من أجل تعريب الكنيسة الأرثوذكسية. لقد استقبلته سلطانة استقبالا دافئا، وإن لم يكن حماسيا. وأصبحا خطيبين رسميا قبل انقضاء العام. وتزوجا في القدس في ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩١٢، وكانت سلطانة في الرابعة والعشرين وخليل في الرابعة والثلاثين. وقد أنجبا ثلاثة أطفال: سري الذي مات في أول سن الرجولة وأورث أباه الحسرة، وهالة التي نشرت عدة كتب عن والدها، بما في ذلك مختارات من يومياته («كذا أنا يا دنيا» ١٩٥٥)، ودمية التي توفيت في رام الله عام ٢٠٠٣، في كل ما كتب عن حياة السكاكيني من كتب ومقالات تعتبر فترة إقامته في أميركا فاشلة، وسنة مفعمة بالبؤس[٥٠].

أما هالة السكاكيني فكان لها وجهة نظر مخالفة في هذا الموضوع، حيث تبدي هذه الملاحظة المختصرة في مذكراتها هي: «ذهب (إلى أميركا) آملا أن يجد عملا مناسبا وأن يستقر هناك في نهاية المطاف، ولكنه لم ينجح، وتبين أن السنة ١٩٠٧/١٩٠٨ كانت من سنوات الكساد في أميركا. وبعد غيبته تسعة أشهر، عانى فيها من مشكلات عديدة، عاد أبي إلى القدس. وحتى هذه التجربة، رغم أنها امتلأت بالشقاء، فقد أثرته من عدة نواح»[٥١].

على أن كل من كتب سيرته، بمن فيهم هالة السكاكيني، لم يجر توضيح ما هي مؤثرات تلك الرحلة على شخصيته. ومن قراءتي لتلك الرسائل والمداخل في اليوميات التي لم تعرف طريقها إلى النشر قبل الآن نجد ثلاثة أبعاد اغتنت بها شخصية السكاكيني نتيجة إقامته في المهجر. أولا، التجربة الغنية التي ساعدت بها الحياة الثقافية لنيويورك، رغم كل ما فيها من بؤس، في توسيع وحث آفاقه الفكرية. وقد عرفه عمله مع فرح أنطون تحديدا على كتابات نيتشة التي أصبح لها - بشكل ما - تأثير أساسي في تفكيره[٥٢]. وأهم من ذلك أن عمله التحريري في «الجامعة» جعل لغته أرشق وأقل زخرفا كما غدا واضحا من تحريره للمجلة الثقافية «الأصمعي» في القدس بعد عودته من نيويورك. بعد عدة سنوات، وبينما كان يقضي أشهرا عصيبة في السجن العثماني في دمشق، عاد خليل بفكره إلى السنة التي قضاها في بروكلين وانتابه حنين إليها[٥٣].

أخيرا، لا شك أن هجرة السكاكيني الأولى، والمآسي التي حلت بخليل في تلك الفترة، من وفاة داود وتردد سلطانة في مبادلته العواطف، قد ساعدته في التأمل في معنى الحب والفقدان. أما الأول (الحب) فلم يعد يأخذه على أنه مضمون (فقد كان عليه أن يقاتل للحصول على حب سلطانة)، وأما الثاني فقد حصن شخصيته وجعلها أصلب. لم يعد يطمئن إلى العثور على الراحة في بيئته التقليدية، الأمر الذي كان الرجال في سنه يتهيأون له في العادة. لقد كانت تلك المصاعب امتحانا لشخصيته وعمق مشاعره. لقد بذرت هناك

بذور التمرد والشك - ونبتت وأصبحت أكثر تركيزا بعد عودته إلى القدس ليواجه معارك فكرية عشية الحرب العالمية الأولى: الصراع ضد طغيان الدولة، وضد مجتمعه التقليدي.

أجمل ما في مذكرات السكاكيني هو استحواذه واسترجاعه لآنية اللحظة كما عايشها. ضوضاء الحشود المكتظة في السفينة من الأسكندرية إلى مارسليا؛ طعم الخبز المغمس في الطحينة والعسل - فطوره اليومي؛ ارتعاشه وهو يقرأ رسائل سلطانة في شقته الصغيرة في بروكلين؛ نقاشاته مع فرح أنطون في مكاتب جريدة الجامعة - في سوريا الصغيرة - حول فلسفة القوة؛ بكاؤه المرير على وفاة صديق العمر داوود صيداوي؛ لهاثه وهو يركض خوفا من بطش عصابات نيويورك. كل هذه الأمور حدثت مساء الأمس، بل صباح اليوم، دونها خليل بعناية في دفتره ثم أطفأ الشمعة ونام عليها. ثم عادت لنا بعد مائة عام وهي مليئة بالحيوية والعنفوان.

ملاحظات

١- هذا المجلد هو الأول من ثمانية مجلدات تشمل المذكرات الكاملة لخليل الساكاكيني وستظهر تباعا عن مركز خليل السكاكيني في رام الله ومؤسسة الدراسات الفلسطينية في القدس وبيروت.

٢- في حديث مع زكريا محمد، كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٣

٣- عبد الحميد ياسين (وآخرون)، ذكرى السكاكيني، المكتبة العصرية، القدس ١٩٥٧، ص٨٨-٨٩، للمزيد بشأن منهجه التعليمي انظر يوسف أيوب حداد: خليل السكاكيني، حياته وأفكاره، وتراثه (بالعربية)، الصوت، الناصرة، ١٩٨٥، ص ٢٢٣-٢٢٧.

٤- حداد، ص ٦٩- ٧١

٥- الحسيني، السكاكيني، ص ٦٠- ٦٣

٦- خليل السكاكيني في «كذا أنا يا دنيا».

٧- الحسيني، السكاكيني، ص ٦١

٨- إلى حين توفر اليوميات فإن المصدر المتاح الوحيد كان مذكرات ابنته هالة السكاكيني: أنا والقدس: سجل شخصي، المطبعة الاقتصادية، عمان، ١٩٨٧، ص ١- ١٠

٩- المصدر السابق: ص٣

١٠- نصيحة أب لابنته، في هالة السكاكيني، الأرشيف الشخصي، القدس ٢٠٠٠، ص ٢٣-٢٤

١١- كنت بلغت مرحلة متقدمة في الكتابة عندما عرفت معلومة بدا لي أنها تحمل كشفا مهما. ذكر لي ابن عمي الياس أن أخت نقولا عبده، هيلانة، كانت متزوجة من الياس تماري، جدي. وهذا يجعل سلطانة عبده بنت أخي جدتي (لأبي) هيلانة المباشرة.

١٢- المصدر السابق، ص٤

١٣- كذا أنا يا دنيا، رسالة إلى داود ﴿صيداوي﴾، القدس، ١٠ تشرين الثاني/ أكتوبر ١٩٠٧.

١٤- وجدنا مثلا أنه اقترض مالا منها لرحلته. وفي مناسبات قليلة أخرى أعطت هي بعض الجنيهات لوالدته عندما

سمعت أنه وأخاه يوسف الذي كان بائعا متجولا في فيلادلفيا لا يتمكنان من إرسال أي مال لها .

١٥- هذا هو رأي إسحق موسى الحسيني ، في خليل السكاكيني ، (مرجع سابق) .

١٦- منصور فهمي ، «محمد كرد علي وخليل السكاكيني» ضمن ياسين ، ذكرى . . ص ١٠٨

١٧- ي خ س ، رسالة إلى سلطانة ، لندن ، ٢٢ آب/ أغسطس ١٩٠٨

١٨- ي خ س ، رسالة إلى ميليا ، نيويورك ، ١٤ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٠٧

١٩- ي خ س ، رسالة إلى داود صيداوي ، نيويورك ، ١ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٨ ، هذه الرسالة بالذات نشرت أيضا في كذا أنا يا دنيا ، ص ١٧ .

٢٠- ي خ س ، رسالة إلى سلطانة ، نيويورك ورمفولد فولز ، ٢٧ تموز/ يوليو ١٩٠٨ .

٢١- ريتشارد ج.هـ. غوتهيل (١٨٦٢- ١٩٣٦) أول رئيس لدراسات الأدب التوراتي واللغات السامية في جامعة كولومبيا . في عهده تم إدخال تدريس عدد كبير من اللغات السامية والمساقات الأخرى ، وتوسيع المكتبة بشكل كبير . كانت علاقته بالسكاكيني طيبة ، ولكن كما يبدو من يوميات السكاكيني ، فإن غوتهيل لم يكن واعيا بالأزمة المالية الخانقة للسكاكيني . وقد افترض ، مخطئا ، أن الدافع وراء قيام السكاكيني بالعمل معه على المخطوطات العربية هو حب السكاكيني للموضوع . وقد حاول مساعدته ذات مرة في بيع بطاقات صور للأرض المقدسة للأساتذة الآخرين في كولومبيا . (ي خ س ، و www.columbia.edu ، و«الدرسات اليهودية في كولومبيا قبل سالو بارون») ، وفي النهاية دفع للسكاكيني خمسة وعشرين دولارا لقاء عمله ، ولكن بعد أن حثه الأخير .

٢٢- غوتام غازيت ، «تاريخ نيويورك العربية» ، مراجعة على الانترنت ، ٢٢ آب/أغسطس ٢٠٠٢

٢٣- المرجع السابق ، أنظر أيضا فيليب كوراتا «العرب الأميركيون في نيويورك» ، واشنطن فايل ، ٢٥ حزيران/ يونيو ٢٠٠٢ ، كتب كوراتا : «بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية فإن من الدوافع المهمة للهجرة العربية في أوائل القرن العشرين إقرار قانون عثماني في عام ١٩٠٨ يجعل الخدمة العسكرية إجبارية على المسيحيين واليهود ، وكانوا قبلئذ معفيين منها ، أصبحت «أدنى الجانب الغربي» «المستعمرة الأم» لكل الجمهرات العربية المهاجرة التي استقرت بعدئذ في الولايات المتحدة .»

٢٤- المرجع السابق- « كيف تفكر بروكلين بمهاجريها؟ كتبت إحدى صحف نيويورك : «ليس هناك من يمثل الشرق بأفضل ما يمكن من المثابرة والقدرة مثل السوري .»

٢٥- أنظر جوناثان فريدلاندر ، «مشاهد نادرة ، صور لأوائل المهاجرين العرب في نيويورك» ، ضمن ك. بنسون ، و فيليب كيال ، مجتمع ذو عوالم عديدة : العرب الأميركيون في نيويورك ، مطبعة جامعة سيراقوزة ، نيويورك ٢٠٠٢ .

٢٦- أنظر الصور الفوتوغرافية المرفقة بمقالة فريدنلاند . المرجع السابق .

٢٧- ي خ س ، أحد الفصح ٢٦ نيسان / ابريل ١٩٠٨ : رغم أنه يبدو من نص هذه الحادثة أن يوسف نفسه كان سكرانا ووجه كلاما نابيا للشرطة وهو يطلب منها الحماية .

٢٨- ميشيل سليمان ، انطباعات عن نيويورك من قبل مهاجرين عرب أوائل ، ضمن مجتمع من عوالم عديدة ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .

٢٩- ي خ س ، ٢ آب/ أغسطس ١٩٠٨

٣٠- خليل السكاكيني ، « الحياة الأميركية» السفور ، القاهرة ، ١٩١٨ ، أعيد طبع المقالة في خليل السكاكيني ، ونشرت في «ما تيسر» ، الجزء الاول ، المكتبة العصرية ، القدس ١٩٤٣ ، ص ٩٥-٩٨ ، كذلك اقتبست في سليمان ، مرجع سابق .

٣١- ميشيل سليمان ، مرجع سابق ، و«ما تيسر» ص ٩٦ .

٣٢- أنظر رسالة إلى سلطانة، ي خ س، ٢٠ تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٠٧

٣٣- ي خ س، رسالة إلى سلطانة، ٢٠ تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٠٧

٣٤- ي خ س، رسالة إلى سلطانة، ١١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠٧

٣٥- المرجع السابق

٣٦- ي خ س، رسالة إلى سلطانة، الجمعة ١٧ تموز/ يوليو ١٩٠٨ (مقتطفات)

٣٧- ي خ س، رسالة غير مؤرخة إلى سلطانة، ﴿تموز/ يوليو ﴾ ١٩٠٨

٣٨- ي خ س، رسالة إلى سلطانة، ٢٧ تموز / يوليو ١٩٠٨

٣٩- ي خ س، ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٨

٤٠- ي خ س، المرجع السابق

٤١- ي خ س، ٢٢ شباط/ فبراير١٩٠٨

٤٢- ي خ س، ١٠ شباط/ فبراير ١٩٠٨

٤٣- ي خ س، ٧ آذار/ مارس ١٩٠٨

٤٤- كذا أنا يا دنيا، ص ٢٢

٤٥- كتب الحسيني عن زي خليل السكاكيني قبل الحرب العالمية الأولى: «كان يرتدي الملابس العربية التقليدية، القمباز (الغنباز)، والعباءة البيضاء في الصيف، وعباءة صفراء من الصوف في الشتاء، مع الطربوش على الرأس. قارن الحسيني، خليل السكاكيني اللوحة ١٧، (المرجع مذكور أدناه). ولكن كيف نفسر ملابسه الغربية الطراز في الصور التي تعود للعام ١٩٠٥ - ١٩٠٦؟ إما أنه كان يستخدمها لوثائق السفر الرسمية، أو أنه كان يلبس أزياء مختلفة بحسب المناسبة.

٤٦- ي خ س، ٢٩ شباط/ فبراير ١٩٠٨ (مقتطفات)

٤٧- النزل (والمدرسة) السويدي الأميركي الذي تم تحويله لاحقًا إلى فندق في حي الشيخ جراح.

٤٨- ي خ س، ٣٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٨ (مقتطفات)

٤٩- عاد السكاكيني لتدوين أحلامه بعد عدة سنوات، في العشرينات

٥٠- أفضل سيرة للسكاكيني هي: يوسف أيوب حداد، مرجع سابق،٤٥-٤٧؛ أنظر أيضا إسحق موسى الحسيني، خليل السكاكيني: الأديب المجدد مركز الدراسات الإسلامية، القدس ١٩٨٩، ص ٢٠-٢٤

٥١- هالة سكاكيني، أنا والقدس: سجل شخصي، ص٤

٥٢- الحسيني، السكاكيني، مرجع سابق، ص ٢٣

٥٣- السكاكيني، كذا أنا يا دنيا، المدخل في يوم الجمعة ٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٨، ص ١٢٤-١٢٥.

مقدمة المحرر

كأنه يحرس أرض الحكاية

للكاتب ما يُريده من كتابته، وللقارئ أيضاً أن يجد في ما يقرأ ما يشاء: هذه سُنَّةُ اللُّغة.

ومن النادر أن تُتاح لقارئ عربي فرصة قراءة يوميات (عربيّة) «طويلة الأمَد» لأسباب يطول شرحها، مُقارنةً مع المُتاح من مذكّرات تتولى في الغالب فلسفة التجربة، وقد تكون محاولة ترميم أو حتى إعادة بناء لها، فتتيح لعين أكثر من قارئ كي تغمز لمقصّ أكثر من رقيب، لقصّ أكثر من مشهد، وأحياناً لقصقصة «الفيلم» وإخراجه عن سياقه.

لكن هذه التي وصلت إلى أيدينا يوميّات حقيقيّة؛ يوميّات «من لحم ودم»، تتيح لك (كقارئ) الدخول إلى غرفة نوم أحدهم وإلى مطبخه. تتيح لك أن تتنفّس معه. أن تعبث بالأشياء والأدوات المحمّلة برائحة استعماله الطازج، حتى تشعر أن البيت بيتك، وأن الغرفة غرفتك.

وبإمكانك أيضاً أن تكون «فنّاناً» أكثر، وتقف، دون إزعاج من أحد وراء الباب، لتُمارس تصنّتاً مُمتعاً ومُباحاً على أحاديث تبدو عشوائيّة مُجمّعة بخيوط شبحيّة وعابرة للأزمنة والأمكنة والشخوص، لكنها أحاديث مفهومة ومُقنعة، يمكن وضعها في أكثر من سياق، وربطها مع أكثر من نسق.

بإمكانك أيضاً أن تُطل من ثقب المفتاح إلى داخل الغرفة لترى أشباحاً لأشخاص مجهولين تعرف بعضهم، أشباحاً تتحدّث وتتمازح وتلهو وتغضب وتشوّح بأيديها وتتشاجر: باشوات وخواجات ورجال دين وجنود وفقراء وشعراء ومحبون ومعذبون... الخ.

بإمكانك أيضاً أن ترى اللغة «مجنّطة» في مرحلة من مراحل نموّها، فترى مفاهيم مثل الأجنّة ما زالت خداجاً. مفردات في مرحلة التشكل في سياق لغوي محكوم بوعي مختلف للمكان وللجغرافيا. بإمكانك مثلاً، أن تبتسم عندما تعرف أن المعركة الجويّة سُمّيت ذات يوم معركة هوائيّة، وأن الطائرة «قامت» بدل أقلعت، وأن كرة القدم ليست إلّا «الطابة التي تُلعب بالرِّجل»، وأن الدروس الخصوصيّة هي دروس انفراديّة، كل هذا في مطلع القرن العشرين، مع الانتباه طبعاً، وَأَوّلاً، أن السكاكيني أفلت إلى حدّ مدهش من اللغة الكلاسيكيّة المنمّقة المحمّلة باشتراطات زمن آخر، ليكتب بلغة تغذّيها معرفة رياديّة وعميقة وحقيقيّة بالحياة وبالعصر.

وبإمكانك أن ترى «أناً ما» («أنا» السكاكيني هنا) وهي تنمو وتتشكّل وتتغيّر وتتبدّل يوماً بيوم على امتداد فترة طويلة، وللأسف متقطّعة نتيجة ضياع جزء كبير من اليوميّات، بحكم التنقّل بين أكثر من قارة وأكثر من بلد، وبحكم تراجيديّات فرديّة وجماعيّة هي جزء من تشكل تلك «الأنا» وتبلورها.

***

للكاتب ما يُريده من كتابته وللقارئ أن يجد في ما يقرأ ما يشاء: هذه سُنَّةُ اللُّغة. فماذا أراد خليل من

كتابته اليوميات هذه؟

.. في ظهيرة يوم ٢١ نيسان ١٩١٨، جلس خليل السكاكيني وراء طاولته في غرفته بمنفاه في دمشق، يعجُّ على سيجارته، يُفكِّر، يتأمَّل، يتذكر، ويكتب تفاصيل يومه. يومها كتب عن ارتفاع أسعار الخبز، عن زياراته وحواراته وجولاته وانطباعاته، ويومها بالذات، في غرفة تعبق برائحة دخان السجائر، تخيّل أن شخصاً ما يسأله هذا السؤال تحديداً، فكتب:

«ربّ سائل يقول: لماذا تكتب هذه اليومية، فأقول: إن لي في كتابتها أغراضاً عديدة: أولاً، قطع الوقت، أن أجلس وراء طاولتي فأكتب ما يحضرني، أحبّ إليّ من التجوّل في الشوارع أو الجلوس في محال القهوة، أو زيارة الناس ممن لا يفهمونني ولا أفهمهم. ثانياً، تدوين حوادثي وتأثراتي في وقتها واستيعاب ما يمرّ بي من الدروس والعبر. ثالثاً، وهو الغرض الأهمّ أن تكون يوميّتي هذه كتاباً عائلياً أصوّر لهم أيّامي في الغربة يوماً فيوماً، ما ألذّ أن نجلس في المستقبل في ليالي الشتاء فأقرأ على أحبابي أخباري، وأقابلها بأخبارهم التي أرجو أن تكون سلطانة قد تفطّنت لكتابتها يوماً فيوماً. رابعاً، ربّما نشطت في المستقبل لوضع كتاب في الحياة أو في أسلوبي، فأجد مواد كثيرة في يوميّتي هذه أضمّنها في ما أكتب إن شاء الله. على أنني آسف كثيراً أني أكتب يوميّتي هذه بسرعة، وبدون أن أوفي كل بحث فيها حقّه من الترتيب والإحاطة، وفوق ذلك أنّ خطّي سقيم لا يكاد يستطيع قراءته أحد غيري، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله...».

فالسكاكيني إذاً يكتب لذاته؛ يُمارس طقساً من طقوسه التي يقدّسها، وللسكاكيني طقوسٌ حَلَمَ في يوم من الأيام، وعمل، لتكون سُنّةً يتبعها البشر كافة، سُنّةً يجد في كل تفصيل من تفاصيلها لذّة يذوب بها حدّ العبادة.

ووعى السكاكيني أهميّة تثبيت تأثُّراته في زمنها الحقيقي «هنا والآن» بلغة هذا الزمان، ليعود إليها ذات يوم كمصدر للمعرفة ومادّة للقراءة. كان دائما يتحسّر لعدم قدرته على الكتابة أكثر، ويعد نفسه أن يتوسّع بهذا الموضوع أو ذاك. بلور طريقة كتابة يوميّاته مبكراً، ورغم كثرة المفقود إلاّ أن الموجود منها ثروة معرفيّة حقيقيّة بأكثر من معنى، فهي لم تنقل حياة السكاكيني وحدها (وهي حياة ثريّة ومتنوّعة)، بل نقلت أجواء أكثر من مرحلة مهمّة في التاريخ الفلسطيني، من أكثر من زاوية، وبمقدورها الإضافة، وإتاحة الفرصة لإعادة النظر في غير مجال، وأكثر من ذلك، تقديم تصوّرات مختلفة عن ملابسات تشكّل الهويّة الفلسطينيّة.. عن الذاكرة الجماعية والهواجس الوطنية والوجودية في فلسطين في محطات تاريخية حاسمة.

***

مات خليل، وعادي جداً جداً ان يموت، وليس الاستثناء ان تبقى الدفاتر، فالاستثناء الصاعق انّ المكان انقرض، هكذا حلت عليه لعنة التاريخ، فنزعت ديمغرافيا عن جغرافياها، وأسماء عن مسمياتها، وطرد

معمار من سياقة، وجردت ذاكرة من بيئتها، وسلبت اسواق روائحها وأراجيزها وضجيجها.
انقرض المكان، أُخمدت الحياة وسحقت التفاصيل في ارض الحكاية المسروقة، وبقيت الحكاية الجماعية وملايين الحكايات الشخصية ملاحقة ومحاصرة ومضرَّجة، فاكتسبت الدفاتر الشائخة الوفية اهمية استثنائية في التدليل على ذاكرة المكان.
تقول الدفاتر، وكأنها تحرس ارض الحكاية: إن احياء القطمون والبقعة الفوقا والبقعة التحتا المقدسية كانت مسرحاً لاحداث عربية، وأحلام عربية، ونزهات وصداقات و«شطحات» عربية.
وتقول الدفاتر الممسكة جيّداً بخيوط الخارطة: إن الجولة التفتيشية للأستاذ السكاكيني كانت تبدأ من القدس مروراً باللد بواسطة القطار، وصولاً الى يافا وحيفا، عودة الى طولكرم ونابلس ورام الله.

***

كان التعامل مع المخطوطات على متعته شاقاً بحكم خطّ السكاكيني، رغم ترتيبه الصارم وعنايته الفائقة، ربما لاختلافات في رسم الحروف من زمن إلى آخر، ومن شخص إلى غيره. هذه المشقّة توزعها أكثر من شخص ممن كان لهم دور أساس، في ظهور هذا العمل إلى النور: الزميل منذر عامر، الذي تعامل مباشرة مع المخطوطات وتدقيقها. الزميل الباحث جابر عزام الذي أسهم في شرح عدد من الهوامش، الزملاء في قسم التنضيد بصحيفة «الأيام»، خاصة: الزميل وديع عويس «أبو حريص»، عمر قلالوة وزياد عابد.
بُعد الفترة الزمانية وطولها وامتدادها عَبر عدّة مراحل مهمّة في التاريخ الفلسطيني، وتعدّد الأمكنة وتوزّعها على أكثر من حقبة جعلت التأكد من الكثير من أسماء الأعلام والأماكن مسألة غير سهلة ساهم فيها الكثيرون من تخصصات متعدّدة بالإجابة عن تساؤلات عديدة، وبتقديم المشورة، لهم الشكر جميعاً، وتبقى مسؤولية أي خطأ من مسؤوليّتي.
هذه اليوميّات نقلناها كما هي، تقديراً منّا بأنّ قيمتها الحقيقيّة كمادّة دراسة وكمصدر معلومات متعدّد الجوانب، يتمثّل في نقلها حرفيّاً. وهنا بعض الملاحظات على التحرير:
١) جميع مداخلات المحرّر التوضيحيّة (القصيرة) وضعت داخل النصّ بين مزدوجين [ ].
٢) الكلمات أو الجمل، التي كانت كتابتها واضحة، ومعناها ملتبس، أو غير مفهوم - وهذا نادر جداً - وضعنا أمامها مفردة كذا بين مزدوجين [ ].
٣) اعتمدنا في نقل اليوميّات نشر إنتاج كامل اليوم معاً، حيث كانت الرسائل في المخطوطات مستقلّة عن اليوميّات، وذلك توخيا للسهولة، واختصارا لوقت القارئ وجهده، وتسهيلا لمواكبة التسلسل الزمني للكتابة.
٤) لغة السكاكيني حيّة وسهلة بالاجمال، وقريبة من لغة هذه الأيّام، لكن وتسهيلاً على القارئ، ولتوسيع

دائرة المستفيدين من اليوميّات والاستمتاع بها شرحنا بعض المفردات والمفاهيم وأسماء الأمكنة والأعلام، التي اعتقدنا أنها تسهّل على القارئ غير المتخصص.

٥) السكاكيني لم يعتمد أية علامات ترقيم على الإطلاق، وتسهيلاً على القارئ عمدنا إلى ترقيم هذه اليوميّات، قدر الامكان.

٦) هناك رسم لبعض الكلمات تغيّر مع الزمن، واستقرّ على شكل ثابت هذه الأيام، ولأنّه لا يُغيّر شيئاً في المعنى، أبقيناه كما هو، ما قد يخدم أغراضاً بحثيّة أسلوبيّة. أمثلة: يكتب السكاكيني أوروبا مثلا (أوربا)، ويكتب طولكرم (طول كرم).. إلخ.. فأبقينا رسم الكلمات على ما هو.

٧) خاض السكاكيني في حياته «حروبا» كثيرة في سبيل قناعاته، وكان في بعض الأحيان بالغ الحدّة وقاسياً تجاه شخوص ومؤسسات، لكنه كان كثيرا ما يراجع قناعاته وتقييماته عندما يكتشف خطأ ما في تقييمه، تركنا حدّته، التي قد تكون بعضها إشكالية دون أي تغيير إيمانا منا بصدق الدوافع، كما أن أي تدخل في النصوص يفقد اليوميات خصوصيتها ونكهتها، ويلحق الضرر بفائدتها.

أكرم مسلّم

الفصل الأول

بين أميركا والقدس: قصة غربة واغتراب

سلطانة في صورة تعود للعام ١٩٠٧

الجمعة ٤/١٠/١٩٠٧ [رسالة]

سلطانة، سلطانة !

لم يعد في مقدوري أن أكتم حبي لك، وأعيذك بالله أن تكوني قاسية فتستخفي بحبي الخالص.

سلطانة !

أحبك بل أعبدك.

سلطانة !

هل تكونين لي، هل تعاهدينني على الحبّ؟

سلطانة !

ترفقي بي، لا تدعيني أذهب من هذه البلاد [إلى أمريكا] ممزق الأحشاء، دامي القلب، قريح الأجفان، منكسر الخاطر.

سلطانة !

ما أجمل هذا الإسم، وما أحلى وقعه على أذني.

سلطانة !

إذا لم تكوني لي فالسلام على الدنيا.

سلطانة !

رُحماك لا تعجّلي عليّ بالموت.

سلطانة !

إذا لم تحبيني، إذا لم تقابلي هذا الحب بمثله فعلى الأقل اشفقي عليّ، رحماك، رحماك، أترامى على أقدامك.

سلطانة !

أنت كل آمالي في الدنيا، أنت كل سعادتي، أنت كل بهجتي، دعيني أخاطب قلبك، ذلك القلب المملوء حبّاً وطهارة.

أيها القلب الذي أعبده! بأي كلام أخاطبك. إن بين جنبيّ قلباً يفيض حبّاً وإخلاصاً، أفلا تميل إليه؟

أيها القلب!
ارحمني، أنت المالك على قلبي، أنت معبود قلبي، فيا مالك مهجتي ترفق بالله.
سلطانة !
سامحيني، وارحميني، ولا تبطئي عليّ بالجواب، واقبلي احترام وعبادة ومحبة أسيرك.

خليل

الأحد ٦/١٠/١٩٠٧ [رسالة]

سلطانتي
أكتب إليك هذه السطور وقلبي يخفق ودموعي تجول في آماقي شوقاً إليك.
سلطانة !

ما هذا السكوت، لماذا لا تكتبين، أنا لا أزال على مثل الجمر أنتظر جوابك، ماذا أعمل لكي أراك أو أوصل إليك رسائلي؟ أخاف إن أكثرت من المرور عليك أن يطلعوا على حبنا الخفي، وهذا ما أحرص على كتمانه الآن، وإذا تجنبت الزيارة لجّ بي الشوق، وأقلقني الوجد، وخذلني الصبر، فيا ربّ ماذا أعمل؟!

بحياتك يا سلطانة أدركيني برأيك العالي.

كم كنت سعيداً أمس وأول من أمس، وكم كنت أتمنى لو استطعت أن أضع يدي في يدك ونمشي معاً جنباً إلى جنب. كيف يكون حالي إذا فصلتني عنك البحار وشطت بي الدار؟ أحسّ منذ اليوم بما سألاقيه من الآلام المبرحة. ولكن هذا مقدّر علينا فلا مناص منه، سأسافر وأترك عندك قلبي، ولا تعزية لي في تلك الديار النائية إلا صورتك المحبوبة ورسائلك الغراء.

استحلفك بالله يا سلطانة أن لا تقطعي رسائلك عني، كيف يكون حالي إذا جاء البريد ولم يحمل إليّ منك رسالة. لا شك أني أعود طفلاً صغيراً لا ترقأ لي دمعة.

ترفقي بي يا سلطانة، يكفي ما سألاقيه من ألم الفراق. حتى متى تبخلين عليّ بصورتك في زيّ فلاحة؟ أحبّ أن تكون عندي نسخة منها أضعها على طاولتي في غرفتي أنظر إلى ذلك الثغر البسّام، وتينك العينين اللطيفتين، وذلك القوام الجميل.

نظمت هذين اليومين قصيدة لم يكن لي من الوقت ما يكفي لأن أتأنق فيها فأرجو قبولها وهي:

إلى اليوم لم أدر الصبابة والهوى	فما سرني قربٌ ولا ساءني بعدُ
حفظت فؤادي من هوى كل غادةٍ	فلم تُصبِني سعدى ولم تلهني هندُ
أبيت قرير العين خلواً من الهوى	سواء لدى قلبي التعطف والصد
وكم سمعت أذني ظلامة عاشق	وشكوى (شجٍ) يبكي لها الحجر الصلدُ

سلطانة بالزيّ القرويّ سنة ١٩٠٦

فأحسبُ شكواه دُعابةَ مازحٍ فلا مهجتي تحنو ولا أدمعي تبدو

*

ولكنّ قلبي ما أشد ولاءَه وأحفظهُ للود إن خلص الودُّ
يقيم على العهد الموثق مؤثراً بإعزازه من لا يرثّ له عهدُ
لك اليوم أهديه وإني مؤمّل لديك قبولاً ليس يعقبهُ ردُّ
ولا تنكري منه جوى قد أذابه فذلك مما قد أثار به الوجدُ

*

سأمرُّ اليوم مع أختي ميليا عليك فأتركها عندك وأدخل بيت المطران لأودعهم، ثم نذهب معاً الى ذلك الصخر المحبوب الذي يحق له أن يسمى صخر الرجاء. في نفسي خواطر شعرية كثيرة في هذا الصخر سأفرغها في قالب الشعر في بعض لياليّ في أميركا.

زوريه يا سلطانة ما استطعت واذكريني كلما زرته.

سأكلف الشمس التي شهدنا غيابها إذا مرت بذلك الصخر أن تُقرأه سلامي.

هذه رسالتي إليك فأدركيني بالجواب، واختم باهدائك احترامي الفائق ومحبتي الخالصة.

خليل

الثلاثاء ٨/١٠/١٩٠٧ [رسالة إلى داود] (١)

عزيزي داود

أقبلك وأبثك أشواقي وأتمنى لك السعادة بكل معانيها. توالت اجتماعاتنا اللطيفة فكأننا كنا نطوف بأكناف السحاب المخيم، وكل يوم يزداد شجوي ووجدي عن يوم حتى لم يعد في مقدوري الكتمان.

يوم الخميس الواقع في ٣ ت ١، أخذتها [يقصد سلطانة] مع أختي وذهبنا الى قالونة(٢)، هناك تحت شجرات الليمون جلسنا، وكم كنت أتمنى لو كنت معنا، لا شك أنك كنت تشاطرني سروري وطربي. بل كنت ترى من علائم الوجوه ولمعان العيون وسائر حركاتنا وسكناتنا ما يفصح عمّا في القلوب ويغني عن التصريح.

ولما آذنت الشمس بالمغيب ركبنا حميرنا ورجعنا، ولعل الجوّ هناك يعبق إلى اليوم بأنفاس حبنا، مشيت إلى جانبها، فجعل حمارها يتعثر فخشيت أن يقع فأخذت بلجامه وقدته كل الطريق. وفي المساء جاءت

---

(١) داود: هو داود صيداوي، من القدس. كان رئيس جمعية الآداب الزاهرة، ومدير فرع بنك كريديليونه الفرنسي في يافا. من الأصدقاء المقربين للسكاكيني.

(٢) قالونة: يرجح ان المقصود بها قرية قالونيا، وهي من قرى القدس، تقع على طريق يافا.

عندنا وسهرت وحدها ، ثم أوصلتها إلى البيت وحدي ، ووعدتها في الطريق أن أكتب لها ، وفي الغد قمت كما قال الشاعر : ذا شجىً وترنّم ، فلم أتمالك أن أخذت القلم وكتبت لها رسالة أفرغت فيها كل عواطفي ، ثم ذهبت إلى المدرسة فخرجت إليّ ، ووقفنا في الباب ، وسلمتها الرسالة يداً بيد ، وفي وجهي رسالة أخرى . وعند الأصيل أخذت ميليا ومررنا بها ، ولما وقع نظري عليها شعرت بمجار كهربائية انتفض لها كل جسمي . أخذتهما إلى أكمة على طريق رام الله ، وجلسنا على صخر هناك وفي وجهها وعينيها ما أشعرني بالرضى والقبول ، وهكذا في اليوم الثاني والثالث نخرج عند الأصيل للتنزه ، وفي المساء نسهر إما عندنا وإما عندهم . وأمس جاءتني رسالة منها تهديني فيها محبتها وتعدني بالكتابة في القريب العاجل ، فماذا تظن يا داود ؟ [ولكن مع كل ذلك لا أزال أشعر أني آثرت نفسي على يعقوب[3] وأني خنته في وداده ، فبربّك يا داود أسعفني برأيك وأفتني بما عندك ، ثم إن أفتيم [مشبك][4] لا يزال متعلقاً بها ومثله عيسى [العيسى] ومتري ابن خالتي ، ولعل هناك غيرهم ، فماذا أعمل لكي لا أخرج عن اخلاصي لهم ولا أوصم عندهم بمحبة الذات؟] ! لو كنت هنا يا داود لجلست إليك الساعات الطوال أسمعك وتسمعني ، إلى من أذهب ، وإلى من أرجع؟ لذلك تراني لبعدك عني حائراً قلقاً لا أعرف ماذا أعمل ، فليتك تنشط وتجلس إليّ ولو كتابة لعلك تزيل حيرتي وتذهب قلقي . على أني أعود فأقول إني لم أقدم على ما أقدمت عليه إلا حين تثبّتُ من القرائن التي ذكرتها لك في قالونة أن لا علاقة بينها وبين متري ، ولأني آنست أن يعقوب لا يهتم بها الاهتمام الزائد .

فبربك هل ألام بعد ذلك؟ وأما عيسى فقد كتبت له منذ نحو شهر أقول : إن أفتيم لا يزال مرفوضاً ، وأشرت عليه إذا لم يزل على رأيه أن يسعى ، ودعوت له بالتوفيق ، وإلا فإن هناك شخصاً آخر لا يلبث أن يظهر من عالم الغيب ، فلم يجبني ، أما متري فلا يزال ولداً طائشاً ، وأما إذا كان هناك شخص آخر من أصدقائنا يميل إليها ويحلم بالحصول عليها فإني التمس عفوه .

رحماكم أيها الأصدقاء ، اشفقوا عليّ ولا تعجلوا باللوم والتقريع ، لم أزل منذ عرفتكم شديد الإخلاص لكم مؤثراً لكم على نفسي ، فإن زللت هذه المرة فاغفروا زلتي وارحموني يرحمكم الله .

هذه رسالتي إليك يا داود فاقرأها بما تستحق من الاهتمام ، وأدركني برأيك العالي وفقك الله .

خليل

الأربعاء ٩/١٠/١٩٠٧[رسالة]

سلطانتي

هو ذا قد تلاشت أيامي في القدس كما يتلاشى الغمام أمام الريح ، فاسمحي لي أن أكتب رسالتي الأخيرة

٣ - يعقوب فراج: صديق السكاكيني، وابن خالته.

٤ - افتيم مشبك: من زملاء السكاكيني في جمعية الآداب الزاهرة، وساهم معه في تأسيس المدرسة الدستورية بالقدس.

قبل السفر وأودعك بكلمات خارجة من قلب كاد يلاشيه الحب، ويذيبه الجوى، فكأنها خارجة من قبر.

سأترك بعد حين وسطاً ألفت سكانه ومنازله ومبانيه وطرقه وأرضه وسماءه، وخرجت فيه من صدري أول أنفاس الحبّ، إلى وسط آخر جديد هيهات أن آلفه، بل كيف آلفه وقد خلفتُ قلبي ورائي.

قضيت نهار أمس أودع الناس وقد رأيت من لطفهم ومكارم أخلاقهم ما لن أنساه ما دمت حيّاً.

كنت أظن أني سأستسهل الوداع هذه المرة، وقد حاولت منذ خطر لي فكر السفر أن أوطن النفس على استسهاله، ولكن لما حان الوداع ابتدأت أشعر بمرارته، ولم يزل قلبي أمس النهار كله يقوم ويقعد، ثم لو فرضت أني أستطيع وداع الأهل والأصدقاء فكيف أستطيع وداعك يا سلطانة؟ كل وداع سهل عندي إلا وداعك، ولكنني سأصبر النفس وأمسك الدمع تهويناً وإيهاماً حتى إذا انفصلت عن القدس، وأصبحت بعيداً بسطت يد الهوى وأذللت دمعي وأعطيت نفسي مداها في البكاء.

سأبكي يا سلطانة كلما أشرقت الشمس أو غربت، سأذكرك في دخولي وخروجي، في قيامي وقعودي، في غدوي ورواحي، سأذكرك حين أذهب إلى عملي، سأذكرك حين أكون مرتاحاً خالي الذرَع، وحين أكون متعباً خائر القوى.

سأودع معك أنسي وصفوي وسعادتي وسروري، لألاقي الوحشة والكآبة.

ليس آدم أشد مني لوعة حين ودع فردوسه، أنت فردوسي، أنت سعادتي، أنت نعيمي، أنت بهجتي، أنت حياتي، فكيف حال من يفارق حياته!

اذكريني يا سلطانة حين تدخلين الكنيسة تصلين أو تفتحين انجيلك تتأملين فيه، اذكريني حين تعلّمين تلميذاتك، أو تخرجين معهن إلى الطبيعة، إلى ذلك الصخر المحبوب.

اذكريني حين تزورين البيت، ققفي في نافذتكم التي تطل على بيتنا وقولي: السلام عليك يا خليل.

آه كم كنت أسرّ أن أنظر اليها لعلي أرى فيها خيالك، ومتى جاء الربيع بنسيمه العليل وزهره الجميل فإن مرت بك نسمة ذكية فهي تحيتي إليك، أو رأيت زهرة جميلة فتلك ابتسامة مني لمرآك، أو سمعت زقزقة عصفور فتلك صدى أناشيدي التي أترنم بها لذكراك، إن نظرت إلى السماء والنجوم تلمع فانظري إلى أشدها لمعاناً فتلك عيني أنظر بها إليك، وإذا أطلّ القمر من وراء الجبال وأرسل أشعته الفضيّة من خلال الغيوم فارفعي نظرك إليه، لعل نظري وأنا أشخص اليه يلاقي نظرك.

إن فتحت كتاب شعر فإن رأيت بيتاً جميلاً فهو يعبر عن نفسي، أو قرأت رواية فإن عثرت على مواقف مؤثرة فتلك مواقفي، أو رأيت صورة تمثل منظراً مؤثراً فاعلمي أني من وراء تلك الصورة أنظر إليك.

إن رأيت رأساً منحنياً تلوح عليه علائم الكآبة أو الوحشة، أو رأيت عيناً تدمع، أو اتصلت بأذنك أنّة موجع فتلك ستكون حالتي.

لينعم بالك يا سلطانة، ولتباركك السماء، ولتحفظك العناية، تلك ستكون صلاتي بكرةً وعشياً.

*

اليوم جلست إلى ابن خالتي يعقوب ولم أتمالك أن قلت له: أحب سلطانة بل أعبدها، ولكن لم أقل له إني كتبت لك أو فاتحتك بالحب، فكان من رأيه أن أكاشفك بذلك قبل سفري، فمتى يا سلطانة يردني جوابك الصريح.

أنا أخشى إن تركتك أن يطلبك غيري.

أستحلفك بالله يا سلطانة أن لا تدخليني في زحام مع أحد، لا تلجئيني أن أرجو أحداً أن يعدل عن طلبك.

سأزور اليوم بيت المطران لتناول الشاي، وسأبذل وسعي أن أراك لأوصل إليك هذه الرسالة.

رئيسة مدرسة بيت جالا سمحت لميليا أن تجيء غداً لوداعي، فاتفقت مع حنة ابنة عمي أن نأخذك لنجيء بميليا، فليتك تسرعين في النزول إلى البيت بعد الساعة الثانية بعد الظهر، وعسى أن تحضري لي معك الجواب المبشر بما يضمن لي السعادة.

ارحميني ولا تسمحي أن أذهب قلق الخاطر مضطرب الفكر، يكفيني ما ألاقي من ألم الفراق.

سأكتب إليك في كل بريد فاكتبي إليّ، وأختم باهدائك احترامي الفائق ومحبتي الخالصة.

خليل

الأربعاء ٩/١٠/١٩٠٧[رسالة]

قفي ودعينا قبل وشك التفرّقِ فما أنا من يحيا إلى حين نلتقي

*

قفي قبل وشك البين يا ابنة مالك ولا تحرمينا نظرةً من جمالك

*

بهذين البيتين كنت أتغنى في نصف الليل من الليلة الماضية عند مروري من أمام المدرسة وقد هدأت الطبيعة، واستغرقت في سباتها. وقد استولى عليّ الذهول، وبرّحت بي الأشجان، وعبثت بي الأشواق، فلو رأيتني لحسبتني شارباً ثملاً، بل لظننت أن بي مساً من الجنون.

لو رأيتني وأنا أصعّد الزفرات وأذرف الدموع لراعك حالي ورثيت لي، فإن كنت قد أحسست بتموّج لطيف في غرفتك المقدسة، أو شممت عرفاً ذكياً فذلك التموج لم يكن إلا روحي جاءت ترف حول سريرك، وذلك العرف الذكيّ لم يكن إلا أنفاس حبي.

كم تمنيت لو أن لك نافذة تطلّ على الطريق تجلسين فيها بثيابك البيضاء الجميلة تقرأين في كتاب، ومن وقت إلى آخر ترفعين رأسك الجميل ترقبين مروري، حتى إذا مررت لوحتُ لك بيدي، ولوحتِ لي بيدك.

كم تمنيت لو أقف إليك فأضع يدي في يدك وتضعين اليد الأخرى على كتفي تنظرين إليّ تلك النظرات الحلوة فنستغني عن الكلام.

كم تمنيت لو نستطيع أن نطير في عالم الخيال ونطوف بأكناف السحاب المخيم.

كم تمنيت لو أكون موسيقياً فأهديك كل يوم قطعة موسيقى جديدة، أو شاعراً فأتحفك كل يوم بقصيدة، أو مصوراً بارعاً فأرسم لك صوراً تمثّل ما يجول في صدري.

ثقي يا سلطانة أني سأبذل الوسع متى وطئت رجلي أرض أميركا أن أمارس الشعر والموسيقى والتصوير اكراما لخاطرك.

كم تمنيت لو كنت غنياً فلا أدع تحفة نادرة أو حلية فاخرة إلا أهديتها إليك.

سلطانة أحبك بل أعبدك، وحبك هذا سيجعلني أركب الأهوال، وأقتحم الأخطار، وأستسهل الصعب لأتمكن من توفير أسباب راحتك وسرورك والمعيشة معك معيشة جميلة كما يقتضي الخيال البعيد والتصورات النائية.

لا ترضي بي إن كنت لا أقدّر جمالك وكمالك قدرهما.

لا ترضي بي إن كنتِ ترينني أقعد عن الوصول إلى أعلى الدرجات.

لا ترضي بي إن كنت لا أحاول أن أكون موضع ثقتك وفخرك.

لا ترضي بي إن كنتِ لا ترينني متحلياً بأسمى الفضائل وأشرف المبادئ وأجمل الأخلاق.

اقترحي عليّ ما شئت واختبريني بما أردت «فاختياري ما كان فيه رضاك» كما قال ابن الفارض في مثل موقفي هذا.

وعلى أمل أن آخذ منك اليوم رسالة تبشرني برضاك أختم بإهدائك أشواقي وسلامي ومحبتي واحترامي.

خليل

الجمعة ١١/١٠/١٩٠٧[رسالة]

عزيزتي سلطانة

أخذت رسالتك، وضعتها في جيبي وطرت بها أطلب محلاً منفرداً بعيداً عن الناس تخيّم عليه السكينة لأخلو بنفسي وأقرأ رسالتك، حتى إذا وصلت إلى أول منعطف من الطريق ملت إليه، وفتحت الرسالة، وقرأتها بلهفة، ثم قبلتها وقلبي يرقص طرباً وعيناي مغرورقتان بدموع الفرح، ثم سرت إلى ذلك الصخر المحبوب حيث أقمنا نصباً من الحجارة تذكاراً لحبنا، وكأن الطبيعة شعرت بسعادتي فأقامت لي احتفالاً باهراً:

الشمس ترقص بغلائلها الزاهية وهي تتوارى وراء الجبال، والطيور تجمعت على الأشجار القريبة وأخذت تزقزق وتثب بين الأغصان، ثم التفت إلى جانب الصخر فرأيت زنبقة جميلة فخلتها فماً يبتسم لي، وإلى

الأرض فخلتها قد لبست أثوابها الجدد احتفاءً بي، ثم أخذت رسالتك وقرأتها فخلت أنك جالسة بجانبي تشهدين معي هذا الاحتفال.

نظرت إلى مستقبلي فرأيته يبتسم لي بعد أن كان عابساً مكفهراً.

التفت إلى الزمان فخلته يمدّ يد المصافحة والمسالمة بعد أن كان يكاتمني العداء.

رفعت نظري إلى السماء فأوحي إليّ أنها راضية عني وشعرت أن الملائكة تحفّ بي تروّح على وجهي بأجنحتها وتكللني بأكاليل المجد والكرامة، وتسرّ في أذني كلمات التهنئة، بل شعرت أن الصخور ترقص والأرض تميد، وشعرت أني خرجت من عهدة ذلك العالم القديم عالم الوحدة والوحشة والسأم والكآبة والسوداء، وانتقلت فجأة إلى عالم جديد عالم حب وطرب وسرور، فأخذت أتنقل بين تلك الصخور أجرّ أذيال الخيلاء والتيه «أرى الملك ملكي والزمان غلامي» كما قال ابن الفارض، ولم أكن أنقل خطوة إلا طارت العصافير الجميلة من أمامي وهي تزقزق كأنها كانت تداعبني وتنشدني أناشيد الحب، فلم أتمالك أن حنيت رأسي شكراً للطبيعة.

ولما توارت الشمس وراء قمم الجبال وأخذت العصافير تنسرب إلى أعشاشها رجعت من حيث أتيت، وما كدت أدنو من المدرسة حتى سمعت جرس الكنيسة يرن في الفضاء، ورأيت بنات المدرسة خارجات إلى الكنيسة فكاد قلبي يخرج من صدري، ويمشي في أثرهن، فقرأتهن السلام، واستأنفت سيري اسحب أذيال الغبطة.

*

ولكن لما جمعت حواسّي، وأعدت تلاوة رسالتك عثرت على كلمات انقبض لها صدري.

ما معنى قولك روحي فداك: «أعاهدك على الحبّ ما دامت إرادتي في يدي».

أتعنين بذلك أنه إذا رمت الأقدار شخصاً آخر في طريقك، أو اختاره لك ذووك أنهم يستطيعون أن يكرهوك على الرضى به؟

أعيذك بالله أن يكون قصدك من ذلك تعذيبي، وماذا يمنع من أن أكون أنا خليلك، وأن تكوني أنت سلطانتي؟ فيا سلطانتي ترفقي بخليلك.

ماذا تعنين بقولك: «الهناء الهناء لك ولكن لا هناء لمن ستترك وراءك»؟

إذا لم يكن هناء لمن سأترك ورائي فكيف أطمع أن أجد هناء أمامي؟

بربك لا تمزقي أحشائي بمثل هذا الكلام. أنا أحتاج إلى تعزيتك وتشجيعك، وإذا سافرت فليس إلا لأن أبني لك ولي مستقبلاً جميلاً، ولست أخالك إلا صابرة معي على فراق سنة أو سنتين على الأكثر، ثم أرجع فنهصر غصون الأنس والصفو دانية قطوفها إن شاء الله.

*

قررت أن أسافر يوم الخميس القادم الواقع في ١٧ ت ١، مع ابن عمك، فأنت ترين أنه لم يعد لي في القدس إلا أيام قليلة، فهل نستطيع قبل السفر أن نضع خطة معلومة نسير عليها، وبعبارة أخرى هل نستطيع أن نعقد عهداً صريحاً، ومتى، وكيف؟.

إذا كنت حرة كل يوم بعد الظهر فلماذا لا تجيئين مساء يوم السبت ثم نرجعك أنا وميليا مساء يوم الأحد أو صباح الاثنين؟.

تدبري الأمر بفكرك الثاقب واطلعيني على ما يقر عليه رأيك العالي في أسرع ما يمكنك، فالوقت قصير، واقبلي في الختام حبي الخالص.

خليل

الثلاثاء ٢٢/١٠/١٩٠٧ من يافا [رسالة]

إذا طلع القمر فانظري إليه.

خليل

الأحد ٢٧/١٠/١٩٠٧ [رسالة] من البحر باللغة الانكليزية [ترجمة مؤسسة الدراسات المقدسية]

عزيزتي

أكتب إليك هذه السطور من عرض البحر. لا شاغل عندي إلا التفكير بك. لو تعلمين شوقي إليك ولكن ما العمل؟ فأنا سأغيب عنك بعيداً بعيداً لفترة طويلة جداً - لا أعرف كيف سأتحملها.

كلما أشرقت الشمس أقف في مؤخرة الباخرة لأبعث سلامي إليك، ثم أرسله إليك مرة ثانية عند المغيب. وطالما أبحث عن بقعة خالية أجلس فيها لأرسل دموعي - كم أنا متعب من كبت هذه الدموع.

أصحو باكراً كل يوم وأصعد إلى سطح السفينة حاملاً صورتك في جيبي لأتأملها والبارحة لخيبتي وجدتها مكسورة - ربما لأنني أحملها بجيبي طول الوقت. كدت أن أبكي ولكنني لم أرغب أن أظهر ضعفاً أمام المسافرين. هل تتفضلي يا عزيزتي وتطبعي لي نسخة جديدة لأنني لا أستطيع أن أعيش بدون صورتك هذه.

عندما تشرق الشمس أقول لنفسي: ألان لا تزال سلطانة في الفراش. وبعد قليل ستصحو، في هذه اللحظة بدأت في تناول الإفطار. هنيئاً ومريئاً يا عزيزتي! والآن بدأت في تعليم البنات، الآن قارب وقت

الغذاء، وعندما تقارب الساعة الرابعة بعد الظهر أكاد أشعر بروحي تغادرني وتطير إلى القدس إلى تلك الصخر المقدسة(٥). وعندما تغيب الشمس أجد نفسي معك ومع أختي وابنة عمي نودعها.

كم كنت سعيداً حينذاك. بدونك ما كنت لأطمح في أي أمر آخر في هذا العالم. ولكن من أجلك وبدعمك سأجاهد لحياة أفضل.

أكتب هذه السطور القليلة بالإنجليزية حتى لا يستطيع ابن عمنا(٦) أن يطلّع عليها. كم كنت اتمنى لو كان معي يعقوب أو داوود حتى أتبادل معهم الحديث عن الحب السامي(٧). أما بندلي ابن خالك فهو ليس الرجل الذي أستطيع أن أمضي معه أي وقت يذكر.

أعذريني على خطي الرديء فالسفينة بدأت تتحرك وأشعر بالدوخان. عندما نصل إلى مارسيليا سأكتب إليك بالعربية.

ودائما يا عزيزتي. ودائماً. تذكريني. قولي حبيبي قولي[كذا]. وعندما أكون بعيداً عنك هل ستحلمين بي أحياناً – أيتها العزيزة.

خليل

*

قطعت أوقاتي ونحن في الأوقيانوس [المحيط] الأتلانتيكي [الأطلنطي] في نظم بعض القطع الشعرية، أرسلتها إلى القدس يوم الخميس ١٤/١١/١٩٠٧ أثبتها هنا:

(١)

يومان قد مرّا ولم — يدخل طعامٌ في فمي
لا أستطيع أن أقوم — من شديد الألم
وليس من يسأل عمّا — حلّ بي من سقم
ولم يكن بين الجميع — من يرى مكلمي
وهكذا ظللت بين — سقم وسأم
هذا ولولا طيفكم — يزورني في حلمي
لكنت فضّلت على — هذا الوجود عدمي

(٥) الصخرة المقدسة: مرتفع صخري في الشيخ جراح كان خليل يشطح إليه مع سلطانة في الربيع.
(٦) ابن عمنا: الأغلب أن الإشارة إلى قريب سلطانة بندلي العيسى والذي كان يرغب بخطبتها وينافس خليل عليها. في رسالة لاحقة يشكو خليل من كثرة الأقارب الذين يقرؤون رسائله إلى سلطانة قبل أن تصلها.
(٧) داوود صيداوي ويعقوب فراج.

(٢)

إلى يعقوب ابن خالتي

مرّت ثلاث ليال … وما هننتُ منامي
قد راعني ما توالى … فيها من الأحلام
بل كدت لولا قليل … أذوق كأس حمامي
يا ربّ خاليت حلمي … وهماً من الأوهامِ

(٣)

إلى أستاذي المرحوم نخلة زريق كتبتها على بطاقة عليها صورة الباخرة التي قطعنا بها الأوقيانوس

خلفت قلبي ورائي … يرعى عهود الولاء
واعتضت عنه بنار … تشبّ في أحشائي
فما لها ليس تطفا … ونحن فوق الماء

(٤)

إلى المرحوم داود

داود يا قلبي العزيز … ويا حياتي الغالية
إني لأرجو أن أعود … وأن أراك بعافية

(٥)

إلى أفتيم مشبك

إذا هبّ النسيم ففتشوه … فقد أرسلتُ فيه لكم سلامي
ولا تستغربوا فيه أنيناً … فذاك أنين قلبي المستهامِ

(٦)

إلى الفونس ألونصو أمازحه

سفرنا تم وما … اعترضنا تأخيرُ
لو كنت أنت معنا … لغرق البابورُ

(٧)

إلى صهري أبو يعقوب فراج

هذه السفينة أقصتني عن الوطن ... وليت يوم انفصالي عنه لم يكن
شربت فيها كؤوس الهم مترعةً ... لولا دعاؤكم أدرجت في كفني

(٨)

إلى صهري أبي سلطانة

وصلت لكن بعد أن ... قاسيت ما لست أطيق
لولا الحيا لكنت قد ... رجعت من نصف الطريق

(٩)

إلى سلطانة

ترى علمت أحبابي بأني ... لقيت من النوى ما لا يطاقُ
فيا ليت اللقاء يعود يوماً ... فأخبره بما فعل الفراق

(١٠)

إلى سلطانة

ثوب صبري تمزّقا ... حين شملي تفرّقا
وهجوعي أضعته ... واستعضت التأرّقا
وفؤادي أسلته ... من عيوني تشوقا
فعليكم تحيتي ... كلما النجم أشرقا

(١١)

إلى البيت

وصلت بعد التعب ... إلى بلاد الذهب
تقلّني باخرةٌ ... كقلبي المضطرب
تلعب بالركاب لكن ... يا لَهُ من لَعِب
ولم أجد بين الجميع ... أحداً من مشربي

وهكذا الطعام فيها … لم يكن من مذهبي
فكم تقززت … وكم شعرت أن قد دِيرَ بي
كأنه لم يكفني … مرارة التغرّبِ

*

لم يك ما أملته … غير سحاب خُلّب
واهاً لعهد خَصِر … مُر وعيش طيب
كنا نطوف في الخيالِ … المبهجِ المذهّب
أيامنا أيام أنسٍ … وصفاً وطرب
إن عادت الأيام كانَ … ذاك كل الأربِ

*

السبت ١٦/١١/١٩٠٧ من نيويورك [رسالة]

عزيزتي

لا شك أنك تأسفين على فراقي كما آسف على فراقك، وتفكرين بي كما أفكر بك، وتشتاقين إليّ كما أشتاق إليك، وتحافظين على عهدي كما أحافظ على عهدك، وتشعرين أني قريب منك كما أشعر أنك قريبة مني.

لست أشك أنك حين تذهبين إلى الكنيسة تصلين لأجلي، كما أسأل الله في صباحي ومسائي أن يأخذ بيدي ويوفقني لأرجع إليك في القريب العاجل وقد تحققت آمالي.

سلطانتي

لا تمر ليلة إلا رأيتك في نومي، ولا تعبر بي دقيقة إلا رأيتك أمامي.

سلطانتي

أما كان يجب أن تؤخروا سفري قليلاً؟ ما كدت ألمس السعادة حتى انفصلت عنكم.

صورتك لا تزال في جيبي، ولا أخلو بنفسي إلا أخذتها وتأملت فيها: في تينك العينين، فأقرأ فيهما ألف معنى، وفي ذلك الثغر البسّام فتبتسم لي الدنيا، وفي ذلك المحيا اللطيف فتتبدّد همومي كما تتبدد الغيوم من وجه البدر.

ابن عمك بندلي استغرب اعراضي عن النساء، وعدم اهتمامي بهن حتى اضطررته أن يمسك عن ذكرهن أمامي.

ماذا يهمني من كل سيدات العالم وأوانسه وأنت لي؟ أنت نجمي اللامع، أنت شمسي وقمري وزهرتي، أنت ملاكي الحارس، أنت سعادتي، أنت روحي.

كحلت عيني عمى إن غيرها نظرته، ايه عني ذا الرُشَيّ

لا تقع عيني على منظر جميل، ولا أمر من أمام منزل فخم، أو أجتاز في روض أنيق، أو أقف أمام غريبة من الغرائب إلا تمنيت لو كنت بجانبي، بل لم يكن شيء لينسيني مواقفي معك تحت سماء القدس الزرقاء.

سلطانتي

كم يجب أن يكون عندي من الصبر على هذا الفراق؟

كم يجب أن أتحمل من مرارته وآلامه؟

لم أزل إلى اليوم أنتظر رسائلك، إنّ يوماً تردني فيه رسالة منك هو عندي عيد.

مهما استولى عليّ من اليأس، ومهما تكاثرت عليّ الهموم فرسالة منك تنعشني وتملأني بهجة.

سلطانتي

لا تقطعي رسائلك عني، إذا أردت أن تملكني الوحشة، وتستحكم فيّ الكآبة، ويستولي عليّ الانقباض، وتعبث بي الأشجان فامسكي رسائلك عني.

كتبت لك قبلاً عن تكسّر صورتك وانكسار قلبي بسبب تكسرها، فليتك توصين لي على صورة أخرى، وترسلينها إليّ في علبة من خشب الزيتون، وأعدك أني أحافظ عليها محافظتي على روحي. بل إذا اقتضى الأمر بذلت روحي فداءها.

حلمت مرة أن ابنة عمي حنة نزلت إلينا من نافذتكم، وأنك أنت حملت يوسف ووقفت في النافذة، وأن يوسف جعل يناديني تعال، تعال.

سأجيء يا سلطانة إن شاء الله.

اكتبي لي وأعيدي عليّ ذكر أيام سلفت، لن أنسى ما حييت ارتاس [قرية ارطاس، جنوبي بيت لحم]، وعين كارم، ورام الله، وذلك الصخر المحبوب. نزهة في أحد هذه الأماكن ألذّ عندي من كل ما رأيته وأراه في أوروبا وأميركا.

لا أنام إلا بعد أن أغني بعض الأغاني التي كنا نغنيها في القدس، وأرسل من عيني دموعاً غزيرة، ولولا الحياء لم ترقأ لي دمعة، ألا يحق لي أن أبكي، ألا يحق لي أن أشق صدري تأوهاً وتنهداً؟، من يستطيع أن يصبر على ما صبرت عليه؟ ولولا أني أعرف أنك راضية عن سفري لرجعت من نصف الطريق.

أنا لست رجل مطامع، ولولا ما علاني من الضيق، ولولا رغبتي في أن أكون أهلاً لك لما أقدمت على السفر وعلى احتمال مرارة هذا الفراق، أما وقد تمّ ما تمّ فسأبذل الوسع في سبيل النجاح اكراماً لك.

سأكتب لك من الآن فصاعداً في كل أسبوع فليس شيء ألذّ عندي من أن أجلس إليك أخاطبك ولو عن

بعد.

اكتبي الى أختي، وإذا شئت فاطلعيها على ما تمّ بيننا، سأكتب الى يعقوب ابن خالتي أن يذهب إليك ويبحث معك في ماذا يجب أن نعمل: أأطلبك من أبيك، أم نترك هذه المسألة إلى حين الرجوع؟ أطلعيني على رأيك، واقبلي في الختام أشواقي ممزوجة بدموعي.

خليل

نيويورك (الاثنين) ٢٥/١١/١٩٠٧ [رسالة]

حبيبة قلبي

لا أشك أنك تستطيعين أن تتصوّري حالتي بعيداً عنك.

صورتك أيقونتي المقدّسة، ورسائلك إنجيلي الطاهر، وذكر أوقاتي التي سلفت حديث ليلي ونهاري. أما دمعي فقد جفّ، وأما صبري فقد نُزف، وأما روحي فقد بلغت التراقي، وأما طربي فقد تحول نواحا. لن أنسى يوماً والباخرة راسية أمام الإسكندرية، والشمس قد آذنت بالمغيب ترسل أشعتها الذهبية من وراء خيمة سوداء، فتذكّرتك يوم ذهبنا إلى بيت جالا للمرّة الأخيرة، كيف كنت تغطّين محيّاك الضاحي بخمارك الأسود الشفّاف تنظرين إليّ من ورائه.

لقيت على ظهر الباخرة فتاة من دمشق، فكانت لا تجدني واقفاً في مؤخّر الباخرة وحدي أرسل إليك أشواقي وسلامي مع الشمس حين تغيب، ومع الريح حين تهبّ، ومع الأمواج وهي تتعالى وتتدحرج بعضها على بعض، إلا أقبلت إليّ، ووقفت بجانبي تسليني.

هذه الفتاة رأتني مرّة والدموع في عيني، فبكت، وقالت: «إذا كنت أنت تبكي فماذا أعمل أنا وقد تركت خطيبي ورائي؟».

فجعلت أسليها وأُطيّب خاطرها ودموعنا تتساقط. كلفتني مرّة أن أكتب لها رسالة إلى خطيبها، ولما رأت قلقي الدائم، وتنهّدي المستمر، واعتزالي الناس، قالت: لعلك تركت وراءك حبيبة، فلم أُجبها إلاّ بتنهّد عميق كاد ينشق له صدري.

دعاني مرّة السيّد حنا حشمة من رام الله لتناول العشاء، فلما رأت عروسه، وهي أُخت السيّدة إملي امرأة السيّد إلياس عودة، ما أنا عليه من الوحشة والكآبة قالت: لا شكّ أن للأستاذ السكاكيني حبيبة – Sweet heart – في القدس، فكاد الدمع يتفجّر من عينيّ.

نعم لي – Sweet heart – نعم لقد تركت فيك يا قدس قمراً تسجدُ له الأقمار، نعم لقد تركت فيك سعادتي وصفوي وسروري.

أحضروا لي بعد العشاء كمنجة فلعبت عليها بعض أنغامنا وأرسلت إليك سلامي.

لما جاءَتني رسالتك، وقد وردتني في الوقت نفسه رسائل من أصدقائي، فلما وقع نظري على العنوان عرفت خطّك، فخفق له قلبي، ولم أتمالك أن قلت للواقف معي بلهفة: أنا أعرف هذا الخطّ، وكدت أُقبّله.

ولما فتحت الرسالة وقرأت كلماتك الحلوة نسيت أني في نيويورك، فجعلت أقرأها، ولا أزال أقرأها في الصباح وفي المساء.

تسألينني فيها: أين أنت؟!

بكيتِ يا عزيزتي لهذا السؤال، وقلت:

«يا دلي دلي فين أحبابي وفين أنا».

أنا بعيد عنك يا سلطانة، تفصلني عنك البحار الواسعة والمسافات الشاسعة.

تسألينني: بأي شيء تفكر؟!

لا أُفكر إلاّ بك، ولا أُردّد إلاّ ذكرك.

تسألينني: إلى أي شيء تنظر؟!

لا أنظر إلا إلى خيالك المحبوب.

كل كلمة في رسالتك لا أقرأها إلاّ «عرتني هزّة كما انتفض العصفور بلّله القطر».

اكتبي يا سلطانة في كل بريد ولو استنزفت رسائلك دموعي. كيف شجّعتني على السفر؟! كيف سمحت أن أنفصل عنك؟! كل، غنى أميركا لا يعدل هذه اللوعة التي تشب نارها في ضلوعي. فكيف إذا لم أُوفّق، فرجعت كما ذهبت؟ ستقولين هما سنتان. سنتان يا سلطانة في البعد عنك مثل ألف سنة.

أميركا بكل عجائبها ما دمت بعيداً عنك ليست إلاّ صحراء لا ظلّ فيها ولا نسيم.

لم أكن في حياتي من أهل المطامع، بل لا أعرف نفسي إلاّ من أهل الخيال. حياة ساذجة ولكنها مملوءَة حبّاً وسرورا، أحبّ إليّ من الغنى الواسع والجاه العريض إذا كانا خاليين من الجمال والخيال.

نعم جئت إلى هذه البلاد لكي أُحسّن حالتي الماديّة، ولكن لا أَخالك تجهلين أن المادة اليوم لا تُنال إلاّ بطرق ماديّة جافّة.

ماذاً أقول لك إذا لم أنجح، أتتهمينني بالعجز والتواني، أم تحملين ذلك على محمل آخر يدفعك إليه قلبك الطاهر، وإحساسك الرقيق، ومبادئك الجميلة؟

ماذا تقرأين اليوم؟ هل أنهيت رواية «التعيس»؟

وماذا استدعى انتباهك منها؟

بحقّ الحبّ الطاهر، وإنه لقسمٌ لو تعلمين عظيم، لا تخليني في كل بريد من رسالة أو بطاقة، أو رمز تختارينه من زهر الربيع.

ليتك يا سلطانة تغرسين زهرة جميلة، وتتعهدينها كل يوم لتكون رمزاً حيّاً لحبّنا حتى إذا جئت رأيتها

أتعرفين ما يتوالى عليّ من الذكريات فأبتسم تارة وأبكي أُخرى؟ أتذكّر حين كنت تجلسين في غرفتي على ذلك الكرسي الكبير، تقرأين أو تخيطين الحرف الأوّل من اسمي على ثيابي.

أتذكّر حين كنت آخذ «الكسكيت» لأُلبسك إياها على غفلة منك أُداعبك، فترفضين وتخبّئين رأسك الجميل بيديك.

أتذكّر حين كنت تقومين لتنامي فأتبعك إلى باب غرفتي، فأقف إلى أن تدخلي تلك الغرفة التي كنت تنامين فيها مع أُختي، أنتظر أن تلتفتي إليّ وتُحييني بصوتك العذب، فأنام سعيداً.

أتذكّر حين كنت تقومين من النوم فتملأين البيت بهجة بمحيّاك الوضّاح، وثغرك البسّام.

أتذكّر حين كنا نجلس إلى مائدة الطعام، فلا أعرف ماذا آكل ولا ماذا أشرب.

أتذكّر سهرتنا الجميلة في ١٩٠٧/٨/٢٩ التي كانت تاريخ المحبّة بيننا.

أتذكّر حين كنت أُعلّمك الرقص فأضع يدي في يَدكِ، فأشعر بمجار كهربائية كان ينتفض لها كلّ جسدي.

أتذكّر حين كنت أذهب معك لأوصلك إلى بيتكم، فأمشي بجانبكِ مُفتخراً.

أتذكّر حين أخذتك مع أُختي ميليا إلى الزينة في أوّل أيلول في عيد الجلوس، فكنت زينة الزينة وحسبت أنها أُقيمت لنا.

أتذكّر حين أخذتك مع أُختي ميليا لنزور داود لأوّل مرّة فلم نجده، فمشينا على طريق جبل الزيتون، فكنت أحسب نفسي أتخطّر على قمّة السعادة.

أتذكّر حين ذهبنا مع يعقوب ابن خالتي نزور أخته أنيسة في البقعة[٨]، ولما خرجنا من هناك انطبق غطاء العربة على يدي فجرحها، فمررنا على صيدلية قرب الباب الجديد، وأخذنا دواءً سائلاً مطهِراً، فأسرعت أنت وغسلت يدي بذلك الدواء ثم ربطت الجرح.

أتذكّر حين ذهبنا إلى عين كارم، وما كنت أغنيه بالإنكليزية على مسمع منك، فكانت تلك الأغنية رسالة مني إليك.

أتذكر حين كنّا نذهب أنت وميليا وأنا إلى ذلك الصخر المحبوب نقطف الأزهار، ونرمي الحجار، ونسمع تغريد الأطيار، ونشهد غياب الشمس وراء الجبال، فلم يكن طرفي يروى من النظر إليك.

أتذكر ليلة كنت هائجاً بسبب مسألة صهيون، وكيف جعلت أنت تلطفين حدّتي، فلم يسعني إلاّ الإنقياد لك. فوعدتك أن لا أعمل شيئاً إكراماً لك.

أتذكّر حين ذهبنا إلى رام الله أنت ويعقوب ابن خالتي وميليا وأنا، ووقوفنا على جناح اللوكندة نتجاذب الأحاديث التي كانت كأنها قطع موسيقية في أُذني، ولما رجعنا جعلنا نلعب تلك اللعبة الحلوة لندفأ، وفي

---

(٨) البقعة: من أحياء القدس الغربية، وهناك بقعتان: البقعة الفوقا والبقعة التحتا، وتقع على طريق بيت صفافا.

المساء ذهبنا وسهرنا في بيت يعقوب والسعادة تظلّلنا .

أتذكّر حين أهديتك إنجيلي باللغة الإنكليزية ، بعد أن وضعت خطوطاً تحت بعض آيات منه لتكون رسالة مني إليك .

أتذكر حين نصبنا تلك الحجارة على قمّة ذلك الجبل تذكاراً لحبّنا / ١٦ أيلول ، فاختلست منكم نظرة إلى السماء ، أطلب من الله تحقيق آمالي .

أتذكّر حين كنت أزورك في بيتكم بعد أن تذهبي من عندنا ، فتقابلينني بثياب البيت الجميلة ، فلا أستطيع أن أرفع نظري إليك .

أتذكر حين زرتنا مع مس «أدس» Miss Adess ثم ذهبنا بعد الظهر ، ومشينا بين الجبال ، وشهدنا غياب الشمس ، ثم رجعنا بقلوب طافحة سروراً ووجوه تتدفّق نوراً ، فكأنّ الشمس لم تغب إلاّ لتظهر على وجه كل منا .

أتذكّر حين كنّا نمشي في ضوء القمر فأمشي إلى جانبك أُفاخره .

أتذكّر حين ذهبنا أنت وأختي وأنا لنتفرّج على الزينة الثانية / ٢٤ أيلول ، وكأنها تكرّرت لتكون رمزاً لنوثّق عرى المحبّة بيننا .

أتذكّرحين ذهبنا إلى ارتاس [قرية ارطاس ، جنوبي بيت لحم] حيث كانت فراديس سليمان صاحب نشيد الإنشاد ، فخلت روحه ترفّ علينا مع حفيف الأشجار ، وتنشدنا تلك الأناشيد المملوءة حبّاً ، ولما وقعت نظارتي فتكسّرت احتفظت بها تذكاراً لذلك اليوم الجميل .

أتذكّر ذهابنا من وقت إلى آخر إلى العين لنشرب ونتداعب .

أتذكّر ذينك الفلاحين اللذين جلسا بالقرب منّا مندهشين من جمالك الفنّان ، فقلت في نفسي : لو بعث الله سليمان فرأى محيّاك الجميل لما تمالك أن يسجد لك .

أتذكّر كيف كان الهواء يعبث بشعرك الجميل ونحن راجعون ، وكيف كان وجهك يلمع ، وثغرك يبتسم ، وعيناك تنظران إليّ نظرات الحنوّ واللطف والمحبّة .

أتذكّر ليلة عقدتُ صداقة بينك وبين ميليا ، فكانت تمهيداً لعقد المحبّة بيني وبينك .

أتذكّر حين ذهبنا في صباح الغد إلى المحطّة لنودّع داود ، فكنت موضع إعجاب الجميع .

أتذكّر حين جئت مع ميليا إلى غرفتي – في منزل المرحوم الأستاذ نخلة زريق(٩) – فوقفت إليك عند الباب ، وقلت لك وقلبي يخفق ولساني يتلعثم : إن لي كلاماً معك سأكتبه لك . فأجبتني : أُكتُب .

أتذكّر حين كنت تجيئين تارةً وحدك وتارةً مع عمّتك وابنة عمّي لتسهروا عندنا في بيتنا في البلد فأجلس

---

(٩) نخلة زريق : (١٨٦١ – ١٩٢١) ، ولد في بيروت ، تعلم فيها على يد الشيخ ناصيف اليازجي . جاء إلى القدس العام ١٨٨٩ . تسلم مدرسة الشبان الاعدادية التي عرفت فيما بعد بالكلية الانكليزية . له فضل كبير في بعث اللغة العربية وقيام نهضة أدبية في فلسطين .

ناضرة زاهية، كما أرجو أن يكون حبّنا ناضراً زاهياً إلى الأبد.

هل تكتبين لميليا؟ اكتبي لها واشبعيها من أفكارك الرقيقة وتصوّراتك البعيدة، ليتك تطلعينها على حبّنا.

إذا جاء عيد الميلاد فليتك تذهبين مع ميليا إلى يافا؛ تنزلين أنت في بيت أبناء عمك، وتنزل هي في بيت داود، ولست أخفي عنك أن داود يعرف بحبّنا، وهو يحبّ أن تذهبي مع ميليا في عيد الميلاد إلى يافا، ولست أشكّ أنّك ستُسرّين هناك بالقرب منه كما يُسرّ هو بك.

هل لقيت ابن خالتي يعقوب؟ وماذا دار بينكما من الحديث؟ كتبت له أن يُوصل إليك رسائلي بيده ليراك ويكتب لي عنك.

لا أزال إلى اليوم أعيش من دراهمك، ولم يبق معي منها إلاّ ليرة واحدة، ولكن والحمد للّه قد وجدت ثلاثة تلاميذ يدخلني منهم في الأسبوع أربعة ريالات. ولي أمل أن أدبّر الآن ما يكفيني في هذه الأزمة المالية في أميركا، وإذا لم أستطع أن أشتري لك السوار الآن، فهل تسامحينني وتعفين عني؟.

راقبي الشمس إذا أشرقت أو أغربت، واعلمي أني أُراقبها مثلك. زوري ما استطعت صخرنا المحبوب واهديه سلامي وأشواقي، وإذا تفرقت تلميذاتك الجميلات على قمة ذلك الجبل المقدّس فتصوّري أني بينهن أبتسم لك بابتساماتهن.

أرسلت إلى سيّدي والدك بطاقة عليها بيتان من الشعر فاقرأيهما، فإن لك فيهما نصيباً.

سأكتب بعد قليل إلى المسس واي Mrs Way. وفي الختام اقبلي مني حبّي الخالص، وعبادتي الحارّة، وأشواقاً صادرة من قلب يكاد يلاشيه الجوى، ودومي لمن يُحبّك ويعبُدك.

خليل

حاشية ٢٦/١١/١٩٠٧

أسعد اللّه صباحك يا حبيبتي، اغتنمت فرصة ذهاب يوسف السلفيتي شريكي في غرفتي لقضاء غرض من السوق في هذا الصباح، فأسرعت وأخذت صورتك من جيبي وقبلتها، ثم فتحت هذه الرسالة، وقرأتها مرّة أخرى، وأضفت إليها هذه الكلمات:

ليس البلبل في قفصه، ولا السجين في سجنه أشدّ انقباضاً وأكثر وحشةً وكآبةً وحزناً مني، بل أشعر أن روحي تكاد تخرج من صدري شوقاً إليك ووحشة لفراقك، السماء تُثلج.

الوداع الوداع.

نيويورك السبت ٣٠/١١/١٩٠٧ [رسالة]

حبيبة قلبي:

إليك، أمامك أو بجانبك، أرى محيّاك الوضّاح وأسمع صوتك الرنّان.

أتذكّر حين أخذتك مع ميليا / ٣ ت١ إلى قالونة فقطفنا أوراق الليمون، واحتفظ كل منا بورقة تذكاراً ليومنا ذاك، ولما رجعنا وأخذ حمارك يتعثّر قدته بلجامه، فسرنا جنباً إلى جنب.

أتذكّر حين كتبت لك أوّل رسالة في ٤ ت١ ذلك اليوم الذي لن أنساه ما دمت حيّاً، ولما مررت عليك مع أُختي في عصر ذلك اليوم لنذهب إلى جبلنا، فما وقع نظري عليك إلاّ رجف قلبي.

أتذكّر يوم كتبت لك الرسالة الثانية، فدفعتها إليك عند مرورك علينا لتأخذي ميليا إلى السوق.

أتذكّر يوم أخذت منك أوّل رسالة بعد رجوعك إلى المدرسة تشيرين فيها إليّ أن أمرّ عليك مساءً لنذهب إلى بيت أبناء عمّك، لحضور سهرة وداع ابن عمّك بندلي، فلم أكن أنظر إليك إلاّ رأيتك تنظرين إليّ.

أتذكّر حين أخذت منك تلك الرسالة المبشرة برضاك (الأربعاء ٩/١٠/١٩٠٧) التي أحتفظ بها كأقدس أثر لدي.

أتذكّر حين ذهبنا، أنت وميليا، ويعقوب ابن خالتي، وأنا، إلى قهوة صامس (على طريق سكة الحديد في البقعة) ولما جعل المغني يلعب على كمنجته، ويغني عبثت بي الأشجان فكدت أبكي.

أتذكّر حين أخذتك مع ابنة عمّي إلى بيت جالا لنحضر ميليا، فأهديتني صورتك المحبوبة مع تلك الرسالة التي أحملها عند قلبي.

أتذكّر موقف الوداع، ذلك الموقف الهائل الذي أذاب قلبي فسال من عيوني دموعاً.

هذه ذكرياتي، بل هذه أحلامي، فما ذكرياتك.

أعيديها على سمعي، فليس شيء ألذّ عندي من سماعها ولو استنزفت دموعي.

خليل

نيويورك الخميس ١٢/١٢/١٩٠٧ [رسالة]

حبيبة قلبي

لي كل يوم ساعة لا أملك فيها دمعي.

أرفع نظري إلى السماء، فلا أرى فرجة بين الغيوم إلا تخيّلتك تنظرين إليّ منها، ولا تقع عليّ شعاعة من الشمس إلا ابتسمت لها، لأنها تذكّرني بمحيّاك الوضّاح وثغرك المشرق، ولا تمرّ بي نسمة من الهواء إلاّ ألقيت إليها سمعي، لعلّها آتية منك بنبأ.

أجمع كل ليلة أبناء القدس، وأقترح عليهم أن يغنّوا الأغاني المحزنة، وأغمض عينيّ لئلاّ يروا أثر الدمع فيهما، وإذا رأوا دمعي أوهمتهم أن ذلك من تأثير الغناء.

آه كم أحتاج وأنا هنا إلى صديق أشكو له أمري، وأبثّه ما يكنّه صدري. ولا تسلي كم أتعذب في كتم حبي

وإخفاء وجدي.

نعم لا أكتب رسالة إلى يعقوب أو داود إلا بثثتهما ما أجد، ولكن لا يجيء موعد الكتابة حتى يكاد صدري يتصدّع.

أحتاج إلى صديق أحيي معه ليلي شاكياً باكياً، وأخاف أن يتعاظم الأمر فأقف على قارعة الطريق، وأبثّ وجدي الرائح والغادي.

كيف أستطيع أن أمسك دمعي أنا الذي كنت أبكي لغير حبّ؟ كيف أستطيع أن أملك حواسّي أنا الذي عشت إلى الآن في الخيال؟ كيف أمنع قلبي من التأثر وقد كان يخفق لتموّجات الهواء وحركات الأغصان؟ كيف أكتم وجدي وقد كنت أشكو لغير علة؟

كنت أتصوّر أني إذا أحببت ألازم من أحبّ، وأطوف معها بأكناف السحاب المخيّم، وأهيم معها في أودية الخيال، وأنسي الناس مجنون ليلى، وجميل بُثينة، وكثّير عزة، وقيس لُبنى، وغيرهم من المُحبّين. أسمعهم من أقوالي ما لم يكونوا يسمعون، وأتلو عليهم من آياتي ما لم يكونوا يعهدون.

كنت أقدّر أني سأوغل في عالم الخيال إلى حيث لا يصلون، وأصل في الحبّ إلى درجة لا يصل إليها أحد قبلي ولا بعدي، فلما أحببت هجرت خيالي، وهدمت أحلامي، وزججت بنفسي في عالم غير عالم الخيال، أجري ولكن وراء المادّة، أنطق ولكن بغير الشعر، أنشد ولكن أقوال غيري، أرى ولكن غير محيّاك، أسمع ولكن غير نداك، محبّ ولكن كأنني غير محبّ، أسير بين الناس ولكن مثل بقية الناس، أعيش كما يعيشون، وأسعى كما يسعون، نهاري مثل نهارهم، وليلي.. لا، لست في ليلي مثلهم؛ يأوون إلى مضاجعهم وأنا أسهر، يرتاحون وأنا أتعذّب، ينصرفون إلى ملاهيهم ومسرّاتهم وأنا أنصرف إلى وحدتي، يتسامرون وأنا أسامر قنديلي الضئيل، ولا أقول النجم لأن النجوم هنا لا تزال أوافل. يأكلون وغذائي الخيال، يشربون وشرابي الدمع، يسكنون وقلبي لا يعرف القرار، وإذا أويت إلى فراشي فليس عن نعاس ولكن لأنتظر النعاس، وأنتظره لا لأنام ولكن لأخلص من آلام اليقظة المبرحة، وأتملص من وجودي الثقيل، فأنفصل عن جسدي أتركه في أميركا يتململ على فراشه، وأطير في حلمي إلى القدس، ولو كنت في بعض أحلامي أسفك الدمع مدرارا، إذ أراني في مواقف الوداع.

بل في يقظتي، في نهاري، وأنا في معترك الحياة الهائل، وأنا أسير في شوارع نيويورك وقرقعة القطارات والترامات على الأرض وفوق الأرض، وعواء البواخر، وضجيج الناس، تصم الآذان، وحركة السيارات والعربات تخطف الأبصار، لا أفيق على نفسي إلا محلقاً في جوّ القدس، تارة فوق المدرسة، وتارة فوق المنزل الذي أُحبّه وأُجلّه، وتارةً على قمة جبلنا المقدّس نراقب الشمس، وتارةً فوق أرتاس أو قالونة، أو عين كارم، أو رام الله، أو بيت جالا.

هذا دأبي في ليلي ونهاري لا أُقيم إلاّ على سفر، إما على أجنحة الخيال في اليقظة، وإما على أجنحة

الحلم في النوم.

لـولاكـمـا يـا خـيـالـي ويـا حـلـمـي   لـكـنـت حـقـيـقـاً أن أمـلّ وجـودي

*

كتب لي داود أن أترك الخيال. كيف أتركه وهو المركب الذهبي الذي يحملني إليك؟ بل هو الجوّ السعيد الذي تلتقي فيه أرواحنا إذا بعدت الدار وشطّ المزار.

لحظة تكفي لأن تنقلني إليك أو تنقلك إليّ، فإذا خطرت ببالك وأنت وراء مكتبك في المدرسة، أو وأنت داخلة إلى الكنيسة، أو ذاهبة إلى البيت، أو خارجة مع تلميذاتك إلى الآكام القريبة فحركة في الفكر تدنيني منك، ونظرة في الخيال تحضرني إليك.

تصلك رسالتي هذه وقد آذنت شمس السنة الماضية بالمغيب، وقد قاربت السنة الجديدة بالبزوغ.

عليك سلام الله يا سنتنا الماضية، لي فيك أيام أذكرها ما دمت حيّاً، وأنت يا سنتنا الجديدة لتباركك السماء، ولتكتنفك السعادة.

وفي الختام اقبلي سلامي العاطر وأشواقي الوافرة ومحبتي الخالصة، ودومي لمحبك.

خليل

نيويورك الأحد ٢٢/١٢/١٩٠٧ [رسالة]

حبيبة قلبي

وردت بالأمس رسالة إلى حنا فراج من أخيه يقول فيها: إن يعقوب ابن خالتي خطب نايفة تماري، فكدت أطير فرحاً، ولكنني تكدرت لسماعي هذا الخبر من الخارج، حتى الأخبار السارة يكتمونها عني سامحهم الله.

كم أتمنى لو أنني في هذه الأيام، أيام الأعياد والمواسم، ولا سيما بعد خطبة يعقوب، لو أنني في القدس، إذن لكنا ذهبنا جميعاً أنت وميليا ويعقوب وأنا إلى يافا، فينضم إلينا داود، ونعلم الناس كيف يكون الحب.

لا شك أن يعقوب الآن سعيد، وسعادته سعادة لكثيرين، ولا سيما لي.

كم أتمنى لو أراه واقفاً بجانب نايفة ينظر إليها تلك النظرات الحلوة. ليتك يا يعقوب خطبت قبل أن أترك القدس، ليكون لي نصيب مع سلطانة في الحفلات والسهرات، بل ليتني لم أترك القدس وقد أقبلت السعادة علينا من كل جانب. كنا ننتظر هذه الأوقات كل أيام حياتنا، فلما جاءت أدرت لها ظهري وسافرت، ما هذا الجنون، كيف أطمع أن يهنئني العيش وأنا هنا بعيد وحيد، ما تأويل هذا، ما تفسيره؟.

إذا استطعت يا سلطانة أن تذهبي مع ميليا ويعقوب إلى يافا فلا تتأخري.

اذهبي ونوبي عني في مشاركة يعقوب في أفراحه، ولست أشك أنه يسر بحضورك، ولكن إذا ركبتم في عربة، أو ذهبتم الى النهر، أو إلى محل آخر، في يوم رق هواؤه وفاحت أزاهره، فامتزج أرجها بأرج الحب، فلا تنفكوا عن مداعبتهما.

إذا انفردا فباغتوهما، وقولوا: سمعنا ما كنتما تتكلمان به، ضايقوهما بالأسئلة: لماذا تلمع عيونكما، وتتورد وجناتكما، ويضطرب قلباكما؟.

إذا تكلما فقاطعوهما بالحديث، وإذا صمتا فاسألوهما بأي شيء تفكران.

وعلى الجملة لا تتركوا فرصة لمداعبتهما إلا غنمتموها.

كم أتمنى لو أستطيع أن أشترك معكم في مداعبتهما، ولكنني آمل أن تقوموا أنت وميليا وداود بذلك خير قيام، ليداعب داود نايفة، وداعبي أنت وميليا يعقوب.

إذا ركبتم عربة فليجلس أحدكم بينهما، وراقبوا عيونهما وحركاتهما. قولوا لداود: اليوم يومك، وليتكم تكلفون الآنسة منانة أن تضع لحناً تذكاراً لخطبتهما، وليتها تذكرني فتضع لي لحناً ترسله إليّ أتغنى به، أو أعزف به على كمنجتي في غربتي وهمتها عالية.

كم أتمنى لو يخلو بالي قليلاً من اضطراباته المتوالية لأنظم قصيدة أتحفهما بها.

قبل أسبوع وردت رسالة على السيد رفلة الحمصي من مصر يقولون فيها: إن أشيل خطب أسكوهي كريكوريان، فسررت لهما جداً، لأني مطلع على حبهما من أوله إلى آخره، وقد كنت موضع سر أشيل ومشتكى ما في نفسه، ثم لم ألبث أن سمعت بخطبة يعقوب لنايفة. ما أجمل هذه الأخبار، وما أحلى لو يخطب بقية الأصدقاء، أخص منهم داود، فيجتمع الخطّاب والمخطوبات ويطوفوا بأكناف السحاب المخيم.

ها قد خطب أكثر الأصدقاء يا داود فما لك لا تخطب، خطبتك اليوم أجمل من خطبتك الآجلة، لنخطب ولنفرح جميعاً في وقت واحد، ليس شيء أجمل من أيام الخطبة.

عزيزتي

مرت عليّ ثلاث ليال أنتبه فيها بعد نصف الليل فأرى القمر مطلاً عليّ من نافذة الغرفة، فأستوي في فراشي، وأجلس إليه إلى أن يعبر عن غرفتي، فأرجع إلى نومي.

ما الذي كان يوقظني وأنا في ثقلة النوم، والقمر فوق نافذتي كأني منه على ميعاد.

هل كنت تذكرينني يا سلطانة في تلك الساعة، هل كلفت القمر بحمل رسالة منك إليّ، هل كلفته أن يستطلع أحوالي؟.

سليه ينبئك أنه لا يمر من فوق غرفتي إلا سمع أنين قلبي الموجع، لا يمر إلا غالبت النعاس، وجلست إليه

أشكره على حمل رسائلك إليّ، وأكلفه حمل رسائلي إليك.

*

كنت مرة ماشياً مع السيد رفلة الحمصي فتنقلنا في الحديث من موضوع إلى آخر، إلى أن جاء ذكر الزواج، فقال: بنتان في القدس كنت أعجب بجمالهما وآدابهما، ولو كان في نيتي الزواج لطلبت إحداهما، فقلت: من هما؟ فقال: إملي وسلطانة.

فخفق قلبي، وقلت له: ما رأيك في سلطانة، فقال: آية في الجمال والآداب.

فغيرت الحديث لئلا تبدر مني كلمة يطلع منها على سرّي الخفي، ولما رجعت إلى البيت لم أملك دمعي، ولم أدر أهو دمع الفرح لما سمعت من الإعجاب بك والثناء عليك، أم هو دمع الحزن لانفصالي عنك.

*

لا أنام حتى ينام يوسف السلفيتي الذي يقيم معي في غرفتي، فآخذ رسائلك واحدة واحدة، وأقرأها، وأقرأ صور رسائلي إليك لأني أحتفظ بها إلى حين اللقاء لنقرأها معاً، ثم آخذ صورتك من جيبي، وأتأمل فيها ملياً، أتأمل في ذلك الجمال الروحاني الذي كان موضع إعجاب الجميع، أتأمل في تينك العينين الجميلتين، وتلك الجبهة الجميلة، وذلك الثغر البسّام، ثم أنام وقد تبددت همومي، وتلاشت أحزاني.

لو كنت في غرفتي وحدي لوضعت صورتك أمامي، ولكنني الآن أحملها في جيبي ولا أنظر إليها إلا خلسة، أو بعد أن ينام رفيقي.

أتأسف كثيراً أني لم أتمكن إلى الآن من شراء السوار، ولكنني أرجو أن تتحسن أحوالي في القريب العاجل فأحقق آمالي إن شاء الله.

إلى الآن لم أجد إلا ثلاثة تلاميذ، وبالأمس جاءتني رسالة من أستاذ اللغة العربية في جامعة كولومبيا، يقول: إن عنده رجلاً يريد أن يتعلم اللغة العربية، وربما استعان بي على ترجمة كتاب قديم مخطوط غير مطبوع يزيد على ألف صفحة. ومنذ بضعة أيام فهمت من السيد رفلة الحمصي أن ابن أخته الياس ملوك يحب أن يعلم عروسه اللغة الانكليزية، وربما كلفني تعليمها. واليوم تعرفت بفتى سوري أخته غنية، جلست معه جلسة قصيرة ملكت فيها قلبه، فعرض لي أنه يحب أن يتقن اللغة العربية، وهكذا أرجو مع الأيام أن يتعرف الناس بي وأتعرف بهم، ولا بد بعد ذلك أن يكون لي شأن في أميركا.

بعد رأس السنة سأدخل في جمعية اتحاد الشبان المسيحيين، فأحضر اجتماعاتهم وأنتسب إلى مدارسهم الليلية، وأرجو أن أجد في الأمرين لذة وفائدة.

ها قد مرّ على رسالتك ما يزيد على الشهر، أفما آن أن تكتبي غيرها، لا بد أن يكون عندك الآن أشياء كثيرة لتقوليها، فما هذا السكوت؟.

ألا تشفقين عليّ، رحماك يا سلطانة ترفقي بي ولا تنسي،

خليلك

بالأمس كان عيد مولدي فلم أتفطن له، ولم يتفطن له أحد، فلا حول ولا . . .

نيويورك،
الأربعاء في ١/١/١٩٠٨ [رسالة]

عزيزي داود،

اقرأ واضحك . . . كنت قبلا ابكي من الحالة التي وصلت اليها واليوم اضحك. ذكرت لكم قبلا اني وجدت بعد اللتيا والتي ثلاثة تلاميذ يدخلني منهم اربعة ريالات في الاسبوع، هذا اذا حضروا كلهم وذلك نادر لأنه في كل درس لا بد ان يغيب واحد منهم فأخسر بغيابه ريالا. بهذه الريالات الاربعة آكل واغسل ثيابي وادفع اجرة غرفتي واقاسم فيها بعض ابنائنا من القدس. يا ليتنا بقينا على ذلك، فقد توقف التلاميذ الآن عن الدرس بسبب عطلة عيد الميلاد وقد مر علي اسبوعان لم يدخلني شيء. ارسلت ثيابي الى الغسالة منذ خمسة عشر يوما ولم استطع ان ادفع لها الاجرة فتركت الثياب عندها وليس عندي الا الثياب التي علي، وقبل يومين التزمت ان اغسل جواربي ومناديلي بيدي.

كل ذلك سهل، ولكن امس، آخر ايام السنة، لم يكن في جيبي الا عشرة سنتات، فذهبت مع نقولا البرغوث الى السوق واشتريت خبزا بتسعة سنتات ورجعنا الى البيت فأكلناه مع الشاي، وفي المساء بينما كانت اميركا تقيم الاحتفالات الشائقة لوداع السنة الماضية واستقبال السنة الجديدة جلسنا حول مائدة نلعب بالورق ونحن لا نعي، ثم قمنا الى فراشنا ونمنا على وجوهنا.

خطر لي ان استقرض بعض الريالات من رفلة الحمصي فذهبت اليه مترددا ولما وقفت امامه اخذتني عزة النفس فلم اجسر ان افاتحه بالأمر فانصرفت عنه وانا لا اعرف ماذا اعمل. كتبت الى اخي يوسف في فيلادلفيا، والظاهر انه في ضيق شديد فلم يجب. فعولت ان اجرب الصيام وقلت احسن شيء ان الازم الفراش في ليلي ونهاري.

جاءت الساعة العاشرة صباحا وانا لا ازال في فراشي، فجاءني حنا فراج وبقية الاولاد وقالوا: «قم لنذهب نتجول في الطرق فاليوم عيد عظيم عند الاميركان»، فاعتذرت. فذهبوا وحدهم وبقي عندي نقولا البرغوث. فلما خلا المكان قمت ولبست ثيابي وتناولت سنتا من جيبي وكلفته ان يشتري لنا رغيفا نكسر به الصفراء كما يقولون. ولما رجع قسمت الرغيف بيني وبينه ولكنه لم يضع لقمة في فمه حتى خنقته العبرات فترك الأكل وخرج، فناديته واخذت اشجعه واطيب خاطره، فقال:

«لست ابكي على نفسي ولكن ابكي عليك انت يا خليل لا تجد ما تأكله».

من عاش مثلي منعما مرفها لا يحسب للعواقب حسابا ولا يعرف للدرهم قيمة لا ينجع فيه الا مثل هذه الدروس. ولم اكن لاحتملها لو وجدت لي مخرجا منها ولكن لا مخرج. انا هنا لا اعرف احدا اقدر ان استدين منه إلا رفلة الحمصي، وهذا يكفي ما استدنت منه الى الآن. امس حدثتني نفسي ان انخرط في سلك الجندية لولا انها تمتد الى ثلاث سنوات لا يستطيع المنخرط في سلكها ان ينسحب منها قبل وفاء هذه المدة.

لا يستطيع احد ان يطلب شغلا من احد. ابناء اخت السيد رفلة، وهم السادات ملوك، خسروا في الاسبوع الماضي اكثر من ثلاثة عشر الف ريال. كان في محلهم احد عشر مستخدما لا يصيب الواحد وقتا ليحك رأسه فصرفوهم كلهم، فاذا زرت محلهم اليوم لم تجد الا احد الاخوين مكبا على دفاتره وعلائم الاهتمام والقلق على وجهه. كل يوم نسمع بافلاس الشركة الفلانية والتاجر الفلاني – لطف الله بعباده. اعد نفسي محظوظا اني وجدت بعض التلاميذ.

بالأمس قال لي الصديق فرح انطون: «لو استشرتني قبل مجيئك الى هذه البلاد لكنت نصحتك ان لا تجيء». كلفني ان اترجم له كراسا انكليزيا في حياة محمد عبده لاستاذ اللغة العربية في جامعة كولومبيا وربما نشره في عدد يوم السبت القادم.

اتردد على ادارته كل يوم فاجلس اليه فنتجاذب اطراف البحث في مواضيع مختلفة. بالأمس ظهرت رواية «اتالا» لشاتوبريان ترجمة صاحب الجامعة فكلفني ان اقرأها واكتب له عن رأيي فيها، فأجبته الى طلبه وابديت له بعض ملاحظاتي فسر بها وطلب الي بالحاح ان اكتبها لنشرها في اول عدد من جريدته. ظهر لي انه في احتياج الى صديق مخلص يستأنس به في غربته وسأكون له هذا الصديق لأني احبه.

اما من جهة صحتي فهي جيدة والحمد لله، وهمتي عالية ومع اشتياقي واستيحاشي اراها كل يوم في ازدياد، وكل هذه الصعوبات التي الاقيها كل يوم تتحول الى قوى اضيفها الى قواي والله المستعان.

على ذكر الصحة والقوة، جمعتني وبعض الشبان ليلة فأخذوا يلعبون العابا ويتحرش بعضهم ببعض، وكلهم اكبر مني جثة واطول قامة واثقل وزنا، ولعلهم استخفوا بي في اول الامر، فشاركتهم في العابهم فحملت احمالا ولعبت العابا لم يقدروا ان يجاروني فيها. ثم اخذت في الصراع معهم فكنت ابيح لهم ان يمسكوني حيث شاؤوا فأجمع بعضي على بعض فتلتوي ايديهم كما تلتوي الاغصان الغضة، وتنقصف ارجلهم، وتنثني قاماتهم، كأن عظامهم من خيزران. ثم ابيح لأقواهم ان يجرب ان «يكمشني» حيث شاء، في رجلي او صدري او ذراعي حتى وجهي، فلم يستطع ان يجد فيّ مكمشا. وقد تدرجت في الهياج حتى شعرت ان فيّ قوة ألوي بها الحديد، فما كان من احدهم الا ان قال: «اراك تصلح للصراع» فتذكرت قول «تنسون» الشاعر الإنكليزي: «فيّ قوة عشرة رجال لأنّ قلبي طاهر». لو رأيتني يا داود ماشيا في الطريق لحسبتني كرة مدفع.

الشعب السوري هنا على الاجمال منحط جدا في اخلاقه ومبادئه، ولا احضر مجلسا من مجالسهم الا

كان لي صدر المحل، لا يستطيع شاب ان يجري ذكر النساء امامي. كم احب لو كانت لهم جمعية ادبية ارفع فيها صوتي وادعو الى مبادئي التي لا يحلمون بها.

مساكين! ما رأيك لو ظهرت بينهم الآنسة منانة؟ لست ابالغ ان قلت انك لا تجد حتى بين الاميركيات من يضاهيها في الآداب والثقافة. بل ماذا يكون لو رمتك الاقدار في هذه البلاد؟ لا شك انك تصبح في وقت قصير الزعيم الذي يشار اليه بالبنان.

يا داود انا اذا لم اتحمس فلست شيئًا. حمسني تر مني العجب. لما دخلت على فرح انطون وهو متأثر من الطعن فيه في احدى الجرائد قلت له: «إما ان تتناسى ان هؤلاء الناس موجودون في العالم وإما ان تطلبهم الى البراز». وكان هناك شخص واقفا بازائي فصعد الدم الى وجهه ولمعت عيناه تحمسا لقولي. اتذكر يا داود ليلة قلت لك في بيتكم: اني احب المعيشة الهائجة الثائرة؟ اجل احب المعيشة الهائجة والا فلا اثر لوجودي.

دعني الآن امسك القلم لأكتب الى سلطانتي، ولعل الصباح يطلع علي قبل ان انتهي من الكتابة اليها، فالوداع الى جلسة ثانية والله تعالى يديمك لي سنداً وفخراً بفضله واحسانه.

خليل

نيويورك ١٩٠٨/١/٣ [رسالة]

سلطانتي

أسعد الله صباحك ومساءك.

ليس عندي ما أخاطبك به اليوم إلا قصيدة البهاء زهير، وهي أغنيتي في هذه الأيام، فاسمعي:

ترى هل علمتم ما لقيت من البعد ... لقد جلّ ما أخفيه عنكم وما أُبدي
فراق ووجد واشتياق ولوعةٌ ... تعددت البلوى على واحد فرد
رعى الله أياماً تقضت بقربكم ... كأني بها قد كنت في جنة الخُلد
هبوني امرأً قد كنت بالبين جاهلا ... أما كان فيكم من هداني إلى الرشد
وكنت لكم عبداً، وللعبد حرمةٌ ... فما بالكم ضيّعتمُ حرمةَ العبد
وما بال كتبي لا يردّ جوابها ... فهل أُكرمت أن لا تقابل بالرد
فأين حلاوات الرسائلِ بيننا ... وأين أمارات المحبةِ والود
وما لي ذنبٌ يستحق عقوبة ... ويا ليتها كانت بشيء سوى الصدّ
وإني لأرعاكم على كل حالة ... وحقكم أنتم أعزّ الورى عندي
عليكم سلام الله، والبعدُ بيننا ... وبالرغم مني أن أسلم من بعد

خليل

أرسلت اليها في اليوم نفسه بطاقة كتبت عليها :
أصبحت في الدنيا وحيداً ، فارثي لحالتي.

نيويورك ١٩٠٨/١/٤ (السبت) [رسالة]

سلطانتي

الساعة الآن الثانية عشرة، الطبيعة هادئة، وبروكلن كلها مستغرقة في النوم إلا البواخر التي تمخر بين بروكلن ونيويورك، يدوي صوتها من بعيد من وقت إلى آخر كأنه خوار البقر.

كل شيء نائم إلا أنا وتلك البواخر. فدعيني في فرصة هذا الهدوء أناجيك وتناجينني، (؟) لعلك الآن مستيقظة من نومك تستقبلين أشعة الشمس المطلة عليك من كوى غرفتك، فماذا كانت أحلامك، وبمَ تفكرين الآن؟ دعيني أرسل إليك تحيتي مع نور الصباح.

السلام عليك يا سلطانتي.

السلام عليك يا نجمة صبحي.

السلام عليك يا زُهرة.

السلام عليك يا ريحانتي.

السلام عليك يا كل آمالي.

السلام عليك يا سعادتي.

السلام على وجهك الوضاح وثغرك البسّام، الذي تمثله لي الشمس حين تتسنّم كبد السماء، والنجوم اللوامع حين تصفو السماء، والزهور في نيسان.

السلام على قلبك الطاهر الذي يشبه قلوب الملائكة.

السلام على أخلاقك العالية وفطرتك السليمة.

السلام على هيكلك الجميل الذي يمثل جمال الآلهة.

السلام عليك من محب يعذبه البعاد، بل عابد يخلص لك العبودية.

فدىً لعينيك عيون الجآذر، ولعطفك أعطاف البان، ولسناك سنى الكواكب.

ماذا تريدين، وماذا يرضيك؟ كلمة منك ترفعني إلى أوج السماء، كل مستحيل ممكن، وكل صعب سهل، وكل بعيد قريب.

أفرش لك عيني وخدي فامشي عليهما، أفتح لك قلبي فاستوي على عرشه وتسلمي مقاليده، أبذل لك نفسي فهي ملك لك.

أنت سلطانتي وأنا مملوكك في بيعك وشراكِ، يا غصني الزاهر، يا وردتي الجميلة، يا زنبقتي الآرجة، يا

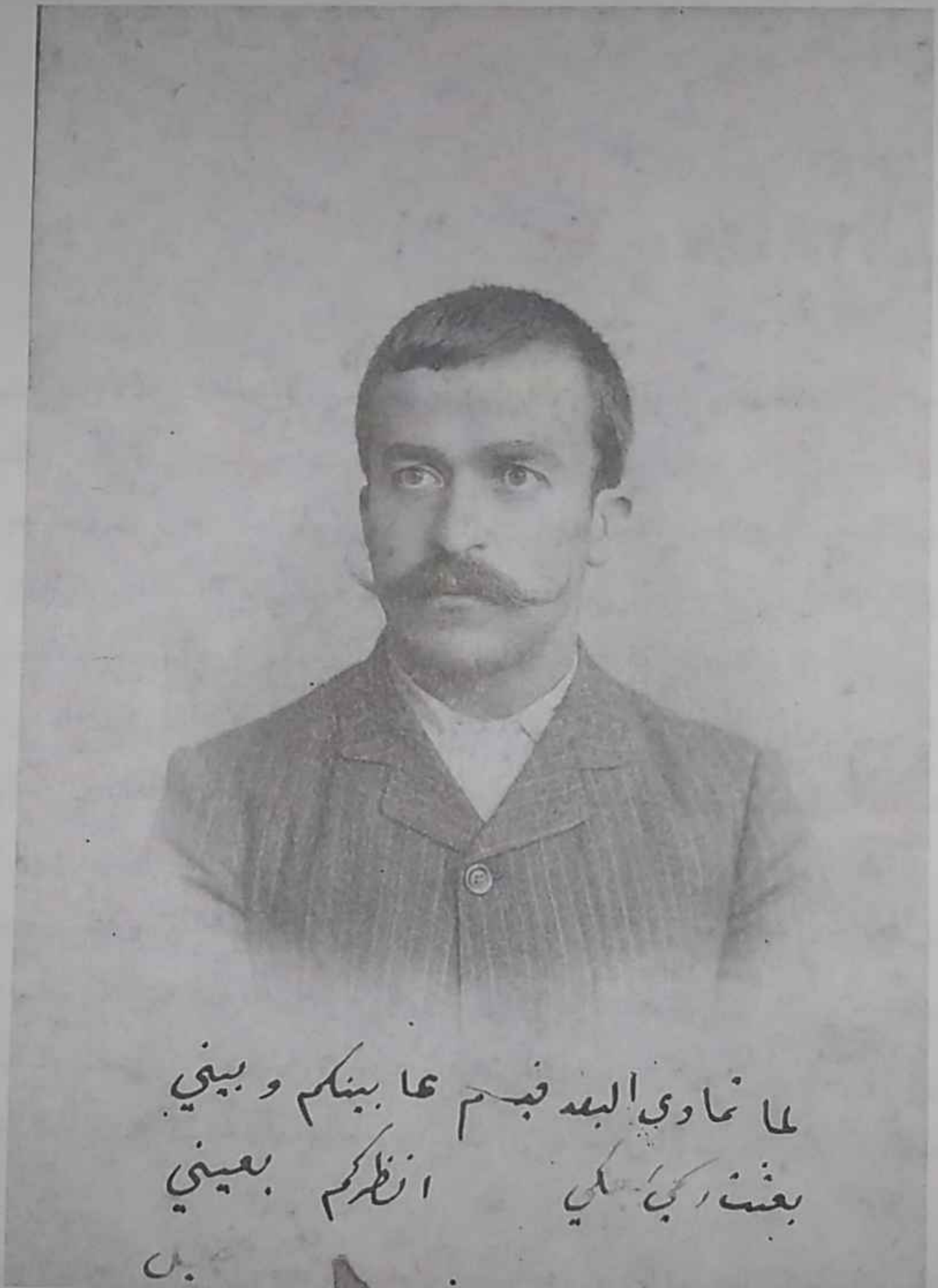

خليل السكاكيني، القدس ١٩٠٦

سوسنتي اللطيفة، يا شمسي، يا قمري، يا سمائي، يا حبيبتي، يا نعمتي، تمنطقي [=تزنّري] بنظري، وتجلببي بقلبي، وتقلدي بروحي.

أنيرِي مكان البدر إن أفل البدرُ وقومي مقام الشمس إن أبطأ الفجر

تيهي دلالاً فأنت أهل لذاك، وتحكمي فالحسن قد أعطاكِ

ولك الأمر، فاقضي ما أنت قاضية، فعليّ الجمال قد ولاكِ

ذكرك يحييني، وخيالك يهديني، وسلامك يكفيني.

خليل

نيويورك الأحد ١٩٠٨/١/٦ [رسالة]

عزيزتي

غداً عيد الميلاد، غداً تنعكس أشعة الصباح عن صلبان الكنائس، وزجاج النوافذ، وعن حب الندى المنعقد على الأشجار والأزهار والعشب، غداً تزدحم طريق بيت لحم بمواكب الزائرين، غداً تدوّي الأجراس في جو القدس، غداً تجلس العائلات إلى الموائد لتناول طعام العيد، غداً تشرق الوجوه وتبتهج القلوب، غداً يتزاور الناس في البيوت، ويتصافحون في الطرق، غداً تغصّ الكنائس بالرجال والنساء والفتيان والأوانس بثياب العيد الجميلة، فإذا فتحت كوة غرفتك المقدسة، وأزحت ستائرها الجميلة فحيي عني شمسنا الساطعة ونهارنا الزاهي، واقطفي وردة مكللة بالندى وضعيها في أعلى صدرك، واذكري كم أود لو أكون بجانبك أبادلك التحيات والابتسامات. كم أود أن أسير الى جانبك أرافقك إلى الكنيسة، أو أركب معك عربة جميلة تجري بنا خبباً إلى بيت لحم.

بعد أيام قليلة يكون عيد الغطاس، فيذهب الناس مشاة وركباناً إلى نهر الأردن، وحين يرجعون تخرج المدينة لاستقبالهم، في ذلك اليوم البهيج، كم أود لو أكون في القدس فأؤلف جماعة ونذهب الى قرية العازارية[=العيزرية] ونهبط إلى الحوض، ونتوسد العشب الأخضر، ونرتشف كؤوس المسرة مترعة صافية.

أخبريني يا سلطانة كيف قضيت هذه الأعياد؟ واعلمي أن روحي معك حيثما كنت وأينما ذهبت.

*

منذ بضعة أيام زرت الدكتور نجيب الجمل، فذهبنا الى احدى نواطح [كذا] السحاب، وارتقينا الى الطبقة الثانية عشرة منها، وجلسنا في معرض صورها، وأدرنا ذكر البلاد، فقال لي في بعض حديثه:

إني كنت أنوي مرة أن أطلب وساطتك في طلب سلطانة.

وأخذ يطنب في مدح جمالك وكمالك، وقبله عيسى العيسى وأفتيم مشبك كلفاني مثل ذلك.

من بقي يا سلطانة لم تسمُ به نفسه إلى طلبك.

لا شك أن كثيرين يغبطونني على هذه النعمة، وسأبذل أقصى الجهد لأكون أهلاً لك فانعمي بالاً.

فهمت من الدكتور الجمل أن الآنسة نصرة عودة، التي كانت تعلم في مصر موجودة الآن في نيويورك، وأن الآنسة وديعة أو مريم كتبت لها أني هنا فأحبت أن تراني.

كنت في اليوم الأخير من السنة الماضية وفي اليوم الأول من السنة الجديدة مكروب النفس محزون الصدر، إلى الدرجة القصوى، فتمنيت لو أستطيع أن أطير إلى القدس فأطل عليك ثم أرجع.

في كل ليلة أحلم أني رجعت إلى القدس.

حلمت مرة أننا كنا في بيتنا القديم في خارج السور، فجلست أنت عن يميني، وجلست أختي ميليا عن يساري، وكان وجهاكما يلمعان كأنهما كوكبان، وكانت شعوركما معقودة فوق رأسيكما الجميلين كأنها إكليلان.

أمس دعاني أحد السوريين لتناول العشاء، وقد كنت أعرفه من القدس أيام كان يشتغل فيها، فجلسنا الى مائدة كبيرة قبل العشاء، وشربنا قليلاً من العرق، وأخذوا يتلاعبون بالكلام، ويورون عن معان تحمر لها الوجوه خجلا مما حط من شأنهم في نظري. ثم تعشينا عشاءً فاخراً، وبعد العشاء دخلنا الصالون، وأخذت السيدات يلعبن على البيانو ويغنين أغاني أميركية، لأن بعضهن كنّ أميركيات، ثم طلبوا من آنسة سورية أن تغني، وبعد التمنع المعهود في السوريات اندفعت بعض أغانٍ عربية بصوت رنان جميل، لم أسمع مثله في حياتي.

أحبّ الموسيقى يا سلطانة والغناء، فليتك تهتمين بهما. كيف أنت والبيانو الآن؟ أرجو أن تكوني قد برعت فيه.

في هذا الأسبوع أذهب إلى المدرسة الليلية، فأحضر الدروس، واشترك في الاجتماعات. في المدرسة فرع للألعاب الرياضية، ولعلي أشترك فيه أيضاً لتقوية جسدي وتجديد نشاطي، وإني لأرجو أن تكوني حريصة على ألعابك، ولا سيما لعبة التنس.

ظهرت في الأسبوع الماضي رواية «أتالا» ترجمة فرح أنطون صاحب [جريدة] الجامعة، وهي رواية جميلة جدا، سأبعث إليك بنسخة منها بعد أن أعيد قراءتها لأشير إلى بعض المواقف فيها، وربما علقت عليها بكلمة أنشرها في جريدة الجامعة أو مجلتها.

اقرأي يا سلطانة ما استطعت، وروضي جسدك ما أصبت فرصة، وتمرّني على البيانو والغناء، حتى إذا رجعت مزجت صوتي بصوتك وغنينا أناشيد الحب.

كتبت إليّ أختي وذكرت في رسالتها سلامك المرسل مع أمواج الأتلانتيك، وقالت إنك ستزورينها مع سليم، فهل ذهبت؟ وماذا كان موضوع حديثكما؟ يا ليتني كنت معكما.

كتب لي سليم ابن عمي وأهداني سلامك، ومثله فعل ابن خالتي يعقوب، على أني كنت انتظر منك

رسالة، فلماذا لا تكتبين؟.

أكتب لك هذه الرسالة ورسمك أمامي، ولا أكتب حرفاً إلا نظرت إليه وابتسمت لك.

لتسلم هذه القامة، لتسلم هاتان العينان، ليسلم هذا الفم، لتسلم هذه الإبتسامات، ليسلم هذا القلب الطاهر.

لا تجيش في صدري الهموم إلا فزعت إليه فتتلاشى، ولا يستولي عليّ الجزع إلا فتحت رسائلك فتنفرج كربتي. أرجو أن آخذ منك اليوم رسالة تجعل عيدي غداً عيداً سعيداً.

يا حبيبتي لا تنسيني، يكفيني لوعة الفراق، وغلة الأشواق، وما أعانيه من اليأس، ترفقي بي واقبلي محبتي الخالصة، وعبادتي الصادقة.

خليل

يوم السبت الواقع في ١١ ك٢ سنة ١٩٠٨م

استحممت وأفطرت ونزلت إلى نيويورك، ذهبت تواً عند فرح أنطون فأعطيته المقالة فسرّ بها، وقال: لو أحضرتها أمس لنشرناها اليوم. ثم دخل فتى حاملاً بعض أعداد من [جريدة] الجامعة [الصادرة] اليوم، فناولني فرح أفندي نسخة منها فقلبتها فوجدت فيها مقالتي عن [رواية] أتالا، مصدراً ببضعة أسطر من قلم فرح أفندي يثني فيها على أدبي ويعرفني الى القراء، فسررت من ذلك ثم ذهبت الى محل الخواجات[=السادة] ملوك، لعلي أجد رسالة من أحد، فلم أجد شيئاً. وكان الوقت الظهر، فدعاني الخواجا رفلة [الحمصي] للغداء، فاعتذرت بأني تغديت قبل قليل، فدعا نقولا البرغوت، وذهبنا الى مطعم أميركي، وبعد الغداء جلنا قليلاً في شوارع نيويورك، ثم تركتهما وذهبت الى جامعة كولومبيا، أزور أستاذ اللغة العربية، الدكتور كوتهايل، فجلسنا أمام طاولة وأشعلنا سيكارين وجعلنا نتصفح الملزمة الأولى [من مخطوطة يعكفان على تحقيقها] ونقابلها على الأصل، واستغرق عملنا نحو ساعتين، أصلحنا الأغلاط المطبعية، وقومنا مناد بعض ألفاظ لم يستقم بها المعنى. وكانت النتيجة بعد كل هذا التعب الذي استغرق نحو خمس ساعات من أوقاتي ذهاباً وإياباً وتنقيحاً، أنه وقف واستكثر خيري، فخرجت من عنده لا أعرف كيف أؤول هذا. ثم قلت: لا بأس، لعلي أنال عنده حظوة، فإذا احتاج يوماً الى مساعد افتكر بي وذكر أتعابي. رجعت إلى شارع واشنطن وقد جدّ بي الجوع، فلم أتمالك أن دخلت مطعماً سورياً، وأكلت بما تبلغ قيمته ربع ريال، ومررت على الغسالة فأخذت ثيابي ورجعت إلى الغرفة، فلقيت نقولا البرغوت والياس حيدر ويوسف السلفيتي في الطريق، فأعطوني كارتين [= بطاقتي معايدة] جاءا من القدس، الواحد من سليم سلفيتي والآخر من سليمان الدّدا يعايدانني فيهما. وقد جاء في ضمن رسالة ليوسف السلفيتي ورقة من أخيه الياس يطمئنني فيها عن أخي يعقوب ويهديني سلامه، وسلام أهلي، وجورجي الخوري مع بقية الشبان، فشرد بي

الفكر إلى القدس، وانتشرت أمام عيني غمامة سوداء، واستولى عليّ الذهول بضع دقائق، وقد تعجبت كيف لا يكتب أهلي ولا أصدقائي إليّ. رجعنا الى الغرفة، فجاءت ربة البيت فدفعت لها أجرة غرفتي وبقي معي نصف ريال، وليس مع يوسف ولا نقولا ما يدفعانه أجرة لغرفتهما، وقد كانا متكلين عليّ أن أدبر لهما الأجرة، لأني مديون لهما ببعض ريالات، الأول بأربعة ريالات، والثاني بريالين من الريالات التي أخذتها له من خليل حبابو، فعولت أن استقرض غداً بعض ريالات، إما من خليل حبابو أو الخواجا رفلة [الحمصي].

الأحد الواقع في ١٢ ك٢غ سنة ١٩٠٨م

السماء شاتية، لزمت غرفتي، قرأت رواية أتالا مرة ثانية ورسمت تحت بعض أسطرها خطوطاً لأرسلها إلى سلطانتي. بعد الظهر جاء خليل حبابو واسكندر غزال، فأخذت ريالاً من خليل حبابو ودفعته الى نقولا البرغوت ليدفعه أجرة الغرفة، ثم زرنا الخواجا حنا حشمة، فوجدنا قرينته مريضة، فرجعت الى الغرفة واشتريت أنا والياس حيدر سمكاً وتعشينا، وما كدنا نفرغ من العشاء حتى دخل علينا اسكندر غزال ودعانا للعشاء وشدد في الدعوة، فذهبت معه وجلسنا الى مائدة الطعام وتعشينا، ثم أحضروا الفواكه فقشروا البردقان [البرتقال] بالسكين بحيث خرجت القشرة قطعة واحدة كالحبل، فصار كل واحد يديرها فوق رأسه ثلاث مرات ويرميها وراءه، فتقع بعض الأوقات على شكل بعض الحروف، فالحرف الذي تجيء على شكله يكون الحرف الأول من اسم الشخص الذي يحبه الرامي، فكانت تقع على صور مختلفة غير واضحة، ثم أخذت قشرة ولويتها فوق رأسي ورميت بها الى الوراء، فجاءت على شكل S بصورة واضحة، فصفقت وصعد الدم الى وجهي، وقلت: هذا هو الحرف الذي أريده، فنظروا إليّ يقرأون ملامح وجهي، لا شك أن ذلك غريب.. دخلنا الى الصالون ولعبنا بعض الأنغام على البيانو، ثم رجعت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي فكتبت رسالة إلى أمي ووقائع يومي هذا.. انثقب حذائي، «فأهل فوق» يقولون إني لابس حذاء، «وأهل تحت» يحسبون إني حافٍ.

الاثنين الواقع في ١٣ك٢غ سنة ١٩٠٨م

حلمت الليلة أني رجعت إلى القدس، فيا ربّ متى تصدق أحلامي. استحممت وأفطرنا خبزاً ولبناً. كتبت مقالة لفرح أنطون تتمة مقالة يوم السبت، ونزلت الى نيويورك وذهبت تواً الى ادارة الجامعة، فعرضت مقالتي عليه، فكأنه رأى فيها خروجاً عن الخطة التي رسمها لهذه المطاليب، فاعتذر اليّ وشكرني. ذهبت من هناك إلى محل الخواجات ملوك فوجدت رسالة من القدس، نظرت الى العنوان لعلي أعرف ممن وردت فلم أقدر، ثم فتحتها فإذا بها رسالة من [مستعمرة] الأميركان في القدس، وما كدت أصل الى نصفها حتى وقفت على خبر خلع قلبي وزلزل الأرض تحت أقدامي، ينعون لي [فيه] وفاة عفيف، أخي داود حبيبي،

فاستلقيت على كرسيّ هناك وأدرت وجهي الى الحائط وجعلت أبكي، فأخذ الخواجا رفلة يعزيني، ثم تحاملت على نفسي ورجعت الى غرفتي ومدامعي تهطل. جلست وراء الطاولة وضعت صورة داود أمامي وجعلت أبكي وأنوح. جاء الخواجا رفلة وجعل يعزيني ثم جاء يوسف السلفيتي والياس حيدر، وكلهم تأسفوا جداً. من لا يبكي عليك يا عفيف ومن لا يشترك معك يا داود؟!

[يوميّتا ١٤ و١٥ ك٢ مفقودتان، إضافة لجزء من يومية ١٦ ك٢]

(تابع يوم الخميس الواقع في ١٦ ك ٢ غ سنة ١٩٠٨م)

... وستبدأ يوم الاثنين القادم، ثم طلب إليّ فرح أفندي أنطون أن أزوره غداً الساعة العاشرة صباحاً.. لقيت الخواجا خليل حبابو عند الخواجا حنا حشمة، فسار معي الى بروكلن، ولكن في كل الطريق لم يبرح داود من فكري، ولم أكن أتمالك دمعي. داود داود أنت حياتي أنت سروري أنت سعادتي، لا أذاقني الله فقدك، وجعلني من كل سوء فداءك. لم يزل اليوم الخواجا رفلة يحدثني بأمر الشغل، ولو عرض عليّ الدنيا بأسرها لرفضتها، أول وآخر كل شيء سلامة داود.. لا الحبّ ولا الجاه ولا الغنى ولا التقدّم ولا شيء في الدنيا يعدل سلامة الصديق. على سلامتك يا داود.. لم يكفني مرارة العيش وقلق خاطري على أخي يوسف، وانشغال فكري على عائلتي التي تركتها بدون مساعد. لم يكفني ما أسمعه من قوارص الكلام حتى ينشغل فكري عليك يا داود.. دفعت للخواجا يوسف السلفيتي ريالين من أصل حسابه، فيبقى له عليّ ريالان. أرسلت رسالة إلى أخي يوسف، ونسختين من [رواية] أتالا لسلطانة ولأختي ميليا وعدد الجامعة الجريدة الذي فيه مقالتي عن أتالا لسلطانة.. إن كنت تبكي يا داود على عفيف فأنا أبكي عليه وأبكي لبكاك وأبكي لبعدي عنك.

يوم الجمعة الواقع في ١٧ ك٢ غ سنة ١٩٠٨م

حلمت أني في القدس، ولا أتذكر من حلمي إلا أني رأيت أبي. نزلت إلى نيويورك وذهبت تواً الى إدارة الجامعة فإذا به [فرح أنطون] يحتاجني أن أساعده بضعة أيام لتراكم الأشغال عليهم بسبب بداية السنة الجديدة، فجلست وراء الطاولة وكتبت واحداً وثلاثين مكتوباً على جلسة واحدة، فشعرت أن ظهري تيبّس، وأن عينيّ خرجتا من رأسي. كنت أنظر الى فرح أفندي أنطون فأراه مكباً على دفاتره وأوراقه، لا يتركها إلا للغداء ثم يرجع حالاً وينكب عليها، بحيث ان هذا العمل المتواصل الشاق قد أنهك قواه وغيّر لونه، فكأنه ابن ستين، وسأكتب عنه مطولاً في يوم آخر، ثم ذهبت من هناك الى محل الخواجات ملوك، فوجدت رسالة من أستاذ اللغة العربية [في جامعة كولومبيا، كوتهايل] فيها الملزمة الثانية من كتابه، فقلت: لا بد أنه ينوي أن يدفع لي أجرة على تصليحها أو يفتقدني بعمل آخر يكافئني به على اتعابي، ثم رجعت الى بروكلن

وعلّمت الدكتور نيس فآنست منه ارتياحاً اليّ وسروراً بتعرّفه بي، فاستغرق الدرس أكثر من ساعة، فأعطاني ريالاً، وكنت قد أخذت منه في المرة الماضية نصف ريال زيادة، ثم تعشيت ورجعت الى غرفتي، فجلسنا نتحدث في مواضيع كثيرة عن القدس. لم يعد يهمني من القدس الا خبر سلامتك يا داود، بشرني بها فلا أعود أذكر القدس بفمي، سلامتك أثمن عندي من القدس بل من كل شيء.. يظهر لي أنني لا بد أن أشتغل في هذه البلاد، فإذا وجدت مع دروسي الليلية والنهارية شغلاً لساعة أو ساعتين في عدة محال تجارية، علتُ نفسي وعائلتي ووفيت ديوني، وإذا تحسنت أشغال أخي رجعت الى القدس غانماً. ولكن إذا لم تكن أخبارك أيتها القدس حسنة فالسلام على الدنيا.. أنا لا أشتغل وأنجح في الدنيا إلا إذا كنت مبتهجاً مسروراً آمناً مطمئناً. أقل خبر مكدّر يردني من القدس يغل يدي ويقضي على حماستي. روحي فداكم أيها الأهل والأصدقاء. وقدمني الله قبلكم، سعادتكم سعادتي وسلامتكم سلامتي ومصائبكم مصائبي.. فإذا دعوت لكم بالسلامة والسعادة، فكأنني أدعو لنفسي.

يوم السبت ١٨ ك٢ غ سنة ١٩٠٨م

حلمت أني كنت في القدس، حاولت أن أجتمع بك [سلطانة] فلم ألق منك إلا اعراضاً، ثم حلمت أني اجتمعت بداود، دخلت وخرجت معه، وحلمت أحلاماً أخرى لم أتذكر منها شيئاً. قمت الساعة السابعة فاستحممت ونزلت الى السوق فأفطرت بسبع سنتات حليباً وخبزاً، ثم توجهت رأسا إلى ادارة الجامعة، فوجدت الكاتب فيليب غريّب قد سبقني ببضع دقائق، فجلست وراء الطاولة وكتبت ثلاثين مكتوباً. أعطاني فرح أفندي انطون عددي من الجامعة الجريدة، فأخذته وذهبت الى محل الخواجات ملوك وأنا منقبض الصدر، فوجدت كارتاً من الخواجا بندلي الجوزي[10] وآخر من الخواجات سابا عبده وأخوته يعايدونني به، ثم ذهبت الى مطعم فأكلت عسلاً وخبزاً بست سنتات، ومن هناك ذهبت وحلقت. جاءني كارت من الدكتور [نجيب] جمل يطلب فيه مني أن أزوره غداً بعد الظهر الساعة الثالثة، ثم ذهبت الى جامعة كولمبيا، في الطريق فتحت الجامعة وجعلت أقرأها، وإذا بالقطعة التي دفعتها للجامعة في الأسبوع الماضي منشورة فيه، مصدرة بهذه الكلمات: «خليل أفندي سكاكيني، الكاتب الفاضل الجديد الذي انضم منذ شهرين الى جمهور المهاجرين يحث الجمهور على تأييد المطاليب[11] بكلام بليغ ولهجة صادقة»، فسررت لذلك، لما دخلت على أستاذ اللغة العربية الدكتور كوتهيل ناولني سيكاراً وجلسنا نقابل الملزمة الثانية على الأصل، فكان لي نظرات في بعض ألفاظ محرفة أو مصحفة أو مبهمة حتى في الأصل، استشهد

---

(١٠) بندلي الجوزي: (١٨٧١ - ١٩٤٢)، من مواليد القدس، هاجر إلى روسيا وتخصص في الدراسات العربية والاسلامية واللغات السامية، له عدد كبير من المؤلفات والترجمات.

(١١) ترد مفردة المطاليب في اليوميات في سياقات أخرى، على أنها مطاليب المجلس الملّي للطائفة الارثوذكسية في القدس من رجال الدين اليونان، ولا يستبعد في هذا الموضع أن تكون متعلقة بمطاليب فئات وأقليات موجهة إلى الدولة العثمانية قبيل اعلان الدستور.

عليها ببعض الكتب التاريخية واللغوية والنحوية، فجاءت مطابقة للصحة كل المطابقة واستغرق عملنا نحو ثلاث ساعات، ولم نكمل النصف، ولما قمت لأذهب وكأنه شعر باحتياجه إليّ، فقال: أرجوك أن تزورني يوم الثلاثاء القادم بعد الظهر لنكمل مقابلتها، فوعدته أن أجيء، ثم أخذني الى مكتبة جامعة كولمبيا وأراني دائرة الكتب العربية واستعار كتابا لبروفسر مرجليوث في الإسلام ودفعه اليّ لأقرأه. رجعت الى بروكلن فاشتريت أنا والخواجا يوسف السلفيتي سمكاً وتعشينا، ثم رجعنا الى غرفتي فأوقدت ناراً وغليت شاياً. كنت أنتظر أن آخذ رسالة من أخي يوسف اليوم فلم يردني منه شيء، لعل المانع خير. كتبت رسالة الى ابن خالتي يعقوب.

يوم الأحد الواقع في ١٩ ك ٢ غ سنة ١٩٠٨م

حلمت الليلة أحلاما كثيرة مختلفة مختلطة، منها أني كنت ذاهباً أفتش عن داود من محل إلى آخر، وجدت في طريقي الخواجا يعقوب اندريا فسألته عنه، ثم التقيت به بغتة، فقلت له بلهفة: مرحباً، وقال لي كذلك. كان حاملا على كتفه بليرين ولابساً على عينيه نظارات. سرنا معاً وأنا أسأله عن صحته وأحواله فقال لي: مثل الزفت. وما أبعدنا قليلاً حتى وصلنا محطة سكة حديد فقال: اسرع قبل أن يمشي القطار، وأخذ يركض بسرعة البرق ووثب الى عربة من عرباته المكشوفة، وقبل أن أصل تحرك القطار واندفع ينهب الأرض، فكدت أثب اليه وأركب معه، ولكن لم أستطع، فهززت له يدي في الهواء أودعه، وقلت له انتظرني في القطار الثاني.. رأيت أبي وأمي وكنت تارة أرى أننا في نيويورك وتارة أننا في القدس.. وقد رأيت جدتي أم أبي. بعد أن استحممت وغيرت ثيابي التحتانية نزلت الى السوق وأفطرت حليباً وخبزاً، ورجعت الى غرفتي وجلست وراء طاولتي أكتب رسائل الى القدس أوصيهم بداود، فلم أملك دمعي، فوضعت صورة داود أمامي وجعلت أبكي حتى تقرحت أجفاني. دخل عليّ الخواجا اسكندر الغزال فمسحت دموعي وتجلدت أمامه، فدعاني إلى العشاء فاعتذرت، ثم ذهبت مع الخواجا يوسف السلفيتي الى نيويورك، ومن هناك ذهبت أواجه الدكتور نجيب جمل، جعل يشكو إليّ سوء حظه ويذكر من اخفاق مساعيه ما جعلني أشعر معه وأتأثر له. ثم أطلعني على رسالة وردت إليه من فتاة انكليزية يحبها جداً. ثم تركته على أمل أن نلتقي يوم السبت القادم بعد الظهر. رجعت الى الغرفة، تعشينا بيضاً مقلياً ولبناً، ثم جلست وراء الطاولة وكتبت رسالة الى يعقوب ابن خالتي وأخرى إلى سلطانة وأخرى إلى الأميركان.

يوم الاثنين الواقع في ٢٠ ك٢ غ سنة ١٩٠٨م

حلمت أني كنت في القدس في بيتنا داخل البلد، وكان المعلم نخلة مع يعقوب ابن خالتي وداود في بيتنا، وكان القس صالح سابا، معلمي القديم، يحلق في بيت البير وكانت أمي تغسل، لما ذهب القس صالح

خرجت لأشيعه فوجدت أمام الباب أسلالاً من العنب، فأخذ كلّ منا قطعة صغيرة ثم أخذت عنقوداً أسود ودخلت به الى بيت البير، فغسلته بماء سُخن فذبل، ثم غسلته بماء بارد وأكلته. ثم تغير الحلم فإذا أراني في البيت، وكان عندنا ضابط من أبناء القدس، ولعله ابن يونس، وقد شاع عنه أنه مجنون، فجلست أسايره وأبعد الأولاد عنه لئلا يضحكوا عليه، فما كان من سليم ابن لبيبة وأخي يوسف، وقد كان في سن سليم، إلا أنهما وقفا تحت نافذة بيتنا وصارا يناديان: مجنون مجنون، فقام وأطل عليهما من النافذة وتهددهما بعصاه وسبهما، فقلت له: دعهما فإنهما ولدان، وما صدقت أن ذهب حتى رجعت الى أمي أضحك وأقول لها: ما أجنّه. حلم آخر: كنت ماشياً أنا والخواجا الياس حلبي على سلك مثل سلك التلغراف، فجعلت أسأله عن داود وعن مرضه وهل هو مخطر، وهل بالامكان ايقافه؟ فقال: لو تفطن له من أول الأمر لكان خلص منه تماماً، ولكن الآن فلست أظن أنه ينجو منه، وأنه لا بد أن يموت، فلما سمعت منه ذلك لم أعد استطيع أن أمشي على السلك، فقلت له: دعني أنزل دعني أنزل.. قمت صباحاً منقبض الصدر واجماً حزيناً فاستحممت ولبست ونزلت الى نيويورك فأفطرت. ذهبت الى ادارة الجامعة فكتبت ثلاثين مكتوباً على جلسة واحدة حتى لم أعد أستطيع أن أحرك رقبتي أو ارى بعيني، ومن هناك ذهبت الى محل الخواجات ملوك فلم أجد شيئاً، فاضطرب فكري لسكوت يوسف وانقطاعه عن الكتابة، مع أني كتبت اليه عدة مكاتيب وشددت عليه في الكتابة، وجعلت أضرب أخماساً لأسداس، ثم ذهبت مع الخواجا رفلة تغدينا كل منا في مطعم، وبعد الغداء رجعنا إلى غرفته الجديدة وقد آنست منه ندماً على مجيئه ووحشة وضجراً من البطالة، وبعد أن جلست عنده نحو ساعة رجعت إلى غرفتي، فأوقدت ناراً وغليت شاياً وجلست أكتب إلى القدس. جاءني تلميذان [هما] فيليب غريب ونعيم زيبق فأعطيتهما أول درس.

القدس، الاثنين ١٩٠٨/١/٢٠ [رسالة من سلطانة إلى خليل]

عزيزي خليل

وصلتني جميع رسائلك عن يد يعقوب ابن خالتك، فأشكرك عليها، وعلى حبك الخالص.

كنت أرجو أن تكون انجيلاً لي، ولكن بكل أسف أقول: إني لا أقدر أن أقرأها أكثر من مرة أو مرتين، لأني أتألم كلما قرأت أنك تقضي أوقاتك بالنوح والبكاء كلما ذكرتني.

إني لم أمت بعد لتجعل دموعك سواقي، وكلامك مراثي.

لماذا لا تبتسم كلما ذكرتني. لا تجعل البشاشة تمحى عن وجهك يا خليل.

ألا يوجد في أميركا خبر سارّ، أو شيء عجيب، تحدثنا به. ما هذا يا خليل؟! لا تجعل البكاء شغلك الشاغل، لا بد أنك تضايقت جداً لأول دخولك أميركا كما ظهر لي من مكاتيبك.

خليل! أخبرني عن رجل عظيم ارتقى في سهولة، ما الصعوبات إلا سلّم السعادة، لا تقدر أن تصعد إلى

أعلاه ما لم تصعد كل درجة وحدها ، فإن لم تصعد بصبر لا تنل ما في أعلاه ، ومَن صبر نال .

إن الإنسان الذي له قلب وعقل مثلك ولم تكلله السعادة بتاجها اللامع ، فإني لا أعود أؤمن بوجود سعادة في الحياة. لا تقل لي بعد اليوم: ربما لم أوفق، وقد أرجع كما أتيت. ما هذا الكلام يا خليل؟ لماذا لا توفق؟ وما الأسباب التي تمنعك من التوفيق،؟ بالله لا تعد تسمعني مثل هذا الكلام.

توقفت هنا عن الكتابة لأرى من دق الجرس، هذه ميليا جاءت مع ابن خالتك حنا ومعها رسالة منك لي.

هذه أول رسالة سررت بها ، إنني لم أقرأها أمامها ، لأني لا أريد أن تعرف شيئاً عن حبنا مني ، ولقد كذبت على من أراد أن يسمع رسائلك بأن قلت : إنها باللغة الانكليزية ، أوصتني ميليا أن أقول لك لا تكتب بالانكليزية بعد اليوم لأنها تريد أن تقرأ بعض رسائلك .

لماذا لا ترسل رسائلك إليّ رأساً عن يد المطران أو باسم المدرسة حتى لا تكون موضوع اعجاب الجميع ، فلا تعود تصل إلى أحد قبلي؟ .

لم أرَ يعقوب بعد ذهابك إلا ثلاث مرات ، ولم نقدر مرة أن نتحادث ونتذكر ما مضى .

كل من سمع بخطبته انبسط ، فالله أسأل أن يهنئهما ويسعدهما ويوفقهما ، يا ليته خطب ، وأنت في القدس يا خليل .

لم أقدر أن أذهب إلى يافا في هذه العطلة ، لأني ذهبت في أولها إلى نابلس لأعمِّد ابن اختي ، فأقمت هناك مع والدي ستة أيام ، ولما رجعنا كان يعقوب في يافا .

لم تأت ميليا إلى البيت إلا بعد رجوعي .

كنت ناوية أن أذهب مع سليم لنحضرها ، ولكنها أتت على غفلة . صرفنا أكثر أوقاتنا معاً ، كانت تأتي وتنام عندي أكثر الليالي ، وكنا نسهر وحدنا ونحيي ليالينا بذكر الأوقات التي صرفناها معاً ، لم نتكلم إلا بذكرك مع يعقوب وداود ، لقد صرفنا أوقاتاً لن ترجع إلى الأبد .

أترجع شطحة أرتاس يا خليل؟ سلام على ذلك النهار ، فإن ما جرى فيه قد كتب على قلوبنا بحروف لا تمحى ، يجب أن يكون لسنتنا الماضية تاريخ مؤبد خالد .

أنا أكتب الآن والقمر مشرق من بين أغصان الزيتون ينظر إليّ ، فأشعر كأني لا أكتب ، بل أخاطبك فماً لفم ، عرف أني أكتب لك فجاء يحييني ، ويأخذ روحي ليوصلها إليك غداً .

أنظر دائماً الى طلوع القمر وغياب الشمس ، فأذكرك وأخاطبهما أحياناً وأقول : سلِما على خليل كلما نظر إليكما ، اشرقا أشعة السعادة عليه ، املآ الكون جمالاً وبهجة حتى يبتسم لكما وجه خليل وقلبه ، لا أحد غيركما يحمل تحياتنا ويخدمنا .

لي شباك على الجنينة ، وبقربه شجرة زيتون ، فكلما اعتدل الطقس وأشرقت الشمس ، رأيت العصافير واقفة على أغصانها تزقزق وتنظر إليّ كأنها تخاطبني ، لا شك أنها حاملة تحية من أميركا ، فأجيبها بأضعاف

حملها .

طلبت مني أن أعمل لك صورة بدل التي تكسرت ، ولكن بكل أسف أقول إني لا أقدر أن أحصل على واحدة مثلها لأن الزجاجة الأصلية تكسرت ، ولكن اكراماً لخاطرك أخذت يوسف أخي في اليوم الثاني لعيد الميلاد ، وتصورنا عند ملتياوي لنرسل إليك واحدة ، وسأرسلها وحدها في البوسطة ، فعسى أن تصل سالمة .

انظر اليّ واعلم أني كنت أفتكر بك حين أخذت صورتي يا خليل ، أعطيت واحدة لميليا ، وغيرها لبعض أصحابي فعسى أن تعجبك .

تسألني في إحدى رسائلك : هل أكملت قراءة رواية «التعيس»؟ نعم قرأتها وحدي بعد ذهابك وابتدأت أن [كذا] اقرأها مرة أخرى مع ميليا ، يا لها من رواية ، لقد بكيت في مواقف كثيرة منها ، من قرأها وله قلب حساس فلا بد أن تدمع عينه ، أتذكر موت اناتيلد بين أمواج [البحر]؟ أتذكر التقاء ايزيلدا واغوير لأول مرة وآخر مرة؟ .

سلطانة

الثلاثاء الواقع في ٢١ ك ٢ غ سنة ١٩٠٨م

نزلت تواً الى إدارة الجامعة فكتبت ثلاثين مكتوباً ، ومن هناك ذهبت إلى مدرسة اللاهوت ، فلم أجد إلا تلميذاً واحداً لأن الآخر مشغول بالامتحان ، ثم ذهبت الى جامعة كولومبيا فلقيني الاستاذ كوتهايل ، ومساعد له في اللغة العربية ، فاشعلنا كل منا سيكاراً وجلسنا نشتغل فاستغرق العمل ساعتين ، وقد اشتبه علينا بعض كلمات في الفقه يحتاج التثبت منها الى مطالعة كتب الفقه ، فأشرت عليه أن يستعين بفرح أفندي انطون ، ثم رجعت الى بروكلن معيى من التعب ، فجاء الخواجا رفلة وسهر عندنا . قصصت شعري وغسلت محارمي ومسحت حذائي ، ثم نمت عند نصف الليل .

يوم الاربعاء الواقع في ٢٢ ك ٢ غ سنة ١٩٠٨م

نزلت تواً إلى إدارة الجامعة كتبت ثلاثين مكتوباً ، ثم ذهبت علّمتُ تلاميذي ، ثم رجعت إلى حيّ السوريين فتغديت في مطعم الشاوي ، ثم رجعت الى ادارة الجامعة ، فذهبت مع فرح أفندي الى محل الخواجات عوض إخوان ، فعرفته بي فأحسن استقبالنا وقال : ربما غداً أو بعد غد رددت لكم الجواب ، لأني أعطيت كلاماً لكاتب آخر ، ولكنه يشتغل في محل آخر ، فإذا استطاع أن يبقى في محله فأنت أولى بهذا الشغل . فاتحت اليوم الاستاذ بور أحد تلاميذي بأمر الدكتور كوتهايل فقال : كان يجب أن تتفق معه على أجرة معلومة قبل أن تبدأ بالعمل ، وأما الآن فاصبر الى أن ينتهي الكتاب ، فإذا دفع لك أقل من ريال على

سلطانة عبده ١٩٠٧ . الصورة التي وضعها
خليل بجانب سريره في نيويورك

الساعة، فقل له: كنت انتظر أكثر من ذلك، ثم قال لي كم تأخذ من الدكتور نيس فقلت ريالاً على الساعة، فقال: إما أن تطلب منه أن يأخذ أكثر من درس واحد، أو تطلب منه أن يدفع لك ريالاً ونصفاً على الساعة. رأيت منه اهتماماً بأمري كأني صديق له من أمد بعيد فسرّى عني بعض ما أجد. . فهمت من فرح أفندي انطون ان تلميذيّ الجديدين افتكرا أن يدفعا لي كل منهما ستة ريالات في الشهر، فإن صح ذلك استطعت أن أرسل الى القدس هذا الشهر بعض الريالات. خطر لي أن أدرس اللغتين العبرانية والسريانية، ولو أن ألم بهما، لعلي أجد مركزاً في جامعة كولومبيا، سأفكر بهذا الأمر فإن بدا لي نفعه أقدمت عليه إقدام الأتيّ. . أخذت اليوم رسالة من الخواجا بندلي عبده يقول: إنه يشتغل في معمل أحذية، وأنه حصل على هذا الشغل بواسطة كرابديان، وان ابن خالتي يعقوب تزوج، فكنت حقيقاً أن أفرح لهذا الخبر وأبادر الى نظم قصائد التهنئة لولا حزني على عفيف وقلقي على داود. . لم تبرح يا داود اليوم كله من فكري، لا أتذكر شيئاً من حياتنا الماضية، لأني لم أنس ولن أنسى منها شيئاً، محبتي لك لا يستطيع قلمي بيانها. جعلني الله فداك. وضعت في صندوق البريد أربع رسائل الى يعقوب والى سلطانة والى ميليا والى الاميركان، فعسى أن تجدهم رسائلي على سلامة إن شاء الله. جاء تلميذاي الجديدان فظللت أشرح لهما وأسألهما وأمرنهما الى الساعة الحادية عشرة، وإذا بالرجل الذي ينام في الغرفة المقابلة يصيح قائلا: اقلقتموني بحديثكم ولم تدعوني أنام، فأوقفنا الدرس، وخطر لي أن أفتش من الغد عن غرفة أخرى. . حلقت ثم نمت.

يوم الخميس الواقع في ٢٣ ك٢ غ سنة ١٩٠٨

نزلت تواً الى ادارة الجامعة فكتبت نحو ثلاثين مكتوباً، وبينما أنا أكتب إذ جاءني فرح أفندي أنطون وأخذني خارجاً، وتناول من جيبه مقالة يرد فيها على كاتب انتقد روايته في جريدة الهدى، واتهمه أنه سرقها من ترجمة عربية سابقة، وأنه هذا دأبه، ينتحل أقوال مشاهير الكتبة ثم يدعيها لنفسه، فرد عليه فرح أفندي انطون، ولكن لم يشأ أن يثبت الرد تحت اسمه، فقال: هذا الرد فانظر فيه، فإن لم ترَ فيه ما لا تستحسنه نشرته تحت اسمك، فأخذت الرد ولم استحسن منه أن يفاتحني بمثل ذلك، ولكني قلت له: كان يجب أن تكلفني بالردّ عليه وأنا أكتب ما أراه، وإن كنت تخشى فوات الوقت فأنا أذهب الآن إلى غرفتي وأكتب لك رداً، أجرب أن يكون طبق ما أردت، فأخذت مقالته وذهبت إلى الغرفة وكتبت مقالة أخرى ضمنتها أكثر أفكاره، ثم أخذتها له فحذف بعض الجمل واستبدل غيرها بأخرى، ولكن وهو يكتب وقع له غلط نحوي في جملة فنبهته إليه. ثم جلسنا نتجاذب أطراف الأحاديث، فأفضينا إلى كتاب أستاذ اللغة العربيّة، فقال: احترس أن يأكل تعبك فإن الأميركان لا يستنكفون من ذلك. ثم تركته وأنا أخاف أن تسوء مقالتي هذه أصحاب الجرائد المعادية لصاحب الجامعة فتنزلني في الطابق. .

رجعت إلى بروكلن فلقيت ماري خوري التي جئت معها من الاسكندرية إلى مرسيليا ، فمشيت معها مسافة طويلة والثلج يتساقط علينا وهي تحدثني عن خطيبها ، وعمّا كتب لها وكتبت له ، ثم ودعتها ورجعت إلى غرفتي ، فأخذت الياس حيدر وزرنا الخواجا رفلة ، وهناك سألنا ربة المنزل عن غرفة لنا فأرتنا غرفة جميلة واسعة تضاء بالغاز وإلى جانبها حمام أجرتها ثلاثة ريالات [في الأسبوع] إلا أنها مستأجرة ، ولا تستطيع أن تعطينا جواباً قبل أن تسأل مستأجرها ، ثم رجعنا إلى غرفتنا فأشعلنا ناراً وغلينا شاياً . كتبت رسالة إلى أخي يوسف أسأله عن سبب انقطاعه عن الكتابة وأذكر له تحسن أحوالي ، وأحثه على العمل لنتمكن من وفاء الدين ، ثم قلت له : إني عقدت عهداً مع فتاة ، وإني أحب أن أجد له فتاة منذ الآن ، نمت عند الساعة الحادية عشرة .

يوم الجمعة الواقع في ٢٤ ك ٢ غ سنة ١٩٠٨م

قمت صباحاً باكراً فاستحممت جيداً ولعبت ومسحت حذائي ولبست ، ثم نزلت ، مع الياس حيدر إلى نيويورك لنفطر هناك ، وكان الثلج قد ارتفع نحو نصف ذراع على وجه الأرض ، فمشينا فيه ، ولم يكونوا قد فتحوا فيه طريقاً للناس فكنا نغوص فيه الى الركب ، بعد الفطور ذهبت إلى ادارة الجامعة ، وبعد أن كتبت بضعة رسائل أراني الخواجا فرح تنقيحه لصفحة من كتاب الأستاذ كوتهايل اشتبهت علينا فكلفه بتنقيحها ليستطلع رأيي فيها . . عند الظهر تركت الكتابة وذهبت الى بروكلن ، فعرجت على غرفة الخواجا رفلة فلم أجده ، ثم رجعت إلى غرفتي ولما صارت الساعة الثالثة ذهبت لأعلم الدكتور نيس ، فقال لي أحد مستخدمي اللوكندة : إنه مريض لا يستطيع أن يأخذ درساً ، فرجعت أدراجي وأنا أندب سوء حظي ، كنت ناوياً أن أطلب منه إما أن يأخذ درساً آخر في الأسبوع أو يدفع ريالاً ونصف على درسه الواحد فكانت النتيجة أنه لم يستطع أن يأخذ درساً البتة .

رجعت إلى ادارة الجامعة ، وإذا بفرح أفندي أنطون يقرأ جريدة مرآة الغرب ، فقال : تعال وانظر ، فرأيت هناك قطعة يتهمون فيها فرح أفندي بالاختلاس والخيانة ، فجلست بجانبه وصار يحدثني عن معاملة الجرائد له ، فجعلت ألاطفه وأثني على علمه وأدبه ، وقلت له : لو ترجمت رواية أتالا عشر مرات لطلبنا منك أن تترجمها للمرة الحادية عشرة ، فما كان منه إلا أن كتب بضعة أسطر بهذا المعنى ليضيفها إلى مقالة أمس ، وأراني إياها فقلت نعم هذا رأيي . . ثم جلست وكتبت بقية الرسائل ولما انتهيت خرجت أنا والخواجا فيليب غريّب ، فأخذت منه في الطريق ريالين من أصل الحساب . ذهبنا معاً إلى مخزن الخواجات عوض اخوان فلم نجد هناك الأخ الكبير ، ثم ذهبت إلى مطعم وتعشيت ، ومن هناك رجعت الى بروكلن فلقيت في القارب الذي ينقلنا من نيويورك الى بروكلن الخواجا جميل عودة ، ابن الخواجا يوسف عودة فقبلني وقبلته ، وأخبرني أنه ورده كتاب من أبيه أن يترك المدرسة ، وأنه ينوي أن يطلب من

الخواجا كلارك[١٢] ان يذهب معه مثل ترجمان الى البلاد [فلسطين]، وإلا بقي في نيويورك مدة شهرين ثم يذهب الى بلاد الانكليز. أخذته الى بيت الخواجا حنا حشمة، ومن هناك عرجت على غرفة الخواجا رفلة، وهي [الغرفة] في المنزل الذي أمام منزل الخواجا حنا حشمة، فلم أجده، فرجعت الى غرفتي.. وما استقر بي المكان حتى جاء الخواجا رفلة، ولبثنا ننتظر التلاميذ فلم يجئ أحد، فسهر عندنا إلى نحو الساعة العاشرة والنصف.

يوم السبت الواقع في ٢٥ ك ٢ غ سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم لبست، ونزلنا توا الى نيويورك، وقد قررت أن أشتري ربطة جديدة للرقبة. التقينا بالخواجا رفلة فذهبت معه إلى محل الخواجات ملوك فلقيت رسالتين، الواحدة من مس سنكير والأخرى من الخواجا شكري العيسى، فنزلت لأذهب لأفطر [كذا] ولما وصلت باب البناءة [= البناية] فتحت رسالة مس سنكير وقرأتها فإذا بها تنعي إليّ داود، فيا حشاشتي ذوبي ويا دموع أجيبي. رجعت إلى محل الخواجات ملوك وقلت لرفلة دونك هذا الخبر، فتأوه وتلهّف، أما أنا فنزلت لا أكاد أبصر طريقي وذهبت توا الى غرفتي وبكيت صديقي بل أخي، هل ضاقت القلوب يا داود حتى لا تواريك، وهل عزت النفوس حتى لا تفديك. يا داود يا يونا ثاني[١٣]، يا حبيبي يا شقيق روحي، يا شطر حياتي يا كل آمالي يا كل سروري يا كل سعادتي، كيف تركتني وحدي؟ ليت أيامي انقضت وأنفاسي تصرمت قبل أن تنقضي أيامك وتنصرم أنفاسك، ليتني أدرجتُ في كفني قبل أن أدرجتَ في كفنك، ليتني أنزلتُ في حفرتي قبل أن أنزلتَ في حفرتك، ليت التراب هيل عليّ قبل أن هيل عليك، بل ليتني كنت فداك ليتك عشت يا داود، ليتك بقيت لضعف حالي، لست عنك بصابر ولن أذوق بعدك سلواً إن مت يا داود فسأموت عليك كل يوم. إن عالماً انقطعت عنه لست فيه براغب، إن داراً خلوت منها لست أجد فيها إلا وحشة. لم يكن يعزيني إلا وجودك. لم يكن يسرني إلا بقاؤك. لم أستطب هذه الحياة إلا معك. لم أهنأ ساعة من ساعاتي إلا بقربك، متى أرجع فأجثو بجانب قبرك أسقيه بدموعي وأمرّغ وجهي بترابه وأدق صدري بحجاره. أَبَعْدَ أن تكون ملء العيون والقلوب تُترك في التراب.. إن متَ يا داود فأنا ميت ولو كنتُ بين الأحياء. حياتي بعدك ليس لها معنى. نعم وإن كنت لا أزال حياً فإن حياتي الماضية حياة الأمل والسرور قد ماتت بموتك. سأطوي صحيفتها بانطواء صحيفتك، وأعيش منذ اليوم معيشة أخرى أشبه بالموت منها بالحياة، الى أن ينقضي أجلي والتقي بك في العالم الآخر. كل ساعة أعيشها بعدك خيانة لودادك، ليست هذه الحياة بعدك في نظري الا قفارا بوادي.

---

١٢ - يتكرر الاسم خلال اليوميات، ويبدو أنه صاحب شركة سياحة وسفر له أعمال في القدس.
١٣ - نسبة إلى يوناثان، ابن الملك شاؤول، ملك مملكة يهودا، والرفيق الدائم للملك داود.

ظلمتني يا داود بل ظلمت كل من له علاقة بي...

لزمت غرفتي كل النهار أبكي وأنوح، من أحق مني بالبكاء!، جاء في المساء الخواجات رفلة الحمصي ويوسف السلفيتي والياس حيدر يعزونني، ولكن أين مني العزاء؟ شددوا عليّ أن آكل، وكيف آكل؟!. لبثوا عندي الى نصف الليل ثم انصرفوا فخلوت بنفسي وأطلقت العنان لدمعي...

يوم الأحد الواقع في ٢٦ ك ٢ غ سنة ١٩٠٨م

اشتريت ربطة رقبة سوداء، وقلدت بها عنقي، وقلت: هذا لباسي إلى الأبد. جاء الخواجا الياس حيدر عند الظهر وقد اشترى خبزاً فغلى شاياً فأفطرنا، ثم جلست إلى الطاولة أنظم رثائي لداود، وماذا عساي أقول؟ لو رثيته بكل ما نظمته الشعراء في كل لغة لما وفيّته حقّه. هذا دأبي منذ الآن. كنت أزاول النظم من وقت إلى آخر أعبر عمّا يخالجني من عواطف السرور، كنت أحاول العزف على الكمنجة لأترجم عما يخامرني من طرب، واليوم فهذه الملكة الضعيفة من النظم والعزف سأمرنها على الرثاء والبكاء.. بعد الظهر جاء الخواجات رفلة ويوسف السلفيتي والياس حيدر يعزونني كأنهم لا يعرفون من فقدت. إن حزني عليك يا داود حزن الأبد. جاءت رسالة الى الخواجا يوسف السلفيتي من القدس ينعون إليه فيها وفاة عفيف وداود في مدة خمسة عشر يوماً. ما هذه المصيبة، اثنان يخرجان من بيت واحد في مدة خمسة عشر يوماً؟ من يستطيع أن يعزي تلك الأم المسكينة والأختين الحزينتين والأخوين الملتاعين وبقية الأهل والأصدقاء الأسيفين؟ لقد خلفت بعدك يا داود جيشاً كبيراً لا يريد بعدك عزاء. جلسوا عندي إلى الساعة الثانية بعد الظهر، ثم حاولوا أن يأخذوني معهم كأنهم يستهينون بهذه المصيبة، فقلت لهم: لا أزور أحداً إلى الأبد، فذهبوا فحملت صورة داود وجعلت أبكيه انتقل من حائط الى آخر. لم تكن أميركا كلها تسعني وأنا آمن مطمئن، فكيف تسعني الآن وقد أصبحت يا داود تحت التراب؟...

رجعوا في المساء وعادوا الى الحديث ذاته. اتركوني يا ناس. يا داود:

غليل باطن لك في فؤادي ... يخفف بالدموع الجاريات

بعد أن ذهبوا تابعت النظم فبلغت القصيدة سبعة عشر بيتاً، ثم كتبت رسالة الى الخواجا الياس طرزي اطلب فيها منه أن يقيم مع بقية الاصدقاء احتفالاً على قبره باسمي، و[كتبتُ] رسالة أخرى الى أمه.

يوم الاثنين الواقع في ٢٧ ك٢ غ / ١٩٠٨

نزلت إلى نيويورك وأنا أنوح في الطريق، ذهبت إلى محل الخواجات ملوك، فلقيت كارتاً من مس سنكير ترجو فيه أن أكون سعيداً. أمس نعيتِ اليّ داود واليوم تنتظرين أن أكون سعيداً؟ جهلت وقد يستصغر الأمر جاهله. ثم ذهبت إلى محل الخواجا حنا حشمة فوجدت رسالة من أخي يوسف يقول فيها: إنه كان

مسجوناً لأنهم أمسكوه وهو يطرق المنازل ليبيع. ماذا بقي من الأخبار السيئة السوداء؟ ذكر لي أنه أرسل إليّ رسالة أخرى باسم الخواجات دبدوب فيها ثلاثة ريالات لأرسلها لأمي، فذهبت إلى محل الخواجات دبدوب، وأخذت تلك الرسالة، وإذا [به] يقول [فيها:] إنه لا يستطيع أن يجيء إلى نيويورك إلا في أول الصيف، وأنه عازم أن يخرج إلى البرّ ليبيع لعله ينجح. ثم مررت على إدارة الجامعة، فأخذت عدد يوم السبت، وقد نشرت فيه رسالتي التي رددت بها على ذلك الكاتب الذي اتهم فرح أفندي أنطون أنه سرق رواية فرج أفندي عبده، ورجعت إلى غرفتي لأقيم لداود اليوم الثالث. يا داود كيفما التفتّ أراك، وأينما ذهبت أحسّ أنك معي، فيدي تكاد تلمسك وفمي يكاد يُقبّلك وأذني تكاد تسمعك. يا داود حرامٌ عليّ السرور. لم يكن سروري عظيماً إلاّ حين تشترك فيه، لم أكن أهنأ نهاري إلاّ إذا مررت عليك أو التقيت بك. كنت إذا صرفت ليلة وحدي أشعر كأني فقدت شيئاً، فأقوم في الغد وأُفتّش عنك وأسائلك أين صرفت ليلتك؟ لم يكن أحد يدخل البنك [الفرنسي (كريديليوناي)] بقدر ما كنت أدخله كأنني مستخدم فيه أو أن لي فيه وديعة. لم أكن أعمل شيئاً، لم أكن أفكر فكراً أو أقول قولاً إلاّ رجعت إليك وحدّثتك به. يا داود إن كان الناس يحزنون ثم يسلون فإن حزني يزداد يوماً بعد يوم. يا داود ألا تعرفني أني أبكي لأقلّ حادث. يا داود ألا تعرفني؟ أني كنت أثور وأرغي وأزبد لأقلّ سبب؟ أنا لا أكتفي بالبكاء، أنا لا أكتفي بما يكتفي به الناس، لم يكن أحد يلطف حدتي إلاّ أنت، لم يكن أحد يؤثر عليّ إلاّ أنت فكيف تركتني؟ ولمن تركتني؟ يحسب الناس أن مصيبتك مثل مصائب بقيّة الناس فيأتون ويُعزّون ثم ينصرفون كأنهم قضوا الواجب... لو أن لي حلماً أثبت من الجبال وصدراً أوسع من الفضاء لطاش حلمي وضاق صدري. لو أن لك عدواً لمزّقته تمزيقاً. لو تمثّل لي شخص الموت لخضبته بدمه. فمن هو خصمي فيك؟ كدت أمدّ يدي [صوب] السماء أتهدّد. عفوك يا داود أرسل إليّ روحك لتلجم لساني وتُمسك يدي.

يوم الثلاثاء الواقع في ٢٨ ك٢ غ/١٩٠٨م

حلمت أني كنت في القدس فمررت من تحت نافذتكم [نافذة بيت سلطانة] فأطللت عليّ وألقيت لي ورقة، ثم نزلت ابنة عمي حنة تحمل يوسف إلى الباب، فجعل يوسف يرمي نفسه عليّ، ثم نزلتِ أنتِ ووقفت مع ابنة عمي الي قليلاً... نزلت إلى نيويورك وذهبت إلى إدارة الجامعة فأعطاني فرح أفندي أنطون رسائل جاءته من المشتركين لأجيب عليها، فلم أكن أعرف ماذا أكتب. أخبرته بمصيبتي فلم يزد أن قال: هذه حال الدنيا. لم يكفِ أنك متّ حتى أكون في بلاد لا أجد فيها من يستعظم الخطب أو يشعر معي. ثم تركت الإدارة بعد أن كنت أكتب المكتوب عدّة مرّات فأنسى بعض كلمات أو أستعمل بعض كلمات لا يقتضيها المقام، وذهبت لأُعلّم تلاميذي فلم أجد إلاّ واحداً فسألتُهُ عن ديوان تنسن الشاعر الإنكليزي الذي رثى صديقاً له بتلك القصيدة المشهورة، لعلي أجد فيها ما يعبّر عن فكري فلم أجده عنده... سأجمع يا داود كل

دواوين الشعراء وآخذ منها قصائد الرّثاء وأجمعها في كتاب واحد وأُقدّمها لك . . . رجعت إلى إدارة الجامعة وحاولت أن أُجيب على بقيّة الرسائل فلم أقدر، فاعتذرت ورجعت إلى غرفتي وجعلت أبكي. ثم جاء الخواجات خليل حبابو ويوسف السلفيتي وإلياس حيدر ونقولا البرغوت، وجعلوا يتحدثون في مواضيع مختلفة كأنهم يقصدون أن يصرفوني عن الافتكار بك، فتألمت جداً وكدت أقتل نفسي. لو كنت في القدس لالتفّ حولي الأصدقاء وزدنا بعضنا بعضاً في البكاء. قال لي الخواجا خليل حبابو: إنه ورده نعيك ونعي أخيك منذ أسبوعين، وأنهم ذكروا له ما كان لموتك من الضجة في القدس، كأن في كل بيت ميتاً، كأن موتك كان ضربة مصر الأخيرة حين ماتت الأبكار، وارتفعت الصيحات من كل جانب. جاءتني رسالة من الخواجا حنا فرّاج يسألني هل أحتاج إلى دراهم، كأن روحك يا داود أوحت إلى الناس أن يهتمّوا بي ويسألوا عني. ثم جلست وراء الطاولة وكتبت رسالة أُخرى إلى الخواجا إلياس طرزي.

يوم الأربعاء الواقع في ٢٩ ك٢ غ/١٩٠٨

حلمت أني كنت في القدس، فلقيت عائلة مطران الإنكليز راكبين أوتوموبيلاً، فنزلت إليّ امرأة المطران وابنتاها الكبيرة والصغيرة، فقلت لهن: مات داود فجعلن يبكين . . . جاء الخواجا رفلة وأنا لا أزال في فراشي أُناجيك وتناجيني، فجلس إليّ، وأخذ يقرأ عليّ رسالة وردته من أخيه جرجي أفندي ينعيك إليه أنت وأخاك وصهرك متيا مرقس: ويقول إن جنازتك لم تشهد مثلها القدس، كيف لا وأنت رجلها وعنوان فخرها؟ أفطرنا ولم أستحمّ وهذا اليوم الخامس لم أستحمّ فيه. نزلت إلى نيويورك وذهبت إلى إدارة الجامعة فكتبت بعض رسائل ثم ذهبت وعلمت تلميذيّ، فكنت أنظر إلى السماء والثلج يتساقط والرياح عاصفة والبرد شديد وأرسل إليك سلامي. كان نظري يخترق الغيوم فأراك مطلاً عليّ تشير إليّ . . . ثم رجعت إلى إدارة الجامعة فقال لي فرح أفندي: إنه مرّ على محل الخواجات عوض إخوان فقالوا له: إنهم لا يحتاجون إليّ. . كتبت بعض رسائل ورجعت إلى غرفتي وأنا أحمل كتاب يوميّة جديداً لأكتب فيه وقائع هذه السنة المشئومة. وضعت في صندوق البريد رسالتين، الواحدة إلى خالك أنطون أبكيك فيها والأخرى إلى إلياس طرزي كلها سخط على السماء والأرض. انتظرت تلميذيّ الجديدين فلم يحضرا، فجلست إلى الطاولة وجعلت أكتب، وقع نظري على ورقة ليمون حفظتها تذكارا ليوم قضيناه في قالونة أنا ومليا وسلطانة، وقد كتبت لك عنه إلى يافا لتشاركني في فرحي، فأين كنا وأين صرنا؟. كنا نحرص على آثار طربنا وسرورنا كأننا ضمنّا السعادة فجاء موتك فهدم عالماً وأقام عالماً.

كيف ألتذّ بالحياة وقد كنت سروري فيها وأقصى مرادي

ارجعي أيتها الفتاة المنكودة الحظ [سلطانة] واطلبي سعادتك عند شخص آخر، فما أنا إلا مثال للشقاء. . بدأت أكتب رسائلي إلى داود، من يحسّ بما أُحسّ. يا داود أحدثت فراغاً في حياتي لن يملئ

إلى أن أوارى في رمسي.

يوم الخميس الواقع في ٣٠ ك٢ غ/١٩٠٨

حلمت أني كنت في القدس مع داود وقد امتلأ قوّة وحياة وأشرق وجهه بابتسامات حلوة، فمررت معه على مخزن [= متجر] الأميركان[١٤] ولكن لم ندخل، ثم مررنا على مخزن الطرزي فكانوا يبتسمون لنا. كنت أقول لداود الحمد لله قد خلصت من الموت، فيجب أن تعتني بصحّتك أشدّ الاعتناء لئلا تقع في ما وقعت فيه مرّة ثانية، ثم رأيت نفسي أثبُ على سطوح المنازل إلى أن جئت إلى سطح منزلنا فنزلت ولكن عارياً. قمت صباحاً والبرد شديد جدّاً لا يكاد يحتمل، نزلنا إلى نيويورك أفطرت في مطعم سوري دبساً وطحينةً وحليباً، وذهبت إلى إدارة الجامعة وجلست أُجيب على بقيّة الرسائل، ثم لم أتمالك أن قمت إلى فرح أفندي وطلبت منه أن يكتب شيئاً عن داود، ومهما قدر الخطب فيه عظيماً فهو أجل وأعظم، وأريته قصيدتي فيه فأثنى على متانتها وسلاستها ووعد أن ينشرها إما في عدد يوم السبت هذا أو الذي بعده. بعد الظهر ذهبت إلى محل الخواجات ملوك فلقيني الخواجا رفلة وقال: كتبت إلى أخيك رسالة أنهلت فيها عليه بالتقريع، ثم تناولها وأعطانيها لأقرأها، فإذا به يقول فيها: «ألم يكف أني أعطيت أخاك مبلغ كذا ولا يعلم الله متى أستوفيه منه حتى غشني بأن أخذ مني كتاب توصية لك» فكأنها رسالة إليّ، فلم أنبس ببنت شفة وقلت في نفسي: تستحق أكثر من هذا. ثم رجعت إلى إدارة الجامعة واستأنفت الكتابة. ومن هناك رجعت إلى غرفتي فاشتريت طعاماً وتعشينا ثم جلست إلى طاولتي، وجعلت أحاول نظم قصيدة أخرى في داود، فأُغلق عليّ... لم تعد تظهر لي الحياة إلا بوجه كالح عبوس، فلمن أشكو يا داود؟ كنت مظنة مشتكى ما في نفسي، لقد تركتني في هذه الحياة بدون نصير.

يوم الجمعة الواقع في ٣١ ك٢ غ/١٩٠٨

حلمت أني كنت في القدس في غرفتي في منزل المعلّم نخلة، وإذا بنعمان بن الحاج راغب الخالدي يدعوني لمواجهة أبيه، فخرجت إليه فرأيته وقد أربدّ وجهه من الغضب، فسألته عن أمره فقال: أسكنت هذا الخواجا الإنكليزي في داري فقطع شجرةً من أشجارها من أصولها، فماذا أعمل معه؟ فقلت: اكتب له واطلب منه التعويض. قمت صباحاً والبرد شديد بحيث أن الماء في الأنابيب قد تجمّد ولم يجر، وقد انتبهت عدّة مرّات في الليل أرفع لحافي. نزلت إلى نيويورك فأفطرت في مطعم سوري وحلقت وذهبت إلى إدارة الجامعة، فأجبت على بعض الرسائل. بعد الظهر جاءَت نسخة من مجلة الجامعة لهذا الشهر، فناولنيها فرح أفندي أنطون وقال: اقرأها واطلِعني على رأيك فيها، فأخذتها ورجعت إلى غرفتي وقرأتها باهتمام

(١٤) متجر للتحف تابع للكولونيالية الأميركية في القدس، يقع داخل باب الخليل.

فرأيت فيها أبحاثاً عصريّة جليلة. ثمّ ذهبت وعلمت الدكتور نيس فاستغرق الدرس ساعتين فدفع لي ريالين، ثم رجعت إلى نيويورك إلى إدارة الجامعة فأعطيته نسخة الجامعة، ثم ذهبت أطلب تلميذيّ الجديدين فوجدت الخواجا فيليب غريّب فقال: لا تستطيع أن تجيء هذه الليلة للدرس بسبب شدّة البرد، ثم قال: قد وجدنا لك شغلاً في محل تجاريّ. تعشيت في مطعم سوريّ ورجعت إلى غرفتي، فقيل لي: إن الخواجا رفلة ينتظرك، فذهبت إليه وعاتبته على كتابته أمس إلى أخي، فقال: لم أكتب ذلك إلا لأحمل أخاك على الاهتمام بتسديد حساباته للخواجات ملوك فقد سمعت منهم كلاماً مراً، فعذرته. وقال لي: جاءك اليوم عدة رسائل من القدس، فخلجني حزن مكتمن. رجعت إلى الغرفة وجلست إلى نصف الليل ورسم [= صورة] داود أمامي، وأنا جامد أمامه كأنني قطعة جلمود.

يوم السبت الواقع في ١ شباط غ/ ١٩٠٨م

أمطرت السماء كل الليل، نزلنا إلى نيويورك والسماء تمطرنا وقد أصبحت الطرق زلقة بسبب نزول المطر على الجليد، وما كدت أبعد قليلاً حتى زلقت رجلي فوقعت على طولي وابتلت ثيابي فمسحتها بمحرمتي، وذهبت إلى مطعم سوري فجلست بجانب الوجاق وأفطرت، ثم ذهبت إلى محل الخواجات ملوك، فأخذت رسالة من أختي وفي ذيلها كلام لسلطانة، مع رسالة أخرى لسليم ابن عمي طيها، ورسالتين من مس سنكير تقول في احداهما: إنها أرسلت إليّ دراهم ورسالة من الياس طرزي وأخرى من مسس واي، وكارتاً من الخواجا لطفي أبو صوان، وآخر من الخواجا الفونس لونصو، لم يذكر أحد موت داود إلا الخواجا لطفي وأما الياس طرزي فمع محاولته كتم ذلك عني فإن كل عبارة في رسالته تنم عليه. ثم ذهبت إلى ادارة الجامعة فجاء الخواجا نقولا باسيلا وأخذني إلى محل الخواجات بيّوض وزروق فوجدت منهم لطفاً وايناساً، اتفقنا أن نبدأ الشغل يوم الاثنين القادم بأجرة أربعين ريالاً في الشهر، ثم رجعت إلى إدارة الجامعة وجلست أكتب رسائل، لم أفارق الطاولة كل النهار إلا عند الظهر نحو نصف ساعة، فتذكرت أيام كنت في المدرسة حيث كنت أعلم في غرفة واسعة تملأها الشمس، ويجري فيها الهواء النقي وبين كل درس وآخر نخرج إلى ساحة اللعب فنلعب العاباً مختلفة تروّض الجسم، فحننت إلى تلك الأيام وأسفت على مجيئي إلى هذه البلاد حيث لم ألق إلا الشقاء صنوفاً، ولما انتهيت من كتابة الرسائل عند آخر النهار، دفع إليّ فرح أفندي انطون عشرة ريالات. رجعت الى غرفتي وقد هاجني الحزن فأخذت أبكي بكاء الثاكلات. لما جئت إلى هذه البلاد خلفت ورائي سعادة تنتظرني ووضعت آمالاً أرقبها، فلما مت يا داود تهدمت تلك السعادة واضمحلت تلك الآمال، فلا أمامي ولا ورائي، كأنني أذنبت ذنباً كبيراً في تركي البلاد فضربني القضاء هذه الضربات القاضية.

كتبت رسالة إلى أخي يوسف وأخرى الى مس سنكير، ودفعت للخواجا يوسف السلفيتي رياليه الباقيين له عليّ.

يوم الأحد الواقع في ٢ شباط غ سنة ١٩٠٨م

حلمت أني كنت في القدس، وأن عفيف أخا داود مات فازدحم المعزون في بيته، ولما جاؤوا ليأخذوه إلى الكنيسة ارتفعت الصيحات فنظرت إلى داود فإذا هو كالأموات من شدة تأثره وحزنه، فجعلت أقبله وأقول له: تصبّر يا داود ترفق بنفسك وبنا، فقال: دعني فلست أطمع في الحياة.. لزمت البيت النهار كله وأنا أكتب رسائل إلى القدس فهبت عليّ من الحزن زوبعة هائلة استعصرت مآقيّ..

في المساء جاء الخواجات رفلة الحمصي ويوسف السلفيتي وعطا الله قطيني والياس حيدر ونقولا البرغوت. دفعت إلى الخواجا رفلة خمسة ريالات فأعطاني حوالة بها على صهره الخواجا متري سلامة، ليسلمها إلى ابن خالتي يعقوب ليدفعها إلى أمي، وبينما نحن غارقون في الكلام وقد عبرت الساعة العاشرة، وإذا بالرجل الأميركي الساكن في الغرفة المقابلة لغرفتي يضرب بعصاه على باب غرفتي وهو يسب ويشتم بحجة أننا أقلقناه، ولما قام الحضور ليذهبوا فتح باب غرفته وهجم بعصاه على نقولا البرغوت وهمّ أن يضربه بها على رأسه، فتناول هذا كرسيّاً وهم أن يضربه بها، فانتبه على الصوت أصحاب المنزل وصعدوا يركضون، فوقفت في وجوههم وقلت لهم: إذا كان هذا الرجل غير راضٍ من جوارنا فكان يجب أن يخبركم بذلك لا أن يسب ويهجم بعصاه على ضيوفي، وحينئذ فإما أن نخرج نحن أو يخرج هو فلما سمعوا أننا نريد الخروج انكفأوا راجعين، ثم صعدت ابنة ربة المنزل بقميص نومها وجعلت تستعطف خواطرنا خوفاً من أن نترك منزلهم. بعد أن هدأت الضجة وذهب الحضور جلست إلى طاولتي وكتبت بقية رسائلي، ثم نظرت في كتاب مسك الدفاتر لعَلّي استنير قليلاً في عملي غداً. نمت بعد نصف الليل.

يوم الاثنين الواقع في ٣ شباط غ سنة ١٩٠٨م

حلمت أني كنت في القدس واقفاً مع أمي أمام غرفتي في دارنا داخل البلد، وأن حمامة بيضاء جاءت ووقفت بيننا ثم صعدت الى كتفي وجعلت تمد منقارها الى فمي كأنها تقبلني. قمت باكراً فاستحممت لأول مرة بعد انقطاعي عن الاستحمام منذ وردني نعي داود، أي منذ تسعة أيام. ولم أستحم إلاّ لأنشط على العمل اليوم، ثم نزلت إلى نيويورك وكان البرد شديدا لا يطاق فأفطرت في مطعم سوريّ وذهبت الى المحل الجديد، فلقيني صاحباه بالبشاشة، وجعل أحدهما يعرفني بدفاتر المحل ثم جاء الكاتب القديم وهو الخواجا رشيد بدر؛ شاب لطيف يشبه في لونه داود فانعطفت إليه وجلست بجانبه ليدربني قبل أن يسافر، على مسك الدفاتر، ولم يكن يشتغل إلا قليلاً حتى يتولاه التعب لشدة ضعفه ولعله ممعود فأشفقت عليه. ذهبت عند الظهر وتغديت في مطعم سوري ورجعت حالاً الى المحل وجلست وراء الطاولة أنظر في الدفاتر، فرأيت أني لا أستطيع أن أقوم بهذا العمل إلاّ إذا دربوني عليه بضعة أيام لأني لم يسبق لي أقل إلمام به، وقد شعروا هم بمثل ذلك فقال لي أحد الشريكين: يظهر أنك ضعيف جداً في مسك الدفاتر، ونحن نحتاج

الى كاتب خبير نعتمد عليه لأني أنا أيضاً مسافر وشريكي لا يستطيع أن يدربك على العمل لأنه لا يعرف ذلك، رجعت في المساء وأنا ضعيف الأمل بالبقاء في هذا المركز. عرجت على الخواجا رفلة ليمرنني قليلاً في مسك الدفاتر لكونه تاجراً فلم ألقه فرجعت إلى غرفتي، وأخذت أقلب كتاب مسك الدفاتر، ولكن ذلك بدون تمرين تحت مناظرة خبير في هذا الفن لا ينفع شيئاً. كتبت بقية الرسائل إلى القدس. أرسل يوسف أخي مع الخواجا حنا حشمة الذي كان في فيلادلفيا يجمع ديونه ١٢ ريالاً لأدفعها من أصل حسابه إلى الخواجا ملوك وجاءت رسالة من القدس من ابن خالتي وفيها رسالة من أختي ميليا تقول فيها: إن سلطانة ستكتب لك قريباً وترسل إليك صورتها مع أخيها يوسف. نمت بعد نصف الليل.

يوم الثلاثاء الواقع في ٤ شباط غ/ ١٩٠٨

أفطرت في غرفتي خبزاً وشاياً ثمّ نزلت إلى نيويورك فوضعت في صندوق البريد ستّ رسائل: إلى أُمّي وفيها الحوالة، وإلى سلطانة وإلى إلياس طرزي ومن ضمنها رسالة إلى أُمّ داود المسكينة، وإلى مس سنكير قلت لها فيها: إني سأردّ الدراهم وأن لا تعرفني بأحد، وإلى أخي يوسف أدعوه إليّ، وإلى تلاميذي أعتذر إليهم من عدم حضوري اليوم وغداً، ثم ذهبت إلى المخزن، فدفع إليّ أحد الشريكين رسالة إنكليزية جاءتهم اليوم، وقبل أن أتفهّم اصطلاحاتها التجارية جاء الشريك الآخر وكلفني أن أكتب جواباً لها، وأفهمني ماذا أكتب فكتبت وأريته الجواب فقال: الجواب حسن ولكنه ليس على الأسلوب المصطلح عليه عند التجار، فحينئذ قلت له: بما أنكم تحتاجون إلى كاتب خبير ولا تستطيعون أن تمهلوني ريثما أتدرّب على العمل فالأوفق أن تفتّشوا عن كاتب غيري، ثم خرجت أتعثّر بأذيال اليأس، ولكن رأيت أن لا مندوحة لي عن درس مسك الدفاتر لأستعد لفرصة أخرى، فرجعت إلى نيويورك وفي طريقي عرجتُ على محل الخواجات ملوك، ودفعت لهم ١٢ ريالاً من أصل حساب أخي، ثم ذهبت إلى إدارة البوسطة وأخذت مكتوباً من مس سنكير فيه خمسة شلنات، وذهبت من هناك توّاً إلى غرفة الخواجا رفلة وأطلعته على النتيجة، فتأسّف وقال: كان يجب أن يمهلوك قليلاً ريثما تتعرف بدفاترهم فإن لكل داخل دهشة، فقلت: لا بأس، ثم جلسنا إلى طاولة وأخذ يمرّنني على مسك الدفاتر، ولما صار الظهر تغدينا معاً في غرفته ما حضر، ثم شرد بي الفكر إلى سعادتي القديمة حين كنت أستعلي على الأساتذة والرؤساء فلا يقابلونني إلاّ بكلّ اعتبار وتقدير لقدري. ثم نظرت في الحالة التي وصلت إليها؛ أذهب من محل إلى آخر أطلب شغلاً لا أعرفه ولم يسبق لي إلمام به، وأنا خافض الجناح مضمر اليأس. ثم أخذ الخواجا رفلة يقرأ لي رسائل وردَتْه من القدس، يقول في أحدها أخوه جرجي أفندي: إن جرجي زخريا قبل سفري أقنع الدير أني كنت مأجوراً في مسألة صهيون من الروس، وأنه بعد سفري أشاع أني أخذت خمسين ليرة من الروس أجرة عملي وسافرت إلى أميركا. وفي رسالة أُخرى من يوسف قرط يقول له: إنه لم يعد يفكر بالزواج بنايفة. رجعت إلى غرفتي فأوقدت نارا

وغليت شاياً وجلست أكتب وقائعي. بعد العشاء ذهبت مع إلياس حيدر لنسهر عند الخواجا رفلة فلم نجده فرجعنا ورجعت إلى الطاولة. قرأت قليلاً في [كتاب] الأغاني ثم أخذت أقرأ كتاب مسك الدفاتر الإنكليزي.

يوم الأربعاء في ٥ شباط غ/١٩٠٨

حلمت أني كنت في القدس ماراً في (حارة النصارى)[١٥] من أمام دكّاننا ولا أذكر ممّن رأيت إلاّ جورج الخوري (البيضا) وباسيل فريج، ولما وصلت أمام درج دير الروم إذ بنساء نازلات في موكب منظم صفوفا، في الصفّ الأوّل فتيات مؤتزرات بأزر بيض، ولكن ثيابهن ومناديلهن سوداء وسواعدهن مكشوفة، ووراءه أربعة صفوف من النساء المتقدّمات في السن وكلهن غارقات في السواد، ثمّ يجيء صفّ آخر من الفتيات ووراءه صفوف أخرى من النساء المتقدمات في السن، ولا أذكر ممّن رأيت إلا جوليا صائغ وأمّها وابنة الخوري يعقوب البرامكي.

أفطرت في الغرفة ثم حلقت وقد استغرقت الحلاقة وقتاً طويلاً. وعند الظهر نزلت إلى نيويورك، فعرجت على إدارة الجامعة فأعطوني جريدة الهدى، وإذا فيها ردٌّ من يوسف عواد على مقالتي يقول فيها: إنه لا يعرفني من حملة الأقلام. فقلت لصاحب الجامعة: لو بقي لي شيءٌ من الحماسة بعد موت داود لرددت عليه وجريت معه إلى النهاية، ولكن لا أستطيع إلا أن أبتسم لمثل هذا الرد ولا أُعيره التفاتاً. ذهبت لأُعلم تلاميذي فاعتذروا، فرجعت فوجدت خليل حبابو فذهبنا معا إلى قهوة سورية وشربنا أركيلتين، وقد هاجني الحزن فكدت أبكي، ثم افترقنا فذهبت مع الخواجا جرجي الشاغوري واشتريت حذاءً بثلاثة ريالات إلا خمسة سنتات وورقاً وحبراً وريشاً ودفتراً. البرد شديد جداً. قطع الجليد تكاد تغطي سطح النهر بين نيويورك وبروكلن. أخذ الثلج يتساقط. رجعت إلى الغرفة. كتبت رسالة إلى الدكتور نجيب جمل أعده أن أزوره غداً بعد الظهر. جاء الخواجا نعمة الحاج فقرّرنا أن نبدأ الدرس من الأسبوع القادم. ولما ذهب وذهب إلياس حيدر ليشتري بعض اللوازم شردت بالفكر إلى حياتي الماضية، فتذكرت سعادتي وداود فبكيت بكاءً مراً.

ثم جاء الخواجات جرجي الشاغوري وميخائيل الخوري الكاتب في محل الخواجات ملوك، وعطا الله قطيني وسهروا إلى الساعة الحادية عشرة.

إن حزني عليك لو نفد الدهرِ — لحزنٌ ما إن لهُ من نفاد

يوم الخميس في ٦ شباط غ/ ١٩٠٨

حلمت أني كنت في القدس وأني رأيت المعلّم نخلة [زريق] والخواجا إلياس حلبي، وأن المعلّم نخلة تزيّا

(١٥) حارة النصارى: تعبير عامّي يقصد به الحي المسيحي في القدس، وهو واحد من أربع حارات داخل سور القدس، هي إلى جانب حارة النصارى: حارة السعدية (الحي الاسلامي)، حارة الأرمن، وحارة اليهود.

بالزيّ الافرنجي، فسرت معهما، وأنا أستغرب كيف أقدم المعلم نخلة على ذلك بعد أن عرفت حرصه على لباسه العربيّ.. أثلجت السماء كل الليلة الماضية فارتفع الثلج على الأرض نحو شبر. بعد الفطور أخذت كتاب مسك الدفاتر وذهبت عند الخواجا رفلة فلم أجده، فرجعت إلى غرفتي وتركت الكتاب ونزلت إلى نيويورك، فعرجت على محل الخواجات ملوك، فوجدت رسالة من مس سنكير تخاطبني فيها بنغمها القديم، كأن موت داود حادثة بسيطة وقعت وانقضت في وقتها. ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فجلست قليلاً حتى صارت الساعة واحدة ونصفاً، فمشيت إلى المحل الذي عينه الدكتور جمل لنجتمع فيه فلم أجده فرجعت أدراجي. ورأيت في بعض طريقي بناءَة [= بناية] تحترق، ثم رأيت رجلا قد صرعته نوبة عصبية فوقع في الأرض يتخبط فتألب الناس عليه. وأما أنا فاستأنفت سيري. وقد علق بي من هذين المشهدين أثر انقباض وحزن نبّه فيّ حزني على داود فصرت أندبه. وكنت وأنا في تلك الحالة في وسط تلك الجلبة كأنني خيال سار. رجعت إلى محل الخواجات ملوك فجلست جلسةً قصيرةً مع الخواجا سليم، وكان حديثنا على سعادةٍ تركناها وخيبة لقيناها. ثم ذهبت إلى مطعم سوري وتعشيت ورجعت إلى غرفتي فلقيت في القارب ماري الخوري وأخاها، فحادثتها وأنا منقبض الصدر محزون النفس. جاءت رسالتان إلى الخواجا يوسف سلفيتي سألته عمّا فيهما فقال: سلامٌ وكلام، فداخلني شك أن يكون هناك أخبار تكدره كتمها عني. أوقدنا ناراً وغلينا شاياً وجلست وراء طاولتي فكتبت رداً على يوسف عبده[16] ثم كتبت وقائعي. إن حياتي بعدك يا داود لحياة مرّة؛ حزن وغربة ودين وخيبة كل الأحلام البهيجة التي كانت تتجلى لنا أخذت تتهدّم الواحد بعد الآخر. هنيئاً لك يا داود فقد استرحت، وتعساً لنا فقد شقينا.

يوم الجمعة في ٧ شباط غ/ ١٩٠٨

لزمت الغرفة كل النهار إلى الساعة الثالثة بعد الظهر. وضعت صورة داود وقد خُيّل إليّ أنه يكلّمني كما كنا نفعل أيام كنا في أوج السعادة، ثم جعلت أُفكّر في ما آل إليه أمرنا. داود ثوى في ترابه بعد أن ذاق لوعة الحزن على أخيه، وأنا قذفت بي الأقدار إلى هذا المنفى الموحش، تتنازعني عوامل الحزن والوحشة واليأس والشقاء. أنظر إلى ورائي فلا أحسّ إلا بالقلق والاضطراب، ثم أنظر إلى أمامي فلا أرى إلاّ العذاب والشقاء. إن كنتَ متّ يا داود فقد نزلت بي غشية الموت منذ الآن.. عند الساعة الثالثة تركت غرفتي وذهبت لأعلم الدكتور نيس، وبعد أن انتهى الدرس أخذ يحادثني عن القدس حتى أفضى به الكلام إلى الأميركان فوجمت لهذا الحديث، إذ تذكّرت أيام كان داود وعفيف عندهم، فكدت أبكي، ثم جعلت أثني على فضلهم وتقواهم وأستفظع ما كان يعاملهم به الدكتور مِرل قنصل أميركا السابق. ثم تركته ورجعت إلى

---

(١٦) ورد الاسم المقصود في يومية ٥ شباط ١٩٠٨ على أنه يوسف عواد.

غرفتي، وابتعت في طريقي دخاناً وسكّراً وخبزاً، فغليت شاياً وجعلت آكل خبزاً وشاياً وأنا غارق في لُجّة من الحزن، فدخل عليّ الخواجا رفلة الحمصي فقال: كنت في بيت أختي هذين اليومين ولم يزالوا بي حتى ألزموني أن أعود إلى السكنى معهم، وقد كتب إليّ أخي عبده يعنفني على انفصالي عنهم فلم أرَ بُدّاً من مسايرتهم، فمدحته على ذلك، ثم قال: جاءَني من أخيك يوسف مكتوب فيه ثمانية ريالات أخرى لأدفعها إلى أبناء أختي [الخواجات ملوك]، وأراني مكتوبه فقرأته فإذا به يتعوّذ بالله أن يُقابل فضلهم وإحسانهم بالإساءَة، وأنه لم يجئ إلى نيويورك مع أني شددت عليه في المجيء إلاّ خجلاً منهم، وأنه لن يجيء حتى يفيهم ما عليه [من دين]، وأنه لم يتأخر إلى اليوم إلا لوقوف الأحوال، وأنه معاذ الله أن يكون ذلك منه عن تهاون أو إهمال. والخلاصة أني رأيت في رسالته ما أنعشني قليلاً ورفع رأسي ثم ذهب [رفلة] وبعد قليل جاء إلياس حيدر، فلما رآني آكل خبزاً وشاياً وعلائم الكآبة على وجهي ظنّ أن ذلك لأني آكل خبزاً مع شاي، فلم يسعني إلاّ أن قلت له: إن هناك ما هو أعظم من هذا . . . لتكوني سوداء يا سنة ١٩٠٨. لقد لقيت فيك ما يهون الموت في جانبه. . ماذا يستطيع هذا القلب أن يحتمل، وماذا يستطيع هذا الصدر أن يتّسع؟ . كتبت رسالة إلى أخي يوسف ذكرت له فيها ما أنا فيه من الحزن على داود، ولم أخطّ فيها حرفاً إلا وأنا أشرَق بدمعي وأغص بريقي، ثم تركت الكتابة واستلقيت على الكرسي وانخرطت في البكاء وقد انتصف الليل.

يوم السبت في ٨ شباط غ/١٩٠٨

غسلت رأسي وأفطرت. . وعند الساعة العاشرة جاء الخواجا رفلة الحمصي فأخذ يُدرّبني على مسك الدفاتر إلى الظهر حين نزلنا معاً إلى نيويورك. ذهبنا أوّلاً إلى المعبر فانتظرنا القارب نحو ساعتين فلم يجئ لأن النهر كان متجلداً، فالتزمنا أن نذهب إلى القطار تحت النهر Subway وقد انتهوا منه في الشهر الماضي. وهذه أوّل مرّة ركبت فيه. ذهبنا إلى محل الخواجات ملوك لعلّي أجد رسائل من القدس فلم أجد شيئاً .ومن هناك ذهبت إلى إدارة الجامعة فشكرني [فرح أنطون] على مقالتي التي أرسلتها إليه أمس واعتذر عن عدم نشرها لأنها تأخرت، وكان قد نشر غيرها وفي نيّته أن يغلق هذا الباب. ثم دفع إليّ نسخة من الجامعة الأسبوعية فإذا فيه نعي داود لم يَعْدُ فيه فكري، أشار في آخره إلى قصيدتي وأنه سينشرها في العدد القادم. ومن هناك ذهبت إلى محل الآنسة سعدى الحاج التي يشتغل معها إلياس حيدر، وسألتها عن غرفة قريبة منهم فقالت: تعال غداً فأريك إياها. ثم رجعت إلى غرفتي في القطار تحت النهر فاشتريت فحماً وحطباً وخبزاً وأوقدت ناراً وغليت شاياً وتعشيت خبزاً وشاياً، ثم جلست وراء طاولتي وأخذت أكتب إلى الأميركان وإلى أمّي، وأنا أكتب رسالة الأميركان هاجني الحزن فلم أملك دمعي، وأما رسالة أُمّي فقد حاولت فيها أن أطمئن فكرها. وقد بقي عليّ رسالتان، الواحدة إلى منانة والأخرى إلى سلطانة فربّما كتبتهما غداً أو بعد

غد. ثمّ عبّأت غليوني وجعلت أتخطّر في غرفتي ذهاباً وإياباً وأنا أُفكّر في ماضيّ وحاضري، فما أسعد الماضي وما أتعس الحاضر. ماذا أكون حتى أحتمل ما أحتمل؟ ألم يكفني كل شقائي الذي عرضت نفسي له في غربتي هذه حتى تموت يا داود؟ لو بقيت وحلت عليّ أكبر المصائب لوجدت فيك تعزيتي فمن يعزيني الآن على فقدك؟ إن محلك في قلبي لن يشغله أحدٌ سواك. تركتني أعيش في هذه الدنيا بدون لذّة ولا سرور. لم تعد حياتي إلا قضاء واجب. لو انقلبت الأرض سماء ولم يعد حزن ولا وجع ولا تنهّد لبقي حزني واستمرّ مريري.

يوم الأحد في ٩ شباط/ ١٩٠٨

حلمت أني في القدس، مررت من أمام الخمّارات وكانت رجلاي تتلوّيان تحتي، فما صدقت أن وصلت إلى دكان الحواش، فجلست على كرسيّ هناك أستريح، فمرت أمامي بعض نساء لاتينيّات فسلّمن عليّ وحمّلنني سلاماً إلى أُمّي، ثم رأيت نفسي عند باب الخليل أسير مع فيضي أفندي العلمي(١٧)، وكان يمشي أمامنا الحاج بكر الجارية، ثم رأيتني في بيت مطران الإنكليز، وكان هناك ابنه وخواجا آخر إنكليزي فتصارعنا معاً فغلبتهما، ثم رأيت نفسي في البيت بين أُمّي وإخوتي.. قمت متأخّراً وكان البرد شديداً فاستحممت، وكان الماء إذا نزل على أرض الغرفة تجمّد حالاً، ثم أفطرنا وبعد الفطور جلست إلى طاولتي أُدخّن وأتلهى بقراءَة الكتب. ولما صارت الساعة الثالثة ذهبنا إلى منزل سعدى الحاج فمررنا في طريقنا على مقبرة بروكلن، فتغلغلت نفسي بين القبور، لقيت في بيت الست المذكورة الخواجا فؤاد زريق، فتحدثنا في مواضيع كثيرة، ذكرنا في أثنائها المعلم نخلة، ثم أخذتني إلى منزل الست المذكورة لتريني الغرفة [التي أنوي استئجارها]، فقالت لنا صاحبة المحل: إنها سترد لنا الجواب غداً. رجعنا من هناك وقد امتدّ رواق الليل فتعشّينا في مطعم أميركيّ عشاءً لم تقبله نفسي، ثم رجعنا إلى غرفتي فغلينا شاياً، وجلست وراء الطاولة أكتب رسالة إلى سلطانة إلى أن انتصف الليل. رأيت وجهي في المرآة فوجدته أصفر منفوخاً عليه آثار الشيخوخة. كيف لا وقد لقيت في غربتي هذه ما يجلب الشيب إلى الشاب الأُحَيّ.

يوم الاثنين في ١٠ شباط/ ١٩٠٨

قضيت ليلي كله معك [سلطانة]. نمت نوماً متقطّعاً. قمت صباحاً خائر القُوى فلزمت فراشي النهار كلّه، فتذكّرت أُمّي وأيام سعادتي فلم أتمالك دمعي. لم أستطع أن أذهب إلى السوق فأشتري طعاماً فبقيت بدون أكل إلى أن جاء إلياس حيدر في المساء فاشترى لي زبدة فأكلت. ليتها كانت ساعة سوداء يوم تركت

---

(١٧) فيضي أفندي العلمي: (١٨٦٥ - ١٩٢٤)، رئيس بلدية القدس، ثم عضو مجلس المبعوثان في دورته الثالثة سنة ١٩١٤، بقي في رئاسة البلدية ٣ سنوات، اختير بعدها عضواً في مجلس ادارة المتصرفية.

القدس. هو ذا نفد صبري ولم يمرّ عليّ ثلاثة أشهر. فمن أين لي صبر على ما بقي؟. ومتى الرجوع وكيف أستطيعه؟ لما تولى النهار ودخل الليل تذكّرت حين كنت أرجع إلى البيت في المساء، فأجتمع بأمّي وإخوتي ناعمَ البال مغتبطاً. كيف تركت تلك السعادة وكفرت بتلك النعمة. لو أصبت هنا السعادة كلها لما وفت بهذا الشقاء. ليس السجين في ظلمات سجنه أضيق مني صدراً وأقل جلداً وأتعس عيشاً، ومع هذا كله فلا أستطيع الشكوى، فإذا بدرت مني كلمة استضعفوني وعنّفوني. وإذا وصفت لهم ما أقاسي فكيف يكون حال أمّي؟ ألا تقضي أسىً؟ أواه من يستطيع أن يصبر على ما أصبر عليه؟.. أمسكت قلمي وجعلت أُحاول النظم فنظمت:

إذا الليل أضواه استهلت مدامعُه ... تبل غليلاً قد حوته أضالعُه
وبات جزوعاً لا يقرّ من الأسى ... تساوره أحزانه وتنازعُه
يراجع تذكاراً تقادم عهده ... فيهتاجه شوقٌ وتنبو مضاجعُه
ويذكر أياماً تفيّأ ظِلّها ... وعيشاً قد اخضلت قديماً مراتعُه

نيويورك، الاثنين ١٠/٢/١٩٠٨ [رسالة]

عزيزتي

تأملي في ما كنا عليه، وفي ما صرنا إليه.

كنت سعيداً كل السعادة، كنت استعلي على الرؤساء والأساتذة، فلا يقابلونني إلا باحترام، وكانوا يقدرونني قدري، كنت سعيداً في بيتي: أقوم صباحاً فأستحم بالماء البارد، وألعب ألعاباً رياضية مختلفة تكسبني قوة ونشاطاً، ثم أتناول فطوري، ثم أجلس وراء مكتبتي أدخن بنارجيلتي وأقرأ أو أكتب، ثم أذهب إلى دروسي فأمشي في الهواء النقيّ والشمس الساطعة، ولا ألقى أحداً في طريقي إلا سلم عليّ وابتسم لي.

كنت أعلّم في غرف واسعة، وبين درس وآخر كنا نخرج إلى ساحة اللعب فنلعب ألعاباً مختلفة تجديداً للنشاط، وعند الظهر أرجع إلى البيت فأتغدّى ثم أنام، وبعد النوم استحم مرة ثانية وأدخن، ثم أرجع إلى دروسي. وبعد الساعة الرابعة كنت أمرّ على داود في البنك فأقف إليه وأحادثه، وفي المساء كنت أمرّ على يعقوب ابن خالتي، فنذهب لسماع الموسيقى أو حضور التمثيل، أو نصرف ليلتنا معاً إما عندي وإما عنده، وإما عند داود، ثم آوي إلى غرفتي فأنام في فراشي الوثير النظيف. وإذا جاء يوم بيت لحم، أركب حصاناً وأذهب بين الحقول الجميلة استنشق الهواء النقيّ، فأجد تلميذاتي ينتظرنني فأعلمهن بلذة، ولم أكن أفتر عن أن أمس قلوبهن في أثناء الدرس، وأن أوجه انتباههن إلى الفنون الجميلة، وأن أشرّب نفوسهن المبادئ

الفاضلة الراقية، هذا فضلاً عمّا كنت ألقاه من عطف طائفتي عليّ والتفافها حولي، بحيث قدموني على شيوخهم، واعتمدوا عليّ، في شؤونهم. ثم ماذا أقول عن أيامنا السعيدة التي صرفناها معاً؟!

كل تلك السعادة تركتها، كل تلك الآمال هدمتها، وجئت إلى هذه البلاد. ولكن كنت على ثقة أن ورائي سعادة تنتظرني وأن أمامي أملاً واسعاً، فما لبثت أن وجدت نفسي مخدوعاً، لم يلبث الزمان الذي توهمت أنه حالفني وسالمني أن مدّ يده في غيابي إلى سعادتي، فهدمها حجراً على حجر، وإلى سروري فعفّى آثاره، ثم مدّ يده إلى آمالي التي كنت أحسب أنها في متناول يدي، فبدلها خيبة وحرماناً، فأصبحت بدون سعادة ولا سرور ولا أمل، اخطر في غرفتي كالشارب الثمل، لا أجد مؤنساً غير جدران غرفتي، أتردّد بينها أذرف الدموع السخية.

ولكن مع حزني الشديد، مع خيبتي، مع كل الشقاء الذي يكتنفني من كل جهاتي، لا أفكّر بك إلا أحسست بشيء في صدري أقوى من الحزن بل أقوى من الموت.

*

تصوري: لو جئت إلى هذه البلاد من غير أن تكون لي علاقة بك، فماذا تكون حالتي، لو جئت من غير أن أهبك حياتي فماذا تكون قيمتها عندي بعد موت داود؟ أما كنت استسلم الى الحزن، وأفضل الموت على الحياة؟ كأن داود عرف إنه مائت [كذا] فلم يشأ أن يتركني وحدي في هذه الدنيا، ولما كتبت له أني وجدت سلطانة، سرّ وتهلل وبارك خطبتي، ولما زرته في يافا صرفنا الوقت كله على ذكرك.

يا داود!

إن القلبين اللذين باركت عهدهما في حياتك يحفظان لك في أعماقهما وداداً خالصاً لا يؤثر فيه الزمان، فانظر إليهما من أعالي السماء، واسكب عليهما من روحك الكريمة ما يعزيهما عن فراقك، واقبل منهما عواطف دامية يسكبانها على قبرك المحبوب، لترتفع إليك مع دموع الأهل والأصدقاء. سيكون خيالك رفيقهما، ستكون روحك صديقة روحيهما ما طال الأمد، سيكون ذكرك حديثهما، سيكون قبرك تسليتهما وتعزيتهما في هذه الحياة. ولن يرسل أحدهما عواطفه إلى الآخر إلا بعد أن تعرج عليك في سمائك، فتنزل بعد أن لامست روحك الطيبة، ووقفت على أبواب السماء، وامتزجت بعواطف الملائكة، وأخذت رسالتك السماوية إلى الأرض، لا يرعك ما تراه فيها من آثار الدموع، فذلك ما جرّه علينا فراقك الأبدي.

يا داود! لو انقلبت الأرض سماء، ولم يبق فيها وجع ولا تنهّد ولا حزن، فإن حزني عليك باقٍ لا تزيله سعادة ولا يمحوه سرور، لقد ظلمتني يا داود وظلمت كل من له علاقة بي.

إن مصيبتي يا سلطانة لعظيمة لا يستطاع معها صبر، وأعيذك أن تتخلي عني، وتتركيني بدون كلمة منك أتعزى بها.

منذ جئت لم أزل انتظر رسائلك فلماذا لا تكتبين؟ .

لو كتبت وانقطع الناس بأسرهم عن الكتابة لم أبال. إن الروح التي امتزجت بروحك قد أصبحت اليوم تتعذب، إن القلب الذي ارتبط بقلبك قد أصبح اليوم يتألم.

كلمة واحدة يا سلطانة لوجه الله.

ردي على عيني النوم الذي سلب.

لم يبق في صدري إلا بقايا ضئيلة من الأمل.

لا تتمثل لي إلا الوحشة.

لا يصحبني إلا القلق.

لا تتراءى لي إلا أشباح وخيالات مخيفة.

لا يحتاطني إلا الشقاء.

لا يخيم عليّ إلا اليأس.

لا يخالجني إلا الحزن.

أضيفي إلى ذلك كله ما يلتهب في صدري من الشوق إليك.

لو كنت جماداً لتصدعت.

لو كنت جبلاً لاندك إلى الحضيض.

ترفقي بي وارحميني.

وقبل أن أختم رسالتي هذه، لا تنسي أن تضفري اكليلاً جميلاً من الزهور وترسليه إلى يعقوب ابن خالتي، ليضعه على قبر داود، واكتبي عليه الحرفين الأولين من اسمك واسمي، واسلمي.

لمحبك

خليل

حاشية : هو ذا قد تجمع عندك مني رسائل كثيرة، فأحبّ منك إن كتبت أن تشيري إلى كل منها ولو بكلمتين.

أخذت اليوم بعد كتابة رسالتي هذه رسالتك الثانية، فتخيلتك تخاطبينني فماً لفم، فثارت أشجاني، سأجيبك عنها قريباً إن شاء الله.

لم تردني الصورة، لو استطعت لمشيت لاستقبالها إلى نصف الطريق.

يوم الثلاثاء في ١١ شباط غ/١٩٠٨

حلمت أني كنت في القدس وقد رأيت أشياء كثيرة لا أذكر منها إلاّ أني كنت في موقف الوداع معانقاً شيخاً وكلانا يبكي. بعد الفطور جاء الخواجا رفلة الحمصي فجلسنا نتشاكى وقد رأيت منه أنه يضمر اليأس من

النجاح في هذه البلاد، وأنه يفكّر منذ الآن بالرجوع، ولكن ليس إلى القدس لأنه يخجل أن يرجع إليها خائباً، ثم تركني وذهب.

عند الظهر نزلت إلى نيويورك فذهبت إلى محل الخواجات ملوك لعلّي أجد رسالة فلم أجد. قال لي الخواجا إلياس ملوك: إني أريد أن أعلّم امرأتي اللغة الإنكليزية، فإن كنت تستطيع أن تعلّمها فابدأ من يوم الاثنين القادم. ومن هناك ذهبت إلى إدارة الجامعة فدار الحديث بيننا على المهاجرة ومنزلة الصحافة فيها فقلت: لا يحمد المهاجرة إلا الطبقة الواطئة من أهالي بلادنا، لأن معيشتهم هنا مهما كانت دنيئة فهي أرقى وأسعد من معيشتهم في بلادهم، وهؤلاء لا ينتظر منهم إلاّ أن ينسوا بلادهم ويندغموا في الأمّة التي يعيشون فيها، لأنهم فضلاً عن قوّة الأمّة التي هاجروا إليها، وعن سعادتهم التي أصابوها بينها، فإنهم ضعفاء جهلاء لا يعرفون أن يُحافظوا على كيانهم. والصحافة لهؤلاء ليست إلا عبثاً. وأما الطبقة الراقية في بلادنا فإن هاجرت فلا يطيب لها المقام. وحثثته أن يجعل دأبه مقاومة تيّار المهاجرة، ثم ذهبت وعلمت تلميذيّ، وقالا لي: إنهما لا يستطيعان أن يأخذا درساً غداً لأنه عيد عمومي في أميركا، وقد طلب إليّ أحدهما أن أزوره يوم السبت لأُعلّمه. رجعت إلى إدارة الجامعة ثم عرجت على محل الآنسة سعدى الحاج أسألها عن الغرفة فقالت: قد دبّرت لك صاحبة المنزل غرفة كبيرة أجرتها ريالان ونصف في الأسبوع، فقلت أجيء غداً مساء وأراها. ثم ذهبت إلى مطعم سوري وتعشيت، ورجعت إلى غرفتي فغليت شاياً وجلست أكتب إلى القدس، دقت الساعة الواحدة بعد نصف الليل وما خدعت في عيني نعسة.

رُدّوا على عيني النوم الذي سلبا

كتبت صفحة أُخرى لسلطانة، وأُخرى ليوسف، وأُخرى لأمّي، وابتدأت أكتب لإلياس طرزي.

يوم الأربعاء في ١٢ شباط غ/ ١٩٠٨

رأيت في نومي رؤى مختلفة لا أذكر منها إلا أني استلقيت بجانب ليديا ابنة أُختي أُداعبها. استحممت جيّداً بالصابون من رأسي إلى قدمي. الطقس جيّد كأنه من أيام الربيع. لزمت الغرفة إلى الساعة الثانية بعد الظهر ثم نزلت إلى نيويورك فحلقت، ثم ذهبت إلى محل الخواجات ملوك فوجدت الباب مغلقاً بسبب العيد، ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فلم أجد هناك إلاّ فرح أفندي وقد بدت عليه آثار التعب، فحثثته أن يخفّف من إجهاد نفسه فاستأنس بي، وجعل يشكو من الصحافة، ثم خرجت معه وجعلنا نروح ونجيء في الطريق ونحن نتكلّم، فقال لي: جاءتني رسالة من أفتيم مشبك وهو يهديك سلامه. ثم تركته وذهبت إلى مطعم سوري وتعشيت ورجعت توّاً إلى غرفتي، فأشعلت ناراً وغليت شاياً وجلست إلى طاولتي

أُدخّن. أخذت القلم لأكتب لمنّانة [صيداوي] [١٨] أخت داود فلم أعرف كيف أكتب لها. إن مصيبتك يا منّانة تترك الفصيح عيّياً. في المساء جاء إلياس حيدر فذهبنا إلى بيت الآنسة سعدى الحاج، فذهبت معها إلى صاحبة المنزل التي سأسكن عندها ورأيت الغرفة ووعدتها أن أنقل إليها يوم السبت القادم. رجعنا إلى بيت الآنسة المذكورة وكان هناك الخواجا فؤاد زريق فعبّأوا لي أركيلة فجلست أُدخّن، وجعلنا نتجاذب أطراف الحديث. تكلّمنا عن الأقوياء في العالم ثم عن المشعوذين ثم عن التنويم المغنطيسي والاستهواء، ثم عن الجرائم والمحاماة. وقد آنست من نفسي اقتداراً عن الكلام وكانوا ينصتون إليّ كما ينصت التلميذ إلى معلمه. رأيت عندهم على الطاولة كتابين يتضمنان تآبين ومراثي الواحد ذكرى فريد والآخر صدى النحيب فأخذتهما لأقرأهما، وقد خطر لي في الطريق أن أضع كتاباً أترجم فيه حياة داود وأجمع فيه آثاره العلميّة وما قيل فيه من التآبين والمراثي. رجعنا إلى المنزل فوجدنا الباب مغلقاً، فجعلنا نطرق حتى كل متن كلٍ منّا، ففتحوا وآوى كلٌّ منا إلى فراشه وكانت الساعة نحو الواحدة بعد نصف الليل.

يوم الخميس ١٣ شباط غ/١٩٠٨

حلمت أني كنت في غرفتي في دار المعلّم نخلة فدخل عليّ رجل يسألني عن داود، فقلت له: أتسأل عن داود وقد أصبح رهين قبره، فقال: لا لم يمت، وقد رأيته منذ قليل، ثم خرجت من غرفتي فرأيت داود مع يعقوب ابن خالتي وراسم أفندي وفي فم كل منهم سيكارة، فركضت إلى داود وارتميت على عنقه، وجعلت أُقبّله وأبكي وأقول له: كدت توردني حتفي، فقال: لم أمت وإنما أشعت ذلك لأرى ماذا تعملون. مهما عملنا يا داود فلا نوفيك حقّك. ستختلط حياتي بموتك وموتك بحياتي... استحممت جيّداً. خسرت دماً كثيراً وتألمت جداً من الباسور. أفطرنا خبزاً وزيتوناً أسود وشاياً. جلست في غرفتي إلى الظهر ثم نزلت إلى نيويورك فوجدت رسالتين، الواحدة من سلطانة والأُخرى من مس سنكير. هذه أوّل مرّة التقت الرسالتان، فلم أفتحهما أمام الخواجا رفلة بل وضعتهما في جيبي وجلست إلى جانبه أُحادثه، ثم تركته وذهبت إلى مخزن الخواجا حنا حشمة، ففتحت الرسالتين وقرأتهما فجعلت مدامعي تصوب. ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فدفع إليّ [فرح] رسالة أفتيم فقرأتها، فرأيت منها اقتدار أفتيم على الكتابة. ثم قال الخواجا فرح أنطون: إنه رأى أمس الخواجا نعمة تادرس فوعده أن يرسل إليّ تلميذين من الأسبوع القادم. وبعد أن جلست قليلاً أقلب في بعض الجرائد الواردة اليوم مع البريد من أنحاء مختلفة لعلي أرى نعي داود، ذهبت إلى مطعم سوري وتعشيت شوربا وقطعة لحم ثم رجعت إلى الغرفة. وضعت في صندوق البريد رسالة إلى أمّي بعد

---

(١٨) منانة صيداوي: اخت داود صيداوي، وقرينة عادل جبر.

أن نظرت إليها نظراً طويلاً وتمنيت لو أكون عنها بديلاً، ورسالة أخرى إلى يوسف أخي.

أوقدت ناراً وعبّأت غليوني وجلست أقرأ رسالة سلطانة، لم تذكر شيئاً عن موت داود ولكنها ذكرت يومنا في أرتاس. وقلت: إن ذلك اليوم لن يرجع إلى الأبد. نعم إن ذلك اليوم السعيد يوم كنت معنا يا داود لن يرجع. سنبكي عليك ما حننّا إلى أيامنا الماضية. وقد ذكرت أنها أرسلت إليّ صورتها مع أخيها يوسف في البوسطة، ثم قالت: إنها انتهت من قراءة رواية «التعيس»، بعد أن قرأتها وحدها قرأتها مع ميليا. وقد وجدتا على الحاشية مكتوباً بقلمي: أؤمن بالصداقة. أؤمن بالصداقة. لم أكن أعني حين كتبت تلك العبارة إلا صداقة داود، إن هذا الموت لا يستطيع أن يمدّ يده إلى صداقتنا، لو مدّ يده إلى حياة كل منا. الحياة فانية ولكن الصداقة باقية. سهرت إلى نصف الليل سابحاً في الفضاء متنقّلاً بين الأموات والأحياء.

يوم الجمعة في ١٤ شباط غ/ ١٩٠٨

حلمت أني رجعت إلى القدس، فدخلت البيت فوجدت أخي يعقوب، فسألته عن أمي فقال: ذهبت في زيارة ولا تلبث أن ترجع. ثم رأيت أختي ميليا قادمة مستندة إلى ذراع فتاة من رفيقاتها في المدرسة وهي تئن، ثم جاء خالي جورج وعمي وبقية أهل البيت فنظرت في وجوههم فإذا هي منقبضة، فرجف قلبي وصحتُ: أين أمّي؟ فسكتوا وجعلت مدامعهم تنحدر، فعلمت أنها ماتت وجعلت أصيحُ: يا أمّاه يا أمّاه. ثم حلمت أني كنت ماراً في الطريق فلقيت خال داود وأمّه فصافحت خال داود وعزّيته، ثم لما اقتربت من أمّه ارتميت على أقدامها وجعلت أبكي وأسألها أين داود. ثم رأيت مس سنكير.. الطقس جميل. كدت أنزف دمي. حلقت واستحممت وأفطرت ثم غليت شاياً وعبّأت غليوني وجلست وراء طاولتي أراجع يوميتي. ولما جاءت الساعة الثالثة ذهبت إلى الدكتور نيس وعلمته ساعة ونصفاً فدفع لي ريالاً ونصفاً. ومن هناك نزلت إلى نيويورك. عرجت أولاً على محل الخواجات ملوك، فوجدت رسالة من متري المني، ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة، وما وصلت الطبقة الرابعة حتى أعياني التعب كأني ابن تسعين، فلم ألق هناك إلا الخواجا فيليب غريّب، فذهبت إلى مخزن الآنسة سعدى الحاج فأخذت إلياس وذهبنا إلى مطعم سوري وتعشينا، ثم جئنا إلى الغرفة فعدت إلى طاولتي أدخّن وأكتب. كتبت رسالة إلى مس سنكير أرفض كل عزاء، ونسخت رسالة الأميركان مرّة ثانية بعد أن غيّرت فيها قليلاً، ثم جعلت أكتب رسالة إلى إلياس طرزي، انتصف الليل واستغرقت الطبيعة في سباتها وقد اكتحل جفني السهاد وهجر الرقاد، وقد تقاسمتني الأفكار وتنازعتني البلابل. سلام الله على حياتنا الماضية يا داود، كانت حياة نموّ وبناء، فصارت حياة هدم وشقاء.

يوم السبت في ١٥ شباط غ/ ١٩٠٨

حلمت أني سافرت إلى مصر فاجتمعت بعيسى ووهبة وأشيل، فقالوا: ما بالك راجعاً إلى القدس؟ فقلت لهم: جاءَتني أخبار مكدرة جداً لم أستطع معها الصبر على الغربة، فقالوا: ماذا حدث؟ كأنهم لم يسمعوا بموت داود، فأخذت عيسى إلى جانب وهمست في أُذنه: داود مات، وجعلنا نبكي. أفطرت ثم نزلت إلى نيويورك وذهبت تواً إلى مدرسة اللاهوت فلقيت تلميذي Mr Henry وعلمته ثلاث ساعات متوالية فدفع إليّ ثلاثة ريالات، فرجعت إلى محلّ الخواجات ملوك آملاً أن أجد رسائل من القدس فلم أجد شيئاً، ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فأخذت بعض أعداد من الجامعة الأسبوعية، وفيها قصيدتي في داود لأبعث بها إلى القدس. ثم لقيت إلياس حيدر في مخزن الخواجا حنا حشمة فأخذته وذهبنا إلى مطعم سوري وتعشينا، ثم رجعت إلى غرفتي لأجمع ثيابي وأستعد لأنقل إلى غرفتي الجديدة، فهاجت أشجاني وفاضت مدامعي وجعلت أنشد قصيدتي في داود . . . في المساء جاء إلياس حيدر، فودّعت صاحبة المنزل وذهبنا إلى الغرفة الجديدة، فوضعت الشنتة [= الحقيبة] ثم ذهبنا إلى بيت الآنسة سعدى الحاج، فجاء الخواجا فؤاد زريق، وأخوه الخواجا أنطون زريق، والأخير يشتغل في [جريدة] مرآة الغرب وهو صاحب جراب الكردي الذي أصدره سنتين ثم قطعه، فجعل يعرّض بفرح أفندي أنطون فعرفته بملامح وجهي أني لا أحب هذا الحديث، ثم جعلنا نتكلم عن موت سليم العازار، فاقترحت عليهم أن يكلّفوا أحد أصدقائه المجيدين ليمثّلوه في ساعاته الأخيرة التي قضاها وحده بين جدران غرفته، ماذا كان يفتكر وماذا كان يقول، وماذا كانت عواطفه، وكيف كانت ملامحه إلخ. فكنا ونحن نتكلم عن موته كأن على رؤوسنا الطير، فرأينا أن نغيّر الموضوع، فجعل الخواجا أنطون يتلو علينا من قصائده التي كان ينشرها في جراب الكردي، فرأيت منه اقتداراً على الهجاء غريباً، وإن كان لا يراعي كثيراً قواعد الصرف والنحو ولا يقيم أحياناً وزناً. وفوق ذلك لم أسمع في حياتي أسقم من قراءَته فكانت الألفاظ تخرج من فمه يلعن بعضها بعضاً. وكلما هممت أن أقوم أمسك بي حتى صارت الساعة الواحدة بعد نصف الليل، فاستأذنت وانصرفت إلى غرفتي وأويت إلى فراشي – وضعت في صندوق البريد رسالتين الواحدة إلى سلطانتي والأُخرى إلى الأميركان.

يوم الأحد في ١٦ شباط غ/ ١٩٠٨

حلمت أني كنت في القدس في بيت الخواجا حشمة. قمت نحو الساعة الثامنة، فدخلت غرفة الحمّام فملأت الحمّام إلى نصفه وجلست فيه أضرب الماء بيديّ ورجليّ وتذكرت حمّاماتي في القدس. ثم لبست ثيابي وخرجت وأنا ناكس الرأس مطرق الطرف منقبض الصدر، أمشي وئيداً مستسلماً لليأس. فمشيت في الطرق قليلاً أفتّش عن مطعم لآكل فلم أجد. وأخيراً اشتريت ثلاثة أقراص من الحلويات ورجعت إلى غرفتي، فأكلتها ثم عبّأت غليوني. وقد خطر لي أن أغيّر قليلاً في رسالة مس سنكير، فأخذت القلم وصرت

أكتب واليأس يملي عليّ، ولم أملك دمعي. ثمّ حملت الرسالة وذهبت فوضعتها في صندوق البريد، وإذا بالخواجا نعمة الحاج مقبلاً عليّ فأخذته وذهبت إلى مطعم أميركيّ وتغديت بما قيمته أربعون سنتاً. إذا لم أجد عدداً كافياً من التلاميذ وإلاّ فلا أستطيع أن أعيش في هذه الجهة. رجعت إلى غرفتي وجلست وراء الطاولة ساعات متوالية أقلب في الكتب تارة وفي يوميتي أخرى، وعند الساعة السادسة جاءني الخواجات نعمة الحاج وفؤاد زريق، فقرأت لهما بعض كتاباتي القديمة فارتاحا إليها، وبعد أن أقاما نحو ساعة ونصف ودّعا وذهبا. ودعاني الخواجا فؤاد لنقضي ليلتنا عندهم. بعد أن انصرفا جلست إلى الطاولة وأخذت أكتب رسالة إلى منّانة أخت داود مآلها أن كل شيء جميل لطيف رائق بهيج يمثّل أخويها، وختمتها بهذه العبارة: اقرأي عن الملائكة فيتمثّل لك عفيف واقرأي عن الملوك فيتمثّل لك داود. ثم ذهبت إلى منزل الآنسة سعدى الحاج لنذهب إلى منزل أنطون أفندي زريق، وقد جاوزت الساعة التاسعة والنصف. لما دخلنا قام لنا الحضور الخواجات والسيّدات فعرفونا بهم. وكان في زاوية الغرفة شاب منكّس الرأس دامع الطرف فعرفنا أنه أخذ خبراً من طرابلس بوفاة أخته وهي في ريعان الصبا، وقد حان زواجها فاستعظمت مصيبته وازددت محبّة لأختي وإشفاقاً عليها. ثم جاء أخوه وهو شديد التأثر، ولما دخل جعل يلطم وجهه وينادي: أختي أختي، فلم أملك دمعي. ابكيا أيها المسكينان فليست وفاة الأخت سهلة. ثم ذهبا فجاء أنطون أفندي زريق وجلس بجانبي وأقبل عليّ بأنسه، ثم أحضر جرابه وجعل يقرأ لنا قصائده، ولما قمنا لنذهب أعطاني عدداً كبيراً من أجزاء [= اعداد] المقتطف والضياء لأقرأها ثم أردها له، ورجعت إلى الغرفة وكانت الساعة نحو الواحدة بعد نصف الليل. أخذت ريالاً من الخواجا نعمة الحاج.

يوم الاثنين الواقع في ١٧ شباط غ/ ١٩٠٨

حلمت أني دخلت دار جميل أفندي الخالدي، وأن أباه وعمّه محمد الطاهر مع أشخاص آخرين كانوا جالسين على الكراسي في ظل الدار، وأن عمه استاء من دخولي على الحريم. خرج مني اليوم الدم بكثرة. استحممت بالماء البارد ومررت على الخواجا نعمة الحاج فركبنا القطار المرتفع ومررنا على الجسر الموصل بين بروكلين ونيويورك. أخذت من إلياس حيدر ريالين فدفعت ريالاً منهما إلى الخواجا نعمة، ثم ذهبت إلى محل الخواجات ملوك فأخذت كارتاً من سلطانتي وصورتها وصورة يوسف أخيها، وبعض أعداد من جريدة إنكليزية. ومن هناك ذهبت إلى مطعم سوريّ وأكلت خبزاً ودبساً بطحينة، ثم رجعت إلى إدارة الجامعة، وكدت أمدّ يدي وأنا في الطريق إلى جيبي لآخذ صورة سلطانة وأراها. عرجت أولاً على محل الخواجا حنا حشمة فوجدت رسالة من أخي يوسف، رسالة طويلة مستوفية أطلعني فيها على أحواله بالتفصيل، واعترف فيها ببعض جهالاته التي كنت أعنفه عليها، وقد سرّني هذا الاعتراف لأنه الخطوة الأولى في سبيل الصلاح والفضيلة. وقال لي: إن الريالات التي أرسلها إلى الخواجات ملوك كانت من دخله ولم يستدنها من

أحد، ثم حثني على ترك الحزن رفقاً بنفسي وإكراماً لخاطر أُمي ولأستطيع أن أقوم بواجباتي. ثم طمأنني من جهة الدين وأنه يعتبر كل ديوني ديونه وأنه سيبذل وسعه في سبيل وفائها. وعلى الجملة فقد كانت رسالته عن إدراك وشعور مما سرّني كثيراً. وأنا أقرأ الرسالة إذ دخل علينا عيسى خشان من رام الله وهو مسافرٌ غداً إلى القدس فغبطته، وتمنّيت لو أذهب معه، وحملته أشواقاً وسلاماً وزوّدته بالدعاء. ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة، فقال لي فرح أفندي أن أُواجه الخواجا نعمة تادرس وأُخبره بأني نقلت إلى غرفتي الجديدة ليرسل إليّ التلاميذ الذين تكلم معه فرح أفندي عنهم، فذهبت وحلقت ومن هناك رجعت إلى محل الآنسة سعدى الحاج. وأنا هناك جاء الخواجا نعمة تادرس، ولما خرج تبعته وتكلمت معه فوعدني خيراً. ثم رجعت إلى محل الخواجات ملوك فأخذت الخواجا رفلة وجلنا من محل إلى آخر، ثم دعاني لتناول الغداء، وبعد الغداء رجعنا إلى بروكلين فذهب معي إلى غرفتي، وبعد أن وضعت ما أحمل من الجرائد وغيرها ذهبت معه إلى بيت أخته فجلست إلينا مع ابنتها وكنّتها، وأخذنا نتكلم عن المرأة السورية فَفُتِقَ لي الكلام وتكلّمت مفضلاً المرأة السورية على غيرها. ثم تكلمنا بخصوص الدروس فقررنا أن نبدأ من يوم الأربعاء القادم، ولما قمت أمسكوا بي للعشاء فاعتذرت، فرجعت إلى الغرفة، فجاء الخواجا نعمة [الحاج] وأعطيته الدرس الأوّل. تعشيت في غرفتي.

يوم الثلاثاء الواقع في ١٨ شباط غ/ ١٩٠٨

استحممت جيّدا وأفطرت خبزاً وحلاوة، ثم جلست وراء طاولتي إلى الساعة العاشرة. حين نزلت إلى نيويورك ذهبت إلى محل الخواجات ملوك فلم أجد شيئاً. ومن هناك ذهبت إلى محل الآنسة نعمة الحاج، فأخذت إلياس حيدر وذهبنا إلى مطعم سوري وأكلنا. ثم ذهبت لأُعلّم تلاميذي فلقيني بروفسور بور، وقال: إنه يأسف لاضطراره بسبب كثرة أشغاله إلى ترك الدرس الآن إلى مدة، ولكن قد اتّفق مع مستر هنري أن يأخذ درسين زيادة في الأسبوع، ثم قال: لماذا لا تبيع السجّاد؟ فقلت له: إني أترك هذه المسألة إلى الدقيقة الأخيرة. ثم جاء مستر هنري فعلمته ساعة ودفع لي ريالاً، فرجعت إلى محل الآنسة سعدى فأخذت أعداد الجامعة التي أودعتها عندها صباحاً، وذهبت إلى محل الخواجا حنا حشمة، فلففت عددين إلى إلياس طرزي ليقدمها لمنّانة وعددين لسلطانة وميليا وعدداً للمعلم نخلة وعدداً لأخي يوسف وذهبت ووضعتها جميعها في صندوق البريد. ثم رجعت إلى إدارة الجامعة فجلست قليلاً، وفي ذهابي من هناك عرجت على محل الخواجا حنا حشمة مرّة ثانية، فدفع إليّ رسالة من الخواجا حنّا فراج كان موزع البريد قد أحضرها قبل دخولي ففتحتها فإذا فيها رسالة من الخواجا عيسى الصقر إلى الخواجا حنا فرّاج يُخبره فيها أوّلاً: عن خصام وقع في دير مار سابا بين داود عطا الله وأحد اليونان، فطعن داود اليوناني بسكين في بطنه فسقطت أمعاؤه فسِيقَ إلى السجن. وثانياً: أن أبناء دعدس تخاصموا مع أبي نمر، فأثخنوه فألقي

القبض على أحدهما وفرّ الآخر؛ ولكن لما ماتت أمه حضر جنازتها، وهو نازل من [مقبة] صهيون أمسكه البوليس وساقه إلى السجن. وفي ذيل رسالته ينعي إليه وفاة داود وأخيه ويصف مأتم داود الحافل بحيث لم يسبق له مثيل في القدس أبداً، وأنه قد رثاه على القبر جورجي حبيب[١٩] ونخلة طرزي شعراً وأفتيم مشبك والمعلم جريس الخوري ويوسف فروجي وأن ثلاثة آخرين رثوه شعراً منهم الخواجا جورجي حبيب أنشد قصيدة من نظم الشيخ علي الريماوي، فهبّت عليّ عاصفة من الحزن الشديد فكاد صدري ينشق، لهف أرضي وسمائي عليك يا داود. رجعت مع إلياس حيدر إلى بروكلن فأخذت قمصاني وقبّاتي من عند الصيني، وجئنا إلى غرفتي ومن هناك ذهبنا إلى منزل الآنسة سعدى الحاج، وما صدقت أن انتهت السهرة حتى رجعت إلى غرفتي.

يوم الأربعاء في ١٩ شباط غ/ ١٩٠٨

حلمت أني كنت في القدس ماراً من أمام الباب الجديد وإلى جانبي أختي ميليا، فكنا ونحن نمشي نقبّل بعضنا بعضاً. السماء تثلج. استحممت جيداً وأفطرت، ثم جلست إلى الطاولة أحضر درس قرينة الخواجا إلياس ملوك في اللغة الإنكليزية. ولما صارت الساعة نحوالعاشرة ذهبت إلى منزلهم وجلسنا للدرس، فوجدت أنها تستطيع القراءَة والاملاء ولكنها لا تستطيع التكلم بسهولة، فجعلت أمرنها على الكلام بأن أسألها على كل جملة ثم أكلفها بأن تحكي القطعة كلها بالإنكليزية. ثم أعطيتها أفعالاً ماضية وكلفتها أن تكتب الحاضر منها مع بناء جملة على كل فعل، فإذا مضينا على هذا المنوال أفدتها كثيراً. بعد الدرس أمسكوا بي على الغداء. جاءَتني الآنسة روز تلميذتي في القدس، فجعلنا نتكلم عن المدرسة وداود وعفيفة وبقية التلميذات فكنت من وقت إلى آخر أنتفض حزناً والتياعاً، تركتك يا داود وأنا أرجو لك السعادة والسلامة وقد سرّني وآمن روعتي عودة سرورك ورجائك إليك، ثم لم تلبث أن عصفت بكم عواصف المنون فقضيت أنت وأخوك في مدّة خمسة عشر يوماً، إن ذلك لا أكاد أصدقه. ثمّ جاء وقت الغداء فقمنا إلى المائدة وتغدينا، وبعد الغداء جلسنا نتجاذب أطراف الحديث، فكنت أدافع عن سوريّا وكانت الآنسة سلمى تدافع عن أميركا، إذا لم أتمنّ الرجوع إليك يا سوريا إلاّ لأن [كذا] أكون قريباً من قبر داود لكفى. ولما صارت الساعة الثانية قمت ورجعت إلى غرفتي وما وصلتها حتى تبللت ثيابي فغيرتها، وجلست وراء طاولتي أكمل قصيدتي التي مطلعها:

إذا جنهُ الليل استهلّت مدامعُهُ تبلّ غليلاً ضمنتهُ أضالعُهْ

ثم جاء الخواجا نعمة الحاج فجلسنا للدرس. ولما قام ليذهب أخذت منه ريالاً من أصل الحساب وقلت له: الأجرة التي أتقاضاك إياها ريالان لكل ثلاثة دروس، فرأيت منه تردُّداً فطلبت منه أن يطلعني عمّا كان في

(١٩) جورجي حبيب: هو جورجي حبيب حنانيا (١٨٥٧ - ١٩٢٠)، أديب وصحافي وصاحب مطبعة في القدس، ومؤسس صحيفة القدس.

تقديره، فقال: قدرت لكل اثني عشر درساً ٧ ريالات فقلت له: وهو كذلك. ولما ذهب رجعت إلى النظم فبلغت القصيدة ١٥ بيتاً.

يوم الخميس في ٢٠ شباط غ/ ١٩٠٨

حلمت أني كنت في القدس أروح وأجيء، ولا أذكر إلاّ أني دخلت دار خالتي نستاس. استحممت وأفطرت وجلست إلى الطاولة أتابع النظم، فأضفت إلى القصيدة بيتين آخرين. ثم خرجت أقصد نيويورك فمشيت إلى الشارع السادس والثلاثين، أي قطعت ١٩ مربّعاً في اصطلاحهم، فقطعت جوازاً بخمسة سنتات. ولما أخذت بقية الريال سقط من بين أصابعي عشرة سنتات وأنا لا أدري من شدّة البرد. جئت إلى نيويورك فلقيت إلياس حيدر فذهبنا وتغدينا، ثم ذهبت إلى محل الخواجات ملوك آملاً أن أجد بعض رسائل فلم أجد، فذهبت إلى إدارة الجامعة فأريت فرح أفندي قصيدتي فراعه ما فيها من استسلامي لليأس، وجعل يثير حماستي ويحثني على الصبر والجلد، فقلت له: موت داود هو مصيبة الدهر. ثم قال: أمس تحادثت مع نعمة أفندي تادرس ففهمت منه أنه ينوي أن يرسلك إلى أحد محالّه في [المناطق] الداخلية، فاذهب إليه اليوم أو غداً واطلب منه شغلاً ثم أحكي معه بعد ذلك بخصوصك، فقابلته بكل جمود. ثم مررت على محل الخواجا حنا حشمة، فقال: جاء الساعة الخواجا بنّي أبو شولي ليسأل عنك، وهو فتى من القدس ربّي عند الأميركان، فذهبت إلى المحل الذي عيّنه لأجتمع به فلم أجده، ثم زرت الخواجات دبدوب وبعد أن أقمت لديهم قليلاً رجعت إلى محل الخواجات ملوك، وكلفت أحدهم أن يبتاع لي كتاباً إنكليزياً مثل الكتاب الذي أعلّم فيه قرينة الخواجا إلياس، فقال لي الخواجا إلياس إنه يرى أن ثلاثة دروس في الأسبوع لا تكفي، وطلب مني أن أذهب كل يوم. ثم ذهبت وحلقت ورجعت إلى بروكلن إلى غرفتي، وبعد أن جلست قليلاً أقرأ بعض الجرائد ذهبت إلى مطعم أميركي وتعشّيت، ورجعت إلى غرفتي وعبّأت غليوني وجلست إلى طاولتي. فنحت أولاً القصيدة الجديدة في دفتر منظوماتي، ثم كتبت وقائع نهاري وبعدها أخذت جريدة إنكليزية وجعلت أقرأها، ثم حضرت درس قرينة الخواجا إلياس ملوك، إذا قيّض لي أن أشتغل في الصحافة أنشأت جريدة مدرسيّة. وإذا لم أقدر أن أحضر المدارس الليلية لدرس اللغة الإنكليزية فلا أقل من أن أقرأ جريدة كل يوم وأتعرّف بألفاظها الغريبة.. وضعت صورة سلطانة أمامي وهي تبتسم، لو عرفت يا سلطانة أحوالي وما يخامرني من الحزن على داود لتقلّص بشرك وغاضت بشاشتك.

يوم الجمعة في ٢١ شباط غ/ ١٩٠٨

قبل أربعة أشهر من هذا اليوم أي في ٢١ ت١غ/١٩٠٧ كنت مع داود في يافا نسبح في عالم الخيال. عزّ عليّ فراقك يا داود إلى حين فكيف إلى الأبد... استحممت وأفطرت قطعة من الحلواء، ثم جلست أقرأ

في أعداد من مجلة الضياء. ولما صارت الساعة نحو العاشرة قمت وذهبت إلى بيت الخواجات ملوك فجاءت قرينة الخواجا إلياس وجلسنا للدرس. وبعد الدرس أخذت الخواجا رفلة وجئت إلى غرفتي فأطلعته على ما دار بيني وبين فرح أفندي أنطون أمس، وكلفته أن يذهب عند الخواجا نعمة تادرس ويذكرني عندهُ لعله يجد لي شغلاً في أحد محاله في الداخليّة كما قال فرح أفندي، فوعد أن يزوره غداً في ذلك. ثم أخذ يمرّنني على مسك الدفاتر. ولما ذهب وضعت أمامي صورة سلطانة. يعزّ عليّ يا سلطانة أن يصبح القلب الذي وقفته على حبّك مكلماً، والنفس التي خلقت لها سرورها محزونة منقبضة. ثم ذهبت لأعلم الدكتور نيس فعلّمته ساعة وربعاً، ثم جاءه ضيوف فاضطررنا أن نوقف الدرس فدفع لي ريالين، وقال: يبقى لي عندك ثلاثة أرباع الريال، فنزلت إلى نيويورك. ذهبت إلى محل الخواجات ملوك فلم أجد شيئاً، ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فأمسك بي فرح أفندي وجلسنا نتحادث، فقلت له: إن للجامعة مكانةً عليا في سوريا، فهم يعتبرون الجامعة أوّلاً لعلمها وثانياً لفضلها وترفّعها عن المبادئ الدنيئة، فيجب عليه والحالة هذه أن يحرص على مكانه ولا يخاطر به في التنازل إلى طبقة الكتاب هنا، ولو لحق به ضررٌ ماديّ، فانتعش لكلامي هذا، وأكد لي أنه مهما تعرّض له الناس هنا فإنه لا يتغيّر عن مبدأه الذي عرف عنه. ثم ذهبت إلى مطعم سوري وقد جدّ بي الجوع لأني لا أزال على فطوري، فتعشيت ورجعت إلى غرفتي، فجاء الخواجا نعمة الحاج وأخذت أعلمه فتذكرت صفوفي وتلاميذي والتذاذي بالتعليم، وبعد أن انتهيت، وكان قد جاء إلياس حيدر جعلت أُحدّثهم عن أيامي الماضية إلى الساعة الثانية عشرة، ثم ذهبوا وبقيت وحدي.

آه يا داود إن سعادتي الماضية لن ترجع ولو جاءني كل يوم ألف صديق ولو حُمل إليّ الدهر ملآن [كذا]. كيف قلبت مصيبتك فلا أجد لها عزاء، لن أسعد ولو خلقت مرّة ثانية. فالسلام عليك وعلى أيامنا الماضية.

يوم السبت في ٢٢ شباط غ/ ١٩٠٨

في مثل هذا اليوم من شهر ت١غ/١٩٠٧، أي قبل أربعة أشهر تعانقنا على شاطئ البحر المتوسط، ألقيت رأسي على صدرك وبكيت البكاء المركّاني أحسست أن فراقنا سيكون إلى الأبد. ركبت أنا البحر وأنت وقفت على الشاطئ عاقداً يديك على صدرك تشيّعني بنظراتك المملوءَة عطفاً ومحبّة، ولست أعلم ماذا كانت أفكارك في تلك الساعة. هل خشيت أن تعترضني الخيبة ويلازمني الشقاء، أم خشيت أن تموت فلا أعود أراك؟ لقد وقع ما كنت تحاذره. إذا وقفت غداً على ذلك الشاطئ ولم تكن هناك فماذا يعزيني؟ سأُقبّل تراباً وطئته قدماك، سأقف هناك أنظر إليك وأنت على الشاطئ الآخر، شاطئ الحياة الأبدية ولكن بعين دامية. . حلمت أني كنت في القدس. قمت صباحاً باكراً ولبست ثيابي ولم أستحمّ، ونزلت توّاً إلى نيويورك واشتريت في طريقي بعضاً من الحلواء وأكلتها في القارب، وذهبت إلى تلميذي فعلّمته ساعتين فدفع لي ريالين. رجعت إلى مطعم سوري حيث لقيت إلياس حيدر وتغديت، ثم رجعت إلى بروكلن فذهبت عند

الغسالة لأحضر ثيابي فلم أجدها ، فمشيت قليلاً قرب غرفتي القديمة ، فلقيت محمد عيسى الطوري الذي جاء إلى نيويورك قبل سنتين ونصف وتنصّر ، وتسمّى إبراهيم يوسف ، فأخذته إلى غرفتي وجلسنا نتحدّث عن القدس فسرني ما رأيته فيه من آثار الارتقاء ؛ يحسن اللغة الإنكليزية ويتكلم بلغة مدنية عربيّة ، ثيابه مهندمة نظيفة ، فذكّرته بأمّه وأثرت أشواقه إليها . ثمّ ذكرنا مستر متشل ومس مكنيل وكلّفته أن يكتب لهما ويذكر لهما أحوالي . بعد أن ذهب خرجت وتعشيت في مطعم أميركي . وأنا راجع لقيت ماري الخوري فمشيت معها قليلاً ثم أوصلتها إلى منزل أختها ، فشددت عليّ أن أدخل فامتنعت وتركتها ورجعت إلى غرفتي . وما كدت أجلس وراء طاولتي حتى هبّت عليّ عاصفة من الحزن ، فحملت صورة داود وجعلت أبكي . . وضعت اليوم في البريد رسالة الخواجا إلياس طرزي وفي طيّها رسالة إلى منانة . جاءني كارت من الخواجا عيسى الصقر فيه بعض أبيات من الشعر بحبر أحمر ، وقد كتب إلى الخواجا حنّا فرّاج أن في القدس أمراضاً مختلفة منها الجدري ، وأنهم وضعوا حجراً صحيّاً على الشريعة [على نهر الأردن] ، فجعلت أهدُّ وأبني . أي شقاء لم يحل بك يا قدسنا المحبوبة .

يوم الأحد الواقع في ٢٣ شباط غ/١٩٠٨

بينا أنا في فراشي إذ دخل عليّ الخواجا رفلة الحمصي فهببت من فراشي وأسرعت إلى صورة سلطانة ، وكانت على الطاولة أمامي ، ووضعتها بين الكتب ، ولكن لست أظنّ إلا أنه رآها . فأوّل حديث بدأ به أن عدم الزواج جنون ، لأنه لو كان متزوّجاً لأمسك يده عن التبذير هنا وهناك ، ولما خطر له أن يسافر . فقلت له : لماذا لا تتزوّج الآن ، فقال : قد مضى الوقت وفي كل حياتي الماضية لم يخطر لي الزواج إلاّ مرة حين رأيت إملي عبده . ثم جعلنا ننتقل في الحديث من موضوع إلى موضوع حتى جاء ذكر دروس قرينة الخواجا إلياس ملوك فقال : سيدفعون لك نصف ريال عن كل درس فلم أظهر له إلاّ الرضى وقلت في نفسي : كنت في القدس أنا الذي أُعيّن الأجرة فإذا قبلوا بها علّمت وإلاّ تركت ، واليوم هم يُعيّنون ما يشاؤون وأنا أقبل ، أليس هذا الذل بعينه؟ ثم أخذت منه ريالاً عن الدرسين اللذين علّمتها إياهما في الأسبوع الماضي ، وقبل أن يذهب قال : لم أسمعك تذكر نقولا عبده في حديثك ، ألم تطلب منه شيئاً؟ فخفت أن يكون يقصد التعريض بسلطانة ، فقلت له : لم يكن من سبب لذكره . ثمّ استحممت جيّداً ولبست ثيابي وذهبت وأفطرت في مطعم أميركي بخمسة عشر سنتاً ورجعت إلى غرفتي فعبّأت غليوني وجلست أكتب . دفعت ريالين ونصفاً إلى صاحبة المنزل أجرة غرفتي عن الأسبوع القادم . مرّ عليّ الآن أسبوع وأنا لا أكاد أخرج من غرفتي ولم يناطق فمي فم صاحبة المنزل فتذكرت أنس أهل بلادي ، تذكرت حين كنا ساكنين في دارنا خارج البلد كيف كانت أمّي تغلي قهوة للبنّاء وفَعَلَته [= عُمّاله] الذين كانوا يشتغلون أمام دارنا في الصباح وبعد الظهر ، وهذه المرأة وأنا ساكن عندها غريب وحيد بعيد عن كل مطعم لم تفتقدني يوماً بفنجان قهوة . بعد الظهر جاءَ الخواجا نعمة

الحاج ومحمد عيسى الطوريّ فجلسنا حول الطاولة وجعلنا نتجاذب أهداب الأحاديث إلى أن صارت الساعة الرابعة والنصف، فذهبت إلى مطعم أميركي وتعشّيت ثم رجعت إلى الغرفة ورجع معي الخواجا نعمة الحاج. وفي المساء مشينا قليلا على الثلج ثم ذهبت وسهرت عندهم إلى الساعة العاشرة فرجعت إلى غرفتي وكتبت رسالة إلى أُمّي وأُخرى إلى ميليا. أخذت من الخواجا نعمة الحاج ثلاثة أرباع الريال. نمت بعد نصف الليل.

يوم الاثنين في ٢٤ شباط غ/ ١٩٠٨

استحممت ولبست ثيابي وخرجت واشتريت قطعة حلواء ثم رجعت وأكلتها في غرفتي. ولما صارت الساعة العاشرة ذهبت وعلمت قرينة الخواجا ملوك ومن هناك ذهبت إلى نيويورك، فعرجت على محل الخواجات ملوك، فلقيت رسالة وكارتاً من مس سنكير. ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فعرجت على محل الخواجا حنّا حشمة، فلقيت رسالة من أخي يوسف وفيها رسالتان؛ الواحدة من أُمّي بخطّ أفتيم مشبك والأُخرى من سليم ابن عمّي بالإنكليزيّة يشكون من انقطاع رسائله عنهم، ويحثّونه على الصبر والاهتمام بصحته ويطمئنونه عن سلامتهم. وقد كتب إليّ يوسف أنه كان يتوقع أن يتمكن من إرسال بعض النقود إلى أُمّي فعكست آماله الظروف. ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فقال [فرح أنطون]: كنت أنتظرك أمس. كنت عند الخواجا سليم شحفة أعوده فطلب مني أن أُدبّر له واحداً يقرأ له ليُسلّيه ويصرف فكره عن المرض، فذكرتك له فسُرّ وأوصاني أن أراك وأبعث بك إليه. وقد خاطبني اليوم بالتلفون مرّتين، فقلت له: حسن، ولكن شعرت نفسي صغرت صغرت حتى صارت كحبّة سمسمة، أَإلى هذه الدرجة هنت على الناس حتى صرت مسلّياً للمرضى (وحكاواتيّاً)؟!. ولم أتمالك أن قلت لفرح أفندي بصوت خافت وقلب منسحق: لولا أني أحترم الخواجا شحفة وأشعر معه لما قبلت على نفسي هذا العمل. ثمّ أخذت بعض كتُب من عنده وذهبت إلى محل الخواجات عوض وخوري أنتظر محمد عيسى للغداء فلم يجئ، فاضطررت أن أذهب، بعد أن تركت له خبراً، إلى مطعم سوري وتغديت. لو كان هذا المطعم في القدس لما عرفت بابه ولو مت جوعاً، ولكن هنا أعض القذى وأقول للنفس إذا جشأت: مكانك. ثم ذهبت عند الخواجا شحفة فوجدته مصاباً بالفالج فعزيته وشجعته فاستأنس بي وارتاح إليّ، وجعلت تارةً أقرأ له وتارةً أُحدّثه بما عندي من الأخبار المختلفة، فكان تارةً تدمع عيناه وتارةً يبتسم، وقال: أطلب من الله أن يقدرني على مكافأتك. ثم رجعت إلى نيويورك وقد أعطاني فرح أفندي أنطون عنوان رجل أرمني يحب أن يتعلّم اللغة العربية، فأخذت إلياس حيدر وذهبت أفتّش عن محله فلم أجده. ثم ذهبنا إلى نيويورك فأخذت ثيابي من عند الغسّالة وجئت إلى غرفتي. ثم ذهبت لأتعشى فوجدت المطعم الأميركي مغلقاً فاشتريت بعض حلويات وتعشّيت، ولكن لم أكن أعرف كيف آكل. جاء الخواجا نعمة الحاج فعلمته.

يوم الثلاثاء في ٢٥ شباط غ/ ١٩٠٨

تـمـوت ولا أمـوت عـلـيـك حـزنـاً　　وحـقّ هـواك خـنـتُـكَ فـي هـواكـا
ويـا خـجـلـي إذا قـالـوا مـحـبٌّ　　ولـم أنـفَـعـك فـي خـطـب أتـاكـا

استحممت جيّداً من رأسي إلى قدمي بالصابون، ثمّ لبست ثيابي وذهبت إلى دار ملوك وأخذت منهم الكتاب الإنكليزي ورجعت إلى غرفتي لأحضر الدرس. ولما صارت الساعة العاشرة ذهبت وعلمت تلميذتي ومن هناك نزلت إلى نيويورك وذهبت وعلمت تلميذي، ورجعت إلى إدارة الجامعة فقال [فرح أنطون]: الخواجا شحفة، أرسل يستدعيك بالتلفون، فقلت: أنا ذاهبٌ إليه الساعة. التقيت بمحمد عيسى أو إبراهيم يوسف، فدعاني لتناول الغداء، وبعد الغداء، وكانت الساعة نحو الرابعة، رجعت إلى بروكلن أعود الخواجا شحفة فدخلت عليه، وكانت البنات يُرتّلن له ويعزفن على البيانو فجلست بجانبه وجعلت أُحادثه وقد رأيته أخذ يستردّ سروره ورجاءَه. وقبل الساعة السابعة رجعت إلى الغرفة وأضفت بعض كلمات إلى رسالتي أُمّي وأختي. ثم جاء محمد المذكور، وذهبت معه نزور سيّدة إنكليزية نسيبة للمرحوم مستر جين الذي مات في القدس، فوجدناهم على أهبّة الذهاب إلى الكنيسة فأحسنوا استقبالنا، وطلبت إليّ أن أزورهم يوم السبت القادم. ثم رجعنا إلى الغرفة وجلسنا نتحادث عن القدس، فرأيت منه أنه لا ينوي الرجوع خوفاً من العسكرية ومن أن يعيّر بسفره إلى البلاد المسيحيّة. وكنت ونحن نتحدّث أصعد الزفرات شوقاً إلى أيامي الماضية أيام كنت سعيداً لا أبالي إلاّ بصحتّي وطربي وسروري، وأسفاً على ما وصلت إليه. وماذا بقي لي في القدس إلاّ جثوة تراب. ومهما توفّرت لي أسباب السرور فإن موت داود لن يزال غصّة في صدري لا تساغ. وضعت مكتوبيّ أُمّي وأُختي في صندوق البريد. دفعت لي اليوم قرينة الخواجا إلياس ملوك ريالين فدفعت منهما واحدا إلى الخواجا رفلة بدل رياله الذي أخذته منه يوم الأحد الماضي. يا حبّذا ذلك اليوم الذي يفك أسري ويطلق سراحي فأرجع إلى القدس لأكون [قريباً] من قبرك يا داود لأزوره كل يوم وأهديه زهورا مبلّلة بدموعي.

يوم الأربعاء في ٢٦ شباط غ/١٩٠٨

وكـنـتـم وكـنـا كـالـبـنـان وكـفـهـا　　فـالـكـفُّ مـفـردةٌ بـغـيـر بـنـانِ
خـلـق الـسـرور لـمـعـشـر خَـلـقـوا لـهُ　　وخـلـقـت لـلـعـبـرات والأحـزانِ

دخل اليوم عليّ الخواجا رفلة وأنا لا أزال في فراشي وصورة سلطانة مركوزة بين الكتب تصيب عيني فقمت وأنزلتها بين الكتب. أحضر لي الكتاب الإنكليزي، ولما ذهب استحممت وأفطرت بعض قطع بسكوت وجلست وراء طاولتي أحضر درس قرينة الخواجا إلياس ملوك. ولما صارت الساعة العاشرة خرجت والسماء ماطرة. وبعد الدرس أمسكوا بي للغداء فتغديّت إلاّ أني لاحظت أنهم لم يكونوا يتركوننا

وحدنا أثناء الدرس، فتارة كان يدخل الخواجا رفلة وتارةً أخته، ولست أدري كيف أُفسّر ذلك، هل هو عن عدم ثقة بي أم بها. رجعت إلى الغرفة وكتبت رسالة إلى ابن خالتي يعقوب وأخرى إلى أخي يوسف وأخرى إلى الدكتور جمل، ثم خرجت فوضعت رسالة أخي ورسالة الدكتور في صندوق البريد، وذهبت عدت الخواجا شحفة فوجدته نائماً، فرجعت وفي طريقي اشتريت بعض دفاتر. وبعد أن أقمت في الغرفة نحو ساعة ذهبت مرّة ثانية إلى بيت الخواجا شحفة فجلست عنده إلى الساعة السادسة، ثم ذهبت وقصصت شعري وتعشيت ورجعت إلى الغرفة أنتظر الخواجا نعمة الحاج. خطر لي أن أستقرض منه بضعة ريالات لأرسلها إلى أمّي فلما جاء طلبت منه ذلك فوعدني أن يُدبّر شيئاً غداً أو بعد غد، لم أزل نهاري كلّه مكتئباً حزيناً يجول الدمع في مآقيّ، أتصوّر أُمّي تطوي نهارها بدون أكل، أتصوّر أخي يعقوب يتضوّر جوعاً، أتصوّر أختي التي كان رأسها يُناطح السحاب افتخاراً بي لا تجد من يفتقدها، بل أتصوّر أُمّي شاحبة الوجه حزينة، وأتصوّر يعقوب هرماً من هول هذه السنة، وأتصوّر ميليا التي كانت مثل الورد في أكمامه منكسة الرأس حزينة، أتصورهم بثياب رثة مقطّبة ألف قطبة [مرقّعة] فأغيب عن الوجود حزناً وأسى... لم يأخذ الخواجا نعمة درساً الليلة بل دعاني إلى منزله لأن عندهم أنطون زريق وأخاه وحافظ عبد الملك فذهبت. وما استقرّ بي المكان حتى أخذوا يتطاولون على فرح أفندي أنطون ويوسعونه سبّاً، فلم أرَ خيراً من السكوت إلا بعض كلمات كانت تخرج من فمي بالرغم عني. وقررت أن لا أجتمع بهم مرّة ثانية، لأنهم يعرفون أنه صديقي ومع ذلك فلا يحترمون إحساساتي.

يوم الخميس في ٢٧ شباط غ/١٩٠٨

وسالمتك الليالي فاغتررت بها — وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ
وفي السماء نجومٌ لا عِدادَ لها — وليس يخسف إلا الشمس والقمرُ

استحممت بالماء البارد من رأسي إلى قدمي ولبست ثيابي وخرجت لأفطر، ثمّ رجعت وجلست وراء الطاولة أُحضّر درس قرينة الخواجا إلياس ملوك. ولما كانت الساعة العاشرة ذهبت وعلمتها ثم رجعت إلى غرفتي وأضفت بعض كلمات إلى رسالة ابن خالتي، وكتبت رسالة إلى المعلم نخلة لم أزد فيها على قصيدتي العينيّة إلاّ بعض كلمات. ثم نزلت إلى نيويورك عن الجسر فخُيّل إليّ ونحن معلقون بين السماء والماء، والقطار يمرّ بنا كالبرق الخاطف والهواء يُصفّر من سرعة مروره أننا في منطاد أو أننا طيور، ولكن نطير على أجنحة الكهربائية. وكلما ركبت القطار المرتفع ومررت عن الجسر، لا آوي إلى عرباته، لعلّي أستنشق هواءً نقيّاً من روائح الغازات المختلفة ونثار دخان المعامل. ذهبت إلى محل الخواجات ملوك فوجدت كارتاً من سلطانتي فيه صورة القدس بسمائها الملونة وجبالها الزرقاء وقببها ومآذنها الفخيمة، فحننت إليها حنين

الرضيع إلى أُمّه، و[وجدت] رسالة من إدارة البوسطة تطلب مني أن أذهب وأقبض القيمة التي أرسلتها إليّ مس سنكير. ثم ذهبت وتغدّيت في مطعم سوري فدخل عليّ الخواجا عطا الله قطيني وكان من مدّة قد دفع عني ثمن فطور فدفعت عنه الآن ثمن غدائه. ثم مررت على إدارة الجامعة فجلست قليلا ومن هناك ذهبت إلى محل الخواجا نعمة تادرس أسأله عن عنوان ذلك الأرمني الذي يريد أن يتعلم اللغة العربية، فقال: إنه عدل عن ذلك، ولكنني أفتكر أن أبعث بك إلى محل لي في الداخلية فتشتغل في بيع السجّاد، فقلت: متى قررت فإني حاضر تحت أمرك. ثم مررت على محل الآنسة سعدى الحاج وأنا مسترخي الجسم ضيّق الصدر، ومن هناك رجعت إلى غرفتي. أمس حلمت أن عمّي مات فكنت أبكي مثل الأولاد الصغار وأناديه أبي أبي... جلست إلى طاولتي وكتبت رسالة إلى الخواجا بندلي الجوزي. ثم ذهبت وشربت كأساً من الشوكولاتا، وفي أثناء غيابي جاء الخواجا رفلة يحمل رسالة من مس سنكير.

يوم الجمعة في ٢٨ شباط غ/١٩٠٨

هدم الدهر عرشنا فتداعى فبُلينا إذ كلُّ عيش بال

حلمت أحلاماً مختلفة مخيفة منها: أننا كنا في احتفال أُلقيت فيه الخطب وعزفت الموسيقى، ولما خرجنا وجدنا أمام الباب جثثاً مخضبة بالدّماء. ثمّ حلمت أني رجعت إلى القدس فلم تطل بي الإقامة حتى عزمت على السفر، ولكن إلى شقة [وجهة] أبعد، ثم رأيت داود فكان كأنه قائم من الأموات أو قريب من اللحاق بهم فكدت أذوب إشفاقاً عليه، ومع نحوله وشدة اصفراره فإن جبهته العريضة اللامعة كانت حمراء يكاد ينبعث منها نور... استحممت ولبست ثيابي وخرجت للفطور وكان البرد شديداً تدمع له العيون. في أثناء غيابي جاء الخواجا رفلة فلم يجدني. فلما دخلت المنزل أخبرتني صاحبة المنزل بذلك ثم ناولتني بردقانة [برتقالة] صغيرة فأثنيت على كرمها. ذهبت علمت قرينة الخواجا الياس ملوك. أمسكوا بي على الغداء. بعد الغداء جئت أنا والخواجة رفلة إلى غرفتي. في الطريق قال لي: إذا كنت مولعاً بالقدس فلماذا تركتها؟ فخشيت أن يكون قد اطلع على حبنا. قرأ لي رسالة جاءته من الخواجا نخلة طرزي ذكر فيها موت داود واشتراك أهل القدس عموماً في الأسف عليه، ثم ذكر أن الخواجا شكري ديب خطب كاتينكو حنانيا ابنة أخت أفتيم مشبك. ولما صارت الساعة الثانية ذهبت لأعلم الدكتور نيس فوجدته مريضاً وكان ينوي أن لا يأخذ درساً، ولكن ما بدأنا في سرد الحكايات المضحكة مني ومنه حتى انتعش ونشط للدرس. أخذت منه ريالاً ونصفاً ثم نزلت إلى نيويورك. عرجت على إدارة الجامعة وبعد حديث قليل طلبت منه [فرح أنطون] أن يحث أصدقاءه من السوريين على تعليم أولادهم اللغة العربية، فوعد أن يفعل ذلك في القريب العاجل، ثم قال: أريد أن أتعلم اللغة الإنكليزية فاقترحت عليه أن أعلمه، فقال: ربما بدأنا من الأسبوع القادم. ذهبت إلى محل الآنسة سعدى الحاج فوجدت كارتاً من أخي يوسف جواباً على رسالتي الأخيرة ولكنه لا يذكر شيئاً عن شغله، ولا عما إذا كان يقدر أن يرسل بعض النقود لأمه، فابتأست. ذهبت إلى مطعم سوري وتعشيت ثم

رجعت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي أقرأ جريدة إنكليزية، ثم حضرت درس قرينة الخواجا ملوك.

يوم السبت ٢٩ شباط غ سنة ١٩٠٨

رمـانـي الـدهـر بـالأرزاء حـتـى ... فـؤادي فـي غـشـاء مـن نـبـال
فـصـرت إذا أصـابـتـنـي سـهـامٌ ... تـكـسـرت الـنـصـالُ عـلـى الـنـصـالَ

حلمت أني رجعت إلى القدس، وكنت لابساً البرنيطة على الغنباز [=القمباز] فاستحييت بها فنزعتها ومشيت بدونها، وكان النهار حاراً، مررت من وسط العمارة الروسية من أمام القنصلاتو [= القنصلية]، ونزلت من الطريق الجديدة بين دار الحلبي ودار فيضي أفندي العلمي، وما وصلت آخر هذه الطريق حتى رأيت نفسي حافياً بدون غنباز وعليّ عباءة بيضاء، فاعترضتني جارية سوداء وقالت: ماذا تريد؟ فقلت: أريد أن أذهب إلى دارنا، فأشارت إلى سياج وقالت: ثب من فوقه فوثبت فعلقت عباءتي بالشوك فتعبت في تخليصها.. استحممت ولبست ثيابي وخرجت مسرعاً فمررت في طريقي على مطعم أميركي، فشربت فنجان قهوة مع قطعة خبز وذهبت وعلمت تلميذي، وطلب إليّ أن أذهب عنده يوم الأربعاء القادم لأساعده في درس جغرافية القدس، لأنه يتفحص فيها. ثم رجعت إلى محل الخواجات ملوك فوجدت رسالتين من أختي ميليا، في إحداهما رسالة من أمّي وقد راعني ما ذكرته أختي من أن أخي يعقوب لا يزال يتألم من رجله، وأنه لا يستطيع الركوب وأن أكثر الأطباء قطعوا الأمل من شفاء رجله، وأن فلاحاً من بيت لحم يعالجها. كيف أطمع في الصبر بعد كل هذا... جاءتني رسالة أخرى من بولس غبرائيل أحد تلامذتي القدماء. كنت وعدت السيدة قرينة الخواجا الياس ملوك أن أعطيها درساً اليوم، ولكنني تأخرت فذهبت واعتذرت. رجعت إلى غرفتي وبعد أن أقمت قليلاً أقرأ في جريدة إنكليزية ذهبت وحلقت وشربت كأس شوكولاتا، ثم رجعت وجلست وراء طاولتي أكتب وقائعي وأتأمل في هذه السنة السوداء... ثم ابتدأت أكتب إلى أمي فهاجني الحزن فخنقتني العبرات. أسندت رأسي إلى الحائط وجعلت أسكب الدمع مدراراً، وخيّل إليّ أن غرفتي تكاد تأكلني. دخل عليّ الياس حيدر فخرجت معه واشتريت معه بعض حلواء وأكلنا ثم رجعنا إلى الغرفة، أعطيته ريالاً ليشتري لي موسى للحلاقة، ثم جاء الخواجا نعمة الحاج فسهرنا إلى الساعة الثانية عشرة تنقلنا في الحديث والحديث ذو شجون، إلى أن ذكرت لهم أيام صغري وولعي بالصيد واعتنائي بصحتي واهتمامي بقوتي، رحم الله تلك الأيام.

يوم الأحد في أول آذار غ سنة ١٩٠٨

ذكـرت فـراقـاً والـفـراق يـصـدّع ... وأي حـيـاة بـعـد مـوتـك تـنـفـع
إذا الـزمـن الـغـرار فـرق بـيـنـنـا ... فمالي في طـيـب من العيش مطـمـع

حلمت أن الهواء الأصفر يفتك بالقدس فتكاً ذريعاً، فارتعت لذلك أي ارتياع. استحممت وغيّرت ثيابي التحتانية ثم خرجت قبيل الظهر وأفطرت ورجعت إلى غرفتي، وكتبت رسالة إلى أمي وأخرى إلى سلطانتي. بعد الظهر جاء الخواجا رفلة وشدّد عليّ أن أذهب معه نزور الخواجا نعمة تادرس، فذهبنا وكان الثلج قد غطى الأرض، ولما دخلنا استقبلتنا قرينته وارتاحت إلينا بأنسها وهشاشتها، ثم جاء الخواجا نعمة ومعه فرح أفندي أنطون، ولما قمنا لنذهب أمسكوا بي للعشاء واعتذر الخواجا رفلة فذهب. وبعد العشاء جلسنا قليلاً وتحادثنا في مواضيع مختلفة وقد لقيت منهم كل إكرام. ثم ذهبت مع فرح أفندي أنطون وزرنا الخواجا سليم شحفة. قال فرح أفندي: إنه ينوي أن يذهب إلى الداخلية مدة أربعة أشهر ترويحاً للنفس، وسيعهد بجريدته إلى الخواجا نقولا الحداد وإليّ، فقال له الخواجا سليم شحفة: أحسدك على هذين الصديقين. فهمت من قرينة الخواجا نعمة تادرس أنها ستبعث إليّ تلميذين، وأنها ستطلب من سلفها أن يعلم أولاده اللغة العربيّة فاستبشرت خيراً. رجعت إلى غرفتي وأضفت بعض كلمات إلى رسالة سلطانة، ونسخت رسالة الخواجا بندلي الجوزي مرة ثانية، وأضفت إليها بعض جُمَل. إن صحت آمالي فإني ناجح في هذه البلاد إن شاء الله. ولست بتارك اللغة الإنكليزية حتى إذا رجعت إلى بلادي نفعتني هناك، ولكن لا يهمني الآن إلا أن تردني أخبارطيبة من القدس.

نيويورك الأحد ١٩٠٨/٣/١ [رسالة]

سلطانتي

أخذت رسالتك العزيزة بعد طول الانتظار، فنزلت على قلبي الملتهب حزناً، برداً وسلاماً.

أقرأها كل يوم، وأستشف من خلال سطورها وجهك الباسم، وقلبك الرقيق ومحبتك الصادقة.

انظري إلى الشمس والقمر فهما رسولاي إليك، واسمعي زقزقة العصافير فهي ندائي، واستنشقي الأرج الطيب فهو سلامي.

وأما صورتك بزي فلاحة فلسطينية فإني أحبها جداً، فإذا تكسرت زجاجتها فدعي ملتياوي يسحب لك صورة أخرى عن الأصل، وإلا فتصوري مرة ثانية بذلك الزيّ الجميل، أحبّ تلك الصورة لأنها أول هدية منك، ولأن داود سرّ بها كثيراً.

أما كلامك عن رواية «التعيس» فقد أثار أشجاني، نعم أذكر كل تلك المواقف التي أشرت إليها، أذكر اجتماع ايزيلدا واغوير لأول مرة، وأذكر موت ذلك الصديق الحميم حيث كتبت على الحاشية «أؤمن بالصداقة، أؤمن بالصداقة» ولم أكن أعني حين كتبت تلك العبارة إلا صداقة داود.

إن هذا الموت لا يستطيع أن يمدّ يده إلى صداقتنا، ولو مدّ يده إلى حياة كل منا.

الحياة فانية ولكن الصداقة باقية.

إذا كانت حياة كل محبين تنتهي كما انتهت حياة اغوير وايزيلدا فكل المحبين بائسون أشقياء، وربما كانوا سعداء! فإن في المسألة نظر!! فما رأيك؟.

على أني لم أتمالك أن قلت: «آمين» حين قرأت دعاءك إذ قلتِ: ربي لا تتعس محباً كتعاسة اغو وايزيلدا.

سرني جداً إقبالك على درس التاريخ والموسيقى، كأنّ الله أراد أن يجعلك موسيقى حياتي بعد أن أبكم صوت كمنجتي، وتقطعت أوتار قلبي.

طمئني امرأة المطران عني واشكري لها اهتمامها بي وسؤالها عني.

إذا اهتمت أختي مرة ثانية برسائلي إليك، أفلا تستحسنين أن تطلعيها على حبنا لعلها تسرّ؟ أترك هذه المسألة لك.

كتبت لها في الأسبوع الماضي رسالة أتغزل بجمالها فاطلبيها منها، وإذا خشيت أن تطلب رسائلك منك فانتظري فلست أشك أنها باعثة بها إليك، وقد كنت أنوي أن أتغزل بكما فيها، لولا خوفي أن تقع في يد أحد، أو أن تكوني لا تستحسنين اطلاعها على حبنا الآن، فإذا قرأتها فاعلمي أنك أنت أيضاً معنية بكل ما جاء فيها.

وردتني صورتك وصورة يوسف، لم أفتحها في محل السادة ملوك، بل حملتها وذهبت إلى غرفتي، وكدت أمد يدي وأنا في الطريق إلى جيبي لأفتحها وأراها. ولما وصلت فتحتها ورأيت ذلك الوجه المشرق، وذلك المبسم الحلو وتينك العينين اللتين لم يقع نظري على أجمل منهما. أما قامتك فكأنها غصن بان يحمل ورداً، وأما شعرك فكأنه إكليل، وأما ملامحك فتدل على قلب لم يحو صدر فتاة قلباً مثله.

لا عجب إن كنت موضع إعجاب الجميع، لا عجب إن كنت فتنة للناظرين، لم يرك أحد إلا أعجب بجمالك وأثنى على كمالك، ولست أشك أن الناس إذا عرفوا صلتي بك غبطوني. ومنذ أخذت صورتك لا أجلس إلى طاولتي إلا وضعتها أمامي، فإذا دق جرس الباب أسرعت ووضعتها في جرّار الطاولة، وحين أنام أضعها نصب عينيّ حتى إذا استيقظت في الصباح، كانت أول ما يقع عليه نظري. وفي ذات يوم وأنا لا أزال نائماً، دخل عليّ السيد رفلة [الحمصي] فهببت من فراشي وأسرعت الى الصورة وأخفيتها بين الكتب، ولكن لا أظن إلا أنه رآها، فأول حديث بدأ به الزواج، فقال: لو كنت متزوجاً لما غررت بنفسي وجئت إلى هذه البلاد.

فقلت له: لماذا لا تتزوج؟

قال: قد مضى الوقت، وفي كل حياتي لم يخطر لي الزواج في بال، إلا حين رأيت إملي عبده.

ثم انتقلنا في الحديث من موضوع إلى آخر، وقبل أن يذهب قال:

لم أسمعك تذكر السيد نقولا عبده (أبي أباك) ألم تطلب منه شيئاً؟ فخشيت أن يكون يقصد التعريض بك.

فقلت له: لم يكن من سبب لذكره.

وبعد بضعة أيام دخل عليّ أيضاً بغتة، وكانت الصورة مركوزة بين الكتب، فقمت حالاً وأخفيتها، وإذا كنت أحادثه في عصر ذلك النهار عن القدس أتشوقها، قال:

إذا كنت مولعاً بالقدس فلماذا تركتها؟.

فصرت من ذلك الحين أتجنب ذكر القدس أمامه.

سمعت أن كاتينكو حنانيا خطبها شكري ديب، فإذا رأيتهما ماشيين معاً مسرورين، فاذكري أن خليلاً يشتاق أن نمشي معاً جنباً إلى جنب.

لو كنت يا سلطانة في القدس لما انقطعت زيارتي عنك يوماً، لسعيت إليك على رأسي وعيني، وما كنت أعدم حيلة لأزورك، لعلي كنت أقترح عليك أن أعلمك الصرف والنحو، وأدربك على أصول التعليم، ولست أظن أنك كنت ترفضين. وإذا جئت إلى البيت في أيام العطلة، زرت ابنة عمي بحجة أن أشرب عندها نارجيلة.

نعم يا عزيزتي إن يوم ارتاس لن يرجع إلى الأبد، وما حييت فلن أنسى داود، ومتى رجعت زرنا قبره معاً وبللناه بدموعنا.

اكتبي يا سلطانة في كل أسبوع، وإذا لم تكتبي إلا شفقة عليّ لكفى، واسلمي ثم اسلمي.

خليل

حاشية: أوصي ابنة عمي بيوسف، واقرأي أنت عن تربية الأولاد وارشدي ابنة عمي إلى الأصول اللازمة، فإن يوسف وحبّنا توأمان ولدا في سنة واحدة.

يوم الاثنين في ٢ آذار سنة ١٩٠٨

يا دهر يا منجز إيعاده ومخلف المأمول من وعده
أيّ جديد لك لم تُبْلِه وأي أقرانك لم تُردِه

أخذت ريالاً من الخواجا نعمة الحاج، ونصف ريال من الياس حيدر، ودفعت أجرة الغرفة.

استحممت وخرجت فاشتريت بعض حلواء ورجعت إلى غرفتي، ولما صارت الساعة العاشرة ذهبت وعلمت قرينة الخواجا ملوك، دفعت إليّ ريالين، أمسكوا بي للغداء فاعتذرت ورجعت إلى غرفتي والضباب يكاد يحجب طريقي. جلست إلى طاولتي وكتبت بعض كلمات على كارتين، الواحد إلى سلطانة والآخر إلى ميليا، ثم نزلت إلى نيويورك. في طريقي عرجت على محل الأرمني الذي يريد أن يتعلم اللغة العربية فلم

أجده، فنزلت إلى محل الخواجات ملوك آملاً أن أجد رسائل فلم أجد شيئاً فجزعت. ثم ذهبت إلى مطعم سوري فتغديت وبعد الغداء عرجت على إدارة الجامعة فجلست إلى فرح أفندي نتجاذب أهداب الأحاديث. أطلعني على رسالتين من الداخلية، في الواحدة يحثونه على منازلة الجرائد لأن ذلك يهم القرّاء، وفي الأخرى يجلونه عن أن يعير تلك الجرائد أقل اهتمام، فلم أتمالك أن قلت له: تباً لعيش الكتبة، فقال: تبّاً للأمة التي تقتل الكتبة المجيدين قتلاً. إن موقفه حرج جداً وقد بدت عليه آثار التعب والضجر، ولست أشك أنه ندم على مجيئه إلى هذه البلاد. ثم تركته وجئت إلى محل الآنسة سعدى، فأخذت الياس وجئنا إلى بروكلين، فمررت على ذلك الأرمني مرة ثانية فلم أجده، ثم جئت إلى غرفتي فتعشيت في مطعم أميركي. كنت أنتظر الخواجا نعمة الحاج للدرس فجاءه ضيوف فامتنع وأجلنا الدرس إلى الغد، فجلست أكتب مقالة لفرح أفندي، وما كدت أكتب بضعة أسطر حتى جاء الخواجا رفلة الحمصي فقال: أرجو أن تكون مبسوطاً في غرفتك هذه، فما ذكر هذا حتى اغرورقت عيناي بالدموع، وقلت له: لو كنت صخراً لذبت ولو غَنيتُ وحالفتني السعادة لما نسيت داود، ثم كيف يهدأ بالي وأنت ترى أن القدس تفتك بها الأمراض المختلفة، وأن لي فيها من الأهل والأقارب والأصدقاء جيشاً كبيراً لا آمن أن يعدو المرض على أحدهم؟ ثم غيّرنا الموضوع، قال: إن الخواجا سمعان سلامة له خاطر في روز ابنة أخته، وقال: وأما أنت أفليس لك علاقة بأحد؟ فسكت، ثم قلت له: لو لم يمت داود لكنت سعيداً.

يوم الثلاثاء الواقع في ٣ آذار سنة ١٩٠٨

أبت عيناي بعدك أن تكفّا كأن قذى القتاد لها شفارُ

استحممت وخرجت وأفطرت خبزاً وقهوة، ورجعت إلى الغرفة فوجدت الخواجا رفلة خارجاً من باب المنزل، إذ سأل عني فلم يجدني فدخل معي وجلس قليلاً وأخذ دفتراً نسيه أمس، ثم ذهب، وجلست أحضر درس قرينة الخواجا ملوك. ولما صارت الساعة العاشرة ذهبت وعلمتها. الطقس جميل والطريق كأنها مغسولة وهي في ارتفاعها وخلوها من الترامات والقطارات تشبه الطريق الواقعة بين مستشفى الإنكليز والألمان في القدس. ولكن من أين لهذه الطريق مثل سماء القدس؟ لا يشوّه القدس إلا أقذار اليهود التي ينشأ عنها أمراض مختلفة. نزلت إلى نيويورك عن الجسر فذهبت تواً إلى محل الخواجات ملوك فلقيت الخواجا رفلة الحمصي فأخذني إلى جانب وأخذ يحادثني، ومن جملة حديثه أن إبنيّ أخته سليم والياس لا بد أن يتفاسخا، وأن سليم قال: إنه سيحتاج إليك، فتوكأ الآن على دروسك إلى أن يحين الوقت. ثم ذهب عند الخواجا سوتيري لامبروس ليتفاوض معه في الدخول معه مثل شريك. وجئت أنا إلى إدارة الجامعة، فلقيت هناك الخواجا الياس أنطون فتعرفت به، وجلسنا حصة من الزمان نتحادث عن الجامعة وخطتها ومعارضة الجرائد لها فخطر لي أن أكتب شيئاً في ذلك. ثم ذهبت وتغديت في مطعم سوري وحلقت. لقيت في

طريقي أخا المعلمة ڤيكتوريا طنوس فقال: ورده مكتوب يقولون فيه: إن الهواء الأصفر دخل القدس فغارت الأرض تحت أقدامي، وجرى الدم بارداً في عروقي. كيف لا أخشى وقد خلفت ورائي جيشاً من الصغار والكبار من الأهل والأصدقاء، فكيف آمن أن لا يغتال هذا المرض بعضاً منهم، وماذا تكون حالي حينئذ؟ ثم جئت إلى بروكلن عن الجسر أيضاً وكان في المحطة ازدحام هائل لم أرَ مثله في حياتي؛ كان في القطار الذي ركبت فيه نحو ثماني مئة نفس لا يستطيع الواحد أن يتحرك من فرط الزحام. جئت إلى غرفتي فكتبت مقالة للجامعة ولبثت أنتظر الخواجا نعمة الحاج فلم يجئ، فلبست وذهبت عنده، فلقيت حافظ عبد الملك وأنطون زريق وأخاه وبعض أشخاص آخرين فسهرنا إلى نصف الليل، ثم رجعت إلى غرفتي وكتبت وقائعي.

يوم الأربعاء في ٤ آذار سنة ١٩٠٨

لا رفيق ولا سمير يؤاسيني سوى الدمع والجوى والسهادِ
أشتكي لوعتي فلا يسمع الشكوى سوى ما يحيط بي من جمادِ

رواية ابن الشَعب

حلمت أني كنت في القدس، رأيت داود ورأيت أمي وأختي مع نساء أُخر راجعات من صهيون. لم يبقَ أحد حتى رأيته. مَن لي بمن يعرفني كيف حالك اليوم يا عائلتي المحبوبة. لعلك في ضيق. لعلك في عذاب من مرض لا تعرفين كيف تتقينه.. استحممت، وذهبت علمت قرينة الخواجا ملوك، ثم نزلت إلى نيويورك: عرجت على إدارة الجامعة وعرضت عليه [فرح أنطون] مقالتي فأحب مني أن أنشرها في جريدة أخرى لأن فيها ثناء على الجامعة. أخذت جريدة الوفاء وفيها مقالة عن طائفة الروم الأرثوذكس فيها تقريع لوجوه الطائفة لعلها من قلم عيسى الطبة. أخذت رسالة من أخي يوسف فيها شِك بأربعة ريالات لأرسلها لأمي. ذهبت لأعلم تلميذي وكان درسنا عن القدس. وجدت لذة عظيمة في الدرس. رأيت صور القدس فخلت نفسي فيها، وكنت كلما رأيت صورة من صورها خفق لها قلبي، أثنيت كثيراً على الأميركان في القدس.. رجعت، وقد دفع لي ريالين. تغديت في مطعم سوري، أو بالأحرى تعشيت ثم زرت الجامعة حدثته بليلتنا أمس. أريته غلطة في مجلة الجامعة في جزئها الأخير. ثم ذهبت إلى محل الآنسة سعدى الحاج. رجعت مع الياس حيدر إلى بروكلن لقيت يوسف السلفيتي ونقولا البرغوت وكان الأخير شارباً [= سكراناً]. مررت على محل الأرمني فلم أجده. جئت إلى غرفتي، جلست وراء طاولتي وجعلت أكتب وأنتظر الخواجا نعمة الحاج للدرس فلم يجئ، ولما صارت الساعة التاسعة جاء مع شخص آخر فجلسنا وتكلمنا عن حياة المدرسة إلى الساعة الحادية عشرة، ثم ذهبا، فجلست إلى طاولتي وحضرت درس قرينة الخواجا ملوك وكتبت وقائعي. لم أزل نهاري كله منكمشاً جزعاً على عائلتي عسى أن آخذ غداً منهم رسائل يكون فيها ما يطمئنني عنهم قليلا إن شاء الله.

يوم الخميس في ٥ آذار سنة ١٩٠٨

هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطشي وفتكي
فلا يغرركم مني ابتسام فقولي مضحك والفعل مُبْكِ

حلمت أني رأيت رسم [= صورة] متري ابن خالتي ثم رسم العائلة كلها. استحممت وخرجت فأفطرت خبزاً وقهوة، ثم ذهبت علمت قرينة الخواجا ملوك. بعد الدرس قدموا لي صحن أرز بحليب وصحن غريبة. قال لي الخواجا رفلة: إن سليم ابن أخته قال له أمس: إنه يحتاجني حين ينفصل عن أخيه، فقلت له: يسرني أن أشتغل معه للطفه وكرم أخلاقه. دفعت للخواجا رفلة خمسة ريالات فأعطاني بها حوالة على صهره الخواجا متري سلامة ليدفعها لابن خالتي يعقوب فيسلمها لأمي. ثم رجعت إلى غرفتي فكتبت رسالة إلى أخي يوسف، وأضفتُ بعض كلمات إلى رسالة ابن خالتي ثم مررت على الخواجا رفلة فنزلنا معاً في القطار المرتفع، ولما وصلنا الجسر نزلنا من القطار ومشينا على الجسر، لا شك أنه عجيبة الدهر! ذهبت إلى محل الخواجات ملوك فوجدت أربع رسائل من بلاد الإنكليز؛ ثلاثاً من مس سنكير وواحدة من أختها. أرجعت لي مس سنكير الخمسة شلنات، وقالت: بما أنها قد صارت مسحوبة على بوسطة نيويورك فاقبضها وادفعها لفقير. وقد ظهر لي أنها استاءت من رسائلي الأخيرة. ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فوجدت الخواجا نعمة تادرس والخواجا الياس أنطون ابن عم فرح أفندي يحثّانه على الامتزاج بالجالية السوريّة والتقرب منهم لمصلحة مجلته وجريدته وهو يؤثر الانفراد والابتعاد. ولما ذهبا قلت له: يسوؤني جداً ما أرى من مقاومة بعض الجرائد للجامعة، وأعجب كيف يكون بين السوريين من ينكر فضلها. واستسمحته أن أكتب بعض مقالات في بيان فضلها ومقامها بين المجلات والجرائد، وقلت له: قد تعرفت بحكم الطبيعة ببعض السوريين وسأتعرف بأكثر وسأكون إعلاناً حيّاً عنها، فشكرني على ذلك ثم قال: عزم صاحب مطبعة على إنشاء مجلة فكاهيّة، وهو يحتاج إلى كاتب وقد افتكرت بك، فقلت له: أنا مستعد لكل ما تنتدبني إليه. ثم خرجنا ومشينا على شاطئ النهر وأخذ يحدثني عن مناظرته لمحمد عبده، ثم ذهبنا إلى مطعم سوري، فتعشى، ثم ذهبنا إلى تياترو [= مسرح] معاً إلى الساعة العاشرة، ولما خرجنا قلت له: ستكون هذه المرة الأولى والأخيرة، ثم تركته ورحت إلى غرفتي فكتبت وقائعي وجعلت أحضر درس قرينة الخواجا ملوك.

يوم الجمعة الواقع في ٦ آذار سنة ١٩٠٨

ولسنا بأحيا منهم غير أننا فقولي مضحكٌ والفعل مُبْكِ

استحممت ثم خرجت فأفطرت. وكانت الأرض مغطاة بالثلج. ورجعت إلى غرفتي ولما صارت الساعة العاشرة ذهبت وعلمت قرينة الخواجا ملوك، ثم ذهبت فحلقت واشتريت بعض حلواء فأكلت وجلست

وراء طاولتي فكتبت رسالة إلى مس سنكير، ثم ذهبت وعلمت الدكتور نيس، وقد كان في نيتي أن أنزل من هناك إلى نيويورك، ولكن إذ فات الوقت رجعت إلى غرفتي، في طريقي دخلت إلى مطعم يوناني وتعشيت. وبينا أنا جالس في غرفتي أقرأ، إذ دخل عليّ الدكتور نجيب جمل وقال: أنا نائم عندك الليلة، فجلسنا حول الطاولة وجعلنا نتحادث ونتشاكى فقال: أودعت في أحد المصارف هنا ثلاث مئة ريال، واليوم سمعت أنه على وشك السقوط، ثم جعل يجدف على السماء والأرض. قرأ لي رسالة وردته من حبيبته، وقال: تحدثني نفسي أن أتزوج قريباً وأرجع إلى القدس فإن مشيةً على طريق جبل الزيتون تسوى كل نيويورك، ولكن الذي يحجم بي عن الذهاب هو الشغل، فإذا تأكدت أني أشتغل هناك ذهبت حالاً. فقلت له: متى ذهبت أكتب عدة رسائل إلى أصدقائي من مسلمين ومسيحيين على اختلاف طوائفهم، أحثهم على الاعتماد عليك. سألته كيف يراني، فقال: وجهك حسن ولكن جسمك أرق مما أعهده، فقلت له: لا عجب فإن الحزن واضطراب الفكر وشده البال حمّى متصلة تأكل من جسدي كل يوم، ثم جعلنا ننتقل في الحديث من موضوع إلى موضوع بحيث لم نترك شيئاً عن القدس إلا ذكرناه. قال: سلطانة عبده، ألا تريد أن تتزوج؟ فقلت له الظاهر: إنه لم يحن الوقت بعد، فقال: لو أعرف أنها ترضاني زوجاً لها لكتبت إلى حبيبتي هنا وقطعت علائقي معها، فقلت له: تصور ماذا يكون حالها إذ أبلغتها ذلك. فقال: نعم ولذلك فإني لا أتركها، ثم ذكرنا شبلي، فقال: صار عنده الآن نحو سبع مئة ليرة إنكليزية، فجعلت أقابل بيني وبينه، أنا تغربت وهو مقيم في وسط سعادته، أنا مديون بمبلغ كبير وهو صاحب ثروة. ماذا أفادني إخلاصي وسعيي وتمسكي بمبدأي. نمنا الساعة الواحدة بعد نصف الليل.

يوم السبت الواقع في ٧ آذار سنة ١٩٠٨

وخير عمري الذي ولى وقد عبثت به الهموم فماذا الظنّ بالباقي

قمت الساعة الثامنة والدكتور نجيب جمل لا يزال نائماً. حلمت أني كنت في القدس وأني كنت راجعاً معكِ في المساء إلى دارنا في البلد، فلما قربنا [من] الباب رأيت باب جيراننا مفتوحاً، ولما دخلنا قبّلتك. استحممت جيداً ولبست، فقام الدكتور واستحم وخرجنا، فذهب هو يزور بعض أصدقائه، وذهبت أنا إلى مطعم وأفطرت، ومن هناك ذهبت وعلمت تلميذتي فدفعت إليّ ريالين ونصفاً، وقبل أن أنصرف دعتني أخت الخواجا رفلة للغداء عندهم غداً لأنه مرفع [كذا] فاعتذرت وخرجت من هناك محزون النفس مكروب الصدر يئساً قانطاً من الحياة. الطقس جميل. رجعت إلى غرفتي فدفعت إلى صاحبة المنزل أجرة الغرفة عن الأسبوع القادم وجلست وراء طاولتي أدخن وأكتب. ذهب العمر ضياعاً ولم يكن نصيبي فيه إلا الشقاء. نزلت إلى نيويورك فذهبت إلى إدارة البوسطة فقبضت ١٢٢ سنتاً القيمة التي أرسلتها إليّ مس سنكير، ووضعت ست رسائل إلى أمي وسلطانة ويعقوب وفيها رسالة إلى أستاذي المعلم نخلة وحوالة

بخمسة ريالات لأمي، ورسالة إلى بندلي الجوزي، وأخرى إلى مس سنكير، وأخرى إلى أخي يوسف وكارتين؛ الواحد إلى أختي والآخر إلى سلطانة، ثم مشيت إلى محل الخواجات ملوك كاسف البال متضائل النفس مطرق الرأس، فلقيني عند الباب الخواجا رفلة، فقال: لم يجئك شيء، فشعرت أن أنفاسي كادت تتلاشى. ذهبت إلى إدارة الجامعة وجلسنا ننتظر صدور الجامعة الجريدة، وإذا بالخواجا الأرمني الذي يريد أن يتعلم اللغة العربيّة قد دخل علينا، فعرفني به فرح أفندي. اتفقنا أن نبدأ الدرس مساء يوم الاثنين القادم. بعد قليل جاءت الجامعة وفيها مقالة شديدة اللهجة عن المرآة والهدى فقلت له: لا بأس من ذلك إذا كانت الأحوال تضطرك إليه، وإلا فالسكوت هو عبارة عن الاستسلام لليأس. وبمناسبة هذا الكلام شعرت بشيء من النشاط فقلت لفرح أفندي: أن المبادئ الجميلة والآداب الغضة كثيراً ما تكون ضعفاً. ثم زرت الخواجا سليم ملوك فجلس إليّ، وقال: بعد قليل انفصل عن أخي وأنا في احتياج إليك. ثم رجعت إلى إدارة الجامعة فخرجنا ومشينا على شاطئ النهر ثم ذهبنا إلى مطعم سوري نتعشى، ثم مشيت معه [فرح أنطون] فقال: في نيتي أن أصدر الجريدة مرتين في الأسبوع، فعرضت عليه أن أساعده. في المساء جاء الخواجا فؤاد زريق وسهر عندي إلى نصف الليل، وما قام حتى ارتميت على فراشي كالقتيل.

يوم الأحد في ٨ آذار غ سنة ١٩٠٨

فقدت حبيباً وابتليت بغربة   وحسبك من هذين أمران مرّان

دخل عليّ الخواجا رفلة وأنا لا أزال في فراشي، فجلس إليّ وجعل يقرأ لي رسائل أخيه إليه، إنه اشترى قطع أراض سيكون لها مستقبل حسن، وقد حثه فيها على الرجوع إلى القدس. ثم ذكرنا جورجي زخريا فقال: ربما لم يقع عليه الانتخاب هذه السنة، ولكن مَن من الطائفة[٢٠] يليق بهذا المركز؟ فخطر لي أن ألمّ قليلاً بالأحكام والقوانين، حتى إذا رجعت إلى القدس سعيت للحصول على مثل هذا المركز. ثم قال: أختي تدعوك اليوم للغداء وهي لا تقبل لك عذراً. ولما ذهب قمت فاستحممت وخرجت فأفطرت وكان في نيّتي أن أحلق فوجدت المحلقة ملآنة، فرجعت إلى غرفتي وجلست إلى طاولتي فنظرت إلى رسم داود فهاجني الحزن وجعلت أبكي وأنتحب حتى تقرحت أجفاني. لتنسني يميني إن نسيتك يا داود، وليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك.. وقبيل الظهر خرجت وأثر الدموع في جفنيّ، فمسحت حذائي ومشيت إلى منزل الخواجات ملوك، وبعد أن جلسنا قليلاً أعدّت مائدة الطعام فقمنا وأكلنا، وبعد الأكل جلسوا يلعبون الطاولة، وجلست أنظر في ديوان بهاء الدين زهير بالإنكليزية، ثم ذهب بعضهم في زيارة فاستأذنت ورجعت. لقيت في طريقي الياس حيدر فجاء معي إلى غرفتي وما جلسنا قليلاً حتى أحسست بصداع

(٢٠) الطائفة العربية الارثوذكسية في القدس.

واسترخاء، فلم أجد خيراً من الانضواء إلى الفراش، فذهب الياس ونمت، وحلمت أني كنت في القدس وأن عدداً كبيراً من السياح الإنكليز نزلوا في احتفال كبير يرتلون إلى كنيسة القيامة من أمام دار خالتي نستاس. قمت نشيطاً كأن جسمي كان فارغاً قبل النوم فامتلأ، فحننت إلى أيامي في القدس حين كنت أنام نحو ساعة كل يوم بعد الغداء استدامةً لنشاطي وحفظاً لشبابي، ثم ذهبت مع الياس حيدر إلى المطعم اليوناني وتعشيت. هموم كثيرة وأحزان شديدة تتنازعني بحيث لم تعد حياتي إلا سيراً في سبيل الفناء. وقد أحسست أن القضاء قادني في هوة لا تستبل نفس مَن فيها هوى.. جاء فرح أفندي أنطون إلى مجلسنا قليلاً، ثم أخذني إلى منزل الخواجا أنطونيوس تادرس وسهرنا هناك. يسكن في منزل بناه حديثاً على طراز جميل وفرشه بأفخر الرياش، وقد جعل في بعض غرفه بلياردو. كل يوم تزداد العلائق بيني وبين فرح أفندي وثوقاً وتمكناً.

يوم الاثنين في ٩ آذار سنة ١٩٠٨

الناس للموت كخيل الطراد ... السابق السابق منها الجواد
والدهر نَقّادٌ على كفه ... جواهرٌ يختار منها الجياد

حلمت أن صار إكليل[٢١] ابن خالتي يعقوب على الآنسة نايفة ولم يحضر الإكليل إلا أبواه وأبواها وأنا. ونحن وقوف تذكرت داود فصرت أبكي. قمت متأخراً لأني قلقت في نومي فاستحممت وخرجت واشتريت بعض قطع من الحلواء، ورجعت حالاً إلى غرفتي لأحضر درس قرينة الخواجا ملوك، فدخلت عليّ ربة المنزل تحمل فنجان قهوة فشكرتها، ولما نزلت لأذهب إلى الدرس طلبت منها أن تقدم لي على الأقل فطوراً، فطلبت مني ربع ريال فقبلت، ولكنني ندمت لأنها اشتطت في الثمن، ثم قالت: إنها ستترك المحل قريباً، وإنها دبرت لي غرفة في المنزل المجاور بذات الأجرة. الطقس مثل أيام الربيع في بلادنا لو أن الأرض مخضرة والأشجار مزهرة، فتذكرتُ حين كنت أذهب إلى بيت لحم على حصان والسماء غائمة والأرض مخضرة وشجرات اللوز على الطريق مزهرة. لم أحمد الدرس اليوم كثيراً لأني آنست من تلميذتي ضجراً وتعباً. رجعت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي أكتب مقالة لفرح أفندي عن حالة المرأة في هذه البلاد، وعن الباعة المتجولين، ثم حملتها ونزلت إلى نيويورك في القطار المرتفع وذهبت تواً إلى محل الخواجات ملوك وأنا آمل أن أجد رسائل من القدس فلم أجد شيئاً، فنزلت مخذولاً كاسف البال تناجيني البلابل والوساوس، وذهبت إلى إدارة الجامعة فاخترت مرآة الغرب والهدى، وإذا فيها مقالتان ردٌّ على مقالة الجامعة. وكان فرح أفندي مشغولاً مع بعض الناس فذهبت إلى مطعم سوري وتغديت، ثم ذهبت فحلقت وعرجت في طريقي على محل الخواجا يوسف بولس، وأنا منقبض الصدر، فجلست إليه وأبثثته ما أجد، فدعاني لزيارته

(٢١) الأكليل هو قدّاس عقد القران.

فوعدته أن أزوره يوم الأحد بعد الظهر، ثم ذهبت إلى محل الخواجات دبدوب، فطلبوا إليّ أن أعلم ابنهم اللغة العربية ابتداءً من الغد، ثم رجعت إلى إدارة الجامعة فدفعت المقالة إلى فرح أفندي فوضعها في درج طاولته، وقال: أنظر فيها في غير هذا الوقت، وأما الآن فإني ذاهب للاجتماع ببعض السوريين فإنهم يريدون أن يصلحوا بيني وبين صاحب المرآة. فتركته وجئت إلى نيويورك إلى محل الخواجا مكروشيان [الطالب الأرمني] فجلسنا للدرس وهو يعرف عدة لغات ويدرس اللغة العربية لذاتها فدفع لي ٧٥ سنتاً، رجعت إلى غرفتي.

يوم الثلاثاء في ١٠ آذار سنة ١٩٠٨

وكنت قبيل الموت أستعظم النوى قد صارت الصغرى التي كانت العظمى

حلمت أني كنت أتخطر في أسواق القدس. اليوم أول الشهر السادس لوجودي في أميركا. يا داود إن قلبي يكاد يتقطع شوقاً إليك. كيف أستطيع الصبر على هذا الفراق الطويل! اشتقت إلى طلعتك الغراء، اشتقت إلى كلامك العذب، اشتقت إلى رسائلك اللذيذة. روحي بلغت التراق... استحممت ونزلت وأفطرت لأول مرة [لدى صاحبة المنزل] فقدمت لي أولاً بردقانة [برتقالة] ثم لحماً مقلياً وبطاطا مقلية وزبدة وخبزاً بزبيب وبدونه وقهوة. جاء الخواجا رفلة، وقال: ما رأيك لو اشتغلنا في الزراعة، فقلت: ذلك ما أتمنى فليس أحبّ إليّ من الشغل في وسط الطبيعة، فقلت: استفهم اليوم من فرح أفندي أنطون فإذا نصحك ذهبنا معاً. ثم ذهبت علمت تلميذتي فرأيت منها نشاطاً حمدت معه الدرس، ثم جئت إلى غرفتي فهاجني الشوق إلى داود فصرت أبكي. نزلت إلى نيويورك في القطار المرتفع، فذهبت عند الخواجات دبدوب وطلبت منه تأجيل الدرس ريثما تردني الكتب من القدس، ثم رجعت إلى إدارة الجامعة فلقيت هناك الخواجا الياس أنطون وشماس[٢٢] المطران رفائيل هواديني، فجلسنا نتجاذب أهداب البحث، جعلت أنتقد هذه المدينة وأشفق على الناس فيها وقد أحسست بقوة في الكلام استرعت سمعهم وانتباههم. بعد أن ذهب الشماس قال لي فرح أفندي أنطون: إنهم أصلحوا بينه وبين نجيب دياب صاحب المرآة، ثم قال الخواجا الياس: إنه لقي حافظ عبد الملك وعاتبه على تحامله على الجامعة فاعتذر إليه ووعد أن يسكت، ثم تركتهم وذهبت تعشيت. مررت على محل الخواجا حنا حشمة، فلقيت السيدة جني خير الله رفيقتنا في القدس، فجلست إليها وجعلنا نتذكر أيام القدس أيام كنا سعداء، وقد مر على تلك الأيام سبع سنوات ليتها لم تكن من عمري، ثم رجعت إلى إدارة الجامعة وسألته [فرح أنطون] عن الزراعة فقال: إن كان معكم رأس مال نجحتم، ووعد أن يكلمني في هذا الشأن ملياً. كل يوم يزداد فيّ الميل إلى الكتابة. جلست وراء طاولتي

---

(٢٢) الشماس: رجل دين مسيحي، وهو عموماً مساعد للقسيس في الكنيسة.

أكتب مقالات ولعلي أنشرها في الجامعة. جاء الخواجا نعمة الحاج وأخذ يقرأ وأنا أقوّم له عبارته، على أنه قرّر أن يستأنف الدرس من يوم الخميس القادم. يا داود تركتني في هذه الدنيا غريباً حتى عن أهلي.

يوم الأربعاء في ١١ آذارغ سنة ١٩٠٨

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

استحممت ثم نزلت فأفطرت، وبعد الفطور جلست إلى طاولتي أحضر دروسي، ولما صارت الساعة العاشرة ذهبت فعلمت تلميذتي ثم رجعت إلى غرفتي فكتبت بعض مقالات للجامعة، ثم نزلت إلى نيويورك في القطار المرتفع، وكان الطقس جميلاً فلما وصلنا الجسر نزلت فقطعته مشياً. ذهبت رأساً إلى إدارة الجامعة فعرضت عليه مقالاتي فسرّ بها ووعد أن ينشرها ثم قال: ستصدر الجامعة الجريدة مرتين في الأسبوع، فقلت له: أتمنى لو تكلفني ببعض فصولها، فقال: أنا تارك لك فصولها كلها لأني ذاهبٌ إلى الداخلية في وقت قصير، فقلت: أحسب ذلك شرفاً عظيماً. ثم ناولني بعض قطع من الجرائد الأميركية التي تكلمت عن المطاليب المرفوعة إلى السفير [التركي] فترجمتها حالاً شفاهاً، ثم أرسلنا مستخدماً عنده إلى محل الخواجات ملوك فأحضر لي رسالة من مس سنكير، تقول: إنها تخيلت أن روح داود أوحت إليها أن تعزيني. كتب لي الخواجا رفلة على مغلف الرسالة أن بندلي عبده جاء نيويورك، وأنهما ينتظرانني مساء في مطعم الشاوي، وبعد أن جلست قليلاً في إدارة الجامعة نزلت إلى مطعم الشاوي لأتغدى، فلقيت في الطريق يوسف سالم صهر يعقوب سعيدة فدعوته ليشرب معي فنجان قهوة، ثم ذهبت إلى محل الآنسة سعدى الحاج فوجدت الخواجا نعمة قد اشترى لي مظلة خضراء أضعها على عيني وقت القراءة، ثم رجعت إلى محل الخواجات ملوك فأخذت الخواجا رفلة؛ قال لي في الطريق: إن سليم ابن أخته تضارب مع جورجي السبط. ذهبنا إلى مطعم الشاوي فوجدت الخواجا بندلي عبده يتغدى فقبلته وقبلني وشعرت بمثل حمى في جسدي، وكادت عيناي تغرورقان بالدموع. ذكرت يوم ودعنا معاً داود على شاطئ البحر المتوسط، قال: إن المعمل الذي كان يشتغل فيه أخرج كثيرين من العَمَلة [= العمال]، وهو من الجملة، وهو راجع الآن إلى بوسطن. لا يزال كما تركته ولوعاً بالنساء وبالحديث عنهن. جئنا إلى بروكلن فلقينا يوسف السلفيتي ونقولا البرغوث في القارب فذهبنا إلى محل يوسف السلفيتي، وتركتهم هناك وذهبت علمت تلميذي الأرمني، ورجعت سهرت عندهم إلى الساعة العاشرة، ثم جئت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي.

يوم الخميس في ١٢ آذارغ سنة ١٩٠٨

حالت لبينكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

استحممت وأفطرت ثم جلست وراء طاولتي أقرأ في جريدة إنكليزية، ولما صارت الساعة العاشرة ذهبت علّمت تلميذتي فآنست منها تقدماً. ثم حلقت ونزلت إلى نيويورك وذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك آملاً أن أجد رسائل من القدس فلم أجد، فكادت تنفطر مرارتي، ألا يكفي كل هذه المصائب والويلات حتى تنقطع الرسائل؟ أن آخذ رسائل وأبكي خير من الانتظار تعقبه الخيبة. ذهبت علمت تلميذي ساعتين فأخذت منه ريالين. من هناك ذهبت إلى مطعم سوتيري لامبرس لألتقي بالخواجا بندلي عبده حيث سبقني وصار الكلام أن ينتظرني فلم أجده ولم أهتد إلى منزل سوتيري لامبروس، فرجعت أدراجي إلى إدارة الجامعة. أخذت جريدة الهدى وإذا به [صاحبها] يتهم فرح أنطون بأنه يريد أن ينكأ جروحاً اندملت، ويمدح جريدته الهدى وأنها تحب السلام، ويحث الجامعة على الاقتداء به واقتفاء آثاره، فتذكرنا قول أحمد بك شوقي «مخطئ من ظن يوماً أن للثعلب ديناً». نزلنا معاً إلى مطعم الشاوي فتعشينا فقام ودفع عني. لقيت هناك الخواجا بندلي عبده فدعوته إلى غرفتي فلم يقبل لبعدها وقال: ربما سافرت غداً إلى بوسطن فحثثته أن يبقى ليوم السبت، فقال: الأحسن أن أودعك فإذا ذهبت كان به وإلا ودعتك مرة ثانية، جئت مع فرح أفندي إلى بروكلن، ذهب ليعزي الخواجا نعمة تادرس بابنة أخته، وجئت إلى غرفتي وقد وعدني أن يمر عليَّ حين ينتهي من التعزية. جاء الخواجا نعمة الحاج فأعطيته درساً ثم جلسنا نتحدث في مواضيع مختلفة، وكانت صورة داود أمامي فكدت أشك أنه مات. كنت يا داود روحي، كنت حياتي. لم يكن يلذ شيء في هذه الحياة كالتذاذي بالجلوس إليك أو المشي معك أسمعك وتسمعني. كنت أنت الشخص الوحيد الذي يفهمني. لم أرَ ولن أرى أقوى منك فكراً وأبعد تصوراً وأبلغ حكمة وأصح رأياً وأرق إحساساً وأطهر ذيلاً. كم عرضت لك التجارب فدستها، وكم استهوتك الدنيا فلم تلق فيك إلا الإعراض، كم كنت تشفق على المرأة الساقطة! لم أنس حين كنت تجلس لفتاة تعزف على الكمنجة في قهوة تحاول إنهاضها من الوهدة التي سقطت فيها.

يوم الجمعة الواقع في ١٣ آذار سنة ١٩٠٨

يا راقد الليل مسرورا بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
لا تفرحنَّ بليل طاب أوّلهُ ... فرب آخر ليل أجج النارا

استحممت جيداً ولعبت بعض ألعاب أروض بها جسدي، ثم نزلت فأفطرت، ثم صعدت إلى غرفتي وجلست أكتب في أوراقي، ولما صارت الساعة العاشرة ذهبت وعلمت تلميذتي. ثم نزلت إلى نيويورك في القطار المرتفع، وقد وقفت كل الطريق خارج العربات أستنشق الهواء النقي. ذهبت تواً إلى إدارة الجامعة فأعطاني فرح أفندي أعداد الجامعة اليومية القديمة، فجلست أقرأها، ثم نزلت إلى مطعم الشاوي لأتغدى فلقيت هناك الخواجا رفلة، فقال: سافر الخواجا بندلي إلى بوستن وهو يهديك سلامه.

بعد الغداء مشى معي الخواجا رفلة إلى معبر النهر. قال: إن البوليس يفتش عن جورجي السبط، وسآخذه مساء إلى بروكلن لعلنا نراه فأدله عليه، فلم أستحسن اهتمامه بحبسه، وتمنيت لو يصطلحون. ثم قال: إن صهر يعقوب سعيدة يوسف سالم طلب مني أمس بعض دراهم فلم أعطه فقلقت عليه.

ذهبت وعلمت الدكتور نيس وبعد الدرس أعطاني سيكاراً وجلسنا نتوارد الحكايات والنوادر. دفع لي ريالين ثم نزلت إلى نيويورك وذهبت إلى محل الآنسة سعدى الحاج فلم أجد أحداً، فرجعت أدراجي إلى بروكلن.

لقيت الخواجات يوسف السلفيتي ونقولا البرغوث، فقال لي نقولا البرغوث: إنه وردته رسالة طويلة من أخيه، يقولون إنهم سمعوا أنه في ضيق، ثم رأيت الخواجا بني أبوشولي الذي ربي عند الأميركان، فمشى معي إلى محل تلميذي، ذكرنا داود وأخاه. دعاني يوم الأحد للغداء معه، تركته وصعدت إلى غرفة تلميذي فلم أجده فنزلت فوجدت الياس حيدر، فقال لي [انه] وردته رسائل من القدس يقول له فيها أخوه إن داود مات عند الأميركان، وأن جنازته لم ترَ القدس مثلها. دفعت له ٧٥ سنتاً بقية حساب له عندي.

ذهبت عند تلميذي فأخذني إلى مكتبة في بروكلن، فأخذت منها كتاباً عن [الشاعر الانكليزي] تنسن، دفع لي سبعين سنتاً. رجعت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي أكتب.

يوم السبت في ١٤ آذار سنة ١٩٠٨

فما قلت يوماً للبكاء عليكم رويداً ولا للشوق بعدكم رفقا

استحممت ولعبت ثم نزلت وأفطرت فطوراً فاخراً. دفعت أجرة غرفتي وثمن فطوري فلم تأخذ [صاحبة البيت] إلا عشرين سنتاً عن كل فطور. الطقس جميل دافئ كأنه أيام الربيع. ذهبت علمت تلميذتي [فـ] دفعت لي ثلاثة ريالات. إذا استمر دخلي على هذا الحال كانت النتيجة حسنة.

نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك، فوجدت ثلاث رسائل من أختي ميليا ورسالة من الياس طرزي ورسالة من الأميركان وكارتاً من يعقوب ابن خالتي ورزمتين فيهما الكتب التي طلبتها منهم وروزنامة دير اللاتين، فتركت الكتب وأخذت الرسائل إلى إدارة الجامعة وجلست أقرأها وجسدي كله يرتجف ومدامعي تنحدر رعباً وحزناً. كل ساعة من حياتك يا داود حياة برأسها ولست أدري وحقك أيهما أفخر وأجل حياتك أم مماتك. كأنه لم تكفك حياتك التي صرفتها بين الناس كمثال للحياة العظيمة الفاضلة، حتى اتخذت الساعات الأخيرة، تلك الساعات التي تتلجلج فيها الألسنة وتضطرب الحواس اتخذتها لإلقاء آخر درس. انك أشبهت في ذلك المسيح وفقت افلاطون.

وبعد أن جلست قليلاً في ادارة الجامعة مررت على محل الخواجات ملوك، وأخذت الكتب وذهبت مع رفلة إلى مطعم الشاوي، وأعطيته رسالة الياس طرزي، فقرأها، ولما وصل إلى الكلمة الأخيرة فيها لم يملك

دمعه، ثم رجعنا إلى بروكلن وكنت حزيناً واجماً كأني محموم.

عرجنا على منزل أخته فشربت قهوة ثم نزلت وجئت الى غرفتي وأعدت قراءة الرسائل، وكان ينتفض جسدي وتتفجر دموعي وتهجم زفراتي عند كل عبارة، ولا سيما عند عبارات داود في رسالة أختي مثل: أخبروا خليل أني سلمت الروح وأنا أذكره وافتكر به، ومثل قوله: الحياة عزيزة ارحموا يا ناس. ومثل قوله لأمه: لا تحلفي بعد بحياتي، وقوله لعمته: ما العمل يا عمتي لأن نصيبك قصّر.

هذه العبارات استنزفت عبراتي. سهرت إلى نصف الليل، كتبت رسالة طويلة الى الياس [طـرزي] وأخرى إلى أختي ميليا.

يوم الأحد في ١٥ آذار غ سنة ١٩٠٨

سـألـونـا عـن حـالـنـا كـيـف أنـتـم — مـن هـوى نـجـمـه فـكـيـف يـكـونُ

نـحـن قـومٌ أصـابـنـا عـنـت الـدهـر — فـظـلـلـنـا لـريـبـه نـسـتـكـيـنُ

حلمت أني كنت في القدس أطير طيراً. قمت في نصف نومي فوجدت في فراشي بقّاً أطار النوم من أجفاني. استيقظت الساعة الثامنة استحممت ثم نزلت فأفطرت.

وبعد الفطور جلست وراء طاولتي أكتب إلى الياس كتابة تزعزع أركان السماء. وقبيل الظهر جاء الخواجا رفلة، فقرأت له رسالة أختي وما أتممتها حتى خنقتني العبرة. وكأنه أشفق عليّ فغيّر الموضوع. قال: نويت أن أذهب إلى بوسطن أفتش عن شغل.

وقد لاحظت منه عدم رضى عن ابناء أخته لأنهم الى اليوم لم يهتم أحد منهم بأن يفتش له عن شغل. دفعت له ثلاثة ريالات وأخذت منه حوالة على صهره الخواجا متري سلامة، ثم تركني وذهب، فجلست الى الطاولة أتابع الكتابة، ثم دخل عليّ الياس حيدر فحلق لي ثم خرجت معه إلى المطعم اليوناني فتعشيت.

ثم رجعنا إلى الغرفة فجاء الخواجا نعمة الحاج فذهبنا وزرنا الخواجا أنطون زريق وأنا أود لو أخلو بنفسي، ثم رجعنا إلى غرفتي، وفي المساء جاء فرح أفندي انطون فذهب الياس ونعمة، وبعد أن جلسنا أنا وفرح افندي قليلاً قال: أنا ذاهب أسهر عند ابن عمي الياس انطون فتعال معي، فقلت له: اسبقني ثم أتبعك.

وبعد أن كتبت قليلاً ذهبت إلى بيت ابن عمه وسهرنا هناك إلى الساعة العاشرة والنصف، ثم ذهبنا فمشيت معه قليلاً فقال: كتبت الى الخواجا نقولا الحداد أن يجيء بعد شهر الى نيويورك ليتولى ادارة الجامعة والكتابة فيها مدة شهر ثم يتركها لي.

رجعت الى غرفتي وجلست وراء طاولتي فكتبت وقائعي إلى أن انتصف الليل. كم لقيت يا غرفتي وكم لقيت يا طاولتي وكم جريت يا قلمي وكم تألمت يا قلبي وكم جريت يا دمعي. اليوم سافر يوسف السلفيتي الى فيلادلفيا.

يوم الاثنين الواقع في ١٦ آذار سنة ١٩٠٨

يا مَن يردّ عليّ ما فقدت يدي ... هيهات ليس يردّ أمس إلى الغدِ

فقدت يدي طيبَ الحياة وهل ترى ... لي مطمعٌ في الغابر المتجدد

استحممت ثم نزلت فأفطرت وبعد الفطور جلست وراء طاولتي أحضر درس تلميذتي، ثم ذهبت فجاء الخواجا رفلة يحمل تلغرافاً جاءه من القدس يستدعونه إلى الاسكندرية لشغل، ففرحت له، لأنه ما دام في هذه البلاد فلا أمل له في النجاح، وإنما حزنت جداً حتى كدت أبكي لأني سأصبح بعده وحيداً، وتمنيت لو أستطيع أن أذهب معه، ولكن أين مني ذلك وأنا المديون المحروم والله يعلم متى يحين يوم رجوعي.

فقال: حين أخذت التلغراف قلت: لا بد أن خليل يحزن، فقلت له: أضف هذا الحزن إلى بقية الأحزان. ثم اعتذرت من تلميذتي ورجعت الى غرفتي كاسف البال حزيناً. وبعد أن جلست قليلاً مشرد الأفكار نزلت إلى نيويورك. مررت على محل الخواجات ملوك فلم أجد رسائل. ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة. في طريقي مررت على محل الخواجا حنا حشمة أسأله عن مكتوب من أخي يوسف فقال: لم يجئك شيء.

دخلت إدارة الجامعة فوجدت فرح أفندي مشغولاً، فأخذت بعض الجرائد [من] هناك ونظرت فيها ثم ذهبت إلى محل الخواجات دبدوب وأعطيت ابنهم حنا الدرس الأول. ثم رجعت إلى ادارة الجامعة فوجدت هناك الخواجا الياس انطون، فقال: فرغ مركز في محل الخواجا انطونيوس تادرس وإني مكلمه الآن بالتلفون أرجوه أن يدعوك إليه، فذهبنا إلى محل الخواجا حنا حشمة وخاطبناه بالتلفون فلم يكن هناك، وأما أنا فاستأذنت وذهبت رأساً الى الخواجا سليم ملوك وأطلعته على الخبر، وقلت: أتمنى أن لا تنفصل عن أخيك، وأما إذا كان لا بد من ذلك فإني لا أحب أن أخسر مركزي عندك، وقد طلب مني أن أشتغل فجئت لأستشيرك فقال: اشتغل الآن ومتى انفصلت عن أخي فلست أستغني عنك وحينئذ أدبّر أنا لهم كاتباً عوضك وأطلبك منهم، فشكرته، وذهبت إلى ادارة الجامعة فوجدت تلميذي الأرمني ينتظرني هناك ليعتذر اليّ عند عدم استطاعته أخذ درس الليلة. تعشيت في نيويورك رجعت إلى غرفتي. سهرت في بيت الخواجات ملوك.

يوم الثلاثاء الواقع في ١٧ آذار سنة ١٩٠٨

الا أن ذاك القبر قبلة ناظري ... وأما مسراتي فهن ودائعه

استحممت ولعبت ثم نزلت فأفطرت، وبعد الفطور جلست وراء طاولتي وكتبت سطرين لأجعلهما مقدمة لمقالاتي التي ستنشر في الجامعة تباعاً، ثم ذهبت لأعلم تلميذتي.

السماء غائمة والبرد قارص، وفي أثناء الدرس كانت الآنسة روز تعزف على البيانو في الطابق الثاني، فشرد بي الفكر إلى غرفة داود كيف كانوا يعزفون وينشدون ويطربون ويبتهجون، وكيف أصبحوا في مدة

خمسة عشر يوماً يبكون وينوحون. أمس كانوا في قمة السعادة واليوم أصبحوا في حضيض الشقاء.

ألا أيها الناس الذين يسعون وراء السعادة، إن السعادة ميسورة ولكن دفع الشقاء النازل صعب بل مستحيل.. فاتركوا السعادة وادفعوا الشقاء إن كنتم تستطيعون، ثم هاج بي الشوق إلى داود فكدت أبكي في أثناء الدرس.

سأذكرك يا داود كلما ذكرت الحياة الجميلة، سأذكرك كلما اختلجت فيَّ عاطفة أو هجس في ضميري هاجس. لا أرى شيئاً أو أسمع شيئاً أو أقرأ شيئاً أو أتصور شيئاً إلا ذكرتك. كنت ملء تصوري وقلبي وفكري ونظري وسمعي وسائر حواسي فكيف أنساك..

جئت إلى غرفتي وقرأت رسالة أختي وجعلت أبكي وانتحب، وحملت صورة داود وصرت ارتد من حائط الى حائط، ثم مسحت دموعي ونزلت إلى نيويورك. أعطيت مقدمة مقالاتي لفرح أفندي ثم جعلنا ننظر في سلسلة الدروس التي يجب على الكاتب أن يشارك فيها، وهي الرياضيات والطبيعيات والفلك والبيولوجيا والسسيولوجيا كما رتبها الفيلسوف اوغست [كونت].

ثم ذهبت وعلمت حنا الدبدوب وفي أثناء الدرس دخلت المعلمة سارة امرأة عبد الله بلورة تحمل كيساً فيه بعض قطع من خشب الزيتون مما يبيعه الأميركان، وما يودّ غيرهم، لبيعها للخواجات دبدوب، فسلمت عليها وعرفتها بنفسي فصارت تسألني عن عائلتي فرداً فرداً ودعتني إلى بيتها.

بعد الدرس ذهبت فتعشيت، ثم ذهبت إلى محل الخواجا حنا حشمة، فلقيت هناك أسعد حشمة الذي كان يخدم على المائدة في لوكندة أبو شكري في رام الله، وابراهيم العربجي، الذي ركبت معه أنا ومس سنكير في عربته من رام الله إلى القدس. أسعد حشمة ينوي الرجوع إلى البلاد وابراهيم باق في أميركا لأن اشغاله ناجحة. رجعت إلى غرفتي. سهر عندي الخواجا رفلة، بعد ذهابه ترجمت مقالةً انكليزية لفرح افندي.

يوم الأربعاء في ١٨ آذار سنة ١٩٠٨

فيا مهجتي ذوبي (أسى وكآبة)   ويا لوعتي كوني كذاك مذيبتي

استحممت ولعبت ثم نزلت فأفطرت، وبعد الفطور أكملت ترجمة المقالة التي كلفني فرح أفندي انطون بترجمتها، ثم ذهبت وعلمت تلميذتي ورجعت إلى غرفتي، فحملت أوراقي ونزلت إلى نيويورك في القطار المرتفع، ثم أخذت قطاراً آخر وذهبت وعلمت تلميذي مستر هنري. طلب إليّ ان استحضر له من القدس كتاب الدكتور ستارلنك في الصرف والنحو.

وقد خطر لي أن استحضر بعض البومات القدس وأبيعها هنا على [كذا] أصدقائي من الأميركان ومعارفهم. أخذت منه ريالاً ونصفاً، رجعت إلى إدارة الجامعة وبعد أن أصلحت مسودة مقالاتي المعدة

للطبع ذهبت لأعلم ابن الدبدوب فلم أجده. من هناك ذهبت وتعشيت في مطعم سوري. التقيت بعبد الله حبيب الذي كان يشتغل في محل الخواجات طرزي، وقد حضر بعض اجتماعات جمعية الآداب، وعرف فيها داود، فأخبرته بموته فتأسف.

ثم رجعت إلى ادارة الجامعة وقرأت بعض الجرائد، ثم جئت إلى بروكلن مع الياس حيدر. في الطريق أخبرني أنه تنافر مع الآنسة سعدى الحاج التي يشتغل عندها فرأيت أنه لا يزال شرساً فوبخته. ذهبت وعلمت تلميذي الأرمني فأكملنا الكتاب الأول للطرزي. ثم جئت إلى غرفتي فجلست وراء طاولتي فكتبت بعض ملاحظات لأكتب عليها للجامعة.

شعرت اليوم بنشاط في جسدي ولعله ناشئ عن الاستحمام والرياضة. ولكن سروري بالحياة قد مات بموتك يا داود. ولولا عائلتي وواجبات كثيرة باقية عليّ لكنت استنزلت القضاء المحتوم وقلت على الدنيا السلام.

أخي يوسف لم يكتب لي ولست أعرف ماذا يمنعه من الكتابة، أو كيف يعيش. أكاد أعتبر نفسي وحيداً في هذه الدنيا بدون سند ولا نصير. قبل أن أنام قرأت رسالة أختي ميليا عن ساعات داود الأخيرة فبكيت، وأويت الى فراشي والدموع في عينيّ.

يوم الخميس في ١٩ آذار سنة ١٩٠٨

فإن تكن الأيام أحسنّ مرةً إليّ فقد عادت لهنّ ذنوبُ

استحممت ولم ألعب ثم نزلت فأفطرت، وبعد الفطور حضرت درس تلميذتي، وبعد الدرس رجعت إلى غرفتي فطلبت إليّ صاحبة المنزل أن أذهب وأرى غرفة في المنزل المجاور لنا لأنها ذاهبة مع ابنها إلى الداخلية، فذهبت فاستقبلتني فتاة فأرتني الغرفة. قلت لها: سأنقل يوم السبت، فقالت: ليتك تنقل غداً، فقلت لها: لماذا؟ فقالت: إن النقل يوم السبت غير حميد ومن نقل فيه فلا يطيل الإقامة، فضحكت وشكرتها، ثم نزلت إلى نيويورك فوضعت رسالة الياس طرزي ورسالة أختي ميليا في صندوق البريد، ثم ذهبت إلى ادارة الجامعة فقرأ لي فرح أفندي شيئاً من مقالته الافتتاحية التي ستنشر يوم السبت، ثم نزلنا للغداء فشربنا كأسين من البيرا.

دخل هو مطعماً وذهبت أنا إلى محل الخواجات ملوك أسأل عن رسائل فلم أجد شيئاً، ثم أحسست أني جوعان فذهبت وتغديت ثم ذهبت لأعلم ابن الدبدوب، فلقيت في طريقي الدكتور [نجيب] جمل، فأخذته وذهبنا إلى قهوة سورية فعبأت أركيلة وشربنا قهوة. وكان حديثنا عن القدس. قرأت له رسالة أختي عن داود. ثم تركته وذهبت وعلمت ابن الدبدوب، ومن هناك ذهبت إلى محل الخواجات ملوك فلقيت الخواجا رفلة وقد استولى عليه الضجر واشتد شوقه الى السفر، فقلت له: يخطر لي أن أستحضر بعض ألبومات

مناظر القدس وبعض أشغال خشب الزيتون وأجرب أن أبيعها على [كذا] أصدقائي من الأميركان ومعارفهم، فلم يشجعني على ذلك، فكدت أيأس، تركته وذهبت إلى إدارة الجامعة. في طريقي عرجت على محل الخواجا حنا حشمة فوجدت رسالة من أخي يوسف يقول: إنه لم يستطع أن يرسل دراهم هذا الأسبوع لأنه اشترى بها بضائع، وأنه نقل إلى غرفة جديدة. ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فقرأت بعض الرسائل، ثم جئت إلى غرفتي. جاء الخواجا نعمة الحاج وبعد أن تكلمنا ملياً عن الرياضة الجسدية جلسنا للدرس. إن موتك يا داود جرحني جرحاً بليغاً لا يبرأ ما دمت حياً. جعلني لا ألقى هذه الحياة إلا منكمشاً منقبضاً.

يوم الجمعة ٢٠ آذار سنة ١٩٠٨

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيبُ

حلمت الليلة أني كنت في غرفتي في دارنا داخل البلد، فجاء معاذ الخالدي يحمل رسالة من أخيه يبثني فيها أشواقه، ثم وجدتني في غرفة المعلم نخلة وقد اجتمع هناك الحاج راغب الخالدي وموسى أفندي شقيقه وغيرهما فجعلت أبثهم أشواقي وأشكو لهم ما لقيت في غربتي..

استحممت جيداً ولعبت ثم نزلت فأفطرت وبعد الفطور صعدت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي أحضّر درس تلميذتي، ثم ذهبت وعلمتها، وجدت هناك كارتاً من مس سنكير كتبته باللغة العربية.

رجعت إلى غرفتي فقالت لي صاحبة المنزل الذي أسكن فيه: أن صاحبة المنزل الذي اتفقت معها أن أسكن عندها لا تستطيع أن تؤجرني الغرفة، ولذلك كلفت صاحبة المنزل الذي أسكن فيه أن تفتش لي عن غرفة أخرى. نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى إدارة الجامعة وكان الحديث بيني وبينه عن الجرائد العربية، كيف يتصدى لها الكتبة الصغار يخبطون فيها خبط عشواء.

نزلنا معاً إلى مطعم الشاوي فأكلت لبنة ورغيفين ولما قمنا لنحاسب دفع عني. ثم تركته، وجئت الى بروكلن وعلّمت تلميذي الدكتور نيس، أريته كتب الخواجا رفائيل طرزي فاستحسنها وأبقاها عنده، وربما قرأنا فيها من الأسبوع القادم، لما قمت لأذهب قلت له: ما رأيك لو استحضرت بعض ألبومات القدس، فهل أجد هنا من يشتريها؟ فقال أنصحك أن تستحضر واحداً منها وتعرضه على بعض الأميركان، فإن طلبوه منك استحضرت منه العدد اللازم.

رجعت إلى نيويورك وتعشيت في مطعم الشاوي. لقيت هناك الخواجا أنطون زريق فقام وجلس بجانبي، ثم دخل فرح أفندي انطون فقال: نسهر هنا الليلة معاً، فاعتذرت أن عندي درساً ثم ودعته وجئت إلى بروكلن فلقيت في القارب اسعد أفندي حاماتي، وبعد أن خرجنا من القارب مشينا معاً، فسألني عن رأيي في كتابته فقلت له: لا أراك تكتب إلا في السياسة، فوعد أن يكتب في موضوع آخر. علّمت تلميذي الأرمني.

يوم السبت في ٢١ آذار غ سنة ١٩٠٨

تـلـك أيـامـنـا تـولـت سـراعـاً وعـلـى إثـرهـا الـشـقـاء تـوالـى

حلمت أني كنت في البيت مع أمي وأختي، وكانت عندنا خالتي أم فوتي اسطفان وابنتها جوليا . . في مثل هذا اليوم قبل خمسة أشهر كنت معك يا داود في يافا أنظر معك إلى مستقبل جميل . .

وما كدت أنفصل عنك حتى أسفر المستقبل عن حقيقة محزنة. فقدت فيك طيب الحياة. لو كان للحزن كرمات لامتلأ بها جسمي وتغذى بها قلبي . . استحممت ولعبت وقبل الفطور دخل عليّ الخواجا رفلة فنزلت معه إلى غرفة الأكل وجعل يحدثني وأنا آكل. طلب إليّ أن آخذ ثلاث سجادات له وأعرضها على الخواجا نعمة تادرس ليشتريها، وقال: قل له إنها لصديق لأخيك في فيلادلفيا أتى بها من سوريا ليفرش بها بيته، ولكن بسبب وقوف الأحوال اضطر أن يبيعها، وشدد عليّ أن أطريه وأعظمه وأتملقه ليشتريها. خطة لم أعتد الجري عليها فإن رفضت كدرت الخواجا رفلة وإن قبلت حططت من قدر نفسي في عينيّ. وعدته أن أحملها له ولكن لست أدري ماذا توحي إليّ مبادئي أن أقول حينئذ. فقلت: التجارة ما أحطها، وثقل الدين كم يُذلّ النفوس الأبية . .

حضرت درس تلميذتي. ذهبت فعلمتها وأمسكوا بي على الغداء. ثم نزلت إلى إدارة الجامعة فأخذت عدة أعداد من الجريدة، وأرسلت عددين إلى سلطانة وميليا وعدداً الى مدرسة بيت لحم وآخر الى مدرسة مارجريس، وآخر الى أخي يوسف. ثم ذهبت وعلمت ابن الدبدوب. كنت أنتظر أن يدفعوا لي أجرة الأربعة الدروس [كذا] فلم يذكروا ذلك. رجعت متأثراً، لقيت في طريقي شابين من الاميركان يتلاكمان في وسط الطريق وجمهور كبير واقف يتفرج. استغرقت الملاكمة وقتاً طويلا إلى أن أدميا بعضهما بعضاً. وربما كتبت عن ذلك فصلاً للجامعة. ذهبت إلى محل الخواجات ملوك آملاً أن أجد بعض رسائل فلم أجد فشعرت كأن روحي بلغت التراقي.

ثم ذهبت عند الخواجا نعمة تادرس وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى وعرضت عليه شراء السجادات الثلاث فقال: أحضرها ونحن ندبرها لك، فرجعت كأنك صببت عليّ ماء بارداً. لا يمكن أن أكون تاجراً. تمرمرت جداً اليوم وكان كل شيء حولي يقاهرني [كذا]، ذكرت داود وشعرت أنه ماش بجانبي فاغرورقت عيناي. أحضرت ثيابي من عند الغسالة. سهر عندي الياس حيدر. علمت الخواجا نعمة الحاج.

يوم الأحد في ٢٢ آذار غ سنة ١٩٠٨

تـصـفـو الـحـيـاة لـجـاهـل أو غـافـل عـمـا مـضـى عـنـهـا ومـا يـتـوقّـعُ

حلمت أني كنت ماشياً مع داود فمررنا من أمام المقبرة فأخذ يعنف الحارس هناك لعدم اهتمامه بقبر أخيه،

وقد تأثر جداً فصار يبكي فصرت ألاطفه وأداريه. ثم حلمت أن ميليا وسلطانة كانتا آتيتين إلى البيت، فوقفت أمام الباب أنتظرهما واستيقظت من نومي ولم تجيئا.

استحممت وغيرت ثيابي التحتانية ثم نزلت فأفطرت، وبعد الفطور جلست وراء طاولتي وكتبت رسالة إلى سلطانة. وعند الظهر جاء الخواجا نعمة الحاج وبعد أن جلس قليلاً قمنا فمشينا قليلاً نستنشق الهواء، ثم ذهبنا وتغدينا، وعندما قمنا نحاسب سبقني ودفع.

رجعت إلى غرفتي فدلتني صاحبة البيت عن منزل لأستأجر فيه غرفة فذهبت فوجدت غرفة مثل غرفتي بذات الأجرة، واتفقنا أن أنقل غداً، ثم رجعت إلى الغرفة فجاء الخواجا نعمة الحاج فطلبنا كمنجة من صاحبة المنزل، وأخذت أعزف عليها بعض الأنغام المحزنة، وكادت نفسي تتساقط غماً وأسى، ثم جاء ابن صاحبة المنزل فأحضر فونغرافه[٢٣] وأدار عليه بعض قطع [موسيقية] أميركية، جاء الياس حيدر. ذهبت معه وشربنا شوكولاتا ثم رجعنا الى غرفتي فجلست أكتب رسالة الى يعقوب بن خالتي وجلس هو يقرأ في مجلة الضياء.. مرّ عليّ منذ تركت البيت خمسة أشهر كأنها دهر، لقيت فيها من الأهوال والشدائد، وقاسيت فيها من الآلام والحسرات ما يدك الجبال، ولم يخطر لي ببال.

نيويورك، الأحد ٢٢/٣/١٩٠٨

عزيزتي:

وردتني من أختي ميليا في الأسبوع الماضي ثلاث رسائل، تكلمت في احداها عن ساعات داود الأخيرة بما سفك دمعي دماً، صورت لي الصراع الهائل الذي قام بين داود وبين الموت، ذكرت لي كيف استغاث بالسماء والأرض، كيف تعلق بحبال الهواء، كيف عزّ عليه فراق هذه الحياة، فراق أمه وأخوته وسائر أهله وأصدقائه، وكنت عند كل جملة أشرق بدمعي وانتفض «كالعصفور بلله القطر»، فوددت لو أمكن فداؤه، وددت لو كان يشترى بالأرواح.

كان سعيداً في حياته، كوّن لنفسه معيشة جميلة أمل أن يتمتع بها طويلاً. وفوق ذلك كان على وشك أن يختار له رفيقة حياته، ولا شك أنه تراءى له بإزاء أمه وإخوته وأصدقائه خيال شخص آخر مجهول، كان يملأ تصوراته وينير أفق حياته، فنادى وهو على فراش الموت: ارحموا يا ناس، ولكن أين منه الرحمة، فذهب وقد طوى في صدره اسم ذلك الشخص، ذهب ولم يفتح قلبه للحبّ، ولم يلمس شفتيه اسم أحد. ولا شك أن روحه الآن تخفق في غرفة من لو عاش لاختارها رفيقة لروحه.

مسكينة تلك الروح التي أحسّت يوماً أن داود سيكون هيكلها المقدس الذي تأوي اليه، لا شك أنها تكتم

---

(٢٣) الفونوغراف: جهاز تسجيل قديم، خاص بالاسطوانات البلاستيكية الدائرية.

الآن جرحاً عميقاً لا تبرأ منه ما طال الأمد . فإذا بكيت داود بكيت في جملة ما أبكيه حبه الضائع ، بكيت ذلك الشخص المجهول الذي يتراءى لي أنه منزو في خدره يردد الأنين ، ويعالج ذلك الجرح العميق . ويخيّل إليّ مرات كثيرة أني لو كنت قريباً منه ساعة فارق هذه الحياة لأودع أذني ذلك الإسم المحبوب ، وأوصاني أن أحمل إليه سلامه الأخير . ولكن إذا حالت الأقدار دون ذلك ، فلا شك أن كل فتاة عرفت داود تحسب أن المصيبة فيه مصيبتها الخاصة ، وربما كان بين الأكاليل التي وضعت على قبره ، إكليل فتاته التي كانت تؤمل أن تزين رأسه بإكليل السعادة .

لو كنت شاعراً لاستوحيت روح داود [في] نظم القصائد إلى ذلك الشخص المجهول ، لو كنت موسيقياً لوضعت نغماً تردده الأجيال ، لو كنت مصوراً لرسمت عواطفه وتصوراته التي كانت تجول في صدره وتصارع الموت في ساعاته الأخيرة . على أني وإن لم أكن شاعراً ولا موسيقياً ولا مصوراً ، تختلج في نفسي احساسات كثيرة ، وترن في أذني أصوات عميقة ، وتتراءى لعيني صور مختلفة ، فأفتش في أعطاف الدواوين ، وأصيخ لكل نغم ، وأتأمل في كل صورة ، لعلي أجد ما يعبر عن فكري ، أو يترجم عواطفي ، أو يصوّر تصوراتي . وكثيراً ما أعتبر نفسي داود ، وأعتبرك ذلك الشخص المجهول ، فأناجيك في خيالي كمناجاة داود شخصه المحبوب . فهل لك أن ترددي صدى تلك المناجاة ، لنكون أنا خليل وأنت سطانة كداود وفتاته .

تذكرين حين نزلت معك مرة من غرفتي لأوصلك إلى بيتكم أني قلت لك في الطريق ، قبل أن أكاشفك بالحب : هل تحبين الخيال؟ فقلت : نعم ، فقلت : إذن استعدي له .

هو ذا المجال واسع أمامك يا سلطانة ، وقد نُبتُ عن داود ، فنوبي أنت عن فتاته .

وقد ذكرت لي أختي شيئاً آخر أنقله لك بالحرف الواحد ، قالت :

«لاحظت سلطانة أن أمك في ضيق ، فأرسلت إليها ليرتين ، كلما طالت المدة يزداد حب عائلتنا لسلطانة ، لم أرَ بعد يا عزيزي ابنة تشبهها ، جعلها الله من نصيبك ، سلطانة لا تثمن» .

وقالت في رسالة أخرى :

« في فرصة عيد الميلاد ما فارقت سلطانة . بل كنا دائماً معاً ، كنت أنام عندها ، ونقضي ليالينا بالحديث عنك ، وهي تقول لي دائماً : لم أرَ بعد اسمى وألطف وآدب وأعدل من خليل ، إذا لم ترافقه السعادة فإنها غير موجودة» .

سألتها مرة لماذا تبخل عليك بالمكاتيب ، فقالت : لا أعلم ماذا أكتب ، أستحي منه .

فقلت لها : «سلطانة يجب أن تعلمي أن خليلاً يحسبك أختاً له ، ومحبته عظيمة لك» .

فقالت :

«أعلم ذلك ، ومحبتي له كذلك ، هو أخٌ لي» .

يظهر أن أفتيم مصمم على أخذها، فقلت لها ذلك، فقالت: «هذا شيء غير ممكن».

لم يكف يا سلطانتي أنك ملكتني بحبك وإحسانك حتى ملكت عائلتي، ولا عجب فأنت سلطانة.

إذا كان أفتيم لا يزال يُمنّي نفسه بالحصول عليك، فإني أرى احتراماً لإحساساته أن نكتم الحب الآن، إلى أن يخطب أو ييأس منك، لا شك أنه شقيّ تَعِس يستحق الشفقة، وإني أتمنى له أن يوفق إلى شريكة لحياته تخفف شقاءه.

أرسلت إليك أمس عددين من «الجامعة» فيهما مقالاتي التي بدأت أن [كذا] أنشرها، فأرجو أن ترسلي أحدهما إلى أختي، وأن تطلعيني على رأيك فيهما، وليتك بعد أن تقرأيها تعطينها لتلميذاتك يتفكهن بكتابات معلمهن. وسأنشر في العدد الآتي مقالة جميلة عن الفتاة الأميركية أفاخرها بفتاة سوريا، وهكذا في كل عدد من الأعداد الآتية سأنشر شيئاً، وربما توليت تحرير الجامعة في اثناء تغيب صاحبها في [المناطق] الداخلية [من البلاد] ترويحاً للنفس.

ثم قد خطر لي أن أقترح عليك أن تتخذي لك يومية تكتبين فيها وقائع كل يوم بيومه، وما يعرض لك من الخواطر، كما أفعل أنا من سنوات كثيرة، ومتى اجتمعنا قرأت لك وقرأت لي.

أراك تحوجينني في كل مرة أن أحثّك على الكتابة.

إذا كنت، قبل موت داود لا أصبر عن كتاباتك فما رأيك بعده، إذا حرمت من تعزيتك قريباً فهل أحرم منها بعيداً؟.

إذا كتبت فلا تنسي أن تذكري لي أهم ما يتحدث به الناس في مجتمعاتهم واسلمي.

خليل

يوم الاثنين في ٢٣ آذار سنة ١٩٠٨

حاربيني يا نائبات الليالي عن يميني وتارة عن شمالي

استحممت ولعبت ثم نزلت فأفطرت، وبعد الفطور حضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلمتها، ورجعت إلى غرفتي وابتدأت أنقل إلى الغرفة الجديدة، ولكن لست آمل أن أهنأ في معيشتي فيها لأنها دار قديمة والعائلة وسخة.

بعد أن أتممت النقل ذهبت ودَّعت صاحبة المنزل القديم فودعتني آسفة، ودعتني للعشاء في بعض ليالي هذا الأسبوع.

ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك، فوجدت رسالة من أختي ميليا تعزيني به [بداود]، وتقول: أم داود دائماً تسأل عنك لأنك أنت الآن في محل ابنها، وأخوا داود يعدانك اخاً لهم، وعفيفة دائماً تذكرك وتذكر الأيام التي مضت. نعم أنا أخ لكم، أنا أخ لكم.

ميليا وخليل، القدس ١٩٠٦

ثم ذهبت فعلمت ابن الدبدوب ورجعت إلى محل الخواجات ملوك فأخذت السجادات الثلاث وحملتها والدمع يكاد يفر من عينيّ، وذهبت إلى محل الخواجا نعمة فأريته إياها فدفع فيها ثلاثين ريالاً، وقد قدر الخواجا رفلة أنهم يدفعون فيها مئة وثلاثين ريالاً فأرجعتها إليه. وجلست بجانبه وجعل يقرأ لي رسالة جاءته من صديق من يافا ينصحه أن يرجع إلى الوطن. ثم طلب إليّ أن أكتب إلى ابن خالتي لنجدد الكمبيالة حتى إذا حان استحقاقها تكون حاضرة.

ثم قال: على ماذا قررت؟ فقلت له: أصبر شهرين أو ثلاثة فإذا لاحت لي بوارق آمال بقيت في أميركا وإلا رجعت إلى البلاد.

تكلمنا كثيراً وكان سوء حظي ماثلاً أمام عيني فحبست دمعي مراراً.. ثم تركته وذهبت إلى ادارة الجامعة فجعلت أقرأ بعض الجرائد إلى أن انتهى فرح انطون من أشغاله، فخرجنا معا، فاستشرته ماذا أعمل، فقال: أنا أحتاج إليك ولكن افتكر بطريقة أخلص فيها من فيليب غريّب أو أترك له بعض الأشغال فتأخذ محله أنت.

ثم جئت مع الياس حيدر الى معبر بروكلن. في الطريق قال لي إنه سمع أن أخي يوسف كسر الجزدان، وأنه مولع بالسكر وبالنساء، فأسقط في يدي، وشعرت كأنني أنحدر الى القبر.

ذهبت علمت تلميذي الأرمني ثم جئت الى غرفتي وأنا مشرد الأفكار مضطرب البال.

يوم الثلاثاء الواقع في ٢٤ آذار سنة ١٩٠٨

لو كان همٌّ واحدٌ لاتقيته ... ولكنه همٌّ وثانٍ وثالثُ

استحممت، وبعد الحمام دخل الخواجا رفلة ثم جاء الفطور فأفطرت، ثم ذهبَ الخواجا رفلة فجلست وحضّرت درس تلميذتي. جاءت ابنة صاحبة المنزل لتعدّل فراشي فقالت: إنها فقدت أباها وأخاها فقلت لها: وأنا فقدت صديقاً لي مثل أخ، ثم جعلت تحدثني عن أخيها وهي تبكي، فقلت: لا حول ولا.. ثم نزلت لأذهب فلقيتني صاحبة المنزل فقالت: ابنتي الصغيرة تتعلم الموسيقى ولكنني لا أسمح لها أن تعزف على البيانو، لأني أتذكر أخاها، وجعلت تبكي فخرجت منقبض الصدر، فعلمت تلميذتي ثم رجعت إلى غرفتي وكتبت بعض قطع للجامعة، وذهبت إلى نيويورك فعرضتها على فرح أفندي انطون فسر بها.

ثم ذهبت إلى محل الخواجات ملوك، فلقيت رسالة من مستر هنري تلميذي يكلفني أن أذهب إليه غداً صباحاً بدلاً من بعد الظهر، ثم ذهبت وعلمت ابن الدبدوب، طلبت من أبيه بعض الدراهم فقال: أرجو أن تعذرني لأن ليس في اليد شيء الآن، فذهبت إلى محل الآنسة سعدى الحاج وأخذت من أخيها ريالاً، وذهبت وتعشيت ثم رجعت إلى محل الخواجات ملوك، فأخذني الخواجا رفلة، وذهبنا إلى منزل ميليا أخت انستاس لامبروس ليودعها الخواجا رفلة، فلم نجدها.. فتجولنا قليلاً في الشوارع فقلت للخواجا

رفلة: خذ من عمري خمس سنين وأرجعني إلى بلادي.. ثم جئنا الى بروكلن فحلقت ومسحت حذائي وانتظرت في غرفتي الخواجا نعمة الحاج فلم يجئ، فقمت وذهبت إلى بيت الخواجات ملوك لأتزوّد من الخواجا رفلة، وكان الطقس حاراً، فلم أطل السهرة فرجعت حالاً إلى غرفتي، ونفسي تحدثني أن أكتب إلى ابن خالتي يعقوب أستشيره ماذا أعمل.

يوم الأربعاء في ٢٥ آذار سنة ١٩٠٨

على ذلك القبر الكريم تحيّةٌ وجاء ثراه صيّب[٢٤] المزن[٢٥] هامعه[٢٦]

استحممت بالماء البارد جيداً، وأفطرت ونزلت إلى نيويورك، فمررت على محل الخواجات ملوك وأخذت كتاب مناظر القدس، وذهبت عند تلميذي مستر هنري فعلّمته وأخذت منه ريالين. استشرته في بيع كتاب مناظر القدس، فقال: أنا لا أعرف أحداً هنا غير تلاميذ المدرسة، ولست أظنهم يستطيعون أن يشتروه لأنهم ضيقو ذات اليد، ولكن بروفسر بور يستطيع أن يساعدك في ذلك، فذهبت عند بروفسر بور فاستقبلني هاشاً فعرضت عليه الأمر فاهتم به كاهتمامه بأشغاله الخاصة، وقال: أعرضه على أمي وأرجو أن تجد كثيرين ليشتروه. فإن نجحت في بيع هذا الكتاب أعدها فاتحة النصر وبارقة النجاح. رجعت إلى بروكلن فتغديت وجئت إلى غرفتي فحضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلّمتها، ومن هناك نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى ادارة الجامعة، فقرأت بعض الجرائد. أسرّ فرح أنطون إليّ أن السفير التركي بعث إليه بجواب على المطاليب سينشر يوم السبت في الجريدة، فسررت لهذا الخبر ثم ذهبنا إلى مطعم الشاوي، فتعشينا معاً، ودفع عني فعاتبته فقال: أنت ضيفي فقلت له: أيام الضيافة انقضت. ثم مشينا معاً إلى جهة معبر بروكلن وكنا نتكلم في الطريق عن مواضيع مختلفة، فقلت: لماذا يجيء الكتّاب الأوروبيون إلى هذه البلاد فيضعون الكتب عنها ولا يتركون شيئاً حتى يلمحوا إليه، ونحن نقيم فيها ولا نهتم أن نكتب عنها شيئاً؟، فقال: سترى في الجزء الآتي من المجلة شيئاً من ذلك. ثم تركته وجئت الى بروكلن فلقيت نقولا البرغوث فسألته عن أحواله، فقال: لي أسبوعان لم أبع شيئاً. ثم سألته عمّا سمع عن أخي يوسف فقال: لم يبق في جزدانه إلا بمقدار خمسة عشر ريالاً، فذكرت في نفسي الابن الضال.. علمت تلميذي الأرمني.

يوم الخميس في ٢٦ آذار سنة ١٩٠٨

أبت عيناي بعدك أن تكفا كأن قذى القتاد لها شفار

استحممت بالماء البارد ولعبت ثم أفطرت لحمة وبطاطا، ثم ذهبت فعلّمت تلميذتي ومن هناك رجعت

---

(٢٤) صيّب: السحاب المشبع بالماء.
(٢٥) المزن: السحاب الماطر.
(٢٦) هامعه: سياله.

إلى غرفتي فوضعت كتابي ونزلت رأساً إلى نيويورك . ذهبت إلى محل الخواجات ملوك فوجدت رسالة من الياس حلبي ، ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فقرأت بعض الجرائد ، ثم ذهبنا [أنا وفرح أنطون] فتغدينا ، ومن هناك ذهبنا إلى قهوة في البستان العمومي الذي على شاطئ النهر ، ولم يكن أحد فيها غيرنا ، وهذه أول مرة لقيت محلاً هادئاً ، فأخذت سيكاراً وشربنا قهوة وجلسنا نتحادث في شؤون هذه الحياة والمبادئ المختلفة التي تحكم الناس فيها . لا شيء يلذ لي مثل اجتماعي به ، اعتبر هذه الاجتماعات وهذه الاحاديث دروساً ومطالعات . اقترحت عليه أن يوجه اهتمامه إلى وضع كتاب يجمع مواده منذ الآن ويواصل العمل فيه سنين عديدة . ثم قمنا وذهبنا فرجع هو إلى الإدارة ، وذهبت أنا وعلمت ابن الدبدوب ، ثم رجعت الى إدارة الجامعة ، وما كاد يستقر بي الجلوس حتى دخلت جريدة الهدى فإذا فيها عدة أعمدة طعن على فرح أفندي ونقولا الحداد ، فعجبت لتطاول هؤلاء الناس وقحتهم ، وهم لا يكادون يحسنون الكتابة . فتحدثنا بخصوص هذه الكتابات وكدنا نرجح أن لا يعيرها اهتماماً ، بل يسكت ، فلا شيء يقلقهم مثل السكوت وعدم المبالاة .

كتب رسالة الى أفتيم مشبك يحثه أن يوافيه بأخبار القدس . وكتبت رسالة الى عيسى الطبة أكلفه بذلك . ثم ذهبنا ومشينا على شاطئ النهر وكان الطقس جميلاً . فقال : أنا لست راضياً عن كل شيء كتبته ، وإنما أكتب ما يرضيني حين آخذ قطعة أرض وأشتغل في الزراعة . فقلت له : ما رأيك في الزواج ألا ترى أنك إذا تزوجت يفتح أمامك مجال واسع للكتابة . فقال : نعم وإن للحب تأثيراً كبيراً يفوق كل تأثير . ثم تركته وجئت الى بروكلن فذهبت وسهرت في بيت الخواجات ملوك لأتزوّد من الخواجا رفلة . وضعت في البريد رسالة إلى أخي يوسف ورسالة أخرى الى سلطانتي .

يوم الجمعة في ٢٧ آذار سنة ١٩٠٨

يواجهني في كل وقت خياله كما كنت ألقاه قديماً ويلقاني

حلمت أني خرجت مع داود لشم الهواء . كنا نمشي وئيداً وكنت أنظر إليه من وقت إلى آخر ، فأراه أصفر الوجه نحيلا وقد ازرق ما تحت عينيه ، ولما رجعنا قلت له : نأخذ عربة ونذهب إلى الشيخ بدر ثم نرجع ، فمرت أول عربة فناديت السائق أن يقف فوجدت فيها راكباً ، ثم مرت الثانية والثالثة ولم نجد عربة فارغة فصرت أجري من محل إلى آخر ، مررت من أمام مخزن الخواجا نقولا عبده [والد سلطانة] وكان جالساً أمام مخزنه قنصل العجم ، ويوسف قرط فقالوا : مالك تركض؟ فقلت : أفتش عن عربة ، ثم اضطررنا أن نرجع للبلد ، لما وصلنا بطريركية الكاثوليك اصابته قشعريرة وتقيأ فتناولت محارمي وأعطيته اياها ليمسح بها ، ثم قلت له : أرجو أن تكون قد استرحت فقال : نعم . ثم قال : كم ضحكنا على كلمة وردت في إحدى رسائلك وهي قولك : ممتلئ حياة . . استحممت ولعبت وأفطرت ثم ذهبت فعلمت تلميذتي ، وبعد ذلك رجعت إلى غرفتي فقرأت بقية المقالة الانكليزية عن قصيدة تنسن الشاعر الانكليزي في صديقه الذي مات . ثم نزلت إلى

قرب المعبر الجنوبي وعلّمت الدكتور نيس فأخذت منه ريالين، وذهبت عند الاسكافي فأخذت حذاء وتركت حذاء ليرقعه، ثم ذهبت إلى محل الخواجا مكروشيان الأرمني وتركت له كلمة [مفادها] أني لا أستطيع أن أجيء للدرس هذه الليلة، ورجعت تواً الى غرفتي فتركت كتاباً كنت أحمله، وذهبت إلى محل الخواجات ملوك لأنهم دعوني في الصباح لتناول العشاء معهم. بعد العشاء جاء ضيوف كثيرون ليودعوا الخواجا رفلة. قامت بعض الأوانس الى البيانو وجعلن يعزفن ويغنين، ابتدأت احداهن ان [كذا] تعزف أغنية كان داود يغنيها، فانتفضت حزناً واستولى عليّ الجمود واغرورقت عيناي بالدموع. كنت إذا رأيت جمالاً وسمعت عزفاً وغناءً يقيمني الطرب ويقعدني، واليوم لو تجلت لي الملائكة تعزف على قيثارتها لكنت أعمى لا أرى، وأصم لا أسمع، بلى أميل الى رؤية الوجوه الكئيبة وسماع الأنغام المحزنة.

يوم السبت في ٢٨ آذار سنة ١٩٠٨

لا مـرحـبـاً إن جـاءت الـدنـيـا ولا أسـفـاً إذا ولّـت ومـا الـدنـيـا تـرى
هـي كـالـسـراب يـزيـد مـهـجـة وارد ظـمـأ ويـمـلأ مـقـلـتـيـه مـنـظـراً

قمت باكراً واستحممت ولبست وذهبت إلى منزل الخواجات ملوك، فوجدتهم على الفطور فدعوني للفطور فجلست وأفطرت، وبعد الفطور جلست الى الخواجا رفلة فقال: أمس مساءً وصل خاتم خطبة الخواجا سمعان سلامة على روز ابنة أخته، فهنّتهم ثم سبقتهم إلى نيويورك لأمرّ على ادارة الجامعة وآخذ عدداً من الجريدة ليتسلى به الخواجا رفلة في طريقه [إلى الاسكندرية]. مررت على مخزن الخواجات ملوك فلم أجد شيئاً فأغتممت فوق غمي، ثم جمعت عدد الجريدة وذهبت إلى البلد الذي يسافر منه البابور [=الباخرة]، ثم جاء الخواجا رفلة وعائلة أخته فوقفنا هناك نحو ساعة وأنا أبكي بكاء الأطفال لفراق الخواجا رفلة، وبقائي بعده وحيداً لا أنيس ولا رفيق ولا معين، ربما أحتاج غداً فممن أطلب؟!

وفوق ذلك بكيت حنيناً إلى السفر. متى يجيء يومي فأرجع الى تراب ضمّ جسدك يا داود. ثم رجعنا إلى نيويورك فرجعت إلى إدارة الجامعة. أخذت خمسة أعداد من الجامعة وأرسلت عددين إلى سلطانة وأختي ميليا، وعدداً الى مدرسة بيت لحم وآخر الى مدرسة مطران الانكليز، وأبقيت عدداً معي. ثم ذهبنا للغداء واشترطت عليه أن أدفع أنا هذه المرة، فدفعت ريالاً وخمسة سنتات، ثم ذهبت لأعلّم ابن الدبدوب فناداني أبوه وقال: ربما تحتاج الى دراهم هذا اليوم، ولكن بكل أسف أخبرك [أني] لا أملك شيئاً، ثم سألني: كم تريد أن أدفع لك عن كل درس، فقلت له: تعرف أني آخذ ريالاً على الساعة، ولكن لا آخذ منك إلا أقل ما يمكن، فقال: هل يكفي ربع ريال على الدرس فشعرت أن الأرض تميد تحت أقدامي، فقلت: ذلك لا يمكن، ولكن إن شئت علمته مجاناً. ثم رجعت إلى محل الخواجات ملوك فدفع لي الخواجا الياس ريالين، ثم جئت

الى غرفتي وجلست أكتب إلى ابن خالتي، فهاجني الحزن وصرت أبكي، ثم دخل عليّ الخواجات نعمة الحاج والياس حيدر.

يوم الأحد في ٢٩ آذار غ سنة ١٩٠٨

شوقي إليك على الأيام يزدادُ — والقلب مذ غبت للأحزان معتادُ
يا لهف نفسي على دهر فجعت به — كأن أيامه في الحسن أعيادُ

استحممت جيداً ثم أفطرت، وبعد الفطور جلست وراء طاولتي أكتب رسالة إلى ابن خالتي ثم خرجت فحلقت ورجعت، وقد اشتريت جريدة انكليزية وجلست أقرأها.

بعد الظهر جاء الخواجا نعمة، ذهبنا إلى مطعم يوناني فأكلت، ورجعنا إلى غرفتي ثم خرجنا فمشينا قليلاً في الهواء النقي. تذكرت أيام كنت أذهب إلى مدرسة بيت لحم على حصان، وأيام كنا نذهب إلى برك سليمان، وأيام الآحاد التي كنت أذهب فيها مع عيسى العيسى الى قالونة فنجلس على سطح القهوة ونطلب بيرا وأراكيل. تذكرت يوم شطحنا على عين قارة أقمنا حاجزا في الماء وضعنا وراءه الفواكه وقناني البيرا ولم نزل نغني ونأكل ونشرب ونطرب النهار كله. ولما حمي النهار بعد الظهر قمت أنا وداود واستحممنا في الماء الجاري.

تذكرت آخر شطحات في أرتاس، تذكرت كل ذلك، وقابلت تلك الأيام بما صرت إليه اليوم فكاد صدري ينشق. وقد استلقيت بعيد الظهر لأنام فلم تغمض عيني، بل جعلت وعيناي مفتوحتان أحلم.

توهمت نفسي أني في القدس؛ تارة في دارنا القديمة بجوار يعقوب سعيدة، وتارة في دار خالي جورجي أنا وابن خالتي يعقوب وقد جلسنا على الكراسي حول شجرة الليمون في صحن الدار. كان الأولاد يلعبون على الطريق ويضجون، فأتوهم أن شقيق ابن اختي يلعب مع اخوته وبنات خالي جورجي. كانت صاحبة المنزل تنادي ابنتها فأتوهم أن أمي تنادي، بل كان الهواء يهب عليّ من نافذة غرفتي لأني تركتها مفتوحة فكنت أحس كأن هواء القدس قد هبّ عليّ.. انزعوا مني ذاكرتي إذا كنتم تريدون أن أعيش في هذه البلاد.

انتظرت فرح افندي انطون فلم يجئ، فلما صارت الساعة التاسعة ذهبت وسهرت في بيت الخواجا نعمة الحاج، ولم أطل الزمن حتى رجعت ونمت.

يوم الاثنين في ٣٠ آذار غ سنة ١٩٠٨م

فإن تَغُلْ أحداً منا منيتُهُ — لا بد في غده الثاني ستتبعهُ

استحممت جيداً ولعبت ثم أفطرت ودفعت لصاحبة المنزل ١٤٠ سنتاً عن الفطور في سبعة أيام.

حضّرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلّمتها . رجعت الى غرفتي كتبت مقالة تحت عنوان «براز على قارعة الطريق» ثم نزلت الى نيويورك ، فذهبت تواً الى محل الخواجات ملوك وأنا أمني نفسي آن آخذ اليوم رسائل من القدس ، فلم أجد إلا رسالة وكارتاً ورزمة من مس سنكير .

وجدت في الرزمة كتاباً فيه قصيدة الشاعر تنسن المسماة In memoriam .

ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فعرجت على محل الخواجا حنا حشمة آملاً أن آخذ جواباً من أخي يوسف ، فاعتركت حينئذ في صدري عواطف شديدة مختلفة؛ حزن وغضب وقلق ويأس ووو . . .

وبعد أن جلست في ادارة الجامعة قليلاً ، نزلت فلقيت نقولا البرغوت فأخذته وذهبنا الى الحديقة على جانب النهر ثم جاء علينا الخواجا جورج خمار من عكا فجلسنا على أحد المقاعد هناك ، وجعلنا نتشاكى ونلعن الساعة التي جئنا فيها . وفي رجوعنا قال لي الخواجا جورج الخمار : سمعت أنه يقال إن المعلم نخلة زريق مات ، قال ذلك وهو لا يعلم من هو المعلم نخلة وما هي علاقتي به ، وكأنه رأى اضطرابي لهذا الخبر ، قال : سألت الكثيرين فقالوا لم يردنا خبر بذلك ، فلا بد أن يكون الخبر عارياً عن الصحة . لم يكفني أن مات داود حتى يموت معلمي بل أبي بل مصدر حياتي . لا ، لا ، لم يمت . ثم جعلت أتلاهى ولا أخطر المعلم نخلة في بالي .

رحماكم اكتموا هذا الخبر عني فلا أطيق سماعه . . ثم رجعت إلى إدارة الجامعة وفتحت كتاب تنسن ، وجعلت أقرأ في قصيدته ، ولما انتهى فرح أفندي من أشغاله خرجنا نمشي على شاطئ النهر ، فجعلت استقبح هذا العالم وأتقزز من مشاهده وأستقبح مبادئه ، بل زاد بي اليأس حتى تمنيت لو أخرج منه ، وجعل فرح أفندي يخطئني وينسب إليّ الضعف . علمت تلميذي الأرمني ثم أعطاني عنوان خواجا أميركاني يريد أن يتعلم اللغة العربية .

رجعت إلى غرفتي وأويت الى فراشي في منتصف الليل .

يوم الثلاثاء في ٣١ آذار سنة ١٩٠٨

أبيت بجفن للسهاد معانق   تصافح صدري راحتي طول ليلتي

استحممت ولعبت ثم أفطرت وبعد الفطور حضّرت درس تلميذتي ، وقرأت بعض الجرائد الانكليزية ، ثم ذهبت وعلمت تلميذتي .

رجعت إلى غرفتي نسخت «مقالة براز في الطريق» ، وأضفت بعض عبارات الى مكتوب ابن خالتي ، ثم نزلت الى نيويورك فذهبت الى مطعم الشاوي فتغديت ، التقيت بفرح أفندي هناك . قال لي : إن أديباً من الداخلية كتب رداً على مقالتي الأخيرة . ثم ذهبت الى محل الخواجات ملوك فلقيت كارتاً من سلطانتي فيه صورة ميناء يافا حيث كان آخر موقف بيني وبين داود في هذه الحياة ، ثم جئت إلى محل الخواجا حنا

حشمة لعلي أجد رسالة من أخي يوسف فلم أجد شيئاً .

وضعت رسالة ابن خالتي يعقوب مع عدد من الجرائد الأميركانية في صندوق البريد ثم ركبت القطار المرتفع وذهبت الى الشارع العشرين لأرى الخواجا الذي قال لي تلميذي الخواجا مكروشيان إنه يريد أن يتعلم اللغة العربية ، ولما التقيت به قال : إنه يفتكر ان يأخذ بعض دروس ولكنه لا يستطيع ذلك قبل ٢٨ نيسان القادم فرجعت بخفي حنين .

رجعت إلى إدارة الجامعة ونفسي ثائرة أتمثل بقول [أبي الطيب] المتنبي :

وإنـي لـمـن قـوم كـأن نـفـوسـهـم   بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما

وقول الطغرائي :

مـا كـنـت أوثـر أن يـمـتـد بـي زمـنـي   حـتـى أرى دولـة الأوغـاد والـسـفـل

هذا العالم ليس عالمي ، لم يكن يشفع فيه إلا وجودك يا داود . . ثم رجعت إلى غرفتي فجلست وراء طاولتي أقرأ الجرائد الأميركانية وقد ابتدأت أشعر بارتياح إلى قراءتها .

جاء الخواجا نعمة الحاج فذهبنا إلى مطعم اليوناني ، فشربنا كأسي قهوة وأكلت قطعة خبز مع زبدة ، ثم رجعنا إلى الغرفة وأعطيته درساً ، وبعد الدرس شعرت بهياج في أعصابي ، فتذكرت ليلة قلت لداود في غرفته ، وأخته منانة تعزف على البيانو : أحب الحياة الثائرة .

التقيت اليوم بالخواجا سليم ملوك ، فقال : كيف حالك؟ ثم قال : إذا احتجت إلى الدراهم فاعلم أن لك صديقاً ، فكدت أبكي .

يوم الأربعاء في ١ نيسان غ سنة ١٩٠٨

نـبـا مـنـك فـوق الـرمـل مـا بـك فـي الـرمـل   وهـذا الـذي يـضـنـي كـذاك الـذي يـبـلـي

استحممت ثم ذهبت فحلقت ، ومن هناك ذهبت الى مطعم يوناني وأفطرت ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً الى محل الخواجات دبدوب أسأل عما يكلف كتاب مناظر القدس ، فقالوا : يكلف واصلاً إلى هنا ريالاً وثلاثة أرباع . ثم ذهبت وعلمت تلميذي مستر هنري ساعتين متواليتين فدفع لي ريالين ، ثم واجهت بروفسر بور فقال : كنت أحسب أنك تجيء للدرس يوم السبت ولذلك لم أحضر الكتاب معي ، وقد عزمت أن أعرضه على بعض معارفي ، لنعرف كم يجب أن نستحضر منه ، ثم قال : ليتك افتكرت بهذا قبل اليوم وأحضرت منه قبل العيد الكبير . ثم تركته على أمل أن أرجع إليه يوم السبت القادم .

رجعت إلى ادارة الجامعة فأخذت نسخة من مجلة الجامعة لهذا الشهر ورجعت إلى غرفتي فقرأته بما يستحق من الإمعان ، أرجو أن يتمكن [فرح أنطون] في رواية مريم قبل التوبة وبعدها من بسط المبادئ التي كانت تحكم العالم في ذلك الوقت ، لعل فيها مبدأ يريح نفسي المضطربة . ثم ذهبت وعلمت تلميذتي .

نفسي حزينة حتى الموت. نزلت الى نيويورك وذهبت إلى إدارة الجامعة فلم أجد أحداً فجئت الى مطعم الشاوي وتعشيت، وما كدت أنتهي من العشاء حتى دخل فرح أفندي فجلست معه، أثنيت على مجلته كثيراً ورجوته أن يتأنق ما شاء في رواية مريم قبل التوبة، ويختار لكتابتها أحسن الأوقات استنزالاً للوحي. تكلمنا في مواضيع كثيرة لذيذة، ثم جئت الى بروكلن وعلّمت تلميذي الخواجا مكروشيان.

أخذني قبل الدرس الى مكتبة بروكلن وأخذت كتاباً من هناك.

عرفني بصديق له يعيش في ذات المنزل في غرفة مجاورة له. وقفنا بضع دقائق نتحدث، فوجدت أنه من الفوضويين الناقمين على الملوك، ولا سيما جلالة السلطان عبد الحميد.

الحياة أسمى من أن تصرف في مثل هذه الأفكار الجنونية. إذا كانت نفسك ثائرة أو مضطربة أو محزونة فحُبّ، أي: هَبْ حياتك لغيرك، إما لعائلتك أو شخص آخر فتسكن أعصابك وتهدأ اضطراباتك وتجد معنى لحياتك لم تكن لتجده لولا الحب.

رجعت إلى غرفتي عند نصف الليل ونمت.

يوم الخميس في ٢ نيسان غ سنة ١٩٠٨

وكلما فاض دمعي غاض مصطبري كأن ما سال من جفنيّ من جَلَدي

استحممت وأفطرت وحضرت درس تلميذتي وقرأت قليلاً في الكتاب الذي أحضرته أمس. ثم ذهبت فعلّمت تلميذتي ورجعت الى غرفتي. ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك فوجدت رسالتين من سلطانتي ورسالة من أختي وأخرى من الياس طرزي وكارتاً من مس سنكير، فحملتها وذهبت الى مطعم الشاوي وكنت آكل وأقرأ، ثم ذهبت الى قهوة زجاجية في وسط الحديقة العمومية التي على شاطئ النهر فطلبت فنجان قهوة واشتريت سيكاراً وجلست أقرأ [رسالتي] سلطانة الواحدة بالعربية والأخرى بالانكليزية. قالت في ختام الرسالة العربية: والرب يحفظك لمن تركها داود تعزية لك، وأودعت رسالتها الانكليزية Is there any hope for me to see America?.

وكلتاهما مكتوبتان بلغة عالية وبلاغة سامية. أفاخر بك يا سلطانة كل البنات بل أتيه عجباً على كل الشبان.

ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فجلست أقرأ في بعض الجرائد، ثم ذهبت الى بيت الست سارة جمل معلمتي القديمة فلم أجدها هناك، بل وجدت ابنتيها الكبيرتين ومعلمة أخرى كانت تعلم في مدرسة C.M.S، فجلست إليهن وجعلت أكلمهن عن أميركا وأقابل بينها وبين سوريا.

كن في أول الحديث يفضلن اميركا على سوريا وقلن: إنها سماء البنات وبلاد الحرية والسرور، ففيها التياترات والملاهي المتعددة، ولكن ما كدنا ندخل في الحديث حتى تغيرت أفكارهن وحنن الى سوريا.

سألتهن عن كتب مناظر القدس، فقلن متى جاءت أمهن سألنها عن أثمانها وعما عندها منها ثم يكتبن لي غداً.

رجعت إلى ادارة الجامعة فأخذت العددين الأخيرين من جريدة الجامعة اللذين فيهما مقالاتي وأرسلتهما إليهن. ثم جئت الى بروكلن فنزلت عند مطعم اليوناني وتعشيت قهوة مع قطعة خبز، ثم جئت الى غرفتي ففتحت الرسائل، وجلست أقرأها فلما وصلت إلى كلام داود الأخير في رسالة أختي هاجني الحزن، فصرت أبكي وحملت صورة داود وصرت أبلها بدموعي.

يوم الجمعة في ٣ نيسان غ سنة ١٩٠٨

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل

استحممت ولعبت وأفطرت، ثم ذهبت فعلّمت تلميذتي. رجعت إلى غرفتي فجلست أكتب إلى الياس حلبي فهاجني الحزن فبكيت، ثم نزلت إلى نيويورك فعرجت على محل الخواجا حنا حشمة لعلي أجد رسالة من أخي يوسف، فلم أجد فقال: أنا ذاهب غداً إلى فيلادلفيا، فأوصيته أن يحث يوسف على الكتابة، ثم ذهبت فتغديت ومن هناك ذهبت إلى بروكلن وعلمت الدكتور نيس ساعتين ونصف فدفع لي ريالين ونصف، ثم قدم لي سيكاراً فأشعلته وجلسنا ندخن ونتحادث. طلب مني أن اشركه في الجامعة ثم ودعته وجئت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى إدارة الجامعة وعرضت عليه هذا الاشتراك الجديد، وانتظرته ريثما انتهى من أشغاله، فجئنا إلى مطعم الشاوي وتعشينا، تحدثنا في مواضيع كثيرة عن المرأة وعن الزواج وعن مبدأ [الفيلسوف الألماني فريدريك] نيتش. ذكرت داود فقلت له: كنت قبلاً أخاف من الموت واستثقل التراب، وأما الآن وقد مات داود فلست أخشى وحشة القبر. تركته وجئت إلى بروكلن وعلمت تلميذي الأرمني. لا ينفك يحدثني عن قومه الأرمن ومرامي آمالهم وسعيهم المتواصل إلى تحقيق تلك الآمال. رجعت إلى غرفتي عند الساعة الحادية عشرة وقد طاف النعاس بجفنيّ، فأويت إلى فراشي، برد الطقس اليوم جداً حتى كادت تثلج.

يوم السبت في ٤ نيسان غ سنة ١٩٠٨

كيف الرجاءُ من الخطوب تخلصاً — من بعد ما أنشبن فيّ مخالبا
أوحدنني ووجدن حزناً واحداً — متناهياً فجعلنَهُ لي صاحبا

استحممت ولعبت وأفطرت وحلقت، ثم مررت على تلميذتي فرجوتها أن ترجئ درسها إلى ما بعد الظهر، ونزلت إلى نيويورك فمررت على إدارة الجامعة فأخذت عدد اليوم وفيه مقالتي «براز في الطريق»، ثم مررت على محل الخواجات ملوك فوجدت رسالة من الآنسة إدما بلورة تنكر عليّ ذكر سيئات الاميركان

دون حسناتهم، وتقول في ذيلها: أن ثمن الكتاب الواحد من كتب مناظر القدس ثلاثة ريالات، لما عرضت الكتب للدبدوب طلبت في الواحد ريالا ونصفاً ولما طلبتها منها طلبت ثلاثة ريالات، يا للعجب! ذهبت إلى مدرسة اللاهوت فلقيت بروفسر بور، قال: أنا ساع أن أدبر لك مشترين للكتاب وسأجتمع بعد يومين ببعض المستشرقين فأعرض عليهم الكتاب فربما وجدت بينهم من يعنى به. ثم تركته ورجعت إلى بروكلن فتغديت وعلّمت تلميذتي، فدفعت لي ثلاثة ريالات أجرة دروس هذا الاسبوع. ثم ذهبت إلى جامعة كولومبيا عند الدكتور كوتهايل فناولني سيكاراً وجلسنا نتصفح المسودة، وكأنني قلت له: ليس عندي قاموس لأتثبت من بعض الألفاظ، فقال: أهديك معجم محيط المحيط، كأنه يعني أن ذلك أجرتي فقبلته منه، وإن كانت أتعابي تعدل أضعاف أضعاف ثمنه. بقي من المسودة جانب كبير لم يتسع الوقت لأن نتصفحه فتركناه ليوم الثلاثاء، ثم جئت إلى مطعم الشاوي فوجدت هناك فرح افندي أنطون فجلسنا نتجاذب الحديث. طلب اليّ أن أنتقد «رواية مريم قبل التوبة» وأتطرق في الكلام إلى بقية مؤلفاته، فقلت: هذا ما كنت أحدث نفسي به وسأشرع قريباً في كتابة بعض فصول أقف فيها موقف الترجمان بين الجامعة ومؤلفاتها وبين القراء. ثم تركته على أمل أن يزورني غداً وجئت إلى بروكلن في القطار المرتفع. وقفت خارج العربات وصرت أنشد قصيدتي في داود وكدت أبكي. جئت إلى غرفتي، انتظرت الخواجا نعمة الحاج فلم يجئ، جلست أكتب إلى الياس حلبي ودمعي ينسجم وقلبي يضطرم إلى أن انتصف الليل.

يوم الاحد في ٥ نيسان غ سنة ١٩٠٨

وافجع من فَقدْنا من وجدْنا   قبيل الموت مفقود المثال

استحممت بالماء البارد ولعبت، ثم دخلت عليّ صاحبة المنزل بالفطور، فعافته نفسي، فلبست وخرجت وأفطرت في مطعم يوناني، ثم رجعت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي أكتب فأكملت رسالة الياس حلبي، وكتبت رسالة مطولة إلى سلطانتي، وأخرى إلى أختي، وأخرى إلى الياس طرزي. بعد الظهر جاء الخواجا نعمة الحاج فأعطيته درساً. وهذه أول مرة أشتغل يوم الأحد في حياتي. بعد الدرس خرجنا فذهبنا إلى دكان سوري فاشتريت دخاناً واشترى هو بردقاناً (برتقالاً) فأكلنا ثم ذهب إلى منزله، ورجعت إلى غرفتي فجعلت أقرأ الرسائل التي كتبتها وأضيف إليها بعض كلمات، فهاجني الحزن فلم أستطع الجلوس، فتركت القلم وحملت صورة داود وصرت أبكي وأنتحب وأغني بعض القصائد، وأتردد بين جدران غرفتي حتى تقرَّحت أجفاني، وكادت تسيل عبراتي دماً إلى الساعة التاسعة مساءً. وكنت انتظر فرح افندي أنطون فلم يجئ فأحسست بجوع فخرجت ومررت على الخواجا نعمة ليذهب معي فلم تسمح له أمه وأخته أن يخرج، فالتزمت أن أسهر عندهم فنظرت أخته إلى عيني، وقالت: ما لعينيك حمراوين، فقلت لها: من

القراءة. سهرت عندهم إلى الساعة العاشرة، ثم رجعت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي أكتب إلى أمي ضمن رسالة أختي، وقد خشيت أن يثير كلامي أحزانهم فتكلفت المزاح وكتبت لهم ما يوهمهم أني سلوت إلى أن انتصف الليل، ثم أويت إلى فراشي وقبل أن يزور النوم أجفاني جعلت أحلم أحلاماً مختلفة.

نيويورك الأحد ١٩٠٨/٤/٥ [رسالة]

حبيبتي

في صدري خواطر كثيرة مشتبكة تتجاذب قلمي، اسمحي لي أن أجعل الشكر فاتحة كلامي.

أخذت يوم الخميس الفائت رسالتين بقلمك، الواحدة بالإنكليزية والأخرى بالعربية، قرأتهما مراراً وأنا أعجب ببلاغتك، وكم تمنّيت لو أن داود حيّ لأرسل إليه تينك الرسالتين ليقرأ ويعجب.

نعم يا عزيزتي، افتقدت داود حين قرأت رسالتيك.

يوم كنت في يافا قرأت له بعض رسائلك التي كتبتِها لي قبل سفري، فقال: «وكاتبة أيضاً، لا شكّ أنك سعيد يا خليل». ولما أريته صورتك الزجاجية أشرق وجهه سروراً. وقفت بجانبه، وجعلنا كلانا نتأمل ذلك الجمال الملائكي. لم أرَهُ في حياتي مسروراً كسروره إذ ذاك، وقال: «لو هبطت الملائكة على الأرض لم تكن أجمل من سلطانة، ولا أطيب قلباً، ولا أعذب مبسماً».

أتذكرين يوم مررت بك مع أختي ميليا في ١٩٠٧/١٠/١٥ وذهبنا إلى صخرنا المحبوب فرأت ميليا زنبقة فذهبت لتقطفها، فاغتنمت أنا الفرصة وناولتك رسالة، فأخذتها بتؤدة ورزانة، ووضعتها في جيبك.

في غد ذلك النهار كتبت إلى داود ما يأتي نقلاً عن الرسالة بعينها لأنها عندي:

«عزيزي داود

أمس بعد الظهر أخذت ميليا ومررنا بسلطانة في المدرسة، فأخذناها وذهبنا وجاوزنا المنازل التي وراء محلّة [حيّ] الشيخ جرّاح، وجلسنا هناك على صخر تردّدنا إليه مراراً، وأقمنا بإزائه نصباً من الحجارة تذكاراً لحبّنا، فرأت أختي زنبقة على بعد فقامت لتقطفها، فتناولت أنا رسالة من جيبي فيها القصيدة وسلمتها لها، فأخذتها بتؤدة، ووضعتها في جيبها، كأنها تعني أنها أجلّ من أن تتلبّس بالرياء، وأرفع من أن تسير في الخفاء. وتلك صفة أُجلّها، فكأنني وإياها نشأنا على مبادئ واحدة، فقد كنت مرّات كثيرة ألقى أبي في الطريق وأنا أُدخّن، فما كنت أرمي السيكارة من يدي إلى أن يراني جيّداً، بل كنت أُريه إياها، ثم أرميها احتراماً له. أفما تستحقّ فتاة بهذه المبادئ أن تعبد؟ وحين سلمتني أوّل رسالة منها عند باب المدرسة أخذتها ولم يبدُ عليّ أقلّ اضطراب، بل أبقيتها في يدي ووضعتها في جيبي بشيء من الكبرياء.

لتباركك السماء يا سلطانة، أنت هي الفتاة التي كنت أُفتّش عنها، وقد أعياني التفتيش حتى وجدتك، ولم

تزدني هذه المسألة الصغيرة علماً بما انطويت عليه من المبادئ الجميلة، بل جاءت تزكية لصدق فراستي فيك».

فجاءني منه الكتاب الآتي:

«عزيزي خليل

لا أعرف إلى الآن، أأهنئك أم لا، لم أقدر أن أفهم ما تمّ بينكما. سبحان الله كيف أصبحت غريباً عن لغة الشعر والحبّ، قل لي بصريح العبارة، وبلغة التجارة، أتم الاتفاق بينكما أم لا؟ أأنتما عروسان أم مُحبّان؟ إذا كان الأمر قد تمّ فاشهرا خطبتكما قبل افتراقكما، وليرَ الناس نوركما ويُمجّدوا الحبّ الذي وحّدكما.

سأكون يوم الأحد على المحطة، يا حبّذا لو أمكن أن تكون خطيبتك معك، فإني مشتاق أن أراكما معاً».

أكتب لك هذه السطور وأنا أشرَق بدمعي.

وعدته أن تمرّ جميع رسائلي إليك عن يده، وأن أُطلعه على ما يتمّ بيني وبينك، فما هو إلاّ شهر حتى أظلمت شمسه ووسد رمسه. ولا تردني رسالة منك، أو أجلس للكتابة لك إلاّ نُعي إليّ نعياً جديداً، ولا شكّ أن روحه تُملي عليك الآن كما تُملي عليّ.

كل كلمة في رسالتيك الأخيرتين تفيض تعزية، ولا سيما قولك في آخر الرسالة العربية: «الربُّ يحفظك لمن تركها داود تعزيةً لك».

نعم أنت تعزيتي الوحيدة، ولولاك لكانت حياتي حلماً فارغاً، أما قولك في رسالتك الإنكليزية.

"Is there any hope for me to see America"

فقد ملأني حياة وحماسة، جعلني أنظر إلى أميركا نظراً آخر، صرت إذا مررت في الطريق أتوهّم أنك سائرة بجانبي يدي في يدك، وإذا رجعت إلى غرفتي توهّمت أنّك جالسة بجانبي تملأين غرفتي بهجة وجمالاً. ولا أتأمل في الحياة في أميركا إلاّ قلت: ماذا ترى يكون رأي سلطانة فيها، أتُسرّ بها أم تُفضّل أن يكون لنا عشٌّ جميل تحت سماء القدس الهادئة الأنيقة؟ كم يجب أن أجدّ منذ الآن، وكم يكون سخطي إذا عاكسني الدهر ودافعني عن نيل مرادي؟

ثم لست أكتمك يا عزيزتي أني قبل سفري أطلعت أستاذي بل أبي، بل مصدر حياتي، الأستاذ نخلة زريق على حبّنا، فسُرّ به وباركه، فإذا لقيتِه فهزّي رأسك له ليُباركك ويتعزى برؤيتك. ولست أراني في حاجة أن أوصيك أن تُعني بصحتك، وتُواصلي دروسك، وتصبري إلى أن يجمع الله شملنا، ويجبر خواطرنا.

خليل

حاشية: أشكرك على البطاقة التي أرسلتها إليّ وفيها صورة «ميناء يافا»، حيث كان آخر موقف بيني وبين داود في هذه الحياة.

نعم، على هذا الشاطئ تعانقنا العناق الأخير. وصلت إلى الباخرة وأنا واقف في وسط القارب، وقد انصرف المودّعون وبقي هو وحده واقفاً عاقداً يديه على صدره، ينظر إليّ ويودّعني وأنا أُلوّح له بالمنديل.

أكتب لك هذه الأسطر وأنا أبكي، كما أني لا أنظر بطاقتك إلاّ بكيت.

سيكون أوّل ما يُلاقيني غداً على هذا الشاطئ خيالك الكريم داود، داود، داود يا صديقي، إن حزني عليك لعظيم لا تخفّفه الدموع ولو جفّت.

تتمة الرسالة [كذا في الأصل]

تصلك رسالتي هذه والقدس قائمة قاعدة بالزائرين، والحفلات الدينية متتابعة في الليل والنهار. حقّاً إن هذا الأسبوع في القدس عظيم يجذب الناس من أقاصي العالم إليها، فكيف لا يجذب قلبي؟.

في كلّ سنة في مثل هذه الأيام، لم أكن أخلو من الاهتمام ببعض السيّدات من زائرات القدس من أصدقائي [كذا] ومساعدتهن لحضور حفلة خميس الغسل(٢٧)، وحفلة إنزال علم النبي موسى(٢٨)، وحفلة الجناز العظيم(٢٩)، وحفلة سبت النور(٣٠)، وهجمة الحبش(٣١)، وحفلة التقبيل(٣٢). أتذكرين السنة الماضية يوم حضرنا حفلة التقبيل من سطح دار العذراء وكانت أختي ميليا معنا، ثم جاءَت الآنسة كاتينكو حنانيا، ثم جاء أفتيم فحاولت أن أجمع بينكما، فأدرتِ ظهرك ولم تنظري إليه.

أترين أن أفتيم يعتب عليّ إذا سمع بعلاقتي بك؟. ألم أسعَ جهدي أن أوفّق بينكما؟ ألم أُفاتحك بأمره قبل أن فاتحتك بالحبّ بقليل؟. وإذا أمنت عتبه فهل آمن عتب أخيه وامرأة أخيه؟. ليعتبوا ما شاؤوا فلا أعرف نفسي إلاّ مخلصاً لهم، بل مؤثراً لهم على نفسي. وإذا ادّعى أفتيم أنه أحق بك مني لأنه سبقني إلى طلبك، فأنا والله يعلم كنت أفكّر بك مذ خرجت من مدرسة رام الله. ولما علمت بقصده تناسيت نفسي، وأقبلت على خدمته، وكنت أُحدّث داود بذلك، فيقول: لا أُريدها إلاّ لك، ولما تزاحم أفتيم وابن عمّه عيسى اجتمعت إلى ابنة عمّي حنة وقلت لها: إن أحسن حل لهذا المشكل أن ترفضوا الإثنين، على أمل أن عيسى يتزوّج حالاً، فلا يبقى إلاّ أفتيم، وحينئذٍ يشفع له إخلاصه ووفاؤه. وقد قال داود يومئذ: اطلبها أنت واكفنا

---

(٢٧) حفلة خميس الغُسل: احتفال يقام يوم الخميس قبل عيد الفصح، حيث يغسل البطريرك أرجل ١٢ راهباً أرثوذكسياً، تيمّناً بالسيد المسيح، الذي غسل أرجل تلاميذه، تواضعا.

(٢٨) حفلة انزال علم النبي موسى: من طقوس موسم النبي موسى، وهو مهرجان ديني اسلامي سنوي، أخذ احياؤه مع تزايد الخطر الصهيوني يتخذ ابعادا سياسية وتعبوية.

(٢٩) حفلة الجناز العظيم: يوم الجمعة قبل أحد الفصح، وهي ذكرى موت ودفن السيد المسيح.

(٣٠) حفلة النور: ختم العجينة على باب قبر المسيح، وذلك يوم سبت النور، وهو صرخة قيامة يسوع المسيح من بين الأموات، يلي الجمعة الحزينة (يوم صلب المسيح عند المسيحيين).

(٣١) هجمة الحبش: وهو قيام المحتفلين المسيحيين بدورة حول كنيسة القيامة، يوم سبت النور.

(٣٢) حفلة التقبيل: ثاني أيام عيد الفصح، يتبادل فيها المؤمنون قبلة المحبة.

هذا العناء ، فأنكرت ذاتي إكراماً للصداقة التي بيني وبين أفتيم. فإذا لم ينصفني اليوم فحسبي أنك تعلمين الحقيقة وتنصفيني، بل أن هناك ما هو أكثر من ذلك: لما أعيا أفتيم أمره استشارني، فقلت له: اكتب واستعطف خاطرها . فهل تسمحين لي أن أشير إلى أمر سرّي جرى حينئذ لم يقف عليه غيري، ولو لم ينقض أمره لبقي مكتوماً في صدري، إلى أن أوارى في قبري، إذا سمحت قلت: إنه كتب لك رسالتين وأرسلهما إليك عن يد ابنة أخته كاتينكو حين كنت تعلمين في مدرسة الروم الأرثوذكس في محلة «الساحة»، وقد قرأهما لي قبل أن أرسلهما . ولو لم يكن يحسبني من خلص أصدقائه، ويثق بي كل الثقة إني أكتم ذلك، لما خطر له أن يفضي إليّ بسرّه، وكنت في ذلك الوقت أتمنّى له النجاح، وأودّ لو يصادف كلامه لديك قبولاً فيستعطفك عليه، مع حبّي لك وتعلقي بك.

بالحقيقة لو لم ينته الأمر إليّ لكان أفتيم أليق شاب بك. كنت أقابل بين أفتيم وعيسى ابن عمه فأفضل أفتيم، لأني كنت أعتقد أنه يفهمك وأنك تفهمينه، وكنت أخشى أن لا تدبّري الأمر جيّداً، وتسلمي الأمر لأبيك فيختار لك عيسى. ولذلك احتطتك وعرضت عليك إخائي، حتى إذا اشتبه عليك الأمر ولم تجدي من يسعفك برأيه اعتمدت عليّ. وجعلت أقنع ابنة عمّي أن عيسى لا يوافقك، فضلاً عن أني كنت أعتقد أنك لا تستطيعين أن تمتزجي بأسرته، لما بينك وبينهم من اختلاف المشرب. وكنت دائماً أقول لداود: سلطانة تحتاج إلى أخ أو صديق يقف بإزائها في هذه الحالات، ولما عقدت معك عهد الإخاء ذاك اطمأنّ فكره. فكنت وأنت تروحين وتجيئين مشمولة بأنظارنا ومحوطة بعنايتنا . وكنا حين نتكلم عن الزواج نذكرك فأقول: إذا قدرت سلطانة لغيري فلا أتزوّج.

أشكر الله يا عزيزتي أنه لم يكذب أحلامي القديمة، فماذا كانت أحلامك؟ فهل فكّرت بي يوماً؟ .

أنا أعد نفسي سعيداً لأني وجدتك، لأنك مستجمعة كلّ الشروط التي كنت أتطلّبها . أرجو أن تجدي في الشخص الذي يلائمك، على أنه إذا لم يجمع بيني وبينك إلاّ الحبّ الخالص الشديد ، لكنّا حقيقين أن نكمل ما ينقصنا . أما أنت فكاملة، فهل لك أن تذكري لي الجوانب الناقصة فيّ؟ اقترحي عليّ ما شئت فأنا طوع إرادتك.

ليتني قريب منك لأسمع من فمك رأيك فيّ، لو كنت قريباً منك لكنت أجلس إليك كلّ يوم وأدرس معك هذه المسألة درساً دقيقاً .

ثم ليتني قريب منك في هذه الأيام، إذن لكنت أنت الفتاة التي أحضر معها كل الحفلات الليلية والنهارية، لكنت جعلت الناس يقولون: يحبّها ، بل جعلت أقطار القدس بأسرها تردّد ذكرنا . لست أحبّ أن يكون الحبّ فاتراً ، بل «لا خيرَ في الحبّ إن أبقى على المهج» .

إذا كانت عيناي وأنا بعيد عنك تلمعان، فكيف إذا كنت قريباً منك؟

عفوك يا داود إن هذا الحبّ لو لم تباركه لمات بموتك، وطويت صحيفته بانطواء صحيفتك. وسيكون

مع الإكليل الذي نضفره على رأسينا، إكليل آخر نضفره من أجمل الزهور وأطيبها أرجاً، ونضعه على قبركَ وقد بلّلته دموعنا. وسيكون خيالك كاهناً آخر يُبارك إكليلنا. وسيكون ذكرك موضوعاً آخر نقرنه إلى موضوع الحبّ. وسيكون رسمك زينة ذلك العشِ الذي سنبنيه، فارقد بسلام.

خليل

يوم الاثنين في ٦ نيسان غ سنة ١٩٠٨

كيف التذُّ بالحياة وقد كنت سروري فيها وأقصى مرادي

استحممت بالماء البارد ولعبت ثم أفطرت، وبعد الفطور حضرت درس تلميذتي. ثم ذهبت لأعلمها فوجدتها مريضة فرجعت إلى غرفتي. الطقس جميل، السماء صافية، فكيف يكون الطقس اليوم في القدس. لعل زهوراً نبتت على قبرك يا داود يعبّر أرجها عن عواطفك الرقيقة.. جلست اكتب إلى أستاذي الفاضل نخلة أفندي زريق أستعطفه وألهب عفوه عن قصوري، فتجاذبتني الأشواق والأحزان والحسرات فلم أملك دمعي. ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسائل فلم أجد شيئاً. ثم ذهبت إلى مطعم الشاوي فتغديت، ومن هناك ذهبت إلى إدارة الجامعة فأخذت خمس نسخ من عدد يوم السبت الفائت، وأرسلت اثنتين منها إلى سلطانتي وإلى أختي وواحدة الى مدرسة بيت لحم وواحدة إلى مدرسة المطران في القدس، وآخر إلى المعلمة سارة بلورة، ووضعت في البريد أيضاً خمس رسائل إلى سلطانتي وإلى أختي ومعلمي وإلياس حلبي وإلياس طرزي. ثم اشتريت عدداً من الجريدة الاميركية المسماة Evening Journal وذهبت فجلست على مقعد في الحديقة العمومية على شاطئ النهر أقرأ. ثم قمت من هناك وعرجت على محل الآنسة سعدى الحاج لآخذ ريالاً من الخواجا نعمة فلم أجده، فأخذت واحداً من الياس حيدر. ثم رجعت إلى ادارة الجامعة وكان فرح أفندي ينوي الخروج فخرجنا ومشينا على شاطئ النهر. كنت أنظر إلى الأمواج تتدحرج إلى الشاطئ، فأتصور نفسي على بالكون بيت داود في يافا أنظر إلى غياب الشمس. ثم جلسنا على مقعد هناك واستقبلنا النهر فضاق صدري ضجراً وسآمة من هذه المعيشة، وحننت إلى معيشتي القديمة الجميلة أيام كنت مثل طيور السماء أتمتع بالحرية والهواء النقي. تجاذبنا البحث في مواضيع كثيرة لذيذة، ثم ذهبنا فتعشينا وكنا نأكل ونتابع البحث في مواضيعنا. قد أصبحت الحياة مشكلاً لا يستطاع حله. ثم تركت فرح افندي وذهبت إلى بروكلن وعلمت تلميذي الخواجا مكروشيان وأخذت منه ريالين عن ثلاثة دروس، ثم جئت إلى غرفتي فكتبت وقائعي ونمت الساعة الحادية عشرة.

يوم الثلاثاء ٧ نيسان غ سنة ١٩٠٨

خليلايَ دونَ الناس حزنٌ وعبرةٌ   على فقد من أحببتُ ما لهما فقدُ

استحممت ولعبت ثم أفطرتَ وبعد الفطور ذهبت فعلّمت تلميذتي، وكأنها وجدت في نفسها فتوراً فلم تستطع أن تتم الدرس فتركناه وقد بقي من الوقت ربع ساعة، فرجعت إلى غرفتي. ثم ذهبت فحلقت وقصصت شعري ورجعت ثانية إلى غرفتي، وجلست وراء طاولتي أكتب إلى مس سنكير. نفسي مملوءة ضجراً. لم أحس بثقل الوجود كما أحسّ به اليوم. أعصابي كليلة وجسدي مسترخ، وإن كل شيء يلوح لي أسود قاتماً فلا استطيع عملاً.. ثم نزلت إلى نيويورك فعرجت على محل الخواجا حنا حشمة لعلي أجد رسالة من أخي يوسف فلم أجد شيئاً. ثم ذهبت فتغديت، وبعد الغداء عرجت على الخواجا يوسف بولس فوقفت اليه، وشكوت له ما أجد، وطلبت منه أن يكتب إلى المعلم نخلة يصف له حالي. ثم ذهبت إلى جامعة كولومبيا إلى غرفة الاستاذ ريتشارد كوتهايل فجلسنا ننقح المسودة، استغرق العمل ساعتين كادت تخرج عينيّ من رأسي، لما قمت لأذهب حمّلني محيط المحيط، كأنه يعني أن ذلك أجرتي فحملته ورجعت والدنيا لا تكاد تسعني. اذا جعت غداً أو عريت أكلت المحيط وخطت من أوراقه ثياباً. لا حول ولا.. جئت إلى غرفتي. انتظرت الخواجا نعمة الحاج فلم يجئ، فذهبت لأمر عليه فلم أجد أحداً فوقفت في الطريق في وسط هذه المدينة المزدحمة بالناس المكتظة بالعمران كأنني في منفى أو صحراء مغمورة بالرمال، ولم يتمثل لي إلا شخص اليأس ولم تهب عليّ الا عواصف الحزن والشقاء. لا أخلص من هذه الحال إلا بأعجوبة من السماء. ليتني لم أخلق، ليتني لم أستنشق نسيم هذه الحياة الثقيل، يا الله. إن كان يوجد إله. خلصني.

يوم الاربعاء في ٨ نيسان غ سنة ١٩٠٨

أُردد ويلي لو قضى الويلُ حاجةً   وأُكثر لهفي لو شفى غُلّةً لهفُ

استحممت ولعبت، ثم ذهبت إلى المطعم اليوناني فأفطرت. ثم نزلت إلى نيويورك ومن هناك ذهبت إلى المدرسة اللاهوتية فعلمت تلميذي مستر هنري ساعتين متواليتين، فأخذت منه ريالين مع أجرة القطار ذهاباً وإياباً. ثم عرجت على غرفة بروفسر بور فقال: الرأي أن نطوف على بعض القسوس ونعرض عليهم الكتاب، قد نجد كثيرين لا يريدونه فلا تقنط، بل واصل السعي فلا بد أن نجد كثيرين يريدونه، وحينئذ أكتب إلى القدس وأحضر العدد الذي يلزم. إذا لم يكن بدّ من ذلك فلا بأس من التجربة. رجعت إلى إدارة الجامعة. عرجت على محل الخواجا حنا حشمة لعلي أجد رسالة من أخي يوسف فلم أجد. سامحه الله. ثم ذهبت فتغديت وجئت إلى بروكلن، فحضّرت درس تلميذتي وذهبت لأعلمها فوجدتها نائمة فأيقظوها، فقلت لهم: ليتنا نؤجل الدرس إلى الغد فأنا ايضاً لا أحس بنشاط. وبعد قليل أحضروا القهوة فشربت ورجعت إلى

غرفتي. ما أدراني لعلهم يقولون: مسكين بدون شغل وإنما طلبنا منه أن يعلمها ليعيش. من كان يقدّر أن يكون هذا نصيبي في هذه البلاد. لعن الله الساعة التي جئت فيها، ليتها لم تكن. وضعت رسالة مس سنكير في البوسطة. اشتريت ربطة رقبة سوداء. أخذت أكتب إلى أخي يوسف فابتدأتها [الرسالة] بندب سوء حظي وأني اصبحت ضعيف الهمة كليل الأعصاب مسترخي الجسد ضيق الصدر حليف اليأس، إلى أن قلت: إني لا استطع القيام بواجباتي نحو عائلتي، فلما ذكرت هذه العبارة عاودتني حميّتي وأنفتي وانبعثت فيّ آمالي فغيرت لهجة كتابتي، واستصرخت همة يوسف وعرضت عليه إما أن يجيء عندي أو أذهب عنده لنشتغل في البيع، فكل شيء يهون في سبيل الواجب المقدس. نزلت علمت تلميذي الخواجا مكروشيان ثم رجعت إلى غرفتي وقد عقدت النية أن أفتش غداً عن شغل، فإذا لم أجد فليس الا البيع. أتحتاجين يا عائلتي وأنا موجود. وضعت رسالة لأخي يوسف في صندوق البريد.

يوم الخميس في ٩ نيسان غ سنة ١٩٠٨

أريد بسطة كفّ أستعين بها على قضاء حقوق للعلى قِبَلي
والدهر يعكس آمالي ويقنعني من الغنيمة بعد الكد بالقفل

استحممت ولعبت ثم أحضروا لي الفطور فافطرت. كتبت رسالة إلى بولس اغاجنيانَ، أحد تلامذتنا القدماء، الذين تركوا المدرسة وخرجوا إلى العالم، فجاء هو إلى اميركا. ذهبت علمت تلميذتي وكان الخواجا سليم ملوك هناك، فلما خرج تبعته واستشرته: ماذا أعمل؟ فقال: ماذا أقول لك، إن الاحوال أسوأ مما كانت عليه قبل أسبوع وكل يوم تزداد كرباً وسوءاً عن يوم، فكأنه صب ماء بارداً عليّ. هو ذا قد تركت اليأس واعتصمت بالحزم وتمسكت باهداب الرجاء، ولكن ماذا عساي أستطيع أن أعمل؟! كل همتي وحزمي وآمالي وحماستي لا تنفعني شيئاً، إذا كان اليأس يحلني حلاً فالحميّة بدون عمل تتصرف فيه تقتلني قتلاً. لا حول ولا قوة الا بالله. ثم جئت إلى غرفتي فجلست وراء طاولتي وكتبت رسالة طويلة إلى الدكتور سْبور، ثم نزلت إلى نيويورك فعرّجت على محل الخواجات ملوك فلم أجد الا رسالة من مس سنكير، فاستولى على حواسي جمود، فلم أعد أرى أو أسمع أو أشم أو ألمس أو أذوق، ولم يتحرك مني غير قدمي إلى حيث لا أدري. ثم استفقت على نفسي وذهبت إلى ادارة الجامعة، كان موضوع حديثنا مذهب نيتش، فقلت له: لا يقوى الانسان على هذه الحياة إلا إذا أطلق لنفسه العنان في كل شيء واستخف بكل الآداب والفضائل، وأبكم فيه صوتين: صوت ضميره وصوت عواطفه، وتعاطى المسكر وانغمس في الشهوات، فإن المسكر يلهب دمه ويعوّده العربدة والشهوات تقوي نفسه. وأما اذا ظل يغالب نفسه ويكبح جماحها وينزهها عن بعض ما يشينها، فأخلق به ان يداس في هذا العالم. ثم مررت على محل الخواجا حنا حشمة لعل رسالة وردت من أخي يوسف فلم أجد شيئاً، ثم ذهبت إلى محل الآنسة سعدى الحاج، وشددت على

الخواجا نعمة ان يجيء للدرس، بل مالي لا أقول أني توسلت اليه. ثم جئت إلى غرفتي، وبعد قليل جاء الخواجا نعمة فعلّمته. وعد أن يأخذ درسين في الأسبوع.

يوم الجمعة في ١٠ نيسان غ سنة ١٩٠٨

أبداً تستردّ ما تهبُ الدنيا فيا ليت جودها كان بخلا
فكفت كون فرحة تورث الغم وخل يغادر الوجد خلاً

استحممت ولعبت ثم أفطرت، وبعد الفطور حضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلّمتها، وبعد ذلك رجعت إلى غرفتي. دعتني صاحبة المنزل، وقالت: إن الذين كانوا ساكنين في غرفتك قبلاً كتبوا اليّ أنهم راجعون، فهل تحب أن تأخذ الغرفة الأخرى؟ وأرتني غرفة خلفية أصغر من غرفتي، فقلت لها: أنا ناو أن أنقل قرب المعبر الجنوبي لأكون قريباً من أشغالي، وربما نقلت هذا الأسبوع، ثم ذهبت فتغديت وحلقت ورجعت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي أكتب مقالة عن المدارس، ولماذا لا يكون الصانع في معمله والكاتب في ادارته مثل التلميذ في مدرسته؟ لماذا لا يعتنى بصحته وبهجته كما يعتنى بصحة التلميذ وبهجته؟ ثم نزلت إلى لوكندة مارغريت حيث يقيم الدكتور نيس وعلّمته ساعتين متواليتين، وأخذت منه ريالين، ثم أريته كتاب مناظر القدس واستشرته ماذا أعمل، فقال: احمل الكتاب وطف على القسوس وبعض السيدات واعرضه عليهم، فلا بد أنك تجد من يهتم به ويشتريه، لا تعتمد على رسائل وصاة، فإن ذلك لا ينفعك مثل الاعتماد على نفسك، فكأنه قال: لا تعتمد عليّ. فعولت أن أعمل برأيه وأطوف على بعض المنازل تأديبا لنفسي، ثم تركته فلقيت الياس حيدر، فذهبنا نفتش عن غرفتين لي وله، فوجدنا غرفة واحدة فاستأجرتها بريال ونصف في الاسبوع، ودفعت لصاحبة المنزل ريالاً عربوناً. ثم ذهبت فتعشيت، ثم ذهبت لأعلّم تلميذي الأرمني فخضنا في الحديث في مواضيع كثيرة، فرأيته ناقماً على الأديان مثل كثيرين غيره. فقلت له: اذا لم نحترم الأديان إلا للمبادئ الجميلة السامية فيها لكفى، استغرق حديثنا الوقت كله ولم يبق وقت للدرس، فقررنا أن نأخذ درساً يوم الأحد الساعة الحادية عشرة بدلاً من درس الليلة، ثم تركته وجئت إلى غرفتي، فجلست وراء طاولتي وكتبت وقائعي.

يوم السبت في ١١ نيسان غ سنة ١٩٠٨

تتخلّف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناءُ فتتبعُ

حلمت أني كنت في القدس، وأننا كنا في غرفتي أنا وأنت وأختي ميليا وابن خالتي يعقوب، ثم تركتكم وذهبت في قضاء غرض، فلما رجعت وجدتكم تقلبون يوميتي، ثم نظرت فوجدت بضعة أسطر جديدة في وقائع ذلك النهار بخط ابن خالتي يعقوب. ثم حلمت أني التقيت بشبلي الجمل، [فقال]: كيف يموت داود

قبل ان استسمحه وأطلب عفوه عما اسأت به إليه ، فقلت له : إن فاتك ذلك فإن داود لم يفته قبل موته أن يسمح ويستسمح . وقد رأيت رؤى كثيرة فكأن ليلتي كانت عبارة عن شهر في القدس ، وكل ليلة تقريباً أزور القدس وأرى الجميع . . استحممت ولعبت وأفطرت ثم جلست وراء طاولتي أحضر درس تلميذتي . ثم ذهبت لأعلّمها ، وإذ كانت غرفة الأكل غير مهيأة بعد ، صعدت إلى الصالون فبادرتني الآنسة سلمى قائلة : إننا أطلنا السهرة ، أمس ، فتأخرنا في القيام اليوم ولذلك لم تكن الغرفة مهيأة ، فقلت لها : أغبطكم على سهراتكم ، فقالت : كانت سهرة أمس سهرة مهمة ، ولا بد أن تسمع بها قريباً ، فقلت : وماذا حدث؟ فقالت : أمس مساءً عقدت خطبتي على شاب اسمه عزيز ثم أخذت تطنب في مدحه والثناء عليه ، ثم قالت : كنت أحب لو كان خالي هنا ويرى خطيبي ليتغير رأيه في السوريين هنا ، فقد ذهب وهو يعتقد فيهم اعتقاداً لا ينطبق على الجميع ، ثم ليتأكد أني لم أكن أبالي بخطيبي الأول ولم أكن اجتمع به سراً كما اتهمني ، نعم التقيت به مرة وحللت ما كان معقوداً بيننا . فهنأتها وشكرتها على استرسالها اليّ وثقتها بي . ثم علمت تلميذتي فدفعت لي ريالين ، وجئت إلى غرفتي ثم نزلت إلى نيويورك ، فمررت على محل الخواجات ملوك فوجدت رسالتين الواحدة من أختي ميليا والأخرى من ابن خالتي يعقوب ، وفيها رسالة من أمي وأخرى من أختي ميليا ، ورسالة مردودة كنت أرسلتها إليهم في ٦ شباط . ثم مررت على إدارة الجامعة فأخذت عدد اليوم ، وذهبت إلى جامعة كولومبيا فاشتغلت مع الدكتور كوتهايل في تنقيح المسودة ، عرضت عليه الكتاب [مناظر القدس] فوعدني أن يحضر لي قائمة عنوانات [كذا] وبعض رسائل إلى أصدقائه . رجعت فتعشيت مع فرح أفندي انطون .

يوم الأحد الواقع في ١٢ نيسان غ سنة ١٩٠٨

تلك أيامنا تولت سراعاً — وعلى إثرها الشقاءُ توالى

استحممت جيداً بالصابون من رأسي إلى قدمي ، ثم أفطرت ، وبعد الفطور ذهبت لأعلم تلميذي الخواجا مكروشيان الأرمني . مشيت إلى الشارع السادس والثلاثين ، كنت أرى الناس راجعين من الكنائس وفي أيديهم بعض أوراق النخيل ، فتذكرت بهجة هذه الأيام في القدس وحننت إليها ، ثم جاء الترام فركبت وذهبت وعلمت تلميذي ، وبعد الدرس مررت على الياس حيدر وجئت معه إلى غرفتي . نزلنا عند مطعم اليوناني وتغدينا ثم جئنا إلى الغرفة . جاء الخواجا نعمة الحاج . وضعت كتبي وأوراقي في شنتة لأرسلها إلى غرفتي الجديدة . دفع اليّ الخواجا نعمة ريالاً من أصل حسابه . ذهب الخواجا نعمة إلى منزله . بقيت أنا والياس تكلمنا عن الأشغال ، خطر لي أن استدعي أخي يوسف وأتركه معه في البيع . انتظرت فرح افندي كل [فترة] بعد الظهر فلم يجئ ، ثم ذهبت مع الياس إلى بيت الآنسة سعدى الحاج فجاؤوا بفنوغراف وركبوا عليه اسطوانات عربية ، فكانت أغانيه نواحاً في أذني ، اقول مرات كثيرة لنفسي : احسبي أني في حبس أو أخدم

في العسكرية، ولكن لا ألبث أن أرى أن المحبوس أفضل مني وأهنأ عيشاً. لو كنت محبوساً في القدس لما حرمت زيارة أهلي واصدقائي. لما صارت الساعة السابعة ذهبت مع الياس حيدر إلى مطعم اليوناني لنتعشى. في الطريق جاء ولد من خلفه وضربه على ظهره فرجفت أعصابي حنقاً وغيظا. ولما جلسنا للأكل لم أجد قابلية من تأثري. وهذه ليست أول مرة تحرش به الاولاد. من يستطيع ان يصبر على فظاظة الاميركان وخشونتهم؟ بعد العشاء رجعنا إلى غرفتي وانتظرت فرح أفندي أنطون إلى الساعة التاسعة فلم يجئ، فقمنا وذهبنا لنسهر في بيت الخواجا نعمة وقد اشترى عوداً فأخذته وضربت عليه بعض أنغام، ثم أخذه الياس حيدر وضرب عليه بعض الأغاني، وصار يغني. طلبت منه أن يغني «يا ميمتي يا ميمتي» وكدت أبكي. لما انتهت السهرة مررت على غرفتي، فأعطيت الياس شنتة الكتب.

يوم الاثنين في ١٣ نيسان غ سنة ١٩٠٨

إن الشقاء بالشقيّ مولعٌ

استحممت ولعبت ثم أفطرت، وبعد الفطور حضّرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلّمتها. رجعت إلى غرفتي فوضعت ثيابي وكل اشيائي في الشنتة، ثم ودعت صاحبة البيت ودفعت لها حسابها وحملت الشنتة وخرجت، فمر الترام فركبت وجئت إلى الغرفة الجديدة. ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت أولاً إلى محل الخواجات ملّوك فلم أجد رسائل، فضاق صدري، كأنها أول مرة انتظرت رسائلهم فلم تجئ. ثم ذهبت فتغديت، وبعد الغداء ذهبت إلى ادارة الجامعة فأخذت نسختين من عدد يوم السبت وأرسلتها إلى سلطانتي. جلست عنده [فرح أنطون] قليلاً وكان مشغولاً فلم أحب أن ألهيه عن عمله، فذهبت إلى محل الخواجا حنا حشمة، فسألته عن أخي يوسف لأنه كان في فيلادلفيا أمس وأول أمس، فقال: أخوك مبسوط لا يهمه شيء، قال لي: أخي يكتب لي دائماً أن أجيء إلى نيويورك، فإن ذهبت فماذا أعمل؟ لا أستطيع أن أشتغل وحدي، وأما هنا فإني أشتغل مع شريك. وإذا قررت الذهاب فلا أستطيع أن أذهب قبل أواسط أيار. ثم قال: سألته لماذا لا تكتب له، فقال: ماذا أكتب؟ هو دائماً يكتب لي ويعنفني ويقول سمعت كذا كذا، وعلى الجملة فقد فهمت منه أن يوسف لا يبالي بشيء، وجنون مني أن أعتمد عليه في شيء. خرجت من عنده وافكار كثيرة بل هي هموم بل سموم كانت تجول في صدري، ركبت القارب وجئت إلى بروكلن وروحي اصغر من السمسمة ومدامعي كادت تتفجر من جفنيّ. خطرت لي سلطانة وخطر لي أن اكتب لها أن ننتظر شهرين آخرين، فاذا لم أوفق فلتتركني وشأني، فلا يحق لمن كان مثلي شقياً متعساً أن يكون له مثل سلطانة. أكتب هذه الأسطر ومدامعي تنسجم. أخذت أكتب لسلطانة واليأس يملي عليّ والدمع ألهب خديّ. ثم ذهبت لأعلّم تلميذي فالتهينا بالحديث، وذهب الوقت ولم نأخذ درسا فاجلناه إلى الغد.

الحي السوري في نيويورك، ١٨٩٥ . رسم وليام بورو. مجموعة جوناثان فريدلاندر.

يوم الثلاثاء في ١٤ نيسان غ سنة ١٩٠٨

ما أعجب الأيامَ توجبُ للفتى　　منحاً وتمحنُهُ بسلب عَطاء

استحممت ولعبت ثم لبست ثيابي وخرجت، فمررت على الياس حيدر فذهبنا وأفطرنا في مطعم سوري. بعد الفطور رجعت إلى غرفتي وحضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلمتها، ثم رجعت إلى غرفتي وكتبت رؤوس أفكار عن حادثة صهيون للجامعة، وحاولت أن أكتب بعض رسائل إلى القدس، فلم اعرف ماذا أكتب. تركت القلم ونزلت إلى نيويورك وذهبت إلى مطعم الشاوي فتغديت. لقيت هناك فرح أفندي فاعطيته الورقة، قال: إنه ذاهب لملاقاة أخته. ذهبت إلى جامعة كولومبيا، كان التلاميذ في ساحة اللعب عراة الأقدام إلى فوق الركب فتمنيت لو أستطع أن أشترك معهم في ألعابهم. دخلت عند الدكتور كوتهايل وأخذنا نتصفح المسودة الى الساعة السادسة والنصف، قال لي: إنه ربما دبر لي مساعده في اللغة العربية لِيأخذ دروساً، وأما متى يتم ذلك فالأيام آتية. مررت على محل الخواجا حنا حشمة فوجدت رسالة من أخي يوسف لا ينصحني أن اشتغل بالبيع إلا اذا استطعت أن آخذ بضائع بقيمة أربع مئة ريال، وأن أتأكد أن أصدقائي الأميركان يعطوني مكاتيب توصية لأصدقائهم ومعارفهم، وإلا فلا يستطيع أن يجيء إلى نيويورك لأن بضائعه قليلة، ثم يحثني على الصبر والثبات.. جئت إلى بروكلن فتعشيت وذهبت عند تلميذي الأرمني فعلّمته فدفع لي ريالين، ثم جلسنا نتحادث في مواضيع كثيرة. عرفت منه طرفاً من أحوال الأرمن وإنها لأحوال محزنة: أخلاق منحطة ومبادئ سافلة، الخيانة متفشية بينهم ولا يفتكرون إلا بالانتقام من الدولة التركية، و[بالانتقام] بعضهم من بعض. رجعت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي وكتبت وقائعي إلى الساعة الحادية عشرة. السلام عليك يا داود لو كنت حياً لساءتك أحوالي، وآلمتك أخباري، كل يوم إلى الوراء.

١٥ نيسان يوم الأربعاء سنة ١٩٠٨

هيهات خاب السعي وانفصمت عُرى　　حبل المنى وانحلّ عقد رجائي

حلمت أني كنت في القدس وأنه كان عرسي، وكانت الدار حافلة بالبنات، وجعلت امرأة عمي تزغرد، ولست أدري ماذا خطر لي حينئذ فبكيت.. استحممت ولعبت ثم ذهبت إلى غرفة الياس حيدر فأفطرنا معاً خبزاً وحلاوة، ثم نزلنا إلى نيويورك فذهب هو إلى شغله وذهبت أنا لأعلم تلميذي مستر هنري، دفع لي ريالين ثم ركبت القطار وجئت الى ادارة الجامعة فجلست قليلا، ثم ذهبت فتغديت. مررت على محل الخواجات ملّوك آملاً أن آخذ رسائل اليوم، لأن بريد سوريا جاء، ولكن رجعت بالخيبة وأحسست أن قلبي صار قطعة رصاص. جئت إلى بروكلن إلى غرفتي فحضرت درس تلميذتي، ثم لما قمت لأذهب عندها وجدت أن الوقت قد مضى، وأحسست بضعف وارتخاء فلم أذهب، بل رجعت إلى غرفتي. آه على فنجان قهوة من يدك يا أمي. آه على ابتسامة من فمك فتحييني. كل أيامي هموم تذيب الصخور ولست

أصيب ساعة سرور. احتاج إلى كف لطيفة تأخذ بيدي، أحتاج إلى صدر مملوء حناناً أسند إليه رأسي.. كتبت رسالة إلى ابن خالتي يعقوب وأخرى إلى ميليا وأخرى الى أخي يوسف. وعند الساعة السابعة جاء الياس حيدر فذهبنا وتعشينا في مطعم سوري، ثم ذهبت وعلّمت تلميذي الأرمني. بعد الدرس تكلمنا في مواضيع كثيرة. رجعت إلى غرفتي وقد أحسست بقوة في جسدي وحماسة في صدري، فكيف لو كنت موفقاً في الشغل؟ أضفت بعض كلمات إلى رسالة كل من ابن خالتي وميليا ويوسف ثم نمت بعد الساعة الحادية عشرة. أجلت رسالة سلطانة إلى الغد لعلي آخذ منها رسالة فأجيبها عليها.

نيويورك ١٥/٤/١٩٠٨ [رسالة]

سلطانتي

وقفتُ على باب المدرسة، أترقّب نزولك بقلب خافق، فلا تلبثين أن تبرزي، فيمشي قلبي في صدري للقائك، تدرجين على الدرج بخفّة الجآذر ورشاقة العصافير، وقد تلثمت بخمارك الأبيض الرقيق، كأنه قطعة غمامة شفّافة أمام الشفق، وقد كتمت ابتسامة في شفتيك تحكي ابتسام الفجر في أيام الربيع الجميلة، ولثوبك الجميل حفيف يحكي هينمة النسيم إذا تحرّش بالأزهار العطرة، فاستقبلك وقد اعتُقل لساني وخانني بياني فأحني رأسي إجلالاً وتكرمةً، ثم أسير بجانبك إلى أوّل منعطف، فننحدر بين الأشجار وقد انبسطت الطبيعة أمامنا بحلتها الأنيقة؛ هنا زنبقة، وهناك أقحوانة، وأسراب الطيور تمرّ بنا فتداعبنا، ثم نصعد في ثنايا الجبل بين الصخور البيضاء، إلى أن نصل إلى صخرنا المحبوب فنجلس عليه نتجاذب أحاديث كأنها أناشيد الملائكة. وحين تنحدر الشمس للمغيب نقف جنباً إلى جنب نودّعها، ثم نتخطر على قمة ذلك الجبل نقطف الزهور، تارة نتسلق مرتفعاته، وتارة نهبط منخفضاته، وقد جعلت الريح تعبث بأطراف شعرك الجميل، فترفعين يدك من وقتٍ إلى آخر لتصلحيه، كأنك تُطارحين الأرواح الجميلة المخيّمة فوقنا التحيات...

كل ذلك موضوع تصوّراتي، وصورة أحلامي. كل يوم أقف تلك الوقفة، كل يوم أخطر تلك الخطرات، لا تجيء الساعة الرابعة إلا طرت إليك على أجنحة الخيال، وسرت معك من المدرسة إلى أوّل منعطف إلى صخرنا المحبوب.

طال الفراق يا سلطانة، روحي ترفّ في صدري شوقاً إليك، أحسُّ كأنني في منفى. متى يفكّ أسري؟ متى أرجع إليك؟ تارة يستولي عليّ اليأس فأستغرق في حزني، وتارة يهاجني الشوق فلا أملك دمعي. هنا وقفت لأني لم أعد أستطيع القرار.

تردّدت بين جدران غرفتي وأنا أبكي وأُغنّي قول البهاء زهير:

تُرى هل علِمتم ما لقيت من البعدِ   لقد جلَّ ما أُخفيه عنكم وما أُبدي

وما وصلت إلى قوله:

عليكم سلام اللّه والبعد بيننا   وبالرغم مني أن أُسلّم من بُعدِ

حتى كاد صوتي يختنق وصدري يحترق.

أما كنا نستطيع أن نعيش بدون أميركا؟ ألم يكن دخلي يكفي لأن نعيش سعداء؟ وماذا كان ينقصنا؟ وهو ذا قد جئت أميركا فماذا استفدت، وماذا عساي أن أستفيد؟ أليس القرب مهما كانت حالنا أفضل من كل غنى أميركا؟ ألم يكن الحبّ وحده يكفل لنا السعادة؟ وما أدراني لو بقيت في القدس أني كنت نجحت نجاحاً كبيراً لا أبلغه في هذه البلاد مهما اجتهدت؟.

أخشى يا سلطانة إذا طال البُعاد أن أرجع إليك بوجه متجعّد، وجسد هزيل، وعينين ذابلتين، وشعر قد وخطه الشيب، من فرط ما أُقاسي في مغالبة الشقاء، وما أُلاقي من صدمات اليأس وهجمات الحزن، وما أذرف من الدموع السخينة، وما أُكابد من تباريح الأشواق ولواعج الفراق، على حين كنت أقدر أن أصرف العمر معك في شباب ناضر وزهو دائم.

لو كانت أميركا قريبة لاستشرتك في الرجوع إليك أو مجيئك إليّ، وحينئذٍ، فأين كنا فهناك جنتي وموطن أفراحي، وأقول مع الشاعر:

لم أدر ما غربة الأوطان وهو معي   وخاطري أين كنا غير منزعجِ

أما الآن وأنا بعيدٌ عنك تفصلني عنك البحار الواسعة والمسافات الشاسعة فصبري واهٍ، وسروري ناءٍ، وزفراتي متصلة في العشي وفي الضحى.

أغبط الذين يضحكون، بل أغبط الذين لا يتأثرون.

آه ما أشدّ ما تكون وحشتي غداً إذا اخضرت الأشجار وتفتّحت البراعم، وازرقّت السماء، ورقّ الهواء. سأستقبل الشمس بصدرٍ منقبض، وأودعها بقلب مجروح، ستطول تنهداتي إذا هبّ النسيم يحمل في أردانه أرج الزهور.

وفي الختام لا أرى بُدّاً من أن أشكو إليك إبطاء رسائلك، فقد مرّ الآن على رسالتك الأخيرة خمسة عشر يوماً. إذا وردت رسائلك وأبطأت كل الرسائل فلا يهمّني، وحق الحبّ الطاهر يا سلطانة:

لأنت منى قلبي، وغاية بغيتي وأقصى مُرادي، واختياري وخبرتي

خليل

يوم الخميس في ١٦ نيسان غ سنة ١٩٠٨

كيف يلتذ بالحياة معنّى   بين أحشائه كَوَرْيِ الزناد(٣٣)

(٣٣) كَوَرْيِ الزناد: كقدح الزناد.

استحممت ولعبت ثم أفطرت. بعد الفطور حضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلّمتها. رجعت إلى غرفتي؛ كتبت رسالة إلى أمي ثم نزلت إلى نيويورك، فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملّوك لعلي أجد رسائل من القدس فلم أجد. لقيت هناك الآنسة سلمى ملّوك وخطيبها فعرفتني به فهنأتهما ثم ذهبت فتغديت، وبعد الغداء ذهبت إلى ادارة الجامعة، وكانت [هناك] الآنسة روزا أخت فرح أفندي أنطون فعرفني بها، ثم جئت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي أكتب إلى سلطانتي وقد اشتد شوقي وضاقت روحي فلم أتمالك أن بكيت، فترددتُ بين جدران غرفتي أبكي وأغني.

ترى هل علمتم ما لقيت من البعد　　　لقد جلّ ما أخفيه عنكم وما أبدي

وما وصلت إلى آخر القصيدة حتى كاد صوتي يختنق وصدري ينشق. كم تكون وحشتي غداً إذا اخضرت الأشجار وتفتحت البراعم وازرقت السماء وطاب الهواء.. جاء الخواجا الياس حيدر فذهبنا إلى مطعم سوري، فذهب هو إلى بيت الخواجا نعمة الحاج، ودخلت أنا وتعشيت. بعد العشاء ذهبت زرت الخواجا حنا حشمة فدخلت معه عند جيرانهم، وكان الخواجا صموئيل صليبي يلعب بالكمنجة فناولني إياها، وشدد علي أن ألعب، فعزفت نغمة داود وشرد بي الفكر إلى قبره وقد خيمت عليه الوحشة وانتشر فوقه الظلام، فاغرورقت عيناي بالدموع.

يوم الجمعة في ١٧ نيسان غ سنة ١٩٠٨

ومتى غبت ظاهراً عن عياني　　　ألفه نحو باطني ألقاكا

استحممت ولعبت. لولا الاستحمام واللعب لدببت على العصا. لم يبق من آثار سعادتي سواهما.. قد أنام في المساء وقد مللت الحياة وأقوم صباحا والدموع في عيني، ومع ذلك لا أرى نفسي إلا ذاهباً إلى غرفة الحمام، ثم ألعب ألعابي وفكري شارد وخواطري مشغولة.. بعد الحمام خرجت وأفطرت، وبعد الفطور حضرت درس تلميذتي ثم ذهبت لأعلمها فوجدت هناك خطيب الآنسة سلمى، ومع اعجابها به وثنائها عليه لم يملأ عيني، أرتني اقوال الجرائد عن خطبتها، وقالت: لعل الجامعة تذكر غداً ذلك. بعد الدرس نزلت إلى نيويورك وذهبت رأسا إلى ادارة الجامعة وطلبت منه [فرح أنطون] أن لا يغفل ذكر الخطبة في عدد غد فوعدني بذلك. ثم ذهبت فتغديت وداود كل الوقت في فكري، اشتقت الى الاشتراك معه في الفكر، حننت إلى أيامنا الماضية. رجعت إلى بروكلن وذهبت لأعلّم تلميذي الدكتور نيس فقيل لي: يجيء بعد نصف ساعة، فصعدت إلى الطابق الحادي عشر من البناءة وجلست على الكرسي، وأخذت رسالة سلطانة ورسائل أختي وأمي ويعقوب ابن خالتي وقرأتها، ثم اغمضت عينيّ وغبت في عالم الخيال، فلم ألبث أن زار الكرى جفني فنمت. ثم دخل عليّ الدكتور نيس وابتدأنا الدرس، وبعد الدرس قال: نيويورك مكتظة باليهود وسائر المهاجرين بحيث زاد الناس عن العمل، ومن يريد أن ينجح في هذه البلاد فليترك

نيويورك ويذهب إلى الداخلية، فالأشغال هناك كثيرة. دفع لي ريالين، رجعت إلى غرفتي، أرجعت الكتاب الذي استعرته من مكتبة بروكلن، ثم ذهبت وعلمت تلميذي إلى الساعة العاشرة، ثم رجعت وأويت إلى الفراش.

يوم السبت الواقع في ١٨ نيسان غ سنة ١٩٠٨

امطـــري لـؤلـؤا جـبـال سـرنـديـب وفـيــضـي آبـار تـكـرور تـبـرا
أنـا إن عـشـتُ لـسـت أعـدم قـوتـاً وإذا مــت لـســت أعــدم قــبــرا

استحممت ولعبت ثم خرجت فأفطرت. وبعد الفطور رجعت إلى غرفتي وحضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلّمتها ودفعت لي ريالين ونصفاً، ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك، فوجدت رسالتين الواحدة من أختي ميليا والأخرى من مس سنكير، ثم ذهبت إلى ادارة الجامعة فأخذت عدد اليوم وجلست اقرأه. دخل الخواجا نقولا حداد فعرفوني به، لم أر بعد من يستحق أن أشبهه بأحد اصدقائي في القدس. بل يكاد يرجح لديّ أننا في القدس أرقى كثيراً من كل من لقيت من السوريين. ثم رجعت إلى غرفتي، جلست أنسخ رسالة أختي ميليا مرة ثانية، فأضفت إليها شيئاً كثيراً، بحيث استغرقت رسالتها أربع صفحات. في المساء جاء الياس حيدر فذهبت معه واشتريت له حذاء، ثم ذهبنا فتعشينا، وكان عشائي (لبن إمه) ورزاً. ما أدراني وأنا أنفق على أكلي وأتأنق في اختيار ألوانه أن أمي لا تجد ما تأكله. ثم رجعت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي وجعلت أقرأ بعض الجرائد العربية. السماء شاتية ولكن الطقس دافئ. وفرت في سكني في هذه الغرفة خمسة ريالات، لولا أني نويت أن اشتري ثياباً جديدة لكنت أرسلت بها إلى القدس. إذا استمر دخلي على مقداره رجوت أن أوفر في كل شهر بعض الريالات، فأبعث بها إلى أمي إن شاء الله.

يوم الاحد في ١٩ نيسان غ سنة ١٩٠٨ (أحد الفصح غ)

بـئـس حـال بـدلـت مـن أنـسـهـا وحـشـةً أو مـن صـلاح الـعـيـش غـيّ
حـيـث لا يـرتـجـع الـفـائـت وا حـسـرتـا أسـقـط حـزنـا فـي يـدي

استحممت جيداً وحلقت ولعبت وغيرت ثيابي التحتانية، ثم جاء الياس حيدر ونقولا البرغوت فذهبنا وأفطرنا في المطعم السوري، ثم رجعت إلى غرفتي. السماء شاتية. كتبت رسالة إلى مس سنكير وأضفت بعض سطور إلى رسالة أختي ميليا فجاءت [في] أربع صفحات، لم أترك شيئاً حتى ذكرته لها. أرجو على الأقل أن تستفيد من قراءة رسالتي وتقبس لغتها وأفكارها، ثم ذهبت فتغديت. وضعت في صندوق البريد ثلاث رسائل واحدة إلى ابن خالتي، وفيها رسالة طويلة لأختي، وأخرى لأمي ورسالة إلى سلطانتي،

وأخرى إلى مس سنكير. التقيت في المطعم بالخواجا صموئيل صليبي فأمسك بي وشدد عليّ أن أذهب إلى بيتهم، فذهبت فعبأوا لي أركيلة ثم ناولني الكمنجة فعزفت نغمة داود، فتخيلت أني واقف على قبره أسلم عليه بها. قد أصبحت تراباً يا داود، لهفي عليك وعلى شخصيتك الراقية وكمالك الرائع وصداقتك الممتازة. كيف استقبلت أمك هذا العيد؟ من يعلم مبلغ حزنها؟ لو كنت في القدس لكنت زرتك قبل أن يبزغ الفجر، وأكببت على ترابك أبلّه بدموعي قبل أن يبله ندى الصباح. على أني أشعر أني قريب من مضجعك في قبرك عليك سلام الله ما تعاقب الجديدان.. وبعد أن أقمت عندهم قليلاً رجعت إلى غرفتي. ذكرت عيسى العيسى في طريقي وحدثت نفسي أن أكتب إليه، ولما جئت إلى غرفتي أخذت أكتب له، وضعت صورتنا نحن الثلاثة أمامي فأخذتني حمى الحزن وخنقتني العبرة. ثم قمت وذهبت إلى المطعم السوري وأنا لا أشعر بقابلية [لتناول الطعام] ولكنني أكلت صحن باميا لئلا أجوع فلا أجد ما آكله. ثم مررت على الخواجا صموئيل صليبي وذهبنا معاً إلى كنيسة البروتستانت، وكان موضوع الوعظ القيامة الحقيقية، ذكر في أثناء كلامه بهجة هذا العيد في القدس. رجعت إلى غرفتي ونفسي تكاد تسقط غماً وحزناً.

يوم الاثنين في ٢٠ نيسان غ سنة ١٩٠٨

حَزَنُ المضاجعِ لا نفاد لبثه　　　حُزناً بذاك قضى القضاءُ نفاذا

استحممت ولعبت ثم خرجت فالتقيت بإلياس حيدر فأفطرنا معاً. ثم رجعت فحضرت درس تلميذتي وذهبت فعلّمتها، رجعت فتغديت في المطعم السوري، ثم حملت رسالة عيسى العيسى[٣٤] ونزلت إلى نيويورك. مررت على محل الخواجات ملوك آملاً أن أجد رسالة من أحد فلم أجد شيئاً فأسقط في يدي. ثم ذهبت إلى ادارة الجامعة فأخذت [عدد جريدة] المقتطف وجلست أقرأه إلى الساعة الرابعة. ثم مررت على محل الخواجا حنا حشمة فلقيت عنده جميل عودة، جلست هناك قليلاً، أعدنا ذكر القدس فقلت لهم: إن حياتي في القدس، لا أجد أجمل منها، أينما ذهبت لم يكن يهمني إلا الاعتناء بصحتي وتوفير أسباب راحتي وسروري، ثم أخذت الخواجا جميل ومررنا على محل الخواجات ملوك لعل رسالة جاءت بعد الظهر فلم نجد شيئاً، ثم جئنا إلى بروكلن إلى غرفتي. سألته عن أخي يوسف فقال: كان منذ بضعة أيام في الفراش من فرط ما يفكر ويهتم، فكدت أذوب اشفاقاً عليه. ثم قال: الأحوال هناك رديئة جداً لا يكادون يحصلون قوتهم. ثم جاء الياس حيدر ونقولا البرغوت فقمنا وذهبنا إلى المطعم السوري، وذهب الخواجا جميل إلى منزل الخواجا حنا حشمة، وبعد العشاء ذهبت وعلّمت تلميذي الأرمني. وضعت رسالة عيسى العيسى في صندوق البريد. جاءني كارت من الدكتور نيس يطلب اليّ أن اذهب عنده غداً الساعة الثانية بعد

---

(٣٤) عيسى العيسى (١٨٨٠-١٩٥٠): من يافا، صحافي ريادي، ومؤسس جريدة فلسطين، نُفي إلى تركيا نتيجة مواقفه من العسف العثماني، عاد إلى يافا وأصدر جريدة «فلسطين»، عضو بارز في «حزب الدفاع الوطني».

الظهر، وبعد الدرس نذهب معاً إلى الحمام على حسابه. افتكرت أن أكتب إلى أخي يوسف أدعوه لقضاء العيد عندي في نيويورك. لما رجعت إلى غرفتي كتبت رسالة إلى أخي يوسف.

يوم الثلاثاء ٢١ نيسان غ سنة ١٩٠٨

فيا مهجتي ذوبي على فقد بهجتي ... لترحال آمالي ومَقْدم أوجالي

حلقت ثم استحممت ولعبت ثم خرجت فأفطرت، وبعد الفطور نزلت إلى نيويورك. أرجعت كتاب الأغاني إلى ادارة الجامعة، وجدت هناك الخواجا نقولا حداد والآنسة روزا أنطون [شقيقة فرح انطون] تكلمنا عن مصر ثم رجعت إلى بروكلن ونفسي مملوءة ضجراً.. حلمت الليلة أني رجعت إلى القدس بالبنطلون والبرنيطة، وكان ابن عمتي شكري قد رجع إليها فمشينا معاً في الطريق. لما صارت الساعة الثانية بعد الظهر ذهبت علمت الدكتور نيس ساعتين متواليتين، قال لي: إنه التقى بسيدة اميركية وتكلم معها عن كتاب مناظر القدس ووعدها أن يرسله اليها، وأنه سيكتب لي قائمة بأسماء بعض القسوس مع رسائل وصاة إليهم، فشكرته على اهتمامه ولطفه. ثم ذهبنا إلى الحمام التركي، وبعد أن وضع كل منا ما يحمل من الدراهم والساعة في خزانة حفظ مفتاحها معه، دخلنا أولا إلى غرفة دافئة جدا مثل خلوة في حمامات بلادنا، ولبثنا هناك نحن نصف [ساعة]، ثم دخل الدكتور غرفة أخرى أدفأ منها وذهبت إلى غرفة الاستحمام فجاءني محمم وألقاني على ظهري وأخذ يدلك صدري وبطني ورجلي ويدي، ثم ادارني على وجهي ودلك ظهري، وبعد أن دلكه كثيراً جعل يخبط عليه بيديه، ثم تناول فرشاة وصابوناً وجعل يغسل جسمي، وبعد ذلك وقفت تحت مرش(دوش) تدرج الماء فيه من الحار إلى البارد، ثم دخلت غرفة البخار الحار فكأنها جهنم، وبعد أن أقمت فيها قليلاً والبخار يندفع اليها اندفاعاً حتى لم أعد أبصر، خرجت وذهبت إلى بركة ماء باردة وغطست ثلاث مرات. وعلى الجملة فقد ارتحت وسررت جداً. في المساء ذهبنا تعشينا أنا والياس حيدر ونقولا البرغوت وبعد العشاء جاء الياس ونقولا وأحضرا معهما اسكافياً قال الياس: إنه كثير النوادر والقصص، وجعل يسرد أمامي بعض قصص كنت سمعتها وأنا صغير وما صدقت أن قاموا وذهبوا. يخال إليّ أني لا استطيع أن أؤثر كثيراً على الياس. ارسلت اليوم رسالة إلى أخي يوسف.

يوم الأربعاء في ٢٢ نيسان غ ١٩٠٨

وأما «عزائي» واصطباري وسلوتي ... فلم يبقَ لي منهن غيره أسامِ

رأيت خالي جورج وأشيل سيقلي في نومي. قمت باكراً فاستحممت ولعبت ثم جاء الياس حيدر فذهبنا وأفطرنا، وبعد الفطور رجعت إلى غرفتي فوجدت رسالة من الدكتور نيس فيها شك بريالين، ورسالة وصاة الى السيدة الاميركانية التي تكلم أمس عنها، وبعد أن قرأت قليلاً نزلت إلى نيويورك فمررت

على محل الخواجا حنا حشمة لعلي أجد رسالة من أخي يوسف فلم أجد ، ثم ذهبت إلى ادارة الجامعة لآخذ عدد اليوم فلم يكن قد صدر بعد ، فذهبت إلى محل الخواجات ملوك لأني سمعت أن بريد سوريا جاء اليوم فلم أجد شيئاً ، ثم ذهبت فعلمت تلميذي الخواجا هنري ساعتين متواليتين. كل يوم أرى منه انعطافاً ووداداً . قلت له: لو أعرف اللغة الانكليزية جيداً لكنت ألقيت في بعض المدارس خطباً عن فلسطين ، فقال: معرفتك كافية ، وأخذ يشجعني على ذلك ، ووعد أن يكتب إلى إحدى المدارس بهذا الخصوص. تركته وأنا أحدث نفسي بهذه الآمال الجديدة ، ثم جئت إلى ادارة الجامعة فوجدت الجريدة قد صدرت فأخذت عددي ، قال لي فرح افندي انطون: أن [يوسف] الغلاييني [وهو صاحب مطبعة] عاد ففاتحه بأمر المجلة التي يريد أن يصدرها ، وطلب منه أن يتكلم معي لأتولى تحريرها وقال: إن دفع لك خمسة وعشرين ريالاً فلا بأس ، وأما إذا دفع أقل من ذلك فلا تقبل ، فتركت المسألة له ، واتفقنا أن نعود الى هذا الموضوع غداً . هو ذا بابان جديدان غير كتاب مناظر القدس. يخيل لي أن حظي أخذ يتحسن. رجعت إلى غرفتي فحضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلمتها ، وبعد الدرس رجعت وكان الطقس جميلا ، وأحسست من نفسي بنشاط فمشيت نحو ثلاثين مربعاً على اصطلاحهم. جاء الياس حيدر ونقولا البرغوت فذهبنا وتعشينا ، وبعد العشاء ذهبت فعلمت تلميذي الخواجا مكروشيان ، فقال لي أنه رأى التلميذ الاميركي الجديد ، فقال له أن يقول لي أن اذهب عنده لنبدأ بالدرس في ٣٠ نيسان لا في ٢٨ منه. رجعت إلى غرفتي فكتبت وقائعي.

يوم الخميس في ٢٣ نيسان غ سنة ١٩٠٨م

يا راحلا وجميل الصبر يتبعه هل من سبيل إلى لقياك يتفقُ
ما انصفتك جفوني وهي دامية ولا وفى لك قلبي وهو يحترقُ

حلمت أن امبراطورة المانيا كانت في القدس ، فبينما كانت مارة في الطريق وقفت أتفرج عليها ، فحسبوني فوضوياً يريد اغتيالها فألقوا القبض عليّ ، فجاءت الامبراطورة ونظرت في وجهي وحست يدي فلم ترَ عليّ علامة خوف ، مما دلها أني لم أرد بها شراً فأطلقوا سراحي وهي تبتسم لي. استحممت ولعبت ثم جاء الياس حيدر فذهبنا وأفطرنا ، وبعد الفطور ذهبت علمت تلميذتي ، ونحن في الدرس جاء موزع البريد ودفع إليهم بعض كارتات بينها كارت لي من الخواجا رفلة ارسله اليّ من جبل طارق أصعد الدمع الى عيني. مشيت نحو ثلاثين مربعاً ثم ركبت القطار وجئت إلى المطعم السوري ، فتغديت ثم نزلت إلى نيويورك ، فذهبت رأسا إلى محل الخواجات ملوك وأنا لا أشك أني أجد رسائل ، فلم آخذ إلا رسالة من الاميركان يحادثونني فيها عن ساعات داود الأخيرة ، فاستغرقت في حزني ثم جئت إلى محل الخواجا حنا حشمة لعلي أجد رسالة من يوسف فلم أجد ، فصعد الدم الى رأسي وضاقت أخلاقي وتمرمرت روحي ، وجالت

تجاديف هائلة في صدري. فأخذت ورقة من الخواجا حنا وكتبت رسالة الى البيت أقطع علاقتي معهم فلا أعرفهم ولا يعرفونني. ونويت أن أكتب رسالة أخرى مثلها الى يوسف، فما دمت أنتظر رسائلهم فلا تجيء فلا نهاية لعنائي وعذابي. وكدت ألقي رسالة البيت في صندوق البريد، وعولت أن لا اهتم من الآن فصاعداً بالرسائل وردت أو لم ترد. ثم ذهبت إلى قهوة وشربت أركيلة ثم مررت على الخواجا الغلاييني لأراه بخصوص المجلة فلم أجده، ثم مررت مرة ثانية على محل الخواجات ملوك فلم أجد شيئًا. فمررت على الياس حيدر وجئنا الى بروكلن فاشتريت قبّين وربطة، وربطة للجوارب، ثم تعشينا، بعد العشاء حلقت. دفع لي الخواجا نعمة الحاج ريالاً وثمانية سنتات آخر حسابه.

يوم الجمعة الحزينة في ٢٤ نيسان غ و١١ ش سنة ١٩٠٨

ويا من قد نوى سفرا بعيدا　　　متى قل لي رجوعك من نواكا
جزاك الله عني كل خير　　　واعلم أنه عني جزاكا

استحممت ولعبت، مرّ عليّ نحو شهرين والزكام ملازمني. لبست ثيابي وخرجت فمررت على الياس حيدر فذهبنا وأفطرنا، وبعد الفطور رجعت إلى غرفتي. جاء الصيف ولم أزل بثيابي الشتوية، ولست أعلم متى أستطيع أن اشتري ثياباً جديدة. اذا اتفقت اليوم مع الغلاييني على تولي تحرير مجلته أكببت على المطالعة وكددت ذهني وأسهرت جفني، لأشتغل بالعمل وأوفيه حقه. ذهبت عند السيدة الاميركانية التي حملني اليها دكتور نيس رسالة وصاة [توصية] فاستقبلتني امرأة جليلة عليها آثار النعمة، وهشت الي فأريتها الكتاب وتكلمت عن كل صورة فيه فأوصتني على كتابين منه، وأرادت ان تدفع لي سلفاً، فقلت: متى جاء الكتاب أخذت الثمن. وعدت ان تحكي عنه لصديقاتها، فشعرت أن غمامة اليأس أخذت تنجلي عن نظري. ثم نزلت إلى نيويورك، فذهبت عند يوسف الغلاييني صاحب المطبعة، وجلست إليه وتكلمنا عن المجلة فقلت له: العمل سهل ولكن لا بد من التروي والاستشارة، عرفت منه أنه من القدس من عائلة دمياني وقد رأيت عليه ملامح تلك العائلة، ثم تركته ورجعت إلى بروكلن فتغديت، وبعد الغداء نمت ثم قمت نشيطاً. لا يهب الهواء على وجهي إلا وأحسست بهواء العيد، ولا نظرت إلى السماء إلا رأيت سماء القدس. مررت على حنا حشمة فلم أجد رسالة من يوسف، لعل له عذراً. حضرت درس تلميذتي ثم ذهبت لأعلّمها فوجدتها متعبة، فلم تستطع ان تأخذ درساً، فرجعت إلى غرفتي تارة افتكر بداود وتارة افتكر بسلطانة، هناك الحزن وهنا التعزية. جاءني الياس حيدر فقال: نجيب ينتظرنا في المطعم السوري وهو يدعوك للعشاء، فذهبنا وتعشينا. طلب مني أن أذهب معه للبيع. ثم ذهبت فعلّمت تلميذي الأرمني، وبعد الدرس ذهبنا إلى الكنيسة لنحضر حفلة الجناز فرأيت ما تنقبض له النفس وتحمر له الوجوه خجلا. قال لي نقولا البرغوت في الطريق: إنه ينوي أن يذهب إلى البرّ للبيع، وطلب مني أن اعطيه ريالين. رجعنا للمطعم

السوري وشربنا قهوة، نام الياس حيدر عندي لأننا تأخرنا في المطعم الى نصف الليل.

يوم السبت في ٢٥ نيسان غ و١٢ ش سنة ١٩٠٨ (سبت النور)

يا زماني الذي مضى يا زماني لك مني تواتر الزفراتِ

استحممت ولم ألعب، ثم خرجت فمشيت قليلاً، ثم دخلت المطعم السوري فأفطرت. وبعد الفطور رجعت الى غرفتي فحضّرت درس تلميذتي ثم ذهبت لأعلّمها، فوجدت أنها تتأهب للخروج فلم تأخذ درساً. جلست إلى الآنسة سلمى فقالت: وردتني عدة رسائل بدون امضاء يتهكمون عليّ [فيها]، وكل يوم أسمع أخباراً من السوريين لا يتصورها العقل ولا يتحملها أحد، بل إن كثيرين سعوا جهدهم أن يطعنوا فيّ وفي عائلتي أمام عريسي ليكرهوه بي، ثم جعلت تطنب في مدح عريسها وأنها لم ترَ أحسن منه، ثم أرتني خاتما أهداها إياه ثمنه ٧٠٠ ريال، وقالت: كنت أود أن يكون خالي هنا ليراه لأنه ذهب من هنا وهو سيء الاعتقاد بالسوريين كلهم، بل وبي أيضاً، فإنه كان يتهمني أني كنت أجتمع بخطيبي السابق في الحدائق كما كانوا يبلغونه. رجعت إلى غرفتي ثم نزلت إلى نيويورك فمررت على محل الخواجا حنا حشمة، فلم أجد رسالة من أخي يوسف، ثم مررت على الجامعة وكان هناك الخواجا نقولا حداد فنزلت معه للغداء. مررت في طريقي على محل الخواجات ملوك فلم أجد رسالة من القدس، فإلى متى أنتظر رسائلك يا سلطانة فلا تجيء؟! سأعاتبك على ذلك عتاباً طويلاً. أما أخي يوسف فلست أهتم به بعد الآن كتب أو لم يكتب، ليعش كل منا وحده. ثم ذهبت إلى المطعم السوري حيث كان قد سبقني الخواجا نقولا الحداد فتغدينا، وبعد الغداء شربنا أراكيل وجلسنا نتحدث، ولما قمنا دفع عني فاشترطت عليه أن أدفع أنا المرة الآتية. ثم سرنا إلى بناءة سنكر المؤلفة من ٤٨ طابقاً وأردنا الدخول فيها والصعود إلى أعلاها، ثم قررنا أن نرجع إلى ذلك مرة ثانية. رجعت فسألت عن الرسائل فلم أجد شيئاً فجئت الى بروكلن، التقيت بنقولا البرغوت، وقلت له: لا أستطيع أن أدفع لك شيئاً، ثم ذهبنا فتعشينا أنا والياس حيدر ونجيب الشغري، ودفعت أنا والياس ثمن العشاء، ورجعت إلى غرفتي ونفسي مملوءة ضجراً.

أحد الفصح في ٢٦ و١٣ نيسان سنة ١٩٠٨م

وكانت على الأيام نفسي عزيزةً فلما رأت صبري على الذلّ ذلّتِ

استحممت ولبست ثيابي، ثم جاء الياس حيدر وخرجنا وأفطرنا. ثم رجعت إلى غرفتي وأنا أنويَ أن أكتب للبيت فلم أجد نشاطاً لذلك، فجلست وراء الطاولة مستبرماً ضجراً، واذا بالباب يقرع فقمت فوجدت ابنة صاحب المنزل، فقالت: واحد بالباب يسأل عنك، فأطللتُ واذا بأخي يوسف فقبلته وقبلني وأحسست للفور ببهجة العيد. جلس أمامي فإذا هو ممتلئ الجسم عريض المنكبين، وبعد أن تبادلنا الأخبار

أخذته ونزلت لنتغدى، فلقينا نقولا البرغوت فذهبنا إلى المطعم السوري وتغدينا. ومن هناك رجعنا إلى الغرفة. عند الساعة الرابعة والنصف أحسسنا بجوع، فذهبنا وتعشينا، وبعد العشاء ذهب هو مع نقولا البرغوت ليتّجولا في الطرق ورجعت أنا إلى الغرفة وأخذت أكتب إلى سلطانة استعطفها وأصف لها وحشتي وكآبتي، ثم جاء يوسف ونقولا وأنا منكمش، أخذت أقرأ لهم أحلامي الماضية بداود وبالبيت، فغلب عليّ الحزن وكدت أبكي، ثم قمنا لنشرب قهوة، وبينما نحن مارون في الطريق دفع ولدٌ يوسف في رجله فالتفت إليه ولكمه، وكان هناك بعض شبان أميركان، فهجموا على يوسف فلكمه واحد في وجهه فانهال عليهم يوسف بالضرب، وحشر واحداً منهم إلى الحائط فهجم البقية من خلفه، فركضت وحملت اثنين منهم وأبعدتهما إلى الجانب الآخر، فما كان من أحدهما إلا أن ضم يده ولكمني في أنفي وهرب، فلما رأى يوسف الدم انتزع قطعة من باب وانهال عليهم بالضرب على رؤوسهم وعلى وجوههم وايديهم فهربوا. وأما نقولا البرغوت فتناول برنيطة أحدهم وداسها بأقدامه، ثم انصرفنا فلقينا أول بوليس فقال له يوسف: أين أنت؟ يمر الواحد في الطريق فيتحرش به الأميركان من الباب للطاقة[٣٥] فقال له: لماذا لم تذهب إلى بوليس تلك الناحية؟ فسب يوسف ذلك البوليس: وقال له: إنه في إحدى الحانات يسكر الآن وأغلظ في الكلام، فقال له البوليس: اذا استعملت كلاماً وسخاً مثل هذا حبستك، فقلت له: هو يتكلم من تأثر، فالأولى أن تحبس أولئك. ثم رجعنا إلى الغرفة، هذه فالية الأفاعي!!!

نيويورك الأحد ١٩٠٨/٤/٢٦ [رسالة]

حبيبتي

اليوم أحد الفصح، الطقس جميل، لا يهبّ الهواء على وجهي إلا أحسست بهواء العيد، ولا أنظر إلى السماء إلا رأيت سماء القدس.

الكل فرحون مبتهجون، يتبادلون الزيارات، يجلسون إلى موائد الشراب، يقيمون الاحتفالات، يمشون في الطرق جماعات جماعات، وعلى وجوههم علائم البشر والمسرة، فالمهموم نسي همه، والمحزون نسي حزنه، ولا يمر هذا اليوم حتى يكون كل واحد قد نفض عنه كل هم وحزن، واستعد لأن يقابل أيامه الآتية بحياة جديدة مملوءة سروراً ونشاطاً يستخفُ معها بكل أثقال الحياة، ويتغلب على كل صعوباتها. أما أنا فلم أجد إلا ما يثير أشجاني، ويبعث همومي، ويؤلم قلبي، ويقبض رجائي. كنت حقيقاً يا سلطانة أن أفرح مع الفرحين لو جاءتني منك رسالة.

هنا دخل عليّ أخي يوسف، جاء من فيلادلفيا لنصرف العيد معاً، وقد يقيم عندي، فأمسكت عن

---

(٣٥) «من الباب للطاقة»: تعبير بالعامية الفلسطينية، يقصد به: من دون مقدمات.

الكتابة، وطويت الورقة، ووضعتها في جيبي إلى أن تلوح لي فرصة أخرى. بعد العشاء ذهب مع بعض أبناء القدس ليجولوا في طرق بروكلن، وبقيت أنا في غرفتي فرجعت إلى الكتابة.

سلطانة، لماذا هذا الانقطاع عن الكتابة؟ آخر رسالة وردتني منك كانت في الثاني من هذا الشهر، واليوم السادس والعشرون منه، أتستكثرين عليّ رسالة في كل أسبوع، مع أنك تعرفين أن رسائلك هي تعزيتي الوحيدة، أم تريدين مداعبتي وتعذيبي؟ وحقك يا سلطانة إني مت مئة مرة منذ انقطعت رسائلك عني.

ألا تحبينني، ألا تشفقين عليّ، أما تكفيني لوعة الفراق وغلة الأشواق ومرارة العيش ومعاكسة الدهر؟ كادت روحي تزهق فارحمي واشفقي، ماذا ثناك عني يا حياتي الغالية، أيروق لك بكائي ونواحي، أيلذ لك عذابي، أيطيب لك تذللي، أتحبين موتي؟.

كيف أستطيع أن أصور لك شقائي لتشفقي؟ مدّي يدك اللطيفة وكفكفي دمعي.

متى يا سلطانة أخلص من هذا البكاء، متى تعود رسائلنا مفرحة مطربة، متى أكتب لك فلا أشرق بدمعي، وأختنق بزفراتي، وألتهب بحمى الحزن والوجد؟ أما آن أن نخلص من هذا النغم، أما كفى ما جرى من دموعي؟ لو كان لي عدوٌ لرثى لحالتي ورق لبلواي، أنسيت أم تستصعبين الكتابة والقلم طوع بنانك، أم شغلت أوقاتك فلا تجدين وقتا للكتابة. إذا تعذرت عليك كتابة الرسائل الطويلة فلا أقل من بطاقة تكتبين عليها كلمة واحدة تردّ عليّ روحي، وتنتشلني من وهدة اليأس.

أعيذك أن تحسبي أني من أولئك الذين يشغلهم عن الحب شاغل، الذين يحبون، ثم تتسع قلوبهم لمسرات أخرى غير الحب.

قد تقولين: إني في بلاد عجائب وغرائب فلا أعدم ما ألهو به. يشهد الله عليّ أني أكاد أحبس نفسي في غرفتي، أمشي في الطريق فلا أنتبه لشيء، تساورني الأحزان فلا ألجأ إلى غير البكاء، تلجّ بي الأشواق فلا أفزع إلى غير الكتابة، تستولي عليّ الوحشة فلا أنتظر غير رسائلك، أي امرئ لقي ما لقيت، أي محب شقي كما شقيت؟ ولو لم أكن قد وهبتك نفسي لكنت استنزلت القضاء المحتوم، وخلصت من هذا العالم، من يطيق هذا كله، وحشة وحزن ويأس، لو كنت صخراً لذبت، لو كنت ملاكاً واستغفر الله لكفرت.

مع كل ذلك، مع كل هذه الآلام النفسانية لا أنبس ببنت شفة، بل أكاد أحبس أنفاسي، أنزوي في غرفتي أمام نافذة صغيرة أنظر منها إلى السماء، أسند رأسي بيدي وأدخن، وأفكر أفكر أفكر.

ليتني لم أخلق، ليتني لم أستنشق نسيم هذه الحياة الثقيل، عفوك يا سلطانة، رحماك رحماك، لقد آلمتك كثيراً، ليتني لم أفاتحك بالحب، ليتني لم أنل لديك قبولاً، ما ذنبك حتى تشاركيني هذا العناء، أما كنت سعيدة ناعمة البال مطمئنة القلب لا تفارق الابتسامات ثغرك، وأنوار الغبطة والبهجة محياك الجميل، فدى لسناك سنا الكواكب، ولعينيك عيون الجآذر، ولعطفيك أعطاف البان.

أرجو يا سلطانة أن لا يكون قد نفد صبرك كما نفد صبري، ولا ضاق صدرك كما ضاق صدري، فتردني

منك رسالة تنير أرجاء قلبي، وتذهّب أفقي فلا أبالي بعدها أحسن الدهر أم أساء، عبّس أم ابتسم، أحتاج إلى رضاك، أحتاج إلى عزائك، أحتاج إلى تشجيعك، لتلهمك السماء العفو عني، والعطف عليّ، ولتباركك وتحفظك لي مصدرا لعزائي وسروري إن شاء الله.

يقال: أن أول مراتب الحب الهوى وهو ميل النفس، ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب، ثم الكلف وهو شدة الحب، ثم العشق وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب، ثم الشغف وهو أن يلذع الحب شغاف القلب، أي: غلافه، ثم الجوى وهو الحرقة وشدة الوجد، ثم التتيّم وهو أن يستعبده الحب، ثم التبتّل وهو أن يسقمه الهوى، ثم التدله وهو ذهاب العقل من الهوى، ثم الهيام وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه، هذه مراتب الحب، وأما حبي فقد تجاوز هذه المراتب كلها.

خليل

حاشية

حبيبة قلبي هل كلام محبب تعودت أن ألقاه من فمك العذب

أرسلت إليك اليوم مجلة اميركية نسائية أرجو أن تروقك أبحاثها وصورها، وسأرسل إليك من الآن فصاعداً عدداً منها في كل شهر.

يوم الاثنين في ٢٧ و١٤ نيسان سنة ١٩٠٨

رويدك قد أفنيت يا بَيْنُ أدمعي وحسبك قد أضنيت يا شوق أضلعي

حلمت أني كنت في القدس مع جميل الخالدي[٣٦] فدخلت معه بهواً كبيراً لا ترى العين آخره مفروشاً بالسجادات الفاخرة، جلس في صدره أبوه وشيخ آخر. استحممت ثم خرجت مع يوسف وأفطرنا، ثم ذهبت فعلّمت تلميذتي فدفعت لي ثلاثة ريالات عن دروس الأسبوع الماضي. رأيت الآنسة سلمى منكسرة الوجه، فسألتها ما الخبر؟ فقالت: ورد أمس تلغراف أن امرأة سلفي قد ماتت فأكبرت المصيبة. ثم رجعت إلى الغرفة فذهبت مع يوسف وتغدينا، وأسرعت إلى نيويورك لأسأل عن رسائل من القدس، فوجدت رسالة من الياس طرزي وكارتاً من سليم السلفيتي، وأما من سلطانة فلم يردني شيء، فقامت قيامتي وتساقطت نفسي حزناً ويأساً. ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة، وأخذت أقلب جرائد سوريا، فوجدت في إحداها أن يعقوب المحشي عزل عن المخترة، وعين مكانه متري خشرم. وضعت في البريد رسالة لأمي ومجلة أميركية

---

(٣٦) جميل الخالدي: (١٨٧٦ - ١٩٥٢)، من رواد الصحافة الفلسطينية، ساهم في تأسيس المدرسة الدستورية العام ١٩٠٨ في القدس، وهي أول مدرسة عربية حديثة في فلسطين، ترأس تحرير مجلة الدستور العام ١٩١٣ خلفا لمؤسسها خليل السكاكيني مدير المدرسة، وكانت المجلة تطبع مرة في الاسبوع (وقيل مرة واحدة في الشهر).

نسائية لسلطانتي، ثم رجعت مرة ثانية إلى محل الخواجات ملّوك لعل رسالة من سلطانة تأخرت فلم أجد شيئاً، فرجعت إلى بروكلن والدنيا لا تكاد تسعني، فجلست وراء طاولتي وأخذت أكتب إلى سلطانتي أصف لها شقائي وتعاستي وأطلب عفوها. أي انسان لقي ما لقيت، وأي محب شقي كما شقيت؟! ثم أرسلت يوسف فاشترى لنا خبزاً ولبنة فتعشينا فذكرنا البيت وأيامنا الماضية، فقلت له: الأكل لا يهم. ثم دفعنا لصاحبة المنزل ريالين وربعاً أجرة الغرفة، ثم خرجت لأعلّم تلميذي الخواجا مكروشيان، فوضعت في طريقي رسالة سلطانة في صندوق البريد وجئت الى غرفة تلميذي فوجدته مشغولاً برزم أشيائه لنقلها إلى محله الجديد فدفع لي ريالين واعتذر، فرجعت الى غرفتي. جاء سهر عندنا نجيب الشغري واستغرقنا في الحديث عن القدس إلى نصف الليل. لاحظت أنه اكتسب في مدة هجرته دربه وحنكة، ولكن جسمه نحيف، وربما أسرع إليه الهرم.

يوم الثلاثاء في ٢٨ و١٥ نيسان سنة ١٩٠٨

حَرانُ مُحنيُّ الضلوعِ على أسى غلب الإسا فاستأخذ استئخاذا

استحممت ولعبت ثم ذهبت فأفطرت، أما يوسف فأفطر في الغرفة. بعد الفطور حضرت درس تلميذتي، ثم ذهبت فعلمتها. رجعت إلى الغرفة، تغدينا ثم نزلت إلى نيويورك وجدت كارتاً في محل الخواجا حنا حشمة من الخواجا حنا فراج يعايدني به. ذهبت إلى إدارة الجامعة، جلست إلى الآنسة روزا أخت فرح أفندي وجعلنا نتجاذب الحديث، قالت: لماذا لا تلقي خطباً عن القدس، فإن كثيرين من الاميركان يحبون أن يسمعوا عن القدس؟ فقلت لها افتكرت بذلك، وربما ألقيت بعض الخطب في بعض المدارس، ثم استطردنا في الحديث إلى المهاجرة، فقلت لها: كثيرون يعدون المهاجرة شجاعة وكبر نفس ونزوعاً إلى العلى وطموحاً إلى المجد، ولكن [ها] في الحقيقة ليست إلا ذلاً وصغاراً تقتل الاستقلال والأنفة، أو يضطر المهاجر أن يكون تابعاً في كل شيء للأمة التي يهاجر إليها، يتكلم بلغة غير لغته، ويتبع عوائد غير عوائده، يلبس غير لباسه ويأكل غير أكله، ويغني غير أغانيه ويسر بغير مسراته ويلهو بغير ملاهيه، ويفاخر بغير مفاخره ويتأدب بغير آدابه، ثم يعتز عليه الوطني، برئيسه وجيشه واسطوله وحاكمه وقاضيه ومحاميه وبوليسه يخاشنه فيلاينه ويجافيه فيتودد له. ومهما أطال الهجرة فلا يزال دخيلاً غريباً معدياً عليه يزدرى به، واذا أثرى فالفضل عائد الى البلاد، بل ربما اتهموه أنه جمع ثروته بطرق دنيئة. وإني لأخشى أن تصبح الأمة السورية يوماً من الأيام مثل الأمة اليهودية غريبة حتى في وطنها ذليلة مهانة.. أرسلت كارتاً إلى أختي ميليا. رجعت إلى بروكلن. حلقت. ذهبنا تعشينا. رجعنا إلى الغرفة، سهر عندنا يوسف سالم صهر يعقوب سعيد ونجيب الشغري. لا أفتر في كل دقيقة عن ملاحظة يوسف ودرس أخلاقه، فأرى أنه إذا أردته أن يكون على حسب ما أتمنى يحتاج إلى أن يخلق خلقة جديدة. سأجرب ما دام معي أن أسوقه بالتدريج إلى ما أريد

إن شاء الله. افتكرت أن أكتب مقالة عن المهاجرة. وعدني حنا حشمة أن يعطيني بضائع إذا أردت الخروج للبيع.

يوم الأربعاء في ٢٩ و١٦ نيسان سنة ١٩٠٨

يـا وارداً سـؤر[٣٧] عـيـش كـلـه كـدرٌ   أنـفـقـت صـفـوك فـي أيـامـك الأول

استحممت ولعبت ثم خرجت فأفطرت، وأفطر يوسف في الغرفة مع الياس حيدر لأنهما لم يكونا قد تحضرا بعد. خرج يوسف للبيع مع نقولا البرغوت، نزلت إلى نيويورك، لقيت في الطريق أسعد حاماتي فحثثه على الذهاب إلى مصر، فإن الكاتب هنا مهما تفنن وتأنق فلا شأن له، وإنما هو يشتغل لأمة لا تقدر الأدب قدره، بل هي عن قريب تندمج في الأمة الاميركية ولا يبقى فيها من يقرأ جريدة عربية، وإنما يكون للكاتب شأن إذا ذهب إلى مصر وتحمس [كذا] لحزب من أحزابها. ثم ذهبت فعلمت تلميذي فدفع لي ريالين، ثم زرت بروفسر بور في غرفته وقلت له: جاءني أخي وقد افتكرت أن أخرج معه للبيع، فجئت أطلب منك أن تساعدني في هذا الأمر، فقال: رأي حسن فعجل به ما استطعت، قبل أن يذهب الناس إلى الاصطياف، واطلب من الدكتور نيس أن يساعدك ولا تخشى بأساً، واعلم أنك كلما سعيت كلما ازددت اعتباراً عند أصدقائك، ثم قال: احضر مثالاً للبضائع التي ستشتغل بها لأعرضها على أمي، وسأحضر لك قائمة بأسماء بعض الأصدقاء مع رسائل وصاة إليهم. ثم رجعت إلى ادارة الجامعة فوجدتها مغلقة، فذهبت وتغديت وجئت إلى غرفتي فحضرت درس تلميذتي وذهبت لأعلمها. وجدت كارتاً من رفلة الحمصي يدعو لي إما بالتوفيق المستمر وإما بالخلاص العاجل، فثلج صدري وابتهج قلبي لانعطافه وولائه وشعوره معي. قبل الدرس أخذت [تلميذتي] تحدثني كحديث الأخت مع أخيها، قالت: إنها سمعت مرة الآنسة سلمى تقول: لم يأخذ أخي بائنة [كذا]، فاشتد عليها ذلك، ثم سمعتها مرة ثانية، فلم يستطع الخواجا رفلة السكوت فقال لها: أخذتم عروساً تسواكم كلكم. وقد رآها مرة واضعة بودرة على وجهها فقال لها: العروس لم تضع شيئاً وأنت تضعين، وقد حسبها أنها تتحلى وتتزين لأنها تجتمع بخطيبها ولذلك نفر منها ونفرت منه. رجعت إلى غرفتي. رجع يوسف من البيع ربح كل واحد ٩٥ سنتاً. ذهبت لأعلم تلميذي الأرمني فوجدته معيى من التعب فلم يدرس.

يوم الخميس في ٣٠ و١٧ نيسان سنة ١٩٠٨

الـمـرء فـي الـدنـيـا خـيـال قـد سـرى   والـعـيـش مـثـل الـحـلـمِ فـي سِـنـة الـكـرى

استحممت ولعبت ثم خرجت فأفطرت، وأما يوسف فأفطر مع نقولا البرغوت. رجعت إلى الغرفة.

---

(٣٧) سؤر: بئر.

ذهب يوسف للبيع . نزلت إلى نيويورك فمررت على ادارة الجامعة فأخذت عدد أمس ، ثم ذهبت إلى محل الخواجات ملوك فوجدت رسالتين من القدس ، الواحدة من أمي وفيها رسالة من أختي ميليا مع زهرة ، والأخرى من جرجي البيضا الخوري فيها رسالتان منه ، في الواحدة يشكو من سوء حال الطائفة وفي الثانية يعزيني بداود ، ولكنه بدلاً من أن يقول صديقك ، قال شقيقك ، فاعترت جسمي رعدة وغشيت أبصاري ظلمة وغبت عن الوجود . ثم ملكت نفسي وقرأت الرسالة ، فاذا به يعني داود لقوله أنه مات في دار الاميركان ، ولأن رسالته مؤرخة في ٢٥ كانون ثاني ، ويقول : إنه مات قبل ٢٥ يوماً ، أي يوم مات داود . رجعت علّمت تلميذتي . جاءني أيضا كارت من مس سنكير وفيه بعض كلمات لأختها . ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت إلى ادارة الجامعة فوجدت فرح افندي يساوم أخا صاحب المهاجر على طبع الجامعة عندهم ، لأن الغلاييني طلب زيادة في الأجرة ، وذلك أخره عن السفر اليوم فأجله إلى الغد . قلت له عما تم بيني وبين الغلاييني ، فقال : أنصحك أن لا تشتغل معه ، أولاً لأن مجلته لا تعيش كثيراً وحياتها متوقفة على حياة مطبعته ، وإذا خرجت الجامعة من يده أقفل مطبعته ، ثم لو فرضنا أن مطبعته عاشت فلا تستطيع أن تعاشره لأن أخلاقه فظة ، ومع هذا فإذا أردت أن تشتغل معه فليدفع لك ثمن مقالاتك ، ثم لا تهتم بشيء آخر ، أي لا تهتم بترويج المجلة كأنها مجلتك وتصليح مسوداتها ، إلا إذا دفع لك أجرة التصليح . ثم قال : قلت اليوم لفيليب غريب أن يفتش عن شغل آخر ، وقد فهمت من نقولا الحداد أنه لا يستطيع أن يقيم في نيويورك أكثر من شهر ونصف ، وحينئذ فلست استغني عنك . ذهبت علّمت تلميذي الجديد أول درس فدفع لي ريالاً . السماء شاتية . رجعت إلى الغرفة تعشيت خبزاً ولبنة . لم يبع يوسف اليوم شيئاً . استولى عليّ الضجر اليوم حتى كادت روحي تبلغ التراقي .

يوم الجمعة اول أيار غ و١٩ نيسان ش سنة ١٩٠٨

فإن أجنِ من غرس المنى ثمر العنا   فلله نفسٌ في مناها تعنّتِ

رأيت أبي في نومي وأننا كنا في نيويورك ، فجعل أبي يشكو من وقوف الأحوال ، وقال : ماذا نعمل؟ فقلت له : لا تهتم يا أبي فاذا لم نجد عملا نعمله ألقيت خطباً عن فلسطين . . برّد الله ضريحك يا أبي وجاد بالرحمة ثراك ، نم بسلام فإني سأبذل الوسع أن أقوم بالحمل الذي ألقيته على عاتقي . . وأنا أكتب هذه الأسطر حننت الى أبي فبكيت . . . استحممت ولعبت ثم خرجت فأفطرت ، وأما يوسف فأفطر مع نقولا البرغوت . حضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلمتها ، نزلت إلى نيويورك فذهبت رأسا إلى ادارة الجامعة لأودع فرح افندي ، فاذا به قد أجل السفر الى الغد ، ثم ذهبت فتغديت . وأنا على الغداء جاء خليل حبابو فتغدى ، جئت لأدفع عني وعنه فسبقني ودفع ، ثم ذهبنا إلى قهوة سورية وشربنا قهوة بالأراكيل فدفعت أنا هذه المرة . ثم جئت إلى محل الخواجا حنا حشمة ، فأخذت منه بعض موسطرات [= نماذج] مما عنده [من بضائع] ،

والد خليل، قسطندي السكاكيني، في منجرته في البلدة القديمة في القدس، ١٨٨٢.
(مجموعة عائلة السكاكيني)

وجئت إلى بروكلن عند تلميذي الدكتور نيس، فعلّمته ساعتين فدفع لي ريالين، ثم أريته الموسطرات، فقال: هذا شغل النساء السوريات في هذه البلاد، ولست أظن أنك تستسهل هذا العمل، بل أنا لا أشجعك عليه. وأما كتاب مناظر القدس فإني مساعدك فيه بما يبلغ إليه إمكاني. ثم قال: لماذا لا تسعى أن تكون وكيلاً لأشغال فلسطين تحضر موسطرات من البومات وكتب زهور وغير ذلك ثم تأخذ طلبيّات من هنا؟ فلست أظن أن في اميركا وكالة لأشغال فلسطين كما في لندن. ثم أعطاني كتاباً فيه عنوانات القسوس للطوائف المختلفة لأنسخها عندي، ووعد أن يرسل إليّ غداً بعض رسائل إلى أصدقائه بخصوص الكتاب. . . التقيت اليوم بالخواجا سليم ملوك فجعل يتأفف من التعب ويشكو من الضجر وقلق الفكر، ثم قال: نويت أن أذهب إلى سوريا ترويحاً للنفس من هذا العناء، ثم قلت له: هل عرفت ما كتب لي الخواجا رفلة؟ فإنه دعا لي إما بالتوفيق المستمر وإما بالخلاص العاجل، فقال: وإني أرى الأوفق لك أن ترجع إلى سوريا. . فهمت من ذلك أن شغلي معه لا يكون.

يوم السبت في ٢ أيارغ ٢٠ نيسان ش سنة ١٩٠٨

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهرُ وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر

حلمت أنه كانت جنازة داود وقد ازدحمت الطرق بالناس، وأما أنا فكنت كالمجنون، وكانت النساء تصرخ وتولول، وكنت أمشي مكشوف الرأس والصدر، ثم مرت بنا جنازة أخرى. . استحممت ولعبت. خرج يوسف للبيع. ذهبت أنا فأفطرت. امتنعت عن التدخين. ذهبت علّمت تلميذتي. دفعت لي ثلاث ريالات. سيكون اكليل الآنسة سلمى مساء يوم الاثنين القادم. رجعت إلى غرفتي، تغديت ثم نزلت إلى نيويورك. أرجعت الموسطرات إلى الخواجا حنا حشمة. مررت على الجامعة أخذت عدد اليوم ثم ذهبت إلى محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسائل من أحد فلم أجد شيئاً، فكدت ألطم على وجهي وأشق ثيابي. كيف أستطيع أن أعيش في هذه البلاد؟ كيف أستطيع أن أشتغل. كيف أستطيع أن أهنأ [بـ] وجودي؟ رجعت إلى غرفتي وصدري يكاد يتمزق ووجهي مقلوب [كذا]. جلست وراء طاولتي في زاوية غرفتي ونفسي ثائرة كالبركان الهائج. كيف أسكّن هذا الهياج وألهو عن هذه الأفكار؟ غيري في مثل هذه الحال يعكف على الشرب أو التدخين، يجدّف، يتوعّد، يغني. وأما أنا فإني جالس وراء الطاولة مطبق الفم، حتى التدخين منعت نفسي عنه وقد مرّ عليّ نحو ستة أشهر وأنا على هذه الحالة؛ وحشة وحزن ويأس وقهر. رأى يوسف اضطرابي فجلس إلى جانبي قليلاً ثم كأنه استطول أمري فدخن سيكارة وخرج. اتسع الخرق على الراقع . . ذهبت تعشيت مع يوسف ونقولا ثم رجعنا إلى الغرفة فلعبنا الشدة لعلي أتناسى ما أنا فيه. لا أستطيع أن أعتمد على يوسف في شيء.

يوم الأحد في ٣ أيارغ و٢٠ نيسان ش سنة ١٩٠٨

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميّتُ الأحياء

قصصت شعري وحلقت واستحممت وغيّرت ثيابي ثم خرجت فأفطرت. بعد الفطور رجعت إلى الغرفة، وأخذت أكتب لسلطانتي ولجورجي الخوري ولأمي ولكن لم أحس بنشاط إلى الكتابة. بعد الظهر ذهبنا تغدينا، ثم رجعنا فجلسنا حول الطاولة وأخذنا نلعب بالورق، وما صارت الساعة السادسة حتى ثارت أشجاني وجالت الدموع في مآقيّ، وأخذت أئن أنين الثكلى. إن هذه الساعة تؤثر عليّ كثيراً، فلا تجيء حتى ينكمش صدري وتتضاءل نفسي وترق عواطفي وتهين قوايّ ويسترخي جسدي. أميل فيها إلى المناجاة والهيام في عالم الخيال. خرج يوسف مع الياس حيدر يتجولان في الطرق، ثم خرجت فلقيت يوسف يمضغ دخاناً كما يفعل رعاع الاميركان، فقلت له: ماذا بقي عليك يا يوسف؟ امنع نفسي عن التدخين لأحمله فقط على الاعتدال فيه، فإذا هو يمضغه أيضاً، فماذا أعمل معه، هل أتركه لطبيعته المنحطة أم أظل على الاهتمام به وإن كان ذلك لا يفيده، ولكن يسلّ عافيتي؟ لا لا. لا أتركك يا يوسف ولو مت. لا أستطيع أن أنظر إليك إلا كأخ لي، لا أستطيع إلا أن أحنو عليك وأنعطف إليك، وإذا اهتممت بك وبصحتك وآدابك ونجاحك فلست أفعل ذلك لأجلك فقط، ولكن لأجل أمك، لأني أحب أن تفتخر بك كما تفتخر بي.. تعشينا، بعد العشاء رجعت إلى غرفتي وذهب يوسف مع الياس حيدر يتجولان في الطرق. مللت الجلوس وراء الطاولة وحدي. ولم أر خيراً من النوم للتخلص من هذه اليقظة الثقيلة.

يوم الاثنين في ٤ أيارغ و٢١ نيسان ش سنة ١٩٠٨م

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأول ما يجني عليه اجتهادهُ

حلمت أني كنت في القدس، وأن موكباً كبيراً كان ينتظر أن يمر من أمام البوسطة النمساوية، فدخلت دار الخواجا أنطون الجلاد، ولقيتني ابنته جورجينا على رأس السلم فسلمت عليها، وكان عندهم أناس كثيرون جاؤوا ليروا الموكب عند مروره، من جملتهم نخلة الهشة، ثم وجدت نفسي بقميص النوم فناديت نخلة الهشة ليحضر لي ثيابي لألبسها. استحممت ولعبت وكذلك استحم يوسف ولعب، ثم ذهبنا فأفطرنا. بعد الفطور خرج يوسف للبيع ونزلت أنا إلى نيويورك، فذهبت إلى محل الخواجات ملوك، فلقيت رسالة من الخواجا بندلي الجوزي جواباً على رسالتي إليه التي أرسلتها إليه في ٧ آذار سنة ١٩٠٨، ومن ضمنها كارت إلى الخواجا رفلة الحمصي، يقول: إن مجيئي كان عن عدم تروّ وأن الأصح عنده أن أرجع إلى الوطن وأتولى ادارة مدرسة دير الروم. وأما من سلطانة فلم آخذ شيئاً. ذهبت الى ادارة الجامعة فلقيت فرح أفندي على أهبة السفر، فقال: إذا زادت رحلتي عن الشهر والنصف فإني حينئذ أحتاج إليك، لأن الخواجا نقولا الحداد لا يبقى في نيويورك أكثر من هذه المدة، ثم ودعته وجئت إلى محل الخواجا حنا حشمة، وكان خليل حبابو

قد جاء أيضاً، فذهبنا إلى قهوة سورية وشربنا قهوة وشربا هما أيضاً أراكيل. ثم اشتريت أوراقاً وريشاً وجئت إلى بروكلن لأكتب رسائلي إلى القدس، ولكن كان الضجر مالئاً نفسي فلم أستطع الكتابة فنمت قليلاً، ثم قمت فكتبت رسالة إلى أختي ميليا وأخرى إلى سلطانة. جاء يوسف من البيع. لم يبيعا [هو وصاحبه] اليوم ايضاً شيئاً. ذهبنا لنتعشى وكانت الطريق مزدحمة بالأولاد، فأخذوا يرشقوننا بالحجارة حتى ضاقت أخلاقي، ولعنت الساعة التي جئت فيها إلى هذه البلاد وملت إلى السفر كل الميل. ولكن إذا رجعت فهناك الدَّين والخيبة، وأترك هنا أخي يوسف وحده وأنا لا أركن عليه.

نيويورك الاثنين ١٩٠٨/٥/٤ [رسالة]

سلطانة

يمر عليّ اثنان وثلاثون يوماً من غير أن آخذ منك رسالة، علامَ هذا السكوت؟

أفترت محبتك، أم تحسبين أن محبتي فترت، فعدت لا أبالي وردت رسائلك أم لم ترد؟.

أنا عاتب عليك يا سلطانة، لم يبق اليوم حين سألت عن رسالة منك فلم أجد، لم يبق إلا أن ألطم وجهي، وأمزق ثيابي.

امنعي عني الهواء، احجبي عن عينيّ الشمس والقمر وسائر النجوم، ولا تمنعي عني رسائلك.

أرضى بالفقر، أرضى بالجوع، أرضى بالعري، أرضى بالغربة، بل أرضى بالنفي إلى أقاصي الأرض، وأما عن انقطاع رسائلك فلن أرضى، عذبيني بما شئت إلا بالإعراض والتجافي.

أما يكفي يا سلطانة، يا عادلة، أن أعيش بعيداً عنك حتى أحرم من رسائلك؟.

أما يكفي حزني ويأسي حتى أحمل فوق ذلك قهراً؟ ذابت روحي، انفطرت مرارتي، وأنا انتظر، كيف أستطيع أن أعيش في هذه البلاد، بل كيف أستطيع أن أقوم بعمل، أو أهنأ وجودي؟ إذا جاء البريد ولم تجئ رسائلك لم أستطع ذلك النهار عملا، بل تفتر همتي، وتتضاءل نفسي، وينكمش صدري، وتضيق أخلاقي، وأشعر أن كل شيء حولي يقاهرني، فألجأ إلى غرفتي اصعّد الزفرات.

لو امتلأت اميركا بالعجائب والغرائب، واكتظت بالمراسح والملاهي ولم تردني رسائلك لما وجدت ما يكشف غمي ويصرف همي.

إذا أردت أن أستسهل الغربة، وأنشط للعمل فلا تقطعي رسائلك عني، وإلا فإني مستسلم للحزن واليأس، ملقٍ بنفسي إلى التهلكة وعليك السلام من محبك.

المعذب خليل

كتبت رسالة إلى ميليا أخبرها فيها عن أشغالي فاقرأيها واحكمي، يا حبيبتي، لست أظن أني أقدر أن أعيش في هذه البلاد لأسباب كثيرة، سوف أكتب لك عنها مطولاً.

يوم الثلاثاء في ٥ أيارغ و٢٢ نيسان ش سنة ١٩٠٨م

اهـمّ بـشـيءٍ والـلـيـالـي كـأنـهـا　　　تـطـاردنـي عـن نـيـلـه وأطـاردُ

استحممت ولعبت، وكذلك فعل أخي يوسف، ثم ذهبنا فأفطرنا، فذهب هو مع نقولا البرغوت ورجعت أنا إلى الغرفة وجلست أكتب رسالة إلى الياس طرزي بسطت فيها له أحوالي وأطلعته على عزمي على الرجوع إذا لم تلح لي بارقة أمل في مدة شهرين آخرين، ولم أصل إلى آخرها حتى هاجتني ذكرى داود فبكيت. ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت إلى ادارة الجامعة لعل المجلة صدرت فلم تصدر، ثم ذهبت إلى مطبعة يوسف الغلاييني فوجدته مشغولاً، فقلت له: أمر في فرصة أخرى. تغديت. رجعت إلى محل الخواجا حنا حشمة فوجدت عنده سليم جابر وهو ينوي أن يرجع إلى القدس في أواخر الصيف. قال لي الخواجا حنا: الأوفق أن ترجع إلى القدس أنت أيضاً، لأنك لا تستطيع أن تنجح في هذه البلاد، فالبيع لا تقدر عليه والاستخدام لا ينفع غلة. لم أزل كل النهار أفكر في الرجوع، ولكن كيف أدبر أجرة الطريق؟ وماذا عساهم يظنون بي: أينصفونني ويقبلون عذري أم يتهمونني بالضعف والجبن والكسل وصغر النفس؟ ماذا تقول سلطانة: أتستمر على ثقتها بي ورضاها عني أم يداخلها الريب ويخامرها الندم؟ وحقك يا سلطانة لو كان في إقامتي في هذه البلاد بلوغ مني [لاهدافي] لما خطر لي الرجوع السريع في بال، ولكن ماذا أعمل اذا لم تلح لي بوارق آمال، هل استمر أطعَمُ اليأس وأغتذي بالهم؟ وضعت في صندوق البريد خمس رسائل إلى أختي ميليا وسلطانة والياس طرزي وجرجي البيضا ومس سنكير. رجع يوسف ربح كل منهما [هو وصاحبه] ٦٠ سنتاً. سهرت عند الخواجا حنا حشمة.

يوم الاربعاء في ٦ أيارغ و٢٣ نيسان ش سنة ١٩٠٨م

شـرُ الـبـلاد مـكـانٌ لا صـديـق بـه　　　وشـرُ مـا يـكـسـب الإنـسـان مـا يَـصِـمُ

استحممت ولعبت، وكذلك فعل أخي يوسف، ثم ذهبنا فأفطرنا فذهب هو مع نقولا البرغوت. ورجعت أنا إلى الغرفة ثم نزلت إلى نيويورك فمررت على ادارة الجامعة، فوجدت رسالة من تلميذي الخواجا مكروشيان، يقول: إنه ينتظرني اليوم مساءً في غرفته الجديدة لاستئناف الدرس، و[وجدت] ملزمة من كتاب الدكتور كوتهايل، ثم ذهبت إلى محل الخواجا حنا حشمة فانتقى لي بعض بضائع فحملتها، وذهبت إلى مدرسة اللاهوت، وعلمت تلميذي مستر هنري ساعتين متواليتين، قال: ربما بعد ثلاثة اسابيع ترك نيويورك إلى واشنطون [كذا]. ثم عرجت على غرفة بروفسر بور فأخذني وذهبنا إلى منزله فاستقبلتني أمه وأخته واسمها سلمى، ثم دعوني للغداء فلم يسعني أن أعتذر. وبعد الغداء فتحت رزمة البضائع فسرتا بها، ولو لم أكن مرتبطاً بدرس الدكتور نيس لذهبت مع الأم عند صديقاتها وجاراتها وبعنا أكثر تلك البضائع، ولكن قررنا أن أذهب عندهم يوماً آخر من هذا الأسبوع. بمثل هذه العائلة تعتز المروءة وتعلو المكارم. رجعت

رأساً إلى بروكلن وذهبت عند الدكتور نيس فأخذنا نقرأ في كتابه تاريخ الدول، ثم قرأنا في كتاب الطرزي، وبعد الدرس قال: خذ دفتراً نظيفاً جميلاً واطلب من كل الذين يوصونك على الكتاب أن يكتبوا أسماءهم مع عنواناتهم والعدد الذي يطلبونه من الكتاب، وقال: أؤكد لك أنك تنجح فإن أكثر القسوس يعرفونني، فإذا أريتهم رسالتي أقبلوا على كتابك أي إقبال. ثم رجعت إلى الغرفة وقد دبّت في صدري حرارة الأمل فوجدت يوسف راجعاً من البيع ولكنه لم يبع شيئاً. ثم جاء الخواجا يوسف غرزوزي، فقرأت له مقالاتي التي نشرتها في الجامعة فأعجب بها كثيراً، ثم ذهبت فتعشيت، وبعد العشاء ذهبت الى نيويورك N. Y. وعلمت تلميذي الخواجا مكروشيان، ومن هناك رجعت إلى الغرفة وكلي آمال.

يوم الخميس في ٧ أيارغ و ٢٤ نيسان ش سنة ١٩٠٨م

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحةُ الأملِ

حلمت أني كنت في القدس فمررت من تحت نوافذكم، وكنت مع ابنة عمي في إحداها فوقفت أحادثكم وطلبت من ابنة عمي كبريتاً فرمت لي علبة فأشعلت سيكارتي ثم قذفت بالعلبة إليها. ثم رأيتني واقفاً مع ابنة عمي حنة فقلت لها: لماذا لا تكتب سلطانة؟ فقالت: إنها كتبت لك رسالة فوقعت في يد بعض الناس فأخذها وطبعها وأذاعها. ثم ذهبت من هناك الى بيت الخواجا يعقوب أندريا وكانوا على الغداء، فجلست على كرسي، ولكنني كنت منقبض الصدر، وكانت اعواد الخواجا يعقوب معلقة على جدران الغرفة فلم أقدر أن أنظر إليها، كأننا في حداد، ثم قلت ليعقوب قد آن الوقت لأن أكتب لداود، فماذا يقول بعد أن كنت أكتب له كل يوم ثم انقطعت بالمرة؟

استحممت ولعبت ثم ذهبت فأفطرت فرجعت إلى غرفتي وحضّرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلّمتها وكانت السماء شاتية، كأن المطر ينصب من أفواه القرب، ثم رجعت فذهبت أنا ويوسف وتغدينا.

نزلنا الى نيويورك، ذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسالة منك يا عادلة فلم أجد شيئاً فرجعت كمداً محزوناً.

ذهبت إلى ادارة الجامعة، فلقيت رسالة من عيسى الطبة فيها رسائل عن القدس للجامعة. ذهبت الى محل الخواجا حنا حشمة، واستفهمت منه عن كل قطعة من القطع التي أخذتها منه للبيع، لأعرف ماذا أجيب عنها إذا سئلت، جاءت رسالة لأخي يوسف من خليل الشغري يطالبه بحسابه ويغلظ له في الكلام.

ذهبت علّمت تلميذي الجديد وكان درسنا الليلة بعض الحروف الحلقية، فقلت له: لم تخل لغة من اللغات في إبان قوتها من بعض الحروف الحلقية ثم لما ارتخت النفوس وضعفت آلات الصوت بفضل هذا التمدن ماتت تلك الحروف من أكثر اللغات.

رجعت إلى الغرفة فلقيت عندنا الخواجا يوسف غرزوزي وأسعد حشمة ونقولا البرغوت وإلياس حيدر.

قرأ لي الخواجا غرزوزي خطاباً له بالانكليزية عن الزواج أعجبت به كثيراً .

يوم الجمعة في ٨ أيارغ و ٢٥ نيسان ش سنة ١٩٠٨م

أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاءُ مُغرب[٣٨]

حلمت أني كنت في القدس، وأني اتخذت لنفسي غرفة وفرشتها بأثاث جميل، ثم جئت إلى غرفتي فكنت أراك تارة وحدك وتارة مع فتاة أخرى فكنت أحسّ باغتباط وسرور عظيمين. ثم حلمت أني التقيت بالمعلمة مريم عودة في الطريق فقالت لي: رئيسة المدرسة تحب أن تراك بخصوص شغل، فذهبت إلى مدرسة بيت جالا وأخذت تعرفني بغرف المدرسة.

ثم حلمت حلماً آخر كاد يوردني حتفي، وهو أني دخلت البيت، فسألت عن أمي فقيل ماتت، ثم سألت عن أخي يعقوب فقيل مات، ثم سألت عن شفيق فقيل مات وعن نايفة فقيل ماتت، فجعلت ألطم وجهي وأصيح: يا أمي يا أخي يا شفيق يا نايفة..

استحممت ولعبت وكذلك فعل يوسف ثم خرج مع نقولا البرغوت للبيع. أفطرت، حضّرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلمتها.

نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك، فوجدت رسالة من مس سنكير، ثم جئت إلى محل الخواجا حنا حشمة فانتقينا بعض قطع ووضعناها في علبة ورق، وانتظرت عنده الى أن صارت الساعة الرابعة، فركبت القطار وذهبت إلى منزل بروفسر بور فاستقبلتني أمه وأخته باشتين، ولم يستقر بي الجلوس حتى دخلت ضيفة فعرفتني بها وأخذت تريها البضائع قطعة قطعة، وأنا جالس على الكرسي لا أنبس ببنت شفة، فاشترت قطعة بريالين ثمنها الأصلي ريال واحد.

ثم ذهبت أم بروفسر بور عند جاراتها لتدعوهن فلم تجدهن، ثم اشترت أمه وأخته بعض قطع فحاولت جهدي أن آخذ منهما الثمن الأصلي فقط فلم تقبلا، وبعد علاج طويل أخذت منهما شيئاً قليلاً من الربح. ثم دعتاني لشرب كاكاو. وعدت الأم أنها ستلتئم عندها جمعية سيدات قريباً، وحينئذ تكتب لي. وأنها ستجرب أن تعرفني بسيداتها، ثم استطرقنا؛ [كذا] في الحديث الى ذكر الدكتور سبور فقالتا: ألم يعطك رسالة الى أمه؟ فقلت لا: فقالت الأم لأنها غير راضية عن زواجه، ثم قالت: كانوا أصدقاء ولكن الأم تقولت على بنتي أقاويل فارغة، ولذلك لم نعد نتزاور منذ ذلك الحين.

يوم السبت في ٩ ايارغ و ٢٦ نيسان ش سنة ١٩٠٨م

إنما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء

---

(٣٨) عنقاء مُغرب: طائر خيالي. يقال: «حلّقت به في الجو عنقاء مغرب»، أي: هلك وبطل.

استحممت ولعبت وكذا فعل يوسف ثم ذهبت فأفطرت . لم يذهب يوسف للبيع . حضّرت درس تلميذتي، ذهبت فعلّمتها فدفعت لي ريالاً ونصفاً .

رجعت للغرفة نسخت رسائل عيسى الطبة للجامعة بتصرف قليل ، ثم نزلت إلى نيويورك ، فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك فوجدت رسالتين؛ عنوان الواحدة مكتوب بخط يعقوب ابن خالتي وعنوان الأخرى بخط قلم فلم أشك أنها رسالة منها [من سلطانة] ففتحتها وإذا بها رسالة من أختي ميليا ، فيها بعض زهور جميلة تقول في احداهما : إن افتيم مشبك مزمع أن يسافر إلى باريز ، وهو الآن يبيع مخزنه .

ومع سروري برسالتي أختي ، فقد اغتممت جداً لانقطاع رسائل سلطانة وأحسست كأني أحمل بين جنبيّ صخراً كبيراً . سامحك الله يا سلطانة . ثم جئت إلى محل الخواجا حنا حشمة وكان أخي يوسف قد سبقني إلى هناك ومعه علبة البضائع ، فدفعت للخواجا حنا ثمن القطع التي بعتها . وأنا هناك جاء الخواجا يوسف غرزوزي يسأل عني فأخذته وذهبنا لنواجه يوسف الغلاييني بخصوص مجلته ، فعرجت في طريقي على محل الخواجا ملوك مرة ثانية ، فوجدت رسالة ثالثة من أختي ميليا تقول فيها : إن أختي هيلانة وضعت غلاماً وستسميه جورج.

ذهبنا عند الخواجا يوسف الغلاييني ، وإذ كنت مضطراً أن أذهب إلى جامعة كولومبيا عند الدكتور كوتهايل حسب ما وعدته لم أستطع أن أطيل الوقوف عند الخواجا الغلاييني ، فتركت عنده الخواجا غرزوزي يفاوضه في الأمر ، وذهبت الى جامعة كولومبيا فجلسنا لتنقيح المسودة فعثرت على أغلاط كثيرة صعبة سررت جداً لاكتشافها ، ولكنني استأت حين تذكرت أني اشتغل لهذا الرجل مجاناً ، مع أن عملي يستحق أجرة كبيرة. لم نكمل الملزمة فأجلنا تكملتها إلى يوم الاثنين.

سهر عندي الخواجا غرزوزي ، أحضر أعداد الجامعة اليومية وقرأ لي بعض مقالاته فيها . ثم قال: إن الغلاييني يفكر أن يدفع على الصفحة نصف ريال ، فقلت له: فليفتش عن غيرنا .

يوم الأحد في ١٠ أيار غ و٢٧ نيسان ش سنة ١٩٠٨م

حلمت أني كنت أتعشى مع جريس الخوري في أميركا ، فمر بنا الياس مرمورة[٣٩] ومعه شيخ عجوز فقمنا إليه وسلمنا عليه ، وأخذته إلى لوكندة أرمنية ، ثم رأيت ابن عمي سليم آتياً من القدس مع سليمان الخوري بن ابراهيم الخوري [و] سالم عبده فعجبت بمجيئهما فأخذتهما إلى اللوكندة ذاتها ، فوجدت هناك رجلا يهودياً كان مستخدماً في ادارة البوسطة النمساوية ، فقلت له: وأنت أيضاً هنا؟ .

استحممت ولعبت وكذلك فعل يوسف ، ثم ذهبت فأفطرت ورجعت إلى الطاولة لأكتب إلى القدس

(٣٩) الياس مرمورة : (١٨٨٧ - ١٩٤٧) من مواليد الناصرة ، درس في مدرسة صهيون الثانوية الانكليزية في القدس ، وعين فيما بعد استاذاً فيها ، انتسب للسلك الكهنوتي العام ١٩٠٨ ، تعلم لغة السامريين في نابلس وترجم كتابهم المقدس ، لكن المخطوطة فقدت ، وألف كتابا عن الطائفة . أسس مجلة «الأخبار الكنسية» سنة ١٩٢٤ ، في العام ١٩٤٣ انتخب رئيسا عاما للمجمع الكنسي في فلسطين وشرق الاردن.

وكانت الساعة العاشرة، فابتدأت بكتابة وقائعي ولم أشعر بعد كتابتها بنشاط، فتركت الكتابة ثم ذهبت فتغديت أنا وحدي لأن يوسف يأكل في مطعم آخر ليأخذ حريته قليلاً. ورجعت وكانت الساعة الثانية بعد الظهر فذهب يوسف مع نقولا البرغوت وهما متشوقان لأن يشربا بيرا، ولكن لم يكن معهما دراهم. أما أنا فنمت ثم قمت فكتبت رسالة إلى ميليا وابتدأت أكتب إلى سلطانة، فجاء يوسف ونقولا البرغوت فتركت الكتابة وجلسنا نلعب بالورق. ثم ذهب نقولا وبقي يوسف، فقلت له: اكتب لأمك، فقال: لا، كأنه يضمر غلاً. ثم جعلت أقرأ له رسالة ميليا إلى أن وصلت إلى قولي: إن مجيء يوسف نفعني ونفعه، فقال: لا لم ينفعني ولم ينفعك وأنا تاركك في القريب العاجل إلى حيث تقذف بي الطريق، ففهمت أنه يريد أن يهوّل عليّ وجعلت أقرأ في جريدة عربية، تتوالى هذه الصدمات بيني وبينه، فقام وقال: أنا ذاهب أتجول في الطريق فقلت له: لا تتأخر عن العشاء، فزال امتعاضه وذهبت نفرته. ثم رجع فاشترينا خبزاً ولبنة وموزاً وغلينا قهوة وتعشينا، بعد العشاء لعبنا بالورق، وأما يوسف فلم يلتذ بسهرتنا بل قام وقال: أنا ذاهب أسهر عند أسعد حشمة فمنعته فعربد. أويت الى الفراش وبقيت إلى الساعة الثانية بعد نصف الليل أتقلب على فراشي أفكر في سوء حظي وتعس حالي.

يوم الاثنين في ١١ أيار غ و ٢٨ نيسان ش سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت، وأما يوسف فلم يستحم لأنه مزكوم، ثم خرجت فأفطرت وحلقت ومسحت حذائي، وأما يوسف فأفطر مع الياس حيدر في الغرفة ثم خرج للبيع مع نقولا البرغوت.

حضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلمتها فوجدت رسالة من الخواجا رفلة من الاسكندرية، يقول: إن أخاه إنما استدعاه من نيويورك إلى الاسكندرية ليتمكن بعد ذلك من احضاره الى القدس، وانه كتب إلى يعقوب ابن خالتي بخصوصي، وأن الخواجا حنا أبو صوان عيّن في محل داود في يافا. وقد رأيت في رسالته من الاهتمام بأمري والغيرة عليّ والثقة بي ما أفاض قلبي شكراً.

رجعت إلى غرفتي، تغديت، ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك، فسألت عن رسائل فلم أجد شيئاً، فلا أقول إني حزنت أو غضبت ولكنني يئست، وإذا كانت هذه الحال لم تقتلني فإنها أنقصت عشر سنوات من عمري، وأجهزت على بقايا سروري، وخمّرت قلبي، وغضنت وجهي، وأذبلت نفسي، وحلت عزائمي.. ومع ذلك فإني أقابل كل هذه الآلام والعذابات ساكتاً لا أنبس ببنت شفة؛ لا أحادث أحداً ولا أفارق غرفتي ولا أمتنع عن التفكير في سوء حالي ولا دقيقة، فصبراً جميلاً.

ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فوجدت رسالة من عيسى الطبة، يقول: إنه أحسّ أن أفتيم يعرف بمكاتبته الجامعة وهو لا يريد أن يعرف أحد بذلك حتى ولا أفتيم، فأطلعت الآنسة روزا أخت فرح أفندي على ذلك لتكتب بخصوصه إلى أخيها.

ثم ذهبت إلى جامعة كولومبيا واشتغلت في تنقيح الملزمة، وأنا منقبض، لخوفي أن يكون هذا الدكتور كوتهايل يستفيد من تعبي بدون أجرة.

رجعت إلى الغرفة وأنا كاسف البال مضطرب الفكر واجم حزين؛ قد مرّ عليّ زمان طويل لم أرسل فيه إلى أمي دراهم، فلست أدري كيف تعيش، وخيل إليّ أني لن أوفق في حياتي فلا ديني أفيه ولا سلطانة استحقها.

وضعت رسالة أختي ميليا في صندوق البريد. ذهبت لأعلّم تلميذي فوجدته مشغولاً. رجعت فنمت بدون عشاء.

يوم الثلاثاء في ١٢ أيارغ و ٢٩ نيسان ش سنة ١٩٠٨م

استحممت ولم ألعب، ثم خرجت فأفطرت، وأما يوسف فاستحم ثم أفطر مع الياس حيدر في الغرفة ونزل معه الى نيويورك، أما أنا فرجعت إلى الغرفة وحضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلمتها. وجدت هناك الخواجا سليم فسألني عما كتب لي خاله الخواجا رفلة، فقلت له: فهمت من مكتوبه أنهم دعوه إلى الاسكندرية لشغل، والحقيقة أنهم اتخذوا ذلك واسطة ليترك أميركا لأنهم عرفوا أنه يخجل من الرجوع إلى القدس، ثم إذا جاء إلى الاسكندرية استدعوه إلى القدس ليراهم ويروه، فمتى وصل القدس أمسكوا به ولم يدعوه يسافر. وقد أصبحت الآن أنتظر رسائل عن القدس تستدعيني إليها، لأنه سيكتب لهم أو يتكلم معهم بشأني. فقال الخواجا سليم: ذلك أولى، فقلت له نجاحي ونجاح مثل الخواجا رفلة في أميركا يحتاج إلى خلقة جديدة، ولو غنينا فيها فإن بلادنا أولى لنا.. يكفي اعتزازنا هناك. ثم قلت له: لو تصرف المصاريف التي تصرفها هنا في بلادنا لسار ذكرك مع الركبان، وإذا مشيت في الطريق قام الناس لك اجلالاً وتكرمةً..

ثم رجعت إلى غرفتي فتغديت وبعد الغداء نمت نصف ساعة، ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت إلى محل الخواجات ملوك فلم أجد شيئاً، ثم مررت على إدارة الجامعة فوجدتهم قد نقلوا إلى محل آخر، فزرتهم في المحل الجديد وباركت لهم، ثم أعطيت الآنسة روزا أنطون رسالة عيسى الطبة لتبعث بها إلى أخيها ليقرأها. ثم جئت إلى بروكلن والضجر مخيّم على قلبي، فجلست وراء طاولتي لأكتب إلى سلطانة فلم أعرف ماذا أكتب لها. ثم جاء يوسف فبعثته يشتري لي خبزاً ولبنة وموزاً لأتعشى.

في المساء ذهب يوسف مع نقولا البرغوت إلى بيت الخواجا اسكندر غزال. جاء عندنا ضيوف هم أصحاب الياس حيدر ونقولا البرغوت سهروا إلى الساعة العاشرة وكان الحرّ شديداً، بعد ذهابهم حلقت ثم جلست أستأنف الكتابة الى نصف الليل ويوسف لم يجئ. ثم نمت، وعند الساعة الواحدة بعد نصف الليل رجع يوسف.

يوم الاربعاء في ١٣ أيار غ سنة ١٩٠٨ و ٣٠ نيسان ش

استحممت ولم ألعب لأن الحر شديد يذيب الحديد ، ثم خرجت فأفطرت ونزلت إلى نيويورك ، وذهبت فعلّمت تلميذي مستر هنري فدفع لي ريالين ، قال : إن الدرس الآتي سيكون آخر درس ، لأنه مزمع على ترك نيويورك .

عرجت على غرفة بروفسر بور ، فقال : إنه كان يتكلم أمس بخصوصي مع أستاذ آخر ، فقال له أن أذهب إلى محل أرمني بيّاع سجاد وأطلب منه شغلاً ، وأنه يعطيني رسالة توصية له ، فقلت له : لا بأس أجرّب . ثم جئت إلى بروكلن ، وكانت أعصابي متهيجة وعضلاتي متوترة ، وكنت أصرّ بأسناني ، فرأيت أن أستحم بالماء البارد وأنام .

قمت أشعر بصداع في رأسي كأنه نيورالجيا(٤٠) ، وألم في رجلي اليمنى كأنه روماتزم . حضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلمتها . اشترى يوسف بنطلوناً جديداً . تعشيت لبناً ورزاً ، وذهبت إلى نيويورك عند تلميذي الأرمني فعلمته وكان رأسي يوجعني جداً ، فما صدقت أن رجعت إلى غرفتي فلم أجد أحداً فنزعت ثيابي واستلقيت على فراشي كالقتيل . عند نصف الليل دخل يوسف فانتبهت عليه .

إذا أعطي يوسف حريته شذّ في كل شيء ، لأنه قليل الانتباه ضعيف الإرادة معوج الطبع .

يوم الخميس في ١٤ و ١ أيار سنة ١٩٠٨م

استحممت ثم أفطرت . خرج يوسف للبيع . حضرت درس تلميذتي . رجعت إلى غرفتي ، كتبت رسالة الى سلطانة ثم نزلت إلى نيويورك فوضعت الرسالة في صندوق البريد ، ثم ذهبت رأساً الى محل الخواجات ملوك ، فوجدت كارتاً من مس سنكير ، وأما من القدس فلم أجد شيئاً فطار قلبي شعاعاً وتساقطت نفسي حسرة . . وأحسست أن كل شيء فيّ من طرب أو سرور أو حماسة أو قوة أو صبر قد فارقني دفعة واحدة ، سامحك الله يا سلطانة .

مررت على إدارة الجامعة ، أخذت عدد أمس ، وفيه رسالة القدس . لقيت الخواجا حنا حشمة ، فقال : باع أخوك ونقولا بقيمة ستة أو سبعة ريالات . رجعت إلى الغرفة فذهبت إلى المطعم السوري وتغديت وكانت الساعة نحو الثالثة والنصف . لم أعد أعرف ماذا أعمل ، فتحت درج الرسائل وأخذت رسائل سلطانة ، وجعلت أقرأها واحدة واحدة . ولما صارت الساعة الخامسة ذهبت إلى نيويورك لأعلّم تلميذي صاحب المكتبة ، وكأنه كان ميعاد انصراف العَمَلة من المعامل فكنت أرى الطريق مزدحمة بالبنات . رأيت بعض الشبان وقوفاً على أبواب معمل ينتظرون البنات ، فلما نزلن تأبط كلّ منهم واحدة . منظر يفتت الأكباد حزناً على حالة البنت في هذه البلاد ، وقد جنت على نفسها وعلى الرجل ، على نفسها لأنها خفضت من قدرها وأنقصت من قيمتها وخاطرت بجمالها وشرفها ، وعلى الرجل لأنها أخذت شغله وعودته الكسل .

(٤٠) نيور اليجيا : اعتلال الأعصاب.

بعد أن علّمت تلميذي رجعت إلى الغرفة فلعبت بالورق مع الياس حيدر. ثم أويت إلى الفراش.
أرسلت إلى سلطانة أيضاً نسخة من مجلة أميركية اسمها Physical culture، وكراسة اعلاناً عن نوع من المشدات أو الشيّالات، وطلبت منها أن تبعث اليّ بقياسها وقياس ميليا لأرسل اليهما بمشدين منها.

من نيويورك الخميس ١٤/٥/١٩٠٨ [رسالة]

سلطانتي

اثنان وأربعون يوماً أنتظر رسائلك فلا تجيء! ما السبب يا ترى؟

ألف فكر خطر لي، لم أكن أقدّر أن هناك سبباً يمنعك من الكتابة لي، وكلما جاء البريد ولم تجئني رسائلك، أحسّ بنار تتأجج في ضلوعي، وبوهن في عظامي، وفتور في جسدي، وكلال في أعصابي، وثقل في صدري كأني أحمل على ظهري جبلاً، وبين جنبيّ صخراً، بل تعتريني نوبة جنون تثور فيها نفسي، ويفور دمي، ثم يستولي عليّ جمود، وأغيب عن الوجود.. وإذا كانت هذه الحال لم تقتلني إلى اليوم، فقد أنقصت من عمري عشر سنوات، واستبدلت بالدم الذي يجول في عروقي همّاً بل سمّاً، وجففت قلبي، وغضنت وجهي، وأذبلت نفسي، وقبضت صدري، وقطعت أوصالي، وضيقت أخلاقي، وأزهقت روحي.

لو كانت أشغالي حسنة، وأفكاري مستريحة، ونفسي مطمئنة، ثم ابطأت في الكتابة لهان الخطب، ولكن ما قولك وأنا محزون الصدر، مضطرب الفكر، منكسر الخاطر، ميت الآمال، غريب، وحيد، لا أنيس، ولا رفيق، اعيذك بالله أن تكوني ظالمة، أعيذك بالله أن يصدق فينا المثل: «العصفور يتفلى والصياد يتقلى».

وردتني في الاسبوع الماضي ثلاث رسائل من القدس، وكان عنوان احداها مكتوباً بخطك، فلم أشك انها رسالة منك تبثيني فيها أشواقك، وتهديني محبتك، وتعزينني، وتشجعينني، فتهللت روحي، وأشرق وجهي حبوراً، فلما فتحتها وجدتها رسالة من أختي فكأن سهماً اخترق صدري.

ما هذه المداعبة يا سلطانة، أيلذّ لك عذابي؟.

*

حلمت في الأسبوع الماضي أني كنت في القدس، من تحت نوافذكم، وكنت أنت مع ابنة عمي في إحداها، فوقفت أحادثكما، وأبادلك النظرات، وطلبت من ابنة عمي كبريتاً، فأشعلت سيكارتي، ثم رميت بالعلبة إليها، ثم رأيتني واقفاً مع ابنة عمي حنة وحدنا، فقلت لها: ما بال سلطانة لا تكتب لي؟ فقالت: كتبت لك رسالة، فوقعت في يد بعض الناس، فطبعوها، وأذاعوها.

ثم ذهبت إلى بيت يعقوب اندريا وكانوا على الغداء، فجلست على كرسي وأنا منقبض الصدر، وكانت عيدانه [= أعواده الموسيقية] معلقة على جدران الغرفة، فلم أجسر أن أنظر إليها كأننا في حداد، ثم قلت ليعقوب: قد آن الوقت لأن أكتب لداود، فماذا يقول بعد أن كنت أكتب له كل يوم، ثم انقطعت عن الكتابة بتاتاً؟

ثم حلمت في الليلة التالية أني كنت في القدس، وأني اتخذت لنفسي منزلاً، وفرشته بأثاث جميل، ثم جئت أنت إلى غرفتي، فكنت أراك تارة وحدك، وتارة مع فتاة أخرى، فكنت أحس بسرور، لم أحس بمثله في كل حياتي.

متى أرجع إليك يا سلطانة، متى؟ أنت سعادتي، أنت سروري، ولست أرجو إلا أن أكون سعادة لك وسروراً، وإذا قدّر الله أن أكون بعيداً عنك، فلا أقل من الرسائل نتبادلها.

أكتبي، أكتبي، بأيّ شيء أستحلفك، ومن استشفع إليك؟؟.

كما تحتاج رئتي إلى الهواء، وجسدي إلى الغذاء، تحتاج نفسي إلى رسائلك، ولا يمرّ يوم إلا ازددت احتياجاً إليها.

كنت يا سلطانة حين جئت إلى هذه البلاد، وقبل أن تفجعني السماء بموت حبيبي داود، أزور الناس، وأستطيب الغناء، واللعب على الكمنجة، فأفرّج همي، وأخفف عن صدري، وأما اليوم فلا أزور ولا أزار، لا أذهب إلى كنيسة، ولا أميل إلى دور التمثيل والغناء، ولا أدخل قهوة، ولا أجول في الطريق، ولا أدخن، حتى الكلام امتنعت عنه، وإنما أصرف أوقاتي في غرفتي وراء مكتبتي أفكر في سوء حظي وتعس حالي.

أفلا ترين يا سلطانة أني احتاج إلى رسائلك، إذا لم تشفقي أنت فمن يشفق، إذا لم تتعطفي عليّ فمن يتعطف؟.

ألم تعدي في رسالتك الأخيرة، رسالة الثاني من نيسان، أنك ستكتبين من الآن فصاعداً.

أكتبي يا سلطانة ولو أبكيتني دماً، أكتبي لأستطيع أن أحتمل الفراق، أكتبي لأعرف ماذا أعمل، وماذا أقصد [= أختار] من طرقي.

وحقك أني أصبحت لا أهتم بشيء، ولا أنشط لعمل، ولا أهنأ طعاماً أو شراباً أو مناماً، وقد سببت لي الوحدة والسكوت والتفكير ومنازعة اليأس ومعاكسة الزمان، صداعاً في رأسي يزيد يوماً بعد يوم، ولا عجب فإن مثل هذه الحال تبلي الحديد وتذيب الصخور.

هذه رسالتي اليك اليوم، وإني أرجو أن آخذ منك اليوم رسالة لأغيّر نغم رسائلي فقد مللت منه.

يصلك مع هذا البريد نسخة من مجلة اميركية اسمها Physical Culture وكراس آخر اسمه Newlife يشرح نوعا من المشدات والشيالات للرجال والأطفال والنساء، فخذي قياسك وقياس أختي لأبعث إليكما باثنين منه، واسلمي لمن ليس له سوى الله في السماء، وسلطانة على الأرض.

خليل

يوم الجمعة في ١٥ و ٢ أيار سنة ١٩٠٨

استحممت ولعبت ثم خرجت فأفطرت. السماء شاتية. خرج يوسف مع نقولا البرغوت للبيع، فتحت درج الرسائل وأخذت رسائل سلطانة كلها وجعلت أقرأها واحدة واحدة، وبينها صور بعض الرسائل التي أرسلتها اليها، وأنا أقلب الرسائل وجدت رسالة لداود فلم أتمالك أن قبلت موضع اسمه، وخلجتني عاطفة حزن اغرورقت لها عيناي بالدموع. ثم حضرت درس تلميذتي وذهبت فعلمتها. لقيت هناك الخواجا سليم ملوك فسألته عن الأحوال، فقال: كما هي وربما صارت أردأ، وستستمر كذلك إلى أربعة أو خمسة أشهر.

احترت ماذا أعمل؟ هل أبقى في هذه البلاد ونجاحي فيها مشكوك فيه ولو تحسنت الأحوال ودارت حركة الأعمال لأن الاستخدام أو الكتابة في الجرائد أو تعليم اللغة العربية، كل ذلك لا يسد رمقاً، والتجارة تحتاج إلى رأس مال، وحمل الجزدان لا ينجح فيه الإنسان إلا إذا اعتمد على الغش والخداع والكذب، الى غير ذلك من الصفات التي تأباها نفسي ولو مت جوعاً. أم هل أرجع إلى البلاد فأعود إلى التعليم في المدارس والبيوت يتحكم فيّ الرؤساء، ثم أرى كل يوم من المشاهد المؤلمة ما يجعل حياتي جحيماً؟

سأصبر قليلاً لعل الزمان يتولى إجابة هذا السؤال. بعد الظهر علمت الدكتور نيس. رجع يوسف من البيع مبللاً ولم يبيعا [هو وصاحبه] شيئاً فنزع ثيابه ونام. ذهبنا تعشينا في المطعم السوري. رجعنا إلى الغرفة فكأن يوسف أراد أن يدخن فلبس برنيطته وخرج إلى الطريق، فقلت له: لا تذهب الآن، فأجابني بخشونة: بل أريد أن أذهب. فكأن سهماً اخترق قلبي.

ذهبت لأعلم تلميذي الأرمني، دفع لي ريالين. رجعت وجدت يوسف مستيقظاً وكأنه أحسّ بغلطة فقال: لست أدري ماذا أصابني حتى أجبتك ذلك الجواب الخشن. لا شك أن ذلك شراسة مني ألفتها منذ الصغر، ولست أدري كيف أتخلص منها، فقلت له: لا بأس جرّب أن تملك نفسك.

يوم السبت في ١٦ و ٣ أيار سنة ١٩٠٨

استحممت ولعبت. خرج يوسف للبيع مع نقولا البرغوت. ذهبت لأفطر، مشى معي الياس حيدر، فقلت له: لماذا لم نعد نأكل معاً؟ فقال والتأثر باد عليه: أمس جئت لأتعشى مع يوسف وكان نقولا حاضراً فبعد أن غليت الشاي وضعت الابريق على طرَف النافذة، فما كان من يوسف إلا أن سبّ ديني ودين الذي خلقني.

كل ذلك نتيجة الأسلوب الفاسد الذي جرينا عليه في تربية يوسف؛ أهملناه صغيراً ثم جئنا نقوّم اعوجاجه بالضغط والإكراه، لا تبدو منه حركة حتى ننتقده ونعنفه، بحيث جعلناه ينفر منا ولا يثق بنفسه أو يحترمها، فما هذه الخشونة والشراسة والفظاظة إلا نتيجة نفسه المتألمة المتعذبة بينه وبيننا.

بعد الفطور ذهبت علمت تلميذتي فدفعت لي ثلاثة ريالات عن الأسبوع الماضي. وجدت هناك الخواجا

سليم ملوك فسألته مرة ثانية عن الأحوال وعمّا يقدر لي من النجاح في هذه البلاد، فقال: الأحوال سيئة جداً وربما زادت سوءاً، وأما أنت فلست أنصح لك إلا أن ترجع إلى سوريا لأنك ولو تحسنت الأحوال فلا تصيب أكثر من ٣٥ أو ٤٠ ريالاً في الشهر لمدة أربع أو خمس سنوات، وإذا ارتفعت أجرتك بعد ذلك فلا تزيد عن الخمسين أو الستين، هذا إذا قدر لك أن تجد محلاً للاستخدام، وإلا فالتعليم لا ينفع غلة، ثم قال: وأنا مسافر إلى سوريا يوم الثلاثاء القادم.

نزلت الى نيويورك فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك أسأل عن رسائل، فوجدت رسالة من مس سنكير وأخرى من بروفسر بور فيها رسالة وصلت الى التاجر الأرمني، وأما من سلطانة فلم أجد شيئاً، فكدت أتميز غيظاً.

ذهبت إلى ادارة الجامعة أخذت عدد اليوم. ثم رجعت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي نحو ساعة بكيت فيها بكاءً مراً. ثم كتبت رسالة إلى سلطانة أقول لها أن لا تكتب بعد الآن، فربما لا تصلها رسالتي حتى ركبت البحر راجعا الى القدس.

نزلت مرة ثانية إلى نيويورك لعلي أجد رسائل فلم أجد. رجعت إلى غرفتي. سهر عندنا الخواجا يوسف غرزوزي. أمس مساءً تعرض بعض الأميركان لنعمة الحاج وضربوه.

في ١٦ أيار غربي سنة ١٩٠٨م [رسالة]

عزيزتي

اليوم أيضاً انتظرت رسائلك فلم تجئ فماذا أقول؟ نفسي حزينة جداً حتى الموت، لا أستطيع أن أصف حالة نفسي، الموت أهون مما ألاقي، واذا لم أمت فقد ماتت آمالي وبقايا سروري ..

لا تكتبي بعد الآن فربما لا تصلك رسالتي هذه حتى أكون قد ركبت البحر راجعاً إلى القدس .. الشقاء يكتنفني من كل الجهات وسوء حظي يتقدمني أينما ذهبت، والخيبة تقابلني كيفما التفت، ثم لا يكفي ذلك حتى يكون نصيبي منك السلوّ والاعراض. الله يسامحك.

خليل

يوم الأحد في ١٧ و ٤ أيار سنة ١٩٠٨

حلمت أني رجعت إلى القدس فسألت.. من مات في مدّة غيابي؟ فقيل لي مات الجوهرية، وقسطندي البيبي، وأن الأخير طيف بنعشه في كل البلد حتى في حارات المسلمين.

استحممت ولعبت وحلقت ثم أفطرت، وبعد الفطور نزلت إلى نيويورك وذهبت إلى محل صهر الدكتور كوتهايل كما طلب إليّ في رسالة وردتني منه أمس، بخصوص ترجمة إعلان من الانكليزية إلى العربية

فأعطاني إعلاناً كبيراً بالإنكليزية وطلب مني أن أجعله مختصراً ما أمكن، بعُرف اللغة العربية. رجعت إلى الغرفة فذهبنا وتغدينا ثم رجعت، وكان الحر شديداً فلم أستطع أن أكتب فلم أر خيراً من النوم فنمت إلى الساعة الثالثة، ثم قمت فغسلت وجهي وجلست وراء طاولتي أترجم الإعلان. جاء يوسف فنام. لما قام طلبت منه أن يذهب ويشتري لي بعض قطع من الحلواء وقهوة وسكراً لنغلي قهوة، فلم تكن معي إلا خمس [كذا] سنتات فقلت له: خذ من الياس، فلم يجد معه، فذهب الياس وأحضر خمس سنتات أخرى فلم يشأ يوسف أن يأخذها، فقال له: إذا كنت لا تريد أن تأخذها فلا يهمني، فما كان من يوسف إلا أن سب دينه، فانتهرته واستعطفت خاطر الياس ولبثت وقتي كله لا أعي على شيء.

تحدثني نفسي أن لا أعتبره أخاً لي. في المساء ذهبت مع الياس حيدر إلى مطعم وتعشينا، لقينا في الطريق الخواجا سليم، نسيب أمين أفندي ناصيف في القدس، وقد تربى عند الأميركان فسلمنا بعضنا على بعض.

بعد العشاء رجعت إلى الغرفة وجلست أترجم الإعلان. صارت الساعة الثانية عشرة ولم يجئ يوسف. رآه الياس جالساً مع نقولا البرغوت وأشخاص آخرين يشربون ويغنون. كيف أستطيع أن أعيش معه، بل كيف أرجو إخلاصه؟ !. وماذا تكون نتيجة هذه الحياة السائبة الساقطة.

يوم الاثنين في ١٨ و ٥ أيار سنة ١٩٠٨

انتصف الليل أمس وأنا أنتظر يوسف فلم يجئ، وإذا بنقولا البرغوت يصفر تحت نافذتي فنزلت وفتحت له، فسألته عن يوسف فقال: إنه لم يره وإنه كان، أي نقولا، ساهراً في بيت الخواجا اسكندر غزال، وإنما مرّ علينا ليقول ليوسف ليكون على استعداد للخروج للبيع صباحاً باكراً. واليوم فهمت أنهم سهروا أمس في دكان سوري الى نصف الليل يشربون، وكأنه أكثر من الشرب فخجل أن يجيء إلى البيت فأرسل نقولا يسأل عنه ليوهمني أنه هام على وجهه إلى حيث لا يدري به أحد..

حلمت أن داود كان مريضاً فأشار عليه الطبيب أن يذهب إلى رام الله للاصطياف، فزرته هناك فوجدته قد استرجع صحته، فأشرق لونه فقبلته وأنا مسرور بسلامته.

استحممت ولم ألعب ثم خرجت فأفطرت، وبعد الفطور جاء الخواجا يوسف غرزوزي فأريته ترجمة الاعلان فكانت طبق الأصل. ثم ذهبت فعلمت تلميذتي.

نزلت الى نيويورك. ذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك أسأل عن رسائل من القدس فلم أجد شيئاً، فعاودتني حمى الخيبة. ثم ذهبت إلى محل الخواجا ألبرت ليون صاحب الإعلان، ودفعت إليه الترجمة فسر بها، ثم ذهبت معه إلى مطبعة يوسف الغلاييني ليقاوله على صف حروفه، فوجدوا الاعلان طويلاً فكلفني باختصاره فاختصرته له. ثم طلب إليّ أن أمر عليه غداً بعد الظهر. لقيت الخواجا يوسف غرزوزي فمشينا على شارع برودواي فقال: أراك لا تهتم بالسيدات، أليس لك قلب أم وهبته لفتاة؟ فكدت أطلعه على

حقيقة أمري، ولكن قلت له: سنتكلم في هذا الموضوع، ثم انفصلت عنه ورجعت إلى بروكلن فتعشيت وجئت إلى غرفتي وجلست وراء طاولتي، وقد حاولت أن أكتب إلى الخواجا رفلة فلم أشعر بنشاط فأجلت الكتابة، ثم ذهبت علمت تلميذي الأرمني.

لم أر يوسف اليوم كله، لست أعرف ماذا أعمل معه؛ أألاحقه وأظلّ على الاهتمام به، أم أتركه لشأنه يعيش كيف شاء؟.

يوم الثلاثاء في ١٩ و ٦ أيار سنة ١٩٠٨

لم يجئ يوسف الليل كله، حلمت أن داود ونيكوغوس جاءا إلى أميركا فزالت وحشتي، وبينما كنا نمشي في شوارع نيويورك قال لي داود: هل لك ما تشكو منه بعد؟ فقلت له: إذا كنت معي فلست أشكو شيئاً. ثم قلت له: أما وقد جئت فأترك لك ادارة شؤوني. يا داود يا داود إقبل دموعي..

استحممت ولعبت ثم خرجت لأفطر، فرأيت يوسف في الطريق فأعرض بوجهه عني ومرّ ولم يكلمني. بعد الفطور حضرت درس تلميذتي ثم ذهبت فعلّمتها. أجَّل الخواجا سليم ملوك سفره إلى الأسبوع القادم. وأنا راجع في الترام رأيت الناس مزدحمين أمام كنيسة، فنزلت من الترام لأتفرج وإذا بها جنازة زوجين قتلا معاً صباح يوم السبت الماضي في منزلهما فتأثرت لهذا المشهد كثيراً. ثم جئت إلى غرفتي فأخذت درج الرسائل، وجعلت أقرأها الواحدة بعد الأخرى (رسائل داود ورسائل سلطانة). ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت إلى محل الخواجا البرت ليون صاحبي بالأمس، فوجدت منه رسالة باسمي فيها خمسة ريالات، ثم جاء وعرض عليّ أن يعطيني الإعلان لأنشره في جريدتين عربيتين وأستفيد الكومسيون، وقال: إن عنده بعد أسبوعين شغلاً آخر يستدعيني له.

احترت ماذا أعمل؟ هل أرسل خمسة ريالات الى البيت أم أشتري بدلة، أم أكتفي الآن ببدلتي وأحرص على كل ما أحصِّله لعلي سافرت الى البلاد، فأجد ثمن الناولون (التذكرة)؟

مررت على ادارة المرآة وأخذت منها عدداً لأرسله إلى الخواجا بندلي الجوزي في روسيا ثم رجعت إلى بروكلن.

تعشيت، جئت إلى غرفتي. سهر عندي الخواجا يوسف غرزوزي. تكلمنا في مواضيع كثيرة إلى نصف الليل. لم يجئ يوسف.

يوم الأربعاء في ٢٠ و ٧ أيار سنة ١٩٠٨م

حلمت أني رأيت نساء مارات في بعض طرق القدس، وكانت بينهن الكسندرة، احدى رفيقات الصبى فسلمت عليها.

استحممت ولم ألعب ثم خرجت فأفطرت. بعد الفطور نزلت إلى بروكلن، لقيت يوسف في الطريق وكأنه رأى الياس حيدر معي فخاف إذا انقاد لي أمامه أن يشمت به، ويحسب ذلك منه انكساراً، فقابلني بوجه مكفهر، فأخذته إلى جانب وسألته: اين كنت كل هذه المدة؟ فقال: ماذا يهمك؟ فقلت له: يا يوسف أهذا الجواب الذي تجاوبني به؟ فقال: نعم هذا هو الجواب وأنا لا يهمني أحد في الدنيا، فلم يسعني إلا أن أتركه وأذهب في سبيلي ولكن أحسست أن أنفاسي تصرمت.

ذهبت إلى محل الخواجات ملوك فوجدت رسالة من أختي ميليا فيها كارت تعايد به يوسف بعيده، ورسالة أخرى لسليم ابن عمي، وقد راعني في رسالة أختي قولها عن أم داود أنها مريضة وأن معها دقة في الصدر. أواه أيتها الأم المسكينة، ماذا استفدت من كل حياتك؟!.

ذهبت إلى إدارة الجامعة فوجدت رسالة من معلمي نخلة أودعها من نفثات قلمه ما يُزْري بالدُّر، وكارتاً من صاحب الجامعة. حملت هذه الرسائل وذهبت عند تلميذي مستر هنري، ولكن شغلنا بالحديث ولم يتسع الوقت للدرس، فلما قمت لأنصرف تناول ريالين ليدفعهما لي فلم أقبل، وقلت له: إنما جئت لأودعك وليس لأعلمك. رجعت من عنده أتعثر بأذيال اليأس. هو ذا قد نقص دخلي ريالين في الأسبوع وسأترك في الأسبوع القادم قرينة الخواجا الياس ملوك لأنها على وشك الولادة، وما أدراني أني أخسر تلميذاً آخر وآخر وأصبح بدون شغل؟

رجعت إلى بروكلن فلقيت يوسف في مخزن أحد السوريين، فناديته فجاء كأن لم يكن بيننا شيء، فأرسلته يشتري لي شوكولاتا، وجئت إلى غرفتي فوجدت رسالة منه على الطاولة كتبها بعد تلك الوقفة بيني وبينه يستعطفني بعبارات رقيقة أثارت عواطفي. ثم جاء فتذكرت داود يوم استقبلني في يافا في مثل هذا اليوم قبل سبعة أشهر فأخذتني حمى الحزن، وجعلت أبكي وأنتحب.

ذهبت لأعلّم تلميذي فوجدته مريضاً. سهر عندنا جميل عودة، وهو مسافر غداً إلى بلاد الانكليز.

يوم الخميس في ٢١ و ٨ أيار سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم أفطرت. خرج يوسف للبيع مع نقولا البرغوت ذهبت علّمت تلميذتي.

نزلت إلى نيويورك، وذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك أسأل عن رسائل فلم أجد شيئاً، فأحسست بحمى في كل جسدي، ثم ذهبت إلى محل الخواجا البرت ليون لأحادثه بخصوص كتابة شيء عن شركة البواخر في الجرائد السورية فلم أجده. ضاقت أخلاقي واستولى عليّ الضجر.

لا أستطيع أن أقيم في محل أو أجالس أحداً أو أقرأ في كتاب أو جريدة. رجعت إلى بروكلن، تعشيت ثم ذهبت لأعلم تلميذي مستر سنكرت فوجدته يشكو فتوراً في جسمه كأنه محموم فلم نأخذ درساً، ولكنه دفع لي ريالاً فقلت له: آخذه ولكن يجب أن تأخذ درساً به، واتفقنا أن أعطيه درسين في الأسبوع القادم.

رجعت إلى غرفتي. جاء عندي الخواجا يوسف غرزوزي ثم جاء الخواجا يوسف بولس فقمنا وذهبنا لنسهر عند الخواجا حنا حشمة فوجدناه عند جيرانه فأمسكوا بنا فدخلنا، وكان هناك الخواجا خليل حبابو وعدد كبير من الضيوف فلعب الخواجا صموئيل صليبي على العود، وغنى خليل حبابو وغنى أيضاً يوسف بولس وكانت روحي ترفّ في أعالي صدري ونفسي منكمشة عن الطرب والسرور. فناولني الخواجا صليبي الكمنجة وكان الحضور كلهم ينتظرون مني أن ألعب فأخذت الكمنجة وعزفت بعض الأنغام كدت أبكيهم بها.

سهرنا إلى الساعة الحادية عشرة والنصف. أويت الى الفراش وأنا مضمر في نفسي أن أنقطع عن الناس من الآن فصاعداً فلا أزور ولا أزار.. لم يبع يوسف ونقولا شيئاً.

يوم الجمعة في ٢٢ أيارغ و ٩ ش سنة ١٩٠٨م

هو ذا قد مرّ عليّ سبعة أشهر منذ تركت البيت. في مثل هذا اليوم قبل سبعة أشهر ودعتك يا داود على أمل اللقاء قريباً، فلم تلبث أن نزلت بك صرعة الموت فأصبح الفراق بيننا أبدياً.

لهفي عليك يا داود، إن محلك في قلبي لا يحله سواك.. رأيت القس صالح سابا معلمي القديم في نومي.

استحممت ولعبت، ثم ذهبت أنا ويوسف فأفطرنا. بعد الفطور ذهبت علمت تلميذتي ثم رجعت الى غرفتي، وكان في نيتي أن أكتب بعض الرسائل ولكن الضجر كان قابضاً على نفسي فلم أطق أن أمسك القلم، بل قمت ونزعت ثيابي وأويت إلى فراشي فنمت نحو نصف ساعة، قمت بعدها نشيطاً فغسلت وجهي ولبست ثيابي. ولما صارت الساعة الثالثة ذهبت علمت الدكتور نيس فدفع لي ريالين. رجعت تعشيت.

عواطف دينية جالت في صدري، لا أستطيع أن أعيش بدون دين. أشعر أني مع الدين أرقى مني بدونه. الدين هو أن تكون راضياً عن نفسك وفي ذلك سرور ليس بعده سرور. ربما استطعت أن أجعل سيرتي حميدة، ولكن إذا لم أجعل سريرتي كذلك فلا أغتبط.. الإنسان بدون دين ليس إلا حيواناً ساقطاً ومهما تعلم وتهذب فليس يغني ذلك عن الدين.

لا أهنأ المعيشة في هذه البلاد ولو توفرت لي فيها كل أسباب التقدم والنجاح. يكفيني ألماً شعوري أني غريب لا أستطيع أن أدخل في حياة الأمة، وأن أجعل لنفسي فيها مقاماً.

ذهبت علمت تلميذي الأرمني فدفع لي ريالين، وقد بقي له عندي درس سأعطيه إياه يوم الأحد صباحاً. رجعت إلى الغرفة وأنا أحسّ بقوة في جسدي عظيمة. إذا كنت كذلك وحياتي كلها هموم وأكدار، فكيف لو كنت ناعم البال رضياً؟ والفضل في ذلك راجع إلى معيشتي الحسنة، الى استحماماتي وألعابي وتنفسي المنظم وعفافي.. كم أتمنى لو أستطيع أن أحمل يوسف على الاقتداء بي..

يوم السبت في ٢٣ و ١٠ أيار سنة ١٩٠٨

رأيت في نومي كليم عزّام وصليبا الغوري العتّال وجورجي التنكجي سألته عن ابنه ڤريڤيا ذي، فجعل يبكي، فقلت له: ما الخطب؟ فقال: انتحر.

استحممت ولعبت، علّمت تلميذتي، فقالت لي: سأواصل الدرس شهراً آخر وبعده أنقطع عن الدرس، كأنها تعني أنها على وشك الولادة، ثم قالت: كلما تأملت في نفسي أقضني العجب، أمس كنت فتاة صغيرة بثياب قصيرة واليوم صرت امرأة ربة بيت، كأنها خجلت أن تقول صرت أماً. أحاديث تدل على طيبة قلب نادرة.

رجعت إلى غرفتي فتغديت ثم نزلت إلى نيويورك، فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك فوجدت رسالة من مس سنكير، وأما من سلطانة فلم أجد، فأحسست بحمى كادت تلهب جسدي.

ذهبت إلى إدارة الجامعة فأخذت عدد اليوم. ضجرت من الحياة.. لا يروقني شيء.. ذهبت إلى محل الخواجا البرت ليون فجئنا إلى ادارة الجامعة واتفق معه [فرح أنطون] على مقالة ينشرها له في الجريدة عن الباخرة شيكاغو بعشرين ريالاً، ثم أخذته إلى إدارة مرآة الغرب، فاتفق معهم على مثل ذلك، ولكن بخمسة وعشرين ليرة يدفعون لي منها خمسة ريالات مثل كومسيون.

قرأت لأسعد حاماتي رسالة المعلم نخلة، فطرب لها، وارتأى أن يكتب شيئاً عنه في الجريدة ويستشهد ببعض أقواله في رسالته إليّ.

رجعت إلى بروكلن. ذهبنا في المساء أنا والياس حيدر واشتريت بدلة بعشرة ريالات وزوجي جوارب بربع ريال. تعشينا، بعد العشاء جاء نقولا البرغوت وكلفني أن أكتب له رسالة إلى القدس، فكتبت له رسالة مطولة شرحت لهم فيها كل شيء.

يوم الأحد في ٢٤ و ١١ أيار سنة ١٩٠٨م

رأيت في نومي المعلم نخلة ملتحفاً بعباءته أمام عمارة مطران الانكليز.

استحممت ولم ألعب، ثم خرج يوسف فاشترى بعض قطع حلواء فأكلت وذهبت لأعلّم تلميذي الأرمني. بعد الدرس خرج معي فذهبنا إلى حديقة قريبة، فقال لي في الطريق: إنه خسر شغله، ولذلك لا يستطيع أن يواصل الدرس إلا إذا كنت أصبر عليه ريثما يجد شغلاً جديداً. فأسفت له ولي، ووعدته أن نواصل الدرس كالعادة، ثم مررنا من أمام قهوة، فقال: صاحب هذه القهوة أرمني من القدس، فدخلنا وإذا هو أخو سيكياس الحلاق في رأس سويقة علون، له في أميركا ١٣ سنة يعرف أبي وعمي وأخي يعقوب، بل يتذكر أنه كان يراني أمام دكاننا ولداً صغيراً. وعدته أن أمرّ عليه من وقت إلى آخر. جئت إلى غرفتي مضطرب الفكر قلق الخاطر. هو ذا قد خسرت تلميذين وربما خسرت الباقي قريباً، إما للحر المذيب، وإما اقتصاداً في النفقة

في هذه الأوقات العسرة، وإما اكتفاءً بما حصلوه، فماذا أعمل وكيف أعيش؟ وقد مرّ عليّ نحو ثلاثة أشهر لم أرسل إلى البيت شيئاً من الدراهم، وأخي يوسف لا يكسب شيئاً فما هذه الحال؟!

أخذت يوسف وذهبنا وتغدينا ثم نزلنا إلى نيويورك لنزور يوسف بولس، وكان نقولا البرغوت معنا. كان أول حديثنا عن شرب الخمر، فقال يوسف بولس: إنها تسلي المهموم، فقلت له: يقال إن الخمرة مثل النظارة المكبرة إذا كنت مسروراً كبرت سرورك وإن كنت محزوناً كبرت حزنك، ثم لو فرضنا أنها تنسي الإنسان همومه، ألا يكون ذلك اقرارا بضعفه عن مقابلة صعوبات ومصائب هذه الحياة؟ ثم ما رأيك إذا طالت الهموم وتوالت النكبات؟.. ثم تحدثنا عن الرجوع إلى البلاد فأفضت في الحديث حتى تركتهم يقولون: الرجوع الرجوع. رجعنا إلى بروكلن ذهبت مع يوسف تعشيت.

سهر عندنا يوسف غرزوزي. قبل النوم تحادثت مع يوسف في وجوب اعتداله في التدخين واقتصاده في المصروف، والمعيشة بالتعقل والتفكير.

يوم الاثنين في ٢٥ و ١٢ أيار سنة ١٩٠٨ م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا. خرج يوسف مع نقولا البرغوت للبيع، ذهبت علّمت تلميذتي. رجعت الى الغرفة، تغديت، كتبت رسالة مطولة للخواجا رفلة الحمصي ورسالة مختصرة لأمي وبيتاً من الشعر لسلطانة.

نزلت إلى نيويورك، ذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك فلم أجد شيئاً، ثم عرجت على إدارة الجامعة فوجدت كارتاً من الدكتور كوتهايل يقول: إنه مسافر يوم الخميس إلى أوروبا ويطلب إليّ أن أزوره اليوم بعد الظهر ليحادثني في أمر. فقلت في نفسي: لعله يريد أن يدفع لي أجرة تنقيحي كتابه، فإذا دفع لي عشرين أو ثلاثين ريالاً حرصت عليها، وأضفت إليها ما أستطيع تحصيله في هذه البلاد، لأتمكن من شراء تذكرة سفر إلى القدس. ذهبت إليه وأنا أحلم بهذه الأحلام فقال: ربما في الشتاء القادم استطعت أن أدبر لك شغلاً ليوم أو يومين، ثم قال: أرسل إليك المسودات لتنظر فيها ودفع لي ريالاً أجرة المسودات في البريد بعد تنقيحها. خرجت من عنده أتعثر بأذيال اليأس وأندب سوء حظي. عطفت في طريقي على منزل الخواجا مكروشيان، وتركت له كلمة أني لا استطيع أن أجيء للدرس هذه الليلة. ثم جئت الى الغرفة معيى من التعب مضنى من الهم. تعشيت. لم يبع يوسف شيئاً. ذهبت إلى بيت الخواجات ملوك لأودع الخواجا سليم لأنه مسافر غداً صباحاً، وكان بودي أن أجلس إليه وأكلفه أن يرى ابن خالتي ويشرح له أمري، ولكن كان عندهم ضيوف فلم أستطع أن أقول له إلا: سلم.

رجعت نصف الليل إلى الغرفة، وصدري يكاد ينفجر من احتباس أنفاسي فيه. ثم لا يكفيني كل هذا حتى تنقطعي عني يا سلطانة سامحك الله. وضعت الرسائل في صندوق البريد.

الحي السوري في منهاتن، نيويورك، مطلع القرن العشرين.

تصوير لويزا ابوت (متحف تاريخ مدينة نيويورك).

يوم الثلاثاء في ٢٦ و ١٣ أيار سنة ١٩٠٨

حلمت أني كنت في القدس، وأني شهدت جنازة حافلة وكنت محزوناً جداً كأن الميت صديقي. ولما خرجنا من الكنيسة تبعتني نايفة ابنة أختي فروسو، وقالت: يا خالي أريد أن أذهب معكم، فأخذت رأسها بين يدي، وقلت لها: ارجعي إلى البيت فإننا ذاهبون إلى محل بعيد.

استحممت ولعبت. لم أذهب عند تلميذتي اليوم لأنهم ذهبوا ليودعوا الخواجا سليم. خرج يوسف للبيع. نزلت إلى نيويورك فذهبت إلى محل الخواجات ملوك أسأل عن رسائل، فلم أجد غير كارت من تلميذي مستر ستكرت، يقول: إنه لا يستطيع أن يأخذ درساً الليلة، وأما من القدس فلم آخذ شيئاً فكدت أجن. ذهبت إلى ادارة الجامعة. كلفني الخواجا نقولا الحداد أن آخذ صورة المقالة عن الشركة الفرنساوية وأريها لمستر ليون قبل طبعها فذهبت فلم أجده. ذهبت الى محل الخواجا حنا حشمة وفي صدري لهيب ناب عن قبس. ليس الصبر أن لا تبالي ولكن الصبر أن تتألم وتتعذب وتسكت.

رجعنا إلى بروكلن وكان الحر شديداً فنزعت ثيابي وأويت إلى فراشي، وبعد النوم استحممت وجلست وراء طاولتي أكتب الى مس سنكير. رجع يوسف من البيع، ربح كل منهما [هو وصاحبه] ريالاً وبعض السنتات. خرجت وذهبت إلى المطعم السوري وتعشيت، في رجوعي لقيت ماري الخوري وأخاها فمشيت معهما. قالت لي: إنها قطعت علائقها مع خطيبها الأول وإن آخر طلب يدها فرفضته. رجعت إلى الغرفة. سهر عندنا فؤاد سلفيتي وكان موضوع أحاديثنا أيام المدرسة، فجعل أخي يوسف يقص من أخباره في مدرسة صهيون[٤١] ما انقبض له صدري وأيد اعتقادي فيه. خطر لي اليوم أن أكتب إلى سلطانة أحلها من عهدي لأني سيء الحظ عاثر الجد.

يوم الأربعاء في ٢٧ و ١٤ أيار سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا. بعد الفطور خرج يوسف للبيع، وذهبت أنا وعلّمت تلميذتي. الحر شديد جداً كأننا في يافا في شهر تموز.

رجعت إلى الغرفة والعرق يفيض من كل جسدي فنزعت ثيابي واستلقيت على فراشي فنمت نحو ساعة ثم استحممت بالماء البارد فانتعشت. كتبت رسالة إلى مس سنكير.

نزلت إلى نيويورك، مررت على محل الخواجات ملوك أسأل عن رسائل فلم أجد شيئاً. منذ انقطعت رسائلك يا سلطانة تملكني اليأس وتولاني الفتور، فلم أعد أنشط الى شيء أو ألتذ بشيء، بل لم أعد أبالي بالوجود.. ثم مررت على إدارة الجامعة فوجدت رسالتين باسمي؛ الواحدة من الياس حلبي والأخرى من

---

(٤١) مدرسة صهيون: هي مدرسة الشبان الانكليزية في القدس والتي تخرج منها السكاكيني.

عيسى الطبة .

رجعت إلى غرفتي ونفسي مملوءة ضجراً وسآمة . لقيت الخواجا حنا حشمة في طريقي فذهبنا إلى مطعم سوري وتعشينا ، وجدنا صاحب المطعم مضطرباً ، فسألناه : ما الخبر؟ فقال وردتني رسالة يقولون فيها أن أرسل خمسة ريالات إلى أحد صناديق البريد ، وإلا فحياتي في خطر . ما أنعم العيش في ظل هذه المدينة؟ ! من هناك ذهبت مع حنا حشمة الى بيت الست جني قرينة الخواجا أنيس جبّور نزورها ، فاحتفت بنا احتفاءً كبيراً ، ثم ذهبت علّمت تلميذي الخواجا مكروشيان . لم نستطع إلا أن ننتزع معطفينا وصدريتنا وقبتينا ، ومع ذلك فإن العرق كان يسيل كالمطر .

برزت السيدات اليوم بالثياب الشفافة مكشوفات السواعد وأعالي الصدور . تمر من أمام المنازل فترى الناس جالسين على الأبواب الرجال والنساء . ما هذه البلاد؟ في الشتاء برد شديد وفي الصيف حرّ يذيب الحديد . لم يبع يوسف اليوم شيئاً . وضعت رسالة مس سنكير في صندوق البريد .

يوم الخميس في ٢٨ و ١٥ أيار سنة ١٩٠٨

استحممت ولعبت ثم أفطرنا . لم يخرج يوسف للبيع اليوم لأن نقولا البرغوت خرج مع اسكندر غزال . ذهبت علّمت تلميذتي . رجعت الى الغرفة فوجدت يوسف مستلقياً في فراشه ، فنزعت ثيابي أنا أيضاً وأويت الى الفراش فنمت نحو ساعة ثم قمت فاستحممت . ثم كتبت رسالة إلى نجيب الشغري جواباً على رسالته ونزلت الى نيويورك . مررت على محل الخواجات ملوك أسأل عن رسائل فلم أجد شيئاً . ثم مررت على محل الخواجا حنا حشمة فوجدت كارتاً من الخواجا يوسف كرايديان جاء إلى نيويورك وسأل عني . فركبت الترام وذهبت إلى المحل الذي عينه فقبلته وقبلني ، ثم جعلنا نروح ونجيء في طريق قليلة الازدحام فقص عليّ وقصصت عليه . قال : إن المعمل الذي كان يشتغل فيه أقفل ، وأنه جاء إلى نيويورك لعله يجد شغلا وأنه ربما رجع إلى القدس . . تركته على أمل اللقاء غداً الظهر لنتغدى معاً .

ذهبت علمت تلميذي مستر ستكرت . يظهر لي أن درسنا لا يطول رغماً عن كوني أبذل الوسع أن أجعل له رجلين من قصب ليقوم . . لا حول ولا . .

رجعت إلى بروكلن فذهبت تواً إلى المطعم السوري وتعشيت . وجدت هناك كارتاً من المنتدى السوري الأميركاني الجمهوري يدعونني فيه إلى حضور الاجتماع غداً مساءً . فذكرت جمعية الآداب المحبوبة ، وذكرت حبيبي داود . رحمة الله على تلك الأيام . . أكتب هذه الأسطر ودموعي تجول في جفنيّ . ثم جئت إلى الغرفة فجاء الخواجات حنا حشمة وخليل حبابو وفؤاد سلفيتي وسهروا عندنا الى الساعة الحادية عشرة .

يوم الجمعة في ٢٩ و ١٦ أيار سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا . خرج يوسف للبيع وذهبت أنا وعلّمت تلميذتي ونزلت رأساً إلى نيويورك ، وذهبت إلى المحل الذي ينتظرني فيه الخواجا يوسف كرايديان ، فأخذته وجئنا إلى شارع واشنطن وتغدينا هناك ، ثم جئنا إلى بروكلن ، وإذ كان قد اقترب وقت الدرس تركته فرجع إلى محله ، وجئت إلى محل الدكتور نيس فعلمته إلى الساعة السادسة ، أي : ثلاث ساعات ، فدفع لي ريالين ثم تناول نصف ريال وقال : هذا بخشيش ، فأخذته وأنا أظن أنه يمزح . أنا الذي كنت أعتزّ على الكبير والصغير آخذ اليوم بخشيشاً ؟ يا موت زُر إن الحياة ذميمة . . ثم قال : إنه يفتكر أن يوقف الدرس الآن بسبب شدة الحرّ ، ولكن ربما أخذ درساً من وقت إلى آخر . . ولما قمت لأذهب طلبت منه إذا عرض له شغل أن ينتدبني إليه ، لأني أصبحت الآن بدون شغل ، فقال : هل تخدم في اللوكندات ، فقلت له : أخدم ولكن على شرط أن أعرف العمل الذي أُكلف به ، عنيت بذلك أني لا أشتغل . وكأنه شعر بذلك ، فقال : الأشغال في نيويورك قليلة جداً ، ولكن في الداخلية أشغالاً كثيرة ، لو كنت تشتغل بالزراعة لوجدت لك شغلاً حالاً . فافتكرت حينئذ بأخي يوسف فإن الزراعة أنفع له صحياً وأدبياً ، بل افتكرت أن أذهب أنا وأشتغل بها . ثم قال : أبذل جهدي وسأكتب لك . تركته وجئت إلى غرفتي منكس الرأس ثائر النفس ، أكاد أتميز غيظاً وسخطاً . لم أعتد مثل هذه الحال ولم أهيأ لها . كل شيء يعمل على إذلالي . لولا أمي لانتحرت فالموت خير من الذل . ثم ذهبت فعلمت تلميذي الأرمني ورجعت من هناك خائر القوى كليل الأعصاب ، فاستلقيت على فراشي كالقتيل .

يوم السبت في ٣٠ و ١٧ أيار سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا . لم يخرج يوسف للبيع لأن اليوم عيد عظيم عند الأميركان ، نزلت الى نيويورك وذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك أسأل عن رسائل فلم أجد ، فإذا كفرت فمن يلومني . من هناك أخذت القطار الذي تحت الأرض وذهبت إلى الشارع التاسع عشر إلى محل الخواجا ودنشيان الأرمني الذي حملني إليه بروفسر بور رسالة توصية لعلّي أجد عنده شغلاً ، فوجدت محله مقفلاً بسبب العيد . فذهبت إلى محل الخواجا نوريان حيث ينتظرني الخواجا يوسف كرايديان ، ولقيت هناك أصغر إخوة نوريان فعرفني به الخواجا يوسف ، فجئنا معاً إلى قهوة أخي سيكياس فشربنا قهوة وتحادثنا في مواضيع مختلفة ، ثم جئنا إلى مطعم أرمني وتغدينا هناك ، وبعد الغداء جئنا إلى بروكلن وكانت السماء شاتية ، فأوينا إلى غرفتي وجلسنا نتبادل أحاديث كثيرة عن القدس .

لم أذهب لأعلّم تلميذتي : أولاً لأن اجتماعنا استغرق وقتاً طويلاً ، وثانياً لأن الشتاء غزير فخشيت إن ذهبت تحت هذا المطر بدون مظلة أن يحسبوا ذلك حرصاً على نصف الريال الذي آخذه على الدرس . ثم ذهبت فتعشيت ورجعت إلى الغرفة فغلينا قهوة وشربنا . جاء سهر عندنا فؤاد سلفيتي فلعبنا الورق . كان

يوسف لا ينتهي من سيكارة حتى يشعل الأخرى وهو يعرف أني لا أستطيع أن أراه يدخن، فكأنه كان يعني أنه لا يبالي رضيت أم غضبت. لا أشير إلى هذه المسألة لما وجدت بسببها من الألم، ولكن لأشير الى ما هو عليه من النهم في التدخين، فإذا كان يدخن هذا المقدار أمامي فكم يدخن إذا كان بعيداً عن نظري؟ ثم كان يذكر لنا عن أيامه في القدس انه كان يمشي مع فلان وفلان ممن يعرف أني لا أطيق سماع أسمائهم لأنهم أسقط الناس، بل أشبههم بالكلاب، فكأنه كان يعني هذه الليلة أنه يريد أن يغيظني.

أواه ما أسوأ حظي حتى أخي لا يراعيني وواويلاه كم قاسيت وكم أقاسي...

يوم الأحد في ٣١ و ١٨ أيار سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا. بعد الفطور جلست لأكتب للمعلم نخلة، فجاء أسعد حشمة فتركت القلم وجلسنا نتسلى إلى الظهر، ثم ذهبوا جميعهم وبقيت وحدي فعدت إلى الكتابة إلى المعلم نخلة فكتبت عدة صفحات، ثم أحسست بالتعب فاستلقيت في فراشي نحو نصف ساعة شردت فيها بالفكر إلى القدس، فمررت من أمام مدرسة مطران الانكليز، ثم جئت إلى مستعمرة الأميركان، فتذكرت يوم كنت أعلم عفيفاً، ويوم كنت أزور داود رحمهما الله. ثم قمت وغسلت وجهي وكان يوسف قد جاء، فأرسلته يشتري لي خبزاً ولبنة وموزاً، فأكلت وغلينا قهوة فشربت. وبعد قليل دخل أسعد حشمة، وقد أحضر معه أركيلته فعبأها وجلس يقرأ في رواية ويدخن، وأما أنا فخلجتني عواطف كثيرة لم أعرف كيف أُعبر عنها، فأرسلت نظري في عالم الخيال وجالت الدموع في عيني.. وفي المساء لبست وذهبت أنا والياس حيدر إلى مطعم سوري وتعشينا ثم رجعنا وكان حشمة لا يزال هناك فلعبنا بالورق، ثم ذهب فجلست إلى الطاولة أتابع الكتابة. إذا أردت أن أشرح أحوالي وأعبّر عن أفكاري وأترجم عن إحساساتي وتصوراتي ملأت كتابا برأسه [= كاملاً].

حالتي صعبة جداً لم يلق مثلها أحد، ولا يمكن اصلاحها، فأين ذهبت وكيف عشت ومهما عملت فلا تخلو حياتي من الأكدار والآلام. ومن جملة الأسباب التي أفضت بي إلى هذه الحال، هو أن لا تآخي بيني وبين أخي يوسف إلا في الاسم، وأما في الأفكار والطباع والاخلاق والآمال فلا.. ولولاك يا أمي المحبوبة، لكنت أتيت المستحيل، وخلصت من هذا العالم الثقيل...

يوم الاثنين في أول حزيران غ و ١٩ أيار ش سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا خبزاً ولبنة وموزاً وقهوة. حسب العادة خرج يوسف للبيع. ذهبت علّمت تلميذتي. ثم نزلت إلى نيويورك فمررت على محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسائل، فلم أجد شيئاً فلم تسعني الدنيا، ولكن عضضت على ناجذيّ وجئت إلى إدارة الجامعة لعلي أجد فيها شيئاً، لأن بعض

رسائلي تردني هناك، فلم أجد أيضاً شيئاً . . .

رجعت إلى غرفتي ونفسي منسحقة. ماذا أكون حتى احتمل كل هذا؟! فقر وضيق وخيبة وحرمان وبعد وفوق ذلك هجر . . في المساء ذهبت لأعلّم الخواجا مكروشيان. لم نطل الدرس لأنه قيل لي: إن أسعد حاماتي وحنا حشمة آتيان ليسهرا عندي، ولكن رجعت فلم أجد أحداً فنزعت ثيابي وجلست وراء طاولتي لكن لم أعرف أن أقرأ أو أكتب. ماذا أعمل لكي أخلص؟! بقائي في هذه البلاد عبث في عبث، مهما تحسنت الأحوال فلست أرجو أن تتحسن أحوالي، ثم كيف أرجع، وماذا يكون حالي هناك؟!.

يوم الثلاثاء في ٢ حزيران غ و ٢٠ أيار ش سنة ١٩٠٨م

حلمت الليلة أني رجعت إلى القدس، فسألت عن أخي يعقوب، فقيل مات، فصرت أبكي. استحممت ولعبت ثم أفطرنا. خرج يوسف للبيع. ذهبت إلى نيويورك فمررت على محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسائل فلم أجد شيئاً فاعتراني ذهول. ثم ركبت القطار الذي تحت الأرض، وذهبت إلى محل التاجر الأرمني الذي حمّلني إليه بروفسر بور رسالة توصية فلم أجده هذه المرة وهي الثالثة.

من هناك مررت على محل الخواجات نوريان لعلي أجد الخواجا يوسف كرايديان فوجدت أنه ذهب مع الخواجا نوريان ليمرا عليّ. فرجعت أدراجي إلى ادارة الجامعة فوجدت المجلة قد صدرت فأخذت نسختي، ثم ذهبت إلى محل الخواجا البرت ليون فوجدت ملزمة من كتاب الدكتور كوتهايل، ثم طلب إليّ أن أذهب إلى إدارة المرآة، وأعطيهم صورة المقالة التي نشرتها الجامعة لينشروا واحدة مثلها. ثم جئت الى بروكلن جائعاً متعباً فاشتريت بعض قطع حلواء فأكلت، ثم ذهبت أعلّم تلميذتي وكان الهواء يهب عليلا لطيفاً، فخلت نفسي في مثل هذه الساعة في القدس بين أشجار الزيتون في (سعد وسعيد)[٤٢] ثم أخذت تذكارات مختلفة تتوارد على خاطري حتى كدت أبكي.

بعد أن علّمت تلميذتي رجعت إلى غرفتي فجاء يوسف ولم يبع شيئاً. جلست إلى طاولتي أفكر في سوء حظي وأخذ صدري يضيق يضيق حتى كدت أختنق نفسي. ثم تماسكت وقمت وذهبت لأتعشى، وأنا على العشاء جاء الخواجا ميخائيل خوري كاتب الخواجات ملوك يحمل إليّ رسالة من أختي ميليا، تقول فيها: إن سلطانة تغيرت، وإنها عازمة أن لا تكتب لي، فتولتني سكتة، وما صدقت أن خلصت من العشاء فجئت الى غرفتي ولجأت إلى صورة داود وجعلت أبكي حتى تقرحت أجفاني.

دخل عليّ الخواجات يوسف بولس، منعم سيقلي، فؤاد سلفيتي وأسعد حشمة وأخوه وشخص آخر. دخنت بالأركيلة.

---

(٤٢) سعد وسعيد: ضاحية من ضواحي القدس.

يوم الأربعاء في ٣ حزيران غ و ٢١ أيار ش سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت وإنما لم أشعر بسرور كما كنت أشعر بحماماتي وألعابي في القدس. أفطرنا. خرج يوسف للبيع. ذهبت لأعلّم تلميذتي. وجدت رسالة من الخواجا رفائيل حمصي يستبطئ جوابي، ويقول: إنهم استدعوه إلى الاسكندرية ليتمكنوا من احضاره إلى القدس، ولكن هو مصرّ على البقاء في الاسكندرية. كأن تلميذتي عرفت أن تلاميذي انسحبوا، وأن أخي يوسف لا يشتغل، فما كان من مروءتها وكرمها إلا أن عرضت عليّ المساعدة سراً، فشكرتها وكدت أذوب في ثيابي هماً وحزناً مما أفضيت إليه.

رجعت إلى غرفتي وأفكاري مشردة. تصورت أني رجعت إلى القدس على حين غفلة، وصعدت رأساً إلى مقبرة الكاثوليك، وتمرغت على قبر داود ولم أستفق على نفسي إلا والدمع يجول في عيني. خطر لي أن أكتب إلى عيسى العيسى وفرج الله أطلب من كلّ منهما عشر ليرات، وان أكتب إلى مسس واي أطلب منها مثل ذلك.

اشتريت قطع حلواء بخمسة سنتات وتغديت، ثم كتبت رسالة إلى الدكتور نيس أطلب منه أن يدبر لي ولأخي شغلاً في احدى المزارع، ورسالة أخرى إلى بروفسر بور استنصحه ماذا أعمل، ثم نزلت إلى نيويورك فوضعت الرسالتين مع رسالة سلطانة ورسالة المعلم نخلة في صندوق البريد.

ذهبت إلى محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسائل فلم أجد شيئاً، ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فوجدت رسالة من أمي بخط الخوري سوتيري حنانيا؛ فيها رسالة من أخي يعقوب بخط أفتيم مشبك، ورسالة أخرى من أنطون بطماني من الاسكندرية يشكرني فيها على مساعدتي له في السفر من القدس قبل بضع سنوات. تطلب إليّ أمي أن أغيّر لهجة مكاتيبي لأنها تبكيهم، وقد راعني في رسالتها عبارة وهي أن أتأكد أن ليس لي بعد داود صديق، ولم أفهم ماذا دعاها إلى ذكر هذا.

رجعت إلى غرفتي. في القارب وقفت بجانبي بازائي [كذا] سيدة سورية ففاتحتني بالحديث. سألتني: كم لك في هذه البلاد وماذا تشتغل؟ ولما خرجنا من القارب اشترت بعض الأثمار فناولتني منها، ثم لما تركتها دعتني إلى منزلها فشكرتها، وذهبت وأنا أتعجب من ذلك. رجع يوسف من البيع ولم يبع شيئاً. قرأنا الرسائل، تذكرت داود فبكيت بكاءً مراً.. ذهبت لأعلم تلميذي فوجدت الغرفة مقفلة، ثم لقيته في الطريق فذهبنا إلى قهوة أخي سيكياس الحلاق.

يوم الخميس في ٤ حزيران غ و ٢٢ أيار ش سنة ١٩٠٨م عيد الصعود

استحممت ولعبت ثم أفطرنا. لم يخرج يوسف للبيع، ذهبت علّمت تلميذتي، كتبت رسالة الى أمي، تغنيت فيها بما حصلت عليه من المقام في طائفتي قبل سفري، وذكرت لها أني أفكر بالرجوع إذا لم تلح لي بوارق آمال لمدة شهر. أثارت هذه الذكرى حماستي وعزة نفسي، فكنت كل النهار نشيطاً. نزلت بعد الظهر

إلى نيويورك فذهبت إلى محل الخواجات ملوك، فلقيت رسالة من مس سنكير تشجعني على البقاء في أميركا، ولو التزمت أن أشتغل في أحقر الأشغال. ذهبت من هناك إلى إدارة الجامعة، فكتبت رسالة إلى فرح أفندي أنطون أستشيره ماذا أعمل، ثم ذهبت إلى محل الخواجات نوريان أسأل عن يوسف كرايديان، فوجدت أنه قد ذهب الى القرية، حيث كان يشتغل. استقبلني الخواجا نوريان، وهو أرمني من سعرت، جاء الى هذه البلاد قبل نحو عشرين سنة فأثرى. جلست إليه وجعلنا نتجاذب أطراف الحديث، وقد كنت أتكلم بتأثر فآنست منه ارتياحاً الى حديثي. رجعت الى بروكلن فحلقت، أخذت ريالاً من الياس حيدر وتعشيت. في المساء ذهبنا سهرنا عند الخواجا حناحشمة وكان عنده ضيوف كثيرون، أخذت الكمنجة وعزفت عليها، وجربت أن أترجم عن عواطفي فلم أستطع. إن عواطف هذا القلب المعذب أبعد من أن تعبر عنها الأوتار، وأعمق من أن يفصح عنها لسان. رجعت الى الغرفة عند الساعة الحادية عشرة فعبأت الأركيلة وجلست أدخن. أضفت بعض عبارات الى رسالة أمي، وكتب يوسف رسالة أخرى الى أمه. عرض علي اليوم الخواجا الياس ملوك أن يعطيني رسائل وصاة الى بعض التجار الأميركان، لعلي أجد عندهم شغلاً. السلام عليك يا سلطانة، ورحمة الله عليك يا داود.

يوم الجمعة في ٥ حزيران غ و ٢٣ أيار ش سنة ١٩٠٨ م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا. جاءتني اليوم صباحاً قبل أن أترك البيت رسالتان، الواحدة من بروفيسر بور، يقول فيها: إنه ينتظرني في محله الساعة الحادية عشرة من هذا الصباح. والأخرى من الدكتور نيس يقول: إنه ذاهب إلى الداخلية غداً وسينظر في الأمر. فنزلت إلى نيويورك، فمررت أولاً على محل الخواجات ملوك لأضرب [كذا] من هناك تلفوناً لتلميذتي أن لا تنتظرني اليوم للدرس، ثم عرجت على يوسف بولس، وطلبت منه أن يذهب إلى إدارة المرآة ويستفهم من أسعد حاماتي، هل يحتاجون إلى كاتب، لأن كاتباً عندهم ترك الاسبوع الماضي، ثم ذهبت إلى بروفسر بور فاستقبلني هاشاً باشاً، فكتب لي رسالتي توصية الى بعض أصدقائه ممّن قدّر أنهم يستطيعون أن يدبروا لي شغلاً، ثم قال: وأنا أريد أن أتعلم اللغة العربية، واليوم نأخذ أول درس فخفت أن يكون ذلك ليس لأجل الدرس ولكن لأجل مساعدتي، فكبر عليّ الأمر وجربت أن أتخلص من ذلك، وقلت له: لا بأس بروفسر بور، فإذا كان الأمر كذلك فأنا راجع الى بلادي، فألح عليّ إلاّ أن يأخذ درساً اليوم، وأكد أنه يقصد أن يتعلم اللغة العربية، لأنه ربما ذهب الى سوريا عند أخته، فلم أستطع إلاّ أن أقبل، وقررنا أن نأخذ درساً بعد الظهر. ذهبت الى أصدقائه الذين حملني إليهم رسائل التوصية فقطعت الحديقة العمومية مشياً على الأقدام، ثم مشيت مسافة طويلة حتّى وصلت فلم أجد أحداً، فقيل لي: ارجع بعد الظهر، ثم ذهبت عند آخر فاستقبلني هاشاً، وقال: أبذل وسعي، ثم نزلت معه الى أسفل المدينة فدفع عنّي أجرة القطار واشترى لي جريدة وتأبط ذراعي، فحمدت مروءته ولطفه. ثم رجعت بعد

الظهر وأعطيت بروفسر بور درساً ، وبعد الدرس ذهبت مرة ثانية عند أصدقائه ، فلم أجد أحداً . أخذت عنوان مسس بور لأكتب لها . ثم ذهبت فعلّمت مستر ستكرت . ومن هناك ذهبت فعلمت تلميذي الأرمني ، ثم رجعت الى الغرفة مضنى من التعب ، فأكلت وعبأت أركيلة وغلا يوسف قهوة وسكب فنجاناً ، فقلت له أن يسكب فنجاناً لإلياس حيدر ، فلم يقبل ، فكأنه طعنني في قلبي ، فقمت وسكبت له أنا بيدي . لا يسرني يوماً حتى يكدرني أياماً .

يوم السبت في ٦ حزيران و ٢٤ أيار ش سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت . كنت أقدّر أن تسري عدوى الاستحمام واللعب والعناية بالصحة والشباب والجمال الى أخي يوسف ، ولكن كأنني وإياه على طرفي نقيض ، ولذلك فإنني دائماً أخاف عليه . . ذهبت علمت تلميذتي فدفعت لي ثلاثة ريالات . رجعت الى الغرفة فنمت نحو نصف الساعة ، ثم نزلت إلى نيويورك فمررت على محل الخواجات ملوك ، فأخذت رسالتين ، الواحدة من أمي والأخرى من عيسى العيسى ، وقد راعني في رسالة أمي قولها : إن رجل يعقوب لا تزال كما تركتها . وقد أودع عيسى رسالته شيئاً من رسالة لداود كان قد كتبها إليه قبل موته بقليل ، فتخيلت أني أرى داود وأسمع صوته ، فهاجني الحزن ولم أمتلك دمعي ، ثم انتبهت لنفسي ، إذ مرّ بالقرب مني الخواجا الياس ملوك ، فطويت الرسالتين ونزلت . ذهبت إلى إدارة الجامعة ، أخذت عدد اليوم . ثم ذهبت إلى محل الخواجا البرت ليون لعله يدفع الخمسة الريالات كوموسيون الاعلان في مرآة الغرب ، فقال : دفعت المبلغ كله إلى صاحب المرآة ، فاذهب وأطلب منه القيمة حسب اتفاقنا ، فذهبت ولكن أقدم رجلاً وأؤخر أخرى . مررت على يوسف بولس فاستشرته ، فقال اذهب فالحياء لا ينفع في هذه البلاد ، فذهبت ولمّا رآني دفع لي حوالة بالقيمة بدون أن أذكر له شيئاً . ثم رجعت الى الغرفة فوجدت أخي وأسعد حشمة ، فلعبت مع أسعد بالورق وأنا أشعر أن دمي يتراجع الى قلبي ، بحيث أصبحت أطرافي صفراء . ثم ذهب يوسف وأسعد فقمت الى صورة داود وصرت أبكي بكاءً مرّاً . جاءتني رسالة من الخواجا يوسف كرايديان . جلست أكتب إلى الخواجا رفلة ، وإذا بالباب يقرع ، ودخل ابن الدبدوب وقال : إن تاجراً من بيت لحم يحتاج الى كاتب وقد ذكرتك له فكلفني أن أمرّ عليك ، فكم تريد أجرة ، فقلت له : لا أقل من أربعين ريالاً إلى الخمسين . سهر عندنا فؤاد سلفيتي .

يوم الأحد في ٧ حزيران غ و ٢٥ أيار ش سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا وكانت الساعة العاشرة . ثم عبأت الأركيلة وجلست وراء الطاولة أكتب رسالة الى الخواجا رفلة ، ولكنني كنت أشعر بارتخاء في جسدي كأنّ بي شيئاً ، فلما قاربت الساعة الظهر نمت ونام يوسف أيضاً . وبعد الظهر جاء أسعد حشمة ، فأرسلت يوسف فاشترى لنا خبزاً وجبناً وزيتوناً

وموزاً وتغدينا، ثم جلست الى أسعد ولعبت معه بالورق. ثم حلقت، وعند الساعة السادسة رقت عواطفي وثارت أشجاني فجعلت أئن أنين الثكلى وأغني قصيدتي العينية في داود التي مطلعها:

إذا جنهُ الليلُ استهلت مدامعه تبل غليلاً ضمّنته أضالعُهْ

وأخذت مدامعي تنهل انهلال المطر. ثم جاء يوسف والياس فذهبنا إلى المطعم السوري لنتعشى، فجلس الياس على طاولة، فذهب يوسف وجلس على طاولة ثانية، كأنه لا يريد أن يجلس مع الياس فناديته فجاء مغضباً. ثم رجعنا إلى الغرفة فجاء عندنا فؤاد سلفيتي فلعبنا الورق وأنا أرى أن ذلك أولى من أحاديث لا لذّة لي فيها، فلا يزورني أحد إلاّ تناولت الورق قطعاً للوقت وتفادياً من حديث يؤلمني سماعه. قال فؤاد سلفيتي: إن التاجر الفلاني وسماه، يحتاج الى كاتب، فإن كنتَ تحبّ الاستخدام فإني مقابله غداً، ومكلمه بخصوصك فتفاءلَت خيراً. كتبت رسالة إلى أمي فيها قواعد ثلاث، الأولى النجاح لا يجيء إلاّ تدريجاً، الثانية التسليم لله، الثالثة وجوب اتقاء المصائب بما يصل إليه الإمكان. لما ذهب الناس أخذت أعاتب يوسف على نفوره من الياس فعربد وجدّف، فنمت على وجهي.

الاثنين في ٨ حزيران غ و ٢٦ أيار ش سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا، وبعد الفطور خرج يوسف للبيع. ذهبت علّمت تلميذتي ثم نزلت رأساً إلى نيويورك فمررت على محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسائل، فلم أجد شيئاً، ثم مررت على إدارة الجامعة فلم أجد شيئاً أيضاً. ومن هناك ذهبت إلى محل الخواجات دبدوب، فقال: أنا اليوم وغداً مشغول، ولكن يوم الأربعاء مساء نمر عليك ونسهر عندك وأعرفك به، ولكن كن مطمئناً فكأنك اشتغلت. اشتريت ورقاً ورجعت الى غرفتي وكان الحر شديداً فنمت، وبعد النوم جلست وراء الطاولة لأكتب إلى سلطانة فحرت ماذا أكتب لها، ولم أعرف ماذا أقول، فأجلت الكتابة لها الى فرصة أخرى، ثم كتبت رسالة الى الخواجا يوسف كرايديان. جاء يوسف من البيع، باع بريال ونصف، كان ربحه منها أربعين سنتاً.. لما صارت الساعة السابعة قمت لأذهب عند تلميذي الأرمني فمررت من أمام دكان سوري فقيل لي: إن يوسف جاء ليرقع حذاءه عند اسكاف هناك، وهو رجل كبير فقير مكسور الخاطر، فبعد أن رقعها له، ولست أدري ماذا توهم يوسف انه قال له، فعربد وجدف وهم بضربه. وقيل لي إنه لا تخلو جيبه من زجاجة الوسكي، فشعرت أن الأرض تميد تحت أقدامي، وخطر لي قول المتنبي:

وآنف من أخي لأبي وأمي إذا ما لم أجده من الكرام

ونظرت إلى المستقبل فتصور لي الشقاء، تصورت أني سأكون وحيداً لا معين لي ولا نصير، وسأظل مديوناً الى أن أنزل القبر، فضلاً عن المصائب الكثيرة التي أصبحت تهدّد بيتنا منذ الآن. فليتك يا أمي تموتين قبل أن تشهدي المصائب الآتية. وخطر لي كل الوقت أن أكتب لسلطانة، أحلها من عهدي، لأنه فضلاً عن

ديوني التي ربما انقضى العمر قبل أن أفيها ، فإن حياتي لن تكون سعيدة ، بل سيزيد شقائي على مرّ الأيام. علمت تلميذي ، سهر عندنا يوسف غرزوزي وفؤاد سلفيتي وأخوه.

الثلاثاء في ٩ حزيران غ و ٢٧ أيار ش سنة ١٩٠٨م

استحممت ولم ألعب . بل كنت منقبض الصدر كاسف البال . خرج يوسف للبيع ، وأما أنا فاشتريت خمس قطع من الحلواء وأفطرت ، وبعد الفطور ذهبت وعلّمت تلميذتي . الحر شديد . لم أستطع أن أعمل شيئاً ، ولم أرَ خيراً من النوم تفادياً من الجلوس الى نفسي والنظر في سوء حظي . لمّا قمت نزلت إلى نيويورك فمررت على محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسائل من القدس فلم أجد شيئاً . ثم ذهبت الى إدارة الجامعة فلقيت رسالة من فرح أفندي يعرض عليّ ثلاثة أمور ، إما المراقبة في معمل من المعامل ، أو تعريفي الى جريدة الشهاب لعلها تعتمد عليّ ، أو الاستخدام عند السوريين في الداخلية . ثم ذهبت إلى محل الآنسة سعدى الحاج فأخذت من الياس حيدر ريالاً ، فذهبت الى مطعم سوري وتغديت . ثم مررت على محل الخواجا حنا حشمة ، وجلست عنده إلى الساعة الخامسة ، أدرنا ذكر البلاد . ثم نزلت إلى محل الخواجات دبدوب في البناءة ذاتها ، فجلست الى أحدهما وكان الآخر مشغولاً فقال : كنت أراك في القدس واضعاً طربوشك بين عينيك وحاملاً عصا في يدك ، والكل يتحدث معك ويُجلك ، فكيف جئت إلى هذه البلاد ؟ فقلت له : خدعتني آمالي . ثم أخذت الآخر وذهبت إلى محل التاجر اللحمي ليعرفني به ، فخرجنا وجلسنا على ضفة النهر وتحادثنا في مواضيع مختلفة ، ولكن لم ندر ذكر الشغل ، فلما قمت لأذهب طلب إليّ أن أمر عليه غداً . قال لي الخواجا الياس ملوك : إنه ربما احتاج بعد عشرين يوماً إلى كاتب آخر . هممت عدة مرات أن أكتب إلى سلطانة أحلها من عهدي ، فكنت أحسّ كأنني أجود بنفسي ، ولكن هذا لا بد منه ، فلست أطيق يا سلطانة أن تكوني شريكة شقائي . وضعت في صندوق البريد رسالة إلى الخواجا يوسف كرايديان . رجعت إلى الغرفة ، اشتريت قطع حلواء وغلينا قهوة وتعشيت . رجع يوسف من البيع ولكن لست أعرف هل باع أم لا .

يوم الأربعاء ١٠ حزيران غ و ٢٨ أيار ش سنة ١٩٠٨م

رأيت [=في الحلم] يوسف وعيسى إبنَيْ خالي نقولا مع صهرهم . تعاركت مع يوسف فحملته من زناره فوق رأسي . ثم رأيت عيسى العيسى فجعل يسألني عن أميركا ، ثم قلت له : أنا مسافرٌ مرة ثالثة .

استحممت ولعبت . خرج يوسف للبيع . ذهبت علمت تلميذتي ، رجعت الى الغرفة عند الظهر فأكلت بعض قطع من الحلواء ثم نمت ، وبعد النوم نزلت إلى نيويورك فمررت على محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسائل من القدس ، فلم أجد شيئاً . ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فأخذت عدد اليوم . كتبت رسالة إلى فرح

أفندي انطون أكِلُ إليه تدبير أحد الأشغال الثلاثة . ثم مررت على محل الخواجا حنا حشمة ، فجلست عنده قليلاً ، ومن هناك نزلت إلى محل الخواجات دبدوب في البناءة ذاتها ، فوعدني أن يمر عليّ مساء مع الخواجا يوسف سلامة التاجر اللحمي الذي تكلم معي لأشتغل عنده . فرجعت إلى الغرفة ، وأخذت الملزمة التي أرسلها إلي الدكتور كوتهايل وجعلت أنقحها . جاء يوسف ولم يبع شيئاً ، وليس معي غير خمسة عشر سنتاً ، فأرسلته فاشترى لنا بها عشاءً فتعشينا . كتبت رسالة إلى الدكتور كوتهايل أطلب فيها منه أن يدفع لي أجرة تنقيحي كتابه ، ورسالة أخرى الى مسس سبور أطلب فيها منها أن تعين لي وقتاً لأزورها . قرأت ليوسف رسالة عيسى العيسى ، فجعل يبكي فثارت أشجاني فجعلت أغني قصيدة البهاء زهير في حبيبه المتوفي ومدامعي تجول في جفنيّ . . جاء الخواجا دبدوب فأخذني ومررنا على صديقه المذكور فذهبنا إلى التياترو . كنت أقدّر أن أرى شيئاً باهراً ، فرأيت شيئاً بسيطاً مثل خيمة كراكوز . إذا أصبت في هذه البلاد مركزاً يدخلني منه خمسون أو ستون ريالاً أقمت أحوالي وعدلت شؤوني وتمكنت من بناء مستقبلي ، وإلا فالشقاء حليفي إلى أن أوارى في قبري ، وأما أنت يا سلطانة فلو تعلمين حالتي للمت نفسك عن هذه المعاملة القاسية . . اليوم بدأت الشهر الثامن لوجودي هنا .

يوم الخميس في ١١ حزيران غ ٢٩ أيار ش سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا . لم يخرج يوسف للبيع . ذهبت علمت تلميذتي آخر درس ، فدفعت لي ريالين ، ثم رجعت إلى الغرفة أتعثر بأذيال اليأس كاسف البال حزيناً . لبثت في الغرفة أنتظر الدكتور نيس . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر جاء ، فكان أول ما افتتح الحديث به أنه اقترح عليّ أن أدخل مدرسة اللاهوت ، وأستعد للقسوسية لأكون قسيساً على السوريين البروتستانت في هذه البلاد ، وقد مهّد لهذا الاقتراح بكلام طويل ، من جملته أن كنيستهم على وداد مع الكنيسة الأرثوذكسية ، وأنه لا فرق في الجوهر بين الكنيستين ، ولذلك فالمرور من كنيسة إلى أخرى ليس فيه كبير أمر ، فقلت له : لا أعترض على شيء ، ولكن لا أشعر بميل إلى مثل هذا العمل ، ولا أحس بدافع يدفعني إليه . ثم قال : لماذا لا تؤسس وكالة إعلانات تطوف على التجار الأميركان ممن يهمهم ترويج بضائعهم بين السوريين ، وتعرض عليهم أن ينشروا إعلانات في الجرائد العربية ، بعد أن تكون عرفت عدد السوريين في نيويورك وفي كل الولايات المتحدة ، وعدد قرّاء كل جريدة من الجرائد العربية؟ فشكرته على هذا الفكر . ثم جاء أخي يوسف فوعده أن يبحث له عن شغل عند المزارعين ، وقبل أن ينصرف قال : لا أستطيع أن آخذ درساً هذا الأسبوع لأني مسافر غداً الى الداخلية ، ولكن متى رجعت في الأسبوع القادم أكتب لك . فودعناه وشكرناه . وبعد أن ذهب كتبت رسالة إلى سلطانة أستعطفها بها ، ثم نزلت إلى نيويورك فوضعت في صندوق البريد ثلاث رسائل ، واحدة إلى أمي وأخرى إلى سلطانة وأخرى الى الخواجا رفلة الحمصي . مررت على الدبدوب فذهبنا معاً ومررنا على الخواجا يوسف سلامة التاجر

التلحمي وجئنا إلى نيويورك، وبعد العشاء جاء كلاهما مع الخواجات أسعد حشمة وفؤاد سلفيتي وأخيه، وسليم؛ قريب لأمين أفندي ناصيف في القدس وسهروا عندنا، تكلمنا عن بلادنا وعن السوريين المهاجرين.

جاءتني اليوم رسالة من اشيل سيقلي يخبرني فيها بزواج يعقوب ابن خالتي، وأنه هو ناوٍ على الزواج في أول الشتاء.

في ١١ حزيران غ سنة ١٩٠٨م [رسالة]

يا سلطانة يا حبيبتي

إلى متى إلى متى، أما انتهى أوان هذه المداعبة؟ أما آن أن نرجع إلى ما كنا عليه، ألم يكف الفراق، ألم يكفِ ما توالى عليّ من صدمات اليأس وهجمات الحزن؟ ألم يكفني غربتي وخيبتي وذُلي، ألَم يكفني ما يثقل عاتقي وينقض ظهري من أثقال الحياة وهمومها؟ ألم يكفني ما لقيت من فواجع الأيام وفدائح الليالي؟ إن دموعي لم تجف بعد وضلوعي لم تهدأ وبالي لم يسترح وقلبي لم يطمئن وجراحي لم تندمل. كل يوم أسأل عن رسائلك فلا تجيء، أسأل القمر والنجوم أفتش النسيم فلا أظفر منك بنبأ، فأبكي أبكي حتى أبل نحري وأغرق ثيابي.. تذكري أني غريب وحيد لا أنيس لي ولا رفيق، يهاجني الشوق ويقلقني الوجد وتستضيفني الهموم، وتتناجى في صدري الأحزان، وتعبث بي الأشجان، وأتجرع غصص الكرب وتتقسمني الفكر والخواطر، وتلهب أحشائي اللوعات والحسرات، وتتمثل لي أشباح اليأس وخيالات الشقاء، فألتفت يميناً وشمالاً كمن به جنون لعلي أجد من يسمع لي شكوى، فلا أرى غير جدران غرفتي وما يحتاطني من جماد، ثم أنتظر رسائلك لعل كلمة منك تفرج همي، وتنفس كربي وتؤنس وحشتي وتشرح صدري، فلا أجد غير الإعراض، أنادي وليس من يجيب، أستغيث ولا من يغيث.

إذا كنت يا سلطانة لا انتحر بيدي، فلي من هذه الأحوال أيد كثيرة تمتد إلى عنقي وتمسك بخناقي. أعيذك أن تكون يدك اللطيفة بين تلك الأيدي الخشنة، أعيذكِ أن تكوني تريدين قتلي، تأملي قليلاً في حالتي، اذكري مواثيق أبرمناها وعهوداً عقدناها، ما الذي فديتك أوجب انقطاعك عني؟ ما الذي رابك مني؟ رحماك يا سلطانة رحماك، ترفقي اشفقي فقد بلغ السيل الزُبى، قد نفد صبري وضاقت مذاهبي وذابت الروح اشتياقاً، فهي بعد نفاد الدمع اجرت عبرتي، اتقي الله واذكري.

خليلك

الذي لا ينساكِ

«افطرت خبزاً مغمساً بالطحينة والعسل بمبلغ ٢٥ سنتاً»
مطعم لبنان في الحي السوري في نيويورك، ١٩٠٨ - تصوير لويزا ابوت.
(ارشيف متحف تاريخ نيويورك)

يوم الجمعة في ١٢ حزيران غ و ٣٠ أيار ش سنة ١٩٠٨م.

استحممت ولعبت. ثم أفطرنا. خرج يوسف للبيع. نزلت إلى نيويورك. مررت على محل الخواجات ملوك، لقيت رسالة من مس سنكير تقول فيها: إنها ذاهبة إلى لندن لعلها تذهب في إرسالية للمبشرين، كما ذهبت إلى القدس. لعلها عدلت عن أحلامها القديمة. ثم مررت على إدارة الجامعة فأريت نقولا أفندي الحداد ما نقحته من أغلاط الملزمة للدكتور كوتهايل فأعجب بها وقال: يجب أن يدفع لك على الأقل ريالاً على كل صفحة، فإن مثل هذا التنقيح لا يستطيعه حتى ولا شيوخ الأزهر. ثم ذهبنا معا إلى الغداء. وبعد الغداء شربنا أراكيل. ذكرت له نجاحي في بلادي واعتزازي بين قومي، فأكبرهما، ولامني لأني جئت إلى هذه البلاد، فقلت له: إنما جئت إلى هذه البلاد لأعيش قليلاً في وسط متمدن أجدّد فيه حياتي وأفكاري ومبادئي، لأني خشيت أن أتأخر في أفكاري وأهرم قبل أواني.. ثم لما قمنا سبقني ودفع عني وعنه، مع أننا اتفقنا قبل الدخول أن يدفع كلٌ عن نفسه. قلت له: كان يجب أن أدفع أنا هذه المرّة، ولكنني لا أتجاسر على ذلك الآن، فعلى الأقل أن يدفع كل عن نفسه، هكذا اتفقنا ولكنه خالف ما اتفقنا عليه، فأحسست بألم في نفسي. رجعت إلى بروكلن ونمت، وبعد النوم جاء أسعد حشمة فلعبنا بالشدة، ثم ذهبت وعلمت تلميذي مستر ستكرت فدفع لي ريالاً، ومن هناك ذهبت عند الخواجا مكروشيان لأعلمه، غرفته تطل على شارع قامت فيه الضجة وارتفعت إلى عنان السماء، القطارات على جسور الحديد والقطارات على الأرض، وعربات النقل والأولاد يلعبون ويضجون ويغنون وآلات الموسيقى والفونوغرافات كلها اشتبكت معاً. ولما خرجنا من الدرس لقيت في الطرق الأولاد لا يزالون يلعبون، والبنات والنساء ذاهبات آيبات، كأنهم لا يستطيعون أن يأووا الى البيوت لهياج أعصابهم، ومع ذلك فهم لا يبالون. لا عجب إذا كان الأميركي خشن الطبع حاد المزاج إلى درجة الجنون.. رجعت إلى الغرفة، فلقيت عندنا الخواجا فؤاد سلفيتي وأخاه وخليل دبدوب. سهروا إلى نصف الليل. أرسلت رسالة إلى دكتور كوتهايل مع الملزمة.

يوم السبت في ١٣ حزيران غ و ٣١ أيار ش سنة ١٩٠٨ م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا. كان ينوي يوسف [كذا] أن لا يخرج للبيع اليوم، ولكنني حثثته فذهب، ولكن مكرهاً. نزلت إلى نيويورك فمررت على محل الخواجات ملوك فوجدت ثلاث رسائل، ثنتين [كذا] من أختي ميليا وواحدة من مس فيوليت أكرمَن، وكارتا من ميليا. تقول ميليا في إحدى رسالتيها: إنها تخاف من الوحشة والضجر في فرصة [=عطلة] الصيف، لأنها ستكون وحدها، كأنها تعني ان العلائق بينها وبين سلطانة متراخية. وإنما سرّني في رسالتها هذه قولها: إن أخي يعقوب مبسوط، وأنه أزعج الدير وهو يصعد وينزل يلح في طلب ترميم الدار، وأنهم وعدوه أن يرمموها بعد الفصح، مما أكد لي أن رجله صحّت. وقالت في رسالتها الثانية: إنها أكملت تاريخ العرب والترك والجغرافيا. وقد أرسلت في الرسالتين زهوراً مختلفة

بينها بعض أوراق ليمون من قالونة، مما قطفناه يوم ذهبنا أنا وهي وسلطانة. طلبت إليّ مس ڤيولت أن أبعث إليها بطوابع بريد تركية قديمة. مررت على خليل دبدوب فأعاد عليّ السؤال: كم أقدّر أن تكون أجرتي، وقال: إن الكاتب عند الخواجا يوسف السلامة التلحمي يأخذ اربعين ريالاً وهو خبير بمسك الدفاتر وبكل المعاملات، كأنه يعني أن أجرتي؟ إذا اشتغلت في محله يجب أن تكون أقل، وقد قال لي غير هذه المرة، إن الكاتب يأخذ خمسين ريالاً، مما نفرني من هذا الشغل وملأ نفسي يأساً وضجراً الى ما يفوق طور الاحتمال. ذهبت الى بروكلن وأويت الى فراشي، ولكنني لم أذق غمضاً لأن أعصابي متهيجة وأفكاري قلقة، فقمت وجعلت أتلاهى بقراءة كتاب لنقولا أفندي الحداد في الحب والزواج. رجع يوسف من البيع ولكنه لم يبع شيئاً فأسقط في يدي. جاء الخواجا أسعد حشمة فلعبنا بالشدة، ثم ذهب، فأرسلت يوسف فاشترى لنا عشاء فتعشينا. بعد العشاء جاء أسعد حشمة ونقولا البرغوت وخليل الدبدوب فحدثتهم عن الفساد الذي ابتدأ يدب في بعض العائلات في القدس وفي بيت لحم، لارتخاء النفوس وخلوّ بعض البيوت من نَفَس الرجال، مما كنت أقدّر أن يوسف يقدره قدره، ولكنه حسبه تقريعاً له.

يوم الأحد في ١٤ و ١ حزيران سنة ١٩٠٨ م

استحممت ولم ألعب. حلمت أني كنت في القدس صاعداً على درج دير الروم، فكان أول شخص لقيته أباكِ [يا سلطانة] فسلم عليّ وسلمت عليه، ثم أقبل عليّ من بعيد جورجي أفندي الحمصي وكان لابساً طربوشاً أحمر وهو يبتسم، فتبادلنا التحيات، ثم رأيت المطران مقرونيوس صاحبنا في حادثة صهيون، وكان ينتظر أن أسلّم عليه، فلما اقتربت منه مررت ولم أسلّم عليه.. أفطرنا قبيل الظهر. جاء الخواجا أسعد حشمة فلعبنا بالشدة إلى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر. كان يوسف جالساً وراء الطاولة متغيظاً من الحالة التي وصلنا إليها، فقلت له: قم نتصارع فأبى، فلم أتركه حتى قام وتصارعنا حتى صار العرق يتصبب من أجسادنا، فتتاركنا، وقد انفثأ غضب يوسف وسكن غيظه. ثم استلقينا في الفراش. ونحن نائمان قرع الباب فدخل أسعد حشمة، فأرسلت يوسف فاشترى لنا خبزاً وزيتوناً وفجلاً وبندورة وموزاً فتغدينا. ثم عدنا إلى الشدة، وعند العصر جاء خليل دبدوب ولما صار المساء أرسلنا اشترينا عشاء مثل الغداء. إلا أننا اشترينا هذه المرة علبة سردين زيادة، وتعشينا وتعشى معنا أسعد حشمة. إذا لم أصب شغلاً في الأسبوع القادم رجعت إلى البلاد. لم أجئ إلى هذه البلاد لأسكن فيها إلى الأبد، وإنما جئت لأقيم فيها سنتين على الأكثر، هذا إذا أقبلت الدنيا، ثم لم أجئ لأجمع ثروة طائلة وإنما جئت لأحسن أحوالي المادية تحسناً قليلاً، فإذا رجعت الآن فليس في رجوعي كبير أمر، ولست أحتاج الآن إلا إلى ثلاثين ليرة أخرى وهي لا تقدم ولا تؤخر في ديني، فإذا وفيت ديوني وفيتها من الجملة، وإذا لم أفِها كانت هي من الجملة ثم إذا تحسنت الأحوال بعد رجوعي فإن أخي يوسف باقٍ هنا يناله منها حظه إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يوم الأثنين في ١٥ و٢ حزيران سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم أفطرنا . اليوم ميعاد دفع أجرة الغرفة وليس معنا إلا ريال ونصف ، فاشترينا فطوراً بثلاثة عشر سنتاً ، وأعطيت أخي ربُع ريال أجرة للطريق ، فبقي ريال واثنا عشر سنتاً ، فماذا ندفع ، وماذا ننفق على أنفسنا ؟ ! على أنني رجوت أن يبيع يوسف اليوم ولو بأجرة الغرفة . على هذا الأمل ذهب . بقيت في الغرفة فأخذت كتاباً تجارياً إنكليزياً وجعلت أقرأ ما لعله ينفعني إذا أصبت شغلاً ككاتب . ثم جئت [=قمتُ] لأنزل إلى نيويورك ففتشت عن بقية الدراهم فلم أجدها ، فقدّرت أن أخي نسيها معه ، فالتزمت أن أستقرض من ربة البيت ربُع ريال . نزلت إلى نيويورك فمررت على محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسائل من أحد فلم أجد شيئاً ، ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة لعل رسالة وردت من فرح أفندي أنطون يبشرني فيها أنه وجد لي شغلاً فلم أجد ، فأسقط في يدي . جلست إلى نقولا أفندي حداد وتكلمت معه في الأول عن كتاب الحب والزواج ، وقدمت له بعض ملاحظات كانت عنّت لي أثناء مطالعته ، ووددت لو يرتاح فكري ، ويتثبت عملي ، لأكتب في هذا الموضوع ما عرفته بالإختبار ، ولكن أين مني ذلك الآن وأنا مشتت الفكر مضعضع الحواس؟ ! ثم سألته ما رأيه ، هل أبقى في هذه البلاد أم أرجع ، فقال : أنصح لك أن ترجع . ثم جئت إلى بروكلن وأحضرت له كتاب الحب والزواج ، وأخذت منه رواية الحقيبة الزرقاء ورجعت إلى الغرفة ، فاشتريت بخمسة سنتات قطع حلواء وتغديت ثم أويت إلى الفراش قطعاً للوقت وتخلصاً من الوساوس والبلابل . قمت واجماً حزيناً كأني محكوم عليّ بالإعدام . جاء الخواجا أسعد حشمة فلعبنا بالشدة وأنا لا أكاد أعي فغلبني عدة مرات . جاء يوسف مبلل الثياب لم يبع شيئاً وقد أضاع خمسة عشر سنتاً فاضطر أن يقطع الطريق ماشياً تحت المطر الغزير ، لا حول ولا . . لم ألقَ في حياتي مثل هذا اليوم . ذهبت علمت تلميذي الأرمني فطلبت منه ريالين فأعطاني . افتكرت أن أكتب إلى عيسى العيسى أن يرسل لي ثلاثين ليرة .

يوم الثلاثاء في ١٦ و٣ حزيران سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت . أتبع في استحمامي طريقة لم أتبعها قبلاً ، وهي تمسيد جسدي ورقبتي وصدري وبطني ويديّ ورجليّ ، وقد رأيت لهذه الطريقة نفعاً كبيراً في تليين عضلاتي وأمعائي ، بحيث خلصت بها من القبض الذي كان يستنزف دمي . حلمت أني كنت في القدس وأني ذهبت إلى [مدرسة] المصلّبة(٤٣) ، رأيت هناك رهبان الروم الكاثوليك يشربون البيرا ، ورأيت أخي يعقوب . . كتبت رسالة إلى عيسى العيسى أطلب فيها منه أن يدبّر لي أجرة الطريق لأرجع إلى القدس . خرج يوسف للبيع . نزلت إلى نيويورك ، فمررت أولاً على محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسائل من القدس فلم أجد شيئاً ، فشعرت أن دمي تحوّل إلى مادة أخرى

---

(٤٣) مدرسة المصلبة : مدرسة لاهوتية للروم الارثوذكس في جنوب القدس، كان يديرها الرهبان اليونان.

هي اليأس، استرخى لها جسدي ولم تعد قدماي تحملني، ثم مررت على إدارة الجامعة فلم أجد شيئاً أيضاً. ذهبت إلى محل الخواجا حنا حشمة والدنيا لا تكاد تسعني، فبعد أن أقمت هناك قليلاً نزلت عند الخواجا خليل دبدوب، فقال: إن الخواجا يوسف سلامة قرر أن يترك كاتبه، وسألني: كم أريد؟ فقلت له: مللت الانتظار وعفت هذه الخدمة، فإذا لم نتفق نهائياً هذا الأسبوع رجعت إلى القدس، ولست أقبل بأقل من خمسة وأربعين ريالاً، فقال: وقد قال لي إنه ربما احتاج إليك وإلى أخيك، فقلت: لا نقبل نحن الإثنان بأقل من سبعين ريالاً، وعد أن يزورني الليلة. رجعت إلى الغرفة فاشتريت بخمسة سنتات قطع حلواء فتغديت ونمت. بعد النوم جلست وراء الطاولة، دخل يوسف فقال: اليوم بعت بأربعة ريالات وربع فسرّي عني وتفاءلت خيراً. جاء الخواجا أسعد حشمة فلعبنا بالشدة. ثم اشترينا عشاءً وتعشينا في الغرفة. أخذت يوسف وذهبنا إلى محل مرتفع في بروكلن يطل على النهر، وشهدنا غياب الشمس وراء أبنية نيويورك الشاهقة. رجعنا إلى الغرفة فجاء الخواجات فؤاد سلفيتي وأخوه، ثم جاء أسعد حشمة فلعبنا بالشدة. قرأت روايات جبران [خليل] جبران، فحدثتني نفسي أن أكتب فيها شيئاً. وضعت رسالة الخواجا بندلي الجوزي في صندوق البريد.

يوم الأربعاء في ١٧ و٤ حزيران سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت كالعادة ثم أفطرنا. خرج يوسف للبيع. نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك، وأنا آمل أن أجد رسائل من أحد فلم أجد شيئاً، فصرت كالمخبول لا أعي على شيء. ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة لعل رسالة وصلت من فرح أفندي أنطون أو من القدس، فلم أجد شيئاً، فاستولت عليّ سكتة واحتبست أنفاسي، فجلست على الكرسي كأني قطعة جماد، فجعلت الآنسة روزا أخت فرح أفندي تكلمني لتسرّي عني وتخفف من حزني، فلم أكن أقوى على الكلام. بل أحسست بغمامة سوداء خيمت عليّ، وتكشفت لي بروق آمالي عن سحاب خلب، فتمرمرت حتى كاد صدري ينشق وأحشائي تحترق. فقمت من هناك والأرض تميد تحت أقدامي، فمررت على محل الخواجا خليل دبدوب، فسألته عما تم فقال: إن الخواجا يوسف سلامة لا يدفع أكثر من ثلاثين ريالاً في الشهر، فأسقط في يدي وتحقق لديّ أن لا بد من الرجوع إلى البلاد، فرجعت إلى الغرفة وجلست وراء الطاولة وكتبت عدة رسائل، منها رسالة إلى عيسى العيسى أطلب منه أن يرسل إليّ ثلاثين ليرة لأرجع بها إلى القدس. ثم نمت ليس عن احتياج إلى النوم ولكن لأخلص من عذاب اليقظة. وأنا في فراشي قرعت عليّ الباب ابنة صاحبة المنزل فناولتني ثيابي التي أعطيتها لأمها لتغسلها وقالت: إن واحداً في الباب يريد أن يراك، فدخل عليّ وأنا بثياب النوم الدكتور نيس، فلبست ثيابي وقرأت معه في جريدة الجامعة فدفع لي ريالاً وقال: تجيء غداً إلى اللوكندة لنأخذ درساً آخر. رجع يوسف من البيع وقد باع اليوم بأربعة ريالات وربع. جاء الخواجا أسعد حشمة

فلعبنا الشدّة ثم ذهبت في المساء وتعشيت . بعد العشاء جاء الخواجا خليل دبدوب فجلس يلعب مع أخي بالشدَّة، وجلست أنا وراء الطاولة أكمل رسائلي، فكتبت رسالة إلى بروفسر بور، وأخرى إلى الخواجا نوريان وأخرى إلى مسس سبور. ثارت بي الأشجان فقرأت قصيدتي في داود وكدت أبكي. لا أنظر في الخيال إلا لاح لي مستقبلي أسود مظلماً . إن سنة مات فيها داود، ماذا يكون نصيبي فيها؟ .

يوم الخميس في ١٨ و٥ حزيران سنة ١٩٠٨م

استحممت ولعبت ثم خرجنا فأفطرنا . ذهب يوسف للبيع . وضعت في صندوق البريد ثلاث رسائل؛ واحدة إلى بروفسر بور أطلعه فيها على عزمي على الرجوع إلى البلاد، وأخرى إلى مسس سبور، أمّ الدكتور سبور في القدس، أعرفها بنفسي وأطلب منها أن تعيّن لي وقتاً أزورها فيه قبل رجوعي إلى البلاد إن أحبَّت، وأخرى إلى الخواجا نوريان. نزلت إلى نيويورك، مررت على محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسائل من أحد فلم أجد شيئاً، ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فسألت عن رسائل فلم أجد شيئاً أيضاً . لم يكن في الإدارة إلا نقولا أفندي الحداد فقال: أمس رأيتك في اضطراب عظيم فخشيت أن تكون محتاجاً إلى دراهم، ولكنني لم أجسر أن أفاتحك بهذا الموضوع لعلك تستاء . ولكن لي أمل أن تعتبرني صديقاً لك، وبهذا الأمل أتوقع منك إن كنت تحتاج إلى شيء أن لا تكتم ذلك عني، فبدلاً من أن تكتب إلى البلاد وتطلب دراهم وذلك يستغرق وقتاً طويلا أنا أسلفك ما تحتاج إليه، فشكرت لطفه ومروءته، وقلت له: هذا أملي فيكم. ثم جعل يقص عليّ من تاريخ ماضيه وما توالى عليه من الخيبات تشجيعاً لي. ثم جئت إلى الغرفة فاشتريت بعض قطع حلواء فتغديت ونمت، وبعد النوم ذهبت علمت الدكتور نيس ثلاث ساعات فدفع لي ريالين وثلاثة أرباع الريال. رجعت إلى الغرفة. جاء يوسف ولكنه هذه المرة لم يبع شيئاً . جاء الخواجا أسعد حشمة يحمل مئة كارت باسمي باللغة العربية والإنكليزية، فسألته عن ثمنها، فقال: أستوفي منك الثمن حين ترجع إلى القدس. لعبنا بالشدة تعشيت. بعد العشاء جاء الخواجا سلفيتي فذهبنا إلى بيت المعلمة سارة امرأة الخواجا بلورة وسهرنا إلى الساعة الحادية عشرة. رجوعي إلى البلاد بالخيبة صعبٌ جداً، ولكن بقائي في هذه البلاد بدون عمل جنون في جنون...

يوم الجمعة في ١٩ و٦ حزيران سنة ١٩٠٨

استحممت ولعبت ثم أفطرنا . خرج يوسف للبيع. جلست وراء الطاولة وكتبت رسالة إلى أمي أخبرها أني عزمت على الرجوع بعد أن استفرغت وسُعي في التفتيش عن شغل فلم أجد . حملت الرسالة ونزلت إلى نيويورك فمررت على إدارة الجامعة، فوجدت رسالة من فرح أفندي أنطون يقول: إنه ورده كتاب من صديقه الخواجا جورج الياس صاحب محل تجاري في Rumford Falls يقول فيه: إنه دبر لي محلا في معمل في

هذه البلدة، وقد أطنب فرح أفندي في جمال هذه البلدة ورخص المعيشة فيها، وإن العمل الذي أعمله هناك نظيف جداً، أي ليس عملاً باليد، بل هو عبارة عن تسليم بضائع للشحن، وإن الأجرة ١٠ ريالات في الأسبوع، ولا يلزمني نفقة في الأسبوع أكثر من ٥ أو ٦ ريالات لأن البلدة رخيصة جداً، وهو ينصحني أن أقبل هذا العمل وأسافر في الحال. وكذلك كان رأي نقولا أفندي الحداد، فكتبت رسالة إلى الخواجا جورج الياس أخبره فيها أني سأجيء يوم الأحد، وذهبنا من هناك وتغدينا وشربنا أراكيل فدفعت أنا هذه المرة، ثم ذهبنا إلى إدارة شركة كوك واستفهمنا عن ميعاد السفر وأجرة الطريق. عسى أن يكون هذا اليوم فاتحة نجاحي في هذه البلاد فأحفظ له ذكراً ما دمت حيّاً. رجعت إلى غرفتي ونمت. جاء الخواجات أسعد حشمة وفريد سلفيتي وجلسا يلعبان بالشدة، وجلست وراء طاولتي تتجاذبني الأفكار. رجع يوسف من البيع لم يبع شيئاً، صحبني إلى محطة القطار تحت الأرض لأني كنت ذاهباً عند تلميذي الأرمني، وكانت عيناه حمراوين يجول الدمع فيهما فكدت أذوب إشفاقاً عليه. لم أجد تلميذي بل وجدت رسالة منه يقول: إن صديقاً، أميركياً من القدس سأل عني. رجعت إلى الغرفة وجلست إلى أخي أسري عنه حزنه ويأسه، يا رب ماذا أذنبنا إليك هذه السنة حتى تقاضينا جميعاً بهذا العذاب الشديد أنا وأخي هنا وعائلتنا في القدس؟! . نمت وأنا أحادث أخي وأبني معه من الآمال علالي وقصوراً في الهواء. قررت أن أسافر غداً بعد الظهر. كتبت عدة رسائل إلى أمي أخبرها بسفري عن نيويورك، وإلى تلاميذي الأميركان أودعهم.

يوم السبت في ٢٠ و٧ حزيران سنة ١٩٠٨م

استحممت. ضببت ثيابي وكتبي وأوراقي ولم أترك في الغرفة إلا بعض كتب، متى استقرّ بي المقام في Rumford Falls استحضرتها. جاء الخواجا أسعد حشمة، أفطرنا، بعد الفطور نزلنا إلى نيويورك، لقينا في الطريق الخواجا يوسف السلفيتي فقبلته وقبلني، جاء إلى نيويورك ليشتري بضائع. نزلنا إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى إدارة الجامعة، فدفع لي نقولا أفندي الحداد عشرين ريالاً فشكرته وودعته، ثم ذهبت إلى محل الخواجات ملوك وأنا أفكّر أن أستقرض منهم أيضاً خمسة ريالات. ولكن بعد أن أخبرتهم بعزيمتي قال لي الخواجا الياس ملوك: وكيف أحوال أخيك؟ فقلت له: سيئة جداً، فقال: أرجوك أن تقول له إذا اشتغل أن يكون أول ما يفتكر به أن يسدّد حسابه معنا، وإلا كتبت إلى خالي رفلة. فقلت له: لا تحتاج المسألة أن تكتب إلى خالك، بل أنا عند أول فرصة أدفع لك حسابك على آخر فلس، ثم ودعتهم ونزلت وأنا محزون الصدر مكسور الخاطر متأثر جداً، وتحقق لديّ القول: أن لا أحد لأحد في هذه البلاد، ثم ذهبت ودعت نعمة الحاج وأخته. اجتمعنا بعد الغداء في قهوة سوريّة فعبأت أركيلة وجعلت أدخن. طلبت من الياس حيدر أن يقرضني خمسة ريالات فقال: الساعة آخذ من الآنسة سعدى شكاً فأدفعه لك. أفكاري قلقة على أخي يوسف ونفسي تكاد تنسحق لفراقه.. لما صارت الساعة الثالثة والربع ودعت الجميع إلا الياس حيدر

فإنه لم يحضر، وذهبت مع أخي يوسف إلى المحطة الكبرى، ثم لحقنا أسعد حشمة فقطعت ورقة سفر وشحنت شنتتي إلى بوستن ثم ودعتهما وركبت القطار. أوصيت أخي أن يرسل تلغرافاً إلى ميخائيل الصائغ ليستقبلني على المحطة. في الطريق ثارت أشجاني ورقت عواطفي فصرت أئن أنين الثكلى وأبكي. لقيني على المحطة الخواجات ميخائيل الصائغ وابن عمه أخو امرأته وبندلي عبده [ابن عم سلطانة] جئت إلى البيت. جلسنا نتكلم عن المهاجرة. نمت نصف الليل.

يوم الأحد في ٢١ و ٨ حزيران ١٩٠٨م

ذهبت صباحاً إلى حمام قريب يستحم فيه الناس مجاناً. ثم أفطرنا، بعد الفطور ذهبنا وقطعنا ورقة سفر إلى رمفورد فولز، قالوا لنا أن لا قطار اليوم، فاضطررت أن أبقى إلى الغد وقد سررت لذلك لأتمكن من زيارة الخواجات سنونو وأتفرج على بوستن قليلاً. ذهبت قبيل الظهر إلى بيت الخواجات سنونو فاستقبلاني مع امرأتيهما بكل بشاشة وهشاشة، يشكوان من سوء الأحوال ويفتكران ألا يطيلا الغيبة هذه المرة لأن امرأتيهما استوحشتا جداً. ذكرنا القدس وحننا إليها حنين الفطيم إلى الرّضاع. بعد الظهر ذهبت أنا والخواجا ميخائيل الصائغ وامرأته وابن عمه وبندلي عبده إلى الحديقة العمومية وفيها مستودع المياه التي يشرب منها أهل بوستن، درنا حول البرك فتذكرت برك سليمان، بل مئات من التذكارات ازدحمت في رأسي فانكمش لها صدري. ظهر لي أن الخواجا ميخائيل سعيد في زواجه؛ صحته جيدة ونفسه مملوءة سرورا، إذا ضحك أغرب في الضحك، يحب امرأته ويساعدها، فقد رأيته يخدم على المائدة مثل النساء تخفيفاً عن امرأته التي على وشك الولادة، وفهمت أن بينه وبين صالح السنونو نفوراً. بندلي لا يزال ولوعاً بالنساء إلى الدرجة القصوى، لا تمر به امرأة إلا التفت إليها وابتلعها بأنظاره. وهو يشتغل الآن بالبيع ولكنه غير ناجح؛ لا يحصل في الأسبوع أكثر من أربعة أو خمسة ريالات. ابن عم الخواجا ميخائيل أميركي محض صاحب معمل تشتغل فيه بنات كثيرات. بوستن مدينة جميلة، أبنيتها لا تزيد عن الطبقتين أو الثلاث ولكنها أنيقة جداً. الحركة هنا أخف منها في نيويورك. قال لي الخواجا ميخائيل: إن في خاطره أن يكتب إلى أخي ليجيء إلى بوستن فيدبر له بضائع ويخرج للبيع مع بندلي. تعشيت في بيت الخواجات سنونو مقلوبة مع لبن، وبعد العشاء عبأوا لي أركيلة. لم نفتر عن ذكر القدس والحنين إليها، ثم رجعت مع الخواجا بندلي عند الساعة العاشرة والنصف. تمنيت لو أستطيع أن أجد شغلاً في بوستن لأعيش مع أهل بلدي. أرسلت كارتاً إلى أخي يوسف.

يوم الاثنين في ٢٢ و٩ حزيران سنة ١٩٠٨م

قمت صباحاً باكراً ولم أستحم. خرجت مع الخواجا بندلي عبده، فحلقت ثم مررت على إسكافي فسمّرت نعل حذائي لأن مساميره سقطت، ثم ذهبنا إلى بيت الخواجات سنونو فنزلت السيدة ألكسندرا امرأة

الخواجا صالح فودعتها عند الباب وانصرفت. ثم مررنا على محل عم الخواجا ميخائيل فودعناه، ومن هناك ذهبنا إلى محل الخواجا أدولف ابن عم الخواجا ميخائيل لأودعه. أعجبت بما رأيت من حسن إدارته وذكائه في العمل ورجوليته فودعته، ورجعنا إلى البيت فأفطرنا وودعت الجميع وجئنا إلى المحطة فركبت القطار، وجعلنا نخترق الغابات والأدغال والأنهار تنساب على جانبي القطار، تارةً نراها وتارة تحجبها الأشجار، فارتحت لرؤية الطبيعة بعد احتجابي عنها ثمانية أشهر بين أبنية نيويورك الضخمة. مررت على محطة مكتوب عليها حبرون Hebron. نزلنا في Portland وأقمنا ننتظر القطار نحو ساعة. اشتريت من هناك كارتين. ثم جاء القطار وركبنا وصارت تضمنا الأدغال وتستبطننا الأودية وتجارينا الأنهار إلى أن جئنا إلى Rumford Falls عند الساعة الرابعة، وهي مدينة موغلة في الطبيعة قائمة على سفح جبل شاهق قامت حوله الجبال الشامخة وفوقها جبال أخرى من الأشجار، بل يخالها الناظر من بعيد أنها سحب كثيفة منعقدة على الجبال، وقد برزت من بين أشجارها المنازل والمداخن مثل أعشاش الطيور. يخترقها شلالات يسمع خريرها لمسافة بعيدة، فخيّل إليّ أني مقبل على عين كارم أو مطل على وادي القلط. استقبلني على المحطة الخواجا الياس خوري وهو شاب قويّ البنية منتصب القامة تلوح عليه علائم الرجولية فأحسن استقبالي، ثم جئنا إلى مخزن الخواجا جورج الياس بربارة وهو شاب لطيف جميل الصورة له محل تجاريّ. أحيينا ليلتنا على ذكر فرح أفندي. رأيت منهما تعلقاً بالجامعة وغيرة عليها، مما سررت له كثيراً. نمت عندهما.

يوم الثلاثاء في ٢٣ و١٠ حزيران سنة ١٩٠٨م

لم أستحم لأنه ليس في المنزل غرفة استحمام. أفطرنا بعد الفطور وجدت أركيلة عند الخواجا جورج الياس فعبأتها وجلست أكتب، فكتبت رسالة إلى أخي يوسف وأخرى إلى نقولا أفندي حداد أشدّد عليه أن ينشر مقالة لجورج أفندي أرسلها إليه أمس، وأرسلت عدة كارتات إلى ميخائيل الصائغ وصالح سنونو ومس سنكير وسلطانة وأختي. البلدة صغيرة وأهلها أنيسون بسطاء، أكثرهم يشتغلون في المعامل، كيفما التفت رأيت من مناظر هذه البلدة وسمعت من خرير شلالاتها ما يملأ البصر والسمع، لم أرَ منظراً مثل هذا المنظر حتى ولا في الصور. لو كانت هذه البلدة في بلادنا لرأيت تحت كل شجرة محل قهوة، بل لرأيت في وسط شلالاتها الجسور الخشبيّة فيها محال القهوة، ولرأيت الناس يقدرونها قدرها مقبلين على اللهو والسرور؛ لا يجيء الأصيل حتى يترك الرجال حوانيتهم والنساء منازلهن وينتشرون على ضفاف الشلالات يضعون الأراكيل في المياه يدخنون ويسرّون. وأما هنا فلا ترى الناس يعبأون بمثل هذه المناظر، بل لا تجد محلا لقهوة. ولم يعنوا إلا بإقامة المعامل ينعقد فوقها سحب الدخان فتشوّه ذلك المنظر الجميل. قابل الخواجا جورج الياس أكثر القيّمين على العمل في المعمل الذي قدّر أني أشتغل فيه فوعدوه خيراً وهو ذو نفوذ ومكانة عندهم. بعد الظهر نزلت وحدي فوقفت قليلاً على الجسر أرقب تكسّر المياه على الصخور، وأصعد نظري

في تلك الجبال الشامخة. ثم مشيت على ضفة النهر أراجع تذكارات كثيرة. لم يبقَ أحد من ذويّ وأعزائي وأصدقائي إلا ذكرته. فهمت أن عملي سيكون باليد وأني سأشتغل مع عمال من الطبقة الواطئة، فكاد يستولي عليّ الحزن وكادت نفسي تنسحق، ولكنني تذكرت بطرس الأكبر حين اشتغل في المعامل فتشجعت، ولعلي هذه المرة أسير إلى النجاح من سبيله القويم لأني سأبدأ في سلّمه من أول درجاته. فتشت عن غرفة فلم أجد. لا أنظر إلى ثيابي الحقيرة وأتصور عملي الذي سأشتغل به إلا رأيت نفسي من جملة العملة. لا حول ولا...

يوم الأربعاء في ٢٤ و١١ حزيران سنة ١٩٠٨م

لم أستحم اليوم أيضاً ولم أغيّر ثيابي فتقززت من نفسي. أفطرنا على حساب الخواجا جورج الياس ثم نزلت إلى مخزنه. لبثت أنتظر البريد فلم يجئ. كان اليوم احتفال عظيم لجمعية الماسون. جاء أعضاء الماسون من بلدة قريبة بملابسهم الرسمية كأنهم قواد حرب، فاستقبلهم أعضاء الماسون في هذه البلدة وخرجت البلدة بأسرها وانتشرت على جوانب الطرق، فدخلوا صفوفاً منظمة وسيوفهم مسلولة، وكان نحو أربعة أجواق [كذا] موسيقى تعزف، ثم صعدوا في الجبل على هذه الهيئة وطافوا في طرق البلدة. وجدت غرفة في منزل أحد القيّمين على العمل في المعمل. والمنزل جديد أنيق مجهّز بكل اللوازم على آخر طراز. سريري جديد وفراشي نظيف لم يستعمل بعد، وفي إحدى زوايا الغرفة خزانة فيها التعاليق [= علاقات، شماعات] للثياب وواحدة خصوصية للساكات تلّبس عليها الساكو تلبيساً لئلا يهبط كتفاها. والغرفة تضاء بالكهرباء، ثم إن في المنزل حماماً جميلاً كل أدواته تلمع. وعلى الجملة فإنها غرفة لم أسكن في مثلها بعد، فسررت كثيراً، هذا فضلاً عن أنس صاحب المنزل وامرأته. فأتيت بشنتتي ورتبت ثيابي وكتبي. بعد الظهر كتبت وقائع الأيام منذ تركت نيويورك. ثم ذهبت إلى غرفة الخواجا جورج الياس أنا والخواجا الياس خوري، وأدرنا فونوغرافاً وكان بين القطع الغنائية بعض أغان بغداديّة وأصبهانيّة أثارت حماستي وقوّت نفسي. وعند الأصيل أخذت غليوني ومشيت على ضفة النهر وأطلقت لفكري العنان فهام في أودية الخيال. أجرة غرفتي ريال ونصف، واشتريت ورقة أكل لكل الأسبوع بثلاثة ريالات ونصف فيكون جملة مصروفي للغرفة والأكل خمسة ريالات. فإذا اشتغلت بعشرة ريالات وفرت منها خمسة أو أربعة. من كان يقدّر أني سأشتغل يوماً من الأيام في المعامل بعد ذلك العز؟! لعلي هذه المرة أخلص من تهمة الكبرياء والأنفة. أويت إلى فراشي الساعة الحادية عشرة. أينما ذهبت فأنتم معي.

يوم الخميس في ٢٥ و١٢ حزيران سنة ١٩٠٨م

قمت الساعة الرابعة والنصف صباحاً وقد حمدت منامي. دخلت الحمام واستحممت جيداً وكان الماء

بارداً جداً . ثم غيّرت ثيابي ولعبت ألعابي فجدّدت نشاطي وجلوت صدأ فتوري ، وشعرت بغبطة ولذة كأني مولود جديدا . ثم لبست ثيابي وخرجت فمررت على الخواجا جورج فوجدته لابساً ثيابه ، وقد أشربته أمس وأول أمس حب الرياضة فأخذ يلعب على الكراسي كما لعبت مرة أمامه . إذا استتبّ لي العمل في هذه البلدة أشربته أفكاري ومبادئي شيئاً بعد شيء ، في مقدمتها محبة الطبيعة والعناية بالصحة . ثم بما أن أكثر سكان هذه البلدة فرنساويون سأغتنم هذه الفرصة لدرس اللغة الفرنساوية في جملة ما أدرسه إن شاء الله . دخلت المطعم الفرنساوي وأفطرت ، وذهب هو وأفطر في المنزل الذي أخذني إليه عدة مرات للفطور والغداء . وبعد الفطور نزلنا إلى المعمل ولم يكن العمال قد جاؤوا بعد ، فوقفنا في ظل البناءة ، ثم جاء أحد القيّمين ولم يلبث العمال أن أخذوا يتواردون وبينهم البنات . تعرفت بابن أخت الخواجا الياس خوري وهو الياس ماريّا . ولما رأيت العمال بثيابهم الزريّة وتصورت أني سأشتغل معهم غشيت صدري ظلمات بعضها فوق بعض ، ولكنني غالبت نفسي وتناسيت أفكاري . جاء القيّم الذي أسكن في منزله ، وقال : اليوم أدبّر لك شغلا . ثم رجعنا ، فجئت إلى غرفتي وقد أحسست بارتخاء ، ثم ذهبت إلى مخزن الخواجا جورج ، وبعد أن قطعت قسماً من الوقت هناك ، جئت مع الخواجا الياس الخوري إلى غرفتي وجلسنا نتحدث إلى الظهر ، ثم ذهبت فتغديت وعند الساعة الواحدة رجعت إلى غرفتي فنمت . وبعد النوم جلست أخيط أزرار بنطلوني وصدرتي ، ولعل ذلك من جملة ما تعلمته في هذه البلاد . جاءت الجامعة ورسالتان : الواحدة من نقولا أفندي الحداد يعتذر عن عدم نشره مقالة الخواجا جورج ، لأنها تكون بمثابة إعلان لروايات جبران [خليل] جبران حالة كونه [= الذي هو] غير مخلص للجامعة ، ورسالة أخرى من الخواجا مكروشيان . ذهبنا قبيل الغروب إلى ضفة الشلالات وجلسنا هناك بين الأشجار . ثم ذهبنا فتعشينا ، وكان معنا أحد السوريين الذين يشتغلون في المعامل ، فشرب حتى سكِر وقبّل صاحبة المطعم .

يوم الجمعة في ٢٦ و١٣ حزيران سنة ١٩٠٨م

رأيتُ في نومي داود وفي وجهه بقع حمراء ؛ أعراض مرض كنّا نخشى عليه منه ، فقلت له : الحمد لله على سلامتك ، ويجب عليك من الآن فصاعداً أن تعتني بصحتك ، فهزّ رأسه وقال : نعم ، ولكن بدون مبالاة . . . قمت باكراً فاستحممت ومسّدت جسدي ثم لعبت ألعاباً مختلفة . خرجت فأفطرت . رجعت إلى غرفتي ولكن بصدر منقبض وجسد مسترخ فجلست وراء طاولتي ولم أكن أعرف ماذا أعمل ؛ آخذ كتاباً فأقرأ فيه سطرين ثم أغلقه . ثم جعلت أراجع تذكاراتي القديمة لعلها تنعشني ولكن بدون فائدة . ثم فتحت درج الرسائل وأخذت أقرأ رسائل منها [سلطانة] ، فصرت أسأل نفسي : لماذا انقطعت عن الكتابة؟ لعلها غضبت لأني ذكرت لها أن أفتيم كتب إليها رسائل يستعطفها بها يوم كان يُمنّي نفسه بنيل يدها ، فقبلتها ولم تجبه عليها ، وأنه أطلعني على ذلك فكتمته إلى أن عقدت معها عهد المحبة ، فكتبت إليها به أداعبها . ثم عبأت غليوني

وأخذت أكتب رسالة إلى مس سنكير أخبرها أني عقدت النية أن أشتغل في المعامل، ثم حملت الرسالة ووضعتها في صندوق البريد. جاء موزع البريد ولم يعطنا شيئاً فازددت انقباضاً، فرجعت إلى الغرفة وأويت إلى الفراش ونمت نحو ساعة، ثم جلست وراء الطاولة وكتبت عدة كارتات من كارتات هذه البلدة، وأرسلتها إلى يعقوب ابن خالتي ومعلمي نخلة وجورجي حبيب وأفتيم مشبك وجميل الخالدي وشكري حشمة وأشيل سيقلي وخليل رعد، ثم حملتها وخرجت فوضعتها في صندوق البريد. جاء موزع البريد يحمل رسالة من القدس بخط صهري أبو سليم وفيها رسالة بخط سليم ابن عمي يقولون في إحداهما أن سليم أسطفان وأخاه أخذا قطعة أرض في البيرة وقد ابتدأا في البناء، وأن أخي يعقوب ذهب معهما للمساعدة مما اطمأن له فكري، واستلمت كارتاً من مس سنكير. عند الساعة السادسة أغلق الخواجا جورج الياس مخزنه وذهبنا فاستلقينا على العشب في ظل بعض الأشجار. جاء علينا أحد القيّمين في المعمل فذهبت معه إلى المدينة. لقيت جماعة من جيش الخلاص في الطريق يصلون ويبشرون ويجمعون إحسانات فدفعت خمسة سنتات، ثم ذهبت مع القيّم إلى المكتبة. رجعت معه إلى غرفة الخواجا جورج، قال: جاء واحد اليوم يطلب شغلاً وربما حصل عليه، كأنه يعني أني ربما لا أحصل على شغل.

يوم السبت في ٢٧ و١٤ حزيران سنة ١٩٠٨م

أبطأت في القيام إلى الساعة السابعة، فاستحممت ومسّدت جسدي ولعبت ألعابي، لولا مواظبتي على ذلك لكنت مثل الخرقة البالية. وأحمد الله أن هذه العادة مستحكمة مني إلى درجة أني أزاولها بدون فكر، ولذلك لم أمتنع عنها حتى في أشد أيام حزني وفي إبان شقائي. خرجت فأفطرت. انتظرت موزع البريد لعل رسالة تصلني من بعض الناس، فجاء الموزع ولم يجئني شيء، فقلت ربما جاءني شيء بعد الظهر. رجعت إلى غرفتي فحلقت، ثم ذهبت فتغديت، وبعد الغداء نمت نحو ساعة ثم قمت فجلست وراء الطاولة وكتبت رسالة إلى أخي يوسف وأودعتها رسالة القدس ووضعتها في صندوق البريد. جاء موزع البريد، ولكنه لم يحمل لي شيئاً فانقبض صدري، لم يكفِ غربتي حتى أكون مهجوراً منسياً. فرجعت إلى غرفتي وعبأت غليوني وجلست وراء طاولتي أضرب أخماساً لأسداس. جربت أن أكتب إلى سلطانة، ولكن لم أعرف ماذا أكتب لها: أأستعطفها وقد كتبت لها رسائل يلين لها الحجر الصلد فلم تجب؟ أأعنفها؟ أخشى أن يزيدها ذلك تمادياً في الإعراض، أأصف لها أحوالي وليس فيها شيء يسرّ؟.. ثم خرجت وكانت الساعة نحو السادسة وذهبت إلى مخزن الخواجا جورج فجاء أحد السوريين الذين يشتغلون في المعامل، واسمه زين صفير ولعله من عائلة صفير التي في القدس، فقال: إمشِ معي لآخذك إلى هذا المحل الجميل، فذهبت معه فجئنا إلى حوض من الماء على جانب الشلال يسقون به الأراضي المرتفعة فجلسنا هناك، وجعل يحدثني أنه خطب ثم ترك خطيبته؛ قصة طويلة عريضة لم أفهم أولها من

آخرها، لأن أفكاري كانت مشرّدة. لا أستطيع أن أصدّق أني وصلت إلى هذه الحالة: أن أشتغل في المعامل وأعاشر حتى من كانوا رعاة غنم في بلادنا. رجعت إلى مخزن الخواجا جورج، وكان ملآن [كذا] من الزبائن والمشترين، وبالقرب من مخزنه مرقص ينتابه الشبان والشابات، فجعلت أتخطر أمام المخزن تارة أصيخ إلى الموسيقى فينقبض لها صدري، وتارة أرسل نظري إلى السماء الحالكة السواد أتظلم. جاء القيّم فقال: ستشتغل يوم الإثنين.

يوم الأحد ٢٨ و١٥ حزيران سنة ١٩٠٨م

استحممت جيداً. خرجت فأفطرت. بعد الفطور ذهبنا جميعنا وجلسنا على جانب الشلالات في ظل الأشجار إلى الظهر، ثم قمنا وجئنا إلى غرفة الخواجا جرجي وهناك أخذنا نتبارى في حمل الأثقال. وبعد الظهر جئت إلى غرفتي فنمت وبعد النوم جلست وراء الطاولة ووضعت صورة سلطانة أمامي، وأخذت أكتب لها، فدخل عليّ الخواجات جورجي والياس فطويت الرسالة ووضعتها في جيبي، ولم أستطع أن أخفي الصورة فتناولها جورج وقال: هذه امبراطورة، ما هذا الجمال الباهر؟! فطربت لقوله امبراطورة، بل عجبت وقلت في نفسي: هلا قلت سلطانة، فسألاني من تكون هذه الفتاة، فقلت لهم في أول الأمر: تلميذتي، ثم قلت ابنة عمي. ثم خرجنا إلى فسحة على جانب الشلالات فوجدنا هناك بعض قضبان من الشجر، فأخذ كلٌّ منا قضيباً وجعلنا نلعب بالسيف نحو ساعة في الهواء النقيّ. أينما كنت أول ما أحرص عليه هو الاستفادة من ذلك الوسط، فإذا كنت في وسط صحيّ اغتنمت الفرصة للاعتناء بصحتي، وإذا صحبت رجل قوة وبأس روضت معه ما فيّ من تلك الأميال، وإذا وجدت في وسط أدبي، كما كنت في نيويورك بالقرب من فرح أفندي ونقولا أفندي، لم أتأخر عن مجاراة القوم في ذلك. سهرنا في بيت الخواجا جورج ونحن نتوارد حوادث الرجولية، ونوادر الرجال في مواقف القتال، فأثارت هذه الأحاديث حماستي. رجعت إلى غرفتي وأكملت رسالة سلطانة، وقلت لها: غداً أنزل إلى المعمل، خليل الذي أقام القدس وأقعدها وكان يستعلي على الكبير والصغير، وكان يعدّ نفسه للرئاسة في قومه ينزل غداً مثل عامل حقير إلى المعمل! ونمت عند الساعة الحادية عشرة لأقوم باكراً إلى شغلي.

في ٢٨ حزيران غ سنة ١٩٠٨م [رسالة]
(مساء الأحد)

حبيبتي سلطانة

حالي معك كما قال ابن الفارض، في قصيدته الكافية التي مطلعها:

تـــه دلالاً فــأنـــت أهـــل لــذاكـــا وتـحـكّم فـالـحـسـن قـد أعـطـــاكـا

والبيت الذي اجعله اليوم لسان حالي إليك هو:

عـبـد رق مـــا رقّ يـومـاً لـعـتـق لـو تـخـلـيـت عـنـه مـا خـلاّكـا

نعم يا عزيزتي هكذا شاء دلالك وتيهك أن أكون عبد رق، أن أتذلل أن أبكي ومهما أعرضت عني ومهما جافيتني، فلا أخليك ولا أنساك ولا أقطع رسائلي عنك. أنت سلطانتي ولك الأمر، فاقضي ما أنت قاضية فعليّ الجمال قد ولاك. اقرأي هذه القصيدة فهي رسالتي إليك..

هو ذا قد مرّ ستة وثمانون يوماً وأنا أكتب وأنت لا تجيبين، وقد كنتُ أطمع أن يرد ذكرك في رسائل أختي، أن تذكريني ولو في الحاشية، فحديثك أو حديث عنك يطربني كما قال ابن الفارض أيضا، فوردتني منها رسالة تقول «الفرصة [=الإجازة] قريبة، وقد ابتدأت منذ الآن أحسب لها ألف حساب، سأكون وحدي».

مما دلّني أنك انقطعت عنها أيضاً يا سلطانة، خافي الله لم أعقد معك عهد المحبة إلا بعد أن عقدت بينك وبين أختي عهد صداقة، ولم أحبك وحدي بل أحبتك أمي وأختي، فيا ليتني شهرت خطبتي قبل سفري، ليعرف الناس أنك لي وأني لك، حتى إذا زرت أمي أو مشيت مع أختي لم يكن في ذلك ما ترتاعين له، ولو فرضنا أني لم أخطبك ولم أعقد بيننا عهد المحبة، أما كنت أختا لي، أما مشيتُ معك على مرأى الناس فما هذه الأوهام التي تروعك؟ أما كنا نزور بعضنا بعضاً، فإذا نسيت عهد المحبة والصداقة فهل تنسين أننا أقارب، وأن لنا في بيتكم ابنة عم هي بمنزلة أختي؟ فهل تظنين أني إذا رجعت لا أزوركم وأسلم عليكم قبل كل الناس؟ ثم هل تستحين أن تزورينا وتسلمي عليّ إذا لم أكن مثل محبّ أو صديق، فمثل قريب ونسيب؟ يا سلطانة مهما أنكرتني فلا تستطيعين أن تتبرأي من كل علاقة، بل إن بيننا من العلائق غير الحب ما يجعلنا عائلة واحدة.

وقد تركتك وأنا مطمئن أن بيننا علائق كثيرة تربطني بك وتربطك بي. فإذا لم تكتبي كحبيبتي، فاكتبي كصديقتي، اكتبي كأختي. لو كان قلبك جمادا يا سلطانة لرقّ لي، لو أذنبت إليك ذنباً كبيراً لآن لك أن تعفي وتصفحي. استحلفك بما بيننا من الحب الطاهر، استحلفك باجتماعاتنا وسهراتنا ونزهاتنا، استحلفك بأول رسائلي إليك وأول رسائلك إليّ، استحلفك بموقف الوداع، أستحلفك بالسماء أن ترفقي بمهجتي. وإذا كان هناك ذنب لم أعرفه، فأحيلك فيه إلى قلبك الرقيق الطيب الذي يفوق قلوب الملائكة. اصغي إلى قلبك يا سلطانة فهو شفيعي إليك. ثم يا عزيزتي [فإنني] قد تركت نيويورك يوم الجمعة، الماضي وجئت الى بوستن، فاستقبلني على المحطة الخواجات ميخائيل الصائغ وبندلي عبده ابن عمك، بوستن مدينة جميلة فخيمة أنيقة جداً. ذهبنا في غد ذلك اليوم الى الحديقة العمومية، وفيها مستودعات للمياه التي يشرب منها أهل بوستن، وهي بحيرات كبيرة قامت حولها الأدغال الكثيفة، وقد انتشر الناس من حولها فرادى وأزواجاً وعلى وجوههم علائم البشر والمسرة، وكنت حين أرى محبين جالسين على المقاعد أمام تلك البحيرات

تظللهما الأشجار الكثيفة يداعب الواحد الآخر، أتمنى لو كنت معي فأضع يدي في يدك، ونتوغل في تلك الغابات مثل طيرين أليفين، ظهر لي أن ميخائيل الصائغ سعيد في زواجه يحب امرأته ويكرمها، بل رأيته يخدم على المائدة كأنه امرأة تخفيفاً عن امرأته. وأما بندلي فصحته جيدة جداً، وهو يشتغل بالجزدان ويربح في الأسبوع أربعة أو خمسة ريالات، ولكنه لا يزال على ولوعه بالنساء، فلا تمر به امرأة إلا التفت إليها وابتلعها بأنظاره، وهو غير مبال كثيراً بغربته. في المساء دعينا للعشاء في بيت الخواجات سنونو، وكان العشاء مقلوبة فشعرت لأول مرةً أني في بيتي، استقبلاني مع امرأتيهما كأني هابط عليهما من السماء، وقد آنست في امرأتيهما وحشة عظيمة وحنينا إلى القدس عظيما، لم نفتر كل الوقت عن ذكر القدس، ويوم الاثنين تركت بوستن وجئت إلى رمفورد فولز، نزلنا في الطريق في بورتلند، وقد بعثت إليك بكارت يحمل تحية البلد، ثم ركبنا القطار وصارت تضمنا الأدغال الكثيفة وتستبطئنا الأودية، وتجارينا الأنهار الى أن جئنا Rumford Falls وهي مدينة موغلة في الطبيعة تكتنفها جبال شامخة، وفوقها جبال أخرى من الأشجار، بل يخالها الناظر من بعيد أنها سحب كثيفة مظلمة مخيمة فوقها، وقد برزت من بين أشجارها المنازل، تعلوها المداخن العالية مثل أعشاش الطيور، وتخترقها شلالات تتكسر على الصخور فترغي وتزبد، وتهدر هديراً تردده الجبال الشاخصة في العراء. فأخذت غرفة جميلة في منزل جديد لعائلة فرنساوية مجهز بكل اللوازم على آخر طرز، وبضاء بالكهربائية. كل يوم بعد الظهر أقف على الجسر الذي بعثت إليك بصورته وأتمنى لو تكونين معي، ثم أصعد في الجبال على جانبي الشلالات، وكيفما التفت تخيلتك أمامي. أينما كنت يا سلطانة فأنت معي على ضفاف الأنهار وفي الأودية وعلى رؤوس الجبال وفي غرفتي. غداً أنزل الى المعمل لأشتغل، خليل الذي أقام القدس وأقعدها، والذي كان يستعلي على الكبير والصغير، والذي كان يتهم بالكبرياء، سينزل غداً مثل عامل بثياب زرية ليشتغل. أمسك هنا لئلا تثور احساساتي فيندفع قلمي. دخل عليّ وأنا أكتب هذه الرسالة اثنان من السوريين وصورتك أمامي فلم أستطع أن أخفي الصورة، ولكي أصرف فكرهما عنها تناولت من جرار الطاولة بقية الصور التي عندي وأريتهما إياها، وجعلت أقصّ لهما عن كل صورة قصة طويلة عريضة، ولكنهما لما رأيا صورتك دهشا لجمالك، فقال أحدهما: هذه امبراطورة، ما هذا الجمال الباهر!! مَن هذه السيدة؟ فقلت لهما في الأول: تلميذتي، ثم قلت لهما دفعاً للظنة: هذه ابنة عمي، فقالا: هكذا هكذا وإلا فلا. فماذا تظنين أني كنت في تلك الساعة. نعم هي امبراطورة وقد قاربتما ويحكما في قولكما بعض الصواب، فهلا قلتما هي سلطانة البنات. ولكنها سلطانة ظالمة لا عادلة.. عزيزتي صارت الساعة الحادية عشرة وقد بقي لي كلام كثير أقوله أتركه لفرصة أخرى، لأنه يجب أن أنام الآن لأقوم غداً الساعة الخامسة، لأستحم وأفطر قبل ميعاد الشغل. تصوري حالتي يا سلطانة وأدركيني برسالة منك تعزيني وتجبر قلبي المنكسر، وإلا قتلت نفسي، فالموت أفضل من هذه الحياة المرّة الذميمة، وماذا أقول في الختام، أمسك قلمي بل أمسك لساني بل أمسك قلبي لئلا تخرج كلمة حبّ تستوجب غضبك، واسلمي

لمحبك الذي يموت ويحيا على حبك.

خليل

حاشية: إذا كنت لا تزالين تحفظين أعداد جريدة الجامعة التي فيها مقالاتي فقصي مقالاتي واحفظيها عندك، لأني أعطيت أعدادي لواحد ليقرأها فأضاعها، وقد نفدت نسخها من الإدارة.

يوم الاثنين في ٢٩ و١٦ حزيران سنة ١٩٠٨م

قمت عند الساعة الرابعة والنصف فاستحممت ولعبت، ثم ذهبت فأفطرت، وبعد الفطور ذهبت مع الخواجا جورج إلى المعمل، فأخذني القيّم هناك وجعل شغلي مع الخواجا الياس ماريا ابن أخت الخواجا الياس الخوري، فنزعت ساكتي وصدرتي وشمّرت عن ساعدي ووضعت يديّ على عربة النقل وباليد الأخرى صافحت الخواجا جورج فابتسم لي ابتسامة أخ. كان شغلي كل النهار عبارة عن عتّالة؛ يعطينا القيّم قائمة بالبضائع فندفع أمامنا عربة النقل من محل إلى آخر تارة تحت الأرض وتارة في الطابق الأول وتارة في الطابق الثاني. وكنت وأنا أحمل الرزم على صدري من محلها إلى العربة، تارة أغيب عن الوجود، وتارة أغرق في الضحك، تارة تحدثني نفسي أن أكتب إلى القدس أخبرهم بعملي، وتارة أميل إلى كتمان ذلك خوف العار. تذكرت مرة يوم كنا في غرفتي داخل البلد أنا وشبلي والمرحوم داود وقد تعرينا واستلقينا على الفراش رافعين أرجلنا على الحائط، فقلت لهما حينئذ وقد نظرت إلى رجليّ: أن هاتين الرّجلين لا تصلحان إلا للعتّالة، فكتبت بذلك صكاً وأمضيته ولا يزال محفوظاً عند شبلي. تارة أقول: لي أسوة ببطرس الأكبر يوم ترك عرشه الامبراطوري وجاء إلى أوروبا متخفياً ودخل المعامل ليقتبس الصناعة، ثم أقول: بطرس الأكبر ترك عرشه لا عن حاجة ولكن ليتعلم ويفيد بلاده، وأما أنا فنزولي إلى المعمل ليس إلا عن حاجة وماذا أستفيد. ثم جعلت أتخيّل في عملي فوائد أدبيّة، فإذا سئلت: ماذا تشتغل؟ أقول: أروّض جسدي وأدرس أخلاق العمال، فأضحك. في المساء رجعت متعباً بعد شغل شاق، عشر ساعات متوالية. كنت أنتظر أن يردني رسائل فلم يردني شيء. وضعت رسالة سلطانة في صندوق البريد. ونحن جالسون على بالكون الخواجا جورج جاءت امرأتان عند جيرانه، ثم دخلت واحدة منهما إلى غرفته فجعل يقبلها فتركتهم وجئت إلى غرفتي.

يوم الثلاثاء في ٣٠ و١٧ حزيران سنة ١٩٠٨

قمت الساعة الرابعة والنصف فاستحممت ولعبت ألعابي المعتادة، ثم ذهبت فأفطرت ثم عبأت غليوني ومشيت إلى المعمل: من رآني في تلك الساعة لم يشك أني عامل. كان العمال والعاملات أمامي وورائي ذاهبين إلى المعامل، فمررنا على جسر على الشلالات، فجعلت أنظر إليهم لعل بينهم من يلفت نظره إلى تلك

المناظر الجميلة، فلم أرهم إلا ناظرين إلى الأرض، وماشيين كثيران الحراثة. كل شبان هذه القرية عاملون وكل شاباتها عاملات، وكلهم آدابهم منحطة إلى الدرجة القصوى. دخلت المعمل فنزعت ثيابي وشمرت عن ساعديّ وجريت وراء العربة. كان الشغل اليوم شاقاً جداً فكأننا لم نكن نحمل رزم أوراق ولكن صخوراً. كان عرقي يتصبب من أقدامي وانبرت يدايّ وغلظت كفاي وتسلخت سواعدي. كان نصيبي اليوم مع عامل اميركي، فلما كنا نصل إلى المحل الذي نريد أن نأخذ منه الرزم كان [أحد القيمين] يشير إليه ويقول: عشرون رزمة، أو خمس وعشرون، فاندفع قبله إلى الحمل.. لا فرق بيننا وبين الخيول التي تشد إلى العربات إلا أنها تجر العربات وراءها ونحن ندفعها أمامنا. نعم أشتغل كعامل، ولكنني، أشتغل بنشاط وحماسة بل ومروءة، وأعني بذلك أني لم أكن أدع رفيقي يتعب. جئت الظهر إلى المطعم وما وصلت إليه إلا كانت الساعة اثنتي عشرة ونصفاً، فالتهمت غدائي بسرعة وخرجت واللقمة في فمي ورجعت إلى المعمل وعدنا إلى العمل ذاته. لا فرق بين العامل في المعامل وبين الآلات الصماء، يروح ويجيء بدون فكر ولا إرادة، لا أثر للعقل في كل ما يعمل. لا عجب إذا ماتت نفوس العمال وأفكارهم وذوت عواطفهم. يشتغلون عشر ساعات بدون انقطاع شغلاً شاقاً، ثم لا يحصل الواحد أكثر من ريال ونصف في النهار، ما أظلم أرباب الأموال وما أقبح هذه المدينة.. المعامل تقتل الصنّاعة [=العمال المهرة] لأن ليس للعمال يد في كل ما يصنع فيها، بل الآلات تصنع ذلك، وإنما هم عبارة عن حمالين. في المساء استحممت هاجتني الذكرى فكدت أبكي. اشتريت حذاءً جديداً.

يوم الأربعاء في أول تموز غ و١٨ حزيران ش سنة ١٩٠٨م

حلمت أني كنت في القدس، وكان عندنا داود وأسكوهي خطيبة اشيل سيقلي وأم جورج حلبي أرملة المرحوم يعقوب حلبي وامرأة الخواجا يانكو ددا. فجلست إلى داود ولففته بعباءة وجعلت أتأمل في وجهه وأسأله عن صحته كأنني في قلق عليه. ثم قام ليذهب فتبعته ومشيت معه إلى بيته، ثم رجعت فوجدت أسكوهي في الطريق فاعتذرت إليها لأني تركتهم. قمت الساعة الخامسة والربع فاستحممت وذهبت فأفطرت ثم نزلت إلى المعمل. كان الشغل شاقاً جداً؛ طلبيات كبيرة ورزم ثقيلة كأنها قطع صخور. ولما انتهينا منها جلسنا في ظل البناءة نتنفس الصعداء، فأنصرفت إلى نفسي أناجيها وتناجيني، وانصرف العمال إلى مداعبة العاملات اللواتي كنّ يطللن من نوافذ المعمل الآخر الذي أمامنا، ويتبادلن مع العمال اشارات وكلمات تبرأ منها الآداب ويندى منها الجبين حياءً. ثم طلبونا فقمنا ولكن ليس للعتّالة ولكن [كذا] للكناسة فحمل كل مكنسته وأخذ يكنس، فعظم الأمر عليّ جداً وكدت ألبس ثيابي وأخرج. وبينما أنا منحن على عصا المكنسة أتأمل في حالي وأتصور أمي قد تراءت لي في تلك الأروقة المظلمة كأنها ملاك فحادثتني وبكت لي، إذا بطلبية جديدة دعيت مع شخص آخر لقضائها، فتركت المكنسة وذهبت. بعد الظهر شعرت بتكسر وكان الحرّ شديداً فلم أذهب إلى المعمل، بل استلقيت في فراشي ونمت، وبعد النوم استحممت

وخرجت فحلقت. جاء موزع البريد ولكن لم يردني شيء. رجعت إلى غرفتي فكتبت أربع رسائل إلى فرح أفندي أنطون أشرح له حالي، وأخبره أني تارك الشغل في الأسبوع القادم وراجع إلى نيويورك ومنها إلى القدس، وإلى أخي يوسف وميخائيل الصائغ والياس حيدر أخبرهم بذلك. ثم حملتها ووضعتها في صندوق البريد. وفي المساء عبأت غليوني وسرت على ضفة الشلالات وأفكاري مشردة. لا بد من الرجوع حالاً فلا نصيب لي في هذه البلاد وليس للإنسان إلا ما كتب له. رجعت إلى غرفتي وأخذت درج الرسائل وتناولت رسالة معلمي نخلة ورسالة بندلي الجوزي وقرأتهما، ووطنت النفس على الرجوع «واللي كاتبه ربك يصير».

يوم الخميس في ٢ تموز غ و١٩ حزيران ش سنة ١٩٠٨م

رأيت أبي في نومي: كنا جالسين في بيتنا وكان عندنا بعض أشخاص من جملتهم خليل حبابو، فجعل يغني الميجنا الميجنا فطرب أبي وأخذ يئن أنين الطرب عند كل موقف في الأغنية، وكنت أقول له: اسمع يا أبي ما أجمل هذا الغناء. اليوم التسعون لرسالتك الأخيرة يا سلطانة! الله يسامحك! . قمت الساعة الرابعة والربع فاستحممت ولبست ثيابي وخرجت فأفطرت، ثم ذهبت إلى منزل الخواجا جورج فوجدتهم نياماً، فجلست على بالكون المنزل أدخن غليوني. وكانت الأرض مبللة بالندى فتذكرت يوم كنت أقوم باكرا، يوم كنت ضيف داود، وأجلس على بالكون منزله الذي يطل على البحر. ذهبت إلى المعمل بنشاط. اشتغلت إلى الظهر وكان الحر شديداً فذهبت إلى الغداء بدون أن ألبس ساكتي وصدرتي أو أضع قبتي، بل حملتها على كتفي، وشمرت عن ساعديّ مثل العمال، وبعد الغداء رجعت بنشاط أيضاً. جاءتني رسالتان، الواحدة من أختي ميليا كادت تبكيني ولا سيما عبارة وردت فيها، وهي: قد طالت الغيبة على من أركنت ومن وكلت بنا. الآن لا أحد يعرفنا، فوقفت عند قراءتها وقد ملأت الحماسة صدري وأخذتني الألفة، والأخرى من الياس طرزي. استحممت بعد نهاية الشغل وذهبت فتعشيت. أخذت من الخواجا جورج ريالاً ونصفاً ولقيت صاحب المنزل في الطريق فدفعتها له أجرة غرفتي عن الأسبوع الماضي، فقال: أنا أفكر أن أدبر لك شغلاً آخر ككاتب، فقلت له: إني أحصل على مثل ذلك وأكثر، العمال أحق مني به. فقال: أكثرهم أميون لا يعرفون القراءة، فانتعشت وقررت أن أشتغل أسبوعاً أو اسبوعين، فإذا لم أحصل على هذا المركز أكون على الأقل روضت جسدي رياضة كبيرة واستغنيت عن الناس. سهرنا في بيت الخواجا جورج فأدرنا الفونغراف واستعدنا الأغاني البغدادية والاصبهانية، فصعد الدم إلى رأسي وشعرت بقوة تكسر الحديد. بالحقيقة صرت أحب العمل لأنه قوّى جسدي وخلقني خلقة جديدة. قررت أن أتصور بثياب العمال وأرسل منها بعض صور إلى القدس، وكذلك سأتصور على ضفة الشلالات بين الأشجار، وسيكون لهذه الصور تذكار جميل عندي.

يوم الجمعة في ٣ تموز غ و٢٠ حزيران ش سنة ١٩٠٨م

قمت الساعة الخامسة، فاستحممت وخرجت فأفطرت. وبعد الفطور جلست على بالكون الخواجا جورج والشمس [قد] أخذت تطل من وراء الجبال، فعبأت غليوني وجلست أجاذب نفسي الحديث. قلت: أشتغل في المعمل إلى أن تردني الدراهم، فإذا لم أصب شغلاً آخر في هذه المدة أكون قد روضت جسدي وأدبت نفسي. ذهبت إلى المعمل وكان الشغل قليلاً هذا اليوم. جلست أكثر الوقت على رزم الورق في أروقة المعمل المظلمة كأنها حنايا [كنيسة] القيامة. وكانت الأفكار تتجاذبني. قلت: ارجع إلى البلاد فأشتغل في مدرسة الروم بعشر ليرات، وأذهب إلى مدرسة بيت لحم يومين في الأسبوع ما عدا الدروس الانفرادية [=الخصوصية]، واشترط على الدير أن يدفع لي مئة ليرة سلفاً. قلت للخواجا الياس ماريا: إن القيّم الخواجا هاشي وعد أن يدبر لي شغلاً آخر في القريب العاجل ككاتب، وكأنه وعده قبلي بمثل ذلك فاستاء لوعده لي، وقال: لا تصدق هذا الوعد. ثم استطردنا في الحديث إلى خاله الياس والخواجات بربارة فقص عليّ من حديثهم ما انكمشت له، ورغّبني في الرجوع إلى بلادي. قال: كان بعض أبناء بلادهم من المسلمين فاتحين حانوتاً أمامه يبيعون ما يبيع، فادعى عليهم دعوى زور، وسجنوهم وخربوا بيوتهم. في المساء رجعت إلى غرفتي فاستحممت وانتعشت. وردتني اليوم رسالة من أخي يوسف يستوحش فيها من بعادي، ويقول: إن الفراق بيننا هذه المرة كان أشد عليه من يوم فراقنا في القدس، وفي ضمنها كارت من الدكتور جميل يعاتبني على انقطاعي عن زيارته وعدم سؤالي عنه كل هذه المدة، ورسالة أخرى من الياس طرزي يباسطني فيها ويعزيني وفي ذيلها سطران يقول فيهما: إن مقالاتي في الجامعة لم ترق أحداً، ويحثني أن أملأ تلك الأعمدة ببعض نفثات أفكاري السامية عوضاً عن تلك السفاسف، فجرحتني هذه الملاحظة. غداً عيد استقلال اميركا. أخذ الأولاد يضربون بالمفرقعات فكأنهم كانوا يضربون في رأسي. فلم أر خيراً من الإنضواء إلى غرفتي، فنمت ولكن نوماً متقطعا. عند الساعة الواحدة دخل عليّ الخواجات الياس وجورج مع صاحب المنزل. وعد صاحب المنزل أن يعطيني شغلاً في مدة اسبوعين ككاتب. استغربوا إعراضي عن النساء، واتهموني تهماً شنيعة مما حبب إليّ الزواج.

يوم السبت في ٤ تموز غ و٢١ حزيران ش سنة ١٩٠٨م

قمت متأخراً فاستحممت وخرجت فأفطرت. صرفنا ما قبل الظهر في بيت الخواجا جورج. والناس؛ الرجال والنساء والأولاد في الطرق يزمرون ويطلقون البارود. ترى الحسناء حاملة مسدساً تطلق منه في الهواء، وترى الرجل الكبير بلحيته وشاربيه واضعاً في فمه مزماراً يزمّر به، وهو ماش في الطريق، كأنه ولد صغير. رأيت مثل هذا في بلاد الإنكليز؛ يصير الرجل أباً بل يشيخ وهو لا يزال متخلقاً بأخلاق الأولاد. وهم

إذا نادوا بعضهم بعضاً قالوا Boys أي يا أولاد ، على حين نعد ذلك في بلادنا إهانة لا تغتفر . بعد الظهر أويت إلى فراشي وبعد النوم جلست أكتب إلى ميليا أشجعها وأخبرها أني إذا لم أجد شغلاً حسناً يرضيني ويكفيني ويفي دَيني رجعت غنياً بنفسي ، ولو أثقلت عاتقي الديون ولو لبست الأطمار البالية لما غيّر ذلك من قيمتي . رسالة طويلة الأذيال لم أترك شيئاً إلا ذكرته . ثم خرجت فمررت على الخواجات جورج وأخيه والياس الخوري فنزلنا ووقفنا أمام المنزل . وكان بالقرب منا ثلاثة شبان كأنهم أغصان البان بثياب أنيقة وبرانط [=قبعات] فاخرة ، فكأن واحداً منهم مازح بوليساً ماراً من أمامهم ، فارتد عليه ذلك البوليس كالوحش الضاري على مرأى من جميع الناس ، وأمسك بخناقه حتى رأيت عينيه قد برزتا من وجهه ، والتوى رأسه على يد البوليس ، فتركه البوليس ، فوقف الشاب خجلاً مكسور الخاطر ، وقال بصوت منكسر : لم أقل له شيئاً ، فارتد عليه البوليس مرة ثانية وضغط على عنقه مثل المرة الأولى ورماه في الأرض ، وجعل يجره والشاب لا يبدي ولا يعيد ، وأصدقاؤه وقوف كالأصنام ليس فيهم عرق ينبض ، فقال له ذلك الشاب المسكين : لماذا تجرني؟ ماذا عملت؟ فأخرج عصا من جيبه وضربه بها على رأسه فصعد الدم إلى رأسي وصار جسدي كله يرتجف من تأثري ، ومع ذلك لم يتحرك أحد من الوقوف لردع ذلك الوحش الضاري عنه . لو جرى مثل ذلك في بلادنا لقلنا : إنهم متوحشون . صرفت بقية نهاري وليلي مسموماً .

الأحد في ٥ تموز غ و٢٢ حزيران ش سنة ١٩٠٨

قمت فحلقت ثم استحممت ، وبعد الحمام خرجت فأفطرت ، وبعد الفطور عدت إلى غرفتي فأكملت رسالة أختي ، ثم ذهبت فتغديت ، وبعد الغداء نمت وبعد النوم جلست إلى الطاولة أكتب رسالة إلى الياس طرزي ، أقول له فيها : لا بد من الرجوع . لم أدع باباً إلا طرقته ولا واسطة إلا تذرعت بها ، حتى لم يبق في القوس منزع ، وإني سأرجع وفي صدري آمال واسعة ونفسي كبيرة ، سأرجع لأجدد مواثيق الولاء وعهود الإخاء ، سأرجع لأستعطف الخواطر النافرة . .الخ ، وإني مسرور بالنتيجة وإن جاءت على غير ما أتمنى ، لأنها أكسبتني من الاختبارات ما يربو عندي على كل غنى ، وفي ذيلها [أي: الرسالة] كلفته أن يهدي سلامي إلى عائلة داود ، فهاجتني الذكرى فلم أتمالك دموعي فحملت صورة داود وجعلت أخطر في غرفتي ذهاباً وإياباً وأنا أبكي وأئن ، ولكن بصوت منخفض لئلا تسمع ربة المنزل ، حتى تقرحت أجفاني وجفت دموعي . ثم لبست ثيابي وحملت صورة داود في جيبي وخرجت لأخلو بنفسي على ضفة الشلالات ، وأمزج دموعي بمائها الجاري ، فلقيت الخواجا جورج وأخاه والياس خوري فجلست معهم على العشب الأخضر تحت ظلال الأشجار ، ثم قمنا وذهبنا إلى جهة أخرى حيث تتكسر المياه على الصخور ، وجلسنا هناك على ألواح خشب ، وكنت وهم يتحدثون أمِرّ أمام نظري صورة داود وسلطانة وبقية أصدقائي ، بل خيل إليّ أن داود وسلطانة جالسان على

جانبيّ. ثم قمنا ورجعنا فجئت إلى غرفتي، فحملت زجاجة الماء وذهبت إلى حنفية الماء وملأت الزجاجة ورجعت إلى غرفتي وجلست إلى طاولتي أدخن وأكتب، فكتبت رسالة إلى الدكتور جمل وأخرى إلى سلطانة. وقبل أن أنام جثوت أمام سريري، وقد علقت أمامي صورة المسيح وصورة العذراء فناجيت روحيهما وروح داود أن يسددوا خطواتي في سبيل هذه الحياة، وأن أعيش معهم مترفعاً عن مفاسد هذا العالم.

يوم الاثنين في ٦ تموز غ و٢٣ حزيران ش ١٩٠٨م

حلمت أني رجعت إلى القدس، فجاءت السيدة ماري امرأة الخواجا يانكو ددا وأختها السيدة كليوبة وسيدات أُخر ليسلمن عليّ. قمت [=صحوت] الساعة الرابعة ولكن لزمت فراشي إلى الساعة الخامسة، فقمت واستحممت ولبست ثيابي وخرجت فأفطرت ثم ذهبت إلى المعمل. جاء العمال مسترخين وانين من انعكافهم أمس وأول أمس على الشرب وانغماسهم في الشهوات. وأما أنا فقد صرفت هذين اليومين في غرفتي، آوي إلى فراشي في أول الليل وأنام في النهار أيضاً بعد الظهر واستحمم في الصباح، ولذلك بينما كانوا متثاقلين يتثاءبون من وقت إلى آخر كنت أروح وأجيء بكل نشاط. وكنت اشتغل بسرور ليس كأني اشتغل ولكن كأني ألعب ألعاباً رياضية. قصّ عليّ الخواجا الياس ماريا من أخبار المرأة في هذه البلاد ما استفظعته، وقد خطر لي أن أجمع بعض المعلومات عن حياة المرأة والبنت، ولا سيما العاملات في المعامل، وأضع فيها مقالة. بعد الشغل رجعت إلى غرفتي فاستحممت جيداً، ولبست ثيابي وخرجت فتعشيت، ثم نزلت مع الخواجا ابراهيم إلى المدينة، فلقيت في ادارة البريد رسالة من الدكتور نيس. ثم رجعت إلى غرفتي فأخذت إبريقي وذهبت إلى حنفية الماء الذي يشرب منه سكان رمفورد وملأته ورجعت. لقيت في طريقي الخواجا الياس ماريا مع سوري آخر يشتغل معنا في المعمل، فجاءا معي إلى غرفتي، ثم دخل علينا صاحب المنزل فجلسنا نتحادث في مواضيع مختلفة إلى الساعة الحادية عشرة، ثم ذهبوا فقمت إلى طاولتي وكتبت وقائعي. وضعت اليوم في صندوق البريد أربع رسائل إلى أختي وإلى سلطانة وإلى الياس طرزي وإلى الدكتور نجيب. قبل أن أنام جثوت أمام سريري وصليت.

يوم الثلاثاء ٧ تموز غ و٢٤ حزيران ش سنة ١٩٠٨م

حلمت أني كنت في القدس، وكان عندي ابن خالتي يعقوب ونايفة وماري. ليت هذا النهار لم يكن من عمري، ليتني مت قبل هذا اليوم، لم أشعر بالذل والانكسار مثل هذا اليوم. ذهبت إلى المعمل فلم يكفِ أننا كنا نشتغل كالبهائم، حتى انتدبونا بعد الظهر لتنظيف غرفة كبيرة تراكمت فيها الأحجار والأخشاب والتراب، وركدت فيها زيوت الآلات، بحيث كانت كأنها بالوعة أقذار، فدفع اليّ القيم مكنسة فتجاذبتني الأنفة وعزة

النفس فكدت أخرج من المعمل ولا أعود إليه، ولكن تذكرت أني جئت هنا بالدين، وأن ليس معي ما أنفقه على نفسي إذا تركت العمل. وهنا لأول مرة فارقتني عزة نفسي، فكأن روحي فارقت صدري. وكان الحرّ شديداً يذيب الحديد، وكان عرقي يتدفق من كل جسدي فكأنني كنت خارجاً من الماء، ولم أكن أستطيع أن أمسح عرقي لأن يدي كانتا متسختين، فكنست ورفعت الأخشاب والبراميل وقساطل [=دلاء] الحديد وقد تراكمت عليها الأوساخ، فتلوثت ثيابي وأصبحت كأنني بائع فحم أو وقّاد نار. كنت أحمل القساطل على كتفي وأذهب بها إلى محل آخر، ثم أخذت رفشاً وصرت أرفع به الزبالة وأضعها في برميل لأكبها [=لأرميها] خارجاً، وكانت رائحة الزيوت كريهة جداً صدع لها رأسي. فلمن أشكو ألإلى السماء وقد أغلقت في وجهي أم إلى الناس وقد تباعدوا عني وأصبحت وحيداً؟. كل سعادتي الماضية والآتية لا تعدل هذا النهار. من يلومني إذا رجعت إلى بلادي؟!. خرجت مساءً وجسدي كله يرتجف من التعب والهم والذل والكآبة فحلقت واستحممت وذهبت لأتعشى، ولم يكن لي قابلية، فأحضروا لي أولاً صحن لحم كأنه ممضوغ ممصوص فعافته نفسي وكدت أتقيأ، فطلبت صحن بيض. منذ جئت إلى هذه البلدة لم آكل إلا لحماً كأنه قطع جلود، وبطاطا. إذا بقيت شهراً آخر هنا مت غماً وجزعاً. جاءتني رسالة من الخواجا ميخائيل الصائغ يقول: أنصحك أن تبقى في شغلك.

يوم الأربعاء في ٨ تموز غ و٢٥ حزيران ش سنة ١٩٠٨م

استحممت وصليت وخرجت فأفطرت بيضاً مقلياً مع كأس حليب. ثم ذهبت إلى المعمل، ولكن كأنني ذاهب إلى السجن. كانت الأفكار تتجاذبني كل الوقت، تارة أتأمل في تعس حالي وسوء حظي، وتارة أذكر داود فلا أستفيق على نفسي إلا والدموع في عيني، وتارة أذكر سلطانة، وتارة أتوهم أني رجعت إلى القدس، فحالما وطئت قدمي أرض يافا ذهبت رأساً إلى بنك كريديليونه، ووقفت على الباب مدلياً رأسي ناكساً بصري أنادي داود. ثم ذهبت إلى المقبرة حيث دفن عفيف فوقفت على قبره أبكي وأنوح، ثم ذهبت إلى القدس فلما وصلت أسفل جبل صهيون، صعدت إلى قبر داود وجثوت أمام المقبرة وجعلت أنادي داود، ثم زحفت على ركبتي حتى وصلت قبر داود فصرت أتمرغ على ترابه وأبكي. وعلى هذا المنوال أستتبع أفكاري. ذهبت عند الظهر للغداء فوجدت رسالة من الياس حيدر يستمهلني في ارسال الدراهم إلى يوم السبت ويقول: لو طلبت روحي لقدمتها لك، ثم قال: إن أخاك يوسف خرج للبيع أمس مع نقولا البرغوت فربح كل منهما ٨ ريالات، فسررت لذلك، أولاً لأنهما اشتركا معاً، لأن يوسف لا يعرف أن يشتغل وحده، وثانياً لربحهما وتوفقهما. رجعت إلى المعمل وكان عملنا اليوم تحت يد قيّم آخر. لم أفتر كل الوقت عن درس أحوال العمال، فرأيت أن المعامل تقتل الأمة قتلاً فتقتل الصناعة وتقتل الفكر والعقل وتقتل الصحة، لأن العمال لا يرون كل النهار الشمس، وبالتالي تقتل الآداب وتقتل الاستقلال، لأن العامل لا يعرف صناعة ولا يستطيع أن

يطمع يوماً من الأيام بالاستقلال. ولذلك يستبد أرباب الأعمال بالعمال كيفما يشاؤون . .الخ. وقد عولت أن أكتب كل يوم ما يعن لي من الملاحظات. دفعوا لي أجرة الأسبوع الماضي على حساب تسعة ريالات في الاسبوع، بناء على ذلك لا أستطيع ان أفي ديني، أي العشرين ريالاً، في سنة. فجعلت أفكر بطريقة أخرى. رجعت مساء معيى من التعب، ضيق الصدر إلى الدرجة القصوى. كتبت رسالتين إلى الياس حيدر أقول له أن لا يرسل الدراهم، وإلى أخي أحثه أن يخلصني.

يوم الخميس في ٩ تموز غ و٢٦ حزيران ش سنة ١٩٠٨م

رأيت في نومي أخي حنا فاستوقفته وقبلته وقبلني. وحلمت أن ابن عمي سليم قد أخذ دكاناً صغيرة في سوق دير الروم الجديد قرب [كنيسة] القيامة، فمررت عليه وجلست على كرسيّ أمام دكانه. . استحممت وأفطرت وذهبت للمعمل متضائل النفس، وانى الحركة. وكانت الطلبيات كثيرة؛ كاد ظهري ينقصم وأنا أرفع الرزم والأدراج وأضعها في عربة النقل، ثم أرفعها من عربة النقل وأضعها في عربات القطار. رجوت أن تردني رسائل مع بريد الصباح فلم يردني شيء. رجعت بعد الظهر ذهبنا مرارا الى المعمل الذي تشتغل فيه البنات، دخلت أحد أروقته فوجدت فتاة واقفة في مدخله، فوقفت إلى جانب لتمر عربة النقل فكدت أذوب اشفاقاً عليها، تذكرت أختي فثارت حماستي قلت: أجلك يا ميليا عن دخول مثل هذه المعامل، وإذا دخلت زائرة فمن يجسر أن يمد اليك نظرة أو يسمعك كلمة؟ يقول فرح أفندي في جامعته أنه ابتدأ يحب اميركا. من نظر إلى هذه البلاد نظراً سطحياً أكبر هذا التمدن، وحسب الناس في نعيم مقيم، ولكن من أنعم النظر، من دخل المعامل حيث يقتل الشرف وتمتهن الفضيلة وتباع النفوس بيع السماح، لم يسعه إلا أن يقول: لتسقط هذه المدنية ولا يبقى فيها حجر على حجر. ثارت حماستي إلى الدرجة القصوى فوددت أن أترك الشغل بعد الظهر وأذهب إلى طاولتي لأكتب ما ازدحم في رأسي من الأفكار، عاودتني أنفتي وعزة نفسي فاندفع صدري وارتفع رأسي، وصرت أنظر إلى العمال نظري إلى حشرات الأرض وخشاشها. ما الذي يبعث الحماسة في صدور هؤلاء العمال، أيغارون على شرفهم وهو خرقة بالية؟ أيغارون على أعراضهم وهي دنسة قذرة؟ . خرجت من المعمل ومشيت وئيدا أختال عجباً وافتخاراً تمر بي الحسناء فأزوي نظري عنها استكباراً. استحممت جيداً. جاء الخواجات الياس خوري وجورج الياس وقد ذهبا ليومين إلى القرى المجاورة وربحا نحو خمسين ريالاً. كل يوم أزداد ميلاً إلى السفر، وترفعاً عن المعيشة في هذا الوسط الموبوء الحقير . . .

يوم الجمعة في ١٠ تموز غ و٢٧ حزيران ش سنة ١٩٠٨م

حلمت أني كنت في القدس، وأني ذهبت إلى منزل الخواجا الياس جلاد، ترجمان قنصلاتو اميركا،

أستدين من امرأته خمسين ليرة. بعد أن استحممت وأفطرت ذهبت إلى المعمل فلما وصلت وجدتهم قد ابتدأوا العمل، فنظرت إلى ساعتي فإذا بها متأخرة نصف ساعة. وإذ كنت متلبك المعدة شعرت بميل إلى الاستراحة، فأخبرت القيّم ورجعت. جلست وراء الطاولة وكتبت رسالة طويلة بأربع صفحات إلى مس سنكير، وأخرى بصفحتين إلى مستر بلاكستون أفضي إليهما بما أجد، وكارتاً عليه صورة شلالات رمفورد إلى الدكتور الياس حلبي. ثم نمت، ولكن لم أستغرق في النوم للحركة في الطريق. ثم قمت فسألت عن رسائل فلم أجد، ثم تغديت ورجعت إلى غرفتي لأنام فاستلقيت على فراشي، ولكن لم يغمض جفني لما كان يتوارد على فكري من الخواطر، وعلى نفسي من الهموم. قلت: إذا لم يستطع عيسى العيسى أن يرسل إليّ القيمة التي طلبتها منه فممن استدين؟ بل إذا أبطأ، فكيف أستطيع الصبر على هذه المعيشة المرة؟ خطر لي أن استدين من كثيرين؛ تارة من شكري حشمة وتارة من مسس واي، وتارة من المعلم نخلة، وتارة من الحاج راغب أفندي الخالدي، وتارة من خليل حبابو أو حنا حشمة، ثم قلت: أكتب إلى أخي يعقوب وهو يدبرها لي. كيف يستطيع أن يعمل من كانت هذه أفكاره، ثم خطر لي أن اكتب إلى سلطانة أحلها من عهدي لأني إنسان كتب عليّ الشقاء إلى الأبد، ثم قلت: اصبر إلى أن ترجع. في المساء وردتني ثلاث رسائل من أختي ومس سنكير وجورجي الخوري، وقعت على خبر في رسالة أختي انقبضت له كثيراً، وهو أن جوليا اسطفان خطبت على غرغوري خميس وكنت أتمناها لأخي يوسف، وفي رسالة مس سنكير أخبار كدت أبكي لها، أولاً إنها مسافرة إلى زنجبار لتخدم في المستشفى هناك، وإنها ستكتب إلى أخي يعقوب ليقابلها في بورت سعيد، وأن مسس بلابث ماتت في رجوعها إلى بلاد الانكليز فدفنت في البحر، وأن مسس مسترمن ماتت على أثر النفاس، وجورجي الخوري ينعي اليّ أحوال الطائفة، ويقول: إن الجمعية الخيرية عاملة على تنفيذ مآرب الدير، وإنها هي التي أشاعت أني أخذت خمسين ليرة من الروس. كتبت رسالة إلى أخي يوسف.

يوم السبت في ١١ تموز غ و٢٨ حزيران ش سنة ١٩٠٨م

نفعني انقطاعي عن العمل أمس، وإكثاري من أكل الموز وشرب المرطبات، بحيث لانت أمعائي بعد انقباضها. فاستحممت وأفطرت وذهبت إلى المعمل نشيطاً. لم يبرح داود كل الوقت من فكري، وبينا كنت أسير وراء عربتي ولحركة المعمل دويّ يصم الآذان، كنت أغني في داود، فثارت أشجاني وسحّت أجفاني. بعد الظهر ذهبت مع الخواجا الياس ماريا نكنس إحدى عربات القطار قبل الشحن، فقلت: أحضر ماء لنرشها، فقال: نكنس برفق فلا نثير الغبار فقلت: وكيف ذلك؟ فقال: أتعلمني الكناسة؟ فانقدت إليه خوفا أن يشتد بيننا اللجاج فيفضي إلى القتال، ولا سيما وفي أيدينا المكانس، فنعيد حادثة الكناسة أمام كنيسة القيامة بين الروم واللاتين، ثم عدنا إلى عرباتنا. ملأت عربتي ودفعتها أمامي على سطح مائل

فاندفعت. وقبل أن أتمكن من موازنتها واحكامها في طريقها التطمت بالحائط وارتدت عليّ بعنف، ولولا القليل لكانت سحقتني فلم أصب إلا برضوض في رجلي، وتطايرت الرزم من عنف الالتطام فلطَمت وجهي وكادت تكسر أنفي وتفقأ عيني، فقلت: سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. انصرفنا من المعمل الساعة الخامسة. لقيت رسالة من أخي يوسف يجدف فيها على الله وعلى مسيحه، ويقول في آخرها: سأرسل إليك دراهم ولو اضطررت إلى السرقة أو بيع نفسي، فضحكت وشر المصائب ما يضحك. ثم انطلقت إلى غرفتي وقد ثارت نفسي وراجعتني حميتي، فكتبت اليه رسالة أسكّن غضبه وأوصيه بالصبر والثبات، وأني قد قررت أن أثبت في مستنقع هذا الموت رجليّ، ولو كان من تحت اخمصها الحشر، وأبت عزة نفسي أن أرجع خائباً، [فكانت] رسالة لم يخط قلمي مثلها. وأرسلت كارتاً إلى الشيخ علي أفندي الريماوي(٤٤) عليه بيت المتنبي: أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر. .الخ. استحممت وذهبت لأتعشى فاشتريت قنينة زيتون أخضر فيها أربع عشرة حبة بعشر سنتات، وخياراً وبندورة وعلبة سردين، وتعشيت. ثم نزلت إلى البلد فدخلت خيمة جيش الخلاص وكان هناك واحد منهم يقص تاريخ حياته، وكيف تجند في جيش الخلاص، فتأثرت كثيراً. ثم ذهبت إلى ضفة الشلالات حيث ينكسر الماء على الصخور، ووقفت هناك والقمر ماثل أمامي في وحدة الليل وسكون الطبيعة، فتجردت من حسي وغبت في عالم الخيال، أحسست بدبيب الشعر فنظمت بيتين من قصيدة سأرسلها إلى سلطانة. وردتني رسالة من يوسف وكارت من الدكتور جمل.

يوم الأحد في ١٢ تموز غ و٢٩ حزيران ش سنة ١٩٠٨م

هذا اليوم المئة منذ وردتني آخر رسالة منك [يا سلطانة]. ليتني لم أخلق لألقى هذا العذاب والهوان.. قمت الساعة السابعة فاستحممت وأفطرت، ثم جئت إلى طاولتي وأخذت أنظم قصيدة إلى سلطانة مطلعها:

وهـبـت فـؤادي فـلا أرجـعـه   وإن هـانَ عـنـدكـمُ مـوضـعـهُ

فنظمت منها ستة أبيات. بعد الغداء نمت ولم أهنأ [في] منامي بسبب الحر الشديد، ثم جلست إلى طاولتي وكتبت رسالة إلى أمي أطلب رأيها في البقاء أو الرجوع، قلت لها في ختامها: «غداً عيدي وأرجو أن لا تكوني قد نسيت أننا في حداد على داود. لو لبست السواد ولزمت الحداد عمري كله ما وفيته حقه»، فاغرورقت عيناي بالدموع. ثم خرجت فجئت إلى غرفة الخواجا جورج فوجدتهم مجتمعين يشربون وقد بدت عليهم آثار العربدة، يقاطعون بعضهم بعضاً في الحديث، ويتماسكون بالأيدي فخشيت أن

(٤٤) علي الريماوي: من أوائل الصحافيين الفلسطينيين. نظم الشعر، كان مدرّساً وموظفاً لدى الدولة العثمانية، حرّر صحيفة «الغزال» العثمانية (صدرت عام ١٨٧٦م) وصحيفتي «بيت المقدس» و«النجاح».

يفضي بهم الأمر إلى ما لا تحمد عقباه، فانسحبت وذهبت فتعشيت، وبعد العشاء ذهبت إلى حوض الماء أرقب طلوع الفجر. برز من وراء الأشجار فنظرت إليه ملياً استطلعه عنكم، فلاح لي صفحة باردة لا شيء فيها من المعنى، حتى القمر أعرضتم عنه ولم تنظروا إليه، كنت إذا ابطأت رسائلكم أقرأ فيه رسائل أخرى، كان يحمل إليّ عواطف القلوب. رجعت إلى غرفتي فكتبت رسالة إلى الخواجا يوسف كرايديان أشكو له ليس العذاب ولا الهوان، وإنما الأشواق التي إذا بثت نارها بين الضلوع انخلعت لها القلوب، وأرعشت الأيدي، وزلزلت الأقدام، وانحلت عرى الصبر، وتراجعت الهمم، وتضاءلت النفوس، وانحنت الرؤوس.. أخذت صورة داود وقرأت على ظهرها بخطه: تذكرة حب خالص لصديقي خليل، فكدت أبكي. إن هذه الصورة يا داود أعز عندي من روحي أحتفظ عليها [كذا] كأقدس أثر لديّ. سلام على طلعتك الغراء وعلى يدك البيضاء الكريمة التي خطت تلك العبارات.

يوم الاثنين في ١٣ تموز غ و ٣٠ حزيران ش سنة ١٩٠٨

حلمت أني كنت في القدس، وكانت أمي تغسل، فنزعت ثيابي التحتانية وأعطيتها لأمي لتغسلها ولبست غيرها.

قمت الساعة الخامسة فاستحممت وخرجت فأفطرت، ثم ذهبت الى المعمل. كان العمل اليوم شاقاً جداً؛ كنا نحمل الرزم من قطار الى قطار على أكتافنا تحت الشمس، كانت الرزم كبيرة وثقيلة. لم أكن أستطيع أن أطوقها بيديّ، وكنت أشتغل مع عمال طوال القامات كبار الأجسام، فلما كنا نجيء الى الرزم لنحملها يحملون الصغيرة ويتركون الكبيرة. ما كدنا نشتغل قليلاً حتى تلاشت قوتي واسترخت مفاصلي، ولكن كابرت على نفسي وأثرت حماستي، فكنت أشتغل ليس بقوة جسدي ولكن بحماسة صدري كما تهمز الحصان الذي أنهكه التعب فيجري ليس عن قوة، ولكن عن هياج أعصابه من ألم المهماز. فقلت: أين أمي تراني مكشوف الرأس مشمر الساعدين، أنقل الرزم الكبيرة في الشمس كل النهار. سألني أحد العمال: كيف الشغل؟ فقلت له: أعلى هذا المنوال يكون الشغل في كل المعامل؟ فقال: الشغل هنا سهل ونظيف بالنسبة الى غيره، فقلت: ولماذا ذلك، وأي فضل لهذه المدنية، وأي فرق بينكم وبين العبيد الأرقاء في عصور الهمجية؟. قبل انتهاء الوقت جلسنا قليلاً نتنفس الصعداء، فانصرف العمال الى مداعبة البنات، ولما رأت البنات أني لا أنظر إليهن جعلن يناديني ويستلفتن نظري، فجعل كلّ من العمال يقول: هل أنا؟ هل أنا؟ فقلن: لا ولكن هذا الجالس بينكم، فأجابهن واحد باللغة الفرنسية: هذا وحش، فضحكت في قلبي. لم تر عيني أفسد وأحقر من جوّ العمال. ثم تركتهم ودخلت الى المعمل وجعلت أتخطر في أروقته، فتذكرت داود فصرت أبكي، ثم تذكرت أن اليوم عيدي فجعلت أعيد على ذاكرتي أعيادنا الأولى، وكيف كنت أصرف هذا النهار وليله استقبل وفود المعيدين، وفي المساء نحيي ليلنا على نغم الفلوت والكمنجة بين الأوانس الجميلات:

تلك أيامنا تولت سراعاً   وعلى أثرها الشقاء توالى

جئت إلى غرفتي فاستحممت جيداً بالماء البارد، وتعشيت، ثم أويت الى غرفتي وجلست وراء طاولتي كأنني مريم العذراء يوم انتبذت مكاناً قصيا، ونذرت ان لا أكلم إنسياً.

يوم الثلاثاء في ١٤ تموز غ و ١ ش سنة ١٩٠٨

حلمت عند وجه النهار أني كنت جالساً مع عيسى العيسى ويعقوب ابن خالتي حول مائدة؛ جئت لأخاطب عيسى فناديته: داود، فوقفت اللقمة في فمي وصرت أبكي، وقمت من النوم وأنا منقبض الصدر حزين. ذهبت الى العمل مكرهاً ضيق الصدر لم تكد الدنيا تسعني، كان العمل اليوم شاقاً جداً، شحنا أثقل الرزم وأكبرها، كنت أروز الرزمة فأشعر أني أعجز من أن أحملها، فأوشك أن أقول: اعذروني لا أقدر، ولكن أنكب عليها وأحملها الى صدري فتنتفخ أوداجي ويندفع دمي الى وجهي بل كاد جلدي يتمزق وأعضائي تتقصف. أحمد الله أن فيّ شيئاً من القوة الجسدية ولا سيما في صدري. لم يكد العمال يفرغون من أعمالهم حتى ينصرفوا إلى أحاديث دنسة، وتداول ألفاظ قذرة يخجل أسقط الناس عندنا من التلفظ بها؛ يدخل العامل المعمل صغيراً فيشيخ فيه يتنفس ذلك الهواء الموبوء، ويشتغل ذلك الشغل الحقير، بدون أن تسمو به نفسه الى طلب الأعلى فكأنهم بهائم لا بشر.. .كنت كل النهار مشترك الخواطر مقسم الأفكار ملتزم السكوت، وكان رفيقي في العمل يكلمني فلا أسمع، ويشير إليّ بيده فلا أرى، يقف فأمشي ويمشي فأقف، يذهب يميناً فأذهب شمالاً حتى عجب من أمري..

تعبت اليوم كثيراً. خرجت من المعمل مساء مبلل الثياب من العرق معفرها من الغبار. إذا قلت تعبت قالوا عاجز كسلان، وإن قلت كرهت العمل واحتقرت نفسي قالوا متكبر...

انتظرت أن يردني اليوم رسائل فلم يردني شيء. استحممت وغيرت ثيابي التحتانية وذهبت لأتعشى، ولكن لم يكن لي قابلية، وكان رأسي مصدوعاً.. جاء عندي مساء الخواجا وهبة المعاز من طرابلس يكلفني كتابة رسالة له إلى بلاده، ولكن كان الوقت قد فات فأجلناها إلى الغد.

الساعة السادسة من مساء يوم الثلاثاء في ١٤ تموز غ سنة ١٩٠٨م [رسالة]

حبيبتي سلطانة

أسعد الله مساك وجعلني من كل سوء فداك، آه كم أحتاج إلى كلمة منك تجلو عني صدأ الفتور وتطلق نفسي من قبضة الضجر وتردّ عليّ شيئاً من الطرب والسرور. كنت أحتاج إلى رسائلك لتعزيني

على فقد حبيبي داود، واليوم صرت أحتاج إليها لتعزيني وتقويني. أكتب إليك هذه الرسالة وقد خرجتُ الساعة من المعمل، ولكن على حالة لا أتمناها لعدوّ فضلاً عن صديق، مبلل الثياب من العرق، معفرها من الغبار. منكسر الجسم مُنقَّر، الكفين، متورم القدمين، ليس في جسدي موضع اصبع إلا ويؤلمني فضلاً عن آلام نفسي وانفعالاتها لما لقيتِ من الهوان والذل، وفوق ذلك الإعراض والهجران. أشتغل كل النهار عشر ساعات متوالية شغلاً شاقاً تعجز عنه أقوى الرجال لا أنبس ببنت شفة، بل يكلمونني فلا أسمع، يشيرون إليّ فلا أفهم. أجول بينهم مثل آلة صماء، وأفكاري مشغولة وحواسي مضطربة ونفسي متألمة، بينما هم يضحكون ويضجون ويمزحون ويداعبون البنات العاملات في المعمل، مما يخفف عنهم تعبهم، ويقصّر في نظرهم ساعات عملهم، بينما يضاعف تعبي ويطول نهاري. تعب ساعة يعدل عندي تعب سنة والساعة تعدل شهراً، هذا نهاري يا سلطانة، فكيف يكون ليلي؟ ألجأ إلى غرفتي مثل القتيل ويطبق عليّ الظلام وفي نفسي ظلمة أشد من ظلمته، لا أنيس ولا رفيق. بلى تؤنسني الوحشة وتسامرني الأحزان. كنت أنظر إلى صورتك فأفرح، وأما اليوم فأحزن، أرى أمامي وجهاً لا يبتسم لي وقلباً لا يحسّ معي..

الساعة السابعة من مساء يوم الأربعاء، في ١٥ منه

بلغت روحي التراقي، كان الشغل اليوم شاقاً جداً، فنيت قوتي في أول النهار وكدت أسقط على الأرض صريعاً بدون حراك، ولكن تجلدت وكابرت على نفسي، وأثرت بقايا حماسي واشتغلت بقية نهاري، ولكن كما يجري الحصان الذي أنهكه التعب، إذا أعمل الراكب في خاصرته المهماز أو ألهب ظهره بالسوط. لم أملك وقتاً لأتنفس الصعداء أو أمسح عرقي الذي كان يتصبب في وجهي كالمطر. على أن العمل لم يكن أشق عليّ من أثقال الحياة وهمومها، يكفيني آلاماً أني أشتغل كعامل بسيط في جوّ موبوء دنس مع قوم أسافل أراذل، هم أقرب إلى الحيوانات الدنيئة، بل الوحوش الضارية منهم إلى البشر، أحاديثهم وسخة دنسة، وألفاظهم قذرة يخجل أسقط الناس عندنا من التلفظ بها، ولا أصدق حتى ينتهي وقت العمل، فأخلص منهم ومن رؤيتهم والجأ إلى غرفتي. بل ألجأ إلى الوحدة والوحشة. لولاك يا سلطانة ولولا أختي وأمي لانتحرت بيدي وخلصت من الحياة المرّة. هذا حديثي يا سلطانة، لو كتبت به إلى أمي لماتت غماً أو إلى أختي ميليا لاستلّ روحها من صدرها، بل لو تلوته على الصخر الأصمّ لألانه، أو على الجبل الراسي لاندك إلى الحضيض، بل لولا أنك استبدلتِ قلبك الرقيق الحساس، بقلب أصلب من الحديد وأقسى من الصوان، لكتمته عنك.

نعم قلبك من حديد يا ظالمة. اخرس أيها اللسان وابكم أيها الفم، واحتبسي أيتها التنهدات والزفرات، وتفتتي أيتها الكبد.

يا سلطانة اعذريني يا سلطانة، اعفي عني وإن كنت آلمت قلبك فانبذيني نبذ النواة، انكثي حبل ودي، واقطعي علائقي واهجريني إلى الأبد. نعم اهجريني يا سلطانة ولو مت كمداً فلست أستحقك، اعتبري أن خليل مات ولم يعد يُذكر، أهون عليّ أن أموت من أن أسبب لك شقاءً أو ألماً. مزقي رسائلي ودوسي كل آثاري بأقدامك. أنا الظالم أنا القاسي، وأي ظلم أشد من أن أقرن حياة سعيدة إلى حياة شقية تعسة.

نعم يا سلطانة: حياتي شقيّة تعسة، ابتعدي عني يكفيني شقائي، وإذا ذُكرت أمامك فلا تظهري أنك تعرفينني، قولي لعلكم تعنون ذلك الفقير الحقير. ليتني لم أعرفك يا سلطانة لكنت أرحتك من همي، ولعلي وقفت حجر عثرة في طريقك. الكل يا سلطانة يحبك ويريدك، فاختاري من يستطيع أن يجعلك سعيدة، من يستطيع أن يكسب قلبك ويسر حياتك.

خليل

يوم الأربعاء في ١٥ و ٢ تموز سنة ١٩٠٨

حلمت أني رأيت ابن خالتي متري وكان لابساً غنبازاً وطربوشاً أحمر، وأراني صورة فوتغرافية لعائلة أخته أنيسة.. بلغت روحي التراقي؛ كل يوم يزداد الشغل صعوبة والحياة مرارة. لم أشتغل قليلاً حتى فنيت قوتي وكدت أسقط على الأرض صريعاً بدون حراك، ولكن ليس في هذه البلاد يا أم ارحميني، فتجلدت وكابرت على نفسي وأثرت بقايا حماستي واشتغلت بقية نهاري لا أنبس ببنت شفة، ولم أملك وقتاً لأتنفس الصعداء أو أمسح عرقي الذي كان يتصبب من وجهي كالمطر، على أن العمل لم يكن أشق عليّ من أثقال الحياة وهمومها؛ يكفيني آلاماً أني أشتغل كعامل بسيط في جوّ موبوء دنس مع قوم أسافل أراذل، هم أقرب إلى الحيوانات الدنيئة بل الوحوش الضارية منهم الى البشر، كلهم أبناء نجاسة، ولا أصدق حتى ينتهي وقت العمل لأخلص من رؤيتهم وسماع أحاديثهم الوسخة القذرة.

وردتني رسالة بعد الظهر من الياس حيدر يقول فيها: إنه حزن جداً لقولي له في رسالتي الأخيرة أن لا حاجة الى الدراهم الآن. ويستحلفني بالله أن أجبر خاطره وأطلب منه ما أحتاج إليه. ويقول: إن أخي يوسف ذهب إلى أحد المصايف وكان نهاره رابحاً، وإن يوسف غرزوزي ظهرت عليه أعراض السل، وقد أشار عليه الأطباء أن يذهب إلى سوريا، وأنه عازم على السفر يوم السبت فحزنت جداً. ثم قال: إذا أردت أن تأخذ محله ككاتب سعيت لك عند الخواجا نقولا عوض.. فخطر لي أن أذهب إلى نيويورك على كل حال، فإذا أعجبني الشغل كان به وإلا سافرت إلى البلاد. جئت إلى غرفتي معيى من التعب والهم. لم أستحم اليوم، لعل هذا الانقباض مسبب عن الاستحمام بالماء البارد بعد تعب النهار. جاءني الخواجا وهبة المعاز من طرابلس فكتبت له رسالة إلى ابن خالته الخواجا صليبا نادر، ثم ران على أجفاني الكرى، فأويت الى فراشي الساعة الحادية عشرة.

خليل في آخر يوم عمل له في مصنع الورق في رامفورد في امريكا

(مجموعة عائلة السكاكيني)

يوم الخميس في ١٦ و ٣ تموز سنة ١٩٠٨ م

استحممت وأفطرت. كان البرد شديداً كأننا في شهر كانون. ذهبت إلى العمل نشيطاً وكان الشغل قبل الظهر قليلاً بحيث لم أعرق، ولكن بعد الظهر اشتغلنا كثيراً: نقلنا جبالاً من الرزم، لم أكن أدع رفيقي يشتغل شيئاً، بل كان يعنون الرزم وأنا أحملها وأضعها في العربة، ثم أدفع العربة أمامي وأفرغها في القطار، خمس ساعات متوالية، لو كان في صدري شيء من السرور لرأيتم من قوتي ونشاطي شيئاً غريباً.

تخاصم اليوم أحد السوريين الذين يشتغلون في المعمل مع عامل فرنساوي فضربه الفرنساوي بقبضة يده على وجهه فجرحه فوق عينه، فاستأت جداً وملت كثيراً الى الرحيل من هذه البلاد، لأخلص من المعيشة مع هؤلاء البرابرة الهمجيين الوحوش الضارية.

جاءتني رسالة من أخي يوسف ينعي إليّ ضياع آماله في خسارته جوليا، فإنه كان يحبها وكانت تحبه، وقد تعاهدا على الحب إلى الأبد، فتألمت جداً وكدت أبكي. يقول في آخر رسالته: إن شغله كان جيداً هذا الأسبوع وأنه يوفر كل يومين ثلاثة ريالات وريالين، وأنه سيبعث إليّ في آخر الأسبوع بخمسة عشر ريالاً فسررت لذلك، وقد تمنيت لو أستطيع أن أطير الى القدس لعلي أستطيع أن أرد إليه جوليا.

خرجت من المعمل منقصم الظهر متيبّس الكتفين، فلقيت رسالة من الدكتور كوتهايل، يقول: إنه كتب الى صهره الخواجا البرت ليون أن يدفع إليّ خمسة وعشرين ريالاً فشكرت الله، هذه الخمسة والعشرون ريالاً تعدل عندي الآن خمسة وعشرين ليرة لأني في احتياجها فقررت السفر إن شاء الله.

اتفقت مع عامل يتعاطى التصوير أن يصورني في المعمل على هيئات مختلفة. وعدني أحد القيمين أن يكتب لي شهادة ممضية من العمال والقيمين لأحفظها عندي، وسأجمع بعض آثار من رمفورد قبل سفري.

الحمد لله ثم الحمد لله فقد حان أوان خلاصي من هذا الجوّ الموبوء، ومن هذا العذاب المبرح. كتبت رسالتين واحدة إلى أخي يوسف والأخرى الى الياس حيدر.

يوم الجمعة في ١٧ و ٤ تموز سنة ١٩٠٨

رأيت في حلمي المعلم نخلة والياس حلبي وأخاه انضوني وغيرهم من الأصدقاء.

استحممت وأفطرت وذهبت إلى المعمل. قلت للقيّم علينا: أني سأترك المعمل يوم الأربعاء القادم. كان الشغل اليوم قليلاً لم أتعب فيه كثيراً. لم يبرح اليوم العمال يسألونني عن القدس، ولما رأوا أني لا أجاريهم في الاهتمام بالبنات، ولا أتلفظ بكلمة سوء بل أشتغل بنشاط وسكوت، أخذوا يتوددون إليّ ويحترمونني. ولم أنفك عن رفع نفوسهم وتقويم أودهم وحثهم على أن يعيشوا حياة أفضل مما يعيشون. لقيت ولداً في المعمل، فسألته: لماذا لا يذهب إلى المدرسة ويهيئ نفسه إلى معيشة أفضل وأعلى، فأستأنس بي وصار كلما مرّ بي وقف إليّ وصار يسألني سؤالات مختلفة، ثم قال: ليتك تكون معلماً عندنا فإن كل التلاميذ بدون شك

يحبونك، فذكرني بتلاميذي وكدت أبكي اشتياقاً إليهم. بعد الظهر ذهبت إلى المعمل كأني مصاب بدوار، ولكن لم [أكد] أبدأ في الشغل حتى اشتددت بعد الارتخاء وعاودني نشاطي. لم يسع العمال الكبار والصغار بعد أن رأوا ترفعي وآنسوا أني أعرف ما لا يعرفون، إلا أن يتكلموا معي برزانة وجدّ. قلت لهم: إذا بقيت في هذه البلاد فأول ما أعمله أني أنضم الى جيش الخلاص، وأسعى في رفع نفوس العمال.

قال لي واحد: أنا لا أؤمن بالله ولا بالقيامة، فقلت له بتأدب ورزانة: كيف عرفت ذلك؟ هل وصلت إليه بدرسك وتنقيبك؟ فقال: لا، فقلت له: إن المسألة ليست سهلة بهذا المقدار، ولست أعني أن تتفرغ لدرسها، ولكن أنصحك أن لا تستخف بها، وأرجو أن لا يكون ذلك عن مجرد اتباع زي هذا العصر، فرأيت على وجهه علامات الاهتمام.

أشكر الله أني سأخرج من هذا المعمل وقد تركت لي ذكراً حميداً. وعدني بعض كبار العمال أن يعرفني بقسيس البلدة ليدعو الناس إلى سماع كلامي.

جاءتني رسالة من مس سنكير جواب رسالتي التي أرسلت اليها بها من رمفورد تشجعني فيها على البقاء في عملي إلى أن يجيء الفرج.

كتبت رسالة إلى سلطانة أحللتها من عهدتي...

مساء يوم الجمعة في ١٧ تموزغ سنة ١٩٠٨م [رسالة]

حبيبتي سلطانة:

ربما هذه آخر مرة أناديك يا حبيبتي، لأن هذا النداء يعني أني لك وأنك لي كما كانت أحلامنا، نعم، على هذا تعاهدنا، ولكن هل يحق لمن كان مثلي تعساً شقياً محروماً بل عاجزاً عن ادراك أمانيه، قاصراً عن البلوغ إلى ذروات المجد وشرفات العز، أن يُمنّي نفسه بالحصول عليك، ويقرن حياة سعيدة إلى حياة شقية. نعم يا سلطانة حياتي شقية، أنا ابن الشقاء، حوّلي نظرك عني لئلا يعلق بك شقائي. انبذيني نبذ النواة، انكثي حبل ودي، اقطعي علائقي، اهجريني إلى الأبد، مزقي رسائلي، احرقي كل آثاري، انسيني، لا تذكري اسمي، فإنه أحقر من أن يخرج من شفتيك الطاهرتين، وإذا ذُكِرتُ أمامك فقولي: لا أعرفه. ولكن قبل كل شيء يا سلطانة: أرجوك أتوسل إليك بدموعي أن تصفحي عني، فقد آلمت قلبك ووقفت حجر عثرة في سبيلك، أنا الظالم أنا القاسي، لأني كان يجب أن أعرف مقدار نفسي ولا أتعرض لك، سامحيني يا سلطانة ولا تحرميني من عفوك. خسرت كل شيء خسرت صديقي خسرت مستقبلي، ولكن كلمة عفو منك يا سلطانة، كلمة فقط، فأتعزى بها عن كل شيء.. صدقي يا سلطانة أني جاهدت جهاد الأبطال وصبرت على شيء أمرّ من الصبر، فلم يكن نصيبي إلا الحرمان، وقد نفدت الآن كل وسائلي وتلاشى صبري واضمحلت آمالي، وتوارت عن نظري الدنيا بأسرها، ولم يبق ماثلاً أمامي إلا شقائي،

أعانقه ويعانقني، فما ذنبك أنت حتى تشتركي فيه، لا لا يا سلطانة لا أستحقك، اختاري غيري، اختاري من يجعلك سعيدة، اختاري من يستطيع أن يكسب قلبك ويسر حياتك، وإذا كان بقي لي شيء من السعادة، فهو أن أسمع أنك سعيدة إن شاء الله. سأرجع خائباً إلى القدس قريباً، وسأجعل قصاصي على ما سببته لك من الآلام أن أعيش عنك بعيداً، لا أمرّ من الطريق التي تمرين فيها، فإذا سمعت أخباري فلا تهتمي ولا تبالي، نعم سأرجع دامي الجفن ممزق الأحشاء، وسأتخذ قبر حبيبي موضع تسليتي، إلى أن يواريني التّراب منسياً من الجميع، وإذا تألم قلبي أسلته من جفوني دموعاً. إذا آلمتك رسالتي هذه فاعذريني، فإنها آخر رسائلي وبعدها يخفت صوتي فلا تعودين تسمعينه. الوداع يا سلطانة، الوداع يا صخرنا المحبوب، الوداع يا ليالينا الجميلة واجتماعاتنا البهيجة، الوداع يا كل سروري ويا كل آمالي، فهذا آخر موقف بيني وبينكم. وأنت يا سلطانة فلتباركك السماء، ولتحالفك السعادة كل أيام حياتك، وأسأل الله أن يلهمك النسيان، لئلا يكون في ذكري ما يعترض سرورك. نعم سيكون ذكري باعثاً على الشفقة، كل من يذكرني يقول: مسكين. ولكن بحقك يا سلطانة أن تجربي أن تنسيني ولا تذكريني يا سلطانة، أشفق عليك من ذكري، وإذا كنت أتأسف على شيء وابكي له دماً، فهو أن أعرف أنك لا تزالين تذكرينني، فإذا كنت أستحق شفقتك فلا تذكريني. الكل يحبك يا سلطانة والدنيا بأسرها تبتسم لك. انظري إلى النجوم وراقبي الطيور واصغي إلى تغريدها، واهتمي بالزهور وتأملي في الكتب، التفتي يميناً وشمالاً فكل شيء حولك يدعوك إلى السعادة، بل لا تهتمي بشيء، فكل شيء يهتم بك وسيجيء نصيبك الجميل إلى حدك إن شاء الله. ولا يحزنك أمري، وإذا قدر لي أن أصرف بقية حياتي شقياً، فإني أحمد الله أني كنت في ما مضى سعيداً محبوباً، بل قد عبرت بي أوقات كان الجميع يغبطني، ذقت فيها لذة السعادة وبلغت ذروة المجد، فإذا شكوت من حالتي الحاضرة فإني أشكر ماضيّ، وإذا كان مستقبلي مظلماً فقد كان ماضيّ منيراً. وإذا تألمت وجدت مصيبتي بالنسبة إلى غيري هيّنة خفيفة فلا تحزني، وأؤكد لك أني سأتخذ الأمور بسهولة. أما حزني فقد ألفته وأما شقائي فقد عرفته، فلا تكاد الأيام تريني شيئاً غريباً. إذا مرّت بي المصائب أقول مرّت قبلك أكبر منك، وإذا رأيت سعادة على إنسان، أقول: كنت سعيداً. لست أشك بعد هذا يا سلطانة أنك تستصغرين خطبي، وتجدين أمري هيناً بسيطاً لا يوجب قلقك وحزنك. السعادة لا آسف عليها لأني اكتفيت منها، والحزن لا أخاف منه لأني لقيت منه شيئاً كثيراً، وأصبح عندي مألوفاً، فأرجو أن تكوني حكيمة كما أعهدك فتنظري إلى الأمور نظراً بسيطاً. وإذا كانت الذنوب على قدر النيات، فأرجو أن يكون ذنبي عندك خفيفاً لأني كنت أنوي لك ولي السعادة، بل ليس لي ذنب أعرفه، إلا أني لم أفطن إلى الشقاء العالق بأذيالي، وعذري أني رأيت السعادة فغفلت عن كل شيء. أما الآن وقد برح الخفاء وظهر الشقاء فلست أحب أن تشتركي فيه أو تتذكريه بل لتكوني سعيدة ولأكن شقياً. وكل شيء بقضاء وقدر، ومن يستطيع أن يغالب الأقدار؟!.

وفي الختام أشكرك لأنك كنت سبب سعادة لي في الماضي تُهوّن عليّ شقائي الحاضر والمستقبل، وأتوسل إليك أن تسامحيني وتنسيني، واسمحي لي أن أناديك لآخر مرة يا حبيبتي، يا حبيبتي، يا حبيبتي.

خليل

يوم السبت في ١٨ و ٥ تموز سنة ١٩٠٨م

حلمت أن داود كان مريضاً فأشار عليه الأطباء أن يذهب إلى عين كارم للاستشفاء فذهبت أعوده؛ تناولنا الغداء في اللوكندة ثم قمنا نمشي بين الأشجار، قلت له: كيف تحسّ الآن؟ فقال: أحسن كثيراً، فقلت له: ألا تحب أن تمشي الى العين؟ فقال: لا أحس أني قادر الآن، ولكن إن بقيت معي الى يوم الاثنين ذهبنا إليها بعد ظهر الأحد، فقلت: نعم أنا باق ولكن بشرط واحد وهو أن أدفع عن نفسي، فالتفت إليّ بلطف وهدوء وقال: لا يكون ذلك، تحملت كثيراً فليكن هذا من الجملة. فقلت له: لا بأس وإذا كنا لا نملك شيئاً فنحن أحسن الناس. ثم ثارت بي الحدة فقلت له: وحقك يا داود إني لم أر في حياتي كلها أكرم منا نفوساً نحن الاربعة أنت ويعقوب وعيسى وأنا؛ إن مبادئنا لا يعلو عليها عال، ثم اندفعت في الحدة ورفعت يدي إلى السماء وقلت: السماء ظلمتنا، وإذا لم تكف عن عدائنا فلها عندي يوم تشيب له الولدان، نعم يا حبيبي داود وصرت أبكي، فالتفت إليّ وقد كاد يذوب رقة، وقال: لا بأس يا حبيبي خليل، وعند ذلك انتبهت من نومي وقد خنقتني العبرات، فأضأت غرفتي وتناولت صورة داود وانخرطت في البكاء نحو ساعة حتى بللت مخدتي. ثم أطفأت مصباح الكهرباء ونمت، فحلمت أني كنت ماشياً مع الدكتور وديع باز قرب باب العمود وكان هناك نهر عليه لوح من خشب يمر عليه الناس، فمر أمامي، ولما جئت لأمر جعل اللوح يرقص تحتي حتى كدت أسقط في الماء، ولم أصل إلى آخره إلا وروحي قد بلغت التراقي وعرقي يتصبب من كل جسدي. ثم حلمت إني جئت لأنزل درجاً من خشب وكانت أخت أبو خميس نزهة مع أم الاجرب جالستين عند أسفله تتعاتبان بصوت عالٍ، فما وضعت رجلي حتى هوى الدرج وسقطت على الأرض، ولكن لم أتضرر كثيراً.

ذهبت إلى المعمل منتفخ العينين محمرهما منكسر الجسد منقبض الصدر، ولكن الشغل لم يكن كثيراً. في آخر النهار كنسنا الأروقة وكبّينا الزبالة.

جاء المصور وأخذ صورتي أمام عربة النقل وقد ملأتها بالرزم، وصورة أخرى وقد حملت المكنسة. في المساء ذهبت إلى خيمة جيش الخلاص، فكانوا يقومون الواحد بعد الآخر ويشهدون للناس عما وجدوه من السعادة في مجيئهم إلى المسيح. وبين كلام وآخر كانوا يرتلون ويضربون بالدف والطبل ويصفقون، حتى خيل إليّ أن اجتماعهم لم يكن إلا مجلس أنس وطرب. في أثناء الاجتماع وقفت امرأة وقالت: إنها لم تجد سلاماً في العالم إلا في المسيح، وسردت قصتها من أولها إلى آخرها وهي تبكي، فلم يبق أحد تحت تلك الخيمة

إلا بكى، ولما رجعت وكانت الساعة نحو العاشرة والظلام حالكاً، تذكرت داود؛ عشت معه كل حياتي ولما جاء موته كنت بعيداً عنه لم أقف بجانبه أشجعه وأتزود منه، ليتني خسرت حياتي ولم أخسر تلك الساعة.

جلست وراء طاولتي وكتبت رسالة الى مس بلايث أعزيها على فقد أمها، وكانت دموعي تجول في جفني. نمت [عند] نصف الليل.

يوم الأحد في ١٩ و ٦ تموز سنة ١٩٠٨

استحممت ولبست وخرجت فأفطرت بيضاً مقلياً، ثم رجعت إلى غرفتي وكتبت رسالة إلى مس بلايث أعزيها بأمها وأخرى إلى مس سنكير. وقبل الظهر خرجت فعرجت على غرفة الخواجا جورج الياس فوجدت عندهم امرأتين سوريتين من بلادهم جاءتا الى رمفورد للبيع، فعرفوني بهما. كانوا يشربون ويغنون، والامرأتان، ولا أقول السيدتان، تقترحان الأغاني، فعفت ذلك المنظر وخرجت فتغديت ثم رجعت إلى غرفتي وكانت السماء شاتية والأمطار غزيرة فتبللت ثيابي فأويت الى فراشي ونمت، ثم قمت عند الساعة الثالثة وجلست إلى طاولتي فكتبت رسالة أخرى الى سلطانة أقول لها: في مثل هذا اليوم فحصت تلميذاتك. ثم ضاق صدري فخرجت ومشيت قليلاً في الهواء، ثم عرجت على محل الخواجا جورج فوجدتهم وقد بلغ السكر بهم حده، وقد جاء إلى رمفورد اليوم أحد الباعة السوريين، وكأنه عاتبهم على مزاحمته في قرية مجاورة فوجدتهم يتوعدون ويتهددون، فافتكرت أني أستطيع أن أصرف أفكارهم عن ذلك، فلم يزدادوا إلا اصراراً. وكانوا يذكرون من طرق الانتقام ما تشمئز له النفوس الأبيّة، فاعتذرت وخرجت فتعشيت ورجعت إلى غرفتي، وما كدت أجلس وراء طاولتي لأكتب إلى أمي حتى انطفأت المصابيح الكهربائية، فسألت عن السبب فقالوا: يخافون في أوقات البروق والرعود من الصواعق، فأحضروا لي قنديلاً وكتبت رسالة إلى أمي أقول لها: قد قررت نهائياً أن أرجع إلى البلاد، فمثلي لا يستطيع أن يعيش هنا، لا يستطيع أن يعيش في هذه البلاد إلا المتشردون السكارى الأدنياء الأردياء الوقحون.

أحسست بالتهاب في حلقي ووجع في أسناني ولعلهما مسببان عن الانقباض المسبب عن أكل اللحم والبطاطا. كرهت أميركا كما يكره القميص الوسخ.

يوم الاثنين في ٢٠ و ٧ تموز سنة ١٩٠٨

لم تكتحل عيني بغمض الليل كله بسبب النيورالجيا، ولما قمت صباحاً وجدت خدي متورماً وعلى شفتي قبلة الحمى كأني كنت محموماً وأنا لا أدري، لعل ذلك مسبب عن سخافة الأكل وفرط التعب، فقلت: أرتاح اليوم.

استحممت وخرجت لأفطر، سمعت أن الجماعة أمس بعد أن ارتووا من الشرب وبلغ منهم السكر كل مبلغ، خرجوا لذلك المسكين وهجموا عليه وأوسعوه ضرباً حتى وقع الأرض مخضباً بدمائه مغمى عليه، وأن الامرأتين اشتركتا معهم في ذلك، وواحدة منهما سبته مسبات بذيئة، بل تناولت حجراً وضربته به فأصاب ثيابها رشاش الدم، فتأثرتُ جداً لضياع المروءة. ومما غاظني جداً أن البوليس سمع بالقصة فلم يعرها التفاتاً لأنهم وعدوه بسكرة. دخلت المخزن فوجدتهم مجتمعين يتحدثون مفتخرين، فقلت لهم: لا أكتمكم أني لم أسر بهذا العمل، فأخذ الواحد يقول متهكماً: نعم لا شيء أحسن من المسالمة، والآخر يقول: لا تذكروا هذه المسألة لئلا يتكدر الخواجا سكاكيني، فضحكت في قلبي وخرجت. قبل الظهر وردتني رسالة من الخواجا نعمة الحاج، يقول فيها: إن الأطباء فحصوا الخواجا يوسف غرزوزي فلم يجدوا فيه أثراً للسل، ولكنه رغب في السفر فسافر يوم السبت، وفي ذيل الرسالة يعاتبني على انقطاعي عنه ويدعوني معلمه ويدعو نفسه تلميذي، قال: استفدت منك أكثر من كل المعلمين الذين علموني، وأرى أن لك فضلا على تهذيبي مثلهم إن لم يكن أكثر، وإذا كنت قد أسفت لمجيئك إلى هذه البلاد وضياع أتعابك فيها، فأرجو أن تتعزى بأني أقدر فضلك قدره فسررت واغتبطت.

بعد الظهر كتبت رسالة إلى ابن خالة أمي الخواجا عيسى آقتيميوس في بورت سعيد، وأخرى الى أخيه الخواجا عطا الله في باريس، ثم خرجت قرب ميعاد البريد فأخذت رسالة مستعجلة من أخي يوسف فيها ثمانية ريالات فقط، فانقبضت فرجعت الى غرفتي وكتبت رسالتين أخريين، الواحدة الى الياس حيدر أطلب منه أن يرسل دراهم حالاً، والأخرى الى أخي يوسف، ثم خرجت فوضعت في صندوق البريد ثماني رسائل الى أمي وسلطانة ومس سنكير ومس بلايث وابن خالة أمي عيسى وأخيه والياس حيدر وأخي يوسف.

لم آكل اليوم غير وقعتين (٤٥)، وفي كل مرة كنت أشرب قهوة مع حليب وآكل بعض قطع حلواء.

يوم الثلاثاء في ٢١ تموز غ و ٨ ش سنة ١٩٠٨

اليوم آخر الشهر التاسع منذ ودعتك الوداع الأخير يا حبيبي داود، يا أسفي عليك ثم يا أسفي عليك أصبحت بعدك وحيداً لا أجد ولن أجد داودي الثاني:

ولم أرَ في سواك ولن أراه   شمائلك الملاح ولا حلاكا

قمت باكراً على نية الذهاب إلى المعمل، فاستحممت وأفطرت وذهبت، ولما صرت أمام المعمل خشيت أن يهيج التعب آلامي، فعدلت بتاتاً، ورجعت إلى مخزن الخواجا جورج الياس، فوجدته يتأهب للسفر مع الخواجا الياس خوري إلى أماكن الاصطياف للبيع، وربما استغرق غيابهما نحو عشرة أيام، فودعتهما

٤٥ – وَقْعَتَين: بالعامية الفلسطينية، وتعني وجبتَين، والمفرد وقعة، يعني: وجبة.

وشكرت لطفهما وفضليهما ، فأخذني الخواجا الياس خوري إلى جانب ، وقال: أرجو أن لا تذكرني إلا بالخير ، وأن تنسى كل ما رأيته لأن لي أعداء كثيرين يشمتون بي . . رجعت إلى الغرفة فأخذت أقلب درج الرسائل فوجدت عنوان الخواجا البرت ليون صهر الدكتور كوتهايل ، فبادرت من فوري وكتبت له رسالة أطلب منه أن يرسل إليّ الخمسة والعشرين ريالاً لأني في احتياجها ، وأودعت رسالته رسالة أخرى للدكتور كوتهايل أشكره ، وأعده متى رجعت إلى نيويورك صلحت المسودات وأرسلتها إليه . ثم خرجت فوضعت الرسالتين في صندوق البريد ، ثم جاء الموزع وإذا برسالة من الياس حيدر فيها ستة ريالات ، ومعي سبعة فيصير المجموع ثلاثة عشر ريالاً ، فإذا لم يردني دراهم أيضاً كانت مع التسعة الريالات الباقية لي من أجرتي كافية لأن أفي بها ديوني هنا وأسافر إلى نيويورك . بعد الغداء نمت ، ثم جلست وراء الطاولة وكتبت رسالتين أخريين ؛ الواحدة الى الخواجا رفلة الحمصي أخبره بحديثي منذ خسرت كل تلاميذي الى اليوم ، وأني انتظر الدراهم من أصدقائي لأرجع بها الى البلاد ، والثانية الى جورج الخوري أثني على وفائه ومروءته وحماسته ، وإني أرجو إذا رجعت أن أنظر معه في ما يأول إلى رفع شأن الطائفة وغل أيدي المفسدين فيها .

قرب المساء نزلت إلى المدينة ، فمررت من أمام غرفة الخواجا الياس ماريا فدعوني فصعدت وروحي تكاد تزهق ضجراً وسآمة ؛ متى أرجع متى أرجع ! أخذ بعضهم يغني عتابا ، فكانوا يطربون ويضحكون كأنهم يسمعون الشيخ سلامة حجازي ، ثم جعلوا يذكرون حادثة أمس ، فقلت : متى أخلص من هذا الجو الحقير ! .

يوم الأربعاء في ٢٢ تموز غ و ٩ ش سنة ١٩٠٨ آخر أيامي في رمفورد فولز

حلمت أني كنت في مجلس مع المعلمة كيتي معلمتك [يا سلطانة] والمعلم أمين وكأنها كانت تعرف ما بيننا من العلائق ، فتحرشت بي ، وقالت : أتعرف إملي وسلطانة؟ فقلت لها : أعرف إملي وسلطانة ، فانتبهت إلى مرادي ، وقالت : بلغك الله أملك .

استحممت وخرجت فأفطرت ، ثم رجعت إلى غرفتي فكتبت رسالة الى الدكتور نجيب جمل تمنيت له الغبطة والسعادة في كندا ، وأخبرته أني راجع إلى نيويورك ومنها الى القدس ، وإني سأذكره حين أقف على جبالها وأرد ينابيعها وأتنفس هواءها . قلت له : غداً أحيي فتياتنا الجميلات ، وأنتظم في حلقات شيوخنا الأفاضل وأدبائنا الأذكياء فأنسى أميركا وأياماً صرفتها فيها مثل قضم الجلمد [=الصخر الصلد] ، ثم خرجت فوضعت الرسالة في صندوق البريد ، والتقيت بزين صفير أحد السوريين في رمفورد وقد طردوه الأسبوع الماضي من المعمل لانعكافه على الشرب حتى في أثناء العمل ، فخرج يتسكع في الطرق ، فأخذته وذهبنا إلى الجسر الثالث ، وكانت الطريق والأشجار مغسولة بمطر ليلة أمس . ثم رجعنا وكان ميعاد البريد فلم يردني شيء فدخلت المطعم وتغديت ، فدخل عليّ أخو الخواجا جورج مع الامرأتين السوريتين ، وحين قمت

دفعت عنهم، ثم ذهبت الى غرفتي ونمت. بعد النوم جلست وراء طاولتي وكتبت رسالة إلى معلمي نخلة أصف له حالي، قلت له في أثناء الرسالة: اشتغلت بعقلي وجرحت على [كذا] كرامتي فلم أنجح، ثم اشتغلت بجسدي ودست أنفتي وعزة نفسي تحت أقدامي فلم أنجح، فلم يبق إلا أن أرجع. وشكوت إليه انقطاع يعقوب ابن خالتي وسلطانة عني، ثم خرجت فوضعت الرسالة في صندوق البريد. جاء الموزع فلم يردني شيء أيضاً فقررت أن أسافر غداً صباحاً فذهبت إلى المعمل وقبضت أجرتي وودعت العمال، ثم مررت على المصور، فقال: إنه لم يستطع أن يعمل الصور أحسن، فإذا لم تعجبني رد لي الدراهم فقلت: آخذها، ولكن بنصف الثمن. وعدني أن يعملها الليلة، ثم رجعت فتعشيت، ودعوت زين صفير ثم قصصت شعري وحلقت وودعت الجميع، ورجعت إلى غرفتي أهيئ نفسي للسفر، وهذا آخر عهدي برمفورد والحمد لله.

يوم الخميس في ٢٣ و ١٠ تموز سنة ١٩٠٨

استحممت وودعت ربة المنزل وحملت شنتتي وخرجت، وما أبعدت قليلاً حتى انقطعت يدها فحملتها على كتفي، ثم ربطتها بحبلة وحملتها على ظهري، لأني لم أجد عربة ولا أحداً يحملها، فاضطررت الى حملها لأودع العتالة. مررت على المصور فلم أجده فتركت عنده بطاقة أكلفه أن يرسل الصور إلى عنوان الخواجا جورج بربارة. ركبنا القطار الساعة الثامنة والنصف وما تحرك حتى تولاني انقباض وتغشتني الخواطر؛ رجع بي الفكر إلى اليوم الذي جئت فيه. كنت أقدّر أن أنطلق من عقال السأم والضجر والوحدة والوحشة وأستقبل وجوه الآمال باسمة، وأظفر بأذيال الأماني منقادة. ثم تذكرت خلواتي في غرفتي حيث كنت أتجرّد من حسي وأسبح في عالم الخيال، وأحلق في جو التصورات، تذكرت هيامي على ضفاف الشلالات ووقفاتي على جسورها حيث تتكسر المياه على الصخور، فأقابلها بالتنهدات وأنفاس الصعداء، وأمزجها مع ذلك الهدير الذي كان يشبه عندي أنين الثكلى، وتارة أقابلها بالدموع أمزجها بذلك الماء الذاهب هدراً. ثم نظرت الى المعمل النظرة الأخيرة، فتذكرت رواحي ومجيئي فيه وراء عربة النقل مثل آلة صماء، وتذكرت ما كان يعتريني من الذهول ويعتورني من الآلام وينتابني من الانفعالات النفسانية. وقف بنا القطار على بورتلند، فنزلت مع زين ذيب صفير وجلنا قليلاً في شوارعها، ثم جئنا الى بوستن فلقيت بندلي فذهبنا الى قهوة سورية وشربنا أراكيل.

تعشيت مع زين، سهرت في بيت الخواجا ميخائيل الصائغ، زارهم شاب يهودي من القدس اسمه يوسف روتشلد، تباحثنا في أحوال أميركا فاندفعت انتقدها حسب ما بلغت إليه بالاختبار، وكان الشاب اليهودي على رأيي، وكان ابن عم الخواجا ميخائيل يمثل المبدأ الأميركي فدافع عنه جهده.

يوم الجمعة في ٢٤ و ١١ تموز سنة ١٩٠٨

نمت في غرفة بندلي، وهي غرفة صغيرة ليس فيها إلا تخت ضيق عليه فراش قاس كأنه من خشب. لم أستحم، أفطرنا حليباً بعد الفطور. أخذ [= جاء] امرأة مخائيل المخاض فالتهوا [=فانشغلوا] بها، وخرجت فلقيت زين صفير في مطعم سوري، فعبأنا أراكيل وشربنا، ثم ذهبت إلى بيت الخواجات سنونو، خرجنا قبل الظهر وطفنا في بوستن نتفقد معاهدها وآثارها الجميلة. زرنا دار الولاية والمتحف والمكتبة العمومية، ولكن أين هذا من معاهد باريس ولندن؟ أفضى بنا الطواف إلى الحديقة العمومية، فجلسنا على مقعد هناك أمام بحيرة صغيرة فيها القوارب تروح وتجيء وتحمل الأوانس، تذكرت يوم ارتاس وتذكرت داود وسلطانة، ثم رجعنا فتغدينا. بعد الغداء عبأوا لي أركيلة وجلست بجانب النافذة، وقد رقت عواطفي وهامت نفسي في عالم الخيال فلم أملك دمعي. ثم قمنا فقطعت تذكرة سفر وشحنت شنتتي ورجعت فمررت على ميخائيل وبندلي فودعتهما وبكيت، ثم جاؤوا معي إلى القطار، فركبت وسار بنا نحو ساعة، فوصلنا النهر فركبنا الباخرة، وكانت مملوءة من الاميركان الأغنياء الذاهبين للاصطياف، وكانت الأوانس لابسات الثياب الفاخرة يمشين مشية الخيلاء والتيه. صعدت على ظهر الباخرة وكانت الأنوار على جانبي النهر تتلألأ كالنجوم. اميركا عظيمة فخيمة تستحق الفرحة، ولكنها لا تصلح أن تكون وطناً لأنها بلاد عمل وجدّ لا بلاد سرور، وبينا الأغنياء ينعمون في عيشهم، نرى العمال يموتون تعباً وضنكاً. ذكرت سلطانة وددت لو كانت معي لترى هذه المناظر الجميلة.

يوم السبت في ٢٥ و ١٢ تموز سنة ١٩٠٨م

وصلت نيويورك الساعة السابعة والنصف وكانت السماء شاتية، فذهبت رأساً إلى مطعم جورجي الشاوي وأفطرت، ثم جئت إلى بروكلن لعلي أجد أخي قبل خروجه للبيع فلم أجده. استقبلتني ربة المنزل بكل بشاشة وترحاب، وأعدت لي الغرفة فنمت. بعد النوم حلقت واستحممت ونزلت إلى نيويورك. مررت على محل الخواجات ملوك، فوجدت رسالة من مس سنكير، وقالوا لي أنهم أرسلوا لي رسالتين إلى رمفورد فولز Rumford Falls أحداهما من روسيا. ثم ذهبت إلى ادارة الجامعة فاستقبلوني استقبال أخ؛ وجدت رسالتين الواحدة من الخواجا البرت ليون فيها شك بخمسة وعشرين ريالاً، والأخرى من الخواجا يوسف كرايديان. ثم ذهبت إلى مخزن الآنسة سعدى الحاج، فلما رآني الياس حيدر، ألقى نفسه على عنقي وجعل يقبلني حتى صرنا كلانا نبكي. رجعنا في المساء إلى بروكلن. لقيت يوسف. تعشينا، بعد العشاء سهر عندنا الخواجات أسعد حشمة وسمعان حشمة أخو بطرس حشمة الذي كان يطبخ في لوكندة رام الله. سرني ما لقيته من تحسن الأحوال، فإن يوسف ونقولا البرغوت يربحان كل يوم ثلاثة أو أربعة ريالات. وأما أنا فليس أفضل لي من الرجوع. قرأت اليوم في الجرائد العربية أن جلالة

السلطان منح البلاد الدستور (٤٦) مما سررت له كثيراً واستبشرت به خيراً. الآن إذا رجعت إلى بلادي يكون رجوعي في محله، إذا صحت الأحلام كان المجال أمامي واسعاً. الآن استطيع أن أخدم بلادي. الآن استطيع أن أنشئ مدرسة وجريدة وجمعيات للشبان. الآن نستطيع أن نرفع أصواتنا بدون حرج. لينعم بالك يا سوريا، صبرت كثيراً فنلت مبتغاك، ليرتد الطامعون فينا خائبين ولتحي سوريا.

يوم الأحد في ٢٦ و ١٣ تموز سنة ١٩٠٨م

استحممت ثم خرجنا فأفطرنا، جلست وراء الطاولة أكتب رسالة إلى الخواجات ابراهيم وجورج بربارة. ذهبت عند الظهر لأتغدى، وأنا على الغداء دخل عليّ نقولا أفندي حداد، ولما قمنا سبقته ودفعت عنه، ثم دعوته إلى غرفتي فجاء وعبأنا له أركيلة وغلينا قهوة وجلسنا نتجاذب الحديث عن اميركا، فوصفت شقاء العمال واستبداد أرباب الأموال بهم، ثم تكلمنا عن سوريا وصرنا نقدّر لها من التقدم والنجاح القريبين ما تغتبط به، ويعتز شأنها. سألته عن رأيه فيّ، فقال: ليس لك إلا الرجوع. لم أفتر عن ملاحظة يوسف فرأيت أنه ملازم السكوت والوجوم فقلقت له وأشفقت عليه. في المساء سهر عندنا الخواجات حنا حشمة وأخوه أسعد وابن عمه سمعان وبقية أبناء القدس. جاء نقولا البرغوت وقد اشترى بدلة جديدة وعاد إليه سروره فسررت له، حثثه على الجد والاجتهاد والاقتصاد. ثم حثثت الياس حيدر على الخروج للبيع، فقال: هذا ما عولت عليه، ولكن ذهبت منذ بضعة أيام عند جبران عوض أطلب منه بضائع وأنا أقدر أن يقدم لي بضائع بقيمة مئة ريال على الأقل، فقال: لا أستطيع أن أقدّم لك بمثل هذه القيمة، فتكدرت جداً، وقلت له: لا أحتاج إلى شيء، وتركته وأنا مصمم النية أن لا أخرج للبيع إلا إذا وفرت من دخلي ما اشتري به بضائع تكفيني، فاستأت جداً من معاملة جبران عوض. قبل النوم قلت ليوسف: لو فرضنا أن عيسى العيسى لم يستطع أن يرسل لي القيمة التي طلبتها منه، فقال: أكتب إلى الخواجا شامير أو أذهب إليه بنفسي واطلب منه أن يقرضني مئة ريال، فتأخذها وتسافر بها، وأنا اشتغل هنا وأفيه إياها.

يوم الاثنين في ٢٧ و١٤ تموز سنة ١٩٠٨م

استحممت وأفطرت ونزلت إلى نيويورك، فمررت على محل الخواجات ملوك فلم أجد شيئاً. ثم ذهبت إلى ادارة الجامعة فلم أجد شيئاً. وبعد أن أقمت هناك قليلاً ذهبت إلى ادارة البوسطة لأقبض الخمسة والعشرين ريالاً، فطلبوا مني أن أحضر من يعرفني، فرجعت إلى محل الخواجا البرت ليون فأرسل معي فتاة اميركية مستخدمة عنده فلم يكتفوا، فرجعنا إلى الخواجا ليون فجاء معي بنفسه فدفعوا لي الخمسة

---

(٤٦) الدستور: أعلن العام ١٩٠٨ مع وصول حزب «تركيا الفتاة» للحكم ما أدى لانتعاش الآمال الوطنية السورية، حيث منح الدستور المواطنين مجموعة من الحريات، لكن سرعان ما تبددت الآمال، بعد أن كشف الحزب عن حقيقته المعادية للعرب.

والعشرين ريالاً. نصح لي أن أرجع إلى بلادي، فهذه البلاد ليست لمثلي. ثم ذهبت إلى ادارة الشحن والنقل فكلفتهم أن يرسلوا شنتتي إلى عنواني، ودفعت ٧٥ سنتاً فعجبت لهذا الاشتطاط في الأجرة، ثم رجعت إلى ادارة الجامعة فدفعت لنقولا أفندي حداد العشرين ريالاً التي استدنتها منه قبل سفري إلى رمفورد فولز، وجئت إلى غرفتي فنمت، وكان الحر شديداً إلى الدرجة القصوى، بحيث خلت نفسي في فرن. بعد النوم جلست وراء الطاولة ونسخت رسالة الخواجات ابراهيم وجورج بربارة، وكتبت رسالة إلى سلطانة، ثم ذهبت لأتعشى. لقيت الخواجا حنا حشمة فجاء معي إلى غرفتي وجلسنا نلعب بالشدة إلى الساعة الحادية عشرة. تكلمنا عن أخيه أسعد، فقال: أتمنى لو رجع إلى البلاد وأنا ادفع له أجرة الطريق، فقلت له: سأتكلم معه ليذهب معي. رجع يوسف من البيع متأخراً وقد ربح ثلاثة ريالات. وضعت الرسالتين في صندوق البريد. جلست وراء طاولتي بعد أن ذهب الجميع، وكتبت الوقائع المتأخرة. أتمنى لو أطير إلى القدس طيراً فألقي بهمومي وأحزاني عند قدمي سلطانة. قلت لها: امهليني سنة أخرى، فإذا لم أنجح فاحكمي حينئذ بما تشائين.

في ٢٧ تموز غ سنة ١٩٠٨م [رسالة]

حبيبتي سلطانة

تركت رمفورد فولز حيث أقمت شهراً حسبته دهراً، وجئت إلى بوستن فاستقبلني ميخائيل الصائغ وابن عمك بندلي. الخواجا ميخائيل يشتغل نصف نهار فلا يحصل أكثر من ثلاثة أرباع الريال، وابن عمك يخرج للبيع، ولكنه لا يكاد يحصل أجرة طريقه، ولست أظن أنه ينجح، ولو أقام في هذه البلاد العمر كله، وكدت أحثه على الرجوع إلى البلاد لولا الخوف من التعرّض لما لا يعنيني، على أنه قال لي: إنه صابر بضعة أشهر، فإذا تحسنت الأحوال بقي وإلا رجع. في اليوم الثاني زرت الخواجات سنونو، ذهبا معي نتفقد معاهد بوستن وآثارها الجميلة، أفضى بنا الطواف إلى الحديقة العمومية، فجلسنا على مقعد هناك أمام بحيرة صغيرة، كانت القوارب تروح وتجيء فيها، فشرد الفكر إلى أرتاس، وتذكرتك، ثم ذهبنا للغداء، وكان ملوخية مع رزّ، بعد الغداء عبأوا لي اركيلة وجلست بجانب النافذة أدخّن، فاستولى عليّ الذهول وتجردت من حسي وهمت في عالم الخيال، وحلقت في جوّ التصورات، فتذكرتك وتذكرت داود فلم أملك دموعي. في المساء ودعتهم وودعت ميخائيل وبندلي، وكانت امرأة ميخائيل على وشك الولادة، وركبتُ القطار نحو ساعة ثم ركبت الباخرة وجئت إلى نيويورك. لا أسأل أحداً إلا نصح لي أن أرجع الى بلادي فهذه البلاد ليست لمثلي، ولكن كلما هممت بالرجوع تذكرتك وتذكرت وعدي لك أن أجاهد في البلوغ إلى أعلى درجات المجد، ثم أرجع إليك فآخذك مع ميليا ونزور معاً أميركا. بالحقيقة يا حبيبتي أن أميركا تستحق الفرجة، ولكن لا تصلح لأن تكون وطناً، لأنها بلاد عمل لا بلاد سرور، فكيف أرجع إليك الآن خائباً؟ ولكن

بقي لي أمل واحد وهو أن أرجع وأعالج حظي في بلادي، وأرجو أن تكون الأحوال مساعدة، ولا سيما بعد أن منح السلطان الدستور للبلاد، كما لعلك سمعت به، ولست استمهلك إلا سنة أخرى، ومن بعدها احكمي بما تشائين.

أتأهب الآن للسفر، ويا حبذا لو أستطيع أن أطير طيراً، فقد برحت بي الأشواق ولوعني الفراق، وأرجو أن يكون لقاؤنا بعد هذا الغياب والعذاب بداية حياة جديدة سعيدة إن شاء الله:

قالوا اللقاء غداً بمنعرج اللوى وأطول شوق المستهام إلى غد

سأرجع إليك يا حبيبتي مثقلاً بالهموم والأحزان، ولكن كل همومي وأحزاني وأتعابي تتلاشى أمام ابتسامة منك، أنت دوائي أنت سعادتي.. حلمت منذ يومين أني كنت في مجلس مع معلمتك كيتي والمعلم أمين نصر، وكأنها كانت تعرف ما بيننا من العلائق، فتحرشت بي، وقالت: بلغك الله أملك، ثم دعتني [لـ] أتناول الشاي في يوم آخر، ووعدتني أن تبذل وسعها في إزالة العثرات. ما هذا الشقاء، حتى في نومي أحلم بالعثرات. سامحك الله يا سلطانة لم يكن يخطر لي ببال أنك تعرضين عني، وتدعينني عرضة للوساوس والهواجس، غداً سأشرح لك كل شيء، غداً أشكو لك ما لقيت، غداً ألقي همومي عند قدميك وأطرح أثقالي بين يديك، غداً ترين بعينيك حالي وذلي. وإني أستودعك الآن إلى فرصة ثانية، فقد امتد الظلام ولم أعد أبصر ما أكتب، واسلمي لمحبك المشتاق إليك.

خليل

يوم الثلاثاء في ٢٨ و١٥ تموز سنة ١٩٠٨م

استحممت وخرجت فأفطرت. ذهب يوسف للبيع. جلست وراء طاولتي فكتبت ثلاث رسائل إلى بروفسر بور والدكتور نيس والخواجا مكروشيان أخبرهم برجوعي إلى نيويورك. نزلت إلى نيويورك. ذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك لعل رسائل وردت اليوم فلم أجد شيئاً، ثم ذهبت إلى ادارة الجامعة فلم أجد شيئاً. أخذت جريدة الهدى ومرآة الغرب وذهبت إلى قهوة سورية فطلبت أركيلة وقهوة، وجلست اقرأ عن احتفال الشعب في تركيا ومظاهراته الوطنية وابتهاجه وسروره، فوددت لو كنت في بلادي لأشترك معهم. رجعت إلى الادارة فلم يكن هناك إلا الآنسة روز، فقصت علي خبراً عن المطران هواديني تلهبت له غيظاً؛ وهو أنه مات شاب عزيز على قومه، فبعد الجناز وقف المطران يتكلم، فقال: أتأسف أن الفقيد لم يكن يبالي بالروحيات، ولا شيء الآن ينفع نفسه الهالكة. فجعل أخو الفقيد يصر على أسنانه، ولكنه تصبر إلى أن واروا الجثة في التراب، ثم أقبل على المطران يرغي ويزبد وأوسعه شتماً ومسبة. رجعت إلى غرفتي فنمت ثم استحممت ولبست ثيابي ونزلت إلى نيويورك، فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك، فأسرع إلي الخواجا الياس، وقال: وردك تلغراف من القدس، يكلفوننا أن ندفع لك ستين ريالاً أجرة الطريق، فأخذت

التلغراف وأنا لا أصدق وإذا هو من الخواجا سليم ملوك، والدراهم من يعقوب بن خالتي فأحمر وجهي سروراً، ولم أتمالك أن قلت: خلصت خلصت. قلت للخواجا إلياس: أرجوك أن تبقي هذه القيمة عندك ريثما تردني دراهم أيضاً من بعض أصدقائي، لأن هذه لا تكفيني. ومن هناك ذهبت إلى إدارة الجامعة وبلغتهم الخبر، ثم مررت على الياس حيدر وأخبرته أيضاً ذلك. لتباركك السماء يا يعقوب يا خليفة داود ورحمة الله عليك يا داود. رجع يوسف من البيع، لم يربح إلا ريالاً ونصف، أخبرته عن التلغراف فسر. سهر عندنا الخواجات فؤاد سلفيتي وأخوه وخليل دبدوب.

يوم الأربعاء في ٢٩ و١٦ تموز سنة ١٩٠٨م

استحممت وأفطرت. جاءتني رسالة من تلميذي الأرمني الخواجا مكروشيان يدعوني فيها لتناول العشاء معه إما هذا المساء أو مساء غد. نزلت إلى نيويورك وكان أخي يوسف وحنا حشمة وخليل الدبدوب في القارب، فلما خرجنا منه ورأيت أخي يحمل الجزدان عميت أبصاري. ليس الجزدان إلا مثل كشكول، وليس حاملوه إلا شحاذين يدورون على الأبواب يستعطون. ذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك أسأل عن رسائل فلم أجد شيئاً، ثم ذهبت إلى ادارة الجامعة فجاء موزع البريد، وإذا برزمة الأصل واردة من رمفورد فولز فيها صوري ورسالة من الياس خوري الطرابلسي، مع رسائل مرتجعة، وهي رسالتان من القدس، ورسالة من الياس حيدر. رسالتا القدس الواحدة من ميليا والأخرى من أمي بخط يعقوب بن خالتي وفيها رسالة لابن عمي سليم. كدرني جداً قول أمي بلسان يعقوب بن خالتي: «أما من جهة حضورك إلى هنا فهذا ما أحب، ولكن كما لا يخفاك ما باليد ولا حيلة، وإذا أمكنك أن تدبر نفسك فافعل واحضر فترانا بإنتظارك». وإذا لم استطع أن أدبر نفسي فماذا؟. تقول أختي في رسالتها أن سلطانة أرسلت إليها رسالة ولكن ما فهمت معناها، وأن جدة داود ماتت. وعلى الجملة فقد أحسست بإنقباض. درت على وكالات البوابير [=البواخر] وأنا أرجو أن أجد طريقا إلى بلاد الانكليز، فوجدت طريقاً تكلفني أكثر مما تكلفني طريقي إلى القدس، فعدلت عنها وصممت أن أرجع عن طريق فرنسا يوم السبت في ٨ آب. كتبت رسالة إلى الخواجات جورج والياس في رمفورد وأودعتها ستة ريالات. ثم جئت إلى غرفتي فكتبت رسالة إلى مس سنكير، وحاولت أن أكتب إلى ابن خالتي، فكتبت رسالتين ولكنني لم أرسلهما لأني كتبتهما وأنا أتميز غيظاً، ثم كتبت رسالة إلى أمي. سهر عندنا الخواجات أسعد حشمة وفريد سلفيتي. جاء يوسف ولم يربح غير ريال وربع لأنه كان مريضاً. ولما ذهب ليتعشى تأخر كثيراً، فلما جاء سألته فعربد.

يوم الخميس في ٣٠ و١٧ تموز سنة ١٩٠٨م

استحممت وأفطرت. جلست وراء الطاولة أكتب بعض الرسائل. جاءتني رسالة من الدكتور

نيس يدعوني يوم الثلاثاء القادم لأقرأ معه. نزلت إلى نيويورك فمررت على محل الخواجات ملوك فوجدت رسالتين؛ الواحدة من أمي تطمئنني عن أخي يعقوب، وأنه الآن في رام الله يشارف [=يشرف] على بناءة عائلة اسطفان، ويتمنى رجوعي، والأخرى من مس سنكير تستحسن رجوعي إلى بلادي، وتحثني أن أمرّ بهم في لندن. ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فجلسنا تتكلم عن بلادنا، ثم ذهبنا إلى مطعم سوري وتغدينا وشربنا أراكيل. ورجعت إلى الغرفة وكدت أذوب من الحر فأويت إلى الفراش وما كدت أغمض جفنيّ حتى جاء الخواجا أسعد حشمة، فقمت ولبست ثم غلينا قهوة وجلسنا نلعب بالشدة. ولما صارت الساعة الخامسة والنصف ذهبت عند تلميذي الأرمني الخواجا مكروشيان وتناولنا العشاء معاً، وبعد العشاء ذهبنا إلى حديقة عمومية قريبة من منزله وجلسنا قليلاً، ثم رجعنا إلى غرفته فاستكتبته رسالة إلى نيكوغوس باللغة الأرمنية، ثم ذهبنا نفتش عن ورتنان أخي سيكياس الحلاق فلم نجده، ثم ذهبنا نتفرج على الصور المتحركة، وكان من جملة الصور المعروضة ما يمثل أعمال جيش الخلاص الخيرية، فتأثرت جداً حتى دمعت عيناي. دعاني لقضاء السهر معه غداً. رجعت إلى الغرفة عند الساعة الحادية عشرة فسألت يوسف عن شغله، فلم يمدح فيه كثيراً.

يوم الجمعة في ٣١ و١٨ تموز سنة ١٩٠٨م

حلمت أني كنت في القدس واقفاً بالقرب من باب الخليل، فرأيت المرحومة مسس مسترمن راكبة على حمار، فقلت: كيف أشاعوا أنها ماتت؟ فقيل لي: لم تمت، ولكنها تنافرت مع زوجها فأرسل إليها أبوها يستدعيها إليه. استحممت وأفطرت. وردتني رسالة من بروفسر بور يودعني بها، ويأسف لأنه لا يستطيع أن يراني لأنه متغيب عن بيته. جلست وراء الطاولة وكتبت ثلاث رسائل إلى الخواجات سنونو وميخائيل الصائغ ويوسف السلفيتي أودعهم بها. ثم نزلت إلى نيويورك فذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك أسأل عن رسائل فلم أجد، ثم ذهبت إلى إدارة الجامعة فأخذت قصاصة من جريدة مرآة الغرب، فيها خبر القبض على أوغسطين القري لاحتياله في جمع إحسانات، بحجة أنه يجمعها لترميم مستشفى البرص في نابلس الذي احترق مؤخراً، فوضعتها ضمن الجريدة الانكليزية التي نشرت حكايته من أولها إلى آخرها، وأرسلتها إلى معلمي نخلة. تغديت ورجعت إلى الغرفة، وكان الحر شديداً إلى الدرجة القصوى، فنمت وبعد النوم استحممت، ثم كتبت كارتاً إلى الخواجا يوسف كرايديان أودعه به. جاء الخواجا أسعد حشمة فلعبنا بالشدّة ثم تعشيت وذهبت عند تلميذي فوجدته مشغولاً بالنقل إلى غرفة جديدة، فذهبت إلى قهوة أرمنية والتقيت بالخواجا ورتنان أخي سيكياس الحلاق، فرأيته شديد الرغبة في الرجوع إلى البلاد. رجعت إلى الغرفة فوجدت يوسف ونقولا البرغوت

وقد حلق شواربه فظهر مثل يهود اليمن، وأسعد حشمة والياس حيدر، لعبنا بالشدة. ربح يوسف اليوم ثلاثة ريالات وثلاثين سنتاً. قررت أن أفصّل لي بدلة قبل أن أسافر، وإذا نقصت الدراهم استدنت من هنا عشرين ريالاً أخرى.

يوم السبت في أول آب غ و١٩ تموز ش سنة ١٩٠٨م

حلمت أني كنت مع داود، وإذا بيوسف رحيل يركض مقبلاً إلينا ووراءه أخي يعقوب، فلما اقتربا منا انهال عليه أخي يعقوب يضربه بعصاه على رأسه، فهجمت على يعقوب وأخذت منه العصا وصحت به مغضباً. ثم رأيت نفسي واقفاً أمام منزل داود فجاءت أخته منّانة متشحة بالسواد، فلما رأيتها بكيت، ثم دخلت المنزل فاستقبلتني أمه وإذا بها مهزولة شاحبة اللون، فترامبت على أقدامها وصرت أبكي. ثم حلمت أني رأيت عيسى نخلة قرط وميخائيل مشبك وعيونهما محمرة غضباً فسألتهما: ما الخبر؟ فقال عيسى: كان أولادي يلعبون أمام المنزل بالقرب من قنصلاتو روسيا، فخرج القنصل وضرب أمهم، ثم رأيت ابن خالتي يعقوب ويعقوب خوري فقصصت عليهما الخبر فاستغرباه. استحممت ونزلت إلى نيويورك فأفطرت. قال لي الياس حيدر: أنه تناقر [=تجادل، وتناكف] أمس مع الآنسة سعدى الحاج وصمم اليوم أن لا يذهب إلى الشغل. ذهبت إلى محل الخواجات ملوك عدة مرات أسأل عن رسائل فلم أجد شيئاً، ثم ذهبت إلى ادارة الجامعة فلم أجد شيئاً أخذت الجامعة المجلة والجريدة، وذهبت إلى قهوة سورية، فطلبت أركيلة وقهوة وجعلت أقرأ. كنت كل الوقت منقبض الصدر لولع أخي يوسف بالسكر. كدت أيأس منه ومن إصلاحه، وخشيت أن يكون له مستقبل سيئ جداً يكون فيه خزيا لنا. ذهبت إلى شركات البواخر فلم أجد خبراً. رجعت إلى الغرفة فنمت. جاء الخواجا أسعد حشمة فلعبنا بالشدة. ثم جاء الخواجا نعمة الحاج مع الياس حيدر فجلسنا قليلاً، ذكرت داود في أثناء الحديث مئة مرة، ثم خرجنا فذهبت أنا وإلياس وتعشينا، قال لي: إنه ذهب عند جبران عوض وأوسعه لوماً وتقريعاً ولم يبق ولم يذر. جئنا إلى الغرفة فجاء أسعد حشمة وسمعان حشمة وفؤاد سلفيتي وأخوه فلعبنا الشدة، ثم جاء يوسف مع نقولا البرغوت من البيع وقد اشتركا اليوم فيه فلم يربحا غير ريالين ونصف. كتبت رسالة إلى حنا فراج. إبتدأت أكتب رسالة أخرى إلى مس سنكير. نمنا الساعة الحادية عشرة والنصف.

يوم الأحد في ٢ آب غ و٢٠ تموز ش سنة ١٩٠٨م

استحممت، ثم اشترينا خبزاً ولبنة وبطيخة صفراء وأفطرنا، وبعد الفطور عبأت الأركيلة وجلست وراء الطاولة أكتب إلى سلطانة. وعند الظهر أويت إلى الفراش إلى الساعة الواحدة ثم لبست وخرجت

وتغديت. وبعد الغداء ركبنا الترام أنا والياس حيدر ونقولا البرغوت، وذهبنا إلى كوفي [=مقهى] آيلند، وأما يوسف فتخلف هو وسمعان حشمة. مررنا في طريقنا على منزل الخواجا نعمة الحاج فأمسكوا بنا وعبأوا لي أركيلة وأداروا الفونغراف، ثم قمنا فركبنا الترام مرة ثانية وذهبنا إلى كوفي ايلند؛ كان الترام حافلاً بالركاب بحيث لم نجد محلاً إلا على درجه، وكان الهواء يهب بليلاً عليلاً. جئنا إلى كوفي ايلند، فذهبنا إلى شاطئ البحر وكان الناس يستحمون رجالاً ونساءً؛ ترى رجلاً ممسكاً بيد فتاة وداخلا بها البحر، ومن وقت إلى آخر كانوا يخرجون فيستلقون على الرمل، ويغمرون بعضهم بعضاً به على صور تبرأ منها الحشمة والآداب. ثم ركبنا على الترام الذي يجري على خطوط مائلة جداً ارتفاعاً وانخفاضاً. ومن هناك ذهبنا إلى بلد الأحلام، فتفرجنا على ملاعبة الأسود والنمورة وعلى الخليقة. وبلد الأحلام، عبارة عن محل واسع جداً فيها من الغرائب ما يدهش الأبصار ويحيّر الألباب مما يعجز اللسان عن وصفه. دخلت وحدي المرقص العربي، وكان الاميركان يدخلونه افواجاً أفواجاً، رجالاً ونساء وأولاداً. لم يعجبني فيه إلا الذي يلعب بالبارودة. ثم دخلنا مرقصاً آخر كبيراً جداً، فلما عزفت الموسيقى دخل الناس مئات بل ألوفاً وصاروا يرقصون، ثم ذهبنا إلى قهوة أخرى في صدرها مرسح [كذا] يرقص عليه البنات، وبين نوبة وأخرى يبرز رجل قوي جداً يرفع من الأثقال ما تعجز عنه الفيلة، حمل على ظهره اثني عشر رجلا وامرأة. وإذا لم يتفرج الإنسان إلا على الناس المزدحمين في الطرق لكفى. وكيفما التفت رأيت التهتك والخلاعة والقحة [=الوقاحة]. رجعنا الساعة الثانية بعد نصف الليل وكنت جائعاً جداً، مررنا على فرن فطلبنا خبزاً، فقالوا: لا نبيع في الليل.

في ٢ آب غ سنة ١٩٠٨ م عيد مار الياس

حبيبتي

هذه آخر رسالة أكتبها إليك من أميركا، إذ عقدت النية على السفر يوم السبت في ٨ آب، واليوم نهاية الشهر الرابع منذ وردتني رسالتك الأخيرة، أربعة أشهر يا سلطانة قضيتها بين أيدي اليأس والوحشة والغم والحزن، كنت حقيقاً أن أقوى على الفراق وأستسهل كل الصعوبات، وأذلل كل العقبات وأدوس كل العثرات لولا اعراضك الذي غلّ يدي وأعمى بصيرتي، وتركني ضعيفاً، حتى عن مقاومة أصغر الصعوبات، فإذا رجعت خائباً الآن، فأنت السبب لا الزمان كما قال الشاعر:

وقالت لقد أزرى بك الدهرُ بعدنا فقلتُ معاذ الله بل أنت لا الدهرُ

على أني آمل بعد كل هذا الإعراض أن أجدك مسرورة راضية. ابتسامة يا سلطانة منك عند اللقاء، تردُ إليّ سروري الذي كادت هذه السنة أن تنسيني طعمه. ابتسامة واحدة تنسيني كل همومي وأحزاني وتبعث فيّ الحياة وتجدّد في صدري الآمال، وتحيي في نفسي النشاط، فأريك من جدي واجتهادي ما أرجو أن

يكسبني رضاك إن شاء الله، وأحمد الله أني راجع وقد خفقت فوق البلاد أعلام الحرية، وتمهّدت السبل واتسع المجال للعمل، وفي نفسي آمال كثيرة أطلعك عليها عند اللقاء، ولكن لا الحرية التي أنعشت البلاد من كبوتها، ولا الآمال التي أحلم بها، ولا الوسائط العديدة التي سأتذرع بها تنفعني فتيلاً، إذا لم تجتل عيني ابتساماتك الحلوة، إذا لم نعد إلى ما كنا عليه نعقد الجلسات ونحيي الليالي، ونخرج إلى الفضاء نودّع الشمس ونستنشق الهواء النقي ونقطف الزهور ونسمع تغاريد الطيور، ونخطر على قمم الجبال، وإنما نزيد على ذلك زيارة قبر داود نناجي روحه الطيبة. لست أعني يا سلطانة أن أجعل حياتك كلها خيالاً في خيال، بل إذا رضيت عني جعلتها حياة سعيدة تغبطك عليها كل البنات إن شاء الله، أجلك يا سلطانة أن تكوني ممن يعبأن بالمال دون المجد والشرف، يا ضياع التربية والتعليم والأصل الطيب، على أن المال لا نعدم منه ما نعيش به عيشة سعيدة. أقل دخل أستطيعه الآن خمس عشرة ليرة في الشهر. مثل هذه القيمة في يد مدبّرة حكيمة تكفل الراحة والسعادة، يكفي تآخينا في الأفكار والمبادئ.

ربما مرّ عليّ شهر قبل أن نلتقي فراجعي فيه وعودك، وتأملي في ماضينا الجميل وصوري لنا مستقبلاً نحالف فيه السعادة ونجاور النجوم، شاوري قلبك الرقيق واستنصحي مبادئك السامية، وليوفقك الله إلى ما فيه الخير.

إذا كنت ترغبين في الإخلاص فهذا القلب معدنه، أو كنت ترغبين في الشرف فهذا الصدر موطنه. معاذ الله أن أخدعك يا سلطانة أو أموّه عليك بما ليس فيّ، هو ذا حياتي الماضية مبسوطة أمامك، فإذا رأيت فيها نقطة سوداء، فانبذيني نبذ النواة. سلي إن جهلت.. ولو كنت أعرف أنك ممن يعبأن بالمال دون الشرف، لكان المجال أمامي واسعاً في هذه البلاد، وسأقص عليك من أخباري ما يشفع لي في خيبتي وحرماني.. وإذا كنت يا سلطانة لم أستطع أن أمكنك من زيارة أميركا، فصدقي يا سلطانة أن ليس فيها شيء يؤسف عليه. لم أذكرك إلا قلت: أجلك عن المعيشة في هذا الوسط الحقير الدنيء، بلادنا على علاتها أجمل وأرقى.

وصدقي أني منذ حللت هذه البلاد لم يرقني منظر، ولم يسرّني شيء ولست أصدق أن أرجع إليك، فاستعدي، ولست أطلب منك إلا أن تكوني راضية مسرورة إن شاء الله. أقف الآن لأنه دخل عليّ بعض أبناء القدس، فالوداع إلى حين اللقاء يا سعادة محبك.

خليل

يوم الاثنين في ٣ آب غ و٢١ تموز ش سنة ١٩٠٨م

استحممت وأفطرت ونزلت إلى نيويورك، ذهبت رأساً إلى محل الخواجات ملوك لعلي أجد رسالة من أحد، فلم أجد شيئاً فأسقط في يدي. ثم ذهبت إلى ادارة الجامعة فلم أجد إلا كارتاً من فرح أفندي أنطون عليه صورة شلالات نياغرا. ثم ذهبت إلى احدى شركات البواخر فوجدت أن لا طريق لي للرجوع إلا أن

أذهب رأساً إلى يافا عن طريق فرنسا. ثم مررت على حنا حشمة ليذهب معي لنفصل بدلة لي فوجدته مشغولاً، فذهبت عند الياس حيدر فوجدته مشغولاً أيضاً، فرجعت إلى الغرفة منقبض الصدر واجماً حزيناً فتغديت ونمت، وبعد النوم استحممت ثم جلست وراء الطاولة وكتبت رسالة إلى سلطانة وحملتها مع رسالة حنا فراج ونزلت إلى نيويورك، فوضعتهما في صندوق البريد، وذهبت أسأل مرة ثانية عن رسائل فلم أجد شيئاً، فتعشيت ورجعت إلى الغرفة. جاء الخواجا أسعد حشمة ولعبنا بالشدّة، ثم جاء الياس حيدر، وجعل يرتل تراتيل كنيستنا فانتبه فيّ الشعور الديني، واشتد بي الشوق إلى الوقوف في كنائسنا القديمة. جاء يوسف ونقولا البرغوت فذهبنا جميعاً إلى منزل الخواجا اسكندر غزال لأودعهم. لم يكف يوسف عن التدخين السيكارة وراء السيكارة، مما استأت له كثيراً. ولما قمنا لنذهب قلت له: إذا كنت تحس بضعف في بصرك، فذلك بسبب إكثارك في التدخين فعربد، وقال: ولو مت فلا أترك التدخين، فقلت: لست أعني أن تتركه ولكن أن تعتدل فيه، فقال: لا بل أكثر حتى أموت، فلم أجبه، بل تألمت في نفسي كثيراً. رجعنا إلى الغرفة ونمت وأنا مضطرب النفس مشرد الأفكار... جاءتني رسالة من الخواجات سنونو.

يوم الثلاثاء في ٤ آب غ و٢٢ تموز ش سنة ١٩٠٨م

استحممت وأفطرت. لم يخرج يوسف للبيع لأنه أحسّ بتراخ كأنه محموم، فأخذ مسهلاً ولزم البيت. نزلت إلى نيويورك أنا والخواجا فريد سلفيتي. ذهبنا إلى محل الخواجات ملوك، لعل رسالة [تصل] من عيسى العيسى، فلم أجد شيئاً، فاعتمدت أن استقرض من هنا عشرين ريالاً علاوة على الستين لأستطيع الرجوع. ثم ذهبنا واشترينا بدلتين الواحدة باثني عشر ريالاً ونصف، والأخرى بخمسة ريالات وخمسة وتسعين سنتاً. ثم ركبنا القطار تحت الأرض، وذهبنا إلى الحديقة العمومية في الشارع الرابع والثمانين، ودخلنا المتحف ولكن لم يكن معنا وقت كاف لأن نرى كل شيء، بل ليس في المتحف ما يذكر بالنسبة إلى متحف لندن وباريس، وكان الحر شديداً جداً حتى شعرت بصداع أليم. رجعنا إلى غرفته، فتغدينا ثم ذهبت عند الدكتور نيس، فأخذني إلى نيويورك فدخلنا إلى البناءة الكبيرة المسماة Metropolitan وهي أعلى بناءة في نيويورك، بل في العالم كله، وكلها مبنية بالرخام الفاخر، وشربنا هناك Ice Cream ثم جلسنا في الحديقة العمومية القريبة منها، وقرأنا قليلاً في المباني الأساسية ثم ركبنا السيارة، ومررنا في الشارع الخامس، فأراني منازل أغنياء اميركا روكفلر وفندربلت واللوكندات الكبيرة. كنت أنتظر أن تكون منازل هؤلاء الأغنياء فاخرة جداً، فإذا بها مثل بقية المنازل، ليس فيها شيء من الفخامة ما يقتضيه غناهم الباهر، ولا عجب فإنهم وأن يكونوا أغنى أغنياء الأرض فإنهم لا يزالون بنفوس عمال. وعدت الدكتور نيس أن أجمع له النوادر المضحكة وأرسلها إليه، ثم تكلمنا بخصوص ألبوم مناظر القدس فقال: أرسل في أول الأمر دزينة فإذا بعناها ورأينا

رواجاً للكتاب كتبت لك لترسل كمية أكبر. ثم ركبنا Subway وجئنا إلى نيويورك، فدخلنا منزلاً يجتمع فيه القسوس وقرأنا قليلا، ولما قمنا دفع لي خمسة ريالات ثم ودعته، وكلفني أن أذكره لخليل دوغان والاميركان ومستر ومسس هنسمن. رجعت إلى الغرفة فعبأت أركيلة ثم استحممت. وعدني الخواجا فريد السلفيتي أن يأخذ أخي عندهم ليعيشوا معاً، وأنه سيكون له أخاً لا يفتر عن ملاحظته وارشاده، مما اطمأن له فكري. أرسلت رسالة إلى بروفسر بور. سهروا عندنا.

يوم الأربعاء في ٥ آب غ و٢٣ تموز ش سنة ١٩٠٨م

استحممت وأفطرت ونزلت إلى نيويورك. ذهب يوسف للبيع. مررت على محل الخواجات ملوك فلم أجد شيئاً، فانكمش قلبي وبردت أطرافي. مرت على رسالتي الى عيسى العيسى مدة طويلة؛ تسعة وأربعون يوماً ولم آخذ منه جواباً، لا بد أن هناك سبباً مهماً حال دون الإسراع، وإلاّ فلست أصدق أن إبطاءه عني عن إهمال.. والآن فماذا أعمل؟ الستون ريالاً لا تكاد تكفيني ثمناً للبدلتين ولورقة السفر وبعض اللوازم، ولست أستطيع أن أتأخر إلى أن تردني الدراهم. ذهبت إلى إدارة الجامعة فأخذت عدد اليوم. سمعت، بل قرأت في الجرائد الإنكليزية، أن أحد ضباط يلدز[٤٧] هجم على جلالة السلطان[٤٨] وضربه بخنجره، ولولا درع فولاذي يلبسه جلالته لنفذ الخنجر إلى قلبه... ثم أخذت عشرين ريالاً من الخواجا الياس ملوك، وذهبت مع حنا حشمة وأخذت البدلة الكحلية، ومن هناك رجعنا إلى المطعم السوري فتغدينا ودفعت عني وعنه. كان الحر شديداً وكانت كل ثيابي تقطر عرقاً، فلم أستطع أن أجول أكثر فرجعت إلى غرفتي ونمت، ثم استحممت ونزلت إلى نيويورك لعلي أشتري بعض اللوازم، فأمطرت السماء فرجعت إلى بروكلن فتعشيت، وبعد العشاء ذهبت أودع جنّي خير الله رفيقتنا في القدس. استغربت إسراعي في الرجوع وقالت: لا بد أن لك حبيبة لا تصبر على فراقها. ثم سألتني أن أنتخب لها اسماً لطفلتها، فكدت أقول لها سميها سلطانة. ذكرنا القدس وأيامنا الماضية. ودعتها وجئت إلى الغرفة. لم يبع يوسف اليوم شيئاً. كتبت رسالة إلى الدكتور نيس أطلب منه أن يقرضني عشرين ريالاً وبعثتها إليه مع أخي يوسف. قال لي الخواجا حنا حشمة: إنه سيبعث معي ليرتين إنكليزيتين إلى شكري حشمة، فإذا احتجت إليهما في الطريق استعملتهما، ثم دفعت القيمة إلى شكري متى وصلت القدس.

يوم الخميس في ٦ آب غ و٢٤ تموز ش سنة ١٩٠٨م

استحممت وأفطرت. جاءتني رسالتان؛ الواحدة من الدكتور نيس يدعوني إليه الساعة الحادية عشرة،

---

٤٧ – يلدز: هو أحد قصور السلطان العثماني.

٤٨ – السلطان المقصود هو السلطان عبد الحميد، آخر الخلفاء العثمانيين. وامتد حكمه من ١٨٧٦ الى ١٩٠٩.

ليدفع لي العشرين ريالاً التي طلبت منه أن يقرضني إياها، ورسالة أخرى من الخواجا يوسف كرايديان.
لزمت الغرفة إلى الساعة الحادية عشرة فكتبت رسالة إلى مس سنكير، ثم ذهبت عند الدكتور نيس فدفع لي العشرين ريالاً، ولكنه أخذ مني وصلاً بها تعهدت فيه أن أدفعها إليه بعد مرور ستة أشهر مما لم أكن أنتظره منه، ثم ودعته وجئت إلى الغرفة، فوجدت في الطريق الخواجا يوسف كرايديان فذهبنا وتغدينا معاً، ثم نزلنا إلى نيويورك فأمطرت علينا السماء مطراً غزيراً غرقت به ثيابي، فجئت إلى محل الخواجات ملوك فوجدت رسالتين؛ الواحدة من مس سنكير تحثني فيها أن أمرّ عليها في لندن، والأخرى من الياس طرزي يقول: إنا سمعنا [أنك] في ضيق شديد. ويتأسف جداً أنه لا يستطيع أن يمدني بالمال. أخذت من الخواجا الياس ملوك أربعين ريالاً بقية الستين، ثم جئت إلى إدارة الجامعة فوجدت رسالة من الخواجا عيسى الطّبة فيها رسائل للجامعة، يقول: إنهم سمعوا أني غير موفق وأني عازم على الرجوع وأن أنضوني الحلبي مريض جداً مما قلقت له كثيراً. ثم ودعت الخواجا كرايديان على أمل أن أزوره مساء مع أخي يوسف لتناول العشاء، وجئت إلى محل الخواجا حنا حشمة، فلقيت عنده خليل شبب وهو عازم على الرجوع إلى البلاد، فذهبنا معاً وقطعنا ورقتي سفر بخمسة وثلاثين ريالاً إلى يافا. لمّا دفعت الدراهم أحسست بغمامة يأس سوداء قد انتشرت أمام عيني. ثم جئت إلى بروكلن، فجاء يوسف، باع بخمسة ريالات، فأخبرته أني قطعت ورقة سفر فوجم، فلم أملك نفسي فأخذت أجدف على السماء والأرض فأخذ يطيب خاطري.
ذهبنا أنا وأخي والياس حيدر وحنا حشمة إلى بيت الخواجا يوسف كرايديان. تعشينا، لم نفتر عن ذكر القدس والحنين إليها.

يوم الجمعة في ٧ آب غ و٢٥ تموز ش سنة ١٩٠٨م

استحممت ثم أفطرنا. وقبل أن نترك الغرفة أخذت رسالتين؛ الواحدة من بروفسر بور صديقي الحميم، فيها شك بعشرة ريالات برسم الهدية، وقد تلطف في الرسالة إلى درجة كاد يبكيني، ورسالة أخرى من الخواجا يوسف سلفيتي يودعني بها. نزلنا إلى نيويورك، فذهبت مع أخي واشترينا شنتة مع لوازم أُخَر، ثم ودعت الخواجات دبدوب ومن وجدته في طريقي، وأكثرهم وعدوني أن يزوروني مساء في غرفتي، ثم ذهبنا فتغدينا أنا ويوسف والياس حيدر وحنا حشمة فدفعنا نحن. بعد الظهر، الساعة الثانية، ذهبت إلى محل الخواجا حنا حشمة لأنتظر التلفون من حنا فراج حسب الاتفاق بيننا. ولما صارت الساعة الثانية دق جرس التلفون فقمت إليه وتبادلنا كلمات الوداع. كلفني أن أكتب له عما يتم من أمر الحادثة التي هاجر لأجلها إلى أميركا، بعد ذلك جئت إلى بروكلن وذهبت إلى منزل الخواجات ملوك فودعتهم، ورجعت ولكن بقلب ممزق وجوانح خافقة، تزودت من تلك الجهات النظرة الأخيرة وكادت الدموع تجول في آماقي. جئت إلى الغرفة فكتبت رسالة إلى البروفسر بور أشكره على رسالته

وهديته، وكارتاً إلى أمي وآخر إلى عيسى العيسى أعلمهما بأني مسافر غداً، وكتبت عشر وصايا لأخي يوسف.

[.. وإلى هنا تنتهي تجربة السكاكيني في أميركا، وفي طريق عودته إلى القدس يزور لندن، ويكتب منها رسالة إلى سلطانة، تليها رسالة قصيرة يكتبها من مرسيليا، بعدها يعاود كتابة يومياته في القدس ابتداءً من ٩ أيلول ١٩٠٨]

لندن في ٢٢ آب سنة ١٩٠٨ [رسالة]

حبيبتي:

وقفت بنا السفينة أمام Southampton من بلاد الإنكليز فنزلت فيها وصعدت إلى لندن، أولاً لأستريح من السفر قليلاً لأن [السفر في الدرجة الثالثة متعبٌ جداً إلى الدرجة القصوى. مرت بنا تسعة أيام لم أنم إلا مراراً. ولم آكل إلا قليلاً، ولم أغيّر ثيابي، ولم أغسل وجهي، بحيث وصلت إلى بلاد الانكليز معيى من التعب والجوع والسهر، متقززا من نفسي]، وثانياً لأزور أصدقائي، وثالثاً لأزور المعرض الانكليزي الفرنساوي، ورابعاً لأتفقد بعض المعاهد التي فاتني أن أزورها في سفرتي الأولى، فأخذت غرفة بالقرب من منزل مس سنكير وأختيها، وكتبت إلى أصدقائي أخبرهم بمجيئي إلى لندن، فوردتني دعوة من أبي مستر بلاكستون لأقيم عندهم بضعة أيام، فاعتذرت لأن جيبي لا تسمح لي أن أسافر من محل إلى آخر، ثم دعاني آخرون للعشاء، ثم وردتني رسالة من مستر بلاكستون الابن أنه آتٍ إلى لندن، وعيّن لي مكاناً وزماناً لأجتمع به، فذهبت حسب اشارته وسررت بلقائه وذهبنا معاً إلى الحديقة العمومية المسماة Hyde Park وأخذ صورتي هناك أمام الأشجار الكثيفة. أهم شيء زرته هو المعرض، ولست أطمع أن أذكر لك كل شيء، بل أترك ذلك إلى حين اللقاء، وقد اشتريت كارتات لكل المناظر والمشاهد التي رأيتها، وعلقت في دفتري بعض الحواشي والملاحظات. آه كم تمنيت لو كنت معي لأتيه بك عجباً على كل الفتيات. رأيت في غرفة مس سنكير صورتك بزي فلاحة، فسجد قلبي في صدري. كوني لي يا سلطانة أكن أسعد الناس، ولكن إذا كنت ترين أنك لا تسعدين معي فدعيني أشقى وحدي. بعد بضعة أيام لا تزيد على الخمسة عشر أكون في القدس، ولست أعرف ماذا ينتظرني هناك، على أني آمل أن أجدك مع سائر الأهل والأصدقاء على أحسن حال وأنعم بال إن شاء الله. يوم الثلاثاء القادم أترك بلاد الانكليز إلى مرسيليا لأدرك السفينة المسافرة إلى يافا، ولكن سفري سيكون هذه المرة ليس في الدرجة الثالثة، ولكن على الظهر فعسى أن ترحمني السماء وتوصلني إليكم سالماً.. مس سنكير مشغولة بالاستعداد للسفر إلى افريقيا إلى زنجبار في الشهر القادم. أكتب إليك هذه الرسالة والبروق تومض والرعود تقصف والسماء تمطر والدنيا مظلمة، هذا صيفهم فكيف شتاؤهم، وفي الختام أضع بين يديك بقايا آمالي، فاتقي الله وارحميني.

مرسيليا في ٢٨ آب غ سنة ١٩٠٨م [رسالة]

حبيبتي

مع حزني على شقيق روحي داود وأسفي على ضياع آمالي واخفاق مسعاي وجزعي مما ألاقي كل يوم من العذاب والشقاء، لا يسعني إلا أن أحيي ليلة غد وأطرب لتذكارها، نعم في مثل ليلة غد من السنة الماضية مسّت قلبي شرارة الحب. في مثل ليلة غد كُنتِ سلطانة سهرتنا الجميلة، كنتِ بهجتَها وجمالها وطربها وسرورها، أفضتِ على الوجوه نوراً وعلى القلوبِ سروراً، وأكسبت آلات الطَرب رنة وأنامل العازفين رشاقة وأقدام الراقصين خفة، بل وجدنا طعامنا لذيذاً وشرابنا طيباً ومجلسنا فخيماً، فيا حبذا ليلة غدٍ ويا حبذا تذكارها، والسلام عليك من محبك.

خليل

الفصل الثاني
عودة إلى القدس

يوم الأربعاء في ٩ أيلول غ و٢٨ آب ش سنة ١٩٠٨م

قمت باكراً. استحممت وأفطرت ودخنت أركيلتي. خرجت فمررت على مطبعة الخواجا جورجي حبيب. فاتحني مرة ثانية بخصوص تحرير جريدته. من هناك ذهبت إلى محل الخواجات طرزي لأرى ماذا تم من أمر مقبرة الكاثوليك، فقال: إنه واجه رئيس الدير فوعده أن يرسل في ذات النهار من ينزع الأشواك ويمهد التراب، فأعطيته المفتاح فأرسله إلى البطركيّة. ولم أتمكن من زيارة داود. أعذرني يا داود، فإني وإن كنت قد وصلت إلى البيت فلا أزال أعد نفسي مسافراً لأني لا أزال مضطرب الأحوال مختل النظام. مررت على محل الخواجات الأميركان فأرسلت كارتاً إلى يوسف أخي. كيفما التفت أرى داود أمامي. لقيت أمين [صيداوي] فقال: إنه ناو أن يزور الطبيب الألماني بخصوص بثرة في ظهره، فقلت له: أذهب معك. بعد الظهر ذهبت إلى بيت داود، وبالرغم عن محاولتي إمساك دمعي فإني حين وقعت عيني على صورة عفيف المكبّرة لم أملك دمعي، ولم أستطع إلا أن أضم الصورة إلى صدري. يا لهفي عليك يا عفيف!.

الطائفة [الأرثوذكسية] قائمة قاعدة [٤٩] تريد إنشاء الجمعيات، ولكنها لا تعرف ماذا تعمل، ولم أزل النهار كله استقبل واحداً وأودع آخر، وكلهم يستشيرونني حتى تصدع رأسي. خطتي اليوم أن أهتم أولاً بنفسي، ثانياً بداود ثالثاً بالطائفة، ولذلك فلست محركاً ساكناً إلخ.

يوم الخميس في ١٠ أيلول غ و٢٨ آب ش سنة ١٩٠٨م

استحممت وأفطرت، ثم خرجت فمررت على المطبعة فوجدت غرفة الاستقبال قائمة قاعدة، والخواجا جورج [حبيب] مقسماً هنا وهناك، فانتظرته ريثما انصرف بعض الناس من عنده فقلت له: إذا أردت أن تنشئ جريدة وأن تنتدبني لتحريرها، فيجب أن نهتم بذلك اهتماماً زائداً، ونأخذ له الأهبة اللازمة، فليس العمل بسيطاً كما ربما تتوهم. فوعدني أن يزورني بعد قليل في غرفتي للبحث في ذلك، ثم دخل علينا أحد أبناء الطائفة، يقول: الخواجا نخلة كتن ينتظركما في مخزنه، فقلت له: الآن نمر به. رجعت أنا وإسعاف النشاشيبي [٥٠] وجبرائيل فاطرجي فلقينا عيسى نخلة فجاء معنا ليسلم عليّ، فمررت على نخلة كتن، فقال:

---

٤٩ - «قائمة قاعدة» : تعبير بالعامية الفلسطينية، يقصد به سيادة حالة الفوضى.

٥٠ - اسعاف النشاشيبي: هو محمد إسعاف النشاشيبي، كنيته أبا الفضل لولعه ببديع الزمان الهمذاني، من مواليد القدس ١٨٦٥، ومن رواد إحياء اللغة العربية في فلسطين، عمل مدرساً ومفتشاً.

نريد أن نؤلف وفداً لتذهب إلى تودر أفندي يانكو وسابا أفندي الفران لنرجوهما أن يحضرا الاجتماع الثاني. فقلت له: لم تقرروا ذلك في الاجتماع الماضي، بل الذي قررروه أن ينتظروهما في الاجتماع الثاني، فإذا حضرا كان به وإلا كتبوا لهما. ثم قلت له: يا خواجا نخلة أرجوك غاية الرجاء أن لا تتسرعوا في الأمر، لئلا يكون عملكم ضعيفاً. ثم تركته وجئت مع الجماعة إلى البيت. خطر لي أن أفتش عن أمثال عيسى نخلة في الطائفة، وأحثهم على التعمق في الأمور، ليكون منهم أناس يشتغلون في الطائفة بالسكوت والتروي. بعد الظهر أرسل إليّ جورج حبيب مسودة الأصمعي(٥١) فأصلحت أغلاطها وقوّمت بعض عباراتها، ثم ذهبت إليه فخلونا في غرفة، وبحثنا في خطة الجريدة ومواضيعها والمصادر التي نستقي منها، والاستعدادات التي يجب أن نتخذها، واتفقت معه أن أعطيه من أوقاتي آخر نهاري من بعد الساعة الرابعة إلى الساعة السابعة كل يوم، فأحرّر له المقالة الأولى وأنقح بقية مواد الجريدة بأجرة خمس ليرات في الشهر. وخرجت من عنده وأنا متهيّب من العمل. رحمة الله عليك يا داود...

يوم الجمعة في ١١ أيلول غ و٢٩ آب ش سنة ١٩٠٨م

استحممت وأفطرت وخرجت، فلقيت يعقوب بن خالتي فذهبت معه إلى منزله لأطلعه على ما تم بيني وبين صهره الخواجا جورجي حبيب، فعبأوا لي أركيلة وجلسنا وكنت أتخيل داود جالساً معنا. بعد حديثي أدرنا أحاديث متنوعة مختلفة قصّ عليّ أخبار خطبته وزواجه وموت عفيف وداود، فأجلت استتمام الحديث عن موت عفيف وداود إلى فرصة أخرى لأكتبه بتفاصيله.. قصّ عليّ ما لم أكن أتصوره من استياء جورجي حبيب، لأنه لم يدعه لحضور الإكليل ثم تناوله إياه بلسانه وتخلفه عن زيارته والتبريك له، وغير ذلك من السخافات. أحسست أن يعقوب كان في احتياج إلى صديق بعد موت داود، وأنه في كل هذه المدة لم يجد من يرتاح إليه بحديث، وأن مقامي عنده لا يزال محفوظاً.. بعد الظهر ذهبت أنا والياس حلبي وأمين صيداوي في عربة إلى المستشفى الألماني حيث دخل أمين لإجراء عملية له، فقبلته وقلبي يتمزق ونفسي منسحقة. رجعت مع الدكتور الياس إلى بيتنا وأخذنا نشتغل في إعداد مواد لجريدة القدس(٥٢)، ولكن ما كدنا نشتغل حتى جاء ضيوف فتركنا العمل وذهب الدكتور. وردتني مسودات من الأصمعي فأجلت تنقيحها إلى الغد.

---

٥١ – مجلة الأصمعي: مجلة أدبية اجتماعية، تأسست العام ١٩٠٨، صاحبها ومحررها حنا عبد الله العيسى، كانت تصدر مرتين في الشهر، وتطبع في مطبعة جورجي حبيب في القدس، إلا أن مكتب ادارتها كان في شارع السكة الحديدية في يافا.

٥٢ – جريدة القدس: جريدة اخبارية، أدبية، علمية، تأسست العام ١٩٠٨، كانت تصدر مرتين في الاسبوع، صاحبها ومؤسسها ومحررها جورجي حبيب حنانيا، وعمل فيها اوائل الصحافيين الفلسطينيين.

يوم السبت في ١٢ أيلول غ و٣٠ آب ش سنة ١٩٠٨م

استحممت وأفطرت، ثم جلست وراء طاولتي ونقّحت مسودات الأصمعي وأرسلت بها إلى المطبعة، ثم نقحت مقدمة جريدة القدس. وخرجت فذهبت إلى المطبعة وهناك كتبت بعض قطع للجريدة أيضاً. لا أزال متهيباً للعمل لأننا لم نأخذ له الأهبة اللازمة.. ذهبت الساعة الثانية عشرة وتناولت الغداء في بيت يعقوب ابن خالتي. بعد الظهر رجعت إلى الغرفة ونمت قليلاً، ثم ذهبت إلى المطبعة على أمل أن أجد بعض مواد للجريدة للتصليح فلم أجد شيئاً. جاء الخواجا جريس العيسى فتواعدنا أن نجتمع مساءً بعد انفضاض جمعية الطائفة في بيت ابن خالتي يعقوب. ذهبت للجمعية مع جورجي الخوري فوجدنا المجلس حافلاً، ولم يتغيب منه إلا يعقوب خوري ويعقوب فراج والياس سلفيتي، وسئل عن سابا فران، فقيل: إنه مستعف من الحضور لأن وظيفته لا تسمح له بذلك، فحنق الأعضاء عليه ولعلهم أضمروا له شراً. حضر الاجتماع الخواجات تادرس فاعترض الخواجا متري تادرس على وجود جريس كتن وابنه وتودر يانكو وأخيه طنوس فردوا عليه. ثم قال: سمعت أن الطائفة بُلغت أن لا تنتخب الموظفين عند الأجانب، فردوا عليه أيضاً، وكدت أخشى أن يفضي اللجاج بينهم إلى ما لا يحمد. ثم ابتدأنا في أشغال الجمعية، فأجمع الأعضاء أن غايتها رفع شأن الطائفة، ثم بحثوا في الوسائط المبلغة إلى ذلك، فاقترحت تعيين لجنة للبحث في ذلك، وبعد الأخذ والرد قرروا ذلك، فانتخب عشرة من جملتهم أنا للاجتماع غداً للبحث في ذلك. بعد انفضاض الجمعية زرت يعقوب وجدت عنده صهره جريس، فجلست قليلاً ثم رجعت إلى البيت عند نصف الليل.

يوم الأحد في ١٣ أيلول غ و٣١ آب ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور ذهبت إلى محل اجتماع اللجنة المنتخبة أمس للنظر في حاجات وحقوق الطائفة، فوجدتهم مهتمين بكتابة مضبطة بوكالة الأربعين[٥٣] عن الطائفة في كل شؤونها. وكان المُملي جرجي زخريا، فخشيت أن يمليها على طريقة تنفع الدير، فأعملت الفكر كثيراً، ولكنني لجهلي أصول المضابط ظللت مرتاباً، فإن جرجي زخريا ولو حمل المسيح على أكتافه لا أثق به ولا أطمئن إليه. ثم أخذنا ننظر في حاجات الطائفة وحقوقها، فأخذ هذا يقول كذا وذاك كذا، فقلت لهم: إذا طلبنا حقوقنا لا نستطيع أن نقول بناء على قول فلان وقول فلان، بل يجب أن نفتش عن أوراق ونراجع القوانين لنكون محقين في ما نطلب. وقد لاحظت أن الجميع مستخفون بهذا الأمر. فجعلت همي أن أحملهم على الاهتمام به والتروي فيه. ورأيت أني إذا قررت الاشتغال للطائفة أني [كذا] أتعب كثيراً فإن المسؤولية في نظري عظيمة جدا. لاحظت أن جرجي زخريا مع بقية أعضاء اللجنة يفضلون الإهتمام الآن بالمدارس والمستشفيات والكنيسة

---

٥٣ - «الاربعين» : هم أعضاء المجلس المليّ للطائفة الارثوذكسية في القدس.

والبيوت، فخشيت أن يكون ذلك إلهاءً للطائفة عن البحث في حقوقها الأخرى والله يعلم. زرت يعقوب بن خالتي مع الفونس لونسو. جاءتني رسالة من عيسى العيسى يقول فيها إنه خطب على ابنة العيساوي وإنه أرسل إليّ مئة فرنك. في المساء زارني صهرنا جريس العيسى(٥٤) فنقحت له بقية مسودات الأصمعي، ثم زارني جرجي أفندي الحمصي وكثيرون غيره...

يوم الاثنين في ١٤ أيلول غ وأول أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور ذهبت إلى المطبعة فوجدتها كالعادة قائمة قاعدة، والخواجا جورجي مشغولاً هنا وهناك مثل أم العريس؛ يكلم هذا ويصيح على ذاك ويمازح الواحد ويعربد على الآخر. وفي هذه الضجة كان يسألني: ماذا كتبت وماذا عملت؟ فقلت له: لا أكتمك أني الآن لا أراني قادراً أن أتولى تحرير جريدتك، فإن رأيت أن تستعين بغيري ريثما أُرتب نفسي وأحوالي كان ذلك أولى وأفضل. ثم ذهبت بعد الظهر عند ابن خالتي، وجاء الخواجا يعقوب خوري ونظرنا في أمر الجمعية الوطنية وفي الخطة التي يجب أن تجري عليها، فنتمكن من الحصول على حقوق الطائفة قبل الدير. وكان في نية الخواجا يعقوب الخوري الإستعفاء فحثثه على البقاء ووعدته إذا كانت الجمعية غير قانونية الآن سعيت في تحويلها إلى صورة أخرى قانونية، فعدل عن الاستعفاء. خرجنا من عند يعقوب فنزلت إلى المطبعة. وكان في ودي أن أعود أمين في المستشفى الألماني فلم أتمكن، فاستكنت وتضاءلت وأحسست كأنني مذنب ذنباً عظيماً. وما أقبل المساء حتى رأيتني ذاهباً إلى بيت داود، فدخلت ذلك البيت الذي كان بيت الحكمة والأدب وهيكل الفضيلة ورواق الفلسفة، فازددت استكانة وخشوعاً. جلست إليّ تلك الأم المسكينة فحاولت أن أُلهيها عن حزنها لو وجدت إلى ذلك سبيلاً. وبالرغم عن إخفاء حزني وإمساك دمعي لم ألبث أن اغرورقت عيناي وذابت نفسي حزناً. ثم جاء الخواجا الفونس لونسو فقمت وجئت إلى البيت، فجاء عندنا الخواجا قسطندي الحكيم وأخته الآنسة روجينا فسهرنا إلى نحو نصف الليل. تكلمنا في أول السهرة عن أميركا، ثم استطردنا إلى الدستور والطائفة.

يوم الثلاثاء في ١٥ و٢ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الإستحمام والفطور ذهبت إلى المطبعة، فوجدت الخواجا جورج يشتغل بصف جريدته القدس. دفعت إليه مقالة قصيرة عن خطة الجريدة. بعد الظهر مررت على الخواجا جورج الخوري وجلست إليه، وكان هناك بعض الشبان فلم أحب أن أتكلم، فقمت وقلت له أن يزورني الساعة الثانية والنصف. جئت إلى

(٥٤) جريس العيسى (١٨٦٠-١٩٤٣): من رواد الصحافة الفلسطينية، هاجر مع أخيه يوسف العيسى إلى دمشق العام ١٩٢٠، واصدروا صحيفة «ألف باء» على اعتبار «أن العرب لا يعرفون سوى الأحرف الأولى من أبجديات السياسة»، على حد تعبير يوسف جريس. صدرت الصحيفة حتى اعلان الوحدة السورية المصرية في شباط ١٩٥٨.

البيت فتغديت ونمت. جاء سعيد الطوري فقصصت عليه أخبار محمد عيسى الطوري. ثم جاء الخواجا جورج فذهب سعيد الطوري، فعبأنا أراكيل وجلسنا نتكلم عن الطائفة. يهمني أن أجمع كلمة الشبان، وليس لذلك إلا أن أنشئ لهم جمعية يكون جورج شيخها ليكونوا عبارة عن جند الطائفة، وأشتغل أنا مع بعض أبناء الطائفة لنكون مثل رجال سياستها. أرسل إليّ يعقوب الخوري يستدعيني، فذهبت إليه فأطلعني على المادة المئة والحادية عشرة من القانون الأساسي باللغة التركية، ومؤداها أنهم سيضعون نظامات [= أنظمة] خصوصية لانتخاب أفراد مجلس الملة. حثثته مع يعقوب بن خالتي للإجتماع مرات متوالية لدرس المسألة، والسير فيها بجدّ ونظام. بعد العشاء ذهبت إلى غرفة الجمعية الوطنية لحضور جلسة اللجنة. فطلبوا مني أن أعطيهم ملاحظاتي على المدرسة. فقلت لهم: أنطلب إصلاح المدرسة مثل فضل من الدير أم مثل حق؟ فقالوا: مثل حق، فقلت لهم: على أي شيء نستند؟ فقالوا: على ما لنا من الحقوق، فقلت لهم: إذاً يجب أن نعرف تلك الحقوق فنطلبها. وكان من رأي جورج زخريا أن نبدأ الآن بالمدرسة ثم نتدرج في طلب الباقي. وقد لاحظت منه أن طلب حقوقنا كلها يستغرق وقتاً طويلاً ونفقات طائلة ويصرفنا عن الاهتمام بالأرامل والفقراء. استغرقت أبحاثنا وقتاً طويلاً فقررنا أخيراً أن نتناظر في الجمعية العمومية، ونترك الحكم لهم.

يوم الأربعاء في ١٦ و٣ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الإستحمام والفطور جاء يعقوب بن خالتي، فقال: هل رأيت المضابط؟ فقلت له: لا، فقال: الرأي أن تراها وتسعى في إيقاف توقيعها لئلا يكون هناك تلاعب. ذهبت إلى المطبعة فأصلحت مسودة الوجه الأول من الجريدة. ثم التقيت بالدكتور الياس حلبي فذهبت معه إلى إدارة البريد، لأسأل عن حوالة عيسى العيسى فلم ترد بعد، ثم ذهبت إلى إدارة البوسطة الفرنساوية فلم أجد شيئاً. جئت معه إلى البيت، ولكن عرجنا في الطريق على مخزن الخواجا ميخائيل اطليل، فقال: هل رأيت المضابط؟ فقلت: أنا ذاهب الآن. فذهبت مع الدكتور فرأيت أولاً أن الناسخ شوّه عبارتها بالتحريف والتبديل، فاستنكفت أن يقال: ليس في الطائفة من يحسن الكتابة. ثم رأيت أمراً آخر، وهو أهم في نظري، أن أسماء المنتخبين الأربعين لم ترد بحسب ما نالت من الأصوات، بل بحسب الوظائف؛ رأيت اسم جرجي زخريا، في مقدمة الأسماء وارداً على هذه الصورة: عزتلو جرجي أفندي زخريا ثم اسم تودر أفندي يانكو مسبوقاً برفعتلو، ثم بقية الأسماء بعضها مسبوق بأفندي وبعضها مسبوق بخواجا، فقلت: من أشار عليكم بهذا الترتيب؟ فقالوا: سألنا جرجي زخريا، فاعترضت لأنه تحقق عندي أن جرجي زخريا يريد أن يستخدمها مثل إعلان عن نفسه، فتوهم البعض أني أريد أن يكون اسمي في الأول، وأن غايتي تأجيل العمل لأرب في نفسي، فصاحوا وقالوا: هكذا

كتبنا وهكذا يكون، وكان جرجي الخوري هناك. فلما فهم اعتراضي هاج هائجه وأوشك أن يمزق المضابط بل المعترضين، وقال: لا تكون الأسماء إلا بحسب الأصوات، فتركتهم وأنا متأثر جداً. تغديت عند يعقوب. بعد الظهر ذهبت عند جرجي الخوري فعبأ لي أركيلة، فجاء بعض الشبان ثم جريس كتن وقال: ضعوا اسمي في الآخر، فقلت له: يجب على كل واحد أن يقول هكذا، ولكن إذا قال الواحد ضعوا اسمي في الآخر، وجاء الآخر وقال ضعوا اسمي في الأول فذلك لا يكون. ثم جاء ابنه، وقال: أرى أنك تريد تأجيل العمل لأن لك ضلعاً مع جرجي الحمصي، فصحت فيه بصوت أرجفه وأرجف الحاضرين، وقلت له: إعرف ماذا تقول، فإن هذا إهانة لي، فجعل يعتذر وجعل الحضور يخطئونه ويوبخونه، فسحب كلامه فتصافحنا.

يوم الخميس في ١٧ و٤ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور، أرسل إلي جرجي الساعاتي تلميذ مدرسة المصلبة أنه يحب الاجتماع بي الساعة الثامنة. جاء وما كاد يستقر به المقام حتى جاء جرجي زخريا فقام جرجي الساعاتي وذهب. سمع جرجي زخريا بحديث أمس فخشي أن أنتقده في اجتماع هذا المساء، ثم خشي أن أطلبه للمناظرة في الموضوع الذي اختلفنا فيه في اجتماع اللجنة يوم الثلاثاء الماضي فأُظهر ضعفه، فجاء اليوم يزورني. ما أعجب هذا الرجل، إذا أحسَّ من نفسه بقوة شمخ وتمرد، وإذا أحس بالضعف ذل واستكان.. قال: أنا معك ونحن الإثنان مسؤولان. فلنعمل بجد. واقترح عليّ أن نؤلف عمدة [= قيادة] سرّية من الأربعين، لتبحث وتتروى على حدة وتدير المجلس. دخل علينا الدكتور الياس فأشركناه في البحث ثم قمنا وذهبنا. مررت على دكان جورج الخوري فلقيت يعقوب ابن خالتي مع جماعة من شبان الطائفة يتباحثون في شؤون المضابط والطائفة، فعبأوا لي أركيلة فقلت لهم: دعوا هذا الأمر لاجتماع هذه الليلة. ذهبت إلى منزل داود فلقيت عفيفة، ولم يكن معنا وقت لنبدأ بالدرس فأجلناه للغد، وتواعدنا أن نذهب بعد الظهر لنعود أمين. رجعنا إلى البيت فتغديت ونمت. بعد الظهر أخذت ميليا وعفيفة وذهبنا في عربة، فمررنا على الدكتور الياس فأخذناه وذهبنا عند أمين، بقينا عنده إلى الساعة الخامسة. في المساء وقفت أمام مخزن الخواجا الياس مشبك، فنظرت إلى البنك [= بنك كريديليونة، حيث عمل داود] فهاجني الحزن فجعلت مدامعي تنحدر. جاءت عفيفة عندنا فتعشت معي، أوصلتها إلى البيت ثم ذهبت إلى الاجتماع. كنا في أول الأمر فريقين؛ فريقاً يريد التسرع وفريقاً يريد التروي والتثبت. بعد الأخذ والرد قلت: نحن متفقون في الغاية وهي الوصول إلى حقوقنا، فالمتسرع يجب أن يتمهل والمتروي يجب أن لا يتردد كثيراً. ثم قام الخواجا متري تادرس، وقال: بما أن الخواجات خوري وفراج حاضران فأنا أحب أن أعيد اقتراحي الماضي أمامهما، وهو أن لا يكون في الاجتماع مستخدمون عند الأجانب، لئلا يتشبث الدير بذلك ويعرقل مساعينا، فقمت

وقلت: هذا رأي قديم كنا نتخوف منه، كان يبثه البعض بيننا لمآرب في النفس، فقام اليعقوبان وطلبا الاستعفاء فرفض الجمهور استعفاءهما، ثم قال الخواجا تادرس، الذي قال لي ذلك هو جورجي حبيب، فقام جورجي يؤيد هذا الاقتراح فصحت فيه بحدة، وقلت له: أنا أعرف مصدر هذا الفكر، فالأولى أن لا نتكلم في هذا الموضوع. ثم أعاد الخواجا خوري استعفاءه وجاء ليخرج، فعارضه ابن دعدس قسطندي، وقال: لا تخرج منه وسبَّ دينه، فاضطرب المجلس فأحضروا قسطندي وقبَّل يد الخواجا يعقوب.

يوم الجمعة في ١٨ و٥ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور وكتابة وقائع أمس، خرجت فمررت على دكان جورج الخوري فجاؤوا وأروني صورة المضبطة فوجدتهم قد وضعوا يعقوب خوري ويعقوب فراج بين أصحاب الرتب، ووضعوا اسمي قبل ابرهيم [كذا] شماس، فقلت لهم: يعقوب ويعقوب ليسا من أصحاب الرتب فضعوهما في المحل الذي يقتضيه عمرهما، وابرهيم [كذا] شماس أكبر مني فضعوه قبلي. سمعت اليوم أنهم يتهمونني تهماً مختلفة، منها أنهم أشاعوا أن الدير لما سمع بمجيئي أرسل إلى يافا من يستقبلني ويرشوني. وقد رأيت من اجتماع أمس أن الطائفة لم يعد في الإمكان خدمتها. مجلس مؤلف من أربعين مختلفين في المقام والأقدار والأخلاق والافهام جمعوا فيه بين المفكرين والجهال، والمهذبين والرعاع، والكبار والأولاد. وقد بلغ الأمر من الجهال والرعاع أنهم لا يحترمون المفكرين والمهذبين، بل يهينونهم ويتحكمون فيهم ويأمرونهم ويشيرون عليهم، ويريدون أن يستدرجوهم للمشي على الخطة التي يرسمونها هم، ومن وراء هذا المجلس، جمعية أخرى مؤلفة من جهال الطائفة ورعاعها للمراقبة على المجلس، فإذا تراءى لهم أو ألقى في سمعهم بعض ذوي الأغراض أن فلاناً مرشوٌّ أو ساعٍ في إحباط مساعي المجلس تصدوا له وأهانوه. طائفة هذه حالها من يستطيع أن يخدمها؟ ذهبت إلى المطبعة فقلت لجورجي حبيب أن لا يعتمد عليَّ في تحرير جريدته ريثما أجد شغلا مهماً يكون قوام معاشي. اجتمعت باليعقوبين [خوري وفراج] فوجدت أنهما يريدان أن يستعفيا من المجلس، وأما أنا فقررت أن أستجمع بقايا صبري لحضور جلسة أخرى؛ فإذا رأيت الحال لا يزال على ما هو عليه استعفيت وتركتهم يفعلون ما يشاؤون. ذهبت إلى البريد العثماني فاستلمت الخمس ليرات المرسلة من عيسى العيسى. قررت أن أذهب غداً بعد الظهر إلى بيت جالا لمواجهة الرئيسة بخصوص الشغل. لقيت في الطريق مستر سايكس فسلمت عليه. التقيت بجرجي زخريا فقال: من عنيت أمس بأنه مصدر الفكر بفصل المستخدمين عند الأجانب؟ فقلت له: لا أجيبك على هذا السؤال الآن، وإذا أردت الجواب عليه فليكن في مجلس الأربعين أمام الجميع، ثم لماذا أخذت الكلام على نفسك؟ فقال: لأني كنت أقول في الأيام الماضية أن نفصل المستخدمين عند الأجانب عنا، وأما اليوم فأنا أعتقد اعتقادك أن ذلك مذهب قديم لا محل له الآن. صدرت جريدة القدس لصاحبها جرجي حبيب.

يوم السبت في ١٩ و٦ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الإستحمام والفطور وكتابة وقائع أمس، راجعت دفاتري المدرسية في القراءة والصرف والنحو والإنشاء والقصائد، ثم حملتها وذهبت إلى بيت داود لأعلم عفيفة، فرأيت من معرفتها وخطة تعليمها ما سررت له كثيراً، فقررنا أن تكون دروسنا من الآن فصاعداً قسمين؛ قسماً لإعداد دروس لتلميذاتها على اختلاف صفوفهن، وقسماً لها نتابع فيه الدرس إلى أن تملك قياد اللغة. دعوتها لنذهب إلى بيت جالا. نوينا أن نأخذ حميراً وبعد أن دفعت الأجرة رأيت أن الحر شديد، فتركت الحمير واستأجرت عربة وذهبنا. واجهنا [= قابلنا] الرئيسة، فأبلغتها قصدي من إبقاء أختي في البيت بعد الآن، وشكرت فضلهم كثيراً فظهر لي أنها استاءت من ذلك، فاستمهلتها يوماً، فقالت: إبقَ على عزمك، فقلت: نعم، كأنها عنت أن تحملني على الندم وبالتالي على الرجاء فلم أدع لها سبيلاً إلى ذلك، ولم أفاتحها بطلب شغل عندهم لئلا تشمخ عليّ وتردني بالخيبة، ورجعت وأنا منقبض الصدر مخلوع الجنان واليأس يتمثل أمام عيني. ذهبت في المساء إلى مجلس الملة. رأَسنا علينا الدكتور الياس. نظرنا في أمر الكهنة فرأيت جرجي أفندي يشدّد في استدعائهم واسترضائهم وإشراكهم معنا في أعمالنا، وتصويتهم في قراراتنا، فخشيت أن يكون قصده أن يكونوا من حزبه وعددهم ستة فيرجح لهم رأيه ويكسب الأكثرية، فعارضت في ذلك بقوة فلم نقرر شيئاً بخصوصهم، بل أجلنا ذلك إلى الإجتماع التالي. ثم لما رأى جرجي زخريا أن تودر تودوري وبعض الأعضاء متغيبون، فاغتنم الفرصة ليضرب تودر يانكو ويبيض وجهه أمام الطائفة، فقام وحث الحضور على التفاني في خدمة الطائفة وملازمة الحضور وأن لا ندع أغراضاً شخصية تمنعنا منه، ففطنت لقصده فقمت ورددت عليه بقوة [فأخذ] يبتسم لي ويسايرني ويلاطفني فيحسب أنه ملكني وأمن اعتراضي. ساء ما توهمت يا جورجي، فلو كنت أخي ابن أمي وأبي وحدت عن الحق شعرة واحدة تبرأت منك وتصديت لك...

يوم الأحد في ٢٠ و٧ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور زارتنا المعلمة نعمة القسيس لأذهب معها وأشتري لها شنتة. أخبرتها بما جرى بيني وبين الرئيسة بخصوص أختي، فقالت: إذا كانت التلميذة ناجحة فإن الرئيسة تحب أن تكون معلمة، وإذا كانت متأخرة في دروسها، فإذا طلبت الخروج من المدرسة في أي سنة من سني المدرسة فإنها لا تمانع. وبما أن ميليا كانت ناجحة جداً، فإن الرئيسة كانت تحب أن تكون معلمة، فسرني ما سمعت من نجاح أختي. طلبت إليّ أن أتعرف بأخيها وأساعده في ايجاد عميل له في نيويورك يشتري منه الأشغال الصدفيّة فوعدتها بذلك. ذهبت معها واشتريت لها شنتة. ذهبت ميليا مع يعقوب ابن خالتي وعائلته إلى ارتاس. جاءت أم محمد عيسى الطوريّة، وكلفتني بكتابة رسالة إلى ابنها، فتأخرت في البيت إلى الساعة

الرابعة ثم قمت وذهبت أعود أمين. لقيت في الطريق الخواجا حنا ياسمينة فذهب معي، بقينا هناك إلى الساعة السادسة، ثم ذهبت أسلم على الخواجا يوسف كرايديان الذي جاء أمس من أميركا، سألته عن أخي يوسف، فقال: ذهب بعد سفرك من أميركا إلى فيلادلفيا، وسألته عن أسعد حشمة، فقال: تركته على نية السفر وربما جاء في الأسبوع القادم. رجعت إلى البيت فتعشيت. جاء عندنا الخواجا شكري سلفيتي وكنت قد لقيته في النهار، فقال لي: أنا عازم أني [كذا] أمزق المضابط فاستمهلته لأباحثه في ذلك، فجاء الليلة فأقنعته أن يعدل عن ذلك الآن إلى أن يظهر لنا الغث من السمين، فاقتنع. ثم قمت وذهبت إلى بيت ابن خالتي يعقوب لأحضر ميليا. وبعد أن أقمنا نحو نصف ساعة خرجنا وجئنا من باب الخليل، فتذكرت حلمي الذي رأيت نفسي فيه ماراً من أمام الباب الجديد أنا وميليا تعانقني وأعانقها، فلم أعد أعرف هل أنا في حلم أم في يقظة. التقيت اليوم بالدكتور سبور وامرأته وعدتهما أن أزورهما قريباً.

يوم الاثنين في ٢١ و٨ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فذهبت إلى منزل فيضي أفندي العلمي رئيس البلدية لأعلم ولده موسى، فقيل لي: إنه في بيت لحم، فرجعت إلى البيت، ولكن مررت على دكان جورجي الخوري فأمسك بي وعبأ لي أركيلة فجسلت أبين له الخطة التي يجب أن نسير عليها. سألني في أي شيء زارك جرجي زخريا، فقلت له: إما أن يكون قصده أن يلوث اسمي أمام الطائفة بزيارته لي وإما خوفاً من أن أطلبه للمناظرة أمام الأربعين فأظهر ضعفه، فقال: هذا الذي حسبناه. ذهبت علمت عفيفة، ثم رجعت إلى البيت فتغديت، بعد الغداء جاء الخواجا الياس سلفيتي. فهمت منه أنه سحب استعفاءه وعزم على الحضور هذه الليلة فرجوته أن يمسك طبعه. بعد أن ذهب نمت. بعد النوم قيل لي: إن الخواجا قسطندي الحكيم مع شخص آخر ينتظرانك، فخرجت فلقيتهما والشخص الآخر هو الدكتور اليان حلبي خريج مدارس روسيا، وصديق الخواجا بندلي الجوزي، فذهبنا إلى قهوة أنيستي. . . فدخلنا في أبحاث عمرانية لذيذة آنست منه اقتداراً فيها، فطلبت منه أن يكاتب جريدة القدس، فقمنا وذهبنا إلى الإدارة وعرفته بالخواجا جورج، واتفق معه أن يكاتب الجريدة فيدفع له عن كل سطر عشرين بارة. تفارقنا على بناء [كذا] أن نجتمع بعد انفضاض مجلس الملة في بيت الخواجا قسطندي الحكيم. ذهبت إلى المجلس فترأست الجلسة. حضر الكهنة إلا الخوري خليل وأمضوا المضابط، وكان من رأي الأكثرية أن يكون لكل واحد صوت. ثم طلب جورجي زخريا سليم القاري للمناظرة فاعتذر أنه لم يستعد لها الاستعداد التام، وطلب أن يمهلوه إلى الاجتماع الثاني، ثم طلبني جرجي زخريا للمناظرة، وموضوع المناظرة: هل نطلب حقوقنا دفعة واحدة أو بالتدريج، فقطعت عليه كل الطرق. تكلمنا نحو ثلاث ساعات متوالية حتى جف ريقي. ولما ظهر ضعفه للحضور قام ميخائيل اطليل، وقال له بحدة: لا تهوّل على الطائفة، وهذا الكلام لا نريد أن نسمعه، فإن كان عندك غيره فابرزه. ثم

اقترح أعضاء المجلس أن يستدعوا جورج ساعاتي تلميذ مدرسة المصلبة، ليسألوه عما قرأ في التواريخ اليونانية عن حقوقنا، فجاء.

يوم الثلاثاء في ٢٢ و٩ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فلقيت الدكتور الياس حلبي، فأخذته إلى بيت داود ليفحص عفيفة ففحصها فوجد أعصابها ضعيفة فوصف لها دواء، وأشار عليها بالاستحمام بالماء البارد كل يوم. اعتذرت إليها أني لا أستطيع اليوم أن أعطيها درساً. من هناك صعدنا إلى منزل المعلم نخلة فلم نجده، فرجعنا إلى البلد وجئنا إلى البيت حوالي الظهر، فأكلت ثم ذهبت إلى مخزن الأميركان واعتذرت إلى الخواجا جون أني لا أستطيع أن أعطيه درساً اليوم أيضاً، لأني لم أنم ليلة أمس. رجعت إلى البيت ونمت. بعد النوم جاء المعلم نخلة مع المعلم الياس مرمورة. عدت إلى سماع أحاديثه العذبة اللذيذة المفيدة، فليس لي بعد داود من أستشيره وأسترسل إليه غير المعلم نخلة. خرجنا وذهبنا من باب الخليل ومشيت معهم إلى باب العمارة الروسية الشرقي، فلقيت الخواجا يعقوب الخوري خارجاً، فودعت المعلم نخلة وسرت معه. حادثته بخصوص الإستعفاء فوجدت منه إصراراً عليه، لأنه لا يرى أن مجلسنا قانوني. حدثته عن وقائع جلساتنا وما دار بيني وبين جورج زخريا في المجلس. وعلى انفراد قررنا أن نؤلف لجنة سرية مؤلفة مني ومنه ومن يعقوب ابن خالتي وقسطندي تادرس والدكتور الياس حلبي لدرس حقوق الطائفة، ووضع الخطة التي يجب أن نسير عليها واتخاذ الوسائط لتنفيذ ذلك في المجلس. رجعت إلى البيت وجلست وراء الطاولة، وكتبت رسالة إلى يوسف أخبرته فيها بالوفيات وما تم من خطبة أو زواج. وكتبت عدة كارتات إلى أميركا وبلاد الإنكليز، واعتمدت أن أكمل الرسائل والكارتات في هذا الأسبوع. لقيت اليوم أبا خليل الدبدوب، فسألني عن ابنه في نيويورك، ثم كلفني أن أترجم له قطعة إنكليزية تشهد له بحسن المعاملة وسلامة الإسم، وفيها بيان ثروته لتصدق عليها بلدية بيت لحم وبلدية القدس، ثم تمضى [= تختم] من قنصل أميركا، ليبعث بها إلى ابنه خليل وابن أخيه جريس ليبرزوها عند الاقتضاء.

يوم الأربعاء في ٢٣ و١٠ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الإستحمام والفطور، ذهبت فعلمت موسى العلمي، ثم ذهبت إلى بيت داود، وكانت أختي ميليا قد سبقتني إليه فعلمتها مع عفيفة. ثم ذهبت فتغديت وبعد الغداء علمت الخواجا جون الأميركاني. رجعت إلى البيت فنمت. سمعت أن بعض أبناء الطائفة طلبوا من البطريرك أن يعين اثنين من الكهنة واثنين من الشعب لاستقبال المتصرف فلم يقبل، فما كان من الشبان إلا أن أخذوا عَلَم الحرية، وخرجوا موكباً كبيراً ومعهم الطبول والزمور، فلما جاء المتصرف صاحوا: ليحيا صبحي بك وليسقط [البطريرك] داميانوس. لقيت

حسين سليم الحسيني[٥٥]، وطلبت منه أن يعين لي يوماً أجتمع به فيه للوقوف على رأيه في ما نعمل، فقال: غداً بعد الظهر. زارتني المعلمة بلاجيا دافش مع زوجها، وقالت: إن كتابها قد تم طبعه وإن جرجي حبيب أمسكه عنده لأجل أربع ليرات، فوعدتها أن أتوسط عند الخواجا جورجي أن يعطيها الكتاب. ذهبت مساء مع جورجي زخريا إلى بيت يعقوب ابن خالتي على أمل أن نجد عنده الخواجا يعقوب خوري فنراجعهما في أمر الإستعفاء من مجلس الملة، فلم يحضر الخواجا خوري فقررنا أن نرجع مرة ثانية. ذهبنا إلى المجلس فترأسه، وكان من رأي الأكثرية أن نقف في المناظرة عند الحد الذي وصلنا إليه أنا وجورجي زخريا، وقررنا بالإجماع أن نطلب حقوقنا كلها دفعة واحدة. دعينا خمسة عشر شخصاً لمواجهة البطريرك وتقديم المضابط له، منهم تودر يانكو ولم يكن حاضراً فقام جرجي زخريا، وقال: أنا مستعد أن أذهب، ولكن إن تخلف أحد عن الحضور فلا أذهب، وكان يعني تودر يانكو، فخشيت أن يكون ذلك عن اتفاق سرّي بينهما يقصدان به تفريق الكلمة، كما فعلا في مسألة صهيون، فقلت للحضور: لو فرضنا أن ذلك الشخص المجهول تخلف عن الحضور فامتنع جرجي أفندي بسببه، فهل يذهب البقية بدونهما أم لا؟ ففطن جورجي أفندي لكلامي وخشي أن يفطن الحضور لملاحظتي، فقام وقال: لست أقصد من ذلك إلا أن نكون يداً واحدة.

يوم الخميس في ٢٤ و١١ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور أحسست بارتخاء لم أقوَ معه على إعطاء دروس، فذهبت واعتذرت إلى تلاميذي ثم ذهبت عند المعلم نخلة. جلست عنده إلى الظهر تكلمنا في مواضيع مختلفة ورد فيها ذكر داود مراراً، وقد أثار حزني قول داود وهو على فراش المرض قبل موته ببضعة أيام للمعلم نخلة: هل تنازل خليل عن المبدأ؟ فدمعت عيناي... ذكرت للمعلم نخلة أني مجتمع اليوم بعد الظهر بحسين أفندي سليم الحسيني للبحث معه في الشؤون الحاضرة، فقال: أنا أحضر. جئت إلى البيت فنمت، وبعد النوم لقيت حسين أفندي، ثم جاء المعلم نخلة فذهبنا إلى قهوة أنيستي وأخذنا نتداول أحاديث مختلفة، فوجدت أنه يطمع أن يكون من المبعوثين[٥٦]. ثم قمنا من هناك وذهبنا إلى منزل المعلم نخلة واستتبعنا الحديث، ولكن لم أجد عنده غناء كثيراً. ذكرنا جمعية العلماء[٥٧] كما يقول المسلمون، وخشينا أن يكون من غايتها المحافظة على التقاليد القديمة التي من شأنها أن تثير العداء والشقاق بين الناس، فخطر لنا أن نؤلف جمعية من المسلمين

---

٥٥ - حسين سليم الحسيني: رئيس بلدية القدس ابان سقوط القدس بيد الانجليز.
٥٦ - المبعوثين: هم المنتخبون كممثلين في مجلس المبعوثان في الاستانة.
٥٧ - جمعية العلماء: جمعية خاصة بعلماء الدين المسلمين.

والنصارى لمحاربة الروح القديمة، وتطعيم الناس بالدستور وإشرابهم الروح الجديدة. رجعت إلى الغرفة وسهرت قليلاً، ثم نمت.

يوم الجمعة في ٢٥ و١٢ أيلولٍ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور ذهبت علمت موسى العلمي. ثم رجعت إلى البلد لأعلم عفيفة، فوجدت أن الخمسة عشر عضواً من الأربعين المكلفين بمواجهة البطريرك على أهبة الصعود فصعدنا، استقبلنا البطريرك وكان معه اثنان من رجال الدير ولعلهما رقيبان عليه ليعرفا ماذا يقول من عنده. قدّم الخوري خليل المضبطة وشرح له فحواها. قال البطريرك: منذ أربعة أو خمسة أجيال جرت الكنيسة على سياسة معروفة اقتضتها الأحوال والظروف، ولا بد الآن بعد الدستور أن تتغير هذه السياسة، ولكن لا نعرف كيف ستكون حتى يلتئم مجلس المبعوثين، ولذلك لا أستطيع أن أعطيكم جواباً لا سلباً ولا ايجاباً، والذي يظهر لي أنكم تسرعتم وكان الأولى أن تنتظروا ريثما يلتئم مجلس المبعوثين، على أنه ربما استطعنا أن نبدأ بالإصلاح تدريجاً. هنا تأكدت أن فكرة طلب حقوقنا بالتدريج، التي كان ينادي بها جرجي زخريا إن هي إلا فكرة الدير. قلنا له: لا نريد أن نمس حقوق الدير أو نسلبها منه بل نريد حقوقنا المهضومة منذ أربعة أو خمسة أجيال، ومهما حدث من التغيير في الدستور فلا يمس هذه الحقوق. فقال البطريرك: أمهلوني ريثما أراجع المجمع المقدس(٥٨). ثم قال: لاحظت منذ رقيت الكرسي الأورشليمي أن العلائق بين الدير والطائفة في فتور وتراخ؛ يعرّض بما فعله بعض الشبان يوم الأربعاء وهتافهم يسقط دميانوس. فقلت له: إن لهذا الفتور اسباباً كثيرة مهمة لا يذكر بجانبها هذا السبب الطفيف، وهي لا تزول بمجرد الملاطفة والمداهنة بل لا بد من النزول إلى أعماقها، وذلك يتم إما بأن نتناظر في اجتماعات خصوصية أو على صفحات الجرائد، فأشفق من ذكر الجرائد، وقال: لا لزوم لذلك.

بعد الظهر زارني ابن الدبدوب من بيت لحم فدفعت له ترجمة القطعة التي كلفني بها أبوه، فتناول ريالاً مجيدياً ليدفعه لي أجرة ترجمتها فرفضتها، قلت له: نفسي تحدثني أن أنشئ مدرسة في بيت لحم، فارتاح لهذا الفكر ووعد أن يطلع أهل بيت لحم عليه.

في المساء ذهبنا إلى المجلس فترأسته للمرة الثالثة، وكان جرجي زخريا غائباً، فقصصت على الحضور حديثنا مع البطريرك وحثثهم على أخذ الأهبة والاحتياطات اللازمة والثبات على الطلب، واتقاء الدسائس التي لا بد أنهم يحرصون على افشائها بيننا...

(٥٨) المجمع المقدس: البطريرك والمطارنة الذين يجتمعون للتداول في شؤون الكنيسة.

يوم السبت في ٢٦ و ١٣ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت لأعلم موسى العلمي. سمعت أنه قد مات يعقوب الكردي وابنه سيرافيم فتأسفت، وعولت أن أحضر جنازة يعقوب الكردي لأنه كما بلغني أنه بكى بكاءً مراً يوم مات داود. علمت موسى. لقيت سليمان أفندي جاسر وأطلعته على عزمي على انشاء مدرسة في بيت لحم، فشجعني على هذا الفكر ووعد أن يمهد الطريق أمامي، وأكد لي نجاحي، بل قال: أنا شريكك فيه. سألت الأميركان إن أنشأت مدرسة واحتجت إلى معلم للغة الانكليزية، فهل أجد عندهم من يساعدني. فوعدوني أن يعطوني الجواب قريباً.

تغديت فنمت وبعد الغداء جاء زوج المعلمة بلاجيا وقال: ذهبنا اليوم عند جورجي حبيب فلم يشأ أن يعطينا شيئاً من نسخ الكتاب، فاستأت جداً وأرسلت إليه كارتاً أقول فيه أن يرسل من عنده من يحمل إليه مكتبتي بأسرها، لتكون رهناً عنده إلى أن نفيه أجرة طبع الكتاب.

زرت المعلم نخلة فوجدت عنده سعد الدين أفندي الخليلي، وكانا يتكلمان في تأسيس جمعية سريّة لمراقبة الجمعيات المختلفة التي تأسست في القدس بعد إعلان الدستور، منها جمعية الاتحاد والترقي وجمعية الفلاح وجمعية تنوير الأذهان، لئلا يتخذها ذوو الأغراض لمآربهم الشخصية، فدخلت معهما في الحديث وقررنا أن نجتمع مرة ثانية لاستئناف البحث والشروع في العمل، وكتابة بعض مقالات على صفحات الجرائد بهذا الخصوص.

اليوم كان ميعاد مجيء افتيم مشبك مع عروسه من بيروت، فخرج كثيرون لاستقباله ما عداي.

في المساء سهرت في بيت داود أنا وميليا، تكلمنا عن نهضة الطائفة الارثوذكسية، وعن اهتمام كل فرد فيها بالحقوق التي لنا قِبَل اخوية القبر المقدس(٥٩)، ثم استطردنا إلى ذكر الطائفة اللاتينية فلم نجد فيها رجلا يستحق أن يسمى رجلا، ثم ذهبت أنا وميليا وعفيفة وابنة خالها ألفونس لونسو وزرنا يعقوب الكردي. كنت أقدّر أن أتخشع عند رؤيته، ولكن رأينا العجائز جالسات حول النعش يسردن الأحاديث مما ذهب برهبة الموقف.

يوم الأحد في ٢٧ و ١٤ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الإستحمام والفطور خرجت لأحضر جنازة يعقوب الكردي، فذهبت إلى الكنيسة، ثم حملوا النعش وسرنا إلى المقبرة ولكن كأن قلبي قدّ من صخر فلم أتأثر.

نزلت إلى البيت فجاءت المعلمة بلاجيا وزوجها فوعدتهما أن أنهي المسألة غداً.

---

(٥٩) اخوية القبر المقدس : رهبنة يونانية مسؤولة عن المحافظة على الأماكن المقدسة والاهتمام بشؤون الطائفة الارثوذكسية في فلسطين.

ذهبت تغديت عند ابن خالتي، ثم رجعت إلى البيت فنمت، وبعد النوم ذهبت عند المعلم نخلة، فوجدت هناك سعد الدين أفندي [الخليلي]، فأخذنا نكتب رؤوس أفكار لمقالة نكتبها في احدى الجرائد اعتراضاً على طريقة انتخاب أعضاء لجمعية الاتحاد والترقي، وما كدنا نكتب بعض ملاحظات حتى دخل علينا الخواجا خليل رعد فطوينا الأوراق، وأمسكنا عن البحث.

رجعت مع خليل رعد إلى البلد، لقيت في الطريق الخواجا نخلة الددا فأخذته إلى قهوة انيستي، وهناك حدثته عن كل ما جرى في مجلس الملة، وقصصت عليه أخبار الخواجات سنونو في أميركا، فآنست منه تندماً على زواج أخته.

رجعت إلى البيت فتعشيت، وبعد العشاء أخذت ميليا وابن عمي سليم وذهبنا لنمر على عفيفة لنأخذها تسهر معنا عند ابن خالتي، ولكن لم تكن مستعدة فسهرنا عندهم، وسهر معنا الخواجا حنا ياسمينة، فذكر لي ما لقيه من اعراض أبناء طائفته حتى أصدقائه الذين كان يعتمد عليهم ويثق بهم عنه في حادثته مع الرهبان الفرنسيسكان. ثم استطردنا إلى ذكر داود، فجعل يقص عليّ من أخباره الأخيرة ما كاد يمزق قلبي، فأحسست بصداع خفيف فقمنا ورجعنا إلى البيت وأويت إلى الفراش باكراً.

يوم الاثنين في ٢٨ و ١٥ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور كتبت وقائع أمس، ثم حملت دفاتري وخرجت لقيت في الطريق المعلم جورج جدعون فقبلني وقبلته. ذهبنا إلى قهوة وجلسنا هناك نتحدث عن المدرسة، فآنست منه عدم رضى عما يجري فيها لعله يقصد سروري بذلك. ثم تركته وذهبت فعلمت موسى العلمي.

رجعت إلى مطبعة جرجي حبيب، فلقيت حنا أفندي العيسى فذهبنا إلى دكان جرجي الخوري، كلفته أن يكتب في مجلته [الأصمعي] «أنه قد بلغنا أن خليل السكاكيني عازم على طلب امتياز بجريدة» لتبلغ آذان أخوية القبر المقدس، فيحرصوا على رضانا. ثم ذهبت فعلمت عفيفة مع أختي ميليا.

بعد الغداء نمت ثم خرجت، فلقيتني المعلمة بلاجيا مع زوجها، فقالت: لنا كلام معك، فرجعت معهما إلى بيتنا فقالت: ذهبنا لنأخذ الكتاب فاستقبلنا أحد الصناع هناك بخشونة وفظاظة، ثم انهال عليّ بالمسبات والشتائم، وصارت تبكي، فلاطفتها وخفضت من جأشها، ثم ذهبت إلى المطبعة فقابلني جورجي حبيب معتذراً، وقال: أرسل الآن مئتي نسخة من الكتاب مع كتبك إلى بيتكم، وأما توفيق الجارية الذي صاح بالمعلمة بلاجيا وأهانها فظل معربداً، فأكبرت نفسي عن التكلم معه، وقررت متى خلصت من كتاب المعلمة بلاجيا أن لا أعود إلى المطبعة أبداً.

جاءني جورج حلبي فقرأت معه في كتاب النحو لأعدّه للامتحان فيه. ثم ذهبت فمررت على حنا أفندي العيسى في اللوكندة، فكلفني أن أكتب له عن جريدة القدس ومجلس الملة للروم الارثوذكس، ثم وعدني أن

يزورني مساءً مع اسعاف النشاشيبي. ذهبت لأرى المعلم نخلة فلم أجده في غرفته.

رجعت وبقيت في البيت إلى أن جاء اسعاف ولم يجئ حنا أفندي، لأنه كما قال اسعاف أحسّ بارتخاء، وبعد أن جلسنا في البيت إلى نحو الساعة التاسعة قمنا وجلسنا قليلاً في الأسواق.

يوم الثلاثاء في ٢٩ و ١٦ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور ذهبت علمت موسى العلمي، ومن هناك جئت إلى البيت فجاءني الخواجا جبرا ياسمينة يستشيرني في درس الحقوق، فأظهرت له أهمية هذا الدرس وصعوبته، وقلت له: يحتاج هذا الفن إلى صوت جميل وطلعة مهيبة ولسان طلق ولغة عالية وحجة قوية، وأشرت عليه أن يحضر المرافعات في مجلس الجزاء. ثم ذهبت علمت عفيفة. جاءتني رسالة من عيسى العيسى يوصيني خيراً بنجيب عازوري[٦٠] الذي عزم على الشخوص [= الحضور] إلى القدس لترشيح نفسه نائباً عن فلسطين، ويرى عيسى أنه أوفق من جرجي الحمصي ونجيب أبو صوان لأنهما من صنائع الرهبان. فعجبت لاهتمام عيسى بالعازوري وقد كان قبلاً يستثقله.

بعد الظهر جاء الخواجا الفونس لونسو قال: جاءتني رسالة من أشيل [سيلقي] يطلب فيها منا أن نقاوم العازوري الذي عزم على المجيء إلى القدس لترشيح نفسه فتحيّرت بين اشيل وعيسى، إلا أني رأيتني أميل إلى رأي أشيل، فأمليت على الفونسو رسالة قصيرة ضد العازوري لينشرها في الاهرام تحت اسم اشيل أو غيره. ثم جاء جورج الحلبي فأعطيته الدرس الثاني في النحو، ثم خرجت فلقيت الدكتور الياس فذهبنا معاً لنزور المعلم نخلة فلم نجده.

سمعنا أن أبا شكري حشمة أصيب بالفالج في فمه وأنه مريض جداً. رجعنا إلى البلد، في الطريق تحدثنا عن شغلي فقال: سمعت من مصدر ثقة أن رئيسة بيت جالا قالت: إن المعلم خليل يقول كثيراً ولا يعمل شيئاً، أي أتكلم دائماً عن أساليب سهلة قريبة، فإذا جئت أعلم لم يكن في أساليبي غناء. ثم تكلمنا عن مشروع المدرسة في بيت لحم فلم يكن من رأيه أني أنجح، بل حثني على طلب شغل عند مستر سايكس أو الدير، فتأثرت لكلامه وعزمت أن أهتم بالأمر وأوفيه حقّه من النظر قبل فوات الوقت، ولذلك عزمت أن أزور المعلم نخلة مساءً للبحث معه في ذلك. خسرتك يا داود.

جاءتني رسالة من الياس حيدر من أميركا يقول: إن الأحوال تحسنت وأنه ترك سعدى الحاج وخرج ليشتغل مع حنا حشمة، إلا أنها زارته في غرفته مع أخيها واستحلفته بصداقته لأخيها أن لا يتركها، فالتزم أن يبقى عندها لمدة قصيرة، وأن أخي يوسف ذهب مع نقولا البرغوت إلى فيلادلفيا وأن أحوالهما في تحسن،

---

٦٠ – نجيب العازوري: صحافي ومؤلف، له كتاب «يقظة الأمة العربية»، الذي نبّه مبكّراً إلى عمق وأبعاد الصراع العربي–الصهيوني.

ووجدت في رسالته رسالة أخرى من الدكتور كوتهايل يستغرب إبطائي في ارسال المسودات. زرت المعلم نخلة.

يوم الأربعاء في ٣٠ و ١٧ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور أكملت تصليح احدى مسودات كتاب الدكتور كوتهايل أستاذ اللغة العربية في جامعة كولومبيا في نيويورك، ثم خرجت وقد عزمت أن لا أعلّم أحداً اليوم، أولاً لأني كنت متألماً من الباسور، وثانياً لأتفرغ لتصليح المسودتين الأخريين من الكتاب المذكور، ولكن زارني قبل الظهر الخواجا رفلة الحمصي، ذكر لي أنه لما كان الخواجا سليم ملوك هنا، كان الأصدقاء مهتمين بإرسال دراهم لي لأرجع، فترك هو ثلاث ليرات انكليزية ليبعثوها إليّ ولا تزال عند الخواجا رفلة فعرضها عليّ فشكرته، وقلت: لا حاجة لي إليها الآن. ثم جاء بعد الظهر المعلم جورج جدعون، وبقي عندي إلى الساعة الثانية بعد الظهر، تكلمنا في مواضيع مختلفة منها أن الإنسان لا يصل إلى غايته إلا إذا كان بطبيعة متوسطة زحافة كما يقول الفرنساويون، وأما إذا كان شريفاً عزيز النفس فلا يصبر على ما يعترضه من العثرات، ومواقف الذل والدناءة، بل تبعثه حماسته وأنفته على محاربتها وتذليلها فتفوته الفرصة، ولذلك يرجع أكثر الأحيان بالخيبة، بينما الصغير النفس يصل إلى غايته لأنه يخفض جناحه ويطامن من أنفته. ثم ذكرنا الحرية والدستور فقلت له: إذا كنا خلصنا من استبداد الحكومة فإننا لا نزال تحت الرئاسة الروحية، ثم ذهب فنمت، وبعد النوم جاءت المعلمة بلاجيا فلم أزل ألاطفها وأطيّب خاطرها حتى سري عنها ما تجده من الاستياء من قيام عائلتها على طلب نصيبهم من الميراث، ومما لقيته في مطبعة جورجي حبيب من الإهانة. قلت لها: لا تعجبي إذا اهتموا بالميراث فإن المال تجربة كبيرة يقع فيها أشد الناس نزاهة وأعظمهم أنفة، ولا تهتمي بتطاول ذلك الوقح عليك، فإنه لا يستطيع أن يمس غبار حذائك. وفوق ذلك فقد تحمس أخي يعقوب وكال لهم بالكيل الذي كالوه. ثم خرجت عند الساعة الخامسة لأعود، مع الخواجا رفلة الحمصي، أبا شكري حشمة، فقيل: إنه مات اليوم بعد الظهر.

ذهبت في المساء عند المعلم نخلة فلقيت عنده الشيخ علي الريماوي، فقرأنا بلاغ جمعية الاخاء العربي[٦١]، ورد شبلي شميل عليها، فحمدنا خطتها، ثم ذهبت مع الشيخ علي إلى منزل حشمة للأخذ بخاطرهم.

---

٦١ – جمعية الإخاء العربي (العثماني): من مؤسسيها شكري الحسيني، وأنشئ فرع للجمعية في القدس، من أعضائه ومؤسسيه: إسماعيل الحسيني، وحنا العيسى، ونخلة زريق، وفيضي العلمي وخليل السكاكيني.

يوم الخميس في ١ ت١غ و ١٨ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فلقيت جرجي أفندي زخريا في مخزن الخواجا ابراهيم النصراوي، فتكلمنا عن المجلس الملِي ثم قمنا فمشينا، فقلت له في الطريق: سمعت أن الدير باذل وسعه في ترشيح جرجي الحمصي والدكتور فوتي للمبعوثان وأنا أرى أنك أولى، لأن في انتخابهما مصلحة الدير، فقال: أذهب إذا ذهبت معي مثل وكيل من قبل الطائفة. ثم ذهبت إلى كنيسة مار بولس حيث صلِّي على المرحوم يعقوب حشمة، ومشينا إلى المقبرة. لما اقتربنا من مقبرة الكاثوليك هاجني الحزن فاغرورقت عيناي. أبنه على القبر القس ابراهيم باز. أخذني المعلم نخلة وأراني قطعة أرض في طرف المقبرة تطل على الوادي، وقال: هنا أحبّ أن يكون قبري. رجعت إلى البيت فتغديت ونمت. بعد النوم جاء جرجي الحلبي فعلمته، ثم جلست فكتبت رسالة إلى عيسى العيسى قلت له فيها: دعني من السياسة فإن عندي من الشواغل والهموم ما يشغلني عنها.

في المساء ذهبنا إلى المجلس الملِّي. قرئت الوقائع وفيها ملاحظاتي على اجتماعنا مع البطريرك منها «أن طلب حقوقنا بالتدريج هو فكر الدير كما كنت أظن»، فقام جرجي زخريا واعترض على هذه الملاحظة، لأن فيها تعريضاً بتواطئه مع الدير فاشتد اللجاج بيني وبينه، حتى قام الأعضاء وفصلوا بيني وبينه فالتفت الى الحضور وقلت: هذه مسألة شخصية بيني وبين جرجي أفندي سنتحاسب عليها في غير هذا الموقف، وأما الآن فيجب أن نهتم بالمصلحة العامة، فذكرنا الانتخاب من الدرجة الثانية، فقلت: يجب أن نهتم به لئلا يكون بين المنتخبين من يكون لهم ضلع مع الدير، فقال جرجي زخريا: أنا أقترح ترشيح المعلم خليل لذلك، فقلت: وأنا أقترح ترشيح جرجي أفندي أيضاً واتفقنا أن نرسل في الطائفة من ينبههم إلى ذلك، ثم ذكرنا الانتخاب للمبعوثان، فقلت: الدير ساع في ترشيح أشخاص من طرفه ليخدموا مصلحته فيجب أن نتلافى ذلك ونرشح من يخدم مصلحتنا، ولست أرى أوفق من جرجي أفندي لذلك، فراق الأعضاء إخلاصي في رأيي وإن كنت نافراً من جرجي أفندي، فقام أحد الأعضاء وقال: ضع يدك في يد جرجي أفندي واذهبا كلاكما، فقلت لهم: أنا لا أعرف اللغة التركية وإذا استطعنا أن نرشح جرجي أفندي فحسبنا، ثم انفض المجلس على بناء أن يذهب الوفد غداً لمواجهة البطريرك لأخذ جوابه...

يوم الجمعة في ٢ ت ١غ و ١٩ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور ذهبت إلى المحطة فودعت المعلمة بلاجيا وأمها وزوجها. لقيت هناك جرجي زخريا، نزل معي إلى البلد في العربة. ذهبنا إلى دكان جرجي الخوري ثم نزلنا إلى كنيسة مار يعقوب فتكامل عدد الوفد، فصعدنا إلى البطريركية. قال البطريرك: قرأت المضبطة وقابلت بين مطالبكم فيها وبين منطوق المادة المئة والحادية عشرة، فلم أر اتفاقاً بينهما. ثم قال: إن الأماكن المقدسة عمومية لجميع الأرثوذكسيين

في العالم، وأن الذين سفكوا دماءهم وأنفقوا أموالهم وضحوا ضحايا كثيرة في سبيل حفظ هذه الأماكن أولى بالمناظرة عليها، وكرّر قوله: في المرة الأولى لا بد أن مجلس المبعوثان يغير في القانون الأساسي، فالأولى أن ننتظر التئامه لنرى ماذا يحدث من التغيير، ثم اقترح أن نؤلف لجنة من قِبلنا ولجنة من قبله لدرس حقوقنا بمحبة وتعقل، فلم أتمالك أن ضحكت لقوله بالمحبة، فقلت له: بالمحبة المتبادلة بيننا عادةً؟. خرجنا لنعطي الجواب للمجلس ليرى رأيه في اقتراح البطريرك. ثم جئت مع جرجي أفندي زخريا والدكتور الياس حلبي إلى بيتنا ونظرنا في المسألة، فقررنا أن نكتب للأبرشية[٦٢] لتتضاعف قوتنا، وأن نستأجر محلاً يسع الطائفة كلها للخطابة فيها وتوحيد كلمتها وإشرابها كره اليونان، وأن نؤسس جمعية مؤلفة من خمسين شخصاً ليكونوا عضداً للمجلس المحلي لتنفيذ آرائه في الطائفة، فتفطنت أن فكرة تأسيس جمعية المراقبة التي مر ذكرها في وقائعي هي من جرجي زخريا، ويأتيك بالأخبار من لم تزود!.

بعد الظهر علمت جرجي الحلبي، وكتبت رسالة إلى الياس طرزي، وخرجت فلقيت الخواجا يعقوب العرب، فدفع إليّ رسالة باللغة الانكليزية وردته من الخواجا الذي يسافر معه، يخاطب فيها الأمة العثمانية وينصحها بعض نصائح، فقرأتها على المعلم نخلة وحنا العيسى فاستحسناها جداً، وقررنا أن نترجمها وننشرها في الأصمعي، ثم ذهبت مع جرجي أفندي زخريا لمواجهة رئيس البلدية فيضي أفندي العلمي للاستفسار منه عن بعض مواد قانون الإنتخاب.

رجعنا للمجلس فقررنا بالإجماع انتخاب لجنة بالاقتراع، فكان لي أكثر الأصوات، ثم طرحنا للبحث أمر الكتابة إلى الأبرشية كلها، فكان من رأيي أن نكتب قبل التئام اللجنة، إلا أن الأكثرية ذهبت إلى الكتابة بعد التئامها. كلفنا بعض الحضور بالتفتيش عن محل واسع لاجتماع الطائفة. واتفقنا أن ننشر وقائعنا في الجرائد.

يوم السبت في ٣ ت ١غ و ٢٠ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت قبل الظهر، فوجدت بعض أبناء الطائفة ساخطين على جرجي حبيب لأنه لم ينشر في عدد اليوم من جريدته مقالة كان قد أرسلها إليه بعضهم عن استبداد أخوية القبر المقدس، فقوي فيّ فكر طلب امتياز بجريدة لتكون لسان حال الطائفة. سمعت أن تودر أفندي يانكو يجرّب أن يكون من المنتخبين من الدرجة الثانية. دعاني الخواجا ميخائيل اطليل للغداء في مخزنه.

بعد الظهر زارني الخواجات يعقوب عرب وحنا ياسمينة، فحثثتهما على السعي في انهاض طائفتهما وبث روح الإستقلال والرجولية في صدور أبنائها وتحريرهم من سلطة الأكليروس[٦٣]، وأشرت عليهما بتأسيس جمعيّة، ووعدتهما أن أساعدهما بالفكر. ثم زارني الخواجا يعقوب خوري، فتكلمنا عن أعمال مجلس

---

٦٢ - الابرشية: منطقة كنسية.
٦٣ - سلطة الأكليروس: المقصود فئة الكهنة ورجال الدين في الكنيسة.

الملة وسعيه في ابطال ترشيح الدكتور فوتي وجرجي الحمصي. ثم كتبنا رؤوس أفكار لمقالة ننشرها في الجرائد نحث فيها الكرسي الأنطاكي [٦٤] أن يرفض ما يعرضه عليه البطاركة اليونان من رسم [= تنصيب] مطارنة يونان لبعض الأبرشيات في مقابلة [كذا] اعترافهم به. تواعدنا على محاربة اليونان. فإذا كانت الطائفة ترمي الآن إلى طلب حقوقها من أخوية القبر المقدس فإني ساعٍ منذ الآن إلى غاية أبعد من ذلك، وهي طرد هذه الأخوية من البلاد وتطهير الكرسي الأورشليمي من مفاسدهم وآثارهم.

خرجت فلقيت يوسف العيسى، فقصّ عليّ أنهم جمعوا الناس للعازوري ليخطب فيهم، ولكنه لم ينجح لضعفه في الخطابة والبرهان، ثم تكلمنا عن مجلس الملة، فقال: إن الأبرشية مستاءة من مجلس الملة في القدس لأنه لم يدعها للاشتراك معه، فثبت عندي صواب اقتراحي في مجلس الملة أن نكاتب الأبرشية قبل الشروع في العمل، وضعف رأي جرجي افندي زخريا في تأجيل ذلك إلى ما بعد التئام اللجنة، بل خشيت أن يكون ذلك منه بغية تفريق الكلمة خدمة لأغراض الدير.

سهرنا في البيت. جاء عندنا حنا العيسى واسعاف النشاشيبي وحنا ياسمينة.

يوم الأحد في ٤ ت ١ غ و ٢١ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فعرّجت على دكان جرجي الخوري فعبأ لي أركيلة، فمرّ الخواجا يوسف العيسى فدعوناه، ثم امتلأت الدكان من أبناء الطائفة ومن جملتهم جرجي زخريا، فتكلمنا عن اشتراك الأبرشية معنا، فكان من رأي يوسف العيسى أن نؤسس جمعيّة ندعوها الاخاء الأرثوذكسي، ثم نرسل من طرفنا شخصاً إلى يافا لتأسيس فرع لها هناك، ثم ارتأينا أن نعقد جلسة الليلة نكلف فيها الخواجا يوسف بإبداء رأيه في ذلك.

ذهبت تغديت عند يعقوب ابن خالتي ثم جئت إلى البيت فنمت. بعد النوم ذهبت إلى بيت داود فلم أجد أحداً فذهبت إلى بيت افتيم مشبك لأبارك له بالعرس. التقيت هناك بأصدقاء كثيرين فتذكرت داود؛ تركتني يا داود بدون صديق. بمن أثق وعلى من أعتمد وإلى منْ أرتاح؟. كلهم جبناء ضعفاء صغار النفوس ذوو طباع متوسطة زحافة. أكبر نفسي يا داود عن معاشرتهم والإمتزاج بهم. أشرف [أطِل] عليّ من الجوّ الأعلى [= السماء] لنعش معاً ولو فرق بيننا الموت إلى حين.. ثم ذهبت من هناك وزرت بيت سابا عبدو.

رجعت إلى البيت فتعشيت وبعد العشاء مررت على اللوكندة الجديدة فأخذت الخواجا يوسف العيسى وذهبنا إلى مجلس الملة فبسط أفكاره للجميع فاستحسنوها، وعقدت في نفسي أن أؤلف أنا هذه الجمعية، وانتدب لها نخبة شبان الطائفة ممن أثق بهم.. وإلا فلا آمن أن يدخل فيها من لا يصلحُ لها..

---

٦٤ - الكرسي الإنطاكي: البطريركية الأرثوذكسية في دمشق.

يوم الاثنين في ٥ ت ١ غ و٢٢ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور، ذهبت زرت المعلم نخلة لأبحث معه في أمر شغلي، فلم نر أمامنا في بادئ الأمر إلا انشاء مدرسة في بيت لحم، فإذا لم أنجح في ذلك عدت إلى القدس واشتغلت بالدروس الانفرادية. اتفقنا أن نذهب بعد الظهر إلى بيت لحم. وفي الساعة الثالثة أخذت عربة ومررت عليه. فذهبنا إلى منزل سليمان أفندي جاسر، فآنست عندهم ثقة بي وارتياحاً عظيماً إلى أن أخرج هذا الفكر إلى حيز العمل.

اتفقنا أن نبدأ في أول الأمر بعشرة تلاميذ يدفع كل منهم ثماني ليرات أتولى تعليمهم اللغة العربية واللغة الانكليزية مع فروع أخرى، إلى أن يزداد عدد التلاميذ فأحضر من يساعدني في التعليم، ولأن الدخل يكون قليلاً في السنة الأولى أنشئ مدرسة ليلية للشبان آخذ على الواحد ريالاً في الشهر، ووعد المعلم نخلة أن يدبر لي مدرسة البنات الانكليزية. استغرقت أبحاثنا وقتاً طويلاً فلذلك لم نستطع أن نزور أحداً غير سليمان أفندي جاسر. فركبنا العربة ورجعنا. جئت مع المعلم [نخلة] إلى منزله، قلت له: أتمنى لو أستطيع أن أجد شغلاً في القدس، ولكن كيف السبيل وأنا روميّ؟!. المطران الانكليزي يريد مني أن ألبس الثوب الأكليركي، وأذهب مع التلاميذ إلى الكنيسة، وأقرأ الكتاب المقدس، وجمعية A.M.C تريدني أن أكون مبشراً، وكلا الأمرين لا أستطيعه، وبما أنه لا شغل لي مثل معلم إلا عند أحد الفريقين فلا معنى لوجودي. الانتحار أولى. ثم ذكرنا الأصدقاء، فقال: لا تثق بأحد وكلهم تخلى عنك بل تناولوك بألسنتهم فعظم عليّ الأمر جداً. ثم قال: سمعت من مصادر مختلفة ما يدفعني أن أنصح لك أن تحل عهدك مع سلطانة. فشعرت أن الأرض تميد تحت أقدامي، وقلت له: أرجئ هذا الحديث إلى فرصة أخرى، وخرجت وأنا لا أعي.

تعشيت وذهبت إلى مجلس الملة، لم يكن جرجي أفندي زخريا هناك. نظروا في وظيفة اللجنة فقلت لهم: طلب الدير تأليف لجنة يستفاد منه أمران، أولاً: أن لنا حقوقاً، وثانياً: أنه يأمل أن يقنعنا أن ليس لنا حقوق، وأما نحن فلا يجب أن ندخل معهم في جدال، بل نطلب منهم حقوقنا، فإذا سلموا بها بدون جدال كان به وإلا رجعنا إلى الحكومة.

يوم الثلاثاء في ٦ ت ١ غ و ٢٣ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور جلست وراء طاولتي أدخن وأكتب، وفي الساعة التاسعة جاء جميل أفندي الخالدي مع صهره نظيف أفندي الخالدي، وهو من الذين يرشحون أنفسهم للمبعوثان. فأطلعني على بروغرامه [برنامجه] وطلب إليّ أن أقوّم عبارته وأصلح أغلاطه.

بعد الغداء نمت. جاءني الخواجا الفونسو لونسو يحمل [صحيفة] الأهرام الفرنساوية، وفيها مقالة لأشيل عن البطاركة اليونان، فأشرت عليه أن يبعث نسخة منها إلى البطريرك، ثم كتبت رسالة إلى أخي يوسف، ولكن لم يكن معي دراهم لأرسلها إليه. في المساء جاء قسطندي لباط، وكان الدكتور الياس حلبي حاضراً

فأنبّه لجهله اللغة العربية، فإن الوقائع التي كتبها أمس لمجلس الملة لم يفهم منها شيء، فضلاً عن الأغلاط الفظيعة في الإملاء، فقال: أعترف بذلك وهذا الذي جئت لأستشيرك فيه، وفي نيتي أن أبدأ معك في درس اللغة، وقد خطر لي أن أستعد للكلية الاميركانية في بيروت. كلفت المعلم نخلة أن يقابل فيضي أفندي العلمي ليسعى لي في أن أعلم المتصرف [٦٥] اللغة العربيّة. وكلفت جميل أفندي بذلك أيضاً، فإن فزت بذلك رجوت أن يكون من ورائه فاتحة خير.

زرت أم الياس حيدر، ثم رجعت إلى البيت، فجاء ابن خالتي يعقوب مع نايفة والكسندرا وعبد الله وسليم الخوري. وعدت يعقوب ان أتغدى عندهم غداً.

يوم الأربعاء في ٧ ت١ غ و ٢٤ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور ذهبت إلى بيت الخوري خليل فرح، حيث قررنا أن تجتمع اللجنة قبل ذهابها إلى الترجمة للاجتماع مع اللجنة التي عينها البطريرك. ولما صارت الساعة التاسعة ذهبنا. ما كدنا نجلس حتى أخذ بعض أبناء الطائفة يتكلمون باللغة اليونانية، فاستأت جداً وقمت وقلت: نرجوكم أن تتكلموا باللغة العربية لأن أكثرنا لا يعرف اللغة اليونانية، ومن أصول الآداب الإجتماعية المرعية أن تكون اللغة عمومية، فاعتذر أحد الرهبان أنه لا يعرف اللغة العربيّة، فأقمنا ترجماناً بيننا وبينهم، ثم افتتح الحديث أحد الرهبان وقال: نحن اجتمعنا لنشتغل معاً في ما يأول إلى خير الطائفة، فلي أمل أن نشتغل بمحبة ونقاء ضمير، فقلت لهم: لا أكتمكم أننا لا نصدق ذلك، كما لا ننتظر منكم أن تصدقونا، إذا قلنا لكم إننا نحبكم فإن المحبة معدومة. ثم قال: قرأت المضبطة فوجدت فيها إبهاماً، فقمت وقلت له: مضبطتنا تشير إلى تأليف مجلس ملة، وأن من وظائفه المطالبة بحقوق الطائفة القديمة والجديدة والتي ستجدد. ثم دخلنا في الحديث وبعد الأخذ والرد فهمت منهم أنهم لا يعترفون بقانونية مجلسنا، وأنهم يرغبون أن نترك القانون إلى جانب ونشتغل معاً في ما يأول إلى خير الطائفة جميعاً. فقمنا لنرد الجواب على [= لنبلغ جواب اللجنة إلى] مجلس الملة.

ذهبت تغديت عند ابن خالتي، جاء الخواجا يعقوب خوري فقصصت عليهم حديثنا مع اللجنة.

في المساء ذهبنا إلى مجلس الملة وأبلغناه ما دار بيننا وبين اللجنة، فكان من رأي الأكثرية أن نقدّم مضبطتنا إلى المتصرف ونتابع العمل والإجتماع مع اللجنة.

سمعت الليلة أن جرجي أفندي زخريا لم يكسب الأصوات الكافية ليكون منتخباً من الدرجة الثانية، لأن نصف الأصوات تقريباً كانت لتودر أفندي يانكو..

---

٦٥ – المتصرف: أعلى سلطة سياسية في المتصرفية، ضمن التقسيمات الادارية العثمانية.

يوم الخميس في ٨ ت١غ و٢٥ أيلول سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور لزمت إلى [كذا] البيت. وقبل الظهر جاء القس ابراهيم باز وابنه كامل والدكتور الياس حلبي يزورونني. ثم خرجت معهم وجلت جولة في السوق، ثم رجعت إلى البيت فتغديت ونمت. خرجت عند العصر قرب مجيء القطار فوقفت أمام مخزن الأميركان لعل سلطانة تجيء فأراها. ثم التقيت بالدكتور الياس، وجئت لأخرج معه من باب الخليل وإذا بسلطانة آتية مع أبيها، فلما رأيتها أصابت جسدي هزة «كما انتفض العصفور بلله القطر»، وإذا بصوت يناديني: خليل أفندي، ولعلها سمعته، فالتفت وإذا بالضابط جلال يناديني من جناح المنتدى العسكري فرجعت، فنزل وقال: جمعية الاتحاد والترقي لها الشرف أن تدعوك للإنتظام في عضويتها، فاستمهلته ريثما أتروى في الأمر. استشرت أصدقائي فمنهم من قال: إدخل، ومنهم من أشارٍ عليّ بالعكس. رجعت في المساء إلى البيت فوجدت المخاتير مجتمعين في الخانقاة مجمع الانتخابات، فبلغني بعضهم أن متري خشرم يذيع بين الناس أن ليس لي حق أن أكون منتخباً، لأني لست صاحب ملك، ويشير عليهم أن ينتخبوه هو أو الياس قزاز فعظم عليّ الأمر، وأقمت [=ابقيت] هناك من أبناء الطائفة من يراقب ذلك. جئت إلى البيت فوجدت هناك شيخاً من طرف جمعية الاتحاد والترقي اسمه الشيخ توفيق الطنبقا، جاء ليدعوني للإنتظام في عضوية الجمعية، وقال: يجب أن تعلم أنك الشخص الوحيد الذي أرسلت الجمعية من قبلها من يدعوه، وإلا فإن كثيرين يجيئون إلى أبواب الجمعية يرجون الدخول فيرفضون. فشكرته، وبعد الاستفهام عن أشياء كثيرة رجوته أن يمهلني ثم ذهب، فذهبت إلى منزل سلطانة لأسلم عليها فذكرنا الإنتخاب، وحثثت أباها أن يذهب ويصوّت لي، ولكنه كان قد نزع ثيابه ولبس ثياب البيت، فقالت سلطانة: أذهب أنا. ويا سلطانة إن كنت لا أسمو بنفسي إلى أعلى الدرجات فلست استحقك. وبينما أنا هناك جاء عمي يقول: جاءك ناس يزورونك، فجئت إلى البيت، فوجدت حنا العيسى وإسعاف النشاشيبي فسهرنا إلى نحو الساعة العاشرة والنصف، ثم خرجنا لنزور فيضي أفندي العلمي لنسأله عن الإنتخاب، فلم نجده فذهبنا وسهرنا في قهوة أنيستي إلى نصف الليل.

يوم الجمعة في ٩ ت١غ و٢٦ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور صعدنا إلى [قاعة] الترجمة في الدير، واجتمعنا مع اللجنة المعينة من قبل البطريرك، ودخلنا في الحديث. لا يزالون يلحون أن يكون عملنا حبّياً، فقلت لهم: دخلنا في الحديث في المرة الماضية إلى قانونية المجلس وعدمها؛ نحن نقول: إن مجلسنا قانوني وأنتم تقولون أنه غير قانوني، فإذا كان الأمر كذلك فقد وقع الخلاف وانقضى الإشكال ولا معنى لاجتماعاتنا. فحاذروا من اتساع الخرق بيننا، فقالوا: لنسلم أن مجلسكم قانوني ولنبحث الآن في وظائفه، فأمسكت عن الإعتراض لأرى رأيهم في

وظائفه، فأخذوا يفسرون كما يشاؤون، وقالوا: لا يخالج فكر أحد أن من وظائف مجلس الملة النظارة على أوقاف الدير. فقلت في نفسي: تفسير المادة المئة والحادية عشرة ليس منوطاً بكم. سلموا أولاً بقانونية المجلس ثم نرجع في تفسير المادة إلى الحكومة، ثم خرجنا. رجعت إلى البيت فتغديت ونمت، ثم خرجت فلم أكن أنقل خطوة، حتى يعترضني واحد ويقول: لي كلام معك، فأعطف ذات اليمين وذات الشمال. قال لي توفيق فرح: إن الباشكاتب ميلاتيوس أنكر عليه اشتراكه معنا، وحثه على اقناع الناس أن يخفضوا من غلوائهم ولا يتجاوزوا حدودهم، وقال له: لا تتشبه بالمعلم خليل الذي يسعى في إثارة الأفكار علينا. قال لي الخواجا يعقوب خوري: إن الياس مشبك يعتقد ويذيع بين الناس أني أخدم أغراض جرجي الحمصي، فغضبت واستغربت صدور ذلك عن الياس مشبك، ولكن لا عجب فإنه يحسب الناس مثله، ولولا صداقة قديمة وحرمة علائق ودية لأنزلت صواعق غضبي على رأسه. ثم قيل لي: أن نجيب أبو صوان يسأل عنك، فالتقيت به فقال: المتصرف يدعوك إلى منزله للبحث في شؤون وطنية. لقيت المعلم نخلة فسألته عن رأيه في دخولي في جمعية الإتحاد والترقي، فقال: ادخل. في المساء ذهبت إلى بيت المتصرف، فأعطيت الحاجب بطاقتي ثم دخلت برأس مرتفع وصدر مندفع، وسلمت عليه يداً بيد، وكان هناك الباشكاتب ميلاتيوس وترجمان الدير فراعهما دخولي. ثم جاء المفتي وابنه وحاخام اليهود وأحمد بدوي. قال أحمد بدوي للمتصرف إني عثماني حر كامل التهذيب نادر المثال فشكرته. كان المقصود من اجتماعنا أن نقيم غداً الحجة على بلغاريا والنمسا، وكلفت بإلقاء خطاب عربي. رجعت إلى مجلس الملة، وكان على وشك الانفضاض.

يوم السبت في ١٠ ت١ غ و٢٧ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور، جاءني الشيخ توفيق، أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي يحمل ورقة عليها صورة الخطاب، وقال: على هذه الصورة ليكن خطابك. ثم ذهب. جاءت سلطانة، ولكن قبل أن أجلس إليها جاء الياس سلفيتي يباحثني بشأن المجلس، ثم جاء يعقوب بن خالتي يسألني عن زيارتي المتصرف، فقصصت عليه الواقع. ثم اعتذرت من الياس سلفيتي أني مشغول جداً فذهب. صعدت سلطانة إلى غرفتي وجلست بجانبي فعاتبتها على انقطاعها عني، ولكن قلت لها: كل آلامي الماضية نسيتها الآن، وإنما أطلب منك أن تكتبي لي كل ما جرى في غيابي، فوعدت أن تكتب في الأسبوع القادم. ثم خرجت عند الساعة العاشرة وذهبت إلى بيت المعلم نخلة لأشتغل معه في إنشاء الخطاب، فوجدته في الطريق آتياً لزيارتي فجئنا إلى البيت وكتبنا الخطاب. وبعد الظهر اجتمع الناس في المنشية ألوفاً وألقينا الخطب وكانت سبعة، كان خطابي أقصرها وأمتنها، فلما نزلت أثنى علي بعض الوقوف، وإنما اعترضوا بأن صوتي لم يكن عالياً بحيث يستطيع أن يسمعه القريب والبعيد. نزلت إلى البيت وجاء معي الدكتور الياس، وكم وددت لو لم يجئ، لأني

كنت أنوي أن أجتمع بسلطانة فجلست أمام النافذة ووقفت هي في نافذتهم، ثم جاءت وودعتنا وذهبت للمدرسة. لقيني اليوم فيضي أفندي العلمي وقال: سمع جرجي الحمصي أنك تسعى في اسقاطه ومعارضته، وأنك تنوي أن تذهب إلى القرى المجاورة لتخطب في الناس ضده، فأنا كصديق لك أنصح لك أن تكلف غيرك بذلك، لئلا يقال: إنك قابلت جميل أخيه بالنكران. فعظم عليّ ذلك جداً وقلت له: لا أنكر فضله، وإذا عارضته فلا أعارض شخصاً معلوماً وإنما أعارض مبدأً يخالف مبدأي.. سمع بذلك يعقوب ابن خالتي ويعقوب الخوري فكان من رأيهما أن يدبرا لي القيمة المدين بها لرفلة الحمصي لئلا يتوهم أنه اشتراني بتلك القيمة، فشكرت فضلهما وقلت لهما عن رأيي، وأجلنا النظر في المسألة إلى فرصة قريبة. سهرت مع أختي ميليا في بيت ابن خالتي، وكان هناك حنا العيسى.

يوم الأحد في ١١ ت١غ و ٢٨ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الإستحمام زارني يعقوب ابن خالتي مع امرأته وأختها وأخيها عبد الله ونقولا عبده. ثم جاء خالي فأرسلت سليم بن عمي واشترى كعكاً وبيضاً وعنباً وأفطرنا. خرجت قبل الظهر فلقيني جرجي حبيب فقال: أنا آت عندك لأستفهم منك عن جلستكم في بيت المتصرف، فأخذته وذهبت إلى دكان جورجي الخوري، واجتمع هناك بعض الشبان، وإذا بجريدة خطية يوزعونها على الناس اسمها أبو الأحلام فيها بعض أخبار عن أخوية القبر المقدس. ثم تكلمنا عن جريدة القدس، فنصح الجميع لجرجي حبيب أن يتعرض لما يهم الطائفة فيقبل الناس عليها. بقينا هناك إلى الظهر، ثم ذهبت إلى بيت داود، وكانت عفيفة قد جاءت من المدرسة فأعددت معها دروساً لبعض صفوفها، ثم جئت إلى البيت وتغديت، ثم حملت كتاب اللحمة التاريخية، وذهبت إلى بيت جرجي الخوري، ولما صرت بالقرب من خط السكة الحديدية، وإذا بجبران البيبي وعيسى الغزال على فرسين، فلما رأياني أغارا على فرسيهما ولما وصلاني ترجلا ودعاني كل منهما لأركب فاعتذرت. دخلت الدار ولم يكن هناك أحد من الشبان إلا الياس دعدس، ثم جاء بعض الشبان ولكن لم يزد عددهم عن العشرة، قلت لهم: أن غايتي التي أسعى إليها هي خلع نير اليونان، إذ لا حق لهم في الرئاسة لا كنسياً ولا سياسياً ولا أدبياً. لو أحسنوا القيام بواجباتهم وأحبونا وأعتنوا بنا وسهروا على رعايتنا، بل لو أحسنوا السلوك بيننا لقبلنا رئاستهم وسكتنا، ولكنهم احتقرونا وانغمسوا في شهواتهم، فلا لوم علينا إذا نبذناهم وعملنا على طردهم، حتى أولادنا لا يجب أن نسميهم من الآن فصاعداً بأسماء يونانية، ثم دعوتهم أن أنشىء لهم جمعية تجمع كلمتهم، ثم خرجت فلقيت أمين وعفيفة وميليا فمشينا قليلاً في الهواء النقي، ثم نزلنا إلى البلد فذهبت إلى البيت وتعشيت، وبعد العشاء ذهبت إلى بيت داود. ونحن جالسون سمعنا نقراً على دف فسألت عنه فقيل: إنه بالقرب منهم بيت أحد الرهابين اليونان، فأخذوني إلى سطح المنزل، فرأيته جالساً على مقعد في غرفة ينقر على الدف وعنده راهبة تقدم له كؤوس الشراب، فارتعدت

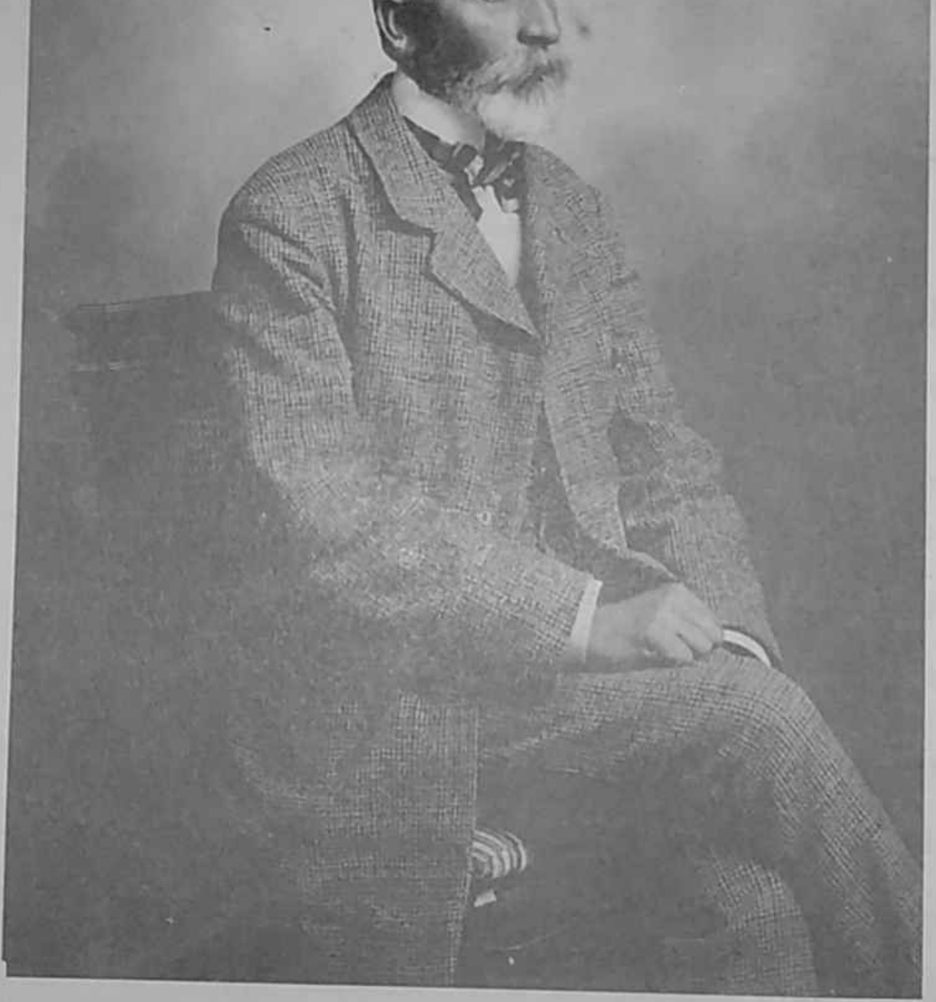

نقولا عبده، والد سلطانة. القدس ١٩٠٦

(من مجموعة عائلة السكاكيني)

فرائصي من هذا المنظر. ذهبت إلى مجلس الملة وكتبنا مطاليبنا، ولما انتهينا منها ارتأى بعض الأعضاء أن نحلف يمين الإخلاص، وأن نتصافح، فتصافح الناس إلا الياس سلمان فلم يقبل أن يتصافح مع جرجي زخريا فأسقطه الجميع ونبذوه وهانوه.

يوم الاثنين في ١٢ ت١ غ و٢٩ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فذهبت إلى مشغل نيكوغوس، وسألته عما إذا قرر مجلس ملّتهم تعليم اللغة العربية في مدارسهم فقال قرروا ذلك، ولكن تنظيم المدرسة لا يتم إلا في شهر أيار القادم فأسقط في يدي. رجعت إلى غرفة حنا أفندي العيسى صاحب الأصمعي إلى قبيل الظهر، ثم جئت إلى الغرفة فنمت. وأنا لا أزال في فراش النوم جاء ابن خالتي يعقوب فقلت له: أمسكني أمس الخواجا رفلة الحمصي وطلب إليّ أن أجتمع بك لتجدد الكمبيالة، فقال: ننظر في ذلك في هذا الأسبوع. ثم جاء حنا أفندي العيسى وإسعاف أفندي النشاشيبي والدكتور الياس حلبي فتكلمنا في مواضيع مختلفة، منها حادثة أمس في مجلس الملة، وقلت لهم: أعذر الياس سلمان في رفضه الصلح لأن الصلح [صعب] ولا سيما إذا كانت العداوة قديمة الأسباب، بل كان الأولى بهم إذا أرادوا الصلح أن يزيلوا تلك الأسباب فتزول العداوة من تلقاء ذاتها، وإنما ألومه لرفضه بطريق خشنة، مما أسخط الحضور ولا سيما والوساطة في بلادنا محترمة. ثم ذكرت لهم كيف رفض عيسى نخلة أن يحلف يمين الاخلاص بقوله: إذا كنا مسيحيين فقد حلفنا يمين الإخلاص منذ وجدنا، فطربوا لهذا الكلام. ثم جاء الياس سلفيتي، وذهب الدكتور الياس حلبي فتكلمنا عن مطاليب الطائفة. ثم قمنا عند الساعة الخامسة وخرجنا. لقيت المعلم نخلة في مخزن مشبك فمشيت معه، وكان الدكتور الياس معنا، ومررنا عن طريق الباب الجديد إلى باب العمود، ففتحنا مسألتي فأخذا يلومانني على عدم تساهلي في مبادئي فتألمت جداً، ولكنني أمسكت عن الكلام لئلا تبدر مني كلمة تسوءهما. وقلت لهما: إذا نجحت الطائفة في مطاليبها جعلوني رئيساً للمدرسة، وإلا اكتفيت بإعطاء دروس انفرادية. رجعت إلى البيت فتعشيت، بعد العشاء أخذت أمي وأختي وذهبنا إلى بيت داود. آه يا داود أشرِف عليّ من عالم الأرواح وسدد خطواتي، شجِّعني فقد عدمت من يشجعني في هذه الحياة بعدك.

يوم الثلاثاء في ١٣ ت١ غ و٣٠ أيلول ش سنة ١٩٠٨م

رأيت داود في حلمي خارجاً من باب البنك بجبين ناصع، وقد أمال طربوشه إلى الوراء. بعد الاستحمام والفطور خرجت فلقيت الخواجا الياس سلمان فذهبنا معاً إلى غرفة حنا أفندي العيسى، فقال الخواجا سلمان: إنه نزل أمس عند المتصرف ووشى بجرجي زخريا ثم أرانا صورة تلغراف كان عازماً أن يبعث به إلى الأستانة شكاية به. رجعت الظهر فلقيت مختار اللاتين فقال: أبطلنا الانتخاب الأول وسننتخب مرة ثانية

ولكن لشخص واحد، فإما أن تصوتوا لواحد منا وإما أن نصوت لواحد منكم، ولكن على شرط أن تعدونا أن تصوتوا لنجيب أبو صوان، فقلت له: يجب أن يجتمع فريق منا ومنكم للإتفاق على رأي. ثم جئت إلى البيت فتغديت ونمت، وبعد النوم خرجت فمررت على مخزن الأميركان، فقيل لي: إن موسى يستطيع أن يأخذ درساً الساعة الخامسة بعد الظهر. لقيت حسين سليم الحسيني فدفع إليّ بنشرة يحث فيها الوطنيين على قطع العلائق [=العلاقات] التجارية مع دولة النمسا، وأرانا صورة تلغراف هو عازم على إرساله إلى بحارة يافا يحثهم على الإعتصاب ضد البواخر النمساوية، وتلغراف آخر إلى الخواجا يوسف العيسى ليخطب في الناس على قطع العلائق التجارية. ذهبت لأزور مستر سايكس فلم أجده. رجعت إلى الغرفة فجاء معي الخواجا حنا ياسمينة فعبأت أركيلة وجلسنا نتجاذب الحديث، سألني عن شغلي، فقلت له: لم أجد شغلاً إلى الآن لأني روميّ المذهب، والمدارس الانكليزية تريد مبشراً، ولست بمتساهل في مبادئي ولو مت جوعاً. ثم حملت دفاتري وخرجت لأعلم موسى العلمي فصحبني إلى باب العمود. مررت على مدرسة سلطانة وأنا آمل أن أرى الباب مفتوحاً فأراها أو أرى إحدى تلميذاتها فوجدته مغلقاً. ذهبت عند الأميركان فوجدت موسى يدرس القرآن على شيخ، فرأيت أن أعفيه اليوم من الدرس وأن أعطيه درساً يوماً بعد يوم. أخذوني إلى الصالون فوجدت هناك افتيم مشبك مع امرأته وامرأة أخيه، وقبل أن انصرف طلبت من فريد أن يريني الغرفة التي كان فيها داود، فلما دخلتها هاجني الحزن وأغرورقت عيناي بالدموع. رجعت إلى البيت فتعشيت وذهبت إلى مجلس الملة فاعترضت على المطاليب فعارضني جرجي زخريا، فخشيت أن يكون ذلك لأرب في النفس.

يوم الأربعاء في ١٤ و ١ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور نسخت المطاليب على ورقة وخرجت، فجلست في دكان جورجي الخوري وأنا أنوي أن لا أصعد مع اللجنة لاعتراضي على المطاليب أمس وشعوري بضعفها. إلا أن بعض أبناء الطائفة ألحوا عليّ بالذهاب والاعتراض أمام اللجنة إذا شئت، فصعدت. تلونا عليهم المطاليب، فلما فرغنا من تلاوتها أخذ الأرشمندريت يرد عليها فقال: تدخل مطاليبكم تحت ثلاثة رؤوس، الأول المال، الثاني أماكن الزيارة، الثالث العوائد القديمة، فأما أماكن الزيارة فلا حق لكم في التداخل في أمرها، بل الروس قبلكم حاولوا ذلك فلم يفلحوا، لأننا نحن وحدنا أصحاب الحق. فقلت له: نحن أحق منكم ومنهم؛ ثم قال: وأما العوائد القديمة فلا تمس لأننا أصحاب امتيازات وفرمانات فيها، وأما المطاليب التي تحتاج إلى مال فنحن أحرار أن نسمح بها أو نرفضها، وإذا كنا فعلنا شيئاً من ذلك في الماضي فلم يكن إلا على سبيل الإحسان، فثار غضبي وقمت وقلت له: يظهر لي أنك تجهل أشياء كثيرة. فقال: برهن لي غلطي، فقلت: سترى

غلطك، وخرجت فنادوني فلم أرجع، ونزلت إلى السوق فالتف حولي أبناء الطائفة، فسردت عليهم ما جرى فثار غضبهم، وقالوا: ليس أمامنا إلا الحرب. اتفقنا أن نجتمع الليلة. ذهبت بعد الظهر علّمت موسى العلمي ثم رجعت إلى البيت أنتظر سلطانة فلم تجئ، ثم تعشيت وذهبت مع أمي وأختي إلى بيت داود، ثم ذهبت من هناك إلى مجلس الملة وكان ملتئماً في بيت الخواجا ميخائيل اطليل. قالوا: إذا عقدنا النية على الحرب فأول ما نحتاج إليه المال لأن في الطائفة فقراء وأرامل لا يستطيعون أن يستغنوا عن الدير، فقلت: لا يستطيعون أن يستغنوا عن الدير لأنهم اعتادوا الإعتماد عليه، وإلا فإنهم يستطيعون أن يشتغلوا مثل غيرهم من الفقراء والأرامل في البلاد الأخرى، وليس لذلك إلا أن نثير حماستهم ونرفع نفوسهم. وإذا كان لا بد من المال فعندنا طرق كثيرة لجمعه، فاتفقنا أن نؤسس جمعية يكون لها فروع في سائر الأبرشية، وأن نقيم بازارات ونحيي ليالي تشخيصية [=مسرحية] وموسيقية، ونفتح اكتتابات ونرسل وفداً إلى روسيا لجمع الإحسانات، وأن نطلب امتيازاً بجريدة تكون لسان حال الأبرشية.

يوم الخميس في ١٥ و٢ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور زارني الخواجا يعقوب خوري فقصصت عليه ما جرى أمس، وما أجمعنا عليه في اجتماع مجلس الملة، فاستحسن فكرة الجمعية وحثنا على المضي في العمل. ثم خرجت فلقيت الخواجات نخلة كتن وميخائيل اطليل وعيسى نخلة فجئنا إلى بيت الخواجات سلفيتي وجلسنا حول طاولة، وأخذنا في تنظيم الجمعية ووضع قوانين لها فبلغت التسعة. ثم ذهبت إلى بيت يعقوب ابن خالتي فتغديت معهم وقصصت عليه خلاصة الحديث، ثم تكلمنا عن كمبيالة الخواجا رفلة فقال: نقسمها إلى كمبيالات شهرية، كل كمبيالة بأربع ليرات، فاستحسنت ذلك ولكن قلت له: لا أستطيع أن أبدأ من هذا الشهر لأني لم أجد شغلاً بعد. ثم جئت إلى البيت فنمت. جاء الدكتور الياس حلبي فخرجنا معاً إلى باب الخليل فلقينا حنا أفندي العيسى، فدفع إلينا الأصمعي، العدد الرابع منه، ثم ذهبنا معاً لنزور المعلم نخلة، فمررت على بيت مستر سايكس فلم أجده، ثم ذهبت إلى بيت المعلم نخلة فأخذناه ونزلنا إلى البلد، ثم جئت إلى البيت لأتعشى، فلقيت رزمة بعض اعداد الجامعة التي فيها مقالاتي، بعثت بها إليّ سلطانة مع رسالة منها باللغة الانكليزية، تقول بها: إن متري كان قد كتب إليها مرة رسالة حبّ فاطلعت عليها مسس بلابث، فكان من رأيها أن تكتب سلطانة جواباً لمتري تنكر عليه كتابته رسالة حب فكتبت، ومنذ ذلك العهد أصبحا صديقين، وكان متري يرسل إليها في عيد الميلاد بطاقات معايدة، وأنه كان يسعى كل الوقت أن يخطبها لنفسه على غير علم منها، فلما جاء هذه السنة اطلع أخاه يعقوب على نيته أن يخطب، فقص عليه يعقوب ما جرى فاستاء جداً، وحزنت سلطانة لحزنه وندمت لأنها كتبت إليّ وإليه. فوجمت لهذه الرسالة واعتمدت

أن اجتمع بها واستفهم منها أكثر. ذهبت مساءً إلى منزل الأميركان لأعلم جون، فوجدته قد نسي كتابه في المخزن فجلست في غرفته وجعلنا نتجاذب الحديث عن أميركا، ثم سار معي إلى (سعد وسعيد) فتركته ومررت على المعلم نخلة، وقرأت له مقالاتي في الجامعة، فسر بها، ثم نزلت إلى البلد فمررت على غرفة حنا أفندي العيسى، فلقيت عنده اسعاف [النشاشيبي] فقرأت عليهما مقالاتي فسرّا بها.

يوم الجمعة في ١٦ و٣ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت، فلقيت أعضاء اللجنة، فقالوا: لنذهب ونسأل عن الجواب. كان من رأيي أن نذهب رأساً إلى غبطة البطريرك، ولكن جرجي زخريا أصرّ على الذهاب إلى اللجنة. وبعد الجدال ذهبنا إلى الترجمة، فجاء الترجمان فسألناه عن الجواب، فقال: لم نتذاكر بعد، فقلنا: لماذا؟ فقال: لأننا منهمكون في مسائل أخرى الآن أهم من مسألتكم، فقلنا له: يجب أن تضعوا مسألتنا في رأس مسائلكم لأن وراءها طائفة كبيرة، وإذا كنتم لا تهتمون بها كلفنا الشعب عن بكرة أبيه أن يسألكم فيها. ثم نزلنا فجئت مع أفتيم مشبك والدكتور إلياس حلبي إلى البيت، فاطلعتهما على قصدي من إنشاء مدرسة ليلية فاستحسناه، وكتبنا أسماء بعض أبناء الطائفة الذين قررنا أنهم يحبون أن يتعلموا، ثم خرجنا فطفت على بعض الشبان فلم يكن بينهم إلا من قال: اكتب اسمي، ومنهم من همّ أن يدفع لي الريال المجيدي رسم الدرس سلفاً، فاطمأن قلبي وقررت الشروع في العمل منذ الأسبوع القادم. ثم رجعت إلى البيت فنمت، وبعد النوم حملت دفاتري وخرجت لأعلّم موسى العلمي، فالتقيت بالدكتور سبور فأخذته وعرفته بصاحب الأصمعي [حنا العيسى] وأطلعته على ما عزمت عليه فقال: اكتب اسمي بين الأسماء، ثم ذهبت فعلمت موسى العلمي ورجعت إلى باب الخليل، فالتقيت بيعقوب ابن خالتي والدكتور الياس فمشيت معهما، فقال يعقوب: أنه قرر مع الخواجا رفلة الحمصي أن يجدد الكمبيالة لسنة أخرى، ثم تكلمنا عن مجلس الملة، فأخذا ينتقدان خطي، فلم أدافع كثيراً لأني أنا في واد وهما في واد. ثم تركتهما ونزلت إلى البلد من باب العمود فلقيت المعلم نخلة، فصحبته إلى منزل سعيد أفندي الحسيني [٦٦] ليسأله أن يدله على معلم للغة التركية، فأشار عليه أن ينتدب لها عبد السلام. في الطريق أطلعته على عزمي فاستحسنه، ثم قلت له أن يدبر لي مدرسة بيت لحم، وعاتبته لأنه لم يدبر ذلك قبل مجيئي من اميركا فقال: أنا ساع في سبيل ذلك، فإذا عدت إلى مدرسة بيت لحم وتمكنت بواسطة مسس داني أن أرجع لمدرسة البنات التابعة للمطران، ووجدت بعض دروس انفرادية، تمكنت من وفاء بعض ديوني إن شاء الله. ذهبت إلى مجلس الملة وانتخبنا اثني عشر عضواً ليكونوا هيئة جمعية الإخاء الارثوذكسي.

---

٦٦ - سعيد الحسيني: (١٨٧٨ - ١٩٤٥)، رئيس بلدية القدس، وعضو مجلس المبعوثان العثماني، من اوائل من تنبهوا إلى نشاط الحركة الصهيونية في فلسطين وقاوموها في العهد العثماني.

يوم السبت في ١٧ و٤ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت لأطوف على بعض الشبان الذين قدرت أنهم يحبون أن يتعلموا اللغة العربية لأجمع منهم الرسم، حتى إذا اجتمع معي نحو عشرين ريالاً استأجرت محلاً واشتريت لوازمه، فلقيت سليم سلفيتي وداود ميخائيل الحلبي فدفعا لي ريالين، ومررت على آخرين فوعدوا أن يدفعوا بعد حين، فمررت على دكان خالي جورج، وعملت حساب ما يلزم للغرفة من طاولات وكراس فوجدنا أن ذلك يكلفني نحو أربع ليرات. رجعت للبيت فنمت. بعد الظهر جاءني الخواجا الفونس لونسو ثم جاء الخواجات ميخائيل اطليل وتوفيق فرح، فقال ميخائيل اطليل: إن سليم القاري مرّ عليه اليوم واعترض على انتخاب أعضاء جمعية الإخاء الارثوذكسي لأنه لم يكن بالاقتراع السريّ. ثم ذهبوا فخرجت على اثرهم ومررت على جمعية الإتحاد والترقي فلم أجد أحداً. ثم لقيت الخواجا حنا ياسمينة وأطلعته على قصدي، فقال: قيّد اسمي واسم أخي وسأفتش لك عن تلاميذ آخرين من اللاتين. ثم التقيت بالدكتور الياس حلبي والخواجات يعقوب خوري وقسطنطين تادرس، فذهبنا إلى ادارة الخواجا تادرس وهناك تكلمنا عن مجلس الملة وجمعية الإخاء الارثوذكسي. أنكر عليَّ الخواجا تادرس تعقبي جرجي أفندي زخريا، وكان من رأيه أن أتفق معه في العمل، وإلا كان الفشل نتيجة سعينا ثم أطل من بالكونة فرأى جرجي زخريا جالساً أمام مخزن الخواجا الياس مشبك، فدعاه، وبعد كلام طويل اتفقنا أن نؤلف لجنة سرية لوضع خطة لمجلس الملة ودرس مواضيعه قبل طرحها أمام اعضائه فاستحسن الجميع ذلك. واللجنة مؤلفة منا نحن الخمسة مع يعقوب ابن خالتي، وقررنا أن نجتمع مساء يوم الاثنين القادم، ثم نظرنا في جمعية الإخاء فرأى الجميع أن تحل وتؤلف من أشخاص آخرين أقدر على العمل، فكلفنا الدكتور الياس أن يعترض على كون الأعضاء من مجلس الملة لأن ذلك يفرق القوة. رجعت إلى البيت فتعشيت، ثم ذهبت إلى منزل الخواجا عيسى نخلة قرط، وجاء الأعضاء إلا أنضوني الغوري وأفتيم مشبك. فابتدأ الدكتور الياس بالاعتراض وعضده [=سانده] بعض الأعضاء. أخيراً قر الرأي أن نسير الآن على ما بدأنا به مؤقتاً، ثم نعرض الأمر على مجلس الملة لينتخب هيئة أخرى من أفراد الطائفة غير الأربعين أعضاء مجلس الملة...

يوم الأحد في ١٨ و٥ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فلقيت الناس مجتمعين في الطرق يقرأون جريدة أبو الأحلام الخطية الصادرة اليوم، فتمنيت لو أن لي جريدة أطلق لقلمي فيها العنان. لقيت ميخائيل اطليل فدعاني للغداء وألح عليّ، ولست أدري ماذا يقصد من هذه الدعوات. رجعت للبيت فكان الغداء مقلوبة، ولكن الرز كان من الجنس الدون، والخبز غير لذيذ الطعم فلم أهنأ غدائي. نمت، بعد النوم جاء حنا أفندي العيسى فقرأت عليه بعض مقالاتي القديمة فسرّ بها، وطلب اليّ أن أنشر بعضها في الأصمعي. أطلت عليّ سلطانة من

نافذتهم فذهبت عندهم وعبأوا لي أركيلة. خلوت بسلطانة وقلت لها: لي كلام معك، وما كدنا نجلس حتى دخلت أختي وابن عمي وابنة عمي حنة فأمسكنا عن الكلام. ثم أرسلت إليها أن تجيء إلى بيتنا فقالت عندهم ضيوف، ثم جاءت عفيفة وبعد قليل جاءت سلطانة بثوبها الأبيض الناصع، ولكن آنست في وجهها إمارات التعب والقلق، وبينما نحن جلوس إذ جاء رسول من طرف الطائفة المجتمعة تحت شجرات الزيتون بجوار كنيسة مار جرجس فتركتهم وذهبت، فلقيت نحو مئتين من الشبان وبينهم بعض الشيوخ ينتظرونني. وما كاد يستقر بي الجلوس حتى تقاضوني الكلام، فقمت وتكلمت بما حضرني.. فقلت: إن الكلام الذي توحيه إلينا الظروف الحاضرة هو أن نكون رجالاً أشداء، أن نكون يداً واحدة في هذه الحرب المستعرة بيننا وبين رجال الدير، سقط استبداد الحكومة فبقي استبداد الرئاسة الروحية، فلنعمل على اسقاطه ولا تخشوا في ذلك بأساً، لا تخافوا من السماء لأن سلطتهم علينا ليست من السماء، ولا تخافوا من الحكومة لأن الحكومة لا تؤيد هذه السلطة، ولا تخافوا أن تتهموا بنكران الجميل فليس لهم علينا أقل جميل، بل كلكم تعرفون والسماء والأرض تعرفان أنهم أساؤوا معاملتنا؛ احتقرونا، أذلونا، وقفوا في طريق تقدمنا. ثم لو أحسنوا السيرة بيننا لوجدنا لهم بعض العذر، ولكن سيرتهم معروفة عندكم، بل إذا سكتم لأحال عليكم الناس باللوم والتعيير.. في المساء سهرنا في بيت داود.

يوم الاثنين في ١٩ و٦ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فلقيت الياس سلمان، فذهبت معه إلى غرفة حنا أفندي العيسى صاحب الأصمعي، وسألته عن محل مجلس الملة، فقال: تحت أمرك، فسألته عن الأجرة إلى محرم [كذا] فقال: ليرتان. لقيني الخواجا قسطنطين تادرس فقال: فيم أنت؟ فقلت أسعى في استئجار محل للمدرسة الليلية، فقال: لا تستعجل فإننا ساعون أن ندبّر لك عملا.. جئت الظهر إلى البيت فلم أجد إلا بقايا طعام من طعام أمس، فأكلت ولم أنم لاضطراب فكري وقلق خاطري: ماذا أعمل؟ كل مراكز التعليم مشغولة ولو فرغ مركز لحال دون استخدامي فيه كوني أرثوذكسي المذهب، بل كوني على مبادئ وأخلاق لا تلتئم مع أفكار الناس وآرائهم. لا أنجح في هذا العالم إلا إذا خفضت من غلوائي، وطأمنت من أنفتي، وألنت عريكتي وبذلت معادني، وأقررت بالذل وانقدت للهوان، وأعتمدت التزلف والمداهنة والرياء والخداع والمراوغة والكذب على الله والناس. كنت أظن أن أصدقائي يمهدون الطريق أمامي فلما جئت لم أجد شيئاً [من ذلك]. بل وجدت منهم تراخياً وعدم مبالاة، بل آنست من بعضهم أنهم لا يريدون أن أجد شغلاً لئلا أعلو وأسمو عليهم. بل أن بعضهم إذا سنحت له فرصة للطعن على معرفتي [كذا] واقتداري في التعليم لم يفته اغتنامها. رحمة الله عليك يا داود ... بعد الظهر ذهبت فعلمت موسى العلمي ومن هناك جئت إلى غرفة المعلم نخلة، فسألته عما دبر لي من الشغل فقال: أنا مهتم الآن أن أطلب توفيق زبق مساعداً لي في الكلية،

فتأخذ أنت محله في بيت لحم، ثم قال: لست على ثقة أنهم راضون عن تعليمك هناك، فقلت في نفسي: تطلب توفيق زبيق مساعداً لك وتبعث بي إلى بيت لحم ثم تشك في اقتداري، وخرجت من عنده وأنا متألم جداً. جئت إلى البيت فلم أجد طعاماً غير صحن سلاطة [=سَلَطة] وقطعة جبن فأكلت وذهبت إلى ادارة الخواجا قسطنطين تادرس، ثم جاء جرجي أفندي زخريا والخواجات يعقوب خوري والدكتور الياس حلبي فقلت لهم: لا يجب أن نهتم بالمطاليب لأنها مفيدة لنا، بل لأنها حق من حقوقنا، وإذا أردنا أن نرفع شأن الطائفة فيجب أن نشرّبها حبّ الاستقلال عن الدير لا الاعتماد عليه، ولكن لا يجب أن نكف عن السعي في خلع نير اليونان وطردهم من هذه البلاد.

يوم الثلاثاء في ٢٠ و٧ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فلقيت أعضاء اللجنة فقالوا: نذهب ونأخذ الجواب، فصعدنا فوجدنا أعضاء اللجنة الأخرى مشغولين في محكمة كنسية، فقر الرأي أن نرجع غداً. ذهبت إلى غرفة الأصمعي إلى ما قبل الظهر، ثم جئت إلى البيت فتغديت ونمت. بعد الظهر فتشت عن تلاميذ للمدرسة الليلية، وفي المساء ذهبت علمت جون وايتنك الأميركاني. بعد انتهاء الدرس قال: لا أحبّ أن آخذ درساً إلا بأجرة، فلم أجبه على ذلك لأن في خاطري أن أطلب منهم أن يعلّموا أختي ميليا اللغة الانكليزية، وأن تعيش معهم إذا أمكن، لأني أحب أن تعيش قليلاً في جوهم العالي. رجعت من هناك ومررت على غرفة الأصمعي وسهرنا معاً... جاءت منانة [صيداوي] من يافا ومسس واي من بلاد الانكليز، وشكري ديب من روسيا، فذهبت أمي وأختي إلى دار داود ليسلما على منانة، سمعت أن صهرنا تودر تخاصم الليلة مع نفر من البوليس.

يوم الأربعاء في ٢١ و٨ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور، خرجت فلقيت أعضاء اللجنة فذهبنا إلى الدير، فقيل لنا: أن الباشكاتب مريض لم يستطع أن يحضر إلى الترجمة فذهبنا إلى غرفته. بعد أخذ ورد استغرقنا وقتاً طويلاً كان الجواب: لا يستطيعون أن يجيبونا إلى شيء من مطاليبنا ما دمنا نطلبها مثل حقوق، ولكن إذا عدلنا عن كلمة حقوق، فربما استطاعوا أن يجيبونا إلى شيء منها بصورة مساعدة، فحملنا الجواب وخرجنا. جئت إلى البيت وكتبت مقالة عن اجتماعنا يوم الأحد تحت شجر مار جرجس لتنشر في الأصمعي، ثم ذهبت فسلمتها لحنا أفندي العيسى، ومن هناك ذهبت إلى مستعمرة الأميركان فعلّمت موسى العلمي. لقيت معلم الأولاد عندهم فقال: هيأنا صفاً لدرس اللغة العربية، فاتفقت معه أن أعلّمهم ثلاث مرات في الأسبوع من الساعة الثالثة والنصف إلى الرابعة، وسأبدأ معهم غداً. ثم جئت إلى البيت وأنا آمل أن أجد سلطانة فلم أجدها.

فذهبت إلى ادارة قسطنطين تادرس، وجاء أعضاء جمعيتنا فقررنا إعلان الحرب، ولكن جرجي زخريا أحب أن يتبرأ من تبعتها، فقال: هذه الحرب نتيجة اصرارك على طلب الحقوق دفعة واحدة. فقلت له: هذا رأيي لا أرجع عنه، وهذه النتيجة كنت أتوقعها، وإذا رجعت الطائفة عن مطاليبها واصلت الحرب وحدي، فقال: وأنا معك فقمنا وتعاهدنا على الحرب. من هناك جئت إلى البيت فتعشيت ثم ذهبت إلى دار داود، فسلمت على منانة ولما خرجت أحسست بلوعة في صدري على داود. ذهبت إلى مجلس الملة وحثثت الطائفة على أمرين، أولاً، الاستقلال عن الدير لأن ذلك أشرف لسمعتنا وأوفق لتقدمنا ونجاحنا، لأننا ما دمنا معتمدين على الدير، فترت همتنا وماتت نخوتنا. وثانياً، الاستمرار على المطالبة بحقوقنا، بل يجب أن نعمل على تقويض أركان أخوية القبر المقدس. قررنا أن نراجع البطريرك، فإذا كان جوابه مثل جواب اللجنة قطعنا العلائق، وقدمنا بعد الظهر عريضة إلى الحكومة المحلية.

يوم الخميس في ٢٢ و٩ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور، خرجت وكان أعضاء اللجنة مجتمعين متأهبين للصعود عند البطريرك، فصعدنا فبلغناه جواب لجنته بأن لا حق لنا في مطاليبنا، فقال: ليس ذلك صحيحاً فإن لكم حقوقاً، فقلنا له: ما تقول في مطاليبنا؟ فقال: أمهلوني إلى الأسبوع القادم، لأرى ماذا نستطيع أن نباشر به. فخرجنا وقد ارتأينا أن لا نقدم العريضة للمتصرف ريثما نأخذ منه الجواب. وجدت تلاميذ جدداً فبلغ عدد التلاميذ الذين وجدتهم إلى الآن نحو ٢٠، ولذلك ازددت اقداماً على العمل. رجعت إلى البيت فتغديت ونمت. بعد النوم ذهبت إلى مستعمرة الأميركان فأعدوا لي صفاً مؤلفاً من ثمانية، بينهم أخت فريد نصيف، وبعد الدرس دعوني لشرب الشاي، وكانت جالسة أمامي الآنسة أنيتا وهي الفتاة التي كان داود يميل إليها، وقد هزل جسمها، فتأثرت لها وذابت نفسي حزناً على داود .. قالت لي: إنها تحب أن تحضر الدرس.. مررت على المعلم نخلة فلم أجده. نزلت إلى باب الخليل فلقيت ابن خالتي يعقوب، فذهبنا معاً إلى غرفة الأصمعي، فجلسنا على البالكون، فمر جلال أفندي الضابط أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، فطلب اليّ أن اعطيه كارتي، فكتبت عليه طلبي الدخول في الجمعية وسلمته إياه. لما نزلنا وجدنا الخواجات يعقوب خوري وقسطنطين تادرس فقالا: لماذا لم تجئ إلى الاجتماع، فاعتذرت ثم جئت الى البيت لأتعشى فوجدت الياس سلفيتي، فقال: اتفقت مع جرجي الخوري وبعض الأعضاء على الإستعفاء من مجلس الملة لأننا لا نحب أن نشتغل مع جرجي زخريا، لأنه ظهر لنا أنه يريد أن يجرنا إلى رأيه، ويقودنا إلى خطته، وقد بلغنا من مصدر ثقة، أنه متفق مع البطريرك على تدبير المسألة على وجه يكون فيه مصلحة الدير. فقلت له: هذا لا يدعو إلى الإستعفاء، بل الأولى أن تبقوا حتى تثبتوا الأمر. ثم ذهبت إلى بيت داود، ومن هناك ذهبت إلى مجلس الملة فقرروا بعد الأخذ والرد أن نؤجل تقديم العريضة إلى المتصرف، ريثما نأخذ الجواب من البطريرك، ثم

نظروا في جمعية الإخاء الأرثوذكسي فطلبت إبقاءها لأشكلها مرة ثانية من أعضاء أكفاء، ولما اشتد الخلاف، استدعينا [=قررنا] الانصراف.

يوم الجمعة في ٢٣ و١٠ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور، خرجت فذهبت رأساً إلى دكّان خالي جورجي ووصيته على طاولتين كبيرتين ولوح أسود للمدرسة الليلية، فوعد أن يكملها يوم الأربعاء من الأسبوع القادم. رجعت الظهر إلى البيت فتغديت ونمت، وبعد النوم ذهبت إلى مستعمرة الأميركان وعلمت موسى العلمي، ثم رجعت إلى باب الخليل، وكنت أمشي على الأرض مرحاً ونشاطاً كأني أثب وثوباً. كل يوم يزداد عدد تلاميذي بل أن بعض الآباء سألوني: هل أعلم في النهار؟ ليرسلوا إليّ أولادهم. قررت أن أبدأ الأسبوع القادم وعلى الله الاتكال. جئت إلى البيت فجاء الخواجات حنا ياسمينة وجرجي جدعون والشيخ توفيق طنبقا، فحدثتهم عن أميركا، ولما قاموا ليذهبوا انفرد بي الشيخ وقال: الجمعية تدعوك الليلة لتعطي اليمين، فذهبت معه إلى محل الجمعية في دار أبي خليل عويضة، بجانب دار الكومندان [=القائد العسكري] سابقاً، ودار المتصرف حالياً. فوجدت بعض الأعضاء من ضباط وغيرهم، فلما شعرت بالمسؤولية التي أقدمت على حملها على عاتقي، ثارت حماستي وارتفع رأسي واندفع صدري. خلقت للأعمال العظيمة المجيدة وسأري هذه الجمعية من الجرأة والشجاعة والإخلاص والحميّة ما يدهشها. بعد أن جلست قليلاً أخذوني إلى غرفة داخلية فربطوا عيني، وقادني الشيخ توفيق بيدي فسرت بقدم راسخة ورأس مرتفع، فوضع يدي اليمنى على الإنجيل ويدي اليسرى على مسدس، وقال: هذا لتقسم به وهذا لتدافع به، ثم جعل يقرأ عليّ صورة القسم كلمة كلمة وأنا أعيد القسم من بعده. أقسمت أن أحافظ على الدستور وأسعى في رفع الوطن، وأقوم بما تعهدت به الى الجمعية، وأحفظ أسرارها وأدافع عن الوطن والدستور حتى الموت. وفي الختام قال: والله يشهد عليّ وهؤلاء الإخوان الثلاثة، ثم رفع العصابة عن عينيّ، فقلت: أين الاخوان الثلاثة فقال: ها هم وأشار الى كراس ثلاث فوجدت ثلاثة جلوساً عليها ولكنهم ملتحفون بملاءات فلم أر منهم غير أطراف أصابعهم. ثم خرجت وخرج معي الشيخ، فقلت له: أقسمت هذا اليمين منذ وجدت، وإنما الليلة جددت اليمين. ثم ذهبت إلى دار ابن خالتي يعقوب وسهرت هناك.

يوم السبت في ٢٤ و١١ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور جاءني المعلم جورج متى[٦٧]، فقال: سمعت أن الرّهابين كلهم تحت السلاح

---

٦٧ - جورج متى: (١٨٧٢ - ١٩٢٤)، من مواليد عكا لأسرة يونانية الأصل، درس في عكا والقدس، من تلاميذ نخلة زريق، عمل في الصحافة في دمشق، نظم الشعر، وأصدر مع جورج سمعان مجلة أدبية اطلق عليها اسم «شمس» استمرت مدة عام.

خوفاً من هجوم الشعب، وأنهم يكاتبون الأستانة وأثينا، وأن البطريرك ذهب أمس عند وكيل مطران الإنكليز، ولعله يريد أن يطلب من الانكليز مساعدته وتأييده. خرجت فلقيت جورج أفندي زخريا فقال: أنا ذاهب إلى أريحا فإذا احتجتم إلى كتابة عريضة فكلفوا نجيب أبو صوان، وحث بعض الشبان وبعض أعضاء مجلس الملة على الثبات إلى النهاية، كأنه يريد أن ينفي الشبهة عنه. ثم قال: سمعت أن الدير يريد أن يرسم سابا دعدس قسيساً الليلة، فاقترحت عليهم أن نذهب وفداً إلى البطريرك لنحذره من هذا العمل، ولكن لم أجد أحداً.. جئت الظهر إلى البيت فتغديت ونمت، وبعد النوم ذهبت إلى مستعمرة الأميركان وعلمت الصف الجديد. كنت أرجو أن أجد باب مدرسة سلطانة مفتوحاً لعلي أراها، أو أرى احدى تلميذاتها فكان مغلقاً. تعشيت وجلست وراء طاولتي أنتظر قسطندي لباط فلم يجئ، ثم جاء عمي حنا ومعه الياس مصو من بيت جالا، فقال الياس مصو: أن البطريرك دعا بعض شيوخ بيت جالا، وطلب منهم أن يمضوا مضبطة عنده، بدون أن يطلعهم على فحواها، فامتنعوا وقالوا: لا نختم إلا بعد أن يختم أهل القدس، ثم قال لهم أن لا يشتركوا مع الطائفة في أعمالها. فتمنيت لو أعرف فحوى المضبطة، واعتمدت أن أخبر مجلس الملة بسعي البطريرك في ابعاد الطوائف في الأبرشية عنا، لنسرع نحن إلى الإتحاد معهم. ثم ذهبت إلى جمعية الاتحاد والترقي فرأيت فيها من الأعضاء مثل المعلم عيد وسابا الفران وغيرهما من خشيت معهم أن يتطرق الضعف والفساد إلى الجمعية. شرعت الجمعية في العمل فقُرئت أوراق واردة من فروع جمعية الإتحاد والترقي فيها شكاوى على بعض المأمورين، مما تمثلت [=بدا لي] معه أن جمعية القدس عبارة عن محكمة عليا، ثم استأذنت وذهبت إلى مجلس الملة، فرأيت الوجوه المتغيرة، وسببه أن الياس سلفيتي يخوّن جورجي زخريا ويتهم بقية الأعضاء بالانقياد إليه. فوضني مجلس الملة أن أؤسس جمعية الإخاء الارثوذكسي، وننتخب لها أعضاء عاملين من غير الأربعين.

يوم الأحد في ٢٥ و١٢ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور جاء عندنا يعقوب ابن خالتي مع امرأته وأمها وأخيها اميل، ثم جاءت امرأة خالي وجارتها، وظلوا عندنا إلى نحو الساعة العاشرة ثم ذهبوا، فخرجت فلقيت جرجي الخوري يرغي ويزبد على جرجي زخريا وبعض أعضاء المجلس، لأنهم يحاولون أن يخدعوا الطائفة، ويمكنوا الدير من إتخاد الاحتياطات اللازمة ضد أعمال الطائفة، فساء البعض هذا التحامل، فجربت أن أسكّن غضبه فلم يزدد إلا هياجاً. أيقصد في ذلك الياس سلفيتي؟ ثم حاولت أن أجمع الطائفة اليوم تحت شجرات كنيسة الخضر فلم أفلح، لأنهم نفروا من جورجي الخوري والياس سلفيتي. ثم ذهبت إلى بيت داود وبعد أن أقمت قليلا خرجت مع حنا ياسمينة من باب الخليل، فمررنا من أمام غرفة البلدية، فناداني فيضي أفندي العلمي وقال:

اليوم يجيء روحي أفندي الخالدي[٦٨]، واقترح عليّ أن أستقبله على المحطة [=محطة القطار] بخطاب، فلم استطع التملص من ذلك، فرجعت إلى البيت وكتبت بضعة أسطر، قلت له فيها ما خلاصته: لا أذكرك بواجباتك لأنك تعرفها، ولا أحثك على الإخلاص والوفاء فذلك دأبك، وإنما أترجم لك عما يجول في صدور آلاف من مواطنيك من السرور بلقائك . .الخ. بعد الظهر جاءني الدكتور الياس حلبي فقرأت عليه ما كتبت فاستحسنه، ثم ذهبنا إلى منزل الخواجا يعقوب خوري لنشتغل معاً في تأسيس الجمعية الارثوذكسية، فارتأينا أن ندعو الخواجا قسطندي تادرس غداً مساءً ونشتغل معاً. ثم ركبنا عربة وذهبنا إلى المحطة ولم يكن من الخطباء غيري فوقفنا في غرفة الإنتظار، وقرأت على روحي أفندي خطابي ولكن لم يجبني عليه لأنهم أخذوه حالاً، وركبوا العربات ونزلوا إلى المدينة. كانت منانة وعفيفة وأختي في المحطة، فذهبنا ومشينا قليلاً في الهواء النقي ثم نزلنا إلى البلد. بعد العشاء أخذت أختي وذهبنا إلى بيت داود ثم ذهبت مع حنا ياسمينة إلى قهوة أنيستي، حيث كان ينتظرنا فرنسيس أفندي، فعرض عليّ أن أساعده في دعواه مع مأمور الطابو لأنه يخشى أن يحكموا عليه بالحبس استبداداً، فوعدته أن أعرض الأمر على بعض أعضاء جمعية الاتحاد والترقي.

يوم الاثنين في ٢٦ و١٣ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فمررت على دكان جورج الخوري، فارتأى بعض الشبان أن ينزل وفد من مجلس الملة لمعايدة المتصرف فلم يهتم برأيه أحد. لا يزال سخط الطائفة على جرجي أفندي زخريا وأتباعه يزيد يوماً عن يوم. قالوا: اقترح مجلس الملة أشياء كثيرة فعارض فيها جرجي أفندي ليترك للدير وقتاً لأن يفسد علينا مشاريعنا. من جملة تلك الاقتراحات مكاتبة الأبرشية، وكتابة الوقائع في الجرائد، وطلب امتياز بجريدة لتكون لسان حال الطائفة، فشدد جرجي أفندي في تأجيل ذلك ليتمكن الدير من مكاتبة الأبرشية وإبعاد القلوب عنا، بل إذا لم يسع في ذلك فمكاتبتنا الأبرشية بعد شروعنا في العمل لا تجدي نفعاً، لأنهم يقولون: كان يجب أن تدعونا للاشتراك معكم قبل الشروع في العمل لا بعده. ذهبت من هناك وسلمت على مسس واي، فقالت: إن في نيتها أن تستأنف دروسها معي وأن تكلفني بتدريب المعلمة جوليا عواد على التعليم. في رجوعي مررت من أمام منزل جميل أفندي وكانوا على الباب فأمسكوا بي فدخلت. قدموا إليّ رسالة روحي أفندي التي طبعها في باريس على الحجر[٦٩]. ثم جئت إلى البيت فتغديت ونمت، وبعد النوم

---

٦٨ - روحي الخالدي: (١٨٦٤ - ١٩٢٣)، مؤرخ ورجل سياسة ولد في القدس وتعلم فيها وفي نابلس وطرابلس، حيث عمل والده، وهناك التقى الشيخ محمد عبده الذي نفي إليها بعد اخفاق الثورة العرابية.
تخرج من معهد الجامعة في الاستانة، سافر إلى باريس، وعاد إلى الاستانة، تردد على مجلس جمال الدين الأفغاني، عاد إلى باريس والتحق بكلية العلوم السياسية وتخرج منها، درس الفلسفة والعلوم الاسلامية والشرقية في السوربون العام ١٨٩٨. عين قنصلا عاماً للدولة العثمانية في مدينة بوردو الفرنسية حتى ١٩٠٨، عاد إلى القدس وانتخب عنها نائبا في المجلس النيابي في الاستانة.
واسع الثقافة متعدد اللغات، من اوائل المتنبهين للخطر الصهيوني والمتصدين له. ترك مؤلفات كثيرة منها: تاريخ الصهيونية.

٦٩ - الطباعة على الحجر: طريقة قديمة في الطباعة كانت معروفة مطلع القرن الماضي، وهي ببساطة طباعة تستخدم فيها ألواح حجرية.

خرجت فالتقيت بحنا العيسى واسعاف النشاشيبي، فذهبنا إلى عمارة الروس وجلسنا على المقاعد هناك قليلاً، ثم رجعنا فمررت على مخزن الأميركان وعلمت جون الاميركاني، ثم جئت إلى البيت فتعشيت، وبعد العشاء جاء الخواجات حنا ياسمينة والفونس لونسو، ثم ذهبت إلى منزل الخواجا يعقوب خوري وكان هناك الخواجا قسطندي تادرس، فقصصت عليهم ما أراه كل يوم من سخط الطائفة على جورجي أفندي زخريا، وقلت لهما: لا أكتمكم أني أنا أيضاً لا أزال مرتاباً فيه، ولولاكما لما انفككت عن محاربته وترصده، فلا يسعني الآن إلا أن ألقي المسؤولية عليكما. ثم نظرنا في تأسيس جمعية الإخاء، ففتشنا في الطائفة عن رجال أكفاء فلم نجد، وفي النهاية قر رأينا أن نكتب منشوراً إلى الأبرشية في القريب العاجل ثم ننظر في تأليف الجمعية.

يوم الثلاثاء في ٢٧ و١٤ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فذهبت إلى بيت داود لأرى منانة، لأنها أرسلت تدعوني، فأطلعتني على مقالة كتبتها عن الفتاة القدسية لتنشر على صفحات الأصمعي، وفي نيتها أن تجعلها الحلقة الأولى لسلسلة حلقات في الموضوع نفسه، فسررت لذلك كثيراً لأنها تلهو به عن حزنها، وتخلص من ضجرها، ويجعلها تهتم بالحياة اهتماما تمازجه لذة. فحملت رسالتها وذهبت فمررت على غرفة حنا أفندي العيسى وعرضت عليه المقالة، فوعد أن ينشرها في عدد هذا الشهر. بعد الظهر ذهبت علمت تلاميذي الأميركان، وكان بينهم هذه المرة الآنسة أنيتا صديقة داود. رجعت إلى باب الخليل، فصعدت إلى ادارة الخواجا قسطندي تادرس فلم أجد أحداً، فذهبت إلى بيت الخواجا يعقوب خوري، فجلسنا وكتبنا صورة للمنشور الذي سنرسله باسم جمعية الإخاء الأرثوذكسي إلى الأبرشية كلها، ثم جئت إلى البيت فجاء قسطندي لباط واتفقنا على أن نأخذ درسين في الأسبوع، مساء يوم الثلاثاء وصباح يوم السبت، ثم جاء الخواجا حنا ياسمينة فقال: سألوني اليوم عن شبلي الجمل ليتحققوا [من] مبادئه وأخلاقه، وهل تناسب أن يكون عضواً في جمعية الإتحاد والترقي فقلت: سألوني أنا أيضاً فأطلعتهم على جلية أمره.. ثم قمنا وذهبنا إلى غرفة حنا أفندي العيسى، وكان ينتظرني مع اسعاف النشاشيبي لنذهب نزور روحي أفندي الخالدي، فودعنا حنا ياسمينة وركبنا عربة وذهبنا. قدم له حنا العيسى رسالة طلب فيها منه أن يتحف الأصمعي بترجمة حياته. ثم جلسنا نتجاذب الحديث فوجدناه عَيِيّاً يكثر من أي نعم وراء كل كلمة. ولم نستشف من خلال حديثه عن أهليته لهذه المهمة التي انتدبه الشعب لها.. ثم قمنا ورجعنا إلى قهوة أنيستي وأكملنا سهرتنا.

يوم الأربعاء في ٢٨ و١٥ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فلقيت أعضاء اللجنة متأهبين للصعود لمواجهة البطريرك، فصعدنا،

فقال بتأليف نظارة عليا للبحث في مطاليب الطائفة وحقوقها ، فما كان منها في حيز الإمكان أجريناه ، فقلت : نحن لا نطلب الممكنات ولكن نطلب حقوقاً بقطع النظر عن كونها ممكنة أو غير ممكنة ، وإلا فشرط الإمكان لا نصل معه إلى نتيجة ، لأن الإمكان أمر نسبي ، فما نعتقده حقاً وممكناً قد تعتبرونه غير ممكن فنظل في جدال وأخذ ورد على غير جدوى . . وبعد كلام كثير أكثرت فيه من الإعتراض عليهم ، قمنا لنعطي الجواب للشعب . بعد الظهر جاءني الخواجا نخلة الدّدا فكتبنا معاً صورة المنشور على أمل أن نطبعه غدا أو بعد غد ونوزعه على الأبرشية ، ثم ذهبت فمررت على فرنسيس أفندي البينا فعرض عليّ رسالة يريد أن ينشرها في جريدة جرجي حبيب ، فقوّمت بعض عباراتها ، ثم مررت على خالي جورجي وإذا الطاولتان واللوح حاضران ، فدفعت إليه مفتاح الغرفة ليرسلهما إليها ، ودفعت له نصف ليرة أخرى . . بعد العشاء ذهبت مع أمي وأختي إلى بيت داود ، وبعد أن جلست قليلاً قمت فذهبت إلى مجلس الملة . . سردنا على الأعضاء خلاصةحدیثنا معالبطریرك فامتد للجج بين الأعضاء ، وانقسمنا إلى قسمين : قسم يستحسن تشكيل نظارة عليا للبحث في ما يمكن إجراؤه من مطاليب الطائفة ، وقسم يصر على طلب الحقوق كلها . إلا أن القسم الأول كان أكثر عدداً . ولكن القسم الآخر عارض ومنهم من أعلن استعفاءه من مجلس الملة . راجعنا حقوقنا الثمانية عشر ، فرأيت فيها اشتطاطاً في الطلب . ولعل جورجي زخريا أظهر رضاه عنها ليدفع مجلس الملة إلى هذا الموقف الحرج . كان المجلس يبحث فيها على غير هدى ، بحيث ظهر لي أننا لا نعرف ماذا نطلب ولا كيف نحارب . وددت لو نقتصر من مطاليبنا على الحق الواضح الذي يخولنا الدخول في الرهبنة . واعتمدت أن أدرس المسألة ملياً .

يوم الخميس في ٢٩ و١٦ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فلقيت بعض أعضاء المجلس ، فجعلنا نتكلم عن جلسة ليلة أمس ، فقلت لهم : السر في هذه الاختلافات والمنافرات أننا لا نعرف ما هي حقوقنا ، فالواحد يقول كذا والآخر يقول كذا والكل يخبط خبط عشواء ، فتتعارض الأفكار وتتباين الآراء ويشتد اللجاج . أضف إلى ذلك سوء التفاهم لأننا لا نزال في بدء الإجتماعات ، فلغة الواحد غير مألوفة عند الآخر وأسلوب هذا يخالف أسلوب ذاك ، ثم أن هناك بقايا شكوك لا تزول مرة حتى تظهر أخرى . فجهلنا ماذا يجب أن نطلب وسوء تفاهمنا وارتيابنا الواحد في الآخر ، كل ذلك من شأنه أن يثير الخلاف والشقاق بيننا . . . ثم جئت مع نخلة الدّدا والياس حلبي إلى بيتنا وجعلنا ندرس حقوقنا ، فرأيت في مطالبنا الثمانية عشر أننا لم نفتكر بغيرنا أولاً ، وأننا في بعض مطاليبنا لم نطلب الحق بل نقترح اقتراحاً . فاحترت هل كان ذلك عن سهو منا أو عن تعمد يراد منه تنفير الابرشية منا وتعجيز الدير . ولعل لجرجي زخريا ارباً في ذلك . بعد الظهر علّمت الأميركان . مررت على الارشديكن داولنك وكيل مطران الانكليز فلم أجده . رجعت إلى البيت ثم خرجت إلى باب الخليل فمررت

على حنا أفندي العيسى فأقمت عنده قليلاً، ثم رجعت إلى البيت فتعشيت، وذهبت إلى مجلس الملة فترأست الجلسة، وجعلت همي أن أزيل الخلاف فذكرت لهم الأسباب التي تدعو إلى ذلك، كما هو مذكور اعلاه، فارتاح الحضور إلى البحث، وكنا كلنا نتكلم بهدوء ولطف، مما أمنت منه قرب زوال الخلاف. واقترح عيسى نخلة أن يدعو الى مجلسه بعض أعضاء المجلس الذين يختلفون في الرأي ليتفاهموا، فاستحسن الحضور رأيه وانصرفنا على أمل أن نتوفق جميعنا إلى اكتشاف الخطة التي يجب أن نسير عيها، وإلا فما دمنا نجهل ونرتاب ولا نتفاهم، فمصير مجلسنا إلى الإنحلال وحقوقنا إلى الضياع.

يوم الجمعة في ٣٠ و١٧ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فذهبت مع عيسى نخلة وحنا ياسمينة إلى بائع الكراسي، واتفقنا أن نشتري كراسي حديد [ية]، وهنا مجال لأن أسجل جميل هذين الصديقين؛ فقد دفع الأول الثمن وانتدب الثاني نفسه لمساعدتي والإهتمام بأمري. ثم تركتهما وذهبت عند الارشديكن داولنك، فطلب اليّ أن اساعده في التحقيق عن البطاركة السوريين الذين رقوا الكرسي الأورشليمي، ثم سألني عن الشروط التي يشترطها الارثوذكسيون ليكون القديس قديساً، فوعدته أن أساعده بما يصل إليه إمكاني، ثم سألني عن حركة الطائفة وقيامها بالمطالبة بالحقوق، ولكن ما كدنا ندخل في الموضوع حتى جاءه ضيوف، فأجلنا الكلام على ذلك إلى فرصة أخرى. بعد الظهر علمت جون الأميركاني في مخزنهم، ثم صعدت إلى منزلهم وعلمت ابن أخت الخواجا فريدريك، ثم علمت موسى العلمي. رجعت إلى باب الخليل. ولما جاءت الساعة السادسة ذهبت مع الخواجا عيسى نخلة إلى منزله، حيث اجتمعنا مع بعض أعضاء المجلس، وجلسنا نعدل مطالبينا ونسوي الخلاف الواقع بين أعضاء مجلس الملة، فاتفقنا أن نطلب تأليف مجلس مختلط بصورة دائمة يتجدد انتخابه كل سنة، من اشغاله [=مهماته] النظر في اصلاح الطائفة ورفع شأنها أدبياً ومادياً، والمطالبة بالحقوق والمساواة ضمن دائرة القانون والعقل والإمكان. منشأ الخلاف بيننا أن بعض الشيوخ يريدون المسالمة والمداراة والشبان لا يعبأون بذلك. الأولون يحسبون أن الطائفة ضعيفة وعاجزة عن أن تثير حرباً ضد أخوية القبر المقدس، والشبان يحسبون أنهم أقوياء وأن الحق في جانبهم. في رجوعنا انفردت بالخواجا نخلة كنن، وحثثه أن ينصح لجرجي زخريا أن يجتنب مواقع الشبهات، وإلا فإن كثيرين واقفون له بالمرصاد ويتعمدون أذيته. سهرت عند حنا أفندي العيسى.

يوم السبت في ٣١ و١٨ ت١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور جاء الخواجا قسطندي لباط وأعطيته الدرس الأول، ثم جاء على إثره الخواجا بندلي الصائغ، ولما انتهينا من الدرس كتبت لبندلي المذكور رسالة إلى أخيه ميخائيل في بوستن، ثم ذهبت

إلى مطبعة جورجي حبيب، رجاء أن أستعين به في ما كلفني به الأرشديكن داولنك فلم أجد عنده غناء. فذهبت إلى غرفة حنا أفندي العيسى فراجعنا بعض مسودات الأصمعي المهيأة للطبع، ثم رجعت إلى الغرفة فتغديت ونمت، وبعد النوم ذهبت إلى مستعمرة الأميركان وأعطيتهم درساً. في المساء ذهبت إلى مجلس الملة متأخراً قليلاً، فنظرنا في الشروط التي وضعناها أمس مساء في بيت الخواجا عيسى نخلة، فوقفنا عند البند الذي يقول: أن من أشغال المجلس المختلط المطالبة بالحقوق والمساواة ضمن دائرة العقل والإمكان والقانون، فاعترضت على كلمتي العقل والإمكان لأنهما غير محدودتين اولاً، ولأنهما لا يدلان على حقوق بل على معقولات وممكنات ثانياً، فإذا كان طلبنا معقولاً أو ممكناً ولكنه غير حق فلا يليق بنا أن نطالب به، فأيد رأيي الأكثرية وقررنا أن نحذفهما. أخذنا فرصة خمس دقائق للإستراحة، وكأن متري دميان في أول الاجتماع استبطائي فقال: كان يجب أن يحضر لأن معه دفتر الوقائع، فلم يرق كلامه في عيني أخي يعقوب فتناوله بلسانه، ثم لم يكتف بذلك فلما أخذنا فرصة خمس دقائق عاد إلى كلامه بخشونة وفظاظة، فلم أطق ذلك فصحت به فسكت.. وأقبلت على متري دميان أعتذر اليه.. ثم خرجنا وكانت الطائفة مجتمعة في غرفة مجلس الملة القديمة التي استأجرتها للمدرسة الليلية، وأسسوا جمعية لم أعرف عنها شيئاً بعد. ثم صعدت إلى غرفة حنا أفندي العيسى وأكملت السهرة عنده.

يوم الأحد في ١ ت٢ غ و١٩ ت١ ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فلقيت الطائفة على جانبي الطريق، فسألنا عن البطريرك، فقيل: إنه في قصر بنيامين، فركبنا عربات وذهبنا ودخلنا القصر في العربات فأطل علينا جراسموس، مدير بنك كريديليونة الفرنساوي من نافذة وقال: البطريرك ليس هنا، فقد ذهب ليقدس في إحدى الكنائس ولم يرجع بعد. إلا أن بعض الجماعة ذهبوا إلى القصر الآخر المحاذي لمنزل جراسموس، وقرعوا الباب فنزل البطريرك بذاته. ويل للكذابين المنافقين!! دخلنا بهو الاستقبال ونفسي تغلي. وبعد قليل دخل علينا أحد شيوخ الحرم [=الأقصى] ومعه جراسموس المذكور فقلت للشيخ: هل قالوا لك أن البطريرك هنا أم ليس هنا، فقد أطل علينا نحن الخدامون وقالوا ليس هنا؟ ثم وضعت رأسي بين يديّ وجعلت من وقت إلى آخر أفتح ساعتي، وجعل جراسموس يبرئ ساحته ويوجه كلامه إلى الجهة التي أنا فيها، فلم ألتفت إليه، فلما أعياه الأمر سأل: كم الساعة؟ فلم نرد عليه. ناولنا البطريرك مغلفاً فيه صورة مطالبينا، وقلنا له: نريد الجواب غداً أو بعد غد. ثم رجعنا إلى القدس، فذهبنا تواً إلى بيت داود وقصصت عليهم ما جرى. أخّر جورجي حبيب طبع الأصمعي فحسب حنا أفندي العيسى ذلك عن قصد لئلا ينتشر الأصمعي وفيه مقالتي فيقرأه الشعب في الطرق. بعد الظهر نفد طبعه وتجليده فدفع إليّ حنا أفندي عشرة أجزاء لمنانة لتوزعها على صويحباتها فحملتها وذهبت إلى منزلهم فسرت بها وابتهجت لسرورها. ثم ذهبت مع حنا أفندي إلى قهوة حامس، فجاء

الخواجات سليمان الدّدا وعيسى فراج فجلسا معنا إلى أن آذنت الشمس بالغروب، فقمنا ورجعنا مشاة. بعد العشاء ذهبت مع أمي وأختي إلى بيت داود وسهرنا هناك، في رجوعنا أمطرت السماء.

يوم الاثنين في ٢ ت٢ غ و٢٠ ت١ ش سنة ١٩٠٨م

استحممت بسرعة ولم أفطر، وصعدت إلى مقبرة الكاثوليك، لأن اليوم عيد تذكار الموتى فوجدت المقبرة مقفلة، فدخلت مدرسة صهيون، فاستقبلني المعلمون وقدموا لي قهوة. كلفتهم أن يجمعوا لي بعض زهور من بستانهم ففعلوا فشكرتهم، وحملت الزهور وذهبت إلى المقبرة، فوجدت خال داود هناك، فأكببت على قبر داود أبله بدموعي، ونثرت معه الزهور فوق قبره. ثم بعد قليل أقبلت أمه وأمي وأمهات كثيرات ومنانة وعفيفة وبعض أترابهما، فعقدن مناحة على قبره تفتت الأكباد.

إذا قبح البكاءُ على دفين　　عددت بكاءك الحسن الجميلا

رجعنا إلى منزله فأعادت أمه النواح والعويل . . فأخذت عفيفة وأوصلتها إلى المدرسة، ثم صعدت إلى منزل مطران الإنكليز واعتذرت إلى وكيله الارشديكن داولنك بأني لم أتمكن من تحقيق ما كلفني به، واستمهلته أسبوعاً آخر. لما أقبلت على عمارة المطران كانت بنات المدرسة خارجات من الكنيسة وفي مقدمتهم سلطانة، فدخلت المدرسة قبل أن ألمحها. رجعت إلى البيت وجعلت أفطر وإذا بسلطانة داخلة فخفق قلبي لدخولها، نزلت إلى البلد لتشتري بعض أشياء فصعدت إلى غرفتي، وعبأت أركيلتي ووضعت الكرسي الكبير بجانبي وناديتها: فصعدت وجلست بجانبي، فقلت: مالك لا تكتبين؟ وقبل أن تجيب دخل سليم ابن عمي ثم حنة ابنة عمي، وبعد أن جلسوا قليلا خرجت سلطانة مع حنة إلى السوق، فخرجت على الأثر وأخذت الكراسي إلى غرفة الدرس، وأرسلت مسعدة لتغسلها، ثم رجعت الظهر إلى البيت فأرسلت ميليا لتدعو سلطانة فقالت: إنها ذاهبة إلى المدرسة الآن، فكدت أذوب شوقاً إليها . . لم أذهب اليوم إلى مستعمرة الأميركان لأعلّم موسى. في المساء ذهبت إلى غرفة الدرس فأقبل التلاميذ وبينهم عدد كبير من التلاميذ الجدد، ودفع كل منهم مجيدية. وبعد أن قسمتهم إلى صفوف وعينت لهم أوقات الدرس انصرفنا، فذهبت إلى منزل الخواجا سليمان الدّدا لنصلح بين جرجي أفندي والياس سلفيتي، فلم يشأ السلفيتي أن يتكلم إلا في حضور الأربعين.

يوم الثلاثاء في ٣ ت٢ غ و٢١ ت١ ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فطفت قليلاً، ثم رجعت إلى البيت وتغديت ونمت. وبعد النوم ذهبت إلى مستعمرة الأميركان وعلمت صفي، وكان الدكتور الياس حلمي معي فدعونا إلى الصالون فشربنا شايا ثم نزلت إلى البلد، فجاءني في الساعة السادسة والنصف قسطندي لبّاط وأعطيته الدرس الثاني فدفع لي ريالا

من أصل الحساب. ثم ذهبت الى المجلس المِلي وكان حافلاً بأعضائه وغيرهم من الطائفة، ففتحوا مسألة الياس سلفيتي وجرجي زخريا، فكانت رواية الياس سلفيتي مخالفة لكلامه الذي تفوه به في بعض الجلسات السابقة ضد جرجي زخريا، فكتبوها وأجّلوا النظر فيها إلى جلسة أخرى. ثم دار الحديث على ماذا يجب أن يعمل مجلس الملة، فقرت الأكثرية أن يذهب وفد غداً ليرفع شكوى الى المتصرف شفاهاً. ثم تليت خطب فيها حث للطائفة على الإتحاد والثبات، وقُرأت رسائل واردة إلى مجلس الملة من جهات مختلفة يقترحون علينا أن ننشئ جمعية عمومية يكون مركزها في القدس، وأن ننشئ جريدة تكون لسان حال الطائفة، فجاءت اقتراحاتهم طبق اقتراحاتي السابقة. ثم كان سليم القاري وتودر يانكو عادا الى مسألة الياس سلفيتي، وكأن [فكرة] رفع الشكوى شفاهاً لم ترق الياس سلفيتي وجرجي البيضا فثار ثائرهما وأرغيا وأزبدا، ثم خرجا من المجلس يقذفانه بالشتائم والمسبات، مما كاد يثير المجلس وبالتالي يفرقه. ولكن عقب خروجهما سكوت تام وتابع المجلس أعماله، ثم جئنا إلى قهوة عند باب الخليل، وجلسنا في حلقة ندخن ونتداول أحاديث مختلفة، إلى أن انتصف الليل.

يوم الأربعاء في ٤ ت ٢ و ٢٢ ت١ ش سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت الى مكتبي، فجاء أعضاء اللجنة المكلفون بمراجعة المتصرف، فقمنا وتوجهنا إلى منزله في دار سليم أيوب وراء العمارة الروسيّة، وأرسلنا إليه مع حاجبه: هل يقابلنا هنا أم في دار الحكومة. فأجاب في دار الحكومة، وبالغ في الإعتذار، فرجعنا على بناء أن نذهب إلى دار الحكومة اليوم بعد الظهر. أما أنا فاعتذرت بأني مشغول. ثم جئنا إلى مكتبي وكتبنا صورة [كذا] كتاب مفتوح إلى خصوم مجلس الملة وأشياعهم، لينشر على صفحات الأصمعي، ثم حملنا الكتاب وذهبنا الى مطبعة جورجي حبيب مع حنا أفندي العيسى، واتفقنا أن ينشره ملحقاً بالعدد الخامس من المجلة، ووعد أن ينجز طبعه غداً صباحا. ثم جئت إلى البيت فتغديت ونمت، وبعد النوم حلقت وخرجت، وإذا الطريق مزدحمة باليونان نزلاء القدس، فسألت عن السبب فقيل: إن البطريرك استدعى تلاميذ مدرسة المصلبة ونزلاء اليونان ليدفعوا عنه هجمات الطائفة، وأن الحكومة أرسلت الخيالة والجند مسلحين، فوضعت قسماً منهم في كنيسة أبونا ابراهيم، وأن الرهبان كانوا مجتمعين على سطح الدير على استعداد للحرب. فغلي دمي وثارت نفسي، ولكنني غالبت نفسي وذهبت إلى مستعمرة الأميركان، فعلمت موسى العلمي ثم علمت لبيبة أخت الخواجا فريد نصيف ورجعت إلى مكتبي، فجاء بعض أعضاء المجلس الملي وتداولنا البحث في مسألة اليوم، فلم أملك طبعي وقلت لهم: يهددنا الدير بتلاميذ المدرسة ونزلاء اليونان ونحن ساكتون، دعوني وحدي فأحاربهم وعندي من الطرق الفعالة ما لم يخطر على بال أحد.

في المساء علمت تلاميذي ثم ذهبنا إلى المجلس المِلي، وكان هناك عدد كبير من الطائفة، فكان من رأي

جرجي زخريا أن نقيم الحجة على البطريرك في كتاب نرسله اليه باسم المجلس فعارضت في ذلك، إلا أن الأكثرية كانت معه وقررنا أن نكتب إلى الأبرشية وإلى البطاركة، وننشر الوقائع على صفحات الجرائد، وعيّنا لجنة لذلك أنا من جملتهم.

يوم الخميس في ٥ ت ٢ و ٢٣ ت ١ سنة ١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور خرجت فلقيت بعض الشبان وقوفاً على الطريق يمنعون الأولاد والنساء من الذهاب إلى الدير لحضور الإحتفال، ثم نزلت إلى سطح [كنيسة] القيامة، فلقيت شبان اليونان مجتمعين، فلما أطللت عليهم اشرأبت أعناقهم إليّ، ثم دخلت باب كنيسة مار يعقوب فدخلوا ورائي، وكانت العساكر والخيالة مدججة بالسلاح. ذهبنا الى مطبعة جورجي حبيب فصلحت مسودة الكتاب المفتوح [الموجه لخصوم مجلس الملة]، ثم ذهبت إلى مكتبي فجاء جورج أفندي زخريا وبعض أعضاء اللجنة، فكتبنا صورة العرض وصورة التلغراف إلى البطريرك المسكوني، وخرجنا على بناء أن نجتمع غداً لإتمام العمل.

تغديت ونمت، وبعد الغداء ذهبت إلى مستعمرة الأميركان وعلمت صفي، ثم رجعت إلى البيت فتعشيت، وبعد العشاء ذهبت إلى مدرستي الليلية. جاءني تلميذان جديدان. بعد المدرسة ذهبت مع حنا أفندي العيسى إلى بيت ابن خالتي يعقوب لنعايده. في الطريق سمعنا صياحاً ثم رأينا البوليس يركض، فجئنا إلى محل الصوت، إلى منزل أمام البنيان البلدي، فرأينا الناس مجتمعين حول امرأة يهودية مجروحة في يدها وأخرى في كتفها، وقد فرّ الضاربون إلا واحداً منهم حال [البوليس] دون هربه، فما كان منه إلا [أن] ألقى بنفسه من سطح الدار وهرب، فتعقبه رجال البوليس وأمسكوه. لو جرى مثل ذلك في أيام الاستبداد لتصامَّ [تظاهر بالصمم] البوليس، ولم يقدم الضارب على القاء نفسه عن سطح المنزل. ثم ذهبنا الى بيت ابن خالتي وسهرنا هناك الى نحو الساعة الحادية عشرة. ولما رجعنا مررنا على نقطة البوليس فوجدناها حافلة بالناس، والبوليس والعسكر يأخذون [=عاكفون على] استنطاق الضارب، وإذا هو ابن عم اسعاف النشاشيبي...

يوم الجمعة في ٦ ت ٢غ و ٢٤ ت ١ سنة ١٩٠٨

بعد الاستحمام والرياضة والفطور خرجت، فلقيت جرجي أفندي زخريا والدكتور الياس حلبي، فمررنا على حنا أفندي العيسى، وذهبنا إلى مكتب الخواجا متري تادرس، حيث جلسنا لنكتب ما بدأنا به أمس. فكتبنا العريضة للمتصرف نقيم فيها الحجة على تحرش أخوية القبر المقدس بنا وتهجمهما علينا في يومي الأربعاء والخميس. ثم كتبنا بلاغاً الى البطريرك أننا عزمنا على الانقطاع عن الكنيسة، لأننا نَعُدُّ مظاهرتهم في اليومين المذكورين تحرشا بنا ليجرونا إلى مشاكل ووقائع. وكتبنا تلغرافاً إلى البطريرك المسكوني شرحنا

فيه الحادثة، وذكرنا عزمنا على الإنقطاع عن الكنيسة إلى أن ننال حقوقنا، وإذا لم يتدارك الأمر أفضى الأمر الى خراب الكنيسة خراباً مستمراً. وقد كان في النية أن نكتب منشوراً للطائفة الأرثوذكسية في الأبرشية كلها، ولكن لم يتسع الوقت لذلك فأجلناه إلى فرصة أخرى. بعد الظهر نمت، وبعد النوم ذهبت إلى مستعمرة الأميركان وعلمت موسى العلمي..

في المساء ذهبت إلى مدرستي الليلية وعلمت تلاميذي، ثم ذهبت إلى المجلس الملي وكان حافلاً بالأعضاء وشبان الطائفة، وهذه أول مرة رأيت [فيها] الأعضاء جميعهم مقبلين على العمل باهتمام واتفاق. قيدوا صورة العريضة والبلاغ والتلغراف في دفتر الوقائع، وأمضى عليها الجميع، ثم انتدبني المجلس مع ميخائيل اطليل لنذهب عند نجيب أبو صوان لنكلفه بترجمة العريضة والتلغراف، فأبى، لأنه مستاء من الملة الأرثوذكسية لأنها لم تصوّت له في الإنتخاب للمبعوثان، فرجعنا وقرّ رأينا أن نقدمهما باللغة العربية، ثم قرّ رأي المجلس أن يمتنع الكهنة من الصلاة، وعينت لجنة لتبليغهم ذلك، والتعهد لهم أن الملة مستعدة لدفع مرتباتهم، ولكن قبل الإنصراف وقع سوء تفاهم بين اثنين فتنافرا، فتداخل الجمع حالاً وأصلح بينهما.

يوم السبت في ٧ ت٢ غ و٢٥ ت١ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور خرجت أثبُ وثباً مرحاً ونشاطاً. قبل الخروج جاءني قسطندي لباط فأعطيته درساً. قدم بعض أعضاء المجلس الملي العريضة للمتصرف، فاعترض عليها لأنها مختومة بختم للمجلس الملي، لأنه أبى الاعتراف به، وطلب أن تكون ممضية بإمضاءات أفراد الطائفة. وقدموا البلاغ للبطريرك ورفعوا التلغراف للبطريرك المسكوني. وذهب وفد عند الكهنة ليبلغوهم قرار مجلس الملة بالإنقطاع عن الكنيسة، فترددوا واستمهلوهم إلى ما بعد الظهر ريثما يواجهون البطريرك. لا عجب في ترددهم فإنهم جبناء وإذا لم تسقهم الطائفة سوقاً بعصاً من حديد انحازوا إلى الدير. بعد الظهر حلقت وذهبت إلى مستعمرة الأميركان وعلمت صفّي وقد زاد عددهُ. جاءَت أُخت جون الآنسة روث وهي الآنسة التي كنت أُعجب بجمالها وأدبها، والآنسة كريس أُخت السيدة برثا. بعد الدرس قالت لي الآنسة كريس: إنهم يقبلون أُختي بكل سرور، فسررت لذلك سروراً عظيماً. رجعت إلى البيت، فوجدت أُختي ميليا عند سلطانة فدخلت عندهم فعبّأوا لي أركيلة، ثم جاءت سلطانة إلى بيتنا فتعشيت وهي جالسة بجانبي، ثم ذهبت لأوصلها إلى البيت، وخرجت لأعلّم صفّي في المدرسة الليلية، فوجدت الطائفة مجتمعة في مخزن إلياس مشبك ينتظرون جريس كتن وتودر يانكو وسليم القاري، وحنا القندلفت، لأنهم ذهبوا عند البطريرك، لأنه استدعاهم، فجاءَني تلاميذي واعتذروا عن امتناعهم عن الدرس، فاتّفقت معهم أن لا يكون درس من الآن فصاعداً يوم السبت. بعد قليل جاء المذكورون فقالوا: إن البطريرك سألهم لماذا امتنعتم عن الكنيسة، وأي دخل لذلك في طلب حقوقهم؟. أرسلت الطائفة تلغرافات بامتناعها عن الكنيسة، إلى المقطم والأهرام

ولسان الحال والثبات وشركة روتر [رويتر، للأنباء]، ثم رجعت إلى البيت، فوجدت عائلة أُختي هيلانة عندنا، ولما ذهبوا أوصلت أُختي إلى بيت سلطانة لتنام عندها.

يوم الأحد في ٨ ت٢ غ و٢٦ ت١ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور خرجت فالتقيت ببعض أعضاء المجلس، فذهبنا إلى مكتبي، وهناك قرئ علينا صورة التلغراف الوارد من الصدارة [العظمى=رئاسة الوزراء] للمتصرّف، ومعناه أنه فهم أن الملة الأرثوذكسية تتطلب مطاليب تخالف امتيازات البطركخانه والتعامل، فيقتضي تفهيم من يلزم اجتناب ذلك. فقرّ رأي الأكثرية أن نرفع تلغرافاً إلى الصدارة، نقول فيه: إن مطاليبنا لا تخالف الامتيازات ولا التعامل، وتلغرافاً آخر نستصدر فيه أمراً إلى المتصرّف أن يعترف بمجلس الملة الذي ألّفناه استناداً إلى القوانين، وأسوة بسائر الممالك المحروسة. ثم قرأ الدكتور الياس صورة المنشور إلى الأبرشية الذي كلف بكتابته فأجمعنا على طبعه وتوزيعه. رجعت إلى البيت فلقيت نيكوغوس فذهبت معه إلى منزله، وكتبت له كمبيالة بمئة ليرة فرنساوية أخذها من عديله ونيس الحلبي، ثم ذهبت إلى منزل يعقوب أفندي الخوري، فسألني عن أعمال المجلس فسردتها عليه من أولها إلى آخرها، ثم جئت إلى بيت داود فجاءت ميليا وسلطانة، فاتفقنا أن نذهب إلى البقعة نشم الهواء، فأبت سلطانة أن تذهب فألححنا عليها فلم تقبل، فذهبنا وحدنا وتركنا سلطانة ومنانة. ركبنا عربة أنا وميليا وعفيفة وماري بركات وأمين وذهبنا إلى المحطة، ومن هناك مشينا على خط السكة الحديدية إلى أن جاء القطار، فرجعنا إلى بيت داود فوجدنا سلطانة تنتظرنا، فقرّ رأينا أن نذهب مساءً إلى منزل الأميركان. أخذت ميليا وسلطانة وجئت إلى البيت، فسألتها في الطريق: لماذا لم ترد أن تذهب معنا؟ فقالت: كنت تَعِبَة فأنكرت ذلك منها، فحلفت بحياتي، وقالت: لم أكن أحلف إلاّ بحياتك، فطربت لذلك. بعد العشاء أخذت منانة وعفيفة وماري بركات ومررنا على سلطانة فذهبنا إلى منزل الأميركان. جلست بجانب فيرمن فقال: سمعت أن سلطانة خطيبتك فأُهنئك، فقلت له: لم يتم بعد شيء من ذلك. ثم خرجنا فوقفت في باب المدرسة، إلى أن دخلت سلطانة وأغلقت الباب.

يوم الإثنين في ٩ ت٢ غ و٢٧ ت١ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور خرجت فمررت على أبي سعيد الأصمعي [= حنا العيسى] وذهبنا إلى منزل قنصل الإنكليز، لنتفرّج على وفود المعيدين، فجاء ضباط العسكرية يحف بهم الجلال ليحيوا الأُمّة الإنكليزية بواسطة قنصلها في القدس، لأجل المحالفة بين الأُمّتين في الهجوم والدفاع. بعد الظهر ذهبت مع ميليا والدكتور الياس حلبي إلى بيت داود، فدفعت إليّ منانة صورة الرسالة الثانية إلى الأصمعي. ثم ذهبت إلى مستعمرة الأميركان وعلمت موسى العلمي، بعد الدرس أخذته ومشينا على طريق جبل الزيتون إلى أن

توارت الشمس فرجعنا. جئت إلى البيت فتعشيت، ثم ذهبت إلى المدرسة الليلية، ولما انتهى الدرس خرجنا لنذهب إلى مجلس الملة، وإذا بلهيب مرتفع إلى عنان السماء فركضنا إلى جهته، وكان الناس يتراكضون من كل جهة، حتى جئنا إلى محل الحادثة، فوجدنا طاحون [=مطحنة] ڤاليرو قد التهمتها النيران، ولم يستطع أحد أن يُطفئها، أولاً لأنهم لم يجدوا آلة إطفاء. وثانياً لأنهم لم يجدوا ماءً. وجل ما استطاعوا أن يعملوه أن ينزعوا من الأبنية المجاورة كل الأخشاب.. ثم رجعنا إلى مجلس الملة فوجدناه على وشك الانفضاض، وكان آخر بحث يتداولونه أمر الإنقطاع عن الكنائس، وهل يجوز للكهنة أن يُعمّدوا أو يجنزوا في الكنائس، فرأيت أن بين الأعضاء من يجيز ذلك، إلا أن الأكثرية قرت على الإنقطاع التام. وإذا طلب الكهنة لعمّاد أو لجناز أجروا الخدمة في البيوت، وإلا فإن مجلس الملة يتعهّد أن يدفع رسم الكاهن إذا أصرّ الطالبون على إجراء الخدمة في الكنائس.. ثم خرجنا فذهبنا إلى قهوة أمام باب الخليل وجلسنا نتداول الحديث في الموضوع، ثم انصرفنا فذهبنا مع أبي سعيد إلى قهوة صموئيل الألماني وسهرنا هناك إلى نصف الليل.

يوم الثلاثاء في ١٠ ت٢ غ و٢٨ ت١ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور خرجت فمررت على المطبعة، وكان هناك أفريئوس ترجمان قنصل اليونان في القدس، وهو على ما قيل ممن يحرّضون الدير على رفض مطاليب الملّة، فقال لي جرجي حبيب: أخشى أن ترجعوا إلى الوراء، فقلت له بحماسة: نحن لا نرجع إلى الوراء، لأننا تربينا تربية راقية تكفل ذلك، فقد تربيت على يد أبي الطيّب المتنبي وأبي تمّام الطائي والقاضي الرملاوي وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير وخالد بن الوليد وغيرهم ممن يفتخر التاريخ بهم، ولم أتربَّ على الذل والمسكنة في مدارس الرهبان الخبثاء... ثم ذهبت إلى غرفة الأصمعي. بعد الظهر ذهبت إلى مستعمرة الأميركان وعلمت صفي ثم رجعت إلى البيت وجلست وراء الطاولة أكتب، إلى أن جاء الخواجا قسطندي لباط فعلمته. وبعد الدرس خرجت فمررت على الأصمعي فلم أجده، ثم مررت على الخواجا يعقوب خوري فلم أجده، فذهبت إلى بيت ابن خالتي يعقوب فوجدت الجميع هناك. أدرنا أحاديث مختلفة إلى أن استطردنا إلى مقالة سلمى وأخواتها للأصمعي ومقالة منانة فقلت: يجب على الفتاة إذا أرادت أن تجاري الرجل أن تقبل على المطالعة مثله، ولا يكفي أن تطالع الجرائد والمجلات والكتب الأوربية بل العربية أيضاً، وإلا ازدادت مسافة الفرق بينهما. وفضل الجرائد العربية أنها تتناول شؤوننا الخاصة. إلى غير ذلك من الكلام، فقالت الآنسة حنة: عزمت مع الآنسة منانة أن ننشئ جمعية للبنات وسنجتمع غداً للنظر في ذلك، فقلت لها: أحبّ أن أتطفّل عليكما بالحضور لعلي أستطيع أن أُساعدكما.. ثم انصرفنا. خلا بي اليوم فيضي أفندي العلمي ونصح لي أن أعتدل في محاربة الدير، وأن لا أركن على الملة في الثبات معي إلى النهاية. لا شكّ أنه مرسل من طرف البطريرك.

يوم الأربعاء في ١١ ت٢ غ و٢٩ ت١ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فمررت على الأصمعي، فعرض عليّ ترجمة روحي الخالدي بعثها إليه لينشرها في الأصمعي، فارتأينا أن نلخّصها لأنها طويلة، ثم قرّ رأي الأصمعي أن ينشرها على حدة ملحقة بالمجلة. ثم رجعت إلى البيت فتغديت ونمت، وبعد النوم ذهبت علمت موسى العلمي، ثم رجعت إلى باب الخليل إلى غرفة الأصمعي فجلسنا على البالكون، فجاء الدكتور إلياس وجرجي أفندي زخريا، فأدرنا حديث المجلس [الملّي]، فخطر لنا أن ينزل أحدنا إلى يافا ليحثّهم على الإتحاد معنا في العمل، وأن ينقطعوا عن حضور الإحتفال الذي سيقوم في اللد في عيد مار جريس [٧٠]، فعرضت الأمر على صاحب الأصمعي فقال: أكفيكم مؤونة ذلك إذا توليتم طبع ملازم الأصمعي في غيابي، فتعهدنا له بذلك. وكان عندنا اجتماع الليلة في جلستنا السرّية، فاتفقت مع جرجي أفندي زخريا والدكتور إلياس أن أتخلّف عن الحضور لأساعد الأصمعي في إعداد الملازم، ثم نزلت لأتعشى فقيل لي: إن فيضي أفندي سأل عنك لتساعده في كتابة خطاب يودع به المندوبين في اجتماع سيعقدونه غداً مساءً في اللوكندة الكبيرة إكراماً لهم، فالتزمت أن أذهب رأساً إلى المدرسة الليلية، وبعد المدرسة ذهبت إلى بيت فيضي أفندي وكتبت له خطاباً مختصراً، ثم جئت إلى غرفة الأصمعي، وجاء جرجي حبيب فدفعنا له مسوّدات الملزمة الثانية. تعشيت في اللوكندة وسهرنا إلى نصف الليل.

يوم الخميس في ١٢ ت٢ غ و٣٠ ت١ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور خرجت فذهبت رأساً إلى المطبعة، ووقفت على صفّ الملزمة الثانية من الأصمعي وطبعها. قيل لي: إن إسماعيل بك الحسيني يسأل عنك، فخرجت أُفتّش عنه فلم أجده، وكنت كيفما التفت أسمع من يقول: إن إسماعيل بك يسأل عنك. رجعت إلى البيت فتغدّيت، وبعد الغداء جلست وراء الطاولة وكتبت خطاباً أودّع به المبعوثين قلت فيه: إن المهمة التي اسندناها إليكم تحتاج إلى جرأة جنان وطلاقة لسان وبلاغة بيان وقوّة برهان. ثم خرجت فمررت على المطبعة فوجدت إسماعيل بك هناك، فقال: كلفتني جمعية الإخاء العربي في الأستانة أن أؤلف فرعاً لها في القدس، واتفقت مع بعض رجال القدس على الإجتماع الليلة للنظر في ذلك.. فوعدته أن أحضر بعد المدرسة الليليّة. في المساء حلقت، وذهبت إلى اللوكندة الكبيرة للمأدبة، فجاء المتصرّف وفريق من أعيان المدينة وأدبائها وأرباب المقامات والخطط فيها، وبعد أن طيف ببعض ألوان الطعام افتتح الكلام فيضي أفندي العلمي، ثم تكلّم المبعوثون ثم توالى الخطباء. وختم الجلسة المتصرف بخطاب وجيز، ثم انصرفنا فذهبت إلى مستعمرة

---

٧٠ – عيد مار جريس: عيد القديس جوازيوس، من شهداء المسيحية في القرن الرابع للميلاد.

الأميركان حيث كان أشيل وخطيبته وأُختها وأخوها ومنانة وأمين. كلما ذهبت إلى الأميركان رأيت منهم انعطافاً إليّ واهتماماً بي. قصصت عليهم ما جرى الليلة وذكرت داود، ذكرت مواقفه في الخطابة ولا سيّما تلك المواقف التي كنا نحسب أن لا مجال لقائل فيها، فكان يقف وينتزع معاني جميلة ويتدفق في إلقائها بلغته المحبوبة ورشاقته العجيبة. رحمة الله عليك يا داود فقد كنت زينة المحافل، وموضع إعجابها ونكتة جمالها.

يوم الجمعة في ١٣ ت٢ غ و٣١ ت١ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور جاءَني أشيل، فسردت عليه أعمال المجلس من أوّلها إلى آخرها، وأطلعته على خطّتي وعلى الغاية التي أرمي إليها، وتواعدنا على الإجتماع مرّة ثانية لنشبع من الموضوع. ثم خرجنا فذهبت معه إلى مدرسة راهبات صهيون، حيث كانت تنتظره خطيبته وأُختها. دخلنا غرفة الإستقبال ننتظر نزولهما. تذكرنا داود فجالت الدموع في المآقي، ثم جاءَت خطيبته وأُختها وفتاة أُخرى فمشيت معهم بعض الطريق، ثم تركتهم وجئت إلى البيت فنمت. وبعد النوم مررت على المطبعة وأصلحت الملزمة الثانية من الأصمعي، ثم ذهبت عند الأميركان لأعلّم موسى العلمي فوجدت عنده الشيخ يُدرّسه القرآن فأعفيته من الدرس، وشربت الشاي مع بعض أفراد المستعمرة ثم رجعت إلى باب الخليل... بعد العشاء ذهبت إلى المدرسة الليلية وعلمت تلاميذي ثم ذهبت مع حنا ياسمينة إلى دار إسماعيل بك، فلم نجده، كأنه استبطأني فذهب، فرجعنا إلى باب الخليل وصعدنا إلى قهوة أنيستي وجلسنا ندخّن. ذكرنا أعمال المجلس الملي واستطردنا إلى ذكر ما يتقوّله عليّ الناس من التّشديد والتّطرّف، فقلت له: لا تطرّف في الحقّ وأقل تساهل فيه تساهل مع الحق والمبدأ والشرف. والشرف الحقيقي ما كان في الدم لا يخرج إلاّ بخروج الحياة. الشرف لا يُثمّن كما أن الحياة لا تُثمّن. الشرف ليس ثوباً مستعاراً يهون نزعه. ثم تطرقنا في الحديث إلى أحوالي، فقلت له: كتبت إلى أصحابي أن يمهّدوا الطريق أمامي ولكنهم لم يفعلوا، ليس لأنهم تهاونوا بأمري، ولكنهم لأنهم لا يريدون واندفعت في الحديث عن تأثر شديد. ثم خرجنا فمشيت معه إلى باب العمود وهو مقبل عليّ منعطف إليّ، ثم ودّعته ورجعت إلى البيت.

يوم السبت في ١٤ ت٢ غ و١ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور جاءَ قسطندي لباط فعلمته، ثم خرجت فذهبت إلى المطبعة، وهيّأنا مواد الملزمة الثالثة من الأصمعي فابتدأوا في صفها. رجعت عند الظهر إلى البيت فتغدّيت ونمت. بعد النوم خرجت وإذا بجريدة خطية أخرى يوزّعونها اسمها الناسك دفعوا إليّ منها نسختي. ذهبت لأُعلّم الأميركان فلقيت الخواجات فريدريك فستر وفريد نصيف راجعين فقالا: إن صفّك يعتذر إليك اليوم لأنهم ذهبوا إلى

شرفات [٧١]. فرجعت إلى المطبعة، فقيل: إن المواد ناقصة، فكتبت رسالة عن المأدبة التي أدبتها البلدية وأخرى عن سليمان البستاني [٧٢] مبعوث بيروت. ورد من يافا منشور مطبوع يقولون فيه: إنهم انقطعوا عن الكنيسة، فسُرّت الطائفة في القدس لذلك كثيراً. في المساء ذهبت إلى المطبعة لأصلح الملزمة الثالثة فلم تكن خالصة [كذا]، وبينما أنا هناك مع إسعاف، إذ جاء حنا أفندي العيسى فقبّلته وقبّلني وقصّ علينا حديث يافا. أسلمت إليه تصليح الملزمة الثالثة وذهبت فتعشيت، ثم ذهبت لأعلّم في المدرسة الليلية فلم يجئ أحد، فقررنا أن نعدل عن الدرس مساء يوم السبت، ثم ذهبت إلى منزل إسماعيل بك فدفع إليّ قوانين جمعية الإخاء في الأستانة، وقوانين الشعب في الخارج، فثارت حماستي وطربت للمشروع أي طرب، سألني إسماعيل بك عمّن أفكر أنه يصلح لهذه الجمعية من طائفة اللاتين، وقبل أن أُجيبه قال: ما رأيك في بشارة حبيب وسليم أيوب؟ فقلت له: ليس العربي من ينتسب إلى العرب، ولكنه من يتخلّق بأخلاق العرب التي أخصها الشهامة والمروءة، وهذان اللذان ذكرتهما تتبرأ منهما الشهامة، ثم ذهبنا إلى منزل آخر اجتمع فيه بعض تجار المسلمين للنظر في عقد شركة تجارية، وبعد أن جلست إلى الساعة العاشرة استأذنت وذهبت.

يوم الأحد في ١٥ ت٢ غ و٢ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور جاء يعقوب ابن خالتي وخالي جورج وأشيل سيقلي فلبست وخرجت معهم، ثم ذهبت مع أشيل إلى بيت روحي أفندي الخالدي فأقبل علينا بأنسه ولطفه، وتداولنا أحاديث مختلفة ظهر لي منها أنه مطّلع على المبادئ العصرية، واقف على أقوال كثيرة لأشهر كتاب فرنسا، ثم ذهبنا من عنده إلى منزل سعيد أفندي الحسيني فلم يتّسع الوقت لأن نباحثه عن البلاد وعن الوسائل التي يتم بها اصلاحها، وإنما اقتصرنا على المجاملات والخصوصيّات، فلما خرجنا قال أشيل: ظهر لي أنه يمثّل بنظراته وحركاته وملامحه حزب التقهقر، ثم مررنا على كنيسة مار بولس العربية، فأخذنا أسكوهي وأختها وذهبنا إلى بيت داود ولعبت أسكوهي على البيانو فلم أستحسن ذلك، فقد كان يجب أن يُراعوا إحساسات عائلته. ثم ذهب أشيل مع أسكوهي وأُختها وبقيت هناك إلى ما بعد الظهر. رجعت إلى البيت وتغدّيت ثم جلست وراء الطاولة وكتبت وقائع أمس واليوم الذي قبله، ثم كتبت رسالة إلى أخي يوسف، ثم أخذت ميليا ومررنا على بيت داود وأخذنا منانة وعفيفة وروزا وأمين وذهبنا إلى بيت ابن خالتي يعقوب، لعبنا بالشدّة. رأيت من يعقوب ونايفة انعطافاً شديداً إلى إخوة داود، فلم يدّخرا وسعاً في إبهاجهم وسرورهم، ثم رجعنا. بعد العشاء ذهبت أُمي وأُختي وسليم وسهروا في بيت داود، وذهبت أنا وأخذت أبا سعيد، وذهبنا إلى بيت

---

٧١ – شرفات: من قرى الضفة الغربية، مشرفة على القدس وتبعد عنها ٥ كيلومترات، حصلت فيها مجزرة العام ١٩٥١.

٧٢ – سليمان البستاني، أديب وناقد، من روّاد الاطلاع على الثقافة الغربية وترجمتها، حيث عمل على تعريب الإلياذة، واستغرقه ذلك ثماني سنوات (١٨٨٧ – ١٨٩٥).

يعقوب ابن خالتي. نظرنا في مسألة الطائفة مع الدير، فأخذا جانب الدير وأخذت جانب الشعب، فأيّدت حقوقه الطبيعية المشروعة، وأبطلت ادّعاء أخوية القبر المقدّس بأنهم أصحاب الحق في الأماكن المقدّسة.

يوم الاثنين في ١٦ ت٢ غ و٣ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور جاء الفونس لونسو، فلبثنا ننتظر أشيل فلم يجئ. كتبت رسالة إلى أخي يوسف وكتبت ميليا رسالة أخرى. وقد كنت أنوي أن أكتب رسائل أخرى فلم يتّسع الوقت. خرجت فمررت على أبي سعيد. فنزلنا إلى البلد وإذا بشبّان المسلمين يطوفون في الأسواق يلعبون بالسيوف ويُطلقون الرصاص، فانضمّ إليهم شبّان الملة وخرجوا في موكب حافل إلى المحطّة، وكان ميعاد الغداء فذهب أبو سعيد ليتغدّى، ونزلت أنا مع حنا ياسمينة إلى المحطة، وكانت غاصّة بالناس الذين جاؤوا ليودّعوا المندوبين، فقام الخطباء والشعراء يخطبون وينشدون، وكان الشبان يلعبون بالسيوف ويترنّمون بالأهازيج الحماسيّة والنساء تزغرد. ألحّ عليّ بعض أبناء الملة لأن أخطب فلم أشعر بنشاط إلى ذلك. رجعت إلى البيت فتغدّيت ثم خرجت إلى باب الخليل، وإذا بالشبّان قد رجعوا كما ذهبوا في موكب حافل، فتحمّست وعقدت النيّة أن أتعهّد هذه الحماسة التي يُبديها الشبّان من وقتٍ إلى آخر، فلا تعتزّ الأمم إلا بمقدار ما في صدور شبّانها من الحماسة. ثم ذهبت فعلمت موسى العلمي، وبعد الدرس رجعت رأساً إلى البيت لأن السماء كانت غائمة، وخشيت إن أبطأت أن تمطر عليّ وليس معي شمسيّة ولا مشمّع. ثم تعشيت وذهبت إلى المدرسة الليلية وعلمت تلاميذي، ولما رجعت لقيت أبا سعيد في الطريق فجئنا إلى البيت، وجاء معنا سليمان الددا، فلم نجد أحداً في البيت فرجعنا فمررنا على بيت جرجي حبيب، فدخلنا لنعيّد عليه وسهرنا هناك إلى نحو الساعة الحادية عشرة، لم نخرج في مواضيعنا عن مسألتنا مع الدير، وأجمعنا على أننا لا ننجح في مشروعنا إلاّ إذا أشركنا الأبرشية كلها معنا، وقد كان يجب أن نتفطّن لهذا الأمر من قبل الشروع في الحرب.

يوم الثلاثاء في ١٧ ت٢ غ و٤ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور، خرجت فوجدت بعض أعضاء مجلس الملة مجتمعين في دكان سليمان الددا، فأجمعوا على أن نجتمع الليلة لنتداول البحث في أمرنا.. ثم قلت لجرجي زخريا: إني أُفتّش عن غرفة لأبي سعيد فقال: عندنا غرفة في دار الجمعية الخيرية، فذهبت إلى أبي سعيد وأخذته إلى دار الجمعية وأريته الغرفة فسُرّ بها، وعزم على أن يشتري سريراً ولوازم أخرى، ولكن لما رجعت إلى البيت عند الظهر أرسل إليّ أنضوني الغوري ورقة يقول فيها: إن طبيب الأسنان التلياني الساكن في القسم الآخر من دار الجمعية يعترض على سكن أحد في الدار، اتقاء كلام الناس. بعد الظهر ذهبت فعلمت صفّي في مستعمرة

الأميركان، ثم رجعت إلى البيت وجلست وراء الطاولة أكتب وأقرأ، ثم جاء قسطندي لباط للدرس، وقبل أن نبدأ به جاء الفونس لونسو وقال: أشيل يدعوك للسهرة عنده. وبعد الدرس ذهبت مع الفونس فمررنا على بيت داود، فوجدناهم قد سبقونا إلى منزل كريكوريان فذهبنا هناك وأقمت قليلا، ثم ذهبت إلى مجلس الملة وكانت السماء شاتية والأرض موحلة، فقرأ علينا جرجي زخريا مقالتين يريد نشرهما في الجرائد وترجمتهما إلى لغات مختلفة، فنظرنا فيهما واستحسنا نشرهما ثم انفضت الجلسة، فرجعت إلى بيت كريكوريان فوجدت هناك الخواجا بكري مع امرأته وأُختيه فلم يرق لي الإجتماع بهم، فأخذوا يلعبون ألعاباً بيتية فخرج الخواجات إلى غرفة أخرى ليدخلوا واحداً واحداً، وخرجت معهم، وذهبت إلى غرفة نوم الخواجا كريكوريان الأب ونفسي منقبضة حزناً على داود، فلما جاء دوري طلبوني فلم أُجب، ولعلهم استاؤوا مني. لم نطل السهرة.

يوم الأربعاء في ١٨ ت٢ غ و٥ ت٢ ش/١٩٠٨م

السماء صافية ولكن البرد شديد فاستحممت ولعبت وأفطرت، وبعد الفطور جاء أشيل وأبو سعيد فقصصت على أشيل تاريخ مجلس الملة، فقلت: على إثر إعلان الدستور قامت الطائفة وأسّست مجلس ملة مؤلفاً من أربعين شخصاً، ولكن لم تكن تعرف لماذا أسّسته، فأقبل ذوو الأغراض وحاولوا أن يضعوا له غاية توافق مصلحة الدير قبل أن يتفطّن لغاية أُخرى، فجعلت همّي أن أضع له غاية أُخرى، وتمكّنت بعد التعب الشديد من أن تكون غايته المطالبة بالحقوق والمساواة.

أما الوسائط لذلك فهي الإستعانة بالمبعوثين، وقد سعى الدير لأن يستعين بهم فأخفق مسعاه، ثم الإستعانة بجمعية الإخاء العربي، وسردت الوسائل المختلفة التي في النيّة أن نستعين بها. قلت له: هذه الغاية القريبة المعروفة، ولكن هناك غاية أُخرى لا تزال مكتومة في بعض الصدور، وهي أن يكون على الكرسي الأورشليمي يوماً من الأيام بطريرك عربيّ. بعد الظهر ذهبت علّمت موسى العلمي. في المساء ذهبت إلى المدرسة الليلية وعلّمت تلاميذي، ثم ذهبت إلى منزل موسى أفندي شفيق الخالدي لننظر في تأسيس فرع لجمعية الإخاء العربي، فلم أجد هناك غير موسى أفندي وإسماعيل بك الحسيني، فعجبت لتقاعس أولئك الذين انتدبناهم عن الحضور. ثم كتبنا قائمة بأسمائهم وكلّفنا جميل أفندي بن موسى أفندي أن يطوف عليهم ويدعوهم للحضور مساء يوم السبت، وقد لاحظت من إسماعيل بك حرصاً على دعوة أشخاص دون غيرهم فلم أدر الحكمة في ذلك، فطلبت منه عند الخروج أن أجتمع به غداً للبحث في ذلك، ثم ذهبت إلى غرفة أبي سعيد فوجدته نائماً فجئت إلى الغرفة ونمت.

يوم الخميس في ١٩ ت٢ غ و٦ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور جلست وراء الطاولة فكتبت قليلاً، ثم خرجت فذهبت إلى غرفة الأصمعي ثم رجعت إلى البيت فتغدّيت. وبعد الغداء ذهبت إلى مستعمرة الأميركان وعلّمت صفّي، ثم رجعت إلى البلد فوجدت في طريقي المعلم نخلة فدعاني إلى زيارته، فوعدته أن أمرّ عليه غداً بعد الدرس، ثم جئت إلى البيت فتعشيت وبعد العشاء ذهبت إلى المدرسة الليلية فعلّمت تلاميذي، ثم ذهبت إلى مجلس الملة فوجدته حافلاً. قرروا أن نرسل تلغرافاً آخر إلى الصدارة نطلب جواب تلغرافاتنا السابقة، ثم قرئت رسالة وردت من يافا من الدكتور إلياس صوابيني، ينصح المجلس أن يرسلوا وفداً إلى يافا ليشرح مطالبينا لهم، وأن نعتدل في مطالبينا فلا نطلب المستحيلات، فكان من رأي فريق في المجلس أن نرسل وفداً حالاً فعارضه البعض الآخر، وقرّ الرأي أخيراً على كتابة منشور جديد نبسط فيه مطالبينا ليكون الناس في الأبرشية على بيّنة منها، وعينت لجنة للاهتمام بذلك. كل يوم يزداد المجلس قوة؛ كان في أول نشأته في يد اثنين أو ثلاثة ثم بعد المناظرات الشديدة والإحتكاكات العنيفة تعرف الجميع بغاية المجلس، والآن بعد كتابة الأبرشية صارت الغاية ليست محصورة في اثنين أو ثلاثة، ولا في أهل القدس بل تجاوزت هذه الحدود وانتشرت في الأبرشية كلها فلا يستطاع بعد الآن التلاعب بالمجلس، بل إذا سكتنا نحن قامت الأبرشية، وهذا ما كنت أسعى إليه.

يوم الجمعة في ٢٠ ت٢ غ و٧ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور اهتممت بتدبير غرفة لأبي سعيد، وجدت أولاً غرفة في دار منصور فاعترض الجيران، ثم عرضت لي غرفتان ولكن لم أجدهما مناسبتين، فخطر لي أن آخذ له غرفة في دار خالتي لبيبة، فذهبت مع حنا ياسمينة وعرضت الأمر على خالتي، فقابلتنا بالإرتياح والسرور فاطمأن فكري. ثم رجعت إلى البيت فتغديت وبعد الغداء ذهبت علمت تلميذي موسى العلمي، وبعد الدرس عرجت على منزل المعلم نخلة فلم أجده، فذهبت إلى غرفة أبي سعيد، وقد لزم الفراش منذ يومين لانحراف [كذا] ألمّ به. تعرّفت بضابط دمشقي يقيم في غرفته اسمه سعيد أفندي فرأيت من أفكاره وحماسته ما سررت له كثيراً، وقد سرّ هو أيضاً من مبدأي وبالغ في الإنعطاف إليّ والاحتفاء بي. قلت في أثناء الحديث لأبي سعيد: أنا لا أستطيع أن أخدم البلاد إلا في المدرسة والجمعيّة، غداً تسمع صوتي يرن في المنتديات، غدا تراني على المراسح الوطنية أمثل صلاح الدين الأيوبي وحمدان. ما وصلت إلى هذه الكلمة حتى صفّق الضابط، وأقبل على تنشيطي وتشجيعي بكلمات الإستحسان. في المساء علّمت تلاميذي في المدرسة الليلية ثم جئت إلى غرفة أبي سعيد، وجعلنا نتابع الحديث عن الوطن والجيش والجمعيّات والمدارس.. كم تمنيت لو يعود لي ذلك الزمان حين كنت أعلّم في عدّة مدارس للصبيان والبنات لأنزع الإرتخاء والتخنث من

النفوس، وأثير فيها روح الحماسة والإقدام، لأعدّ من الناشئة الجديدة رجالاً للمستقبل أشدّاء يعتزّ بهم الوطن ويسترجع مجده القديم. إذا لم أُوفّق إلى ذلك بقيت في نفسي حسرات إلى يوم أنزل في التراب.

يوم السبت في ٢١ ت٢غ و٨ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور خرجت قبيل الظهر إلى غرفة أبي سعيد، واتّفقت مع الضابط سعيد أفندي أن أمرّ عليه بعد الظهر لنذهب إلى ساحة اللعب، التي تخصّ مدرسة المطران، لنحضر فعالية تجري بين مدرسة اليهود المتنصّرين والكلية الإنكليزية، واعتذرت إلى تلاميذي الأميركان أني أمتنع عن الذهاب إلى الدرس بعد الظهر بسبب انشغالي مع الضابط المذكور. بعد الظهر أخذت الضابط وإسعاف وذهبنا، وكانوا قد ابتدأوا اللعب فسرّ الضابط لما رأى من نشاطهم ونظامهم. ورأينا رأي العين أهمية ساحات اللعب. وقد قلت في خطاب قديم قدمته في جمعية الآداب الزاهرة: في ساحات الرياضة تتعلم الناشئة الإقدام والبسالة والثبات والأنفة ويطبعون على حب المغالبة والمسابقة، في ساحات الرياضة تُشرق الوجوه وتتناسب أعضاء الجسد وبذلك يتم الجمال، في ساحات الرياضة تنمو العقول وترهف الأذهان وتشحذ القرائح، وأوّل ما يجب الاعتناء به هو هذه الألعاب الرياضية.. في المساء ذهبت إلى منزل موسى أفندي شفيق لتأسيس فرع لجمعية الإخاء العربيّ، وكان الحضور نحو عشرة، أخذنا ننظر في غايتها فجعلوا يخبطون خبط عشواء حتى فرغ صبري، فوقفت وبيّنت أهميتها ولزوم تأسيسها وإمكان تحقيق غايتها بوسائط مختلفة بسطتها لديهم، حتى أجمعنا على تأسيسها وانتخبنا نحو خمسة عشر شخصاً ليؤلفوا هيئتها العاملة، منهم حنا أفندي العيسى ومعلّمي نخلة، وقرّرنا الإجتماع مساء يوم السبت القادم في منزل فيضي أفندي العلمي، وكلّف هو بدعوة الأعضاء. استغرقت جلستنا وقتاً طويلاً، لأنه لم يكن أحد يبدي رأيه، إلا قدّم له مقدّمات طويلة فارغة تورث الملل قبل الوصول إلى رأيه. ولكنني خرجت مسروراً بتأسيسها ووعدت نفسي أن أتخذ هذه الجمعية مجالاً واسعاً للعمل النافع والخدمة الصادقة إن شاء الله.

يوم الأحد في ٢٢ ت٢غ و٩ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور خرجت إلى غرفة أبي سعيد، وكان الطقس جميلاً كأنه من أيام الربيع، اتفقنا أن نخرج بعد الظهر إلى قهوة حامس على الخط الحديدي. مررت على بيت داود وكانت عفيفة هناك، لم تأخذ درساً لأن عندهن رياضة كل الأسبوع القادم. أرتني منانة صورة المقالة الثالثة ولكن لم تكملها بعد، فقلت: إذا لم تجدي وقتاً لإتمامها فلا بأس فإن عدد الأصمعي هذه المرّة ملآن. بعد الغداء جاء أبو سعيد وإسعاف، فبعد أن جلسنا قليلاً نقرأ ونتحادث قمنا وذهبنا إلى القهوة المذكورة، فمررت على جرجي الخوري وأخذته فجلسنا هناك حول مائدة، ودخّنا بالأراكيل وتجاذبنا أحاديث مختلفة. بمثل هذا تكتسب

قلوب الشبان بمجالستهم واستماع كلامهم والإعجاب بقوتهم وشجاعتهم. ولما آذنت الشمس بالغروب رجعنا ومررنا من أمام منزل خالتي لبيبة، وأريت أبا الأصمعي غرفته فسرّ بها. بعد العشاء ذهبت إلى بيت داود، وكانت أختي ميليا قد سبقتني إلى بيت ابن خالتي يعقوب، وسألت منانة أن تذهب، مع أخيها أمين معي فاعتذرت وذهب أمين، فممرنا على أبي سعيد وأخذناه وذهبنا، وذهب معنا حنا ياسمينة، وسهرنا هناك إلى نحو الساعة الحادية عشرة. لم نخرج في مواضيعنا عمّا يثير الحماسة والرجوليّة. إذا قدّر أن أخدم بلادي فبإثارة حماسة شبّانها ورفع نفوسهم وإشرابهم حبّ القوّة والاحتفاظ بها. وسأُجرّب أن أكون في حياتي اليوميّة مثالاً لهم.

يوم الإثنين في ٢٣ ت٢ غ و١٠ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور كتبت مقالة لمجلة الأصمعي عن احتفال الشبّان بوداع المبعوثين، وحملتها وذهبت إلى غرفة أبي سعيد، ودفعتها إليه لينشرها في العدد القادم. ثم جاء إلياس حلبي وسليم القاري فتناول الأخير ورقة وقرأ لنا عن حريق القيامة، وأن الرهبان لم يحتجّوا أنهم أصحاب الحق إلا استنادا على حلقات الباب المكتوبة باللغة العربيّة، قائلين: إننا استلمنا القيامة من أبناء العرب. فسررت لهذا الخبر، ثم نزلت معه إلى القيامة وكانت مغلقة وأراني الحلقات. واعتمدت أن أشير إلى ذلك في إحدى مقالاتي.

مررت على مكتب أفتيم مشبك، وبينا كنت أُقلّب الكتب عثرت على كتابين من كتبي أودعتهما عنده قبل سفري إلى أميركا، ليبيعهما، فأنزلهما إلى مكتبه لبيعهما، وقد محا اسمي عنهما، فكأنك أخذت بمخنقي [=عنقي]، بل احتقرت الدنيا ومللت الحياة وخرجت من مكتبه لا أعي. إذا كان أفتيم وهو من خيرة الشبّان يفعل مثل ذلك فعلى الدنيا السلام. بعد الظهر ذهبت علمت موسى العلمي، ثم رجعت إلى البيت، وجلست وراء الطاولة أُدخّن أركيلتي، وقد سمعت أن سلطانة نزلت إلى البيت وقد ذهبت أختي عندها، فقلت: لعلها تمرّ عليّ أو تطل من نافذتهم فلم تفعل، فتعشّيت وذهبت عندهم. وما كدنا نجلس قليلاً حتى قامت لتذهب إلى المدرسة، وكان هناك داود دعدس فذهب معها ليوصلها فانقبضت لذلك. ثم ذهبت إلى المدرسة الليلية فعلّمت الصفّ الأوّل، ثم جاء قسطندي لبّاط فكلّفته أن يعلّم الصفّ الثاني، وذهبت إلى جمعية الإتحاد والترقّي، ولم يحضر الأعضاء كلّهم ولما استبطأتهم استأذنت وذهبت إلى المجلس الملي. قرّرنا أن تنزل الطائفة غداً عن بكرة أبيها إلى دار الحكومة لتطلب من المتصرّف مخابرة الصدارة العظمى في إجابة مطالبينا ورفع ظلامتنا، وكلّفت مع الدكتور حلبي في كتابة منشور نرسله إلى الأبرشية كلها.

يوم الثلاثاء في ٢٤ ت٢ غ و١١ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور خرجت فوجدت رجال الطائفة تتجمّع في الطرق تستعد للنزول إلى دار

الحكومة، فخطر لي أن أكلّف مصوّراً ليأخذ صورة الشعب مجتمعاً في دار الحكومة ينتظر الجواب. وما أزفت الساعة الواحدة والنصف حتى اكتظت كنيسة مار يعقوب وساحة القيامة والطرق بالرجال تركوا أشغالهم عن طيبة خاطر. إذا لم يكن من نتيجة لاجتماعاتنا المتوالية غير هذه الحياة التي أخذت تدبّ في الملة لكفى، ثم نزلنا في موكب حافل مهيب لا ترى العين آخره، يتقدمنا الكهنة الوطنيّون. وكنا قد عيّنا لجنة لتدخل إلى ديوان المتصرّف من جملتهم أنا، فدخلنا وطلبنا منه أن يخابر الأستانة في إجابة مطاليبنا ورفع ظلامتنا فوعدنا بذلك. ولما خرجنا هتف الشعب وأخذوا يترنّمون بالأهازيج الحماسيّة، وخرجوا من دار الحكومة يصفّقون ويترنّمون، واشترك معهم الشبّان من كل المِلَل والنِّحَل والمذاهب، بحيث مثّلوا مظهراً من مظاهر الإخاء والمحبّة الوطنية والجنسيّة [=العرقية] فوددت لو أن كلّ ملّة في كلّ بلد قامت بمثل ذلك! في الوقت ذاته لو سبقنا فأسّسنا جمعية الإخاء الأرثوذكسي واتفقنا على مثل ذلك، ولكن سأتدبّر هذا الأمر بعد الآن.. في المساء انتظرت قسطندي لبّاط فتأخر عن الميعاد فأجّلنا الدرس إلى يوم السبت. علمت اليوم تلاميذي الأميركان. تعشّيت وخرجت فأخذت أبا سعيد إلى غرفته الجديدة، ثم تركته وذهبت إلى المجلس، فقيل: إن المتصرّف طلب البنود التي يتضمنها منشور البطريرك ايروثيوس فخشيت أن يأخذونا من حيث لا ندري، فقلت: نحن لا نفنّد مطاليبنا إلا إذا دخلنا في الدعوى رسمياً، وحينئذ فلا نعتمد على شيء إلا على كوننا نحن الوطنيين وهم الدخلاء... إن فرحي عظيم بما وصلنا إليه، وإني أعدّ ذلك انتصاراً باهراً للفكر الذي ناديت به، ولكن يضحكني ما أرى من محاولة البعض أن يظهروا فضلهم بعد أن كانوا من المعاكسين.

يوم الأربعاء في ٢٥ ت٢ غ و١٢ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور جاءَ أبو سعيد فقرأنا وتجاذبنا الحديث في مواضيع مختلفة. ثم خرجنا فمررنا على المطبعة وحثثناهم على الإسراع في طبع المنشور. بعد الظهر ذهبت إلى مستعمرة الأميركان، وعلّمت ريكابرت ابن أخت الخواجا فريدريك فاستر، ثمّ علّمت موسى العلمي، ثم جئت إلى البيت فتعشّيت وبعد العشاء ذهبت إلى المدرسة الليلية وعلّمت تلاميذي. جاءني أشيل اليوم فقال: إن يعقوب فرّاج مريض، ولست أدري من أكلّفه أن يكون إشبيني. (٧٣) ثمّ كلّفني أن أمرّ عليه غداً بعد الظهر لأساعده في معدّات العرس. ذهبت مع أبي سعيد وجرجي أفندي زخريا نعود يعقوب، فأشرت عليه أن يستدعي الدكتور إلياس حلبي تنشيطاً له. قرأت عليهم الرسالة التي وردتني من الخواجا بندلي الجوزي، فرأيناه في بعضها بل في كلها يوافق آراءَنا، ويشيد بالخطة التي اتبعناها إلى اليوم، ويحثّنا على الإهتمام بالمدارس قبل كل شيء... وإذا احتجنا إلى رئيس لمدرسة المعلمين فهو مستعد أن يترك روسيا ومراكزه المرضية، ويطير إلينا ليشتغل معنا ويتولّى إدارة المدرسة... جاءَتني بطاقة من أخي يوسف عليها صورة تغث، رئيس

(٧٣) اشبيني: الاشبين هو من ينتشل الطفل المعمّد من يد الكاهن بعد المعمودية، وفي الزواج هو شاهد الزواج.

الولايات المتحدة الجديد ، يلعن فيها [في الرسالة] أميركا ، ولم يُشر إلى صحته وأحواله . وجاءَتني رسالة أُخرى من الخواجات سنونو يستطلعانني طلع أحوالي ويسألانني عمّا تمّ بيننا وبين الدير .

يوم الخميس في ٢٦ ت٢ غ و١٣ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور خرجت فالتقيت بأبي سعيد . مررت على مخزن الخواجا سليمان الددا ، وسألته عن أخيه نخلة فقال : سافر بدون أن يُعلِم أحداً إلى أميركا ، فتأثرت له كثيراً . بعد الظهر ذهبت مع أبي سعيد إلى لوكندة فاست حيث يتم إكليل أشيل . دخلنا البهو فوجدنا في صدره مطراناً يونانياً مع حاشيته ومعه أحد كهنتنا الوطنيين ، ثم جاءَت العروس واكتظ البهو بالمدعوين ، وكنت أنقّل نظري من واحد إلى آخر فتعروني هزّة لما انطووا عليه من اللؤم والخسّة والدناءَة والمبادئ السافلة رجالاً ونساءً ، فكنت أُردّد قول الشاعر :

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روّى سيفه غير راحم

ولما انتهت صلاة الإكليل قبلت أشيل وهنأْته ، وانسللت من بين الناس ، وخرجت مع أبي سعيد أجرّ ذيل التيه والكبر والخيلاء . . أكبر نفسي أن أجالس اللؤماء الأدنياء الأخسّاء . ثم ذهبت إلى مدرسة المطران لعلي أجد قسطندي لبّاط فأكلفه ليأخذ الدرس عنّي في المدرسة الليلة ، فوجدت أمه فكلفتها أن تخبره ، ثم رجعت إلى باب الخليل فوجدت المعلّم نخلة فمشيت معه إلى غرفته ، فوجدنا القسّ سايكس فتعرّض لطقس الكنيسة الأرثوذكسية واهتمامها بالألبسة ، فقلت له : هذا أمر لا بدّ منه ، فأنت حين ذهبت إلى الدعوة لبست أحسن ثيابك ورتّبت شعرك ، ثم استطردنا إلى مسألتنا مع الدير ، فقلت : لن نرجع حتى نرفع نير اليونان عنا ولا حياة لنا أدبية كانت أو روحية إلاّ بخلع هذا النير . ثم رجعت إلى البيت فجاء الفونس فذهبت معه إلى العشاء . تأبط كل من المدعوين سيدة ونزلوا إلى غرفة الأكل ، فعدت إلى انقباضي ، ولا سيّما حين رأيت سليم أيوب . كلفوني أن أخطب على المائدة فلم أفعل ، ثم خرجنا إلى المرقص وعزفت الآلات الموسيقية وأخذوا يرقصون وأنا لا أكاد أعي ثم استأذنت مع الفونس وخرجنا .

يوم الجمعة في ٢٧ ت٢ غ و١٤ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور جاءَني أبو سعيد فخرجنا ، لقيت بعض أعضاء المجلس الملي ، فاقترحت عليهم أن نرسل وفداً إلى الأبرشيّة ، فصادف لديهم قبولاً ، فارتأينا أن نجتمع ، فأرسلنا من دعا بقيّة الأعضاء واجتمعنا في مكتبي . فأجمعنا على إرسال وفد ، ثم نظرنا في من نرسل ، فوقع الاختيار عليّ وعلى جرجي زخريا فقيل : كيف يستطيع أن يُسافر جرجي أفندي وهو صاحب وظيفة . فقال : استعفي فأكبر بعض الأعضاء عمله وأثنوا عليه ، فأخذته الحماسة وقال : مستعد أن أضحّي بكل شيء في سبيل خدمة الوطن . فأشار البعض أن يكتب في وقائعنا أن جرجي أفندي استعفى من وظيفته لخدمة البلاد ، وآخرون أن

يذاع ذلك على صفحات الجرائد، فلما رأيت اندفاعهم في تعظيمه وإكبار عمله، ثم سكوتهم عني كأني لم أعمل شيئاً، فقلت لهم: إذا فتحتم هذا الباب فكل واحد منا تعب وضحّى شيئاً كثيرا وليس جرجي أفندي وحده، وليس في استعفائه من وظيفته كبير أمر فإن معاشه منها ٢٥٠ غرشاً، فخشي البعض أن يمنّ جرجي أفندي على الطائفة باستعفائه فعارضوا فيه، وقالوا: يذهب غيره، وأشار البعض إلى نخلة كتّن ثم انفض المجلس ونحن بين الاثنين: إما جرجي أو نخلة. بعد الظهر علّمت موسى العلمي. في المساء ذهبت علّمت في مدرستي الليلية وبعد المدرسة ذهبت مع أبي سعيد وأبي داود ياسمينة وعدنا [=زرنا] ابن خالتي يعقوب. سهرنا إلى نحو الساعة الحادية عشرة ثم ذهبت مع أبي سعيد وأوصلته إلى غرفته وقعدت عنده قليلا، ثم رجعت إلى البيت.

يوم السبت في ٢٨ ت٢ غ و١٥ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور جاء قسطندي لبّاط فعلّمته، ثم خرجت فلقيت بعض أعضاء المجلس مجتمعين في دكان أحد أبناء الطائفة، وقد اتفقوا على أن يذهب نخلة كتّن بدلاً من جرجي زخريا، فكتبوا قراراً بذلك وأمضوه من الجميع. ثم قررنا أن نجتمع اليوم بعد الظهر لرسم خطة للوفد. أرسلت إلى صفّي الأميركان أعتذر عن عدم مجيئي اليوم. بعد الظهر اجتمعنا في دار الجمعية الخيرية، وكانت السماء شاتية والأرض موحلة. قرّر المجلس أن يذهب إلى الأبرشيّة ثلاثة وفود: واحد إلى حيفا وعكا والناصرة وآخر إلى يافا وغزّة واللد والرملة وآخر إلى نابلس. وعيّنوا ليافا أفتيم مشبك وإبراهيم شمّاس فاستأت من ذلك، وقلت: نذهب نحن إلى يافا في طريقنا ونأخذ واحداً منها إلى حيفا، فبقيت المسألة مُعلّقة. ونحن مجتمعون أرسل البطريرك وراء الكهنة فذهبوا، ثم رجعوا فقالوا: إن البطريرك قال لهم: بصفتي رئيساً عليكم آمركم أن تصلوا غداً، وإلا اضطررت أن أعمل ما يكدركم، وكان حاضراً هناك الباشكاتب، فقال: كثيرون في الطائفة يريدون أن يصلوا وليس القائمون بهذه الحركة غير نفر قليل، فلم أشك أن جرجي حبيب مأجور أو من حزب الدير، وأنه لم يكتب ما كتبه في جريدته إلا بإيعازهم، فثار الشعب إلى درجة الجنون، ووقف أنضوني الغوري وأقسم بأعظم الإيمان أنه إذا رسّم البطريرك كاهناً فإنه يقتله في وسط الطريق، ووقف أخي يعقوب وقد أخذ منه السكر، وقال: والكاهن الذي يصلي نقتله، ولو كان صهري الدبيكة. فبعد أن كتبنا المكاتيب للوفود ليحملوها إلى الأبرشية باسم المجلس الملي، قلت لهم: يجب أن نعترض على تهديد البطريرك لكهنتنا، وتركتهم يبحثون في ذلك وذهبت إلى أبي سعيد على أمل أن نذهب لجمعية الإخاء العربي، فقيل: إن رئيس البلدية مريض فامتنعنا عن الذهاب. ثم ذهبنا إلى الغرفة، فقال أبو سعيد: إذا ذهب أفتيم إلى يافا عطّلتم أشغالكم، وجاءت النتيجة بالعكس، فوعدته أن أتلافى هذا الأمر.

يوم الأحد في ٢٩ ت٢ ع و١٦ ت٢ ش/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والرياضة والفطور أرسلت استدعيت جرجي أفندي زخريا ونخلة أفندي كتن، وأطلعتهما على حديثي مع أبي سعيد، فقرّ الرأي أن نذهب نحن إلى يافا. ثم تداولنا البحث في المواضيع التي سنتكلم فيها في الأبرشيّة، وعلقت في دفتري بعض ملاحظات. ثم خرجوا فخرجت فلقيت أبا سعيد فرجعت معه إلى البيت، فمررنا على منزل الخوري عيسى قسطندي، وكان جرجي أفندي ونخلة أفندي هناك مع بعض أعضاء الطائفة، فحثثنا الكهنة على الثبات وأن لا يظهروا أمام البطريرك إذا دعاهم مرة أخرى مظهر ضعف، ثم ذهبنا فاشتريت ربطة رقبة سوداء وقميصاً. بعد الظهر ذهبت عند أبي سعيد أنا وأبو الفضل فقرأ لنا أبو الفضل مقالة دعاها فتاة مكدونيا طربنا لها كثيراً، ثم ذهبنا عند ابن خالتي يعقوب نعوده وكان هناك جرجي حبيب، فأنحينا عليه باللوم والتقريع حتى انقاد إلينا، ووعد أن يشترك معنا، وكنا في النهار قد التقينا به في مخزن سليمان الددا، وأوسعناه لوماً وتتريباً، وألزمناه أن يمضي المكتوب الذي سنحمله إلى الأبرشيّة. . ذهب وفد اليوم إلى المتصرف وعرضوا عليه تهديد البطريرك الكهنة، فأقبل عليهم بأنسه ولطفه وطمأنهم أنه سينيلهم حقوقهم، وقد راجع البطريرك فوعده أن يعطيه جواباً غداً. . وسمعنا أن وفداً آخر من اليونان ومعهم الرهابين ذهبوا عنده يطلبون حقوقهم، فقال لهم: وأي حقوق تعنون وهم الوطنيون وأنتم النزلاء؟ ويُقال: إنهم خرجوا من عنده غير راضين. أيتها الأخوية الملعونة قد اتسع الخرق وبلغ السيل الزبى، فلن نرجع حتى ننال حقوقنا المقدّسة، ولن نرضى إلاّ بخلع نيركم واستقلالنا استقلالاً تاماً.

[. . هنا ينقطع السكاكيني، عن الكتابة خلال جولته في الأبرشية حتى ١٤ك١، ليكتب يوميتين].

يوم الاثنين في ١٤ ك١ ع/١٩٠٨م

قمنا نحو الساعة السادسة فأفطرنا، ثم ركبنا العربة وذهبنا إلى المحطّة، وقبل أن يقوم [=ينطلق] القطار جاء يوسف أفندي الملك ليودعنا، فشكرنا مروءته ومكارم أخلاقه. في الطريق نظرنا في تأسيس جمعية سرّية يقسم فيها الأعضاء على السعي في رفع النير اليوناني حتى الموت، نضم إليها أفراد الطائفة واحداً بعد واحد. ثم تحدثنا في إرسال وفد إلى الأستانة مؤلف من مندوبين من القدس وسائر الأبرشيّة. فرأينا كلنا وجوب ذلك لمراقبة أعمال مجلس الأمة، واستنهاض همم المندوبين من أبناء العرب، مع الأخذ بناصرنا والاستعانة بأحرار الأتراك. فأعددت نفسي لهذه المهمة وتمثلت بقول المتنبي:

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلدهُ

ولكن قلباً بين جنبيّ ما له
مدىً ينتهي بي في مرادٍ أحدهُ

وصلنا القدس فأقبلت أبناء الطائفة على التسليم علينا ووجوههم طافحة سروراً وألسنتهم تفيض شكراً. في المساء قبل التئام مجلس الملة، ذهبنا نحو خمسة من أفراد الطائفة إلى مكتب الخواجا تادرس وأقسمنا اليمين. بعد العشاء ذهبنا إلى مجلس الملة، وكان غاصاً بمئات من الشبان، قرروا أن أذهب مع الخواجا مخائيل اطليل إلى الشرق موفداً من قبل مجلس الملة، ثم وقفت وتكلمت عن الدعائم التي تقوم عليها الرئاسة اليونانية منها: فرّق تسُدْ واحترام الشعب لرجال الدين والتفات الدير إلى بعض وجهاء الطائفة وغير ذلك، ووعدتهم أن أقدم تقريراً كتابة بعد رجوعي من الشرق - بعد مجلس الملة ذهبت مع الخواجا قسطنطين حكيم وتكلمنا عن أهدافنا في الأبرشيّة.

يوم الثلاثاء في ١٥ ك١غ/١٩٠٨م

بعد الاستحمام والفطور ذهبت مع مخائيل اطليل واشتريت قمصاناً وكلسوناً وقماطات، ثم ذهبنا لنستأجر حصانين فأمطرت السماء، فقرّ الرأي أن نؤجّل السفر إلى الغد. بعد الغداء جاء الدكتور حلبي وقد استلم أمس في مجلس الملة إدارة جريدة الإنصاف لصاحب امتيازها الخواجا بندلي المشحور الذي قدمها أمس لمجلس الملة ووقفها على خدمته، فجاء الدكتور يعرض عليّ كتابة بعض المواضيع فاعتذرت إليه لأني على أهبة السفر. في المساء ذهبت مع ميليا إلى بيت داود، سردت عليهم أعمالي في طوافي في الأبرشيّة، فصادفت لديهم سروراً عظيماً، ثم ذهبت مع الفونس لونسو، بعد أن أوصلت أختي إلى البيت، إلى المطبعة، وكان أبو سعيد هناك يطبع الأصمعي فوقفت على طبع بعض صفحاته، ثم تنقلنا من حديث إلى آخر حتى جاء ذكر داود، فجالت الدموع في مآقيّ وأصابت جسدي قشعريرة فقلت: غاية ما أتمنى أن أعيش كما عاش داود وأموت كما مات. تذاكرنا في إعادة جمعية الآداب إحياء لذكره، وطبع كتاب يتضمّن تاريخ حياته مع الأقوال التي قيلت في رثائه. ثم نظرنا في إقامة جناز عن روحه في ختام السنة، وأوصيت الفونس أن يدعو الأصدقاء لينظر معهم في كيفية الإحتفال. فإذا رجعت من الشرق قبل الميعاد اشتركت معهم، وإلاّ فأرجو أن يذكروني. يا داود يا فخري، يا حبيبي، سأطبق حياتي على حياتك، سأخدم المبادئ التي خدمتها بكل ما فيّ من القوّة، بل أفديها بحياتي وأموت شهيداً كما مت، ليطب ذكرك وليدم فخرك.

[هنا تنتهي يوميات العام ١٩٠٨، لنصطدم بانقطاع طويل الأمد يمتد إلى (١) كانون الثاني ١٩١٤، ويبدو أن هالة السكاكيني، التي حررت «كذا أنا يا دنيا»، اعتمدت على استذكارات والدها، لتغطية الفترة حتى أوائل ١٩١٢، بشكل يضمن معرفة محطات رئيسية من حياته، فاخترنا أن نثبت هذه الصفحات هنا. وحسب رواية هالة، فقد فقدت مادة هذه السنوات خلال النزوح الى القاهرة من القدس في ربيع العام ١٩٤٨، اثناء العمليات الحربية التي اجتازت بيت السكاكيني في القطمون].

سنة ١٩١٠

القدس:

السبت في ١/١/١٩١٠

. . . اني وإن كنت مثقلاً بالدين، صفر اليدين، لا أكاد املك ما يسد رمقي، اشعر بقوة حيوية استطيع معها أن اهزأ بالدنيا. صحتي جيدة، همتي عالية، اتلهب نشاطاً. إن سفري الى بلاد الانكليز، ثم سفري الى أميركا وتشربي مبدأ نيتشه الفيلسوف الألماني وغيره من الفلاسفة، والصعوبات التي لقيتها، كل ذلك احدث فيّ انقلاباً لم أعهده قبل سنة.

سنة ١٩١١

القدس

الأحد في ١/١/١٩١١

. . المبادئ الجديدة التي تشربتها فاطلقت نفسي من اسر عادات وعقائد وآداب سخيفة قديمة، والحب الذي ابهج حياتي وجدد سروري، والمدرسة الدستورية التي جددت آمالي، كل ذلك يجعلني ادخل هذه السنة فرحا مرحا . .

المدرسة الدستورية

قد مضى الآن عام ونصف على تأسيس مدرستي «الدستورية»، وقد اشترك معي في تأسيسها علي افندي جار الله وجميل افندي الخالدي وافتيم افندي مشبك.

تمتاز «الدستورية» بمزايا عديدة: –

(١) جمعت بين التلاميذ على اختلاف المذاهب والنحل، وهذه اول مرة في تاريخ بلادنا اجتمع ابناء المذاهب المختلفة في مدرسة واحدة على مقاعد واحدة دون تعرض لمذاهبهم الدينية.

(٢) المبدأ الذي تقوم عليه المدرسة اعزاز التلميذ لا اذلاله، تكبير نفسه لا تصغيرها، انماء عواطفه وميوله وتهذيبها لا محاربتها او اهمالها، اطلاق حريته لا تقييدها، ولذلك فمن اهم شروطها ان لا قصاص فيها ولا جوائز ولا علامات، لأن للقصاص والجوائز والعلامات تأثيراً سيئاً على نفس التلميذ وعواطفه وأخلاقه فضلاً عن امكان اساءة استعمالها.

(٣) التعليم في مدرستنا على أحدث الاساليب، فالمقصود من التعليم توسيع المدارك وتقوية العقل لا حشوه بعلوم الاولين والاخيرين فيمتلئ ولكن يبقى صغيراً.

(٤) اختارت المدرسة معلميها من الشبان المملوئين حياة ونشاطاً واخلاصاً، واشترطت عليهم ان يتأنقوا في ثيابهم ويحلقوا كل يوم ويشتركوا مع التلاميذ في العابهم، وقد وضعت كل استاذ حيث يستطيع ان يفيد، وكل تلميذ حيث يستطيع ان يستفيد.

(٥) اختارت محلا مستوفياً شرائط الصحة تحيط به ارض واسعة للعب.

(٦) اهتمت بالألعاب الرياضية والحركات العسكرية، وقد كلفت احد الضباط للقيام بذلك، بل تنوي ان تدخل المصارعة والملاكمة واستعمال السلاح في منهاجها في المستقبل القريب إن شاء الله.

(٧) ألفت جمعية للقوة.

(٨) أسست جمعية للصفوف العالية في المدرسة تدعو اليها الرجال والسيدات ليتعرف التلامذة بآداب الاجتماع، وكلفتهم بانشاء جريدة مدرسية وزعت ابوابها على لجان منهم.

(٩) تختار من ادبيات اللغة ما يثير في نفوس التلاميذ الحماسة ويوسع آمالهم ويكبر نفوسهم ويحببهم بالحياة، لا الأدبيات التي تخدر الحواس وتسفل الأهواء وتسم الشعور وتثبط العزائم وتولد اليأس والخمول والزهد بالحياة.

(١٠) تكثر من السياحات والخروج الى الطبيعة، اما السياحات فللتعرف بالبلاد ودرس آثارها، وأما الخروج الى الحقول والتصعيد في الجبال فلاستنشاق الهواء النقي الطلق واكتساب الصحة والنشاط واحياء عاطفة السرور ومحبة الطبيعة.

(١١) تعنى بالموسيقى والاناشيد الحماسية والوطنية.

الى غير ذلك من المزايا التي لها تأثير عجيب على التلاميذ في اجسامهم وعقولهم ونفوسهم وأخلاقهم، ولذلك لا ترى في الدستورية تلميذاً مسترخي الجسم، جباناً، كذاباً، خامل العقل، قصير الادراك، وسخاً، دنيئاً.

سنة ١٩١٢

القدس،

الاثنين في ١٩١٢/١/١

... صحت عزيمتي على الزواج في فرصة [=إجازة] عيد الميلاد الشرقي. كتبت الى ابي سلطانة اعلمه ذلك.

قرب الموعد وليس عندي غير بذلة قديمة سانظفها وأكويها وألبسها يوم العرس، وليس في غرفتي شيء سوى مكتبتي وسجادتي وسريرين وفراشهما، وعلى الجملة سيكون زواجنا زواج فقراء..

سلطانة، القدس ١٩١٠، قبيل زفافها على خليل

الأربعاء في ٣/١/١٩١٢

. . . جعلت سلطانة تنتظر من ابيها ان يهتّم بزواجها وجهازها فلم يفعل لضيق ذات يده ، فجعلت اهوّن الامر عليها ، وليس شيء احب الي من ان نتزوج كما نحن ، لا نخيط ثوباً ولا نشتري شيئاً جديداً ، فذلك ادعى للفخر ، فإن الفقر ، وإن يكن عيباً في البلاد الراقية ، يكاد يكون في هذه البلاد عنوان الشرف والانفة وعزة النفس . . .

الجمعة في ٥/١/١٩١٢

. . . منذ دخلت العالم اشتغل وأجاهد جهاد الأبطال لا أعرف الكسل ولا الملل ، ولكن على غير جدوى ، فلا أزال قلقاً على مستقبلي ، ليس لأني محروم من التوفيق كما يقولون ، ولكن لأن النجاح في هذه البلاد يحتاج الى اخلاق غير اخلاقي . كان يجب ان اعيش في غير هذه البلاد او ان اكون ممن يعيشون على ميراث آبائهم وأجدادهم .

السبت في ٦/١/١٩١٢

كتبت الى عيسى العيسى ادعوه لحضور عرسي ، وكلفته ان يكون اشبيناً لي . وقد قررنا ان تكون حفلة الزواج يسيرة لا يحضرها غير عيسى وأمين صيداوي ، نيابة عن داود ، وابن خالتي يعقوب وخالي جورج . . .

الأحد في ٧/١/١٩١٢

. . . قررنا ان تكون حفلة الزواج مساء الخميس المقبل . طلب اليّ ابو سلطانة ان نؤجل الزواج الى شهر آخر ريثما يدبر نفسه فأبيت عليه ذلك .

الاربعاء في ١٠/١/١٩١٢

جاء عيسى العيسى من يافا في قطار المساء ، وكانت عندنا منانة وعفيفة الصيداوي ، فجعلوا يرتبون غرفتي ويعلقون الصور . كان عيسى يحمل الكراسي وينقل البسط والسجاجيد بنفسه ، فكان مثال المحبة بيننا ، وكان وجهه يتدفق سروراً ، كان فرحي به يعادل فرحي بالزواج بل يزيد .

الخميس في ١١/١/١٩١٢

قررنا ان ندعو نحن صهري الخوري جريس دبيكة ، وهم الخوري سوتيري حنانيا ليقوما بمراسيم الزواج .

ارسلت الى صهري اختي ميليا قبل الظهر، ثم ارسلتُ بعد الظهر ابا داود ياسمينة، وفي المساء أخذتُ امي وأختي ميليا ويعقوب ابن خالتي وعيسى العيسى وأمين صيداوي وجميل الخالدي وأبا داود ياسمينة والاولاد الباقين في المدرسة اثناء عطلة عيد الميلاد ونزلنا الى بيت سلطانة، وكان قد سبقنا الى هناك عمي طناس وصهري تودر قريطم، انتظرنا الكهنة فلم يحضر احد، وأخيراً فهمنا انهم لا يريدون ان يحضروا لأن سلطانة لا تحل لي لأن بيننا خمسة وجوه (روابط قرابة) كما يقولون ولأنه لا يجوز الزواج في هذه الايام، ايام الصيام، فذهب يعقوب ابن خالتي وعيسى العيسى الى بيت صهري الخوري جريس دبيكة ليقنعاه بالمجيء، فلم يجئ. ثم ارسلنا ندعو الخوري سوتيري، ابن عمة سلطانة، فلم يحضر. فلم أشك أنهم معتصبون عليّ لغرض وهو ان يأخذوني الى البطريرك لأقبل يده وأعده بفتح الكنائس وأطلب منه مطراناً ليكللني في كنيسة مار يعقوب، فثار ثائري واورت عيناي شرراً، ثم انصرفنا خائبين.

السبت في ١٩١٢/١/١٣

... ارسلنا برقية الى يوسف العيسى نسأل الكهنة عندهم (في يافا) هل يكللوني، فأجاب نعم، فركبنا - سلطانة وميليا وأديب وكاتينكو (اخو وأخت سلطانة) وعيسى وأنا - الى يافا، فكللني الكهنة في مساء هذا النهار في بيت عيسى، وكان عيسى اشبيني. وكانت الحفلة حافلة حضرها كثيرون من الاصدقاء والاهل. وقد لقيت من محبة عيسى وكرم اسرته ما يعجز اللسان عن وصفه.

ولما اخذ الناس ينصرفون كان يوسف العيسى اول من قال لسلطانة «أهنئك يا مدام!».

نام الجميع وبقينا أنا وعيسى والفونس لونصو ساهرين إلى الصباح نشرب وعيسى يرقص ويقول: «عمي يا علي!» فنرد عليه «بياع الزيت!».

الاحد في ١٩١٢/١/١٤

سهرنا الى الصباح، ثم اخذنا القطار ورجعنا الى القدس.

أردت ان يكون عرسي بسيطاً لا يدري به احد فأبت الأقدار الا ان تكون له طنة ورنة وأن يكون للنهضة الارثوذكسية دخل فيه، وقد حدثتني نفسي ان انفصل عن الكنيسة.

[انتهى الكتاب الأول ويليه الكتاب الثاني بدءاً من كانون الثاني سنة ١٩١٤، حيث يلاحظ القارئ غياب سنتين كاملتين مفقودة من المذكرات]

نماذج من اليوميات
بخط يد السكاكيني

يوم الاحد في ٩ شباط

40

Sunday Feb 9

حلمت اني في القدس مررت من امام الخمارات وكانت رجلاي تتلويان
تحتي فما صدقت ان وصلت الى دكان الحواش فجلست على كرسي فكان استدعي
تمرت امامي بعض نساء لا تبينتهن فسلمن علي وحملني سلوانا الى امي ثم رأيت
نفسي عند باب الخليل اسير مع فيضي افندي العلمي وكان يمشي امامنا الحاج بكر
الدجاني ثم رأيتني في بيت مطران الانكليز وكان هناك ابنه وخواجا آخر
دعاني فصارعنا معا فغلبتها ثم رأيت نفسي في البيت بين امي واخوتي..
قمت متأخرا وكان البرد شديدا فاستحممت وكان الماء اذا نزل على ارض الغرفة
تجمد حالا ثم افطرنا وبعد الفطور ذهبت الى ما ولتي اوجس واسلي بقراءة
الكتب ولما صارت الساعة الثالثة ذهبنا الى منزل الست سعدى الحاج فمررنا
في طريقنا على صديق بروكلن فتكلمت معي ابنه القنصل. لبثنا في بيت
الست المذكورة الى المساء فزاد زربيو فحدثنا في مواضيع كثيرة ذكرنا في اثنائها العلم
تحته ثم اخذتني الست المذكورة لتريني الغرفة فقالت لنا صاحب المحل
انه سيرد لنا الجواب غدا. رجعنا من هناك وقد امتد رواق الليل فتعشينا
في مطعم امريكي عشاء لم تقبله نفسي ثم رجعنا الى غرفتي فعنيت شايا وجلست
وراء الطاولة اكتب رسالة الى سلطانة الى ان انتصف الليل. رأيت وجهي
في المرآة فوجدته اصفر منتقعا عليه آثار الشيخوخة. كيف لا وقد لقيت
في غربتي هذه ما يجلب الشيب الى الشاب الأحوى.

يوم الاثنين في ١٠ شباط سنة ٩

Monday Feb 10

فقضيت ليلي كله سهران. نمت نوما متقطعا. قمت صباحا خائر القوى فلزمت فراشي النهار كله. فتذكرت أمي وأيام سعادتي فلما تمالكت دمعي. لم أستطع أن أذهب إلى السوق فأشتري طعاما فبقيت بدون أكل إلى أن جاء الياس حيدر في المساء فاشترى لي زبدة فأكلتها. ليتها كانت ساعة سوداء يوم تركت القدس. هكذا فقدت صبري ولم يمر علي ثلاثة أشهر. فمن أين لي جلد على ما بقي. ومن الرجوع وكيف أستطيعه. لما تولى النهار ودخل الليل تذكرت حين كنت أرجع إلى البيت في المساء فأجتمع بأمي وإخوتي ناعم البال مغتبطا كيف تركت تلك السعادة وكفرت بتلك النعمة. تواجهت هنا السعادة كلها لما وقفت بهذا الشتاء. ليس السجين في ظلمات سجنه أضيق مني صدرا وأقل جلدا وأتعس عيشا. ومع هذا كله فلا أستطيع الشكوى فإذا بدأت مني كلمة استضعفوني وعنفوني وإذا وصفت لهم ما أقاسي فكيف يكون حال أمي. أو تقضي أسى. أواه من يستطيع أن يصبر على ما صبرت عليه.. أمسكت قلمي وجعلت أحاول النظم فنظمت

إذا الليل أضواه استهلت مدامعه تبل غليلا قد حوته أضالعه
وبات جريحا لا يقر من الأسى تساوره أحزانه وتنازعه
يراجع ذكرا كان أيام عهده فيهتاجه شوق وتنبو مضاجعه
ويذكر أيام نعيم ظلها وعيشا قد افتضت قديما مراتعه

(٦١)

الرسالة الثانية والعشرون

نيويورك ٤/١/٩٠٨ (السبت)

سلطاني

الساعة الآن الثانية عشرة، الطبيعة هادئة، ونيويورك كلها مستغرقة في النوم الا البواخر التي تمخر بين بروكلن ونيويورك يدوي صوتها من بعيد مدة دقيقة الآن فكأنه خوار البقر، قد حببني في فرصة هذا الهدوء كل شيء، يا أم الأوانا وتلك البواخر. ليتك الآن مستيقظة من نومك أناجيك وتناجيني، (؟) فماذا تستقبلين أشعة الشمس المطلة عليك من كوى غرفتك، كانت أحلامك، وبم تفكرين الآن؟ وحبيبي أرسل إليك تحيتي مع نور الصباح

السلام عليك يا سلطاني

السلام عليك يا نجمة صبحي

السلام عليك يا زهرة

السلام عليك يا ريحانتي

السلام عليك يا كل آمالي

السلام عليك يا سعادتي

السلام على وجهك الوضاح وثغرك البسام الذي تمثله لي

(٦٣)

الشمس حبة تسخم كبد السماء، والنجوم اللوامع حبيبات صغيرة في السماء، والزهور في نيسان،

السلام على قلبك الطاهر الذي يشبه قلوب الملائكة

السلام على اخلاقك العالية وفطرتك السليمة

السلام على هيكلك الجميل الذي يمثل جمال الآلهة

السلام عليك من محب يعذبه البعاد بل عابد يتجلى لك

العبودية

فدى لعينيك عيون الجآذر، ولعطفك اعطاف البان،

ولسانك سنى الكواكب،

ماذا تريدين، وماذا يرضيك، فكلمة منك ترفعني الى

أوج السماء، بكل مستحيل ممكن، وكل صعب سهل، وكل

بعيد قريب

افرش لك عيني وخدي فامشي عليها، افتح لك قلبي فاستوي

على عرشه وتسلمي مقاليده، ابذل لك نفسي فهي لك

لك

انت سلطاني وانا مملوكك في بيعك وشرائك، يا غصني

المزاهر، يا وردتي الجميلة، يا زنبقتي الوارجة يا سوسنتي

اللطيفة، يا شمسي، يا قمري، يا سمائي، يا حبيبتي، يا نعمتي،

فمتعي بنظري، وتجلي بقلبي، وتفقدي بروحي

(٦٢)

أنيري مكان البدر إن أفل البدرُ
وقومي مقام الشمس إن أبطأ الفجرُ

ربي ومولاي فأنت أعلم بذلك، وتحكمي فالحسن قد أعطاكِ
ولك الأمر فاقضي ما أنت قاضيه فعلى الجمال قد ولاكِ،
ذكراك تحييني، وخيالك يهديني، وسرابك يكفيني.

خليل

الرسالة الثالثة والعشرون

نيويورك الأحد ٦/١/١٩٠٨

عزيزتي

غداً عيد الميلاد. غداً تنعكس أشعة الصباح عن صلبان
الكنائس، وزجاج النوافذ، وعن حب الندى المنعقد على
الأشجار وأوراق الأزهار والعشب. غداً تزدحم طرقات بيت لحم
بمواكب الزائرين. غداً تدوي الأجراس في جو القدس. غداً
تجلس العائلات إلى الموائد فتتناول طعام العيد. غداً تنشرح
الوجوه وتبتهج القلوب. غداً يتزاور الناس في البيوت
ويتصافحون في الطرق. غداً تغص الكنائس بالرجال والنساء
والفتيان والأوانس بثياب العيد الجميلة. أما أنا فتحت كومة

نبذة عن حياة خليل السكاكيني (١٨٧٨ - ١٩٥٣)

أديبٌ ومربٍّ فلسطينيّ ولد في مدينة القدس، وتلقّى تعليمه في مدارسها. وقد التحق بعد تخرّجه من مدرسة صهيونَ الإنكليزيةِ بكلية الشباب (الكلية الإنكليزية فيما بعد)، وأنهى سنة ١٨٩٣ دراسته فيها، ثم مارس التعليم في القدس وانتسب إلى جمعية زهرة الآداب التي تأسست سنة ١٨٩٨ برئاسة داود الصيداوي.

غادر السكاكيني فلسطين إلى نيويورك سنة ١٩٠٧، ولكن سوء الظروف المعيشية حالت دون بقائه هناك فعاد إلى فلسطين بعد سنة واحدة. وعمل بعد عودته في تنقيح مسوّدات مجلة الأصمعي لحنّا العيسى، وصحيفة القدس لجورج حبيب حنانيا، كما عمل في تدريس اللغة العربية للأجانب.

أسس المدرسة الدستورية في القدس سنة ١٩٠٩، وكان غرضها تنمية الوعي الوطني بين الطلاب وتهيئة معلمين وطنيين للمستقبل.

قامت السلطات العثمانية بإبعاده عن القدس وإيداعه السجن في دمشق، ثم أطلقت سراحه في كانون الثاني ١٩١٨ بكفالة مالية. وانضم مع بعض رفاقه إلى الثورة العربية الكبرى عند إعلانها، وقصد الأمير فيصل، ثم رحل إلى مصر حيث أقام فيها إلى أوائل سنة ١٩١٩ إذ عاد إلى القدس.

تولى بعد عودته إدارة دار المعلمين في القدس. ولكنه قدّم استقالته بعد تعيين هربرت صموئيل مندوباً سامياً لبريطانيا في فلسطين. ثم غادر القدس إلى القاهرة سنة ١٩٢٠ تلبية لدعوة الجمعية السورية الأرثوذكسية ليتولى إدارة التعليم العربي في مدرسة العبيدية.

وفي سنة ١٩٢٢ عاد إلى القدس ومارس مهنة الصحافة.

وقد عين مفتّشاً عاماً للغة العربية في إدارة معارف فلسطين سنة ١٩٢٦، ثم عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

أسّس في القدس سنة ١٩٣٨ كلية النهضة، وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مطلع سنة ١٩٤٨.

توفي في القاهرة سنة ١٩٥٣، وأطلق اسمه على إحدى مدارس القدس وعلى أحد شوارعها تخليداً لذكراه.

كان السكاكيني في طليعة الروّاد الذين دافعوا عن اللغة العربية. وله عدد من المؤلفات المطبوعة منها: الاحتذاء بحذاء الغير (١٨٩٦)، وفلسطين بعد الحرب الكبرى (١٩٢٠)، ومطالعات في اللغة والأدب (١٩٢٥)، إلى جانب عدد من الكتب المدرسية.

بتصرف عن «الموسوعة الفلسطينية»

"انا لست مسيحياً ولا بوذياً ولا مسلماً ولا يهودياً، كما انني لست عربياً ولا انجليزياً ولا فرنسياً ولا المانياً ولا تركياً، بل انا فرد من افراد هذه الانسانية".

خليل السكاكيني

في يقظتي، في نهاري، وأنا في معترك الحياة الهائل، وأنا أسير في شوارع نيويورك وقرقعة القطارات والترامات على الأرض وفوق الأرض، وعواء البواخر، وضجيج الناس، تصمّ الآذان، وحركة السيارات والعربات تخطف الأبصار، لا أفيق على نفسي إلا محلقا في جو القدس، تارة فوق المدرسة، وتارة فوق المنزل الذي أحبه وأجلّه، وتارة فوق "ارطاس" أو "قالونة" أو "عين كارم" أو "رام الله" أو "بيت جالا".

رسالة إلى سلطانة، نيويورك، ١٣ كانون الأول، ١٩٠٧

يصدر نبل خليل السكاكيني ومأساته عن إيمانه العميق "بالمثقف الراقي" وذلك في مجتمع عضوي، مأخوذ بالعائلة والطائفة. لا يلتفت إلى المثقف ولا يقبل به ولا يعترف بدوره، لأنه يرى في المثقف مساساً بالتقليد الموروث وتعريضاً به، هذا ما يفرض على "المثقف الراقي"، في حال وجوده، أما الانسحاب من المجتمع والاكتفاء بالعزلة، أو الاندماج في تصورات المجتمع ومعاييره، التي تصير المثقف الحديث "كاتباً سلطوياً قديماً".

فيصل دراج

مات خليل، وعادي جداً أن يموت، وليس الاستثناء ان تبقى الدفاتر، فالاستثناء الصاعق أن المكان انقرض، هكذا، حلت عليه لعنة التاريخ، فنزعت ديمغرافياً عن جغرافياها، واسماء عن مسمياتها، وطرد معمار من سياقه، وجرد ت ذاكرة من بيئتها، وسلبت اسواق روائحها واراجيزها وضجيجها. انقرض المكان، أخمدت الحياة وسحقت التفاصيل في ارض الحكاية المسروقة، وبقيت الحكاية الجماعية وملايين الحكايات الشخصية ملاحقة ومحاصرة ومضرجة، فاكتسبت الدفاتر الشائخة الوفية أهمية استثنائية في التدليل على ذاكرة المكان.

أكرم مسلّم

اجمل ما في مذكرات.. السكاكيني هو استحواذه واسترجاعه لآنية اللحظة كما عاشها، ضوضاء الحشود المكتظة في السفينة من الإسكندرية إلى مرسيليا، طعم الخبز المغمس في الطحينة والعسل - فطوره اليومي، ارتعاشه وهو يقرأ رسائل سلطانة في شقته في نيويورك. كل هذه الأمور حدثت مساء الأمس، بل صباح اليوم دونها خليل بعناية في دفتره ثم أطفأ الشمعة ونام عليها. ثم عادت لنا بعد مائة عام وهي مليئة بالحيوية والعنفوان.

سليم تماري

Naufal Group
3 000000 151204